الأستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

موسوعة أسماء الله الحسنى

الجزء الأول



دار المكتبي

مَوْسُوعَةُ
أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى

مَوْسُوعَةُ
أَسْمَاءِ ٱللَّهِ ٱلحُسْنَى

الأستاذ الدكتور
محمد راتب النابلسي

ٱلجُزْءُ ٱلأَوَّلُ

دَارُ ٱلمَكْتَبِي

الطبعة الخامسة
معدلة ومنقحة
1429 هـ - 2008 م

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy
www.almaktabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة المعدلة والمنقحة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا ، وشرع الإسلام وجعل له منهجا ، وأعز أركانه على من غالبه ، فجعله أمناً لمن عقله ، وسلماً لمن دخله ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم عنه ، ونوراً لمن استضاء به ، وفهماً لمن عقل ، ولباً لمن تدبر ، وآية لمن توسم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل ، وراحة لمن فوض ، وجنة لمن صبر .

وانطلاقاً من أن العقيدة أخطر شيء في الدين ، فإن صحّت صحّ العمل ، وسلم الإنسان وسعد ، في الدنيا والآخرة ، وأن الأسماء الحسنى والصفات الفضلى لها موقع الصدارة في العقيدة ، لأن أصل الدين معرفة الله ، ومن المعلوم أن إحصاء الأسماء الحسنى وجمعها من الكتاب والسنة ، قضية لها من الأهمية والمكانة في قلوب المسلمين وهو ما تتطلع إليه نفوس الموحدين ، وتتعلق بها ألسنة الذاكرين ، ويرتقي الطالبون من خلالها مدارج السالكين ، قال ابن القيم : (فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم ، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي أحصى جميع العلوم ، إذ إحصاء أسمائه أصل

لإحصاء كل معلوم ؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها)[١] . لقد أمرنا الله في كتابه العزيز - وكل أمر في القرآن الكريم والسنة الصحيحة يقتضي الوجوب ما لم تكن هناك قرينة تصرفه عن ذلك - أن ندعوه بأسمائه الحسنى ، فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . وقال تعالى أيضاً : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

فعزمت مستعيناً بالله في وقت مضى على شرح أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى في درس أسبوعي عام في جامع العثمان بدمشق ، وقد تلقى المستمعون دروس الأسماء الحسنى بقبول حسن ، فأذيعت في معظم الإذاعات الإسلامية مرات عديدة ، ولما صدرت موسوعة الأسماء الحسنى في مجلدات ثلاثة تلقاها القراء أيضاً بقبول حسن وطبعت طبعات كثيرة وانتشرت هذه الطبعات في معظم البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً ، واشتد الطلب عليها في الجاليات الإسلامية في الدول الغربية ، لأن كل الفلسفات الوضعية والأرضية لم تحقق للإنسان سلامته وسعادته ، ولم يبق إلا الإسلام ، فقد قال أحد العلماء الكبار الغربيين الذين اهتدوا إلى الإسلام : أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور ، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين ، لا لأنهم أقوياء ، ولكن لأن خلاص العالم بالإسلام ، ولكن بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم ، وأن يحسنوا تطبيقه ،

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٧١ .

وأن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر ، وهذا هو سر الإقبال في الشرق والغرب على الكتاب الإسلامي .

وقد نقحت الموسوعة في طبعاتها الكثيرة السابقة تنقيحاً سريعاً ، والتنقيح السريع ، أوالتنقيح المتأني . . . يؤكد ضعف الإنسان فقد كتب أستاذ البلغاء العماد الأصفهاني يقول : أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على معظم البشر .

وكنت قد طلبت من إخوتي القراء بدءاً من الطبعة الأولى ، والطبعات التي تلتها . . . أن يقدموا لي أثمن هدية وهي ملاحظاتهم القيمة ، ونقدهم البناء ، وأكدت لهم أنه ما من أحد أصغر من أن ينقد ، وما من أحد أكبر من أن يُنقد ، إلا صاحب القبة الخضراء . . . وقد استجاب عدد كبير من الإخوة القراء ، فأرسلوا رسائلهم من داخل سورية ومن خارجها ، وقد غلب عليها الثناء والمديح .

بذل المؤلف جهداً واضحاً في تأليفه ، فعرف بالاسم ، وذكر معانيه باللغة ، وكلام أهل العلم ، ثم أتى على التطبيقات العملية لهذا الاسم ، وضرب الأمثلة الكثيرة الموضحة له ، مع ربط ذلك بالواقع ، والاستدلال عليه بالنصوص المتنوعة من الكتاب والسنة والآثار ، ثم أتى على حظ العبد من الاسم وعلاقته به ، وكيف يستفيد من دراسته ، وأثر إيمانه به ، وقد أفاده في ذلك أن أصل مادة الكتاب

دروس علمية ألقاها في المسجد ، فراجعها وحررها ونقحها ، ومن محاسن هذا الكتاب :

١ـ اعتماد المؤلف على الأدلة الكثيرة المتنوعة من الكتاب والسنة ، والآثار المروية عن السلف الصالح .

٢ـ عناية المؤلف بنقل كلام الأئمة في مسائله العلمية التي تطرق إليها .

٣ـ الإكثار من ضرب الأمثلة الحية القريبة ، وربطها بحياة الناس وواقعهم ، وحرصه على تنويعها ، مع الإفادة مما كتبه المعاصرون في هذا المجال .

٤ـ أسلوبه الذي كان في غاية السلاسة والسهولة ، ويعرف ذلك من قرأ هذه الموسوعة ، مع خلوه من الكلمات الغريبة والصعبة والمتكلفة .

٥ـ تنوع ثقافة المؤلف ، وسعة معارفه المعاصرة ، أضفت على كتابه الجدة والواقعية التي ليست بمعزل عن الناس ، وأبعدت عن قارئه السآمة والملل .

وقد وردت من بعض الإخوة القراء بعض الملاحظات السلبية ، والانتقادات البناءة ، يشع منها الإخلاص والمودة ، وقد تلقيتها بموضوعية وامتنان ، وقد أفدت منها ، لأن سيدنا عمر بن الخطاب قال : « أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي » ، علماً بأن الذي يقبل النصيحة ليس أقل أجراً من الذي يسديها ، والسبب في ذلك أن الكتاب لم يؤلف ابتداء ، بل هو في الأصل دروس ألقيت في جامع العثمان بدمشق ارتجالاً ، ثم نقحت وأخرجت إخراجاً مطبوعاً ، بعد

أن كان مسموعاً ، وبناء على ذلك توجهت إلى مراجعة الكتاب مراجعة شاملة دقيقة ، استغرقت سنتين كاملتين ، وتم تنقيحه بفضل الله ومعونته تنقيحاً يسر الصديق .

وكنت حينما شرحت أسماء الله الحسنى قد اعتمدت على الحديث الشريف الذي ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ »[1] . وما أدرج بعده من أسماء الله الحسنى ، وهي ما جمعه راوي الحديث الوليد بن مسلم من الأسماء كتفسير شخصي وباجتهاد منه لحديث الأسماء الآنف الذكر الذي أخرجه البخاري ومسلم ، وهذه الأسماء هي المصدر الوحيد للأسماء لألف سنة خلت... وهي الرَّحمنُ الرَّحيمُ المَلِك القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّر الخَالِقُ البَارِىء المُصَوِّرُ الغَفَّارُ القَهَّارُ الوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الفتَّاحُ العَلِيمُ القَابِضُ البَاسِطُ الخافضُ الرَّافعُ المعزُّ المذل السَّمِيعُ البَصِيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ الحَلِيمُ العَظِيمُ الغَفُورُ الشَّكُورُ العَلِيُّ الكَبِيرُ الحَفِيظُ المُقِيتُ الحَسِيبُ الجَلِيلُ الكَرِيمُ الرَّقِيبُ المُجِيبُ الْوَاسعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ البَاعِثُ الشَّهِيدُ الحَق الوَكِيلُ القَوِيُّ المَتِينُ الوَلِيُّ الحَمِيدُ المُحْصِي المُبْدِيءُ المُعِيدُ المُحْيِي المُمِيتُ الحَيُّ القَيُّومُ الوَاجِدُ المَاجِدُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ القَادِرُ المُقْتَدِرُ المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ البَاطِنُ الوَالِي المُتَعَالِي البَرُّ التَّوَّابُ المنتَقِمُ العَفُوُّ الرَّءُوف مَالِكُ المُلْكِ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَام المُقْسِط

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ٥/ ٥٣٠ (٣٥٠٧) .

الجَامِعُ الغَنِيُّ المُغْنِي المَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الهَادِي البَدِيعُ البَاقِي الوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُور .

وأسأل الله أن يمكنني ـ في المستقبل ـ أن أشرح الأسماء الحسنى في درس مصور ، بعد أن شرحت في درس مسجل ، حتى تأخذ طريقها إلى الفضائيات ، بعد أن أخذت طريقها إلى الإذاعات ، إذ ليس من علم ممتع ، ونافع ، ومسعد ، في الدنيا والآخرة كأن
إلى خالق السماوات والأرض ، رب العالمين ، لا إله إلا هو يحيي ، ويميت وهو على كل شيء قدير ، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

اللهم اجز عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ما هو أهله ، واجز عنا صحابته الكرام ما هم أهله ، واجز عنا والدينا وأساتذتنا ومشايخنا ومن علمنا ومن له حقٌّ علينا ما هم أهله .

أعوذ بك يا رب أنْ يكونَ أحدٌ أسعدَ بما علّمتني منّي ، وأعوذُ بك أنْ أقولَ قولاً فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذُ بك من فتنةِ القولِ ، كما أعوذُ بك من فتنةِ العملِ ، وأعوذ بك أنْ أتكلّف ما لا أحسنُ ، كما أعوذُ بك من العُجبِ مما أحسن .

الأستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين .

وبعد . . . فلهذا الكتاب الذي تم دفعه إلى الطباعة بتوفيق الله ، وعونه . . . قصة!

فلقد تمنى عليَّ بعض الإخوة الكرام قبل عشر سنين أن ألقي درساً أسبوعياً في جامع العثمان بدمشق ، فاستجبت لرغبتهم ، لكنني وقعت في حَيْرَةٍ من حيث اختيارُ موضوع هذا الدرس ، وبعد التأمل والبحث وجدت أن أخطر شيء في الدين العقيدة ، لأنها إن صحت صح العمل ، وإن فسدت فسد العمل .

وقد أخبرنا الصادق المصدوق أنه : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وعملكم مع عملكم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » [متفق عليه عن أبي سعيد] .

أناس فسدت عقيدتهم ، ففسدت أعمالهم ، مرقوا من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية ، تحقر صلاتك مع صلاتهم ، وعبادتك مع عبادتهم .

لقد رغبت أن يكون شرح الأسماء الحسنى ـ إضافة إلى ما كتبه العلماء الأجلاء في مؤلفاتهم عن أسماء الله الحسنى ـ أن يكون الشرح بطريقة تعتمد على آيات الله في الآفاق ، وآيات الله في النفس الإنسانية ، وتعتمد على أفعال الله الدالة على وحدانيته وكماله ، أي إنني رغبت أن تكون آيات الله الكونية ، والتكوينية ، والقرآنية التي هي مظهر لأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، مصدراً أساسياً للشرح ، ولا أدري مبلغ ما وفقت فيه من التعريف بالله رب العالمين من خلال هذه الطريقة ، ولكن الذي أدريه أنني ما ادَّخرتُ وسعاً في تقريب هذه الأسماء من عقول الناس ، وقلوبهم ، فلعلها تكون سبباً في معرفة الله المعرفة الحقة ، التي تنجي من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وتسعد الإنسان في دنياه وأخراه .

وبعد أن تم شرح الأسماء الحسنى في درس أسبوعي في عدد من السنوات على وجه التقريب ، ولاقت قبولاً حسناً في الأوساط الدينية ، وأذيعت مرات عديدة في عدد من الإذاعات الدينية ، في مجموعة من البلاد الإسلامية .

ثم تمنى عليَّ إخوة آخرون أن تفرغ هذه الأشرطة على شكل نصوص تجمع في كتاب ؛ ذلك أن للشريط دوراً في الدعوة إلى الله شديد الأثر ، وأن للكتاب دوراً آخر طويل الأمد ، عندها ولدت فكرة هذا الكتاب ، إذن لم يكن هذا الكتاب تأليفاً ، والتأليف له قواعده الصارمة ، وإنما كان تفريغاً لتسجيلات لدروس عامة ألقيت في مسجد ، والدرس العام له خصائصه التي تعين على نجاحه ، ذلك لأن المتحدث في الدرس العام يواجه أعماراً مختلفة ، وثقافات متعددة ،

ونماذج بشرية متباينة ؛ فلا بد من تبسيط الفكرة ، وعرضها بأسلوب جذاب ، ولا بد من دعمها بأمثلة من واقع الحياة ، وبقصص من صميم المجتمع ، لأن الله جل جلاله أمرنا أن نتفكر في خلقه ، وهذه آياته الكونية ، وأن ننظر إلى أفعاله وهي آياته التكوينية ، وأن نتدبر في كتابه وهي آياته القرآنية ، ثم إن الدين يفسر الحياة بظواهرها الطبيعية ، والحيوية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والفردية ، والجماعية ، ويعطي لسمو الإنسان وانحطاطه تفسيراً ، ولتماسك المجتمع وتفككه تعليلاً ، ثم إنه يوجه الإنسان وهو المخلوق المكرَّم إلى معالم طريق الحياة المثلى التي خلق من أجلها ، والتي تليق بإنسانيته ، والتي فيها حياة قلبه وروحه ، وليس القصد من هذه الدروس التي ألقيت في جامع العثمان بدمشق تقرير حقائق (أكاديمية) فحسب ؛ بقدر ما كان القصد تعريف النفس بربها ، وحملها على طاعته ، كي تسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، فالعبادة طاعة طوعية ، تسبقها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فالإنسان من جبلته ، أنه إذا عرف الآمر ، ثم عرف الأمر ، تفانى في طاعة الآمر ، أما إذا عرف الأمر ، ولم يعرف الآمر ، تفنن في التفلت من أمره ، وهذه مشكلة العالم الإسلامي الأولى ، معرفة الأمر وضعف في معرفة الآمر ، فتعزيز معرفة الآمر ، من خلال معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، هو الهدف الأول من هذا المؤلفَّ .

ولا بد من أن أشكر في نهاية المطاف ، كل الإخوة الكرام الذين ساهموا بشكل أو بآخر في إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود ، فأنا أحبهم وأجلهم ، وأخص بالشكر الذين صمموا برامج الحاسوب التي أفرغت فيها النصوص ، والذين أفرغوا الشريط على الكمبيوتر ،

والذين راجعوا النصوص مع الشريط ، والذين دققوا النصوص لغوياً ، والذين نفذوا التصحيح على الأصل ، ثم الذين نضدوا نصوص الكتاب ، وأخرجوه على الشكل الفني الذي هو عليه ، والذين راجعوا النصوص مراجعة أخيرة ، والذين نفذوا طباعته ، والقائمين على دار المكتبي ، ولا سيما صاحب الدار **الأستاذ محمد غياث مكتبي** ، سواء منهم من أخذ أجرة أو ابتغى أجراً ، إلى كل هؤلاء الذين أسهموا في إخراج هذه الموسوعة إلى حيز التداول ، ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم ، وما ضرهم أني لا أعرف بعضهم إذا كان الله يعرفهم ، إنهم فريق عمل دعوي ، إنهم جميعاً مشمولون بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣] ، وأرجو الله أن أكون واحداً منهم ، وأشْهِدُ الله أنه لن ينالني من هذا الكتاب أي نفع مادي ، ما دمت حياً ، راجياً أن أكون ممن يبتغي وجه الله بعمله ، فلعل الله يقبلنا جميعاً ، ويرحمنا جميعاً .

وأنا أدعو الإخوة القراء . . . أن يقدموا لي أثمن هدية . . . وهي ملحوظاتهم القيمة ، ونقدهم الموضوعي البناء ، فما من أحد أصغر من أن يَنْقُد ، وما من أحد أكبر من أن يُنْقَد ، إلا صاحب القبة الخضراء ﷺ ، الذي عصمه الله جل وعز ، وسيدنا عمر يقول : « أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي » ، وليس الذي يقبل النصيحة بأقل أجراً من الذي يسديها تقرباً إلى الله ، فالدين النصيحة .

ثم إني أدعو الله جل وعلا أن يجزي عنا سيدنا محمداً ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، بشيراً ونذيراً خير ما جزى نبياً عن أمته ، وأن يجزي صحابته الكرام ، وأهل بيته الأخيار ، والطيبين الطاهرين ، الهادين المهديين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ما هم أهله ، وأن

يجزي الله والدينا ، ومشايخنا ، ومن علَّمَنَا ، ومن له حق علينا ، خير الجزاء .

وفي الختام أعوذ بك يا رب أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ، وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك من فتنة القول كما أعوذ بك من فتنة العمل ، وأعوذ بك أن أتكلف ما لا أحسن ، كما أعوذ بك من العجب بما أحسن .

الاستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

تمهيد

أتمنى على القارىء الكريم قبل أن يشرع في قراءة موسوعة أسماء الله الحسنى ، أن يقرأ هذا التمهيد ليُلِمَّ بعدد من الحقائق المتعلقة بمضمون هذه الموسوعة ، كمعنى **الإحصاء** الذي جعله النبي ﷺ سبباً لدخول الجنة ، **والدعاء** بأسماء الله الحسنى الذي جعله الله تعالى سبباً للاستجابة ، وكيف أن الفهم العميق لأسماء الله الحسنى جعله الله تعالى سبباً **لفهم القرآن** الكريم ، وفهمه والعمل به سبب النجاة في الدنيا والآخرة ، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب **لتعظيم الله المنجي من عذاب الله ، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب للتحرر** من سيطرة العباد وقهرهم ، ومعرفة أسماء الله الحسنى باعث قوي على **التوبة النصوح** ، التي هي سبب لسعادة الدَّارَيْن ، وهذا ما سأعالجه في هذا التمهيد للكتاب .

* * *

أخرج البخاري في صحيحه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :

« إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِيْنَ اسْماً مَائَةً إلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ » .

يتضح من هذا الحديث أن أصل الدين معرفته ، فمستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه ، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة ، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره ، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له ، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته ، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه ، وأعجب من هذا علمك أنك لابد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب .

النبي ﷺ ، يقول : « من أحصاها » ، فالإحصاء يختلف عن العدّ ، لقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم : ٩٤] فمن أحصاها فقد استوفاها ، أي إنه لا يقتصر على بعضها ، لكن يدعو الله بها كلها ، ويثني عليه بجميعها ، فيستوجب الجنة ، أو من أطاق القيام بحق هذه الأسماء ، والعمل بمقتضاها ، وهو أن يعقل معانيها ، فيلزم نفسه بواجبها ، ومن معاني « أحصاها » : أنه عرفها على وجه التفصيل ، لأن العارف بها لا يكون إلا مؤمناً ، والمؤمن يدخل الجنة ، وقيل : أحصاها يريد بها وجه الله وإعظامه ، وقيل : معنى أحصاها : **عمل بها** ، فإذا قال : « **الحكيم** » مثلاً سَلَّم لله في جميع أوامره ، في جميع أفعاله ، لأن جميعها مقتضاها الحكمة ، وإذا قال : « **القدوس** » ، استحضر كونه منزهاً عن جميع ما لا يليق بجلاله ، وقال بعض العلماء : معنى أحصاها أي : سلك طريق العمل بها ، فليوطِّن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها ، وما كان يختص بالله تعالى : **كالجبار والعظيم** فيجب على العبد الإقرار بها ،

والخضوع لها ، وعدم التحلي بصفة منها ، وما كان فيه معنى الوعد نقف منه عند الطمع والرغبة ، وما كان فيه معنى الوعيد نقف منه عند الخشية والرهبة ، فهذا معنى أحصاها وحفظها ، ويؤيده أن من حفظها عدّاً ، وأحصاها سرداً ، ولم يعمل بها ، يكون كمن حفظ القرآن ، ولم يعمل بما فيه ، وقال بعضهم : ليس المراد بالإحصاء عدّها ليس غير ، لأَنَّه قد يعدها الفاجر ، وإنما المراد العمل بها .

وقال أبو العباس : يحتمل الإحصاء معنيين أحدهما : أن المراد تَتبُّعها من الكُتاب والسنة ، حتى يحصل عليها ، والثاني : العمل بها ، وتمام الإحصاء أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن بما يقتضيه كل اسم من الأسماء ، فيعبد الله بما يستحقه من الصفات المقدسة التي وجبت لذاته ، قيل : من حصلت له جميع مراتب الإحصاء حصل على الغاية ، قال أبو الحسن القابسي : أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، ولا يدخل فيها القياس ، ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين ، وثبت في السنة أنها تسعة وتسعون ، قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ ﴾

[الأعراف : ١٨٠]

قال أهل التفسير : من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة . وأشار ابن القيم رحمه الله إلى أن الإحصاء مراتب ، وذكر بأنه لو قررنا أن المعنى هو حفظها ، فحفظ القرآن الكريم على سبيل المثال معروف ثواب حفظه ، كما قال ﷺ : « مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة » [رواه

البخاري] ، فلو افترضنا أنَّ منافقاً حافظاً للقرآن ؛ لكنه لا يحل حلاله ولا يحرم حرامه ، فهل ينفعه حفظه للقرآن ؟ وهل تنفعه تلاوته للقرآن ؟ فالقرآن حجة للمرء أو عليه ، فكذلك هذه الأسماء حينما تكون مجرد حفظ فقط لا ينفعه حفظها ، لكن يحفظها ، ويتأمل معانيها ، ويلزم نفسه بمقتضياتها .

* * *

لقد أمر الله تبارك وتعالى عباده بأن يدعوه بأسمائه فقال : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ ، وفي القرآن الكريم في مواضع عدة أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن جمع من أنبيائه أنهم يدعونه عز وجل بأسمائه وصفاته ، كقوله تعالىٰ : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، ونرىٰ ذلك في السنة ، فيما نقل عن النبي ﷺ من أدعية دعا بها ، أو أمرنا أن ندعو بها ، نجد كثيراً من النصوص فيها الدعاء بالأسماء والصفات ، ومن ذلك قوله ﷺ :

« ما أصاب أحداً قط هم ، ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكلِّ اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله عز وجل همه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً » ، قالوا : يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن [رواه أحمد والبزار وأبو يعلىٰ وابن حبان في صحيحه والحاكم بسند صحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه] .

والدعاء بأسماء الله وصفاته ينبغي أن يتناسب مع ما يدعو به المسلم ، كما قال أحد العلماء : « يطلب بكل اسم ما يليق به ، تقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رزّاق ارزقني ، يا هادي اهدني » .

وقال ابن القيم : « يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب ، فيكون السائل متوسلاً بذلك الاسم ، ومن تأمل أدعية الرسل وجدها مطابقة لهذا » .

* * *

حين تتأمل كتاب الله عز وجل لا تكاد تفقد الحديث عن الأسماء والصفات ؛ ففي كل سورة من السور ، بل كل صفحة من الصفحات ، تجد سرداً لأسماء الله عز وجل ، أو صفاته ، أو حديثاً عن عظمة الله سبحانه وتعالى ، وأحياناً تأتي تعقيباً على آية من الآيات في وعد ، أو وعيد ، أو حكم شرعي ، أو عن أنبيائه ورسله ، أو حديثاً عن المكذبين الضالين ، فلماذا هذا الحديث المستفيض في القرآن الكريم عن الأسماء والصفات ؟ أليس هذا موحياً بأهمية الأسماء ؟ ثم أليس موحياً بأن هناك واجباً آخر ينبغي أن نسعى إلى تحقيقه ؟ وألا نقف عند مجرد الإثبات وحده ، وهو أمر مهم ، بل الانحراف فيه ضلال . ثم إننا كثيراً ما نجد الآيات تختم بالأسماء والصفات ، وهي تختم ختماً مناسباً بمعنى ما دلت عليه الآية ، عبد الله بن مالك عن الأصمعي قال :

سمع الفرزدق رجلاً يقرأ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم فقال : لا ينبغي أن يكون هذا

هكذا! قال : فقيل له : إنما هو (عزيز حكيم) قال : هكذا ينبغي أن يكون .

وروي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : (والله حكيم عزيز) والأعرابي لا يحفظ القرآن فقال الأعرابي : ما أراها أنزلت كما تقول! فقال القارىء : (والله عزيز حكيم) فقال الأعرابي : نعم ! عزَّ فلما عزَّ حكم ، لهذا تجد ختم الآية مناسباً لمعناها ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] إذاً ختم الآيات بالأسماء والصفات يعطينا دلالة على الارتباط بين الاسم والصفة ، وبين ما سبق في الآية ، ثم تجد عجباً حينما تتأمل الفرق بين ما قد يبدو لنا أنها أسماء مترادفة ، وهي ليست كذلك ، فأحياناً يأتي (غفور رحيم) وأحياناً (غفور حليم) وبينهما فرق دقيق ، وأحياناً (عليم حكيم) وأحياناً (عليم حليم) وبينهما فرق دقيق ، ولو قرأت في كتب التفسير لوجدت عجباً في ذلك .

* * *

ومعرفة الأسماء الحسنى ، والصفات الفضلى سبب لتعظيم الله سبحانه وتعالى ، ذلك أن المسلم الذي يعلم أن الله حليم كريم ، وأنه عزَّ وجل غفور رحيم ، وأنه شديد العقاب ، بطشه شديد ، وكيده متين ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون ، وحينما يعلم أن الله سميع بصير ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء ، حين يعلم هذه الأسماء وتلك الصفات ، فإنه يزداد تعظيماً له سبحانه وتعالى ، ويزداد خضوعاً له ، فيسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

* * *

فالمسلم حينما يعلم أسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلىٰ ، يستهين بالمخلوقين ، ويشعر أن المخلوق لا يساوي شيئاً ، بل انظر إلى أثر هذا الأمر عند هود عليه السلام ، حينما عاداه قومه ردَّ عليهم مستهيناً بجبروتهم ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ٥٣] فعلم هود أنهم قوم لا يعرفون إلا منطق التحدي ، فقال لهم متحدياً :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ـ ٥٦] .

إن علمه بأن نواصي العباد بيد الله هو الذي دفعه إلى أن يستهين بجبروتهم وببطشهم . وحين يدرك المسلم أن نواصي العباد بين يدي الله عز وجل يشعر أن المخلوق لا يساوي شيئاً ؛ فلا يمكن أن يتوجه إلى المخلوق ، ولا يرجو منه نفعاً ولا نوالاً ، ولا يخشىٰ منه منعاً ولا بطشاً .

* * *

حينما يعلم المسلم أن الله تعالىٰ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ، وحينما يعلم أن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فيعطىٰ ؟ هل من داع فيستجاب له ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ حتى ينفجر الفجر ، حينها يقبل على الله عز وجل ، ويتوب إليه يشعر أن الله رحيم رؤوف وأنه سيقبل التوبة .

أرجو الله جل وعلا أن يوفق قراء هذه الموسوعة لمزيد من

معرفة الله تعالى فهي أصل الدين ، ولمزيد من الالتزام بأمره ونهيه ، فهو أصل العمل الصالح ، وهما أصل سعادة الدارين .

* * *

المَلِكُ

إن من أسماء الله الحسنى : المَلِك ، « وإن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » [رواه البخاري] ، قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] .

وعند السادة الشافعية يجب أن يقرأ المصلي في الركعة الأولى : مالك يوم الدين ، وفي الركعة الثانية : مَلِك يوم الدين(١) ، وقد ورد هذا الاسم في آية أخرى قال تعالى :

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] .

وفي آية رابعة قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

---

(١) الحديث رواه أبو داود بسند صحيح من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها ذكرت ـ أو كلمة غيرها ـ قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، ملك يوم الدين ، يقطع قراءته آية آية .

وفي آية خامسة قال تعالى :

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٨٣] .

تعريف الملِك :

القدرة على التصرف ، إذاً هو من أسماء الذات ، ويمكن أن يكون من أسماء الأفعال ، ومعناه المتصرف .

قرأ مالك بن دينار في الكتب أن الله يقول :

« أنا ملك الملوك ، ومالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، وإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإنِ العبادُ عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة . . . فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإنّ صلاحهم بصلاحكم » .

الله : ملك بل مالك الملوك ، ومعنى هذا أن أي شيء يُملَّك : مالكه الله سبحانه وتعالى ، وقال بعض العلماء : الملك هو الذي يحكم ولا يملك ، والمالك هو الذي يملك ولا يحكم ، والله سبحانه وتعالى مالك وملك .

أحياناً يملك الإنسان الشيء ولا ينتفع به ، وليس من حقه أن يتصرف فيه ، وأحياناً ينتفع به ويتصرف فيه ولا يملكه ، وأحياناً يملك الشيء وينتفع به ، ويتصرف فيه ، وليس المصير له .

مثال : بيت يملكه إنسان ملكاً حراً شرعياً ، يسكنه ، ويملكه ، وينتفع به ، فإن صدر قرار استملاك فلا يكون مصيره إليه ، إذاً إذا قلنا : إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك فهو يملك الشيء ،

ويتصرف به ، ومصيره إليه ، فتكون أعلى درجات الملكية هي ملكية الله سبحانه وتعالى .

سئل أعرابي يملك قطيعاً من الإبل : لمن هذه ؟ قال : لله في يدي ، فالمؤمن الصادق : بيته ، متجره ، سيارته ، خبرته ، مكانته ، شهاداته ، يراها بملك الله عز وجل .

مثال : أعلى طبيب في اختصاصه ، إذا تجمدت خثرة في دماغه ، يفقد ذاكرته فمصيره إلى مستشفى المجانين ، إذاً مَن مالك الملك ؟ الله سبحانه وتعالى .

هذه العين التي ترى بها ، من مالكها ؟ الله سبحانه وتعالى ، هذه الأذن ، هذا اللسان ، هذه الحركة ، هذه القوة ، أيْ : مِن لوازم الإيمان أن ترى أن كل شيء بحوزتك هو ملك لله عزوجل سمح لك أن تتصرف به .

لمن هذه الأرض ؟ لله في يدي ، وبيتك لله في يدك ، ومتجرك لله في يدك ، مركبتك لله في يدك .

الآن إذا قلنا : فلان مَلِك ، هل نقصد بها حقيقةً أم مجازاً ؟ العلماء قالوا : لا يمكن أن يملك حقيقةً إلا الله ، وأيُّ وصف للملكية لغير الله فهو على سبيل المجاز فقط ، لأن الملك هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود ، فهل من ملك يستغني في ذاته عن كل موجود ؟ ألا يستنشق الهواء ، ألا يشرب ، ألا يأكل ، ألا يشعر بحاجته إلى النوم ، ألا يخاف ، ألا يحزن ، ألا يتمنى أن يكون له أعوان كثر ، إذاً أي إنسان مفتقر في وجوده وفي صفاته إلى إنسان آخر ، لا يمكن أن يكون ملكِاً حقيقياً ، الملك الحقيقي هو الله ـ

عز وجل ـ ، وإذا سمينا فلاناً ملكاً فهو من باب المجاز .

المَلِكُ الحقيقي الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاجه كل موجود ، بل لا يستغني عنه شيء في شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ، فهو ملك في ذاته ، في وجوده ، في صفاته ، مستغنٍ عن كل شيء ، بحاجة إليه كل شيء ، هذا هو الوصف الدقيق للملك ولا يستحقه إلا الله عز وجل ، إذاً الملك الحقيقي هو الله ، وكل من يصف نفسه : أنه ملك ، أو مالك هذه الدار ، أو مالك هذه الدكان ، أو مالك هذه التجارة ، أو صاحب هذه الشركة ، هذا من باب المجاز ، اعرف حجمك الحقيقي ، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده .

الله سبحانه وتعالى : مالك مُمَلِّك ، والشخص الذي لا يستطيع أن يملِكَكَ فليس مَلِكاً ، فمن لوازم هذا الاسم أن الله مالك مملك ، والدليل قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

والمُلْك الحقيقي هو أن يَمْلِكَ هواه ولايَمْلِكُه هواه ، والذي أُعتِق من أَسْرِ نفسه ، وليس مُلْكاً لنفسه ، قال تعالى :

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[يوسف : ١٠١]

هذه الآية دقيقة جداً : سيدنا يوسف يصف بأنَّ الله قد آتاه الملك : أيَّ مُلْكٍ آتاه! لم يكن أميناً على خزائن الأرض فحسب ، بل آتاه الله

كذلك الملك الحقيقي ، فهذا الملك الذي يؤتيه الله لمن يشاء ، ملك زائل ، وليس مزية يفتخر بها ، فما الملك الحقيقي ؟ هو أنه مَلَكَ نفسه ، لمجرد أن قال : معاذ الله . . . حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال ، حينما قالت : « هيت لك » قال : « معاذ الله » ، هذا هو الملك الحقيقي ، الملك الذي لا يزول ، الملك الذي تسعد به إلى الأبد ، أن تملك نفسك ولا تَمْلِكُك ، أن ينقاد لك هواك ولا تنقاد له ، إذا انقاد لك هواك وسيطرت عليه فأنت ملك ، إذا سيطرت على نفسك فأنت ملك ، إذا ملكت زمام نفسك فأنت مَلِك ، إذا سيطرت على شهواتك فأنت ملك ، إذا قدت نفسك إلى طريق الخير والسعادة فأنت ملك ، أما إذا قادتك نفسك إلى الضلال والشهوات والمعاصي والآثام فأنت مملوك ، إذا قادك عقلك أنت ملك ، إذا قادك هواك فأنت مملوك ، وشتان بين أن تكون مَلِكاً وبين أن تكون مَمْلوكاً .

أحد أكبر زعماء أوروبة ، في الحقبة السابقة ، والذي حقق انتصاراً ساحقاً في الحرب العالمية الثانية ، له كلمة لا أنساها ، قال : ملكنا العالم . . . ولم نملك أنفسنا ، نحن ضعاف أمام أنفسنا . شخصية كبيرة تغريه امرأة تعمل معه ، تنهار نفسه أمام فتنتها . إذاً أنت مملوك ، كل أهل الدنيا عندهم نقطتا ضعف مدمرتان : المال والنساء ، أَيْ : يملك أشياء كثيرة وله اطلاع واسع ، له قدرات عجيبة ، ومع ذلك المرأة والدرهم والدينار تمتلكه ، إذاً هو مملوك .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ » [سنن ابن ماجه] .

المملوك من كان في خدمة المال ، ولم يجعل المال في خدمته ،

المال أصلاً مُسخر لك ، لكنك سُخِّرت له ، فأنت عبد له ، تعس عبد الفرج ، تعس عبد البطن ، تعس عبد الخميصة (أي الثوب) أي أنت مملوك .

إذا قرأتم هذه الآية ترنموا بها : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الملك الحقيقي أن تملك نفسك لا أن تملكك ، أن ينقاد لك هواك لا أن تنقاد له ، أن تسيطر على شهواتك ، أن تكون مع الحق حيث كان الحق ، أن تكون وقَّافاً عند كتاب الله ، أن تعترف بالحق الذي لغيرك عليك ، وإن كان مُرّاً ، هذه هي البطولة الحقيقية ، هذا ما اتجه إليه معظم المفسرين في قوله تعالى : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

بعضهم قال : المَلِكُ : الذي ملك قلوب العابدين فأقلقها ، والحقيقة أن الإنسان منذ أن عرف الله عز وجل ، أو منذ أن بدأ في معرفة الله ، دخل في دوَّامة الحب ، أصبح مشغولاً ، أصبح عظيماً ، بعد أن كان تافهاً ، فالمؤمن قلق ، لا ينزاح عنه قلقه ، حتى يلقى الله عز وجل ، هل اللهُ راض عني ؟ هل عملي وفق ما يرضي الله ؟ هل الله يحبني ؟ هل في عملي إخلاص ؟ هل في عملي زيغ ؟ هل هناك ما أرجوه غير الله عز وجل ؟

ومَلَكَ قلوبَ العارفين فأحرقها ، المَلِكُ مَنْ إذا شاءَ مَلَّك ، ومن إذا شاء أهلك :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] .

إذا أعطى أدهش ، وإذا حاسب فتّش ، أعطانا قبل سنوات أمطاراً

غزيرة أخرجتْ سبعين ضعفاً عن إنتاج السنوات السابقة من القمح ، وإذا انحبست أمطار السماء ، فَمَنْ في الأرض كلها يستطيع أن يصدر قراراً بإنزال المطر ؟! ولو اجتمعت الأمم كلها ، المجالس كلها ، والقيادات كلها ، وإذا انحبست الأمطار مات الزرع ، وتبعه الضرع ، وتبعه الإنسان .

فنحن عبيد ، لأننا مفتقرون إلى ماء السماء :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ [الملك : ٣٠] .

اللهُ سبحانه وتعالى المَلِكُ ، من إذا شاء ملّك ، وإن شاء أهلك ، الملك الحق من لاينازعه معارض ، لا معارضون ، لا مُشَوشون منتقدون ، ولا يمانعه ناقد ، فهو في تقديره منفرد ، وبتدبيره متوحِّد ، ليس لأمره مرد ، ولا لحكمه ردّ ، والمَلِكُ من دار بحكمه الفلك .

ذكر الله تعالى في آية واحدة خمسة بنود للملكية ، قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

العلماء فسروا المُلْك أنه ملك الآخرة ، كما فسَّروه أنه ملك الدنيا ، فإذا كنت مؤمناً ، مستقيماً ، صادقاً مخلصاً ، لك عمل طيب فأنت ملك ، ولكن مِن ملوك الدار الآخرة ، يوم لا ينفع مال ، ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ؟ والإمام علي يقول : « **الغنى والفقر بعد العرض على الله** » ، وقال سبحانه : ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ ولكن ما معنى : من تشاء ؟ إذا قال الله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ما معنى : يهدي من يشاء ؟ يعني : من شاء الهداية هداه الله ، ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ : من شاء الضلالة أضله الله ،

فالهداية والضلالة ، أصلهما هداية جزائية ، أو ضلال جزائي ، مبني على هداية أو ضلال اختياريين ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] .

تؤتي الملك من تشاء : تؤتي الهداية من شاءها ، وتنزع الملك ممن تشاء : رفض الدين ، رفض رحمة رب العالمين ، رفض وعده العظيم ، أراد الدنيا ، أراد شهواتها ، ينصرف الإنسان إلى الملاهي ، إلى شهواته ، إلى معاصيه ، إلى انحرافاته .

بالمناسبة مُلْك الدنيا : يؤتيه الله لمن يحب ولمن لا يحب ، وأما مُلك الآخرة فلا يؤتيه إلا لمن يحب .

المعنى الثاني : ملك الدنيا ، الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

مَن مَلَّكَكَ هذا البيت ؟ الله سبحانه وتعالى ، لمن كان هذا البيت ؟ لفلان ، كيف باعه ؟ ضاقت به الأمور فباعه ، من الذي جعلك خليفة له في هذا البيت ؟ الله سبحانه وتعالى ، هذا العمل من ولاّك إياه ؟ الله سبحانه وتعالى ، لماذا عُزِل فلان ؟ بحكمة الله وتقديره ، إذاً المعنى الآخر : تؤتي الملك مَنْ تشاء ، المعنى الدنيوي ، الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ما الحكمة ؟ لماذا أعطى فلاناً ومنع فلاناً ؟ ومَلَّكَ فلاناً ونزع من فلان ؟ لماذا رفع فلاناً وخفض فلاناً ؟ الجواب : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ يمتحنك بالغنى وبالفقر ،

بالصحة وبالمرض ، بالقوة وبالضعف ، فإذا كان هذا العبد متمرداً فما الجواب ؟ قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ فإذا كان طائعاً فما الجواب ؟ ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه : ٨٢] .

إذاً : جعلكم خلائف الأرض ، ووزع الحظوظ توزيع ابتلاء ، وسوف تُوَزَّعُ في الآخرة توزيع جزاء ، إذاً هو مالك الملك : إما أن يُمَلِّكك ملك الآخرة ، أو ملك الدنيا ، أو ملك الآخرة والدنيا .

ماأحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا   وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ دخلنا في باب العز والذل ، هنالك شيء دقيق جداً : إذا أعزك الله سخر لك أعداءك ، وإذا أراد الله أن يذل عبداً ما ، أذله أقرب الناس اليه ، ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] :

اجعل لربك كل عـز   ك يستقـرُّ ويثبُـت

فإذا اعتززت بمن يمو   ت فإن عـزك ميّـت

إذاً من لوازم أن الله مَلِك أنه هو الذي يعز وهو الذي يذل ، فكن مع العزيز .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا   فإنّا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا واحتَمِ بجنابنا   لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

بيدك الخير ، إذاً فالذلُّ خير ، ونزع المُلكِ خير ، ولكن يسمى شراً من وجهة نظر الإنسان .

تولج الليل في النهار ، تصريف الكون ، تسيير الكون ، الأرض تدور حول الشمس ، بمدار إهليلجي بيضوي ، مَن يجعلها على

مسارها تماماً ؟ هل في الكون كله قوة تستطيع أن تجعلها على مسارها لو خرجت ؟ إنها إن خرجت انتهت ، وجذبتها كواكب أخرى !؛

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

يمسكها على مسارها ، إذا خرج القطار عن سِكَّته ، طفل رضيع أو نملة صغيرة أو ذبابة حقيرة هل بإمكانها أن تعيده إلى السكة ؟ ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ ﴾ مَن جعل الأرض تسير في الثانية ٣٠ كم ؟ مَن جعلها تدور في الساعة ١٦٠٠ كم ؟ مَن جعلها بهذا الحجم ؟ من جعل بُعْدَها عن الشمس بهذه المسافة ؟ هذا من اسم الله : الملك .

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٧] .

ظاهرة توالد الإنسان ، تكاثر الحيوان ، ظاهرة النبات ، وتكاثره ، ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ : بذرة الزيتون تبدو لك قطعة من الخشب كامن فيها شجرة بقوة هذه البذور ، هذه أنماط الحياة ، دورة الحياة ، الشجرة يابسة في الشتاء كأنها خشب ، يأتيها الربيع فإذا هي خضراء .

مرة طلب سيدنا عمر من سيدنا عمرو بن العاص أن يصف له مصر وكان بليغاً ، قال :

« يا أمير المؤمنين! مصر طولها شهر ، وعرضها عشر ، (يعني طولها مسيرة شهر وعرضها مسيرة عشرة أيام) ، يخط وسطها نهر ميمون الغَدَوات ، مبارك الرَّوْحات ، يا أمير المؤمنين بينما هي عنبرة سوداء (ترابها أسود اللون لخصوبته) إذا هي درَّة بيضاء (طوفان

النيل) إذا هي زبرجدة خضراء ، فتبارك الله الفعَّال لما يشاء » .

[النجوم الزاهرة لابن تغري بردي]

وصف مصر في الشتاء ، وفي فيضان النيل ، وفي الربيع ، والصيف ، وصف طولها ، ووصف عرضها .

إذاً مِن معاني الملك أنه يقلب الليل والنهار ، ويخرج الحيَّ من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن معاني أنه يخرج الميت من الحي ، والحي من الميت : أن الكافر قد يلد مؤمناً ، وأن المؤمن قد يلد كافراً .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود : ٤٥ـ٤٦] .

آخر بند في المُلْكية : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قد يرزق الإنسان الضعيف ، وقد يفقر القوي الذكي ، لذلك التجار يقولون : ليس عند الله تاجر ذكي ، ومن دعاء المؤمنين على الكافرين « **اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم** » فالكافرُ يدبر فإذا هو يدمر نفسه . « ولا ينفع ذا الجد منك الجد »(١) .

هناك سؤال : هل يَمْلِكُ العبد بالتمليك ، لو أنّ إنساناً ملَّكك شيئاً هل تملكه ، كيف نناقش هذه الفكرة ؟ مالك هذه الدار ، هذه المركبة ، تملَّكَ بالثبوتيات تملكاً كاملاً ، هذا كلام نقوله نحن ، لكنْ

---

(١) من دعاء النبي ﷺ.. ففيما رواه البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كلِّ صلاة مكتوبة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

هناك غلط كبير في هذا الكلام ، العلماء قالوا بالحرف الواحد : الأصح أن الإنسان لا يملك ! لماذا ؟ لأن استقلاله بالتصرف في شيء ما فرع من كونه مستقلاً في نفسه ، فإذا كان العبد لا استقلال له في نفسه ، وذاته البتة ، فكيف يكون مستقلاً في تصرفه في غيره ؟ ولهذا قال ربنا عزوجل مُعلماً رسولاً ومن بعده عباده :

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

[الأعراف : ١٨٨]

إذا كان النبيُّ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، أفيملك النفع والضر للآخرين ؟ الجواب لا ، مِن باب أولى ، إذا كنتُ عاجزاً عن هداية ابني ! فهل بإمكاني أن أهدي ابنك ؟ مستحيل! لذلك فالكلام القطعي والثابت أن الله سبحانه وتعالى هو المَلِك الحقيقي ، وأن الإنسان إذا ملك فملكيَّةٌ مجازية ، فمثلاً ؛ قد يقول لك مستخدم في وزارة الخارجية : والله عيَّنَّا فلاناً سفيراً ! هذا كلام مجازي ، إنَّ الذي عين فعلاً ليس المستخدم بل الوزير ، أمَّا في الحقيقة المطلقة : الذي مَلَّكَ هذا الإنسان هذا المنصب ، هو الله سبحانه وتعالى .

العبد مثلاً متى يكون مسافراً ؟ إذا سافر سيده ، متى يكون مقيماً ؟ إذا أقام سيده ، هل للعبد استقلال في حركته عن سيده ؟ لا ، إذاً كلام قطعي : يجب أن تشعر وأنت تملك أوراق الملكية للبيت أن هذا البيت ملك الله عز وجل ، وفي أية لحظة يمكن أن تبيعه ، قد يتعطل جهاز بالجسم ، فيقال لك : هذه العملية تكلفتها ٨٠٠ ألف ليرة ومصاريف سفر وإقامة ، وبالعملة الصعبة ، والنتيجة بيتك ثمن

للعملية ، فتعرضه للبيع ، فسبحان مالك الملك .

ومثل آخر : كلية تكلفة زراعتها مليون ليرة ، وكل شيء تملكه ثمن لهذه العملية ، صمام القلب كلفته نصف مليون ليرة ، فالإنسان إذا عافاه الله فهو غني وغني بالمعنى الحقيقي .

هناك موضوع دقيق بعض الشيء ، وقبل الوصول إليه ، يقول تعالى :

﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل : ٧٥] .

إذا كان العبد مملوكاً لا يقدر على شيء ، فهل يكون مالكاً ؟ أَيْ : متصرفاً في ملك الآخرين ، هذا مستحيل ! لكن مابال الآية الكريمة تقول :

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الروم : ٤] .

فتبصَّر يا أخي المؤمن ، الأمر دائماً بيد الله فكيف نفسر قوله تعالى :

﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار : ١٩] .

الآن ، الأمر لله ، وفي آية أخرى : ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ ، وفي آية أخرى :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾

[الأنعام : ٦٢]

وفي آية أخرى :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] .

وفي الدنيا لمن الحكم ؟ أليس الحكم لله ؟ بلى .

مثال آخر :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

وكما يقول الله تعالى :

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

بيدِ مَنْ كانت إذاً ؟ هنا العلماء وقفوا وقفة رائعة قالوا : الحقيقة أَنَّ الأمر بيد الله من قبل ومن بعد ، والحقيقة أن الحكم لله دائماً ، والحقيقة أنه إليه يرجع الأمر كله دائماً ، لكنِ الكفار ، الغافلون ، الشاردون ، الضعاف ؛ يرون أنَّ الأمر بيد زيد أو عبيد في الدنيا ، والحكم بيد فلان والأمر بيد علان ، أما إذا كان يوم الدين كل الخلائق قاطبة ترى أن الأمر بيد الله ، وأَن الحكم لله ، وأنه إلى الله تصير الأمور ، فالبطولة أَنْ ترى هذا الشيء في الوقت المناسب .

إذاً حتى الكفار والشاردون ، وحتى أعتى الكفرة ، سوف يرون أن الأمر بيد الله ، وأَنَّ الحكم لله ، وأَنَّه إليه يرجع الأَمر كله ، ولكنهم في الدنيا لا يرون الله عز وجل ، يرون أولياء من دونه ، يرون مراكز القوى في الحياة هم يعبدونها من دون الله ، ويوم القيامة يرون الحقيقة .

إذاً القضية قضية وقت فقط ، إما أن ترى الحق في الوقت المناسب قبل أن يفاجئك الموت ، أو لابد أن تراه يوم القيامة فتكون الحسرة أية حسرة ، إذاً البطولة لا أن تنتظر إلى أن ترى مع الآخرين الحقائق ، البطولة أن ترى الحقيقة في الوقت المناسب ، كي تستفيد منها .

هناك شيء آخر : لماذا لا يكون العبد مالكاً مطلقاً ؟ قيل : لأنه لايستغني عن كل شيء : فلو افترضنا أنّ ملكاً عظيماً يستغني عن كل أفراد رعيته ، فهل يستغني عن الهواء أو عن الماء أو عن الطعام أو عن الزواج ؟ لذلك حين طلب هارون الرشيد الخليفة العباسي الذي ترامت أطراف دولته إلى أقاصي الدنيا ، كأس ماء ، قال له ابن السماك وكان واعظاً ذكياً : يا أمير المؤمنين! بكم تشتري هذا الكأس لو منع عنك ؟ قال : بنصف ملكي ، قال فاشرب هنيئاً فلما شرب قال : أرأيت لو منعت خروجه بكم كنت تشتري ؟ قال : بنصف ملكي الآخر ، قال : إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء وقيمة نصفه الآخر بولةٌ ، لخليق أن لا يتنافس فيه ، فبكىٰ الرشيد [البداية والنهاية ١٠/ ٢١٥ ، تاريخ بغداد ٨/١٤ تاريخ الخلفاء ٢٩٣ وابن السماك : محمد بن صبيح أبو العباس الواعظ] .

في بعض متاحف القاهرة فرعون من فراعنة مصر الكبار اسمه توت عنخ آمون كشفت مقبرته بأكملها ، كما دفن معه طبعاً من الذهب والحلي والأغراض مالا سبيل إلى وصفه ، ولكن وقفت عند نقطة واحدة : أن هذا الملك مات شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، حيث إنّ التابوت قصير جداً ، والجثة قصيرة جداً ، قلت وقتها : سبحان الله ! مهما كان الإنسان مالكاً ، ولديه من الثروات مالديه تبقى

الحياة بيد الله عز وجل ، فمصر كلها كانت بيده ، مقدرات مصر كلها بيده ، ومع ذلك توفاه الله في الثامنة عشرة من عمره ، فالمقبرة عامرة بالذهب ، وبشتى أنواع الحلي ، وبشيء تحار فيه العيون ، ومع ذلك مات في سن مبكرة ، فما أغنى عنه مالُه ، ولارَدَّ الموت ملكه ، إنه مُلك ، ولكنّه عارية .

قال بعض الأمراء لبعض الصالحين وقد التقيا يوماً : سلني حاجتك ؟ فقال له الصالح : إليَّ تقول ؟! قال الأمير : نعم ، قال الصالح : لي عبدان هما سيداك ، قال الأمير : ومن هما ؟ قال الصالح : الحرص والأمل ؛ الحرص على الدنيا والأمل المديد هما عبدان عندي ، وهما سيداك ، فقد غلبتُهما وغلبَاك ، وملكتُهما وملكاك ، فالإنسان يكون ملكاً إذا سيطر على شهواته .

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة ومعهما أصحاب لهم حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقي عطاء بن يسار قائماً في المنزل يصلي .

قال : فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة ، فأوجز في صلاته ثم قال : ألك حاجة ؟ قالت : نعم! قال : ما هي ؟ قالت : قم فأصب مني فإني قد ودقت ولا بعل لي . . فقال : إليك عني لا تحرقييني ونفسك بالنار .

ونظر إلى امرأة جميلة فجعلت تراوده عن نفسه ويأبى إلا ما يريد ، قال : فجعل عطاء يبكي ويقول : ويحك! إليك عني! قال : فاشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة

لبكائه قال فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي! فبينما هم كذلك إذا جاء سليمان من حاجته .

ولبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة قال وكان أسن منه .

قال ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء الله فبينا عطاء ذات ليلة نائم إذا استيقظ وهو يبكي ، فقال سليمان : ما يبكيك يا أخي ؟ قال : فاشتد بكاؤه ، قال : ما يبكيك يا أخي ؟ قال رؤيا رأيتها الليلة قال : وما هي ؟ قال : لا تخبر أحداً ما دمت حياً ، رأيت يوسف النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه فلما رأيت حسنه بكيت فنظر إليَّ في الناس فقال ما يبكيك أيها الرجل ؟ فقلت : بأبي أنت وأمي يا نبي الله! ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتليت به من أمرها وما لقيت من السجن وفرقة يعقوب فبكيت من ذلك وجعلت أتعجب منه! قال : فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء فعرفت الذي أراد فبكيت واستيقظت باكياً .

قال سليمان : أي أخي! وما كان من حال المرأة ، فقص عليه عطاء القصة ، فما أخبر بها سليمان أحد حتى مات عطاء فحدث بها بعده امرأة من أهله قال وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت إسماعيل بن يسار رضي الله عنهما .

هذا هو الملك الحقيقي عندما تطيع الله عز وجل .

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته سبحان من جعل الملوك

عبيداً بالمعصية وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له ، إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين ، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً ، فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه : إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

فالحقيقة هي : مَن تحقق مِن ملك سيده كأنه ملك كل ملك سيده .

حُكي عن شقيق البلخي أنه قال : كان ابتداء توبتي أن رأيت غلاماً في سَنَةِ قحطٍ يمرح زهواً والناس تعلوهم كآبة ، فقلت له : ياهذا ما هذا المرح ؟ ألا تستحي ؟ أما ترى ما فيه الناس من المحن . ؟ فقال : لا يحق لي أن أحزن ولسيدي قرية مملوكة أدخر فيها كل ما أحتاج ، فقلت في نفسي : إن هذا العبد لمخلوق ولا يستوحش ، لأن لسيده قرية مملوكة ومولاه مخلوق فقير ، فكيف يصحُّ أن أستوحش أنا وسيدي مالك الملوك ، فانتبهت وتبت ـ الغلام لقَّنه درساً في التوبة ـ إذاً بعضهم يقول : دبِّر أو لا تدبر ، فالمدبر هو الله سبحانه :

كن عن همومك معرضا	وكِلِ الأمور إلى القضا
وابشر بخيرٍ عاجل	تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخط	لك في عواقبه رضا
ولربما ضاق المضيـ	ـق وربما اتسع الفضا
الله يفعل ما يشا	ء فلا تكن معترضا
الله عودك الجميـ	ـل فقس على ما قد مضى

* * *

ومن رائق الشعر قولهم :

ولرُبّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكنت أظنها لا تُفرجُ

سمعت أنه نزلت في إيطاليا في عام من الأعوام أمطارٌ في ليلة واحدة تعادل أمطار العام بأكملِهِ وفي لحظة واحدة ، فإن الله عز وجل قادر على أن يرزقنا مطراً غزيراً يصبح المعدل فوق المعدل الطبيعي ، ولو تأخر المطر ، فالأمر بيد الله عز وجل ، لكن لا تنسوا أنَّ تقليل الله عز وجل للماء تقليل تأديب لا تقليل عجز .

من آداب الإيمان بأن الله هو الملك ، أن يكون العبد بما في يَدَيِ الله أوثق منه مما في يديه ، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مما في يديك ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، إذا أردت أن تكون أكرم الناس منزلةً فاتق الله .

حاتم الأصم كان صائماً يوماً ، فلما أمسى قُدِّم إليه فطوره ، فجاء سائل فدفع ذلك الفطور إليه ، فَحُمِلَ إليه في الوقت ذاته طبق عليه كل ألوان الأطعمة ، فأتاه سائل آخر فدفع إليه كل ذلك ، ففتح بصره فإذا دنانير في الوقت نفسه بين يديه ، فلم يتمالك أن صاح : الغوث من الخَلفِ ، وكان في جيرانه من يسمى « خلفاً » ، فتسارع الناس إليه وقالوا : يا أخي ؟ لمَ تُؤذي الشيخ ؟! وما زالوا به حتى جاؤوا به إلى الشيخ وقالوا : هذا خَلَف جاءك معتذراً ، فقال : إني لم أعْنِهِ أبداً إنما عجزت عن شكر الله عز وجل على ما يعاملني به من الخلف ، فكلما أنفقت شيئاً أعطاني الله خيراً منه .

عن أنس قال : بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتاً في المدينة فقالت : ما هذا ؟ فقالوا : عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شيء فكانت سبعمائة بعير فارتجت المدينة من الصوت فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً .

فبلغ ذلك عبدالرحمن بن عوف فقال : إن استطعت لأدخلنها قائما فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله(١) .

من عرف أَنَّ الملك هو الله وحده : أنِفَ أن يتذلل لمخلوق ؛ وقال بعضهم : أيجمل بالحرِّ أن يتذلل للعبيد وهو يجد من مولاه ما يريد ؟! أُطلبْ تعطَ ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، أيليق بك وقد عرفت أنَّ الله هو الملك ، ولا ملك سواه أن تتذلل لسواه ؟ مَنْ عرف الله لم يحتج إلى عَوْنِ المخلوقين وفتنتهم ، وبذا تستغني عن الناس ، والاستئناس بالناس من علامات الإفلاس .

عن أبي الحسين الحمادى القاضي قال : سمعت الفتح بن شخرف يقول : رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم فقلت له يا أمير المؤمنين أوصني قال لي « ما أحسن تواضع الأغنياء

---

(١) رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني وفيه عمارة بن زاذان ضعفه النسائي والدارقطني . وقد شهد عبد الرحمن بن عوف بدراً والحديبية وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة وصلى خلفه .

قاله الإمام الذهبي في السير [١/ ٧٧] وقال : وبكلٍّ حالٍ فلو تأخر عبد الرحمن بن عوف للحساب ودخل الجنة حبواً على سبيل الاستعارة وضرب المثل فإن منزلته في الجنة ليست بدون منزلة علي والزبير .

للفقراء وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء » قال : فقلت له : زدني فأومأ إليَّ بكفه فإذا فيه مكتوب

قـد كنـت ميتـاً فصـرت حيـا وعـن قليـل تصيـر ميتـا
أغنـى بـدار الفنـاء بيـت فـابـنِ بـدار البقـاء بيتـا

وإذا وثقت بالله عزوجل الله لا يخيبك ، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه ودخل النار .

وكان أمية الشامي يقول : « ألا إن المطيع لله ملك في الدنيا والآخرة » قيل لبعض الشيوخ : أوصني ، فقال : كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة ، فقال : وكيف أفعل ذلك ؟ قال : ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الدنيا ، استغنِ عن الرجل تكن نظيره ، واحتج إليه تكن أسيره ، أحسن إليه تكن أميره ، فإن كنت ملكاً في الدنيا كنت ملكاً في الآخرة .

سئل الحسن البصري : بمَ نلت هذا المقام ؟ قال : باستغنائي عن دنيا الناس ، وحاجتهم إلى علمي .

قال سفيان بن عيينة : بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا برجل مشرف على الناس حسن الشيب فقلنا بعضنا لبعض ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم ، قال : فاتبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين ، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قلنا له : وماذا قال ربنا ؟ قال ربكم : أنا الملك أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً ، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قلنا له : وماذا قال ربنا يرحمك الله ؟ قال : قال ربكم أنا

الحي الذي لا يموت ، أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون ، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قلنا : ماذا قال ربنا ؟ حدثنا يرحمك الله! قال : قال ربكم أنا الذي إذا أردت شيئاً كان أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم ، قال ابن عيينة ثم ذهب فلم نره .

كأن الله عز وجل يقول للإنسان حين يدخل القبر :

« عبدي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبقَ لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت » .

قال : ألم تسمع ربك يقول : أنا الحي الذي لا أموت ، فإن أطعتموني جعلتكم أحياء لاتموتون في جنة عرضها السموات والأرض ، أنا الملك الذي لا أزول ، هلموا أطيعوني أجعلكم ملوكاً لا تزولون ، ملوك الدار الآخرة ، أنا الملك الذي إذا أردت شيئاً قلت له كن فيكون ، هلموا أطيعوني أجعلكم كذلك ، أي : كلما دعوتموني أجبكم ، كلما سألتموني أعطيتكم ، أنا عند ظنكم : **« ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه »** .

هذه بعض التعريفات والآداب والحدود في شأن اسم الله الملك .

* * *

القُدُّوسُ

قال تعالى :

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر : ٢٣] .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

[الجمعة : ١]

وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم الجليل ، أودُّ أن أقف وقفة يسيرة عند حقيقة مهمة :

كلكم يعلم أن الجماد كائن يشغل حيزاً ، له طول ، وعرض ، وارتفاع ، وله وزن ، وله حجم . . هناك نقطة ، النقطة ليس لها حجم ، فإذا تحركت شكلت خطاً ، فإذا تحرك الخط شكَّل سطحاً ، فإذا تحرك السطح شكل حجماً . . نقطة ، خط ، سطح ، حجم .

الجماد يشكل حجماً ، له طول ، وعرض ، وارتفاع ، ووزن ، أما النبات ، فيشغل حيّزاً ، وينمو ، أما الحيوان فيشغل حيزاً ، وينمو ويتحرك ، أما الإنسان فيشغل حيزاً ، وينمو ويتحرك ، ويفكر ، ففي اللحظة التي يعطل فيها الإنسان فكره ، يكون قد ألغى إنسانيته ، وعاد إلى طور البهيمية . . يعني مَن كانت حياته طعاماً وشراباً ، ومُتعاً مباحة

وغير مباحة ، وعملاً ومالاً ، دون أن يفكر في الذي خلقه ، في الذي أوجده ، ودون أن يفكر من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ فما قيمة الإنسان الذي يعطل فكره أو يستخدمه في غير ما خُلق له ؟ يعني : من الممكن أن تشتري حاسوباً متطوراً بعشرات الملايين ، وتضعه في زاوية البيت ، وتضع عليه حاجاتك ، وكأنه طاولة ، أليس هذا تعطيلاً له ؟!.. أن تستخدم جهازاً بالغ التعقيد ، يعطيك ـ لو أعملته ـ معلومات بالغة الدقة أفتستخدمه كطاولة ؟

الذي يعطل عقله ، أو يستخدمه في غير ما خُلق له ، فهذا الإنسان ألغى إنسانيته ، وتحركت فيه حيوانيته .

ذكرتُ هذه المقدمة ، من أجل أن تعلموا أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان قوةً إدراكية.. فما الذي يجب أن يدركه بها ، ما الموضوع ؟ هنا السؤال .

قرأت قبل فترة ، أن ما يُطبع في العالم في اليوم الواحد وبلغة واحدة ، لا يستطيع الإنسان أن يقرأه في أقل من مئتي عامٍ ، إذاً هناك موضوعات لا تُعد ولا تُحصى.. ماالذي آخذُ ، وما الذي أدعُ ؟.. ما الذي أقرأُ ، وما الذي لا أقرأ ؟.. ما الذي أطلع عليه ، وما الذي أهمله ؟ هذه أسئلة خطيرة .

إذاً لابد من الاصطفاء ، لابد من أن تصطفي الموضوع الخطير والمعنى الخطير ، الذي له علاقة بمصيرك .

إنسان في غرفة جدرانها الأربعة مملوءة كتباً من الأرض حتى السقف ، وبعد أيام عنده فحص مصيري ، إن نجح في هذا الامتحان سوف يترتب على نجاحه مكتسبات كثيرة ، في هذه المكتبة كلها كتاب

واحد مقرر ، له علاقة بهذا الامتحان ، إذاً من البديهي أن يدع كل هذه الكتب ، وأن يقرأ هذا الكتاب .

إذاً فالإنسان أُودعت فيه قوة الإدراك ، وأُودع فيه العقل .

إن سألتموني عن أعظم شيء خلقه الله في الكون ، أَقُلْ لكم : العقل ، لأنه مناط التكليف ، لولا هذا العقل الذي أودعه فيك ما كلفك ، والعقل وسيلة معرفة الله عز وجل .

قلنا سابقاً : هناك مشكلة يَحلُّها طلب العلم ، والنفوس من طبيعة واحدة ، ولو أن أيَّ إنسان بعيد عن الله عز وجل عرف ما عرف المؤمن لأقبل على الله كما يقبل المؤمن ، لو أن أي إنسان عرف ما عرفه رسول الله لأحب الله كما أحبه رسول الله ﷺ ، النفوس واحدة ، والدليل ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[النساء : ١] .

فالناس كلهم من طبيعة واحدة ، من جِبِلَّةٍ واحدة ، لهم خصائص واحدة ، فما دامت طبيعة النفس واحدة ، فالتفاوت إذاً في ماذا ؟ . . في العلم . .

لذلك قالوا : يفعل الجاهل في نفسه ما لا يفعله عدوه به . .

مزارع عنده بيوت محمية ، مزروعة نباتاً ، له ريع كبير ، وقُدِّر ريعُها في الموسم الواحد بما يزيد على مئتي ألف ليرة ، فاشترى دواءً كيميائياً ، واستخدمه دون تعليمات الصانع ـ ضاعف الكمية ـ ورشَّه . كل هذا النبات مات من فوره ، وخسر الموسم كله ، فهذا

الإنسان الجاهل ، إذ لم يقرأ التعليمات ، فعل في نفسه ما لا يفعله عدوه به .

إذاً الأزمة أزمة معرفة ، أزمة علم . . والمشكلة الأخطر ؛ أن الإنسان حينما يأتيه الموت سيعرف كل شيء ، وسينكشف له كل شيء ، وسيرى الحقيقة ، وسوف ينكشف له الغطاء . . لقد رأى فرعون ما رآه سيدنا موسى ، ولكن بعد فوات الأوان .

فالمشكلة إذاً أن المعرفة ينبغي أن تكون في الوقت المناسب ، وأن تعرف ما يناسب في الوقت المناسب ، ينبغي أن تصطفي من كل المعارف والمعلومات الشّيء المناسب ، وأن تعرفه في الوقت المناسب .

والسؤال الجديد الآن : لماذا يجب أن نعرف الله ؟ . . أليس هو غني عن المعرفة ؟ قال تعالى :

﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

« . . يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . . » [أخرجه مسلم والترمذي] .

لماذا نعرف الله ؟ . . نعرفه من أجل أن نعبده ، ولن تعبده إلا إذا عرفته ، ولماذا نعبده ؟ . . مِن أجل أن نسعد به ، مِن أجل أن يتحقق الهدف مِن خلقِنا ، قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٩] .

إذاً نعرفه ، فنعبده ، فنسعد به . . ولهذا قال ربنا عز وجل :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وإياك أن تغفل عن هذه الآية أبد دهرك !

العبادة كما تعرفون : طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تُفضي إلى سعادة أبدية .

من بين ملايين ملايين ملايين ملايين ملايين إلى أن ينقطع النَفَسُ . . من بين ملايين ملايين الموضوعات ، ما الموضوع الأكثر أهميةً ؟ أن تعرف الله عز وجل ، لأنه كما ورد في الأثر : يُنادى من يوضعُ في القبرِ أول ليلةٍ :

« عبدي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحيُّ الذي لا يموت » .

يجب أن تعرفه لأن المصير إليه ، لأنك راجع إليه ، لأنك ستأتيه فرداً تتخلى عن كل شيء ، كل المكتسبات التي حصَّلتها في العمر تفقدها في ثانية واحدة ، ليس لك إلا الله !

ورد في الأثر :

« يا قيس! إن لك قريناً يدفن معك وهو حي ، وتدفن معه وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك » .

إذاً من بين ملايين الموضوعات ، ليس منها موضوع أكثر أهمية ، من أن تعرف الله عز وجل ، ولعلك عرفت من قبلُ أنه خالق ، وعرفت أنه رب ، وعرفت أنه الإله الحق ، وعرفت طرفاً من أسمائه الحسنى ، بفضل الله ، وتوفيقه ، والآن نحن في جولة

متواضعة ، حول اسم جليل من أسماء الله الحسنى ، ألا وهو اسم القُدّوس .

تعلَّمنا في الجامعة ؛ أن المدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يتكلم حديثاً ، بأسلوب طليٍّ ، جذاب ، ممتع ، غني ، لفترة طويلة دون تحضير ، فهناك معلومات، عَقَلَها ، تَمَثَّلها ، تفاعل معها ، عاشها ، أصبحت في ذاكرته . أصبحت تجري مع دمه ، فإذا أراد أن يتكلم ، فاللسان طليق ، والموضوع جذاب ، إذاً ألا ينبغي إن سُئلت : ماذا تعرف عن الله ؟ عن الذي خلقك ، عن الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد ؟ ألا ينبغي أن تجيب إجابة شافية ؟ قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

الذي أنعم عليك بنعمة الإمداد ، أعطاك الهواء ، أعطاك الماء ، أعطاك الغذاء ، أعطاك الأهل ، أعطاك الأولاد ، أعطاك العقل تجني به المعارف ، كما تجني به المال ، وغير المال ، وأنعم عليك مرةً ثالثة بنعمة الإرشاد ، هداك إليه ، لو أنك سُئلت : ماذا تعرف عن الله ؟ . . ألا ينبغي أن يكون الحديث عن الله سلساً جذّاباً ممتعاً طلياً ؟ هنا السؤال .

فحينما عزمتُ وبالله التوفيق على أن أتناول أسماء الله الحسنى ، كان القصدُ ، أن نعرف الله عز وجل ، لأن المعرفة لابد من أن تنعكس انضباطاً في السلوك ، والتزاماً عند حدود الشرع ، أنا لا أصدق أبداً أن يتعلم الإنسان شيئاً لا ينتفع به ، لأن الإنسان حينما يقرأ يتفاعل ، وحينما يتعلم يتمنى أن يقطف ثمار هذا العلم .

الاسم الجليل من أسماء الله الحسنى الذي نحن بصدده في

الصفحات التالية هو اسم « القدوس » ، ورد هذا الاسم في آيتين قرآنيتين ، ورد في قوله تعالى :

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر : ٢٣] .

وورد في قوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

[الجمعة : ١]

القُدُّوس : على وزن فُعُّول ، وهو من القدس ، والقُدُس : الطهارة والتقديس هو التطهير ، والأرض المقدسة : الأرض المطهرة ، وسُميت الجنة حظيرة القُدُس ، لأنها مطهرة من آفات الدنيا ، وسُمي سيدنا جبريل روح القدس ، لأنه طاهر من العيوب في تبليغ الوحي ، وفي قوله تعالى حكايةً عن الملائكة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] .

ما معنى : ونقدس لك ؟ يعني يا ربِّ! نحن نطهِّر أنفسنا ، ونقدِّسها كي نكون أهلاً للإقبال عليك ، وهذه مهمة الإنسان في الدنيا ، يجب أن يقدس نفسه كي ينال مقعد صدق ، عند مليك مقتدر .

كلكم يعلم أنه إذا دُعي إلى حفل كريم ، أو إلى لقاء خطير ، أو إلى مقابلة كريمة ، كيف يعتني الإنسان بمظهره ، بثيابه ، بألوان ثيابه ، بكل حركاته وسكناته ، فلذلك الملائكة يقولون :

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

هل تصدقون أن مهمة الإنسان في الدنيا ؛ أن يطهر نفسه كي تغدو مؤهلة لتكون في جوار الله في الجنة ، لأن الله طيب ، ولا يقبل إلاّ طيباً .

الإنسان يطلي بيته ، يرى مثلاً أن مدخل البيت يحتاج إلى تعديل فيعدّله ، يرتب غرفة الاستقبال ، يزيِّن مركبته ، يتأنّق في لباسه لماذا ؟ . . هذا منظر الخلق . . والقلب منظر الربِّ . (ونحن نسبح بحمدك ونقدِّس لك) .

إذاً يجب أن يكون شغلك الشاغل أن تطهِّر نفسك ؛ كي يُسمح لك أن تكون مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، يوم القيامة ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً .

النقطة الدقيقة في هذا الدرس ، والتي ربما تحتاج إلى شرح ، أنه جاء في تعريف هذا الاسم الجليل : أن القدُّوس هو المنزَّه عن كل وصف ، من أوصاف الكمال ، هنا المشكلة . . ؟ ما هذا ؟ إنه كلامٌ خطير وغير مألوف ؟! . جواب هذا الكلام أن الإنسان حينما أدرك ذاته ، رأى في نفسه كمالات ونواقص ؛ العلم كمال ، الحلم كمال ، الصبر كمال ، السمع ، البصر ، الإرادة ، الحياة هذه كمالات . . الجهل نقص ، العمى نقص ، الصمم نقص ، الخرس نقص ، اللؤم نقص ، الحقد نقص ، الضجر نقص . . فالإنسان رأى أن هناك كمالات ، وهناك نواقص ، فلما أراد أن يثني على الله عز وجل نسب إلى الله عز وجل الكمالات التي يعرفها هو ، إنّ الله سبحانه وتعالى « القدُّوس » منزهٌ عن الكمالات التي يتصورها الإنسان لنفسه ، فكلُّ

ما خطر ببالك عن الله فالله بخلاف ذلك ، قال تعالى :

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

الله عز وجل ليس كالأب ، ولا كالمعلم ، أعظم من ذلك ، الله رحيم كما يرحم الأب ابنه ؟ لا . . فالأب أحياناً يرحم ابنه رحمة دون علم فيورده المهالك ، لكن الله رحيم عليم ، فرحمته سبحانه وتعالى مرتبطة بعلم .

لذلك لما أراد الإنسانُ أن يثني على الله عز وجل فقد أثنى عليه بصفات الكمالات البشرية ، فقال : الله سبحانه وتعالى « قدوس » ، أي : منزَّه عن كل وصف من صفات الكمال البشري ، هو أعظم من ذلك ، هو منزه عن صفات كمال الناس ، ومن باب أولى منزه عن صفات النقائص ، بل إنه منزه عن كل صفة تُتصور للخلق ، كل شيء تصوره الإنسان عن الله عز وجل فهو منزه عن هذه الصفات .

فمثلاً : من معاني « الله أكبر » ، أنّ كل ما عَرفتَ عن الله عز وجل ، فالله أكبر من ذلك ، أكبر مما عرفت ، هذا معنى ، كذلك فإن « القدوس » منزَّه ومقدس عن كل صفة يمكن لإنسان أن يتصورها ، منزه ومقدس عن كل صفة تشبه صفات الإنسان وتماثلها ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى سمح للإنسان أن يصفه بصفات كمال البشر ، لكان وصفه بصفات كمال البشر ذنباً من الذنوب ، تقول : الله رحيم ، تقول : الله عادل ، الله لطيف ، الله حليم ، إذا قلت : الله حليم ؛ فلعله يدور بخَلَدك أن الإنسان قد يحلم ، فقد يُستفز فلا يغضب ، هكذا . . هو قدوس عن هذه الأوهام ، وعن هذه الصفات . . فهل صارت واضحة هذه ؟ أَقبلتموها ؟

رجل من العارفين بالله قال لعارف آخر : يافلان ، ألا تشتاق إلى الله عز وجل ؟ ومِنْ أمتع ما في الحياة مذاكرة العلم ، عالم بالله سأل عالماً بالله آخر : ألا تشتاق إلى الله ؟.. فقال : لا والله لا أشتاق إليه.. أعوذ بالله ما هذا الكلام ؟ قال : لا والله لا أشتاق إليه ، قال الآخر : ما هذا الكلام ؟! فأجابه : متى غاب عني حتى أشتاق إليه ؟.. متى غاب عني ؟!

ومـن عجـبٍ أنـي أحـنُّ إليهـم وأسأل عنهم من أرى وهم معي

وآخر يسأل : يا إمام متى كان الله ؟ قال : ومتى لم يكن ؟.. متى لم يكن حتى تقول لي متى كان الله ؟ .

الآن مرحلة أخرى القدُّوس هو المنزه عن كل وصف يدركه الحس ، عن كل تصور يتصوره الخيال ، أو يسبق إليه الوهم ، أو يختلج به الضّمير ، أو يقضي به التّفكير.. أمّا أن تّقول : منزّه عن العيوب والنّقائص ، فإنّ هذا يقترب من باب قلّة الأدب مع الله عزّ وجل ، أو من باب ترك الأدب .

بربك! لو كنت في حضرة إنسان عظيم ، وقلت له : يا سيدي حدّثتُ الناس عنك ، قال : فماذا قلت لهم ؟ قال : قلت لهم : إن جنابك لست بكاذب! ما هذا ؟ أيقبل هذا ؟ هل تمدح ملكاً بأنه ليس كاذباً ؟ قال العلماء : هذا من ترك الأدب ، ألم تر في الملك شيئاً إيجابياً ، حتى نفيت عنه الكذب ، وهناك قاعدة : إنّ نفي الشيء أحد فروع تصوره ، إذا نفيت عن جهة نقيصةً ، إذاً بالإمكان أن تقع منه هذه النقيصة ، نفي الشيء أحد فروع تصوّره ، إذاً من ترك الأدب أن

تقول : الله سبحانه وتعالى منزّه عن النقائص ، منزّه عن العيوب ، هذا من ترك الأدب .

من تعريفات اسم « القدُّوس » أن القدوس مَن تقدستْ عن الحاجات ذاتُه ، أمّا أنت فمحتاج ، أنت فقير ، كل شخصيتك ، وعلمك وذكائك ، وقوة هيمنتك على الناس ، وجلدك ، كل هذه الصفات تتلاشى أمام شربة ماء في ساعةِ ظمأ .

قال ابن السماك : يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنِعَتْ عنك ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : فإذا مُنع إخراج الماء ؟ قال : بنصف ملكي الآخر .

أنت مُحتاج إلى الهواء ، فلو مُنع منك الهواء لاشتريته بكنوزِ الدنيا .

هذا الذي كان يقطع الصحارى ، يجتاز الصحراء على ناقة عليها زاده وطعامه وشرابه ، تعب من السفر ، جلس ليستريح فنام ، فلما أفاق لم يجد الناقة وعليها طعامه وشرابه ، وهو في عُرض الصحراء ، فأيقن بالهلاك ، من شدة البكاء أخذته سنة من النوم ، أفاق فرأى عن بعد شجرةً ، فأشرق في نفسه نور من الأمل ، هُرِعَ نحو الشجرة ، فإذا إلى جانبها بركة ماء شرب منها حتى ارتوى ، ثم تولى إلى الظل ، فإذا كيس مملوء ، ففرح به فرحاً عظيماً ، وهو يحسب أن فيه خبزاً ، ولكنْ يا للأسف ، لقد فتح الكيس فلم يجد فيه إلا لآلىء ، فصاح : وا أسفاه هذه لآلىء ، اللآلىء لها قيمة في المدينة ؟ لو كان في الكيس خبز ! أما وقد منع منه الخبز يقول : واأسفاه هذه ليرات ذهبية . ماذا أفعل بها في الصحراء ؟

في الحرب العالمية الثانية كما سمعت : الرغيف بيع بليرة ذهبية .

إذاً فالإنسان ضعيف ، مفتقر إلى الهواء ، مفتقر إلى الماء ، مفتقر إلى الخبز ، مفتقر إلى الأهل ، مفتقر إلى من يؤنسه ، مفتقر إلى من يحبه ، أنت فقير في الأصل ، قال تعالى :

﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] .

القُدُّوس : مَن تقدستْ عن الحاجات ذاته ، صَمَد ، وتنزهتْ عن الآفات صفاته .

والقدُّوس : من تقدس عن مكان يحويه ، لا يحويه مكان ، وعن زمان يبليه .

القدوس عزيز لا يرتقي إلى تصويره وَهْمٌ ، ولا يطمع في جواز تقديره فَهْم ، ولا تنبسط في ملكه يد من دون تقدير .

هو قدُّوس في ذاته ، لكنَّهُ يقدّس عباده الطائعين .

أقول لكم هذه الكلمة : فلان مقدس ، المقدس هو الطاهر ، تقديس بلا طهارة كلام فارغ ، فلان مقدس أيْ : مستقيم ، عفيف ، طاهر ، سليم الصدر ، نياته طيبة ، ليس في قلبه غلٌّ ، ولا حقد ، ولا غشٌّ ولا تخونه عينه ، ولا يسبقه لسانه ، ولا يعطي أذنه لهجر القول ، لا يُقدَّس الإنسان إلا إذا تنزه عن النقائص .

والقدُّوس مَن قدَّس نفوس الأبرار عن المعاصي ، وأخذ الأشرار بالنواصي .

القدُّوس من قدس قلوب أوليائه ؛ فكلُّ إنسان له قلب صنوبري ، لا أعتقد أن إنساناً على وجه الأرض ليس له قلب ، لكنْ هناك قلب كالجوهر وقلب كالحجر .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

لكنِ كلما اقترب الانسان من الله عز وجل ، صار ذا قلبٍ كبير ، ذا قلب صافٍ ، قلبٍ ممتلىءٍ حباً لله عز وجل .

الفرق كبير جداً بين قلب وقلب ، قلب يلامس السماء رفعة ، وقلب يلامس الحضيض ضَعَةً ، قلب كالجوهر صفا ماؤه ورقّ ، وقلب عكر كَدِر ، القلوب أنواع ، والقلب بيت الرب ، ومحصلة إيمانك كله هذا القلب :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ـ٨٩] .

لابد أن يسعى الإنسان إلى تطهير قلبه من كل درن ، وأن يسعى إلى تحليته بكل كمال .

قال العلماء : القدُّوس مَن قدَّس قلوب أوليائه عن السكون إلى المألوفات ، الإنسان مستهلَك ، طعامه ، وشرابه ، وبيته ، وأولاده ، ورزقه ، ودكانه ومتجره ، ومعمله ، ووظيفته ، ومكانته ، وصحته ، وقلبه ، وشرايينه ، مستهلَك ، فهموم الدنيا تستهلكه ، لكنَّ قلبَ العابد مُستَهلِك وليس مستَهلَكاً ، يستهلك الدنيا بمعرفة الله ، ولا يسمح لها أن تستهلكه ، المؤمن يقود هواه ولا ينقاد له ، المؤمن يسيطر على نفسه ، ولا يسمح لها بالسيطرة عليه ، المؤمن يحتكم إلى القيَم ، ويحكِّمها ، ولا يسخِّرها ، ولا يسخَرُ منها ، المؤمن له مرتبة أخلاقية لا يهبط عنها ، وله مرتبة علمية لا يزيغ عنها ، وله مرتبة جمالية ، المؤمن شخصية فذة .

قال العلماء : القدُّوس من طهَّر نفوس العابدين بإبعادهم عن دنس المخالفات واتباع الشهوات ، والقدُّوس من طهّر قلوب الزاهدين من حب الدنيا ، والقدُّوس من طهّر قلوب العارفين مما سواه. . طهر قلوب العابدين ، وطهّر قلوب الزاهدين .

فالعابدون متصفون بطاعة الله ، مقبلون على عبادته ، متحرِّقون إلى الإقبال عليه .

والزاهدون مقيمون على الاكتفاء بوعد الله ، معرضون عما يوجب التهمة من ضمان الله كفايتَهم .

إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مِمّا في يديك .

إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، ربنا عز وجل قال :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل : ٧٩] .

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

مشاعر القهر ، مشاعر الخنوع ، أحاسيس الذل ، لا يعرفها المؤمن الذي يعرف أَنَّ أمره كله بيد الله ، وأن الله صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى .

لذلك ، النبي الكريم ﷺ كان يقول عند الكرب :

« لا إله إلا الله العليم الحكيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم » [متفق عليه] .

لا إله إلا اللهُ كلُّ شيء بيدك يا رب ، وأنت رحمن رحيم . .

لذلك لا يحزن قارىء القرآن ، قارىء القرآن لا يمكن أن يحزن ، لأنه يعلم ـ من خلال القرآن ـ أن الأمر كله بيد الله ، كن فيكون ، ليس عند الإنسان محلات أقفرت ، وشواغر خَلِيَتْ ، والمِلاك وظائفه امتلأت ، هذه المرتبة انحجزت ، المهمة مثلاً أَخذها ثلاثة ، وبقي مئة موظف عُطلاً ، عند الإنسان كل أمر محدود ، وكله مقنن ، أما ربنا عز وجل ففضله واسع عظيم .

العارفون إذا قاموا قاموا بالله ، وإن نطقوا نطقوا بالله ، وإن سكتوا سكتوا لله ، فكيفما دارت أوقاتهم ، وتغيرت أحوالهم ، فالغالب على قلوبهم ذِكر الله عز وجل .

أومؤمن أنت ؟ أوَعاهدت الله عز وجل ؟ في السراء والضراء ، في الغنى والفقر ، في الصحة والمرض ، في عمل وبلا عمل ، في زواج وبلا زواج ، لك بيت أو بلا بيت ، فلعلّ الله أن يصلك :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

قال بعض العارفين : أذاقنا الله مما أذاقهم شمة ، إنه ولي كل نعمة .

أجل ، طعم القرب ، فمن ذاق عرف ، إنّ الحديث عن القرب شيء ، والذوق شيء آخر ، وفرق كبير جداً بين أن تقول : ألف مليون دينار ذهبي ، وبين أن تملكها .

وبعد ، فما علاقتنا ـ نحن المؤمنين ـ بهذا الاسم ؟ قالوا : من عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات ، فإذا كنت تَطمع أن

تكون مع الله دائماً ، فعليك أن تنزِّه نفسك عن الذنوب والعيوب ، وعما سوى الله كي يقبلك علاَّم الغيوب .

إذاً من عرف هذا الاسم فلابد من أن يطهِّر نفسه عن متابعة الشهوات لعله يقارب مرتبة الإحسان : اعبد الله كأنك تراه ، خوفاً ، حباً ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . وهذا حال المراقبة .

قال العلماء : مَن عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات ، وطهر ماله عن الحرام والشبهات ، ومن عرف هذا الاسم طهر وقته عن دنس المخالفات . . قال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك احرص على أن يراك حيث أمرك ، وأن يفقدك حيث نهاك ، في وقت مجلس العلم أين أنت ؟ في بيت الله . . في وقت صلاة الجمعة أين أنت ؟ . . فيما بين الفجر والشمس أين أنت ؟ على السرير أم في مصلاك ؟ يجب أن يراك حيث أمرك ، وأن يفقدك حيث نهاك ، في هذه الطرقات المزدحمة بالنساء الكاسيات العاريات ، هل أنت في هذا الطريق ؟ لا والله ، أنت في بيت من بيوت الله .

كما قال العلماء : مَن عرف هذا الاسم طهَّر وقته من دنس المخالفات ، وطهر قلبه من مسلك الغفلات ، وطهر روحه من فتور المساكنات .

فالمساكنات أن يركن إلى الزوجة ، يركن إلى أولاده ، أن يؤثرهم على مرضاة الله عز وجل . . يقولون : ابق قاعداً معنا الآن ، كفاك دروساً ، أما شبعت دروساً ، يركن إلى الأهل والأولاد ، يركن إلى نزهة أعاقته عن مجلس علم ، لكن من عرف هذا الاسم طهَّر نفسه من متابعة الشهوات ، طهر ماله عن الحرام والشبهات ، طهر وقته من

دنس المخالفات ، طهر قلبه من مسالك المخالفات ، طهر روحه من فتور المساكنات ، طهر سرَّه من الملاحظات والالتفاتات . . فلان يراني ؟ . . دخل المسجد ليصلي لقي إخواناً له في المسجد .

قام ليصلي بخشوع . . لا . .

روى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن عبيد قال : خرج النبي ﷺ **فقال : « أيها الناس إياكم وشرك السرائر قالوا : يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر »** .

لا تلاحظ الخلق أبداً ، لاحظ الخالق ، هؤلاء لا ينفعونك أبداً ، أنت لك عند الله مكانة ، لا يرفعها مدح المادحين ، ولا يخفضها ذم الذامين .

أضرب لك هذا المثل ، وأنا أردده كثيراً : معك كيلو معدن ، هو ذهب ، ظنه الناس معدناً خسيساً ، فلن تضارَّ فيه ، وثمنه موجود ، وأما لو كان معك كيلو من المعدن الخسيس ، بذكاء بارع ، وطلاقة لسان ، وقدرة إقناع ، أقنعت الناس أنه ذهب ، فلن ينفعك إقناعك لهم شيئاً ، لا إن اقتنعوا بأن الخسيس ذهب تربح ، ولا إن اتهموك بأن ذهبك خسيس تخسر ، خيرك منك وشرك منك .

قال أهل العلم : هذا الذي عرف اسم القدُّوس لا يتذلل لمخلوق ، ولا يتضعضع أمام غني ، قال فرقد السبخي :

قرأت في التوراة :

من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه عز وجل

ومن جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه

ومن أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكو ربه عز وجل .

حسناً ؛ هذه النفس التي عبدتْ ربها ، هذه النفس التي أَقبلتْ عليه سبحانه ، أيليق بها أن تتذلل لمخلوق ؟ . . وقد عرفتْ اسم القدوس ، هذه النفس التي تقدست بمعرفة الله لا يمكن أن تتذلل لمخلوق ، لذلك من جلس إلى غني فتضعضع له (أي تمسكن له) ذهب ثلثا دينه .

عن عثمان بن عفان قال : لقد اختبأت عند ربي عشراً : إني لرابع أربعة في الإسلام وما تعنيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت رسول الله ﷺ وما مرت علي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا ألا يكون عندي فأعتقها بعد ذلك ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام. . . لقد صارت يده مكرَّمة مقدسة عنده .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

المؤمن له معاملة خاصة عند الله عز وجل ، والدليل :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وتعقيب ربك على هذه القصة صار قانوناً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٨] .

والله هذه الآية وحدها تملأ النفس إشراقاً ، تملأ النفس طمأنينةً ، تملأ النفس عزة ، تملأ النفس كرامةً ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

قال العلماء : هذا الذي عرف اسم القدُّوس ومَن هو ؟ لنْ يتذلل

لمخلوق بهذه النفس التي تقدست بمعرفة الله عز وجل !! مستحيل أن يُذلّ نفسه إلاّ لله سبحانه .

وهذا الذي عرف اسم القدوس لا يعظم مخلوقاً بالقلب الذي به شهده ، هذا القلب الذي عظم الله عز وجل يستحيل أن يعظم مع الله أحداً ؟ .

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦٢] .

إنّ إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله .

كما قال العلماء : هذا الذي عرف اسم القدُّوس حقيقةً يجب ألا يبالي بما فقده بعدما وجده ، إنها حقيقة واضحة .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

* * *

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا
ولو سمعت أذْناك حسن خطابنا خلعْتَ ثياب العجب عنك وجئتنا

لذلك ، هذا الذي عرف اسم القدُّوس لايبالي بما فقده بعدما وجده .

قرأت مرةً عن سيدنا الصديق رضي الله عنه كلمةً لا أنساها ، مفادُها : أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا .

وبعد : فلا يرجع من قصده قبل الوصول إليه ، بعد ما قصده .

انظر لهذه الكلمة ما أدقها : ولا يرجع من قصدَهُ قبل الوصول إليه بعدما قصدَهُ .

أنت قصدت الله عز وجل ، يجب أن لا يثنيك شيء ، لا مشكلة ولا خطر ، ولا وهم ، ولا تهديد ، ولا فقر ، أبداً ، هذا هو الصدق ، صدق التوجُّه .

قال أهل الفهم : مِن آداب مَن عرف هذا الاسم أن تسمو همته ، إلى أن يطهّره الله من عيوبه .

عنده عيوبٌ في نفسه ، لكن الحقيقة المريحة أن عيوب الجسد تنتهي مشكلتها عند الموت ، مهما كانت الآفات ، والأمراض ، فمثلاً أحدهم يده مصابة ، والآخر بصره ضعيف ، وثالث آلام في ظهره ، إذا جاء مَلَك الموت يُنهي كل المشكلات ، ولا يبق أثرٌ لأية مشكلة أبداً .

كل أمراض الجسد تنتهي عند الموت ، وكل أمراض القلب تبدأ عند الموت ، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

انغماس الإنسان في شهواته وهو في الدنيا تحجُبُه عن النظر في عيوبه ، لكنه حينما يحال بينه وبين شهواته تظهر عيوبه فتحرقه .

روي في الأثر « **إن العار ليلزم المرء يوم القيامة ، حتى يقول يا رب لإِرسالُك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب** » [الحاكم عن جابر] .

آلام النفس ، آلام الندم ، الشعور بالخيبة ، الشعور بالخسارة الكبرى ، قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾

[الكهف : ١٠٣ـ١٠٦]

قال أهل العلم : من آداب من عرف هذا الاسم أن تسمو همته إلى أن يطهّره الله من كل عيوبه ، وأن يطهّره من دنس كل عاهاته ، في جميع حالاته ، ويطهّر قلبه من كل كدراته ، وأن يرجع إلى الله تعالى بحسن الاستجابة في جميع أوقاته .

قالوا : فإن من طهَّر لسانه عن الغِيبة ، طهَّر الله قلبه عن الغَيْبَةِ عنه ، ويصبح قريباً منه ، ومن طهَّر لله طرفه عن النظر بالريبة ، طهَّر الله سرَّه عن الحجاب .

إذا حجب الإنسان بصره عن المحرمات ، كَشَفَ الله عن بصيرته ، فإذا أطلق بصره حجب عن بصيرته .

وإذا طهر لسانه عن اغتياب الناس ، قرّبه الله إليه .

وملخص هذا : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] .

يعني نطهِّر أنفسنا كي نستحق أن نكون معك يا رب ، في جنتك مع أوليائك ، مع المؤمنين ، مع الأنبياء ، مع الصديقين ، مع الشهداء ، مع الصالحين .

أنت كن عند الأمر والنهي ، وعلى الله الباقي ، قف في الصلاة متخشعاً لعل الله يتجلى عليك ، حاول أن تصلي مع أولادك ، لعل الله يهديهم سواء السبيل ، طهر ظاهرهم لعل الله يطهر باطنهم ، لك الظاهر والله يتولى السرائر .

لا تيأس ، لو رأيت الإنسان في أدنى دركات المعصية أو في أشدها ، فالصلح مع الله ممكن بلمحة .

« إذا رجع العبد إلى الله ، نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله » .

وإليكم هذه الكلمات فاحفظوها :

إن للحسنة ضياءً في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعةً في الرزق ، وقوةً في البدن ، ومحبةً في قلوب الخلق .

ألا يتمنى أحدنا أن يكون كذلك ، وجه كالشمس منير ، قلب مستنير ، سعة في الرزق ، قوة في البدن ، محبة في قلوب الخلق ؟! .

أحد العلماء بمصر عاش مئة وثلاثين سنة.. ورجل من علماء دمشق رحمهم الله تعالى عاش ستاً وتسعين سنة ، ويروي عنه تلامذته أنه كان مستقيم القامة ، حاد البصر ، مرهف السمع ، أسنانه في فمه ، خدوده متوردة ، قوي البنية ، كلما سُئل : ما هذه الصحة ؟ يقول : يابني حفظناها في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر والقصة ذكرها ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم .

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا .

قال ابن عباس : **« إن للحسنة ضياءً في الوجه ونوراً في القلب وقوةً في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق »** وقال عثمان بن عفان : **« ما عمل رجل**

عملاً إلا ألبسه الله رداءه إن خيراً فخير وإن شراً فشر » قال عليه الصلاة والسلام :

« **إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه** » [مسند الإمام أحمد] .

والذنب والسيئة سببُ هوانِ العبد على ربه ، وسقوطه من أعين خلقه. . هان أمر الله على الناس فهانوا عليه .

اتق الله باجتناب المحرَّمات تكن من التوابين ، وتورَّع عن اقتحام الشبهات تكنْ من المتطهرين ، وازهد فيما زاد عن قدر الضرورة تنج من الحساب الطويل ، وأقبل على خدمة مولاك تَنَلْ الثواب الجزيل .

* * *

السَّلَامُ

هذا الاسم الجليل من أسماء الله الحسنى « السلام » .

ورد هذا الاسم في نص القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر : ٢٣] .

وورد أيضاً في قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : ٢٥] .

فدعوة الله كلها إلى دار السلام .

وورد في قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾

[الواقعة : ٩٠-٩١] .

وورد في قوله تعالى :

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ١٥] .

هذه الآيات التي وردت في كتاب الله عز وجل ورد فيها اسم السلام ، فما معنى هذا الاسم ؟ يقول العلماء : هذا الاسم معناه أنه جل جلاله ذو السلامة ، ذو السلام أي : ذو السلامة ، كأن تقول :

الرضاع من الرضاعة ، هذا الاسم أساسه اللغوي « السلامة » ، ومعنى السلامةِ أنّ ذاته جل جلاله سلمت من كل عيب ، وسلمت صفاته من كل نقص ، وسلمت أفعاله من كل شر ، ولكن لابد من وقفة دقيقة عند بعض العبارات ، سلمت ذاته من كل نقص ، وسلمت صفاته من كل عيب ، وسلمت أفعاله من كل شر ، أليس في الأرض شرور ؟ فكيف يقول العلماء في شرح هذا الاسم العظيم من أسماء الله تعالى : سلمت أفعاله من الشر ؟ .

في الإجابة عن هذا السؤال ، بادىء ذي بدء أنا أعلق أهمية كبرى على هذه النقطة ، لأنك إذا فهمتها ـ أيها القارئ العزيز ـ فهماً صحيحاً أحسنت الظن بالله عز وجل ، وحسن الظن بالله ثمن الجنة ، لقد سلمت أفعاله سبحانه عن الشر المطلق ، فما هو الشرالمطلق ؟ هو الذي نفعله لذاته ، فمثلاً إذا كان عند الإنسان التهاب حاد في الزائدة الدودية ، ألا يمسك الطبيب الجراح الذي نرجوه أن يجري لنا هذه العملية !! ؟ ألا يمسك هذا الطبيب المشرط ويشق اللحم ، وينبجس الدم ، وذلك بعد أن يخدر هذا الإنسان ؟ فبعد أن ينتهي مفعول التخدير ، ألا يتألم هذا الإنسان ؟ هل أردنا أن نجرحه حباً بجراحته ؟ هل أردنا أن نقطع هذا اللحم حباً بإيقاع الأذى ؟ أم أن هذا الطبيب الرحيم البارع أمسك المشرط ، وفتح البطن ليستأصِل هذه الزائدة الملتهبة ، وفي استئصالها يكون الشفاء والراحة ؟ أما إذا جاء إنسان ليطعن إنساناً آخر بالسكين بلا سبب وبلا ذنب نقول : هذا فَعلَ الشرّ المطلق ، أيْ : أوقع فيه الأذى لذات الأذى ، أما حينما يُفْتح جدار البطن لتُستأصل هذه الزائدة الملتهبة ، فهذا ليس شراً مطلقاً ؛ هذا هو الشر الذي من أجل الخير ، هذا هو الألم الذي من أجل الراحة ، فتح

الجلد هنا جرى من أجل راحة النفس ، فلذلك حينما نقول : من معنى اسم الله السلام أنه ذو السلام ؛ والسلام من السلامة .

إذاً أفعال الله منزهة عن الشر المطلق ، أما حينما يُوقع الإنسانُ الشر لذات الشر فهذا شر مطلق .

بناءً على ما سبق يجب أن نعتقد ، ويجب أن نؤمن أنه ليس في أفعال الله سبحانه شر مطلق .

أجل ، ليس في أفعاله سبحانه شر مطلق ، ولكن هناك شرور لا يعلمها إلا الله ، وهذه الشرور لا بد منها من أجل إحداث النتائج الطيبة .

خلق الإنسان ليسعد إلى الأبد ، فإذا انحرف عن هدفه فلا بد من تصحيح مساره ، لا بد من معالجته ، لا بد من دفعه ، لا بد من ردعه ، لا بد من فعل شيء يدفعه إلى هدفه النبيل ، فالذي يؤمن بأن في فعل الله شروراً مطلقة ، وأنه سبحانه يوقعها لذاتها ، فهذا لا يعرف الله إطلاقاً ، لقول الله عز وجل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

مثلاً : هل في الأرض كلها أب ، إن رأى ابنه مارسَ انحرافاً ، أو اقترف ذنباً خطيراً ، كأن يكون قد اختلس شيئاً ليس له ، أو اغتصب مالاً ليس له ، أو كذب كذبة أدّتْ إلى فسادٍ ما ، أو اعتدى على أخيه ، فهل في الأرض كلها أب يقف مكتوف اليدين ؟ ألا يعالجه ؟ ألا يوبخه ؟ ألا يضربه ؟ ألا يحذره ؟ ألا يقرعه ؟ وهل في الأرض كلها أب يتقدّم من ابنه الحبيب ، الذي لم يفعل شيئاً أبداً ، ويوقع به

الأذى حباً بالأذى ؟ هذا الأب منزه عنه ، الأب البسيط الذي لا يملك من الرحمة والحكمة شيئاً منزه عن هذه الصفة .

إذاً الشر المطلق لا وجود له في أفعال الله سبحانه .

وما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، وكلما كان الانحراف أشد كان العلاج أقسى .

هذا أول تعريف ، فإن الله جل جلاله من أسمائه السلام ، سلمت ذاته من العيوب ، وسلمت صفاته من النقص ، وسلمت أفعاله من الشر المطلق ، إنّ كل شر يوقعه الله سبحانه في خلقه ، وتراه أعينكم هو شر موظف لمصلحة الإنسان البعيدة أو القريبة .

مثال ذلك : قد يَفْقَدُ الإنسان ماله كله ، وقد يصيبه بمرض عضال ، فيذهب المال في العلاج ، فهذا الفقد للمال ، وهذا المرض العضال ، في نظر صاحبه شر خطير ، ولكن حينما يخلق الإنسان لسعادة أبدية ، ويكون هذا العلاج في خدمة عودته إلى الله عز وجل ، وقد تَلِف المال لهذه الغاية النبيلة فهذا هو الخير البعيد .

المعنى الثاني اسم« السلام » : أنه سلام أي ذو السلامة لعباده ، فليس في الوجود كله سلامة إلا معزوّة إليه .

الآن أدخل في موضوع دقيق ؛ وأتمنى من كل قلبي أن نسلك معاً في فهم أسماء الله الحسنى فهماً بمنهج واضح جداً ، دعنا من التعاريف النظرية ؛ دعنا مما قاله العلماء ، وما أَجَلَّ ما قالوه عن اسم الله « السلام » ، كونُك إنساناً هل تستطيع أن تكتشف في هذا الكون حوادث ، آيات ، أدلة ، تؤكد أن الله سلام ؟ أنا سعيت ببعض الشواهد المنتزعة من حياتنا من أجسامنا مِمّا حولنا لأؤكد أن هذا

الكون كله ما هو إلا تجسيد لأسماء الله الحسنى ، وما هو إلا مظهر لصفاته الفضلى .

مثلاً : الإنسان إذا كسرت عظامه كيف تلتئم ؟ لا أحد يعرف ، إلا أن الخلية العظمية حينما تصاب بالعطب ، والعظام حينما تنمو في بدايتها تنمو إلى أن تصل إلى حد رسمه الله لها لأن الله عز وجل باسط وقابض .

ومن رحمة الله بنا أن الإنسان ينمو ، فإذا بلغ في نموه الحد المعتدل المقبول يقف النمو ، وهناك مرض خطير جداً ، هو أن الإنسان أحياناً ينمو دون توقف ، إنه مرض العملقة الذي تنمو فيه العظام بلا توقف ، فرحمة الله عز وجل توقف نمو العظام عند حد معين لديه ، وقال العلماء : هذه الخلية العظمية تهجع وتنام ، وقد يمضي على نومها أربعون عاماً ، فإذا كسر عظم في إنسان استيقظت هذه الخلايا ، وأعادت بناء ذاتها ، والتأمت مع أخواتها ونحن لا ندري ، وإني لأتساءل : لو أن العظم لا يلتئم ماذا نفعل ؟ فالتئام العظم ذاتياً يجسد اسم الله السلام ، الله عز وجل خلقك في أحسن تقويم ، وخلق في طبيعة الجسم إمكانية الترميم والالتئام والشفاء .

أنت إذا سرت على قدميك اللطيفتين ، فما الذي يضمن لك ألا تقع ؟ جهاز للتوازن أودعه الله في أذنك الداخلية ، حيث ثلاث قنوات ، في كل منها سائل ، وفيها أهداب ، فإذا مِلْتَ على أحد محوريك ارتفع السائل في مكان دون الآخر ، وهذه الأشعار الدقيقة أحست بالميل فأعطت أمراً إلى الدماغ كي تعود إلى ما كنت عليه ، لولا هذا الجهاز الذي أودعه الله في الأذن الداخلية لاحتاج الإنسان

إلى قدم قطرها سبعون سنتمتراً ، وتكون لديه مركزاً واسعاً يستند إليه ، إذاً من أجل سلامتك جعل الله لك هذا الجهاز ، جهاز التوازن في الأذن .

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان ، في عظامه ، من داخلها أعصاباً حسية بالغة الحساسية ، لماذا ؟ لماذا في نقي العظام أعصاب حس ليس لها وظيفة فيما يبدو ، فإذا كسر العظم فشدة الألم تُبقي العظم على حالته لأن إبقاءه على حالته يعني ثلاثة أرباع العلاج ، فجعل الله في نقي العظام ذلك العصب الحسي البالغ الحساسية ، من أجل سلامتك لأن اسمه « السلام » .

وأعصاب الحس في الأسنان ، من أجل أن تبادر إلى طبيب الأسنان فتعالج أسنانك قبل أن تفقدها كلها ، فهذا العصب الحسي البالغ الحساسية في أسنان الإنسان من أجل سلامة الأسنان ، وهو تجسيد لاسم الله « السلام » .

جهاز المناعة ، وهو حديث العالم اليوم ، جيش عظيم أودعه الله في الدم : « الكريات البيضاء » ، بعض هذه الكريات تستطلع أحوال العدو ، وبعض هذه الكريات تصنع المصل المضاد ، بناء على استطلاع الكريات المستطلعة ، وبعضها تأخذ هذا السلاح ، المضاد الحيوي ، وتقاتل به الجرثوم وأنت لا تدري .

من أجل سلامتك أودع الله فيك جهاز المناعة ، هذه الكريات البيضاء التي بعضها لاستطلاع بنية العدو ، ومراكز ضعفه ، وبعضها لتصنيع المصول ، وبعضها لمحاربة الجرثوم إذا دخل معتدياً على

جسم الإنسان ، وما مرضُ الإيدز الذي هو شغل العالم الشاغل إلا ضعف في جهاز المناعة ، فمن أجل ماذا خلق الله جهاز المناعة في الإنسان ؟ من أجل سلامتك ، إذاً هذا يجسد اسم الله « السلام » .

القلب : جعل الله عز وجل فيه مركزَ تنبيهٍ كهربائي خاصًّا به ، ما من عضلة في جسم الإنسان إلا وتأتمر بعصب حسي ، وعصب محرك ، فالعصب الحسي ينقل إحساس المحيط إلى الدماغ ، والعصب المحرك ينقل أوامر الدماغ إلى العضلات ، وهذه من بديهيات التشريح ، كل عضلات الجسم تتحرك بأمر الدماغ ، لذلك فالشلل من أين ؟ من الدماغ ، إذا تضيّق شريان في الدماغ في منطقة الحركة يصاب الإنسان بالشلل ، إلا عضلة القلب ، أجل ، إلا هذه العضلة ، فقد زودها الله جل جلاله بمركز توليد كهربائي خاص بالقلب ؛ لأن القلب خطِر جداً ، وأن هذا المركز ، مركز التوليد ، إذا تعطل فهناك مركز آخر يعمل بعده مباشرة . والدول المتقدمة جداً عندها أجهزة توليد كهرباء احتياطية ، فلو أن مراكز التوليد الأساسية أصابها خلل أو عطب عندئذٍ تعمل المراكز الاحتياطية ، في القلب ثلاثة مراكز توليد كهرباء خاصة بالقلب ، إذا تعطل الأول يعمل الثاني ، وإذا تعطل الثاني يعمل الثالث ، لماذا خلق الله هذه الاحتياطات ؟ من أجل « سلامتك » .

قال لي طبيب متخصص في الكليتين : لو أننا جئنا بمبضع الجراح واستأصلنا الكلية الأولى ، وجئنا إلى الكلية الثانية ، واستأصلنا تسعة أعشارها بالمبضع ، فإن عشر الكلية الثانية يكفي لتصفية دم الإنسان ، إذاً الله عز وجل من أجل سلامتك أعطى كليتيك عشرين ضعفاً عن حاجتك ، هذا من أجل سلامتك ، فإذا قرأت اسم الله « السلام ». . .

علمت أنه زودك بوسائل السلامة ، هذا كله من معاني اسم الله العظيم جل جلاله .

الأوعية : أوردة وشرايين ، ولحكمة ، أرادها الله عز وجل ، جعل الشرايين في داخل الأعضاء ، والأوردة في الظاهر ، لأن الشريان موصول بالقلب مباشرة ، فإذا أصابه جرح فقد الإنسان دمه كله ، لأنه مثل المضخة ، ولو أن إنساناً فُتح شريانه هل تدري ما يكون ؟ قال لي طبيبٌ جراحُ أوعيةٍ : في أثناء بعض العمليات حينما يُفتح الشريان وإلى أن نُغلقَهُ بملقط ، فإنَّ الدم يصل أحياناً إلى سقف الغرفة لشدة الضغط ، فهذا الشريان الذي أودعه الله في الإنسان حفاظاً عليه وضماناً لسلامة صاحبه جعله في الداخل وجعل الأوردة في الخارج ، فعندما تأخذ حقنة في العرق ، هذه ليست في الشريان ، ولكن في الوريد ، من جعل الشرايين في الداخل والأوردة في الخارج ؟ الله تبارك وتعالى باسم السلام ضماناً لسلامتك .

عندما يجوع الإنسان لدرجة يكاد يموت جوعاً ، أنت إنسان عندك مواد غذائية ؛ عندك مثلاً بقول ، حبوب ، وعندك دهون ، فأنت مهما أوتيت من علم عظيم ، هل بإمكانك أن تحول هذا القمح إلى مواد دهنية ، أو إلى لحم ؟ هذا شيء فوق طاقة الإنسان ، ولكن الجسم مزود بآلية عجيبة جداً ، بإمكانه أن يحول المواد النشوية إلى مواد دهنية عند الحاجة ، فهذه المرونة في تحويل المواد من أجل سلامتك ، والإنسان عندما يجوع يستهلك شحمه ، وحينما يجوع بعد ذلك يستهلك عضلاته ، في بعض حالات المجاعات تُستَهلَك العضلات ، لا يبقى في يده إلا جهازه العظمي وعليه الجلد ، العضلات المخططة هذه تستهلك وتذوب ، ماذا قال هذا الفتى الشاب

درواس بن حبيب لهشام بن عبد الملك حينما دخل مجلسه فغضب هشام حينما رأى حدثاً في مجلسه وقال لحاجبه : ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان ، فاستأذن واقفاً وقال له : « **أيها الأمير : إن للكلام نشراً وطياً وإنه لا يعرف ما طيه إلا بنشره ، ثم أردف قائلاً : أصابتنا ثلاث سنين : سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة دقت العظم** » فأول شيء يُستهلك في الإنسان شَحْمُه ، وبعد ذلك تُستهلك عضلاته إلا عضلة القلب ، من أبدع هذا الإبداع ؟ الإنسان إذاً أردت أن تميته جوعاً يستهلك كل عضلاته إلا عضلة القلب ضماناً لسلامته .

بل إن في مخزون الإنسان الغذائي مخزوناً لا يستهلك إلا عند المجاعات ، الإنسان يجوع ، ما معنى أنك جائع ؟ يعني أن مخزونك في الكبد نقص ، المخزون الغذائي في الكبد لا في الشرايين ، فلو فحصت دم إنسان جائع لوجدت النسب كلها نظامية في دمه ، ولكن المخزون في الكبد هو الذي نقص ، هذا كله من أجل سلامة الإنسان ، وهذا معنى « ذو السلامة » .

شيء آخر ؛ الإنسان حينما ينام ، وزن جسمه الذي فوق عظمه يضغط على العضلات التي تحت العظم ، هذا الضغط يسبب ضيقاً في الأوعية وفي التروية ، أودع الله في الإنسان مراكز تتنبه بالضغط ، فإذا تنبهت هذه المراكز لضغط الجسم عليها ، ولضيق الأوردة والشرايين ، وضعف التروية ، فالدماغ عندئذٍ يأمر الجسم ، وأنت نائم ، بالتقليب من شق إلى شق ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم

بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف : ١٨] .

والتقليب ذات اليمين وذات الشمال ، مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال ، لئلا تقع من على السرير ، هذا من أجل سلامتك .

في فمك وأنت نائم لعاب ، فهذا اللعاب في الفم ، إذا ازداد أعطى تنبيهاً للدماغ ، والدماغ بدوره يأمر البلعوم فيغلق طريق القصبة الهوائية ، ويفتح طريق المعدة فيتسرب هذا اللعاب إلى المعدة ، وأنت نائم ، هذا من اسم الله السلام .

فمثلاً إن الله عز وجل جعل أخطر عضو عندك هو « الدماغ » ، أين وضعه ؟ في الجمجمة ، ماذا جعل فيه ؟ أغشية بعضها فوق بعض ، وماذا جعل بين الدماغ وبين عظام الجمجمة ؟ جعل سائلاً ، ما وظيفة هذا السائل ؟ هذا السائل يمتص الصدمات ، إذا تلقى إنسان ضربة على رأسه أو وقع على جمجمته ، وإذا فسرنا الضربة بارتجاج في السائل ، فهذه الضربة أو هذا الضغط يوزع على سطح السائل كله ، فإذا أثرُ الضرب لا يتجاوز عشر الميليمتر فلا يتأثر الدماغ كثيراً ، فالله جعل الدماغ في صندوق محكم ، وجعل الصندوق له مفاصل ثابتة ، هذه المفاصل الثابتة تمتص بعض الصدمات ، لولا هذه المفاصل المتعرجة والمتداخلة لانكسرت جمجمة الإنسان لأقل ضربة ، أما هذه المفاصل فإنها تتمفصل تمفصلاً متكيفاً مع شدة الضربة ، فكلما تعرضت الجمجمة لصدمة تتداخل العظام بعضها مع بعض ، ثم تعود لمكانها ، هذا من أجل سلامتك .

أين جعل النخاع الشوكي ، وهو أخطر شيء في الإنسان ؟ في العمود الفقري .

أين جعل القلب ؟ في القفص الصدري .

أين جعل الرحم ؟ في الحوض : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٣] . الرحم يقع في الوسط الهندسي تماماً من جسم المرأة .

أين جعلت معامل كريات الدم الحمراء وهي أخطر معامل في جسم الإنسان ؟ في نِقْي العظام ، أترون كيف هي السلامة ؟! .

أين وضعت العين ؟ في المحجر ، العين جعل لها محجراً يقيها الصدمات ، ولو تلقى الإنسان ضربة على وجهه ، فالضربة لا تصل إلى العين ، لأنها في حصن ، في كوة المحجر ، فالعين في المحجر ، والدماغ في الجمجمة ، والنخاع الشوكي في العمود الفقري ، والقلب في القفص الصدري ، ومعامل كريات الدم الحمراء ، في نقي العظام ، والرحم في الحوض ، ما هذا الإحكام البديع ؟ إنه عمل صانع بديع الصنع .

لماذا جعل الله عز وجل أنف الصغير الرضيع غضروفياً قاسياً ؟ لئلا يتطامن (ينحني فيُغلق) فيختنق الطفل في أثناء الرضاعة ، كلما كبر الطفل أصبح هذا الغضروف ليناً ، هذا من حكمة الله عز وجل .

هذا الرحم إذا تقلص ، فتقلصه من أجل سلامة المرأة ، فماذا يحصل ؟ يتقلص تقلصاً لطيفاً ، هذا هو الطلق ، فإذا خرج الطفل إلى خارج الرحم ، تقلص الرحم تقلصاً حاداً قاسياً ، لماذا ؟ قيل : لأن الطفل حينما خرج من الرحم تقطعت عشرات ألوف الأوعية الشعرية ،

فلو تقلص تقلصاً ليناً لماتت الأم من النزيف ، والطبيب المشرف على الولادة أو القابلة يجس أحدهما الرحم ، فإذا كان صلباً صخرياً تعد الولادة سليمة ، ولو أن هذين التقلصين عُكِساً لماتت الأم ولمات وليدها ، لو جاء التقلص عنيفاً لاختنق الوليد ، ولو جاء رخواً لماتت الأم ، فمن أجل سلامة الأم ، وسلامة وليدها كان التقلص الأول ليناً ، متزامناً متسارعاً والتقلص الثاني عنيفاً ، حاداً قاسياً من أجل سلامة المرأة ووليدها .

واللهِ ، لو بقينا ساعات كثيرة ، أياماً عديدة ، وأشهراً مديدة ، وسنوات طويلة ، لما انتهينا من اسم الله « السلام » إذا أردنا أن نأخذ مدلولاته من خلق الإنسان ومن خلق الحيوان ، ومن خلق النبات .

هذه الحُوينات ، أحد إخواننا الأطباء جزاه الله خيراً ، ذكر لي أن هذا الحوين الذي خلقه الله في الخصيتين ، يتم خلقه خلال ثمانية عشر يوماً ، هذا الحوين يخزن في الخصيتين وتعطل فاعليته ، فإذا خرج ليستقر في الرحم ، فحالما يبدأ بالانطلاق من مكان مخزنه تبدأ فاعليته ، ولولا هذه الصفة لكان كل الرجال عقيمين ، يأتي العقم لأن هذا الحيوان له عمر ، وعمره عشر ساعات ، فإذا صنع في الخصيتين ولم يستهلك يموت ، إذاً يُصنع ، ويتم صنعه ، ويُخزن ، وتُعطل فاعليته ، فإذا انطلق من تخزينه ليستقر في الرحم بدأت فاعليته ، وعاش عشر ساعات إلى أن يستقر في البويضة ، هذا إبداع مَنْ ؟ إبداع الله عز وجل « السلام » .

فأنا أتمنى أيها القارئ الكريم وقد دخلنا في شرح أسماء الله الحسنى ، أتمنى أن ننحو في فهم هذه الأسماء منحى يوازي التعاريف

النظرية والشواهد العملية ، وأن نفكر تفكيراً ذاتياً حراً في بعض مظاهر خلق الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات .

هذه الشجرة التي عمرُها خمسون سنة ، وأنت تأكل منها زيتوناً كل سنة لها إبداع ، إبداعها أنك إذا غبت عنها وليس هناك مطر في السماء تستهلك ماء أوراقها ، فإذا استهلكت ماء أوراقها ، كأنها تقول لك : يا صاحبي أنا عطشى ، فأوراقها ذبلت ، فإذا ترك أحدنا شجرة دون سقيٍ فأول ماء يستهلكه ماءُ أوراقها ، فتجد الأوراق قد ذبلت ، فإذا لم تُسق فإنها تستهلك ماء أغصانها ، فإذا لم تسق تستهلك ماء فروعها ، فإذا لم تسق تستهلك ماء جذعها ، فإن لم تسق تستهلك ماء جذورها ، وهذا آخر ماء تستهلكه ، ثم تغدو حطباً للإحراق .

لو أن الأمر عكس في تلك الشجرة ، وتركت الشجرة دون سقي مدَّة أسبوعين لماتت ، لأنها بدأت باستهلاك ماء الجذر ، ويبس الجذر ، ومن ثم ماتت الشجرة ، إذاً من جعل هذه الشجرة تستهلك ماء أوراقها أولاً ، من أجل أن تبادر إلى سقايتها ؟ هذا خلق الله للشجرة إنه « السلام » .

هذا النسغ الصاعد ، هناك أوعية صاعدة وأوعية هابطة في الشجرة ، فحينما تنمو هذه الشجرة تنمو عرضياً ، وربما ضيّق نموها العرضي من سعة أوعيتها ، لذلك هذه الأوعية ذات الخطورة البالغة للشجرة مدعمة بألياف حلزونية لئلا ينمو القشر ولحاء الشجرة على حسابه ، من أبدع هذا ؟ الله سبحانه وتعالى .

هذه البذرة التي جعلها الله عز وجل آية تقاوم الموت سنوات وسنوات ، فمثلاً أخذوا قمحاً من الأهرامات مضت عليه حقب مديدة

وزرعوه فنبت ، بذرة القمح كائن حي فيها رُشيم ، يعيش هذا الرشيم ستة آلاف عام تقريباً ، زرعت هذه البذور فأنبتت ، الذي أراه أن أي شيء في الكون من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان من تدبير « السلام » .

ثم إن الماء آية صارخة : فإذا جُمِّدَ الماء وزادت كثافته غاصَ في أعماق البحار ، وانتهت الحياة من على سطح الأرض ، لكنَّ الماءَ هو العنصرُ الوحيد في الكون الذي إذا بردناه قلتَّ كثافته وزاد حجمه فَطَفا ، لو أنه انعكس الأمر ، لأصبحت البحار كلها متجمدة ، ولانعدمَ البخر ، وانعدم المطر ، ومات الزرع ، ومات الحيوان ، وتبعه الإنسان ، هناك خاصة واحدة ألفتُ النظر إليها : ائت بالماء وبرده فينكمش إلى أربع درجات مئوية فوق الصفر ، وبعدها تنعكس الآية ويزداد حجمه ، هذا من اسم السلام من أجل سلامتنا ، وحينما يزداد حجم الماء يفتت التربة ، فالتربة أساسها صخري ، وبهذا الماء أصبحت مفتتة ، إذاً فاقرأ معي قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴾ [الطارق : ١١-١٢] .

إذاً فازدياد حجم الماء عند التبريد هو الذي جعل الصخر تراباً من أجل سلامة الحياة ، فإذا أردنا أن نعرف أسماء الله الحسنى من هذا المنحى ، من هذا الطريق ، فهو طريق رائع جداً ، وواسع جداً ، وفي متناول كل إنسان ، وأي واحد بإمكانه بدءاً من كأس الماء إلى رغيف الخبز إلى أعضائه وأجهزته وخلاياه وأنسجته عليه أن يعرف أن اسم الله « السلام » واضح في خلقه ، بل في طعامه وشرابه ، ربنا عز وجل قال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] .

فكل خلقه متقن : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ وقال سبحانه :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ـ٥٠] .

هجرة الطيور سنوياً تتم من أجل سلامتها ، تقطع الطيور سبعة عشر ألف كيلومتر ، تطير بعض أنواع الطيور ستاً وثمانين ساعة دون توقف ، هل في الأرض كلها طائرة بإمكانها أن تطير ستاً وثمانين ساعة دون أن تتزود بالوقود ؟ غير ممكن ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

ذكرت بعض الأمثلة ، بعضها من خلق الإنسان ، وبعضها من خلق النبات ، وبعضها من خلق الحيوان ، السمكة زودها الله بجهاز تعرف فيه أين هي من سطح الماء ، فإذا أمسكت سمكة وجدت في ثلثها الأعلى أنبوباً تحت الحراشف ، هذا الأنبوب مفرغ من الهواء ، هي في أعماق البحر كلما هبطت نحو الأسفل ازداد الضغط على هذا الخط ، وهكذا جهاز الضغط في كل الغواصات ، كل سمكة جهزها الله بجهاز ضغط ، تعرف أين هي من سطح الماء ، كلما نزلت تعرف عمق ما وصلت إليه ، من أجل سلامتها .

انظر إلى كل الحيوانات الأهلية التي هي من حولنا ترى أن سلامتها عجيبة ، هذا كله من اسم السلام .

إذاً ؛ إما أنه سلمتْ ذاته من العيب ، وسلمت صفاته من النقص ، وسلمت أفعاله من الشر ، أو أنه ذو سلامة لخلقه ، فليس في الوجود

كله سلامة إلا وهي معزوة إليه ، أو سَلِمَ المؤمنون من عذابه ، أو هو ذو سلامة على أوليائه .

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل : ٥٩] .

سلمت ذاته ، وسلم خلقه من كل أذى ومن كل ضرر .

العلماء قالوا : إن سلامة ذاته من العيوب والآفات ؛ يعني أن هذا الاسم من صفات التنزيه ، وسلامه على أوليائه ، فهذا الاسم من أسماء الذات ، فإن أعطى السلامة للمؤمنين فهذا من أسماء الأفعال ،وسلامه إذاً إما من صفات التنزيه ، وإما من صفات الذات ، وإما من صفات الأفعال .

ومن معاني هذا الاسم ، أن ذكر الله عز وجل يورث الأمن والطمأنينة والسلامة ، والدليل قوله تعالى :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

في القلب وحشة ، في القلب خوف ، في القلب قلق ، لا يسكن هذا القلق ، ولا تسكن هذه الوحشة ، ولا يأنس القلب إلا بذكر الله ، وأنا أهمس في آذان القرّاء الأعزاء بهذه الكلمة : ابحثوا عن كل شيء ، وفي كل شيء ، فليس في الأرض كلها شيء يمنحكم سعادة إلا أن تذكروا الله ، روي في الحديث :

« إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل : يا رسول الله! وما جلاؤها ؟! قال : كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن [البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر] .

إذاً من أسماء الله السلام ؛ إنك إذا ذكرته شعرت بالسلام ، إنك إذا ذكرته زال عنك الخوف ، إنك إذا ذكرته زالت عنك الوحشة ،

إنك إذا ذكرته أَنِستَ به ، إنك إذا ذكرته اطمأننت إليه .

البعيدون عن الله عز وجل يأكل قلوبَهم الخوفُ ، يختل توازنهم ينسحقون ، لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم سلطاناً ، فألقى الله في قلوبهم الرعب ، أما علامة المؤمن فهو مطمئن .

إذاً أعود وأكرر أنَّ من أسماء الله « السلام » ؛ إذا ذكرته يمنحك السلام ، إذا ذكرته يمنحك الاطمئنان ، إذا ذكرته تشعر بالقرب منه ، إذا ذكرته تشعر أنه يدافع عنك ، وأنك في رعايته ، وفي حفظه ، وفي تأييده ، وفي توفيقه .

من معاني اسم « السلام » ؛ أنك إذا اتصلت بالله عز وجل طهرت نفسك من العيوب ، وهنا ندخل في معانٍ دقيقة ، وأول معنى أنّ ذاته جل جلاله تنزهت عن كل عيب ، وصفاته تنزهت عن كل نقص ، وأفعاله تنزهت عن كل شر ، أيّ شر ؟ أعني الشرّ المطلق ، أما الشر الهادف ؟ فهذا علاج والعلاج دائماً مرٌّ ، من المعاني الأخرى : أنه ذو سلامة ، أي : يمنح السلامة لعباده ، إما في خلقهم ، كما تحدثنا قبل قليل ، وإما في نفوسهم ، فذكر الله يورث الأمن والطمأنينة والسلامة .

وبعد فالاتصال بالله ينقي النفس من عيوبها ، من البخل ، من الشح ، من الحقد ، من الضغينة ، من الحسد من الكبر ، هذه الصفات الذميمة التي يشقى بها الإنسان ، فإذا اتصلْتَ بالله عز وجل تتنزه أنت عنها ، إذاً هو ذو سلام في جسمك ، أعطاك أعضاءً وأجهزة ، وأعطاك خلايا وأنسجة ، ودقة بالغة في جهازك العظمي ، والعصبي ، والعضلي ، والدوران ، والشرايين والأوردة ، وإذا كنت

خائفاً وذكرته بث في قلبك السلام ، فإذا اتصلت به طهرك من كل العيوب والآثام ، وجعلك طاهر النفس ، بفضل اسم السلام .

إذاً في تجارتك يهديك سبل السلام ، وفي زواجك يهديك سبل السلام ، وفي علاقاتك بجيرانك يهديك سبل السلام ، هذا معنى السلام ، فأنت إذا طبقت أمر القرآن الكريم ، واجتنبت نهيه أوصلك في كل موضوع ، وفي كل شأنٍ إلى السلام ، والله يدعو إلى دار السلام وهي الجنة ، فالسلام مريح جداً ، فإنك تعيش في طمأنينة ، وتعيش براحة ، وتحس أن الله خالق الكون معك لا يتخلى عنك ، ولا يسلمك إلى عدوك ، يدافع عنك ، ويحفظك ، ويؤيدك ، وينصرك فقد قطفت الثمار يانعة بعد أن دفعت الثمن ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ١٢] .

إذاً ، مِن معاني السلام أن ذكر الله يورث الأمن والسلام ، من معاني السلام أن الاتصال بالله عز وجل يكسب السلامة من العيوب والنقائص والأدران ، ويحول دون الحماقات والحقد والحسد والضغينة ، والعلو في الأرض والكبر ، فهذه الصفات الذميمة المهلكة إذا اتصلْتَ بالله عز وجل نقّاك منها .

ومن معاني السلام أيضاً أنك إذا طبقت شرعه يهديك سبل السلام كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

أيْ : إذا طبقت الشرع يعطيك السلامة في الدنيا ، وإذا أقبلت على الله يعطيك سلامة النفس ، وإذا أطعته في كل مناحي حياتك يعطيك سلامة الآخرة ، قال الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر : ٢٣] .

تصاحب أحياناً شخصاً شريراً ، أو تشاركه في بعض أعمالك فيدمر حياتك ، وقد يتزوج إنسان امرأة شريرة فتنتهي به إلى دمارٍ .

وفي هذا السياق حدثني شخص فقال : إنه رأى امرأة في الملهى فأعجبته فتزوجها ، بعد أن تزوجها نشب خلاف بينه وبينها فهي ليست منضبطة ، قلت ألومه : من أين أخذتها ؟ من أين تزوجتها ؟ ثم ذهبت إلى بيت أهلها ، استرضاها ، فلما استرضاها أبت إلا أن تسجل عليه مبلغ مئة ألف ليرة لترجع إليه ، رجعت إليه شكلاً ، وأقامت عليه دعوى ، واتفقت مع المُبَلِّغ ، وأخذت التبليغ من مبلغ المحكمة ولم تبلغه لزوجها ، ومضت مدة الدعوى وأصبح الحكم قطعياً ، ثم سيق الزوج إلى السجن بتهمة التخلف عن دفع المهر المقدم ، هكذا مجريات القضاء ، فلما علم ذلك حاول قتلها وقتل أمها وأختها في ليلة واحدة ، وقتل نفسه ، إصابتهم لم تكن قاتلة ، أُخذوا للمستشفى ونَجَوْنَ ثلاثتهن من الموت ، الأم وابنتها وأختها ، أما هو فأمسى تحت الثرى ، فليس للإنسان سلام إذا تزوج امرأة أعجبته ومنبتها خضراء الدِّمَن[1] . وهذه قصة واقعية حدثت في دمشق قبل فترة وجيزة .

---

(١) سيق اللفظ للتشبيه وإلا فالحديث فيه غير صحيح .

أما إذا التزم أحدنا شرع الله عز وجل فإنه سبحانه يبارك له في زواجه ، وفي عمله ، وفي رزقه ، وفي صحته ، وفي أولاده ، فيهديهم سبل السلام .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .

يجب عليك أن تعرف أن السلامة كلها في أن تكون مع الله ، السلامة كلها في أن تكون وفق أمر الله ، السلامة كلها في معرفة الله ، السلامة كلها في عبادته ، السلامة كلها في فهم كتابه ، السلامة كلها في تنفيذ شرعه ، السلامة كلها في الالتزام بما أمر واجتناب ماعنه نهى .

وبعد ، فقد وردت كلمة السلام في القرآن بمعنى آخر ، قال الله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥] .

فما هي دار السلام ؟ إنها الجنة ، فليس فيها نغَص ولا حسد ، ولا يطاردك فيها مرض أو قلق ، ولا يعتريك فيها خوف أو منازعة من أحد ، ولا حروب فيها ولا اضطهاد ، ليس فيها من هذا كله شيء البتّة .

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٥-٢٦] .

هذه إذاً دار السلام ، نعم الثواب ، وحسنت مرتفقاً .

كذلك فإن السلام ورد في آية أخرى ، قال سبحانه :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾

[الواقعة : ٩٠ـ٩١]

فالله سبحانه وتعالى يخبرك عن سلامة أصحاب اليمين ، إنهم يقولون : الصحة جيدة والسعادة كبرى ، فهم في سلام وهم في الجنة حيث النعيم المقيم .

وورد أيضاً في قوله تعالى :

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم : ١٥] .

قال سفيان بن عيينة[١] ـ رحمه الله تعالى ـ : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن ؛ « يوم يولد » . فقد كان في الرحم مسروراً ومستريحاً من المتاعب والمشكلات وخرج إلى الدنيا ، أنه انتقل من مكان ضيق إلى مكان واسع غير مألوف لديه .

« ويوم يموت »ويدع كل شيء ، زوجته وأولاده ، وبيته وغرفة نومه ، ومكتبته ومركبته ، ومحله التجاري وقد كان لديه يوم في الأسبوع يجتمع فيه مع أصحابه وأصدقائه ، وكانت له رغباته وميوله ، فلما توقف قلبه نقلوه إلى القبر ، وهذا خروج بلا عودة .

هو الذي زين البيت واعتنى بترتيبه ، وله فيه مكتبته وغرفته الخاصة ، يضع فيها حاجاته الشخصية وبعض الهدايا المهداة إليه ، يتمنى أهله أن يفتحوا درجه فلا يسمح لهم في حياته ، لكنه عندما أسلم الأمانة فتحوا الدرج الذي كان محظوراً عليهم مَسُّهُ ، وأخذوا

---

(١) نصه بتمامه : أوحش ما يكون العبد في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم ، قال : فأكرم الله فيها يحيىٰ بن زكريا فخصه بالسلام عليه .

السيارة ، والمحل التجاري ، وباعوا واشتروا ، ثمَّ نسُوهُ بعد حين ، وهكذا تجري الوقائع هذا يوم يموت .

وأما « يوم يبعث حياً » .

ـ قالت عائشة رضي الله عنها : ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟

ـ فقال رسول الله ﷺ : « **أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال : (هاؤم اقرءوا كتابيه) حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم** »

[رواه أبو داود في كتاب السنة]

فهناك تقع عين الأم على ابنها فتقول له : يا ولدي ، ألم أجعل لك بطني وعاء ، وصدري سقاء ، وحجري وطاء ، فهل من حسنة يعود عليَّ خيرُها ؟ يقول : آه يا أماه إنني أشكو مما أنت منه تشكين .

سيدنا يحيى : وسلام عليه يوم ولد ، فكان أصعب يوم لديه ، ومثل ذلك ويوم يموت ويوم يبعث حيا ، فأمّنه الله تعالى إذ قال : وسلام عليه .

وبعد ، فما واجب المؤمن بالنسبة لهذا الاسم ؟ وإنك لتعلم أنّ المؤمنَ الحق من سلم من المخالفات الشرعية سراً وعلناً ، وبرىء من العيوب ظاهراً وباطناً فواجبه أن يكون سلاماً لغيره ، قال الله عز وجل :

﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ [الأنعام : ١٢٠] .

ومن كان سليماً من الذنوب ، بريئاً من العيوب ، بلغ غاية السلام

والسلامة ، ولتكن علاقاتنا على هذا النحو باسم السلام ، ليتحقق لنا معنى الآية الكريمة :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ـ٨٩] .

القلب السليم هو القلب البريء من الشك والشرك ، أما من يكون قلبه مؤرجحاً فأمره إلى بوار . .

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت : إليكما
إن صح قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

ونضرع إلى الله أن تكون أمورنا كلها صواباً ، وأما قول أبي العلاء المعري هذا فليس إيماناً وإنما هو ارتياب وشك :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات : ١٥] .

فالسليم من بريء قلبه من الشك والشرك ، ومن النفاق والشقاق والرياء والمداهنة ، ومن سلمت نفسه من الشهوات ، وسلم عقله من الشبهات ، فلا شبهات في عقله ، ولا شهوات في نفسه ، وألقى الشك والشرك والنفاق والشقاق والرياء والمداهنة جانباً ، بل جعلها تحت قدميه .

وبعد ، فهذا واجب المؤمن نحو ربه من حيث اسم السلام ، أما حقه على الله فهذه أهم نقطة في البحث .

لقد آمنتَ وفكرت في الكون وتعرفت إليه ، واستقمت على أمر الله ، وحضرت مجالس علم ، وضبطت شهواتك ، وضبطت جوارحك ، وغضضت من بصرك عن محارم الله ، نزهت أذنك عن سماع الغناء ، لم تختلط مع النساء الأجنبيات ، كنت ملتزماً ، ولم

تخالف الشرع فما لك عند الله بعد ، فاسمع راشداً ما قال العلماء في هذا الموضوع ، لقد قالوا :

أيُّ عبد طبق أمر الله عز وجل ، وأقبل عليه ، فحق المؤمن على الله أن يُسَلِّمَهُ ؛ مِن ماذا ؟ قالوا : أن يُسلّمه في الدنيا من المؤذيات ، وأن ينيله ما فيها من الخيرات .

فالمؤمن زوجته صالحة ، أولاده أبرار ، رزقه في بلده ، سمعته طيبة نظيفة ، وأخلاقه عالية ، محمود السيرة ومحبوب ، هذه كلها من ثمرات الاستقامة ، والله عز وجل اسمه السلام يسلّمك من المؤذيات ويمنحك الخيرات ، وهذه سلامة الدنيا .

فما سلامة الدين ؟ يسلم عقلك من البدع والشبهات ، ويسلم قلبك من الهوى والشهوات ، فلا تلتفت إلا إلى الله ، ثم إنّ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

قال بعض العلماء : كيف يسلم الناس من لسانه ويده إذا هو لم يسلم من نفسه ؟! فهو أسير نفسه وشهواته ، إذاً فهي دعوة لي ولك أن نقهر النفس ، وأن نتعالى على كل شهوة .

* * *



« المؤمن » : أن تؤمن بوجود الله عز وجل ، يعني أنك لم تفعل شيئاً ، لأن الشيطان نفسه ماذا قال حينما خاطب الله عز وجل ؟ قال : ﴿ربِّ﴾ ، وفي آية أخرى قال : ﴿فبعزتك﴾ ، فعبارة الشيطان تدل على إيمانه بالله ، ومع ذلك فهو رأس الكفر كله ، فأن تؤمن بوجود الله فقط دون أن تتعرف إلى وحدانيته ، إلى ربوبيته ، إلى أُلوهيته ، إلى أسمائه الحسنى ، إلى صفاته الفضلى ، إلى مناحي عظمته ليس كافياً ، أن تؤمن بالله خالقاً وكفى ، ليس كافياً ، فإنَّ ربنا سبحانه وتعالى قال عن المشركين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

فالمشركون إذاً : يعترفون بأن الله خالق الكون ، ولكنهم يشركون بالله أولاً ، وينكرون البعث ثانياً .

فمن لوازم الإيمان بالله ، أن يتعرف الإنسان إلى أسماء الله الحسنى ، فأحياناً قد تعرف أنّ فلاناً جارٌ لك ، وهذا غير كافٍ ، بل تحب أن تعرف عنه تفصيلات ، كأن تعرف شيئاً عن مستوى علمه ، وشيئاً عن أخلاقه ، عن أعماله ، عن تفوقه ، هذا فيما بين الناس ،

فلا تكون المعرفة صحيحة إلا إذا تضمنت بعض التفاصيل مما يعطيك فكرة واضحة ، إنه من باب أولى أن يكون الإيمان بالله عز وجل أساسه معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى .

والحقيقة الملموسة ؛ أنَّ الكون كله تجسيدٌ وإظهار لأسماء الله الحسنى ، كل أسماء الله تبدو لك من خلال الكون ، أما ذات الله عز وجل فلا نستطيع أن ندركها ، لقول الله عز وجل :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

[الأنعام : ١٠٣] .

أن ترى ذات الله أمر مستحيل ، لكنك تستطيع أن تتعرف إلى ذاته من خلال خلقه ، فالكون يدل على المكوِّن ، والنظام يدل على المنظِّم ، والتسيير يدل على المُسيِّر ، والماء يدل على الغدير ، والأقدام تدل على المسير ، والبعر يدل على البعير ، أَفَسماءٌ ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

وبعد ، فلماذا يجب أن نعرف الله ؟ كي نعبده ، ولماذا نعبده ؟ كي نسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، لأن الله سبحانه وتعالى في الأصل خلقنا ليسعدنا ، ولا نسعد إلا به ، ولا نسعد إلا إذا كان عملنا طيباً ، ولن يكون عملنا طيباً إلا إذا تعرفنا إلى عظمته حقيقةً ، لذلك قال ربنا عز وجل في وصف بَعْضِ أهل النار :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة : ٣٣] .

أي يجب أن تعرف عظمة الله ، إن لم تعرف عظمة الله فلابد من أن تخترق حدوده ، ولابد من أن تتجاوز أوامره ، أما إذا عرفت عظمة الله عز وجل عبدته .

فالقضيّة كلها تتلخص في أهمية أن تعرف مَن هو الله ، كي تطيعه ، وتقبل عليه ، وترجو ماعنده ، وتخاف وعيده ، ولن تخاف وعيده ، ولن ترجو ماعنده ، ولن تقبل عليه ، ولن تسعى إليه ، ولن تستسلم لقضائه ، ولن ترضى بحكمه إلا إذا عرفته ، إذا عرفته رضيت بقضائه ، ورأيت حكمةً ما بعدها حكمة ، ورأيت علماً ، ورأيت رحمة ولطفاً وعطفاً وعدلاً ، فكلما عرفته استسلمتَ له ، وأقبلت عليه ، وخضعت له ، وائتمرت بأمره ، وانتهيت عمّا نهى عنه ، أقبلت على عبادته ، وخدمتَ عباده ، فنحن يجب أن نعرف الله ، أما أن يقال فقط : الله خالق الكون ، فهذه معرفة بسيطة لا تقدم ولا تؤخر ، وهذه المعرفة لا تحجزك عن محارم الله ، هذه المعرفة في مجموعها لا تحملك على طاعة الله ، فأن تقول : الله خالق الكون ، ولك مخالفات كثيرة ، وأن تقول : الله خالق الكون ، ولك انحرافات عديدة ، وأن تقول : الله خالق الكون ، ولك طموحات دنيوية مديدة ، فهذه مغالطة صريحة ، أمّا إذا عرفت مَن هو الله ؟ وهذا هو الهدف من هذا البحث ، وأن تزداد معرفتنا بالله يوماً بعد يوم ، لأنه كلما ازدادت هذه المعرفة كلما ازداد الخشوع والطاعة ، والخوف والإقبال ، والاستسلام والرضا ، والانصياع والفداء ، والتضحية والإخلاص ، أيْ : إنّ حجم عملك بحجم معرفتك ، وحجم سعادتك بحجم عملك ، أيْ أنَّ الدين كله يمكن أن يلخص بثلاث كلمات : معرفة ، طاعة ، سعادة ، على قدر معرفتك تطيع الله عز وجل ، وعلى قدر طاعتك تسعد به .

إذاً هذه الأسماء الحسنى لا ينبغي أن نقف عند تعريفاتها الدقيقة فقط ، بل يجب أن نملك عشرات ، بل مئات ، بل ألوف الأدلة

النابعة من الكون على هذه الأسماء ، لذلك فمن علامة معرفتك بالله عز وجل أن ينطلق لسانك في الحديث عن أسمائه ساعات طويلة ، حدَّثنا عن اسم اللطيف ، أو عن اسم الرحيم ، أو عن اسم الملك ، أو عن اسم القدوس ، أو عن اسم السلام ، فالذي أرجوه وأتمناه أن يمارس المسلم بنفسه بحثاً ذاتياً ، وأن تكون له جولات في هذا الكون ليكتشف من هذا الكون الأدلة الناصعة على أسماء الله ، والأولى أن نبقى نجول في كل فترة أو في كل حين مع اسم من أسماء الله الحسنى .

وبعد فلننتقل من هذا البحث إلى اسم آخر من أسماء الله الحسنى ، وهو المؤمن .

إن أيّ ملك من الملوك الأرض لا يرضى أن يلقب أحد أفراد رعيته بلقبه ، وهو من بني البشر ؛ يأكل كما نأكل ، ويشرب كما نشرب ، وينام كما ننام ، وله جسم ، ويعطش ، ويجوع ، ويغضب ، ويثور ، ويمرض ، ويموت ، فلا فرقَ بين الملك وبين أحد رعاياه من حيث التكوين الجسمي ، ومع ذلك تأبى عزته ، ويأبى كبرياؤه أن يُلقب أحد من أفراد رعيته بلقبه ، ولكن الله سبحانه وتعالى سمانا بعد أن عرفناه ، وطبقنا أمره سمانا مؤمنين ، والمؤمنون جمع مؤمن ، وسمى نفسه المؤمن ، وذلك بقوله تعالى :

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر : ٢٣] .

لكن هذا الاسم يحتاج إلى وقفة ، الله عز وجل مؤمن ، ولكن مؤمن بماذا ؟ نحن مؤمنون بالله ، ونحن مؤمنون برسول الله ﷺ ،

مؤمنون باليوم الآخر ، فالله عز وجل مؤمن بماذا ؟ قالوا : المؤمن اسم فاعل من فعل أمِنَ يأمن أمناً وأماناً ، فعل « أمن » له معنيان :

المعنى الأول التصديق ، فعندما يقرأ الإمام سورة الفاتحة ، وعند انتهائه يقول المصلون جميعاً : آمين ، أي : يارب نحن نصدق ما قال هذا الإمام ، ونحن معه ، فإما من التصديق وإما من الأمن ، فعل « أمن » إما من التصديق ، وهناك آية تؤكد ذلك قال تعالى :

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] .

فقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ هذا من التصديق ، وإما من المعنى الآخر وهو الأمن ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش : ٤] .

فاسم الله تعالى المؤمن مأخوذ من التصديق أو من الأمن ؟ وكيف نفهم هذا الاسم بالمعنى الأول ؟

في الحقيقة : إن الإنسان قد يعرف ذاته ، وقد لايعرف ذاته ، فإذا لم يعرف ذاته ، وخاض في شيء ، ولم يكن من مستواه يخسر خسارة كبيرة ، نقول له : لو عرفت ما عندك لما دخلت في هذه الورطة ، فهذا الذي يقدم على شيء ليس في مستواه ، ولا يعرف حقيقة ما عنده فهو يجهل حقيقة إمكاناته ، ولا يعرف ذاته ، لكن هناك من يعرف ذاته حق المعرفة ، فتأتي الأفعال كلها وفق معرفته ، هذا مثل ضربته لكم لتوضيح الحقائق ، فمن أول معاني المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يعرف ذاته ، ويعرف أسماءه ، ويعرف كل ماعنده ، وهذا المعنى الأوَّل .

المعنى الثاني : أن الله سبحانه وتعالى يصدق رسله ، بعث النبي محمداً ﷺ رسولاً ، صدقه ، أي : جعل الناس يصدقونه بالمعجزة ، بعث موسى عليه السلام نبياً وصدقه ، أي : جعل الناس يصدقونه بالمعجزة ، أرسل سيدنا عيسى عليه السلام رسولاً فأعطاه معجزة كي يصدقه الناس بها ، إذاً المعنى الثاني الصدق ، أي كل شيء وعد الله به المؤمنين يأتي فعله مصداقاً لوعده ، وعدك بالحياة الطيبة فإذا عشت الحياة الطيبة ، فقد صَدَقك ، بمعنى أن فعله جاء مصداقاً لوعده ، أن يأتي فعل الله ـ عز وجل ـ مصداقاً لوعده يصدق أنبياءه ، أي : يعطيهم الدلائل ، ويجعل الناس يصدقونهم ، يعطي المؤمن دلائل ، أنت أيها الأخ الكريم تقرأ القرآن ما الذي يجعلك تتشبث وتتعلق وتتمسك به ؟ لأن الأحداث التي تعيشها تأتي كلها مصدقة لهذا القرآن ، إذا استقمت في البيع والشراء شعرت براحة ووفر الله لك دخلاً طيباً ، وساق الناس إليك ، وإذا كنت أميناً رفع الله اسمك بين الناس ، فأي وعدٍ وَعَدَكَ الله به ، فإذا أنت نفّذت ما أنت مأمور به تأتي الحوادث كلها لتصدق لك هذا الوعد ، أو لترى أن هذا الوعد صادقاً ، فمن معاني المؤمن أنه يجعل أنبياءه مُصَدَّقين يدعمهم بالمعجزات ، يجعل قرآنه مُصَدَّقاً ، بمعنى أنك إذا آمنت به وعملت عملاً صالحاً أذاقك الحياة الطيبة ، فما الذي جعلك تصدق كلامه ؟ هذه الحياة الطيبة ، المعيشة الضنك تجعلك تصدق بهذه الآية ، إذا اهتديت بهدى الله عز وجل في كل مناحي حياتك ترى أن الحوادث كلها تصدق ما جاء به القرآن الكريم ، إذاً الله عز وجل مؤمن ، أي : يجعل عباده مُصَدِّقين ، لأن أفعال الله عز وجل كلها تأتي مصداقاً لوعده

ولوعيده ، قال : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج : ٣٨] .

لابد من أن تشعر بأن هناك حالات كثيرة تواجهك فَيُقَيِّضُ الله لك إنساناً لا تعرفه يدافع عنك بإلهام من الله عز وجل ، وحينما يقول الله عز وجل :

﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طـه : ١٢٣] .

تشعر أَنَّكَ مهتدٍ ، وأن لك رؤية صحيحة ، وأن لك بصيرة نافذة ، وأن تفسيرك للحوادث صحيح ؛ لأنك اتبعت أمر الله عز وجل فجاءت الحوادث مصداقاً لما قاله الله عز وجل .

وهذا معنى من معاني المؤمن ، والحقيقة كما قلت قبل قليل : إنّ أروع ما في الدين أنه يعطيك تفسيراً للكون والحياة والإنسان ، ومهما عشت ، ومهما تبدلت الظروف ، ومهما ظهرت معطيات جديدة ، ومهما ظهرت أحداث جديدة كلها ضمن تأويل الله عز وجل لهذا الكون والحياة والإنسان ، فأنت حينما تقرأ القرآن لن تُفَاجَأ بحادث لم يرد معك في القرآن ، فلو أَعطيْتَ تفسيراً لظاهرة من الظواهر ، قد تُفاجَأ بعد حين أن هناك حدثاً أبطل نظريتك ، وما أكثر ما جاء العلم بنظريات ، ثم جاءت الحوادث فأبطلتها ، أما إذا قرأت القرآن وهو من عند الله عز وجل لن يأتي حادث يكذب ما قرأت في القرآن ، هذه نقطة دقيقة جداً ، فالقرآن جاء قبل أربعة عشر قرناً ، والعلم تطورَ تطوراً كبيراً جداً ، ومعطيات القرآن صحيحة وثابتة منذ أن خلقت البشرية وإلى ما قبل خمسين عاماً في كِفّة ، ومنذ خمسين عاماً إلى

الآن حدث تطور علمي رهيب جداً تجده في الكفة الأخرى ، ومع كلٍّ هذا التطور فليس في العلم حقيقة تخالف هذا القرآن .

معنى ذلك أنك إذا قرأت القرآن تطمئن ، الأمور وحوادث الكون والمجرات والأنواء والنبات والحيوان والإنسان كل هذه الحركات تأتي مصدقة لكلام الله عز وجل ، فالله مؤمن ، أي : كلامه يجعلك تصدقه ، لأن أفعاله تصدق كلامه ، وهذا معنى من معاني المؤمن .

وإليك معنى آخر : هو أن الله سبحانه وتعالى يهب الأمن للإنسان ، كيف ؟ هنا المعنى الدقيق ، فلو أن الحديد تارة يكون قاسياً وتارة يكون ليناً ، فإنك تُنْشِئ البناء وأنت خائف ، لعل هذا الحديد بعد حين يصبح ليناً فيتداعى البناء ، لقد جعل الله للحديد خصائص ثابتة دائماً ، فإذا وضعت هذا الحديد مع الإسمنت ، وأَشَدْت البناء ، وسكنت في الطابق التاسع مثلاً فإنك تنام مطمئناً ، فما الذي جعلك تطمئن ؟ ثبات صفات الحديد ، ولو أن صفات الحديد تبدلت لانهارَ البناء .

فيمكن أن نقول : ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الأمن للناس ، ثبات حركة الأرض ، هذا الجامع شُيد منذ سنوات عديدة ، فلو أن هناك اهتزازاً في أثناء الدوران لكانت كل هذه الأبنية قابلةً لأن تنقض وتنهار ، فالأرض تتحرك بسرعة ٣٠ كيلو متراً بالثانية ، وهناك سكون رهيب ، ومن أجل أن تعرف قيمة السكون الحركي يأتي الزلازل أحياناً على مدينة بأكملها ، ويصبح عاليها سافلها بثوانٍ قليلة ، إذاً حركة الأرض مع سكونها واستقرارها جاءت مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٦١] .

أعطاك الأمان ، واشتريت بيتاً في الطابق العاشر ، وتعرف أنه بيت مستقر ، أما لو كان هناك اهتزاز لانعدم الأمن ، ثم إنك لو اشتريت بذوراً تنبت نوعاً من النبات ، ولا تستقيم الحياة لو لم يكنْ في الأرض ثبات ، وقمت بزراعة البطيخ مثلاً ، وكان الإنتاج بندورة لاختلطت الأمور ، وفسدت الحياة ، فثبات البذور حيث كل بذر له خصائِصُهُ نِعمة ومِنّة وأمان .

هناك شيء آخر غير الثبات ، فهناك آلاف الأنواع لكل نبات : هذا النوع إنتاجه مديد ، وهذا النوع إنتاجه مبكر ، وهذا النوع إنتاجه صناعي ، وهذا النوع للنقل ، وهذا للاستهلاك ، وهذا للمائدة ، أما هذا فإنه يقاوم أمراضاً معينة. . . . فحتى البذر نفسه له خصائص والخصائص ثابتة ، فما الذي يهبك الأمن وأنت تزرع ؟ ثبات الخصائص .

إذاً يمكن أن نقول : إن ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الإنسان الأمن ، الشمس تشرق دائماً من الشرق فليس في شروقها مفاجآت ، وليس لها دعاء شروق ، يارب الشمس لم تظهر اليوم أظهرها لنا! طمأنك ، الشمس دائماً تشرق ، ودائماً تغيب ، والأرض دائماً تدور ، ويكفي أن تأخذ ورقة من التقويم وأن تقرأ : الفجر الساعة الخامسة وثماني عشرةَ دقيقة والشمس تشرق الساعة السادسة وثلاثين دقيقة ، هذه الحقيقة في التقويم منذ متى ؟ منذ خمسة وستين عاماً ولمئة سنة قادمة ، ولألف سنة قادمة ، ولمئة ألف سنة قادمة ،

إلى أن تنتهي الدنيا ، دقة مابعدها دقة على مستوى الدقائق والثواني .

أرض بأكملها تدور حول الشمس ، وهناك نجوم تضبط عليها الساعات الشهيرة في العالم « بيغ بن » ، يقول القائل : ضبطت ساعتي على ساعة « بيغ بن » ، فإذا كانت هذه الساعات التي في أيدينا تضبطها على هذه الساعة الشهيرة « بيغ بن » ، لكن هذه الساعة الشهيرة كيف تضبطها ؟ تضبط على حركة المجرَّة .

إذاً ثبات الدوران ، ثبات السرعة ، ثبات الحركة ، ثبات الزاوية ، هذا يعطي الإنسان النظام الثابت يجعل فيه الأمن ، إذاً من الممكن أن نقول : صفات المواد الحديدية ثابتة ، شخص اشترى سواراً ذهبياً ودفع ثمنه عشرين ألفاً ، بعد فترة تبدل نوع المعدن أصبح معدناً خسيساً ، واللهِ هذه مشكلة ، لكن الذهب ذهب على الدوام ، ومثله في الثبات الحديد حديد ، والفضة فضة ، والقصدير قصدير ، والألمنيوم ألمنيوم ، ثبات صفات المعادن هذه تهب الأمن للإنسان ، وهذه نعمة لا نعرفها نحن لأنها مألوفة ، لذلك يقولون : شدة القرب حجاب ؛ لأن هذه النعمة مألوفة جداً ، كأنها لم تكن مع أنها نعمة عظيمة .

من أسماء الله عز وجل « المؤمن » فهو « المؤمن » إذا قرأت كتابه جاءت الحوادث كلها مصداقاً لكلامه ، ومؤمن يهب الأمن للإنسان عن طريق ثبات صفات المواد .

ثبات الأنظمة ، قانون الحركة ثابتة ، التمدد ثابت ، قوانين الجسم كذلك ثابتة ، فأنت تجد طبيباً في آخر الدنيا يصنع دواءً يستعمل في طرف آخر من أطراف الدنيا ، هذا الدواء يؤثر في الجسد حيثما كان ،

ما معنى ذلك ؟ أي : إنّ كل أجساد بني آدم من بنية واحدة ، فهناك أمن وأمان . مثلاً ؛ القلب ؛ تجد طبيباً ذهب إلى أمريكا درس عن القلب ، فلو ذهب إلى إفريقية ، إلى آسيا ، إلى أستراليا ، إلى أوروبة ، إلى أي مكان في العالم وفتح قلباً وجد شرايينه وأعصابه ومراكزه الكهربائية كلها بدقة تامة ، هذا الثبات يكفي أن تُشَرِّح إنساناً واحداً ، فكل إنسان إذا عالجته تكون بنيته وأعصابه وأوردته وشرايينه وعضلاته وفق هذا الأُنموذج ، ومع هذا أيضاً ثباتُ الأنظمةِ ، وثباتُ خصائصِ المواد ، فأحياناً يجعل الله عز وجل للمواد مضادات ، فالنار محرقة ، والماء يُطفىء النار ، أي : أعطاك لكل شيء خَطِرٍ ما يقضي على خطره ، وهذا يطَّردُ في كل شيء ، في الأدوية ـ مثلاً ـ هناك وباء نباتي فله أدوية بإمكانها أن تقضي على هذا العنكبوت أو على هذا الفطر أو على هذه الحشرة ، فالله عز وجل من أسمائه المؤمن ، لأنه يهب الأمن للإنسان .

الألم سماه العلماء جهاز إنذار مبكر ، فالإنسان يتلف سنه جزئياً فيتألم ألماً شديداً فيذهب إلى الطبيب فيصون هذه السن ، لو لم يكن هناك عصب يصاب لما أحس الإنسان بالألم ، ولما كانت هناك وقاية لهذا السن ، إذاً الألم من أجهزة الإنذار المبكر ، فكل خطر من أخطار الدنيا جعل الله له وقاية .

إذا استعان الإنسان بالله عز وجل يقيه من زلات المعاصي ، لقوله تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

لذلك قال وهيب بن الورد : « والله لو أن السماء من نحاس

والأرض من رصاص واهتممت برزقي لظننت أني مشرك » ، والحقيقة لو أردت أن ترى الفرق الجوهري بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن ، لوجدت أن الصفة الأساسية المميزة الأمن ، قال تعالى :

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام : ٨١] .

تجد قلوبَ أهل الدنيا فارغة ، عرضة للمخاوف ، سر للمقلقات ، عرضة للذعر ، لتوقع المصيبة ، لكن ربنا عز وجل إذا آمنت به ملأ قلبك اطمئناناً ، ملأ قلبك استقراراً ، ملأ قلبك رضا بقضائه ، ملأ قلبك معرفة بكماله ، هذا كله من أسماء المؤمن .

وهناك أمر آخر : كيف تأمن عذاب الله في الآخرة ؟ لقد أعطاك الكون ، وأعطاك العقل ، وأعطاك الفطرة ، وأعطاك الشهوة ، وأعطاك الاختيار ، وأعطاك القوة ، وهذه كلها مقومات النجاة في الآخرة ، تشعر أن الله عز وجل إذا أقبلت عليه تأمن القلق ، وتأمن المرض ، وتأمن الضيق ، وتأمن التعب ، وتأمن الخوف ، فالله سبحانه وتعالى مصدر أمنٍ وأمانٍ للبشر ، بعض الجهات تُقْلِقك ، ولكن من شأن اسم الله المؤمن ، أنك إذا فوضت أمرك إليه ، واتبعت أمره ونهيه فأنت في أمن وسلام ، فهذا المعنى الذي يليق بالله عز وجل فيما يتعلق بالمؤمن .

عن الأحنف بن قيس أنه قال : قال الخليل بن أحمد : « **الناس أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه . ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه . ورجل لا يدري وهو يدري أنه يدري فذاك طالب فعلموه ، ورجل لا يدري وهو**

لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فارفضوه » .

أنا أختار منهم من يدري ويدري أنه يدري أنّ اللهَ عز وجل مؤمن .

والمعنى الثاني من التصديق : أي شيء وعدك الله سبحانه وتعالى به في القرآن فزوال الكون أهون على الله من أن تأتي الأحداث مخالفة لما وعدك به ، وعدك بالنصر ، والنصر واقع لا محالة ، وعدك أن يدافع عنك ، وعدك أن يحفظك ، وعدك أن يرزقك ، وعدك أن يطمئنك ، وعدك بالأمن ، وعدك بالتمكين ، وعدك بتمكين دينك ، وعدك بالاستخلاف ، وعدك أن يكون معك .

المعنى الثالث : أنه يهب الأمن ، وبشكل بسيط نذكر العين ، فإذا قدت مركبتك في النهار تشعر بأنك مطمئن ، لأن مدى الرؤية بعيد جداً ، أما في الليل فيوجد الانبهار والأضواء فتشعر بقلق ، فالقيادة في الليل يرافقها القلق ، وفيها مفاجآت ، فالضوء الموجود في المركبة لا يكشف كل شيء ، ومداه محدود ، فكلما كانت الرؤية أطول كان الأمن أكثر ، إذاً ، فالله سبحانه أعطاك العين كي ترى طريقك ، كما أعطاك الأذن ، فإذا وجدت حركة في الليل فالأذن تكشفها ، فالسمع المرهف أحد وسائل الأمان ، العين إحدى وسائل الأمان ، وكذلك الشم ، فإذا أصدر الطعام رائحة كريهة فمعنى هذا أن الطعام فاسد ، فجعل الأنف فوق الفم كي يحصل لك الأمن الغذائي ، أعطاك يداً تدفع بها الضر ، أعطاك رِجلاً تنتقل بها من مكان إلى آخر ، هذه كلها لتحقق الأمن لك ، وهذا معنى آخر من معاني المؤمن .

والحقيقة أننا بعد كل بحث لابد من أن نسأل أنفسنا هذا السؤال ، يارب ، أنت المؤمن ، وأنا ما علاقتي بهذا الاسم ؟ أنت المؤمن فكل

الحوادث وكل الأفعال جاءت مصداقاً لقرآنك ، شيءٌ مريح لي ويؤكد علاقتي بالله المؤمن ، وهذا معنى أول .

والشيء الثاني وهبتني الأمن يارب ، وهبتنا الحواس ، وهبتنا الأجهزة ، ثبات خصائص المواد وثبات الأنظمة كلها وسائل أمان تؤكد سلامة علاقتي بالله المؤمن أيضاً .

قال لي طبيب قلبٍ : لو كان قلب إنسان نحو اليمين وقلب إنسان آخر نحو اليسار وقلب بمكان آخر لالتبسَت الأمور علينا ، درس هذا الطبيب القلب بأمريكا ، وعرف أن مكانه نحو اليسار ، وعند إجراء العملية لأحد المرضى وجد القلب على اليمين هذه واقعة لم يدرسها لأنها شاذة ! بينما للبشر كلهم بنْيَةٌ واحدة حتى على مستوى الأعصاب الدقيقة جداً ، وهذا يعطينا قدراً كبيراً من الأمن ، وكما قلت قبل قليل عن الأرض : وإنّ دورتها حول نفسها وحول الشمس ثابت ، شروقها وغروبها ثابت ، لكنّ الأمطار لم يجعلها ثابتة ، بل جعلها متبدلة ، هذا من أجل ألا ننساه ، من أجل أن نصلي له ، من أجل أن نتوب إليه من ذنوبنا ، ربنا عز وجل ثَبَّتَ أشياء وحرك أشياء ، ثَبَّت دورة الأرض حول نفسها ودورتها حول الشمس ، وثبَّت الشروق والغروب ، وثبَّت القمر ، وثبَّت الأنظمة والبذور والخصائص والبنى ، هذه كلها ثبتها ، وجعل الرزق بيده ، فجعل الرزق وسيلة كي تعود إليه ، وكي تقبل عليه ، وكي تتوب إليه من ذنبك ، هذا معنى جليل ، جدير فهمه .

أنت مؤمن : فأول شيء يجب عليك أن تفعله أن تأتي أفعالك كلها مصداقاً لأقوالك ، فلا يليق بك أن يكون لديك ازدواجية ،

ولا أن يكون عندك شيء داخلي ، وشيء خارجي ، وشيء تعتقده ، وشيء تقوله بعكسه ، فهذا اهتزاز واضطراب في نفسك وسلوكك ، وربنا عز وجل يقول :

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٠] .

ظاهرك الذي يطلع عليه الناس : أنك مستقيم ؛ صلاة ، صوم ، حج ، زكاة ، لكن باطنك قد يكون : الحسد ، الكبر ، الحقد ، الضغينة هذه كلها من بواطن الإثم ، إذاً أنت مؤمن يجب أن يأتي عملك مصداقاً لقولك بالضبط ، يجب أن تكون موحداً ، ليس لك ظاهر وباطن ، وليس لك سريرة وعلانية ، ولا موقف معلن وآخر غير معلن ، وبكلمة موجزة ليس لدى المؤمن ازدواجية ، فأنت مؤمن يجب أن تأتي أفعالك كلها مصداقاً لأقوالك ، إذا أردت أن تكون بالمستوى اللائق الراقي يجب عليك أن تكون أفعالك كلها مصداقاً لأقوالك ، هذا شيء أول .

أما الشيء الثاني فيجب أن يأمنك الناس :

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « وَاللهِ لا يُؤْمِنُ وَاللهِ لا يُؤْمِنُ وَاللهِ لا يُؤْمِنُ » قِيلَ : وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » [صحيح البخاري] .

هناك أشخاص مخيفون ، فإذا تكلمت كلمة مؤذية لمسامعهم مثلاً فلن تنام الليل خوفاً من عاقبتها ، ولابد للمؤمن من أن يكون مصدر أمن ، فلا يأتيك من طرفه ضرر أو أذى أو مكيدة أو غدر أو قنص. . . أبداً ، فهو مصدر أمان ، تنام ناعم البال ، مطمئن النفس ،

مرتاح الضمير ، حتى ولو زلت قدمك أمامه ، ولو تكلمت بكلمة غير لائقة أمامه فلن يتخذ منك موقفاً ، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« **يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار** » [متفق عليه عن أبي هريرة] .

ومع ذلك تجد الناس يعصونه جهراً وهو يسترهم ، والعبد ينسى ، وربي لا ينسى ، يعصونه جهراً ويسترهم ويرزقهم ويحفظهم ، وهذا شأن الله مع عباده ، وأنت أيها القارئ الكريم مؤمن فأول صفة من صفاتك أنه ينبغي أن يأتي فعلك مصداقاً لقولك ، وأن تلغي من حياتك الازدواجية : الظاهر والباطن ، العلانية والسريرة ، أن تكون في جلوتك كخلوتك ، أجل هذا هو المعنى الثاني : أن يأمن جانبك الناس كلهم .

فمثلاً زَوَّجْتَ ابنتك لمؤمنٍ فلا تخاف أن يجيع ابنتك ، ولا تخاف أن يظلمها ، ولا تخاف أن يفضحها ، ولا تخاف أن يضربها ، المؤمن لا يأتي من جانبه إلا كل خير ، إنْ شاركتَ مؤمناً فأنت مرتاح مطمئن ، لا تخاف أن يتلاعب بالحسابات ، ويزور لنفسه حساباً خاصاً ، يعقد صفقة من وراء ظهرك ، لا تخاف ، أصلحت جهازاً عند مؤمن فلا تخاف أن يبدل هذه القطعة بقطعة أخرى وأنت لا تدري ، يأخذ القطعة الجيدة ويعطيك قطعة رديئة ، يخدعك ويغشك ، إن المؤمن مأمون الجانب في صنعته ، في حديثه ، في عمله ، في مهنته ، في حرفته ، في زواجه ، في شراكته ، هكذا المؤمن يكون مأمون الجانب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ** » [سنن الترمذي] .

لاتخشَ أن ينكر عليك المبلغ ، إذا ائتمنته عليه ، أو أقرضته إياه ، ولا يخطر لك هذا في بالٍ أبداً ، لا تخشى أن ينكرعليك مالك أو يخفر ذمته نحوك ولو لم يكن معك إيصال ، فذمته أمينة مصونة ، إذ يخاف الله عز وجل ، إذاً أنت كمؤمن تؤمن بقوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر : ٢٣] .

فالله مصدر أمان للعباد في أفعاله ، وفيما أعد لهم في الآخرة ، قال تعالى :

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٨] .

فأنت مؤمن ، إذا ذكرت لك جهنم على مسمعك ، أو وُصِفت لك فإنك تتقيها بالتفكر وبالعمل الصالح ، وبطاعة الله عز وجل ، وفي الإقبال عليه خدمة للخلق ، وبالبذل والتضحية والإخبات ، والخوف ، والرجاء مما يجعلك في منجاةٍ من عذابها إن شاء الله .

وكذلك المؤمن مأمون الجانب ، جارك يطمئن لك ، من يعاملك يطمئن لك فتنصحه ، لا تكذب عليه ، ولا تغشه ، أتعطيه الحاجة وقد انتهى مفعولها وزورت التاريخ ؟ لا ، أنت مأمون ، الأنبياء مأمونون على رسالة السماء ، والمؤمن مأمون على ما ائتمن به ، ابنتك أمانة عندك ، زوجتك أمانة ، أولادك أمانة ، وهكذا ، لكن الشيء الذي أتمناه عليك عزيزي القارئ أن تبادر فتدعو الناس إلى الله عز وجل ،

بحيث يأمنوا عذابه يوم القيامة ، ولتعلم أن هذه صنعة الأنبياء ، وهذا أعظم أمن ، فأعظم عمل ترجو ثوابه عند الله تعالى أن تحول بين الناس وبين عذاب جهنم ، بأن تعرفهم بالله عز وجل ، فإذا عرفوا الله واستقاموا على أمره وعملوا الصالحات كان نهجك نهج الأنبياء وكنت المؤمن حقاً ، وهذه هي صنعة الأنبياء كما نوهت من قبل فتكون سبباً لنجاة الناس من النار ، واعلم أنهم إذا استقام إيمانهم ، واستقامت أمور آخرتهم على ما ذكرنا ، استقام لهم أمر دنياهم وسعيهم فيها .

إن الله عز وجل هو المؤمن وسمّى عباده الطائعين مؤمنين وهذا شرف لهم وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وحسبك قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

هو ملك الملوك ، ومع ذلك سمح لك أن تسمي نفسك مؤمناً ، وهو المؤمن ؛ مؤمن بذاته أولاً ، ثانياً تأتي أفعاله كلها مصدقة لأقواله ، فأنت إذا قرأت القرآن لا تخشى المفاجآت ولا تخشى أن تأتي الأحداث خلاف القرآن فتنفضحَ أمام الناس ، لا ، إنك لا تخشى إذا اعتقدت بما قاله الله عز وجل أن تأتي حقيقة علمية في المستقبل تكشف لك خطأ هذه الآية ، أعوذ بالله ، هذا شيء مستحيل ، لأن الله عز وجل مؤمن ، أفعاله تأتي مصداقاً لأقواله .

المعنى الثالث : يهبك الأمن : إنْ في حواسك ، وإن في أجهزتك ، وإن في أعضائك ، إن في طعامك وشرابك ، حتى في الهواء ثبات ، وهو شيء ثمين موفور ، إن في ثبات خصائص المواد ، إن في ثبات طريقة النبات ، إن في بنية الأشياء ، إن في عملها بل وفي كل شيء ، وقال سبحانه :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] .

وبعد فأنت لأنك مؤمن لابد من أن تأتي أفعالك مصدقة لأقوالك ، ويجب أن يأمن الناس جانبك ، أي أنت مأمون فلا مفاجآت من قبلك ، ولا غدر ولا إيقاع ولا خيانة .

نسمع كل يوم آلاف القصص عن غدر الناس بعضهم لبعض ، كما نسمع مئات القصص عن خيانة الشركاء لشركائهم ، وعن خيانة الأزواج لزوجاتهم أو بالعكس ، وعن أفعال يندى لها الجبين ، وعن مقالب وغدر وإيقاع الأذى ، فليس هذا من أخلاق المؤمن ، لأن المؤمن جانبه مأمون .

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **وَاللهِ لا يُؤْمِنُ وَاللهِ لا يُؤْمِنُ وَاللهِ لا يُؤْمِنُ** » قِيلَ : وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ** » [صحيح البخاري] .

وبعد ، فلا بد من سؤال وجيه يطرح نفسه : كيف نوفق بين اسم المؤمن ، وأن الله سبحانه وتعالى يقذف الخوف في قلوب العباد ، هو مصدر أمن للخلق ، وفي الوقت نفسه قد يملأ قلوبهم خوفاً ؟!

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٢١] .

وجواب ذلك دقيق جداً ؛ فالإنسان إذا أمن اطمأن للدنيا ، ونسي الله عز وجل ، وركن إليها ، فأعجبه ماله ، وأعجبته قوته ، أعجبته مكانته ، وأعجبه عيشه ، وشعر أن الدنيا مديدة ، وأنه في مركز قوي ، وبذا فقد أمن دنياه ، واطمأن لها ، وعاش في غفلة عن آخرته ، فما علاجه ؟ أن يقذف الله في قلبه الخوف ، فإذا خاف هذا العبد التجأ إلى الله عز وجل ، ونجا من غفلته ، فهو يخيفك كي

يؤمنك ، ويفقرك كي يغنيك ، ويمنعك كي يعطيك ، ويضرك كي ينفعك ، ويُذلّك كي يعزّك .

وبعد ، ففي الفقرة السابقة إشارة إلى أسماء الله المزدوجة ، ولقد قال العلماء فيما يتعلق بأسماء الله عز وجل المزدوجة : لا ينبغي إلا أن تذكر مثنى مثنى ، فمثلاً قالوا : ابتلاك ببعض صحتك ، وأسقمك ليرحمك بعافيته ، قال أبو الطيب :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحّت الأجسام بالعلل

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا بْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ. . . . » [صحيح مسلم] .

فإن أخذ بعض صحتك فذلك ليعوضك عما أخذ منك بشيء من رحمته ، تزور المريض المؤمن فتجد نفسه صافيةً جداً ووجهه متألقاً ، إنه قريب من الله عز وجل ، أسقمه قليلاً ، وأعطاه الرحمة بديلاً ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ، يضرُّ لينفع ويذل ليعز ، ويخفض ليرفع ، ويمنع ليعطي ، ويخيف ليطمئن ، فإذا ابتعد الإنسان عن ربه ، وشرد عن شرعه امتلأ قلبه خوفاً ، وهذا الخوف هو الدافع هو الذي يدفعه إلى العودة إلى رحاب الشرع ومحجة الإيمان .

إذاً أريد منك أيها القارئ الكريم أن تجمع بعض الآيات الكونية عن خلق الإنسان ، وعن خلق الحيوان ، وعن خلق النبات مما يبعث الطمأنينة في القلب ، بعد إدراك ما فيها من إشارة إلى قدرة الله عز

وجل ؛ بحيث توقظ فيك مواطن الاعتبار والاتعاظ فتزداد إيماناً « بالمؤمن » .

وأنا أرشد القارئ الكريم إلى أن هذه الأسماء الحسنى ما هي إلا تعاريف وهي بذلك موضوعٌ صغير جداً ، وأمّا كأدلة عليها من الكون فهي موضوع كبير جداً ، موضوع له آفاق واسعة لا تنتهي ، لأن الكون كله يؤكد أسماءه الحسنى .

وإذ أختم هذه المطالعة لهذا الاسم « المؤمن » فإليك هذه الخلاصة : الله مؤمن ؛ يعرف ذاته ، وأفعاله تأتي مصدقة لأقواله ، فأنت إذا آمنت بالله ، وقرأت كتابه لن تفاجأ بحوادث مخالفة لما في كتابه ، الشيء الثابت يهبك الأمن من خلال خَلقه ، ومن خلال أفعاله ، فأنت مؤمن ينبغي أن تكون على صفتين ، أولاً : أن تكون أفعالك مصدقة لأقوالك ، وثانياً : أن يأمن الناس جانبك . وإذا رأيت نقيض الأمن وهو الخوف ، فهو يخيفك كي يؤمنك ، يأخذ منك ليعطيك ، يخفضك ليرفعك ، يذلك ليعزك ، وهكذا فكل أمِرك عنده عاقبته إلى خير .

* * *

المهيمن

والاسم المقرر اسم « المهيمن » .

من منهج دراسة أسماء الله الحسنى مُراعاة نقاط ثلاث :

- النقطة الأولى : الحديث عن تعريف هذا الاسم .
- النقطة الثانية : تطبيقاته العملية .
- النقطة الثالثة : علاقة المؤمن به .

فمن معاني المهيمن : الرقيب الشهيد الذي يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين ، يعلم ما تخفي الصدور ، يعلم ما ظهر وما بطن ، يعلم ما يعلن المرء وما يسر ، يرى الأشياء ويرى ما خلف الأشياء ، يرى الظاهر ويرى الباطن .

ومن لوازم اسم المهيمن ؛ القدرة التامة على تحقيق مصالح العباد علماً وقدرةً ، ففي بني البشر من يعلم ولكنه لا يقدر ، وفي بني البشر من يقدر ولكنه لا يعلم ، ومن لوازم اسم المهيمن صفة ثالثة هي : المواظبة والاستمرار ، قد تعلم ولا تقدر ، حيث يقول العوام : « العين بصيرة ، واليد قصيرة » ، وقد تقدر ولا تعلم ، فالإنسان قد يكون قوياً قادراً يتمتع بأعلى درجات القوة ، ولكنه لا يعلم ، وقد تعلم وتقدر ، وهذا النوع في بني البشر نادر الوجود ؛ أن يعلم وأن

يقدر ، ولكنه لا يضمن المستقبل . قد يكون المرء على علم بما يجري تحت يديه وعلى علم بما يجري حوله ، وهو واثق بأن يده تطول كل هذا الذي تحت سلطانه ، ولكن لا يدري ماذا يكون من نتائج في المستقبل ، أما إذا قلنا : « المهيمن » اسم من أسماء الله الحسنى فمن لوازم المهيمن أنه يعلم ، ولا نهاية لعلمه ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فلو أن طبيباً فحص مريضةً تشكو من بعض أعضائها ، واسترق النظر إلى عضو آخر فهذه خيانة ، وليس في الأرض كلها من يعلم هذه الخيانة إلا الله ، يعلم خائنة الأعين ، أي يعلم السر ، علم ما كان ، وما يكون ، وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، يعلم السر وما يخفى عنك ، يعلم الجهر وما تعلنه ، يعلم السر وما تخفيه عن الناس ، ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ﴾ [الحديد : ٤] في خواطركم ، في صراعاتكم ، في نياتكم في طموحاتكم ، في حركاتكم ، في سكناتكم ، في سركم ، في جهركم ، في بواطنكم ، في علانيتكم ، يعلم كل شيء .

بالمناسبة إن الإنسان لا يستطيع أن يهيمن إن لم يعلم تلك المعلومات والملابسات المحيطة بموضوعه قبل أن يباشره ، لا يستطيع إنسان أن يهيمن على شيء ما ، مهما كان ضيقاً محدوداً إن لم يعلم بكل ذلك يقولون : فلان تقصَّىٰ الحقائق ، يقولون : بثَّ العيون ، كيف تملك القرار إن لم تملك الحقيقة ؟ المهيمن يعلم .

ولكن ما نفع العلم إذا كنت لا تقدر ، ها أنت تعلم مثلاً ولا تقدر ، المهيمن يعلم وهو يقدر ، ولا يعجزه شيء ، ولا نهاية لتعلقات قدرته ، كل الممكنات ؛ أي كل ما سوى الله من ضمن

قدرته ، ولكن قد تعلم ما أنت بصدده ، وقد تملك ، ولكن لا تعلم ما سيكون في الغد ، قال تعالى في مجال الاقتدار :

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور : ٤٤] .

وقال تعالى في مجال العلم :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[آل عمران : ١٤٠]

ومن لوازم المهيمن طبعاً هذه الفكرة التي أسوقها للقارىء الكريم لتأكيد هذا المعنى ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا سافر يقول :

« **اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**[1] » .

هل تعتقدون أن هذه الصفة التي يقررها الحديث يمكن أن تكون في إنسان ما ، كأن يكون معك في السفر وفي الوقت نفسه يكون خليفتك في بيتك وأهلك وأولادك ، مستحيل ؛ إما أن يكون معك وإما أن يكون في بيتك ، لذلك قالوا : هاتان الصفتان لا تجتمعان إلا لله عز وجل ، هو معك بالحفظ والرعاية والتوفيق والتسديد والنصر والتأييد ، وهو في البيت مع أولادك معية علم وقدرة ورعاية في غيبتك ، يحفظهم من كل مكروه ، هو معك وهو خليفتك في البيت .

أقول : إنه من النادر أن يجتمع لإنسان العلم والقدرة ، ففي

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم والترمذي بسند صحيح من حديث عبد الله بن سرجس ، وتتمته : « اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ومن الحور بعد الكون ومن دعوة المظلوم ومن سوء المنظر في الأهل والمال » واللفظ للترمذي .

المجتمعات البشرية أفراد تفوقوا في العلم ، ولكن يدهم قصيرة عاجزة ، وأفراد تفوقوا في القدرة ، ولكن علمهم محدود ، لكن لو أنه ، فرضاً ، اجتمع لإنسان ، وهذا شيء نادر جداً ، كمال العلم مع كمال القدرة ، ولعل نسبة ذلك واحد بالخمسين مليون ، وإذا اجتمع لأحد كمال العلم مع كمال القدرة فإن رؤية المستقبل تنقصه حقاً ، قد يأتي من هو أقوى منه فينتزع ما بيده ، وقد يأتي من هو أذكى منه ، أو قد يأتي من هو خبيث ماكر فيسلبه ما بين يديه .

إذاً قد يجتمع لديك العلم والقدرة ، ولا تملك المستقبل ، ولكن إذا قلت : الله مهيمن معنى ذلك : أنه يملك العلم الكامل

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٦] .

والقدرة الكاملة ولا نهاية لتعلقات علمه ، ولا نهاية لتعلقات قدرته ، وليس في الكون جهة أخرى تشاركه في الحكم ألا تسمع قوله :

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٦] .

لو كان في الكون آلهة غير الله لفسدتا ، ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، ليس لجهة أخرى أن تنافس ، أو تسيطر ، أو تقاوم ، أو تنازع ، أو تُفسد ، لذلك إذا اتكلت على المهيمن فهو الذي يعلم ، والذي يقدر ، ويعلم ما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وليس كمثله شيء .

ومن باب الموازنة : فالإنسان قد يملك ولا ينتفع ، قد يملك بيتاً ثمنه أربعون مليون ليرة ، لكنه مؤجر قبل عام السبعين مثلاً ، فهو يملكه ولا ينتفع به ، وقد ينتفع ببيت لا يملكه ، وقد ينتفع به ،

ويملكه ، لكن فجأةً يصدر قرارُ استملاك فيغدو مصيره بيد غيره ، أما إذا قلنا :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٩] .

فالكون كلهُ مِلْكُهُ مِلكاً وتصرفاً ومصيراً .

وبعد ، إني أريد لك أن تعلم أن جزءاً أساسياً جداً من إيمانك بالله ، أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى ، وقد يسأل سائل عن هذا الحديث هل هو حديث صحيح وهل قاله النبي ﷺ ؟ :

« **إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة** » .

نعم إنه صحيح ومتواتر إلى أبي هريرة وطرقه إليه كثيرة جداً ، إياك أن تفهم كلمة أحصاها أنه عدَّها ، إياك أن تفهم كلمة أحصاها أنه قرأها أو حفظها أوعدها ، لا ، فإن معنى « أحصاها » أي : فهمها ونال نصيبه منها ، ولعلك لاحظت مما سبق أن كل اسم من أسماء الله الحسنى ـ بصفتك مؤمناً ـ لك منه نصيب ، فإن لم يكن لك نصيب من هذا الاسم فكأنك ما أحصيت هذه الأسماء .

فالمهيمن ؛ ذو علم لا نهاية له ، وقدرة تامة ، ومواظبة واستمرار ، هذا معنى المهيمن ، ولكن هناك أربعة معانٍ فرعية تضفي على هذا المعنى شيئاً نفيساً جداً :

المعنى الأول : إذا كان الله هو المهيمن ففي معاني هيمنته الحب والشفقة ، فأحياناً تقف الأم حول سرير ابنها المريض وهي تلاحظ حركاته وسكناته ، هذه الوقفة الحانية المشفقة وقفة علم ، وقفة سيطرة ، ولكنها بدافع نبيل ، بدافع الشفقة والعطف والحنان ، فإذا قلنا : فلان مهيمن بدافع الحقد وبدافع العنجهية والغطرسة والقوة

والانتفاع والمناجزة وما إلى ذلك ، فهذا استبداد وبطش ، إن وصف الإنسان بأنه مهيمن فالمعاني متعددة ، وقد تنعكس سلباً وإيجاباً ، أما إن وصف الله عز وجل بأنه مهيمن فمن معاني هيمنة الله عز وجل حبه وعطفه على عباده ، مع ملاحظة المعنى الأساسي للاسم ، والنبي عليه الصلاة والسلام رأى امرأة تقبّل ابنها فقال عليه الصلاة والسلام :

« **أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟** » فقلنا : لا ، النار حق وإحراقها حق ولهيبها حق ، ولكن هذا شيء متعلق بذات الله عز وجل . فقال : « **لله أرحم بعباده من هذه بولدها** » [متفق عليه] .

فهيمنة الله عز وجل هيمنة ممزوجة بعطفٍ وحب وشفقة ورحمة وحرص على سعادتك وعلى آخرتك وعلى مستقبلك ، فالمعنى الأساسي الأول علم وقدرة وديمومة ، أما أحد المعاني الفرعية للهيمنة : فالحب والشفقة .

فلان مهيمن على هذا المستودع أي : أمين عليه لا يدع حاجة تخرج منه بلا علم ، وبلا تسجيل ، وبلا مراقبة ، وبلا محاسبة ، هيمنة الأمانة .

ولندع المعنى الأول هيمنة الشفقة كالأم على ابنها إلى :

المعنى الثاني : هيمنة الأمانة ، لذلك من معاني المهيمن الحافظ :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

ومعنى مهيمن : أنك إذا كنت مع الله عز وجل ، واعتقدت بوجوده ، وأردت أن تحاور إنساناً فأنت المنتصر ، الحوادث كلها

تأتي مصدقة لك ، كل إنسان يطرح نظرية أو يطرح فرضية أو يطرح مذهباً أو يطرح فكرة أو يطرح تفسيراً أو يطرح تحليلاً أو يطرح عقيدةً ، والوقائع العملية تثبت العقيدة التي جاء بها القرآن ، فإذا كنت أنت مع القرآن فأنت المهيمن وأنت المنتصر .

أن تقول مثلاً : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

يمحق الله الربا ، هذه آية كريمة وهذه عقيدتك ، فالمرابي يقول لك العكس : أيعقل أن أجمد المال دون أن أضعه في مصرف لأتقاضى عليه فائدة مجزية أعيش بها ؟ أنت ـ بوصفك مؤمناً ـ تطرح أن الله عز وجل يمحق الربا ، وهذا المُعرض الكافر يطرح نظرية أخرى وهي أن الإنسان لا بد من أن يستثمر ماله ، الأيام تدور والوقائع تتجدد ، فإذا بهذا المرابي يمحق ماله ، من الذي هيمن في هذا الموضوع ؟ أنت ، أنت عندما اعتقدت أن المرابي يمحق ماله ، والأيام أكدت هذه الحقيقة فأنت المهيمن ، أنت تعتقد أن الإنسان إذا غض بصره عن محارم الله أورثه الله نوراً في قلبه[1] ، وانعكس هذا في حياته الزوجية ، يقول لك آخر : لا ، هذه العين يجب أن تستمتع ، فهذا الجمال لمن خُلِق ؟ لنا ، فلا بد من إطلاق البصر ، وأن تملأ العين من هذه المناظر الحسنة الجميلة ، تقول له : لا ، ورأيك خطأ ، هذا أمر إلهي ، وهذه آية قرآنية ، تدور الأيام فإذا بهذا الذي

---

(١) ولذلك ذكر الله تعالى آية النور عقيب آيات غض البصر ، وكان شاه بن شجاع الكرماني لا تخطىء له فراسة وكان يقول : من عمَّر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات. . . لم تخطىء فراسة .

يمضي نهاره كله في الطرقات يملأ عينيه من الحرام قد أصيب بمرض ارتخاء الجفون ، من الذي هيمن في هذا الموضوع ؟ أنت ، أنت الذي هيمنت عندما جاءت الوقائع تؤكد ماتعتقد من أن هذا أمر إلهي ، أنت إذا اخترت فتاة ولم تخترها إلا لدينها وعفافها وشرفها وصلاحها وأسرتها الصالحة ، وآثرت دينها على الجمال وعلى المال وعلى الحسب وعلى النسب وعلى الوجاهة في الدنيا ، فأنت انطلقت من منطلقٍ أن هذا العمل هو طاعة لله عز وجل قال سبحانه :

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢٢١] .

أما ذاك الآخر فقد انطلق من شهوته وقال : الزوجة يجب أن تكون مِلْءَ العين جمالاً وفتنة كما أحب وأشتهي ، ولا قيمة لقلة دينها ، تدور الأيام ، وإذا بك ترى هذا الذي اختار المرأة الصالحة لصلاحها ودينها ترى حياته الزوجية مستقرة وسعيدة ومفعمة بالمودة والمحبة ، تتنامى سعادته ، ويبارك الله له في هذه الزوجة ، ويرزقه الأولاد وفيهم قرة العين ، أما الذي آثر الجمال على الدين فحياته قطعة من جحيم ، فمن الذي هيمن في نهاية الموضوع ؟ المؤمن ، لذلك ربنا عز وجل يقول :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] .

إذاً هذه معانٍ فرعيةٌ صحيحةٌ من معاني المهيمن ؛ أن هيمنة الله عز

وجل هيمنة حب وشفقة ، وأن هيمنة الله عز وجل هيمنة حفظ وأمانة .

ومن معاني هيمنة الله عز وجل كذلك : أن الله سبحانه يصدقك بأفعاله .

ومن معاني أن الله مهيمن أنك أنت المنتصر ، وكلامك هو الصواب ، واعتقادك هوالصحيح ، والأفعال تأتي مصدقة لك ، هذا معنى المهيمن كاسم من أسماء الله الحسنى ، إذاً الهيمنة العلم الكامل ، العلم التام ، والقدرة التامة ، والاستمرار والمواظبة ، هذه المعاني الأساسية .

أما المعاني الفرعية فهيمنة حب ، لا هيمنة غطرسة وعنجهية وسيطرة ، كما يكون الإنسان ، وهيمنة محافظة على المهيمَن عليه ، أمين مستودع لا تأخذه في الله لومة لائم ، وهيمنة تصديق لكل ماجاء به القرآن ، هذا الجانب النظري من معنى المهيمن ، علم وقدرة واستمرار ، شفقة وحفظ وتصديق .

والآن أسوق بعض الأمثلة للإيضاح : هناك وقائع وشواهد وحقائق تعمق مفهوم هذا الاسم ومدلولاته .

سيدنا موسى حينما قال الله له ولأخيه هارون : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٣ـ٤٤] .

فرعون ؛ وما أدراكم ما فرعون ؟ الذي ذبح أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم ، فمن يجرؤ على أن يخاطبه ، وعلى أن يبين حقيقة دعواه الزائفة في أنه إله ، من يجرؤ ؟

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٥-٤٨] .

إنني معكما أسمع وأرى ، وفرعون بيدي ، إذاً إذا آمنت أن الله هو المهيمن تستسلم ويرتاح قلبك ، تطمئن نفسك ، يستقر فؤادك ، ترتاح أعصابك ، الأمر بيد الله بعلمه وبقدرته ، كل الخلق بيده ويعلم السر وأخفى .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري . فلما خلا بعضهم ببعض قالوا : لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب : أنا! فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فانصرف عنهم . فأنزل الله تعالى فيه وفيما أراد هو وقومه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة: ١١] .

من الذي أخبره أن يتحول عن هذا المكان ؟ الله عز وجل ، هم اتفقوا في غرفة محكمة الإغلاق قال ابن إسحاق : ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ، اتفقوا على ذلك والله عز وجل أخبره ، معنى مهيمن هنا أنه علم ما يقولون .

عمير بن وهب كان شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويلقون منه عناء أذاهم بمكة وكان ابن وهب بن عمير في أسارى أصحاب بدر قال : فذكروا أصحاب القليب بمصابهم ، فقال : والله ما في العيش خير بعدهم ، فقال عمير بن وهب : صدقت ، والله! لولا دين علي ليس عندي قضاؤه ، وعيالي أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي فيهم ابني عندهم أسير في أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوانُ فقال : علي دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أسويهم ما بقوا ، لا نسعهم بعجز عنهم ، قال عمير : اكتم عني شأني وشأنك قال : أفعل! ثم أمر عمير بسيفه فشحذ وسمَّ ثم انطلق إلى المدينة فبينما عمر رضي الله عنه بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر إلى عمير بن وهب قد أناخ بباب المسجد متوشح السيف فقال : هذا الكلب والله! عمير بن وهب ما جاء إلا لشر هذا الذي حرض بيننا وحرزنا للقوم يوم بدر ، ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله! هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً بالسيف قال: فأدخله فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها ، وقال عمر لرجال من الأنصار ممن كان معه : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا هذا الكلب عليه فإنه غير مأمون ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم به عمر آخذ بحمالة سيفه فقال : أرسله يا عمر! ادن يا عمير! فدنا ، فقال : أنعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، السلام تحية أهل الجنة ،

فقال : أما والله يا محمد إن كنت لحديث عهد بها ، قال : فما جاء بك قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم ـ فأحسبه قال فما بال السيف في عنقك ـ قال قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : إلا لهذا ، قال : بلى قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش فقلت : لولا دين علي وعيالي لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان لك دينك وعيالك على أن تقتلني ، والله حائل بينك وبين ذلك ، قال عمير أشهد انك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خير السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فو الله! إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثم شهد الحق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرؤوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ثم قال يا رسول الله : إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ولا أوذيهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب قال لقريش أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه فحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذي من خالفه أذى شديداً فأسلم على يديه ناس كثير .

[رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيد] .

خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت وكانت حسنة

الجسم وكان به لمم فأرادها فأبت فقال لها : أنت علي كظهر أمي ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية فقال لها : ما اظنك إلا قد حرمت علي فقالت : والله ما ذاك طلاق وأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه ـ فقالت : يا رسول الله! إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمتِ عليه فقالت : يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولدي وأحب الناس إلي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت عليه فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، قد طالت صحبتي ونفضت له بطني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت عليه هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك وكان هذا أول ظهار في الإسلام فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت : انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبي الله فقالت عائشة : أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه أخذه مثل السبات ـ فلما قضى الوحي قال لها : ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله صلى الله

عليه وسلم : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ الآيات .

قالت عائشة : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتحاور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى علي بعضه إذ أنزل الله :

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾(١) [المجادلة : ١] .

فكان عمر بن الخطاب عملاق الإسلام ، كلما مر بخولة بنت ثعلبة ، كان ينزل عن دابته ، إجلالاً لها ويقف أمامها بأدب ويستمع لها ، فقال له أحدهم : أنت أمير المؤمنين وتستمع لهذه المرأة ؟ قال : كيف لا أستمع لها وقد استمع الله لها من فوق سبع سموات ، معنى هذا أن الله مهيمن ، ويسمع كل شيء .

وكذلك ، سيدنا موسى قال لفرعون : أنا رسول الله ، وكلمة فرعون تعني في وقته أعظم إنسان ، ودولته أعظم دولة ، وحضارته أعظم حضارة ، وهو الذي قال : أنا ربكم الأعلى ، وجمع السحرة كلهم ، ووعدهم بالعطايا وبالمناصب ، من أجل أن يقهروا سحر موسى ، كما يَدّعون ، قال تعالى :

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي في السنن والحاكم وابن أبي عاصم في السنة وعبد بن حميد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي بلفظ : يارسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم أني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات ، واللفظ لابن ماجه في الطلاق .

صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٦ـ٦٩] .

من انتصر ؟ سيدنا موسى ، فالله مهيمن على كل شيء .

هـذه كلهـا شـواهـد قـرآنيـة علـى اسـم المهيمـن ، علـم وقـدرة واستمرار ، هيمنة شفقة وهيمنة حفاظ وهيمنة تصديق .

أما سيدنا إبراهيم فقد جاءه جبريل ، وقد أوقد قَومُه ناراً عظيمة ، جمعوا حطباً أياماً وأسابيع فأوقدوها وأركبوه المنجنيق وقذفوه كي يسقط في وسْطها ، هم مسيطرون مهيمنون ، بيدهم كل شيء ألسنتهم تردد : مَنْ أشدُّ منّا قوة ؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ ﴾ ، ثلاث كلمات ، قلنا : يا نار ـ الله مهيمن ـ كوني برداً ، لو لم يقل : وسلاماً لمات إبراهيم من البرد ، ولوجدوه مجمداً ، لكنه أضاف : وسلاماً ، وقال : على إبراهيم ، لو لم يقل : على إبراهيم لانعدم وجود النار في الأرض ، ولأصبحت النار لا تحرق إلى يوم القيامة ، ثلاث كلمات :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩ـ٧٠] .

من المهيمن ؟ الله عز وجل .

وكذلك ، أُمُّ موسى ، أعطني أُماً تستطيع أن تضع ابنها ، فلذة كبدها في صندوق ، وتلقيه في اليمّ ، الله عز وجل أمرها بأمرين ، ونهاها نهيين ، وبشرها ببشارتين :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

أرضعيه وألقيه في اليم ، هذان أمران ، ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ وهذان نهيان ، البشارتان : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، فهذا الصندوق من سَيَّرَهُ إلى شط فرعون ؟ يعلم ويسيطر ، وحينما فتح الصندوق من ألقى حبه في قلب امرأة فرعون ؟ الله عز وجل ، إذاً فالله مهيمن .

هذه القصص كلُّها تؤكد أسماء الله الحسنى ، سيدنا يونس ؛ لا أعتقد أنه مهما ضاقت الأمور بأحد في الدنيا ، لا أعتقد أن هناك مصيبة على وجه الأرض تفوق مثل أن يكون المرء في ظلمة بطن الحوت ، مع ظلمة البحر ، مع ظلمة الليل ، أجل في ظلمة بطن الحوت ، فإذا فتح الحوت فمه جمع أربعة أطنان من السمك كوجبة عشاء معتدلة ، ورضعته الواحدة لوليده ثلاثمئة كيلو غرام من الحليب ، فثلاث رضعات تساوي ألف كيلو غرام تقريباً ، كل يوم يحتاج إلى طن حليب ، والحوت تقريباً وزنه مئة وخمسون طناً ، فجوفه غرفة ، وسيدنا يونس نبي عظيم ، فجأة وجد نفسه في ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

ياترى ، هل في بطن الحوت جهاز فاكس أو جهاز تلكس أو هاتف محمول أو جهاز إشارة أو ما يشبه ذلك ؟ ليس في بطنه شيء من هذا ، إلا أنه نادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] .

ألا ترتاح نفسك إلى هذه القصة ؛ التي ختمت ببشارةٍ لكل مؤمن : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ففي أي عصر ، وأي زمان ، وفي أي مصر ، وفي أي ظرف مهما يكن شديداً ، الله مهيمن ، أنت كن مع المهيمن ، وارتح مطمئناً إلى سلامة المصير .

انظر إلى الطفل الصغير وهو في حضن أمه لا يتكلم بشيء إطلاقاً ، الأب يجهد لتأمين الحاجات ، ولتأمين الأدوات المدرسية ، والابن مرتاح يريد الكراسة الفلانية والفلانية والفلانية ، يلقي الأمر بالطلبات المتلاحقة وهو مرتاح ، والأب يتمزق لتأمين هذه الأغراض ، فإذا كان الشخص مع المهيمن فهو مع من على كل شيء قدير .

نعود إلى موضوع المهيمن ، فإن سيدنا زكريا لم يتكلم ، وإنما :

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم : ٣] .

جرب ، ابقَ صامتاً ، واطلب من الله طلباً بصدق وبإخلاص ، وليكن الطلب معقولاً من خيري الدنيا والآخرة ، واجهد أن تبقى صامتاً من دون أية كلمة تنبس بها ، تجد أن الله استجاب لك ، معنى هذا أنه سمعك وعلم سرك ، فالقضية مع الله لا تحتاج إلى رفع الصوت . .

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم : ٣] .

نداؤه الخفي اخترق السَّبعَ الطباق ، فاستجاب الله لسيدنا زكريا ، لأن الله مهيمن .

في غزوة حنين ، أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين خاضوا

معه بدراً وأحداً والخندق والمشاهد الأخرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ساكتون لم يتكلموا إطلاقاً ، بل هي مناجاة داخلية وصلت إلى الله وعلم بها :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

قالوا في سرائرهم : لن نغلب اليوم من قلة[1] ، عشرة آلاف صحابي ، ومعهم رسول الله ، بعد أن فتحوا مكة ، ودانت لهم الجزيرة من طرفها إلى طرفها الآخر ومع ذلك :

﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

الله المهيمن ، علم إعجابكم بأنفسكم فألقى في قلوبكم الخوف ، وقلوبكم في يدي الله ، إمّا أن يملأها خوفاً ، وإما أن يملأها طمأنينة .

ففي مسلم والمسند من حديث ابن عمر : « إن قلوب بني أدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء » ، الله مهيمن .

الأمر كله بيد الله ، سيدنا رسول الله بغار ثور وهو في طريق الهجرة إلى المدينة وسيدنا الصديق إلى جانبه قال : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطىء قدمه لرآنا ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك

---

(١) قال ابن إسحق : « وزعم بعض الناس أن رجلاً بين بكر قالها ـ يعني : « لن نغلب اليوم من قلة » وفي مسند أحمد بسند حسن من حديث صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ في يوم حنين ـ : إن نبياً فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته فقال : لن يروم هؤلاء شيء . . الحديث .

باثنين الله ثالثهما ؟! [متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق].

الله مهيمن ، دعوة الإسلام العظيمة ، حفظها الله ـ كما روي ـ بخيوط العنكبوت ، وهذا من عظمة قدرة الله عز وجل ، أنه يحفظ أعظم شيء بأتفه سبب ، الله مهيمن ، وأحياناً يهلك إنسان بأتفه سبب ، يحفظه بأتفه سبب ، ليظهر لك كمال قدرته عز وجل .

في غزوة الأحزاب ، الجزيرة العربية كلها اجتمعت على حرب محمد عليه الصلاة والسلام ، واليهود خانوا عهده معه ، وانكشف ظهره ، وبقي للإسلام ساعات ، بقي الإسلام قضية زمن ، إلى أن قال أحدهم : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ، الله عز وجل أرسل رياحاً عاتية أطفأت نارهم ، واقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم ، وكفى الله المؤمنين القتال ، الله مهيمن، كل شيء بيده، الرياح بيده وصدق الله العظيم :

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

منخفض جوي يمنع الرؤية... بيده ، رياح عاتية تعطل حركة الآليات... بيده ، القلوب... بيده ، يلقي فيها الخوف أو الثبات... بيده ، كل شيء بيده ، باخرة من أضخم البواخر في العالم بنيت سنة ألف وتسعمئة واثنتي عشرة ، وقد بنيت طبقتين فلو ثقبت طبقة فالجدار الآخر يبقى سالماً ويمنع غرقها ، بنيت بلا زوارق نجاة ثقة بأنها لن تغرق ، طبعت نشرة تعرف بهذه الباخرة الجبارة الفاخرة ، وكُتب في هذه النشرة : إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة ، من أفخر البواخر في العالم ، قيل : فيها من الأثاث ومن

الثريات ومن الفضيات ما لا سبيل إلى وصفه ، المطاعم والصالات والأبهاء والغرف والمسابح . . . فهي مدينة عائمة ، وفي أول رحلة من رحلاتها ركب فيها أغنى أثرياء أوربة ، ويقال : إنّ حلي النساء تقدر بمئات الملايين ، وفي عرض البحر ارتطمت بجبل ثلجي فشقها شطرين ، وأرسلت إشارات الاستغاثة فظن كل من حولها من البواخر أن هذه الإشارات تعبير عن احتفالات تدشين السفينة وغرق جميع ركابها ، وقبل سنة كما أذكر قرأت بحثاً في « مجلة العربي » عثروا على مكانها ، ورأيت صوراً لها في قاع البحر ، هذه الباخرة تدعى « التيتانيك » ، قال وقتها أحد القساوسة : هذا درس السماء إلى الأرض .

قبل سنوات ، دولة متقدمة جداً ممن يقول أهلها : مَنْ أشدُّ منّا قوة ؟ صنعوا مركبة فضائية ، ومن المقرر أن تبقى في الفضاء سنة تقريباً ، سبعة روّاد فضاء مع امرأة ، والخطة أن تحمل هذه المرأة في الفضاء من أحد الرواد ، وأن تبقى في الفضاء تسعة أشهر ، وأن تلد في الفضاء ، ومعهم طبيب مُوَلِّد في المركبة ، ليكون أول مولود يولد في الفضاء ، وسَمَّوا هذه المركبة : اشلنجر أي : المتحدي ، بعد سبعين ثانية من إطلاقها أصبحت كرة من اللهب ، من المهيمن ؟ ألم يقوموا بالعد التنازلي ؟ ألم يضبطوا الأجهزة جهازاً جهازاً ؟ أين المهيمن ؟ الله سبحانه وتعالى ، كن مع المهيمن واسترح .

حدثني صديق لي أنه زار بستاناً في أحد أطراف دمشق ؛ والبستان مؤلف من قطعتين لأخوين شقيقين ، وكان قمح الأخ الأول نامياً نمواً عجيباً ، وقمح الآخر نموه ضئيل جداً ، وهذا الصديق مؤمن يعرف الله عز وجل ، فجاء للأول واستحلفه ، لماذا بستانك هكذا زرعه نامٍ نمواً

عجيباً ؟ قال : والله أعتني به كما يعتني أخي ببستانه ، بل إن الذي يقوم على البستانين مُرابع واحد ، إذاً فما السر ؟ قال : لي أخ آخر متوفى ، وله أولاد أيتام ، ونويت في سرّي أن أعطي أولاد أخي الأيتام نصف غلة هذا البستان ، أما الثاني منهما فهو على عكس الأول ، هذه القصة تؤكد أن الله علم نية هذا البستاني فضاعف له غلته[1] ، وعلم نية الآخر فأنقصها إذاً المهيمن يعلم ويفعل .

وكذلك صديق آخر حدثني عن مجموعة مزارع في أطراف دمشق ، وهنالك بعض الرعاة الذين عندهم قطعان غنم يأتون بها لهذا المزارع لتشرب فيطرد أصحاب المزارع ، كل راعٍ يأتيهم مع غنمه ، من هذه المزارع مزرعة واحدة تستقبل أيَّ راع ، وتسقي الغنم بنفس طيبة ، أقسم لي رجل في هذه المنطقة أن سبع مزارع جفت آبارها إلا هذا البئر حصراً ، والعائد لهذه المزرعة ، ولم يكتفِ بأنه سمح للرعاة ، بل بنى أحواضاً كي ترتاح الغنم في أثناء شربها ، لقد اشترى أحواضاً إكراماً لمن ؟ الله مهيمن : النبع بيده ، واشلنجر بيده ، و« تيتانيك » بيده ، والسحاب بيده ، والبواخر بيده ، والحوت بيده ، كل شيء بيده ، فأحياناً قد يكون الإنسان حائراً تائهاً في مكان ناءٍ ، فيخرج

(١) في مسلم والمسند من حديث أبي هريرة. . . بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة يقول : اسق حديقة فلان فتنحىٰ ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته فقال له يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له : يا عبد الله! لم تسألني عن اسمي ؟ قال : إني سمعت صوتاً في السحابة الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل وعيالي ثلثاً وأرد فيها ثلثاً .

عليه ثعبان ، وهذا الإنسان مؤمن على الأعم الأغلب فتجد الثعبان واقفاً ولا يتحرك نحوه ، بل يتسلل بعيداً عنه ، وأحياناً تجد كلباً عقوراً جائعاً حائراً من شدة الجوع قضى أياماً عديدة في بؤسه وجوعه ، فإذا واجه إنساناً تقياً يقف ساكناً كأن لم ير شيئاً ، روى الحاكم والبزار بسند صحيح عن سفينة قال : ركبت البحر فانكسرت السفينة فركبت لوحاً فطرحني اللوح في أجمة فيها فأقبل إلي يريدني فقلت : يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فطأطأ رأسه وأقبل إليَّ فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق وهمهم فظننت أنه يودعني ، فمن المهيمن ؟ الله عز وجل .

الله عز وجل يقول :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

إذاً لله هيمنة ، وهو المسيطر ، كلُّ شيء خلقه اللهُ مُسيطِرٌ عليه ، وما خلق شيئاً وتركه هملاً ، لذلك :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

الحريق شأنه مخيف ، ومداهمته عمياء ، فقد ينشب حريقٌ في بعض أسواق المدينة ويأكل الأخضر واليابس في معظم الحوانيت إلا حانوتاً واحداً ، تلتف النار حوله ولا تحرقه . . . . . الله المهيمن وبيده النار .

قبل خمسين عاماً زحف جراد على هذه البلدة فأَكَلَ الأخضر واليابس ، أخبرني رجلٌ ؛ توفي رحمه الله ، كان مكلفاً بضبط هذا الأمر ومراقبة أصحاب البساتين في مقاومة الجراد ، قال : رأينا الأشجار بلا قشر ، الجراد أكل أوراقها وثمارها وقشرها الخارجي ،

ولكننا فوجئنا ببستان كأنه روضة من رياض الجنان ، دخلنا إليه وطلبنا صاحبه ، فقلنا : ما الذي نرى من أمر بستانك ؟ فقال : أنا أستعمل دواء ، فامتلأنا غضباً وغيظاً منه ، أعندك دواء وتمنعه عن المسلمين ، قال : نعم يا سيدي ، فهذا الدواء لا يستعملونه ، هو الزكاة ، وأنا أزكي عن غلال هذا البستان ، في كل موسم من مواسم العام .

هذه مشاهدات من واقع الناس وحياتهم ، آلاف بل ملايين وكل شيء بيد الله عز وجل ، فالبطولة أن تعرف الله أن تعرفه هو المهيمن ، إذا عرفته مهيمناً انقطعت آمالك ممن سواه ، لا تتوسل إلى غيره ، أنت فيما بينك وبينه في منتهى الخضوع ، في منتهى التذلل ، في منتهى الافتقار ، إذاً أنت في جانبك الأمن كله .

أما حالك مع الناس فأنت عزيز ، إذا لم تعرفه مهيمناً ، وظننت بأن زيداً مهيمن ، تصبح أمام زيد كالطفل الصغير ، تبالغ في التذلل له ، ويبالغ في إهانتك ، وتبالغ في الخضوع له ، ويبالغ في إهدار كرامتك لذلك [كما قرأ فرقد السبخي في التوراة] :

« من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه » .

وهذه الفقرة الثالثة في بحثنا ، ففي الفقرة الأولى التعاريف النظرية لاسم المهيمن ، كمال العلم وكمال القدرة والاستمرار ، وهيمنة الله هيمنة حب وشفقة ورحمة ، وهيمنة حفاظ ، وهيمنة تصديق ، وكانت الفقرة الثانية تتناول التعاريف الفرعية ، ثلاث فقرات بالتعريف الأساسي ، وثلاث إضاءات فرعية على هذا التعريف ، هذا القسم النظري ، والقسم العملي والشواهد ، وهو موضوع الفقرة الثالثة :

أخ كريم أصيب قلبه بآفة ، والأطباء هنا بدمشق أجمعوا أنه لا بد

له من إجراء عملية في بلد أجنبي ، ذهب إلى هناك ، وبينما هو مستلقٍ على سرير الفحص ، اغرورقت عيناه بالدموع وقال : يارب! هذا القلب من صنعك ، وأتمنى ألا يفتح وبكى ، فأجري الفحص الأول ، وتتابعت الفحوص ، وكانت النتيجة أن الله شفاه بما يسميه الأطباء « شفاءً ذاتياً » ، الشرايين الفرعية التي كانت مسدودة من الذي قام فتحها ؟ يد من فتحتها ؟ الله مهيمن على قلبك .

وهذه الكُلْية توقفت عن العمل ، لماذا توقفت ؟ من أوقفها ؟ ومن حركها ؟ الله مهيمن ، تأكد أن الأعصاب والكليتين والقلب والرئتين والشرايين والمعدة والأمعاء والقنوات الدائرية والسمع والبصر واللسان كل أعضائك بيد الله :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

هذه الخلايا من الذي يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثاً ؟ الله عز وجل ، ليس هنالك سبب واضح للسرطان حتى الآن ، إنسان بأتمِّ قوته وبأتمِّ صحته وبأتمِّ نشاطه ، غذاء منتظم ، رياضة ، حركة ، وفجأة ينمو الخبيث في جهة ما بجسمه .

من المهيمن على هذه الخلايا ؟ يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثاً أو ألا تنمو ، إنه الله عز وجل .

حتى الزوجة بيد الله عز وجل ،الإمام الفضيل بن عياض يقول : إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق جاريتي ، أياماً تجدها ملاكاً . سبحان الخالق ، ملاكاً من السماء ، وأياماً تفكر بهذه الساعة المشؤومة التي عرفتها بها ، شأنها بيد الله عز وجل : يليِّن قلبها أو

يقسِّي قلبها ، يجعلها مطواعة ، أو عنيدة بيد الله عز وجل .

حتى الأولاد : حالهم الشيء نفسه ، وزبائنك ، ورؤساؤك في الدائرة ، ومتبوعوك ، ومركبتك إذا أثنيت عليها ، وأثنيت على صانعها ، ونسيت الله أثناء حديثك عنها ، فإنها تتعطل ، وتقطعك في الطريق أمرها بيد الله عز وجل ، أما الزلازل فالإنسان إزاءها مقيد مكبل ، وأما الجراثيم فالنبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لا عدوى** » [متفق عليه] .

لكن هناك عدوى ، ما معنى هذا الحديث ؟ أي : إياك أن تعزو هذا الفعل إلى زيد أو عبيد ، يجب أن يعزى المرض إلى الله عز وجل ، فإذا أذن الله لها فإن هذه الجراثيم تفعل فعلها ، وإن لم يأذن فلا تفعل أبداً .

هذا القسم العملي ، وبقي القسم التطبيقي الأخير . . .

المؤمن إذا أردناه أن ينتفع بهذا الاسم يجب أن يعرف أحوال نفسه ، يعرف نفسه حقيقةً ، فهل هي مريضة ؟ هل فيها انحراف ، أو كبر ، أو عُجْب ، أو غرور ، أو لديها رغبة في تجاوز حدودها ، ورغبة الجموح والشرود ؟ هل إيمانه بالله كافٍ أم غير كافٍ ؟ يجب أن يعلم أحوال قلبه ، أحوال نفسه ، أن يعلم دخله أهو حلال أم حرام ، وإنفاقه للمال ، تعامله مع الآخرين ، جوارحه مدى انضباطها ، أحوالك مرضية عند الله أم غير مرضية ، وهل أنت مستقيم أم غير مستقيم ، وهل في علاقاتك انحراف ؟ أعندك تقصير بالحقوق ؟ يجب أن تعلم كل ذلك ، ولن تعلم إلا إذا حضرت مجالس العلم ، لأن « **العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشرَّ**

يوقه » رواه الدارقطني في الأفراد بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

هذه حرام ، وهذه حلال ، هذا يجوز أو لا يجوز ، وهذه صفة مذمومة ، وهذه صفة ممدوحة ، فأنت من حضور مجالس العلم تعلم ، فإذا تعلمت فقد حققت ثلث اسم المهيمن ، ومن ثم يجب أن تسعى كي تطهر نفسك من آفاتها ، والجوارح من المعاصي ، تطهير القلب مما سوى الله ، تطهير الفكر من عقائد زائغة ، من خرافات ، من أوهام ، من خزعبلات ، من حيل ، من تزوير .

أجل أعود لأقول : ينبغي أن تطهر عقلك من كل عقيدة زائغة ، وتطهر جوارحك من كل معصية ، وعليك أن تطهر قلبك مما سوى الله ، فهذا من تطبيق اسم المهيمن ، أي : إن المرء راقبَ قلبَه وأشرف على أغواره وأسراره ، واستولى على تقويم صفاته وهيئاته ، وقام بمراقبتها على الدوام .

إذاً يجب أن تعلم أحوالك ، يجب أن تقوّم أفعالك ، يجب أن تثبت على هذه الاستقامة ، أنت عاهدت الله عز وجل على العلم والإصلاح والثبات .

الأرقى من ذلك أن تدعو إلى الله ، وأن تعلم أحوال إخوانك ، وأن تسعى إلى تقويمهم ما استطعت ، وأن تبقى على عهدك مع الله من خلال تعاملك معهم .

وأَنْ تصلح نفسك ، فهو من معاني قوله تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١] .

وبعد ، فأصلح نفسك ، كيف تصلحها ، إن لم تعرف أمراضها ؟ إن لم تعرف انحرافاتها ؟ إن لم تعرف تقصيرها ؟ إن لم تعرف أدرانها ؟ إن لم تعرف مشكلاتها ؟ إن لم تعرف مخالفاتها ؟ المعرفةُ أساس في كل سلوك أو عمل ، إذاً فأنت تحتاج إلى علم كي تعرف ، وإلى إرادة كي تُصَحِّح ، وإلى صدق كي تستمر ، إذا فعلت هذا فقد انتفعت من اسم المهيمن .

وبعدُ ، مادام الله يراقبك ، فما موقفك أنت وهو الرقيب عليك ؟ الحياء من الله ، من تطبيقات اسم المهيمن أن تستحيي من الله ، فالله يراقبك ، ولتعلم أيضاً أن الله قوي ، فيجب أن تتوكل عليه ، لا شريك له ، ويجب أن تثق بالمستقبل ، إذاً تفوض الأمر كله إلى الله عز وجل :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

ثلاثة تطبيقات هي : أن تعلم أحوال قلبك ، وأحوال نفسك ، وأحوال عقيدتك ، فتصوراتُك وقِيَمُك يجب أن تصححها ، لابد من حضور مجالس العلم ، وأن تملك إرادة قوية كي تصلح اعوجاجك ، كي تقيم جوارحك على طاعة الله ، وأن تتحلى بالصدق حقاً كي تستمر على هذا ، علم وإرادة وصدق هذا أول تطبيق .

أما التطبيق الثاني : فما دام الله شهيداً عليك فيجب أن تستحي منه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١].

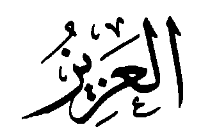
ومادام الله مسيطراً فيجب أن تتوكل عليه ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، ومادام الله واحداً ولا شريك له ، وقد قال لك :

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد : ١١] .

إذاً يجب عليك أن تثق بالمستقبل ، وتثق بالله عز وجل ، وأنك مادمت لم تغَيّر فلن يُغَيّر ، ومادمت على طاعته قائماً فأنت من خير إلى خير ، ومن درجة عليا إلى درجة أعلى ، ومن منزلة إلى منزلة أسمى ، ومن رقي إلى رقي أرضى .

هذا اسم المهيمن أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت إلى توضيح تعريفاته وتطبيقاته وشواهده ، كما أرجو أن ينفعك الله بها أيها القارىء فهماً وعملاً .

* * *



سنبقى في الصفحات التالية مع اسم « العزيز » ، وهذا الاسم كثيراً ما يرد في نهاية الآيات وهو العزيز الحكيم ، وقد كنت بيّنت لكم من قبل أن الإيمان بالله « بوجوده » لا يكفي ، بل يجب أن تؤمن بوجوده ، وأن تؤمن كذلك بوحدانيته ، وحدانيته في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وأن تؤمن أيضاً بكماله ، ومن الإيمان بكماله ، يمكنك أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » [صحيح البخاري] .

ومعنى إحصائها : أنك إذا عرفتها وعرفت مضامينها ، عرفت ما ينبغي أن تفهمه منها ، وما تدل عليه ، عرفت ما ينبغي أن يكون موقفك منها لتتعامل معها ، وأخيراً عرفت أبعادها ، وموضوع بحثنا في الصفحات التالية اسم العزيز .

ورد هذا الاسم في آيات كثيرة ، من هذه الآيات ، قال الله تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه السلام :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[المائدة : ١١٨]

لو أن الإنسان نسي كيف يتم الآية وقال : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ، فهل تتناسب هذه الخاتمة للآية مع صدرها ؟!..

إن الآية ختمت على النحو التالي : ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ، لأن الإنسان مهما علا شأنه ، إذا أراد أن يغفر لأحد زلته ربما حوسب ، ربما سئل لماذا عفوت عن فلان ؟ لماذا لم تكلفه ؟ لماذا تساهلت معه ؟ لكن الله سبحانه وتعالى إذا غفر فهو العزيز الذي عزَّ فغفر ، ولا يُسأل عما فعل ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

هذه الآية الأولى في دراستنا ، والآية الأخرى هي :

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية : ٣٧] .

والآية الثالثة :

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٨] .

وهذه آية رابعة :

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠] .

وإليك آية خامسة حينما قال الشيطان :

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٨٢] .

اسم العزيز ورد في آيات كثيرة جداً ، اخترت لكم من بين الآيات الكثيرة هذه الآيات .

وبعد فما معنى هذا الاسم من حيث اللغة ؟

المعنى الأول : العزيز : الذي لا مثيل له ، ولا مشابه له ،

ولا نظير له ، مِن فِعلِ عزَّ يَعِزُّ ، تقول : عزّ الطعام أي أصبح قليلاً وأصبح نادراً ، عز هذا الاختصاص ؛ اختصاص عزيز : أي نادر ، خبرة عزيزة أي نادرة ، معنى عزَّ يَعِزُّ أي ندر وجوده ، أو لا مثيل له ، ولا مشابه له ، ولا نظير ، اسم العزيز بهذا المعنى من أسماء التنزيه ، الأسماء مصنفة : فهناك اسم تنزيهي ، وهناك اسم ذات ، وهناك أسماء صفات ، وهناك أسماء أفعال .

بشكلٍ أوسع : العزيز الذي لا مثيل له ، ولا ند له ، ولا نظير له ، إذا كان الشيء نادراً ، قليل الوجود ، ليس متوافراً مع إمكان توافره نسميه عزيزاً ، فكيف بالذي يستحيل على العقل أن يصدق أن له نظيراً ، إذاً ، الله سبحانه وتعالى لا مثيل له ، ولا ند له ، ولا مشابه له ، إذاً هو عزيز ، وهذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : العزيز هو الغالب الذي لا يُغلب ، الإنسان إذا غُلِبَ فليس عزيزاً ، يصبح ذليلاً ، وقد يبالغ المنتصر في إذلاله ، قد يجري بعض التصرفات ليبالغ في إذلاله ، فالغالب الذي لا يُغلب يسمى عزيزاً ، والعرب تقول في أمثلتها : من عزَّ بزّ ، أي مَنْ عز : مَنْ انتصر أخذ ما راق له ومن غلب سلب ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٣] ، أي : غلبني في الخطاب ، ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٣] ، أي غلبني ، فالقاهر الذي انتصر ، وقد يُغلَب يسمى عزيزاً ، فكيف بالقاهر الذي لا يمكن أن يغلب ، من باب أولى فالله سبحانه عزيز بالمعنى الثاني : أي القاهر الذي لا يُغلب والدليل :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

وكأن الله تعالى يقول لك : أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلَّمْتَ لي فيما أريد ، كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي في ما أريد ، أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لو علم الناس أن الله غالب على أمره ، لأطاعوه ، ولاتكلوا عليه ، ولأقبلوا عليه ، ولتركوا سواه .

المعنى الثالث : العزيز هو القوي الشديد ، من عزَّ يعزّ ندر يندر ، عز يعز غلب يغلب ، عز يعِز قوي يقوى ، والآية الكريمة :

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

[يس : ١٤]

يقولون لك : التعزيز ، أيّ بعد أن تلقي الدرس ، تعززه بالتدريبات ، مرحلة التعزيز ، أي ترسيخ المعلومات ، وتمكينها ، هذا المعنى الثالث .

المعنى الأول : العزيز الذي لا مثيل له ، ولا ند له ، ولا مشابه له ، هذا من أسماء التنزيه .

المعنى الثاني : الغالب الذي لا يغلب هذا من أسماء الصفات .

والمعنى الثالث : القوي الشديد ، هذا من أسماء الصفات أيضاً ، فالقادر الذي قد يضعف يسمى عند الناس عزيزاً ، فكيف بالقادر الذي يستحيل أن يضعف ، فهذا من باب أولى ، إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز بهذا المعنى الثالث .

وهناك معنى رابع وهو دقيق جداً ؛ وربما كان المؤمنون في أمس الحاجة لفهم هذا المعنى .

المعنى الرابع : العزيز بمعنى الُمِعز ، كأن تقول : الأليم بمعنى المؤلم ، فأنت تقول مثلاً : جرح أليم أي : جرح مؤلم ، من معاني وزن فعيل أن يكون بمعنى اسم الفاعل ؛ مُفْعِل . فالعزيز بمعنى المُعِز ، وهو من صفات الأفعال .

إذاً لدينا أربعة معانٍ لاسم العزيز ، الأول : من أسماء التنزيه ، والثاني والثالث : من أسماء الصفات ، وأما الرابع : من أسماء الأفعال ، هو الذي يعز :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

آخر ملوك الأندلس أبو عبد الله محمد الصغير عندما غادر الأندلس سنة ٨٩٧ بكى ، فقالت له أمه عائشة :

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثلَ الرجال

فما قيمة الإنسان إذا تخلى الله عنه ؟ قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج : ١٨] .

جزء كبير جداً من حياتك متعلق بكرامتك ، فإذا كنت مع العزيز أعزك الله :

اجعل لربك كل عزّ ك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

هذه هي المعاني اللغوية لكلمة عزيز ، أو لاسم الله : العزيز ، لكنْ هناك تعريف أدق وأجمل : العزيز ؛ الذي يقل وجوده ، وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه ، في وقت واحد ، قد يقل وجود شيء ما ، ولكن لا تشتد الحاجة إليه ، فهناك معدن نادر جداً ، ومع أنه نادر وقليل وجوده لكن لسنا بحاجة ماسة إليه ، عندئذ لا يسمى هذا المعدن عزيزاً ، العزيز يجب أن تتوافر فيه صفات ثلاث : أن يقل وجود مثله ، وأن تشتد الحاجة إليه ، وأن يصعب الوصول إليه ، قد تشتد الحاجة إلى شيء ، ولكنه غير نادر كالهواء ، كلنا في أمس الحاجة إليه ، ولكنه موجود ، قد تشتد الحاجة إلى الماء والماء موجود ، ووجوده في بعض البلاد كثير غزير .

إذاً لابد أن يكون العزيز شيئاً يقل وجوده ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، إذاً شيء عزيز كأن يقال : عزيز المنال لا يدرك ولا ينال ، هذه الصفات للشيء الذي يقل وجوده ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، هذه الصفات لها صفات نقصان ولها صفات كمال ، كلما كثر وجوده قلت عزته ، وكلما قلت الحاجة إليه قلت عزته ، وكلما سهل الوصول إليه قلت عزته ، والآن كلما قل وجوده إلى أن يصبح واحداً ، هذه صفة كمال في العزيز ، يقل وجوده ، ويندر وجوده ، حتى يصبح واحداً ، وتشتد الحاجة إليه فهذه أعلى صفة ، ولا تكون إلا لله سبحانه .

شخص ما أحياناً قد يحتاج إليه بعض الناس ، بل قد يحتاج إليه أكثر الناس ، فكلما كثر الذين يحتاجون إليه أصبح عزيزاً ، فإذا احتاج إليه كل الناس فهذا شيء نادر ، لا يوجد إنسان يحتاج إليه جميع

الناس ، قد تجد ملكاً وتجد إنساناً يعيش في أطراف مملكته يعمل راعياً ، مع أنه أحد رعايا هذا الملك لكنه ليس بحاجة إليه ، يأكل ويشرب في خيمته من نتاج هذا الغنم الذي يملكه .

كلما اشتدت الحاجة إلى الشيء أصبح عزيزاً ، كمال هذه الصفة شيء دقيق جداً أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء ، أنا قد أحتاج إلى الطبيب عند المرض ، ولكن لا أحتاج إليه عند النوم ، أنا أحتاج إلى سرير عند النوم ، قد أحتاج إلى هذا المدرس إذا كان ابني ضعيفاً في مادة الرياضيات فأنا بحاجة إليه ، أما أن يحتاج إليه كل شيء ، وليس كل الناس فقط ، لا بل الناس والحيوان والنبات والجماد والذرات والمجرات ؛ أي يحتاج إليه كل شيء في كل شيء .

دققوا : كل شيء في كل شيء ، إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز لأن قيام الشيء به ، قيام المادة ، هذه مادة فيها نواة ، وفيها كهارب ، وفيها دوران ، لولا أن الله سبحانه وتعالى تجلى عليها لتوقفت ، كن فيكون ، زل فيزول :

﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢] .

أي : إن قوام كل شيء به سبحانه ، وهو مصدر حياة كل شيء .

إذاً . . . فالله سبحانه وتعالى ، لا نقول : تشتد الحاجة إليه ، بل نقول : يحتاج إليه كل شيء في كل شيء ، الشبكية مئة وثلاثون مليون مستقبل للضوء ما بين مخروط وعصية تشكّل عشر طبقات ، العصب البصري تسعمئة ألف عصب ، ما هذه المادة التي تتغير ماهيتها إذا جاءها الضوء ؟ إذا تغيرت ماهيتها تولد عن هذا التغير ، تيار كهربائي ينقل الصورة إلى الدماغ ، أنت محتاج إلى الله عز وجل في عينك ،

وفي أذنك ، وفي لسانك ، وفي دماغك ، وفي شرايينك ، وأيُّ شيءٍ لم يتجلّ الله سبحانه وتعالى عليه يُصبح لاشيء ، فأنت قائم بالله ، عظامك ، عضلاتك المخططة ، والملساء ، أعصابك وأجهزتك كلها تعمل بالله ، فلو أن الله سبحانه وتعالى حجب عنها تجلياته لأصبح الإنسان جثة هامدة ، إذاً يحتاجه كل شيء في كل شيء .

أول صفة : الذي يقل وجود مثله ، أما كمال هذه الصفة ؛ أن يصبح واحداً ، فتشتد الحاجة إليه ، كمال هذه الصفة يحتاجه كل شيء في كل شيء ، يصعب الوصول إليه ، فلا يمكن أن تحيط به ولا الأنبياء ، فلا يعرف الله إلا الله ، أن تصل إليه اتصال عبودية فهذا ممكن ، فاستقم على أمره ، واعمل الصالحات ، تصل إليه ، وهذا هو الوصول ، وهذا هو الاتصال .

شاب خطب ابنة عالم اسمها وصال ، فهذا العالم قال له : مهر هذه الفتاة أن تحضر هذه الدروس التي ألقيها في مجلسي ، فحضرها ، فاستغرق فيها فنسي الفتاة ، فأرسلت له كتاباً : يا فلان نسيتنا ، فقال : يا وصال كنت سبب الاتصال ، فلا تكوني سبب الانفصال .

يمكن أن تصل إليه ، أن تصل كعبد ، فعليك أن تستقيم على أمره ، وأن تفعل الصالحات ، أن تذكره كثيراً ، وأن تخدم عباده كثيراً ، فممكن أن تصل ، أما أن تصل إليه وصول إحاطةٍ وإدراكٍ كامل فهذا مستحيل حتى للأنبياء ، فلا يعرف الله إلا الله .

فإذا سألت نفسك : ما معنى العزيز ؟ فإنَّ معنى العزيز : هو الفرد الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء ويستحيل الوصول إليه ، وصول

إحاطة وإدراك ، أما وصول عبودية فممكن .

قال بعضهم : العزيز من ضلت العقول في بحار عظمته ، وحارت الألباب دون إدراك نعمته ، وكلّت الألسن عن وصف كمالاته ، ووصف جماله ، والنبي عليه الصلاة والسلام لخص هذه الكلمات :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ : « **اللَّهُمَّ إني أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** » [صحيح مسلم] .

والله إن الحق الثابت أنه من عرف الله زهد فيما سواه ، إذا عرفت الله لا يمكن أن تتضعضع لمخلوق ، وعندها لا ترى مع عزة الله عزيزاً ، ولا ترى مع قدرة الله قديراً ، ولا ترى مع حكمة الله حكيماً . .

قال ابن رجب وفي بعض الآثار يقول الله تعالى : « **ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء** » .

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي ... رأوه لما وَلَّيْتَ عنّا لغيرنا
ولو سمعت أذناك حسنَ خطابنا ... خلعت ثياب العجب عنك وجئتنا
ولو ذُقتَ من طعم المحبة ذرة ... عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نَسمَتْ من قربنا لك نسمة ... لَمتَّ غريباً واشتياقاً بقربنا

الله عزيز هذا الذي يتوهم بسذاجة أنه بركعتين وليرتين يدخل الجنة إنسان ساذج غبي ، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر .

وفي حديث بكير بن فيروز قال : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ

رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ » . [سنن الترمذي] .

قال تعالى :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[آل عمران : ٩٢] .

وقتك الثمين ، زبدة وقتك ، قوتك ، يجب أن تصرفها كلها في سبيل الله ، مالك الذي جمعته بكدك ، وعرق جبينك ، يجب أن تنفقه في سبيل الله ، ألا إن سلعة الله غالية ، الله عزيز ؛ بالمعنى الطبيعي الفطري الله عزيز .

الآن من هو العزيز من العباد في ضوء هذا التعريف ؟ الأنبياء أعزة ، لماذا ؟ لأن الخلق كلهم بحاجة إليهم وإلى علمهم ، النبي صلى الله عليه وسلم عزيز ، لأن ربنا عز وجل أودع فيه سره ، أودع فيه علمه ، أودع فيه النبوة ، هو طريق إلى الله ، وهو باب الله ، فالأنبياء أعزة ، لأن الله جعلهم أبواب رحمته ، وأبواب فضله ، وأبواب إحسانه ، وأبواب أنواره ، لهذا إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عين إرضاء الله ، ولهذا قرن الله اسم نبيه صلى الله عليه وسلم مع اسمه ، فالنبي عزيز لأن الناس جميعاً في أمس الحاجة إليه ، في أمر دينهم ودنياهم .

الملك عزيز : إذا كان مَلِك بيده مقدرات الأمور كلها ، بيده كل شيء ، فالناس جميعاً يقصدونه كبيرهم وصغيرهم ، جليلهم وحقيرهم ، فكلما اشتدت الحاجة إليك فأنت عزيز ، ألا إن المؤمن إذا اشتدت الحاجة إليه يكون عزيزاً ، لكنه يكون متواضعاً ، وأما غير

المؤمن فإذا اشتدت الحاجة إليه يكون متكبراً .

سُئل الإمام الحسن البصري وقد سما مقامه بين الناس : بِمَ نِلت هذا المقام ؟ وقبل الإجابة أهمس في أذن القارئ الكريم بهذه الكلمة من القلب : لا يمكن أن تعرف الله وأن تطيعه ، ثم تكون ذليلاً لأحدٍ أبداً ، لأن الله عز وجل يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[المنافقون : ٨] .

أتكون مع العزيز ، وتُذَل بعد ذلك ـ لا ـ لن يكون هذا أبداً ، ألا تقرأ في الدعاء يومياً في قنوت الوتر : إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت[(١)] ؟

لن تجد مؤمناً تَعَرَّفَ إلى الله عز وجل ، واستقام على أمره ، واصطلح معه إلا أراه الله معاملة خاصة ، وأشعره من خلالها أنه غالٍ عليه ، وأنه يحبه ، قال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

أحياناً كثيرة تدعوه فيستجيب لك ، تدعوه فيصرف عنك السوء ، تدعوه فيلقي حبك في قلوب الخلق ، تدعوه فيلين قلوب أعدائك ، تدعوه فيلبيك ، تسأله فيعطيك ، تقسم عليه فيبرك .

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والنسائي والدارمي من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهنَّ في قنوت الوتر « اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت » وقوله : « ولا يعز من عاديت » زيادة ثابتة في الحديث كما قال الحافظ في التلخيص .

فلما سئل الحسن البصري بمَ نلت هذا العز ؟ قال : بشيئين ، باستغنائي عن دنيا الناس ، وحاجتهم إلى علمي .

لا تكون عزيزاً إذا كنت طماعاً ، حينما تطمع تصبح ذليلاً ، لمجرد أن تطمع فيما عند الناس تصبح ذليلاً .

لذلك إذا طمعت فيما عند الناس كرهوك ، ورب العزة إذا طمعت فيما عنده أحبك .

لا تسألنَّ بَنِيَّ آدم حاجةً وسلِ الذي أبوابُهُ لا تُحْجَبُ
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسألُ يغضب

الإنسان ؛ إن سألته حاجة غضب منك ، ورب العزة إن لم تسأله غضب منك ، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام قال :

« **لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ** » قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ ؟ قَالَ : « **يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ** » [سنن الترمذي] .

وروي عنه :

« **ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس ، فإن الأمور تجري بالمقادير** » [تمام وابن عساكر عن عبد الله بن بسر] ، « **ارفع رأسك يا أخي لقد مَوَّتَّ علينا ديننا** » ورأى عمر رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب .

دخل أبو حنيفة في قضية على الخليفة أبي جعفر المنصور ، فَأَعجبه أن يأتيه هذا العالم الجليل الفقيه الكبير ، قال : يا أبا حنيفة لو تغشيتنا دائماً ، نحن في استقبالك نعتز بك وأهلاً بك ، قال : ولِمَ أتغشاكم يا أمير المؤمنين ، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه ،

وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء ، ليس لي عندكم حاجة آتيكم من أجلها .

كلما قطعت طمعك من الناس أعزك الله ، وكلما مرغت جبهتك في السجود لله أعزك الله .

قال مطرف وابن نافع وغيرهما ، لما قدم هارون المدينة وجه إلى مالك وقال له : قل له احمل لي الكتاب الذي صنفته حتى أسمعه منك ، فوجد من ذلك مالك واغتم ، وقال للبرمكي أقرئه السلام وقل له : العلم يزار ولا يزور ، وإن العلم يؤتى ، فرجع البرمكي إلى هارون فأخبره بذلك ، فغضب وأشار عامة أصحاب مالك أن يأتي هارون وقال البرمكي للرشيد يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك فخالفك! اعزم عليه حتى يأتيك فإذا بمالك قد دخل فسلم وليس معه كتاب ، فقال له هارون في ذلك ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين! إن الله تعالىٰ بعث إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمر بطاعته واتباع سنته وأن نرعاه حياً وميتاً وقد جعلك في هذا الموضع لعلمك فلا تكن أول من ضيع العلم فيضيعك الله ، لقد رأيت من ليس هو في حسبك ولا نسبك من الموالي وغيرهم يعز هذا العلم ويجلُّه ويوقر حملته فأنت أحرى أن تجل علم ابن عمك ، ولم يزل يعدد عليه حتى بكى .

ثم قال له حدثني الزهري وذكر حديث زيد بن ثابت ، كنت أكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ وابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله! قد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما أنزل وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ما أدري . قال زيد وقلمي رطب لم يجف حتى غشي النبي صلى الله عليه وسلم الوحي ووقع فخذه على فخذي فكادت تندق من ثقل الوحي ثم خلا عنه فقال اكتب يا زيد غير أولي الضرر ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا حرف واحد بعث فيه جبريل والملائكة مسيرة خمسين ألف عام حتى أنزل على نبيه أفلا ينبغي لي أن أجله وأعزه ؟ قال ، فقال هارون قم بنا إلى منزلك . فأتى هارون منزل مالك فدخل مالك واغتسل ولبس ثياباً جدداً وتطيب ووضع مجامير فيها عود وجلس فقال هات ، فقال هارون : تقرأ علي ؟ ما قرأت على أحد منذ زمان ، قال فأخرج عني الناس حتى أقرأه عليك . فقال مالك : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم تنتفع به الخاصة .

قال فكان هارون قد استند إلى جنب مالك ، فلما بدأ يقرأ له قال : يا أمير المؤمنين! من تواضع لله رفعه الله . وفي رواية أبي مصعب : من إجلال الله إجلال ذوي الشيبة المسلم . فقام فقعد بين يديه فحدثه ، فلما فرغ عاد إلى مكانه . قال مالك : لما كان بعد مدة قال لي الرشيد : تواضعنا لعلمك فانتفعنا به ، وقال هارون لمالك إن رأيت أن تأتي ولديك فتحدثهم يعني ابني هارون . قال فما ردَّ عليه مالك شيئاً حتى خلا من عنده ، فتول إليه فقال أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول من أجرى على يديك ذل العلم . قال : وما ذاك ؟ قال أدركت أهل العلم يؤتون ولا يأتون . فقال له أصبت بل يأتوك .

وخرج مالك ؟ فقال هارون : هذا الذي تلومونني فيه ما رأيت رجلا أعقل منه ، قلت له آنفاً فلم يرد على شيء كراهية أن يخرج منه

شيء في ذلك الجمع فلما خلوت خرج لي عما في نفسي [ترتيب المدارك وتقريب المسالك]

العالم عزيز يجب أن تزهد فيما عند الناس ، يجب أن تكون بعيداً عن دنياهم .

شخص سأل : كيف الطريق إلى الله ؟ قال : لو عرفته لعرفت الطريق إليه ، كلمة بليغة .

إذا عرفت الله تعرف بالفطرة ماذا يرضيه ، وكيف تقبل عليه ، وكيف تستقيم على أمره ، وكيف تضحي من أجله ، وكيف تؤثره على كل شيء ، سأل : كيف الطريق إليه ؟ فأجابه : لوعرفته لعرفت الطريق إليه ، فقال له : لم أفهم كلامك ، كيف أعبد من لا أعرفه ، فقال : كيف تعصي من تعرفه ، قال الحسن بن أحمد الصفار : سئل الشبلي وأنا حاضر أي شيء أعجب ؟ قال قلب عرف ربه ثم عصاه :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

سئل شخص : متى عرفت الله ؟ قال : والله ما عصيته منذ عرفته .

مرة ثانية أهمس في أذنك أيها القارئ العزيز ؛ والله الذي لا إله إلا هو لو تعلمت علم الثقلين بنية أن تكون ذا شأن في المجتمع وعصيت الله فيما بينك وبينه ، فأنت لا تعرفه ، لا تعرفه ، لا تعرفه .

من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا ، لم يعبأ الله بشيء من عمله أبداً ، لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر مَنْ اجترأت عليه ، فلمجرد أن تعصي الله عز وجل يجب أن تعلم علم اليقين أنك لا تعرفه كمال المعرفة .

العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله :

عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية .

وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين .

وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمة الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه .

لو تخيلنا إنساناً يحمل أعلى شهادة شرعية ، وله مئة مؤلف وهو ذو منصب ديني خطير ، ودخلت عليه امرأة وتأمل فيها وملأ عينيه منها ، وعنده مستخدم على الباب ، لا يقرأ ولا يكتب لكنه قرأ قوله تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٣٠] .

فغض هذا المستخدم بصره عنها فهو عند الله عالم ، والأول الذي ملأ عينيه من الحرام جاهل .

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ . [سنن الدارمي] .

دع هذه الكلمة حيةً في ذهنك دائماً : لمجرد أن تعصيه فأنت لا تعرفه .

قيل : ما الأدب الذي يجب أن يتحلى به المؤمن حيال هذا

الاسم ؟ الله عزيز ، ما موقف المؤمن حيال هذا الاسم ؟

قال : المؤمن إذا عرف العزيز ينبغي ألا يعتقد أن لمخلوق إجلالاً ، نعم هو الإنسان أديب جداً مع الناس ، لكنه لا يمكن أن يعتقد لمخلوق إجلالاً ، أي يجب أن يحقر الأقدار إزاء قدره ، وأن يمحو الأذكار سوى ذكره ، قرأ فرقد السبخي في التوراة : « من جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه » .

لماذا ؟ قال : لأن الإيمان ما وقر في القلب ، وأقر به اللسان ، وصدقه العمل ، فإذا أجللت غنياً لغناه ، أجللته وانحنيت له وأثنيت عليه بما ليس فيه فقد أذهبت ثلثي دينك ، والإيمان ثلاثة أشياء : ما وقر في القلب ، وأقر به اللسان ، وصدقه العمل ، فإذا كان العمل الظاهري تعظيم لإنسان لا يعرف الله وبدورك عظمته لأنه غني ، فالنتيجة إذاً ذهب ثلثا دينك .

« واعلم أن شرف المؤمن صلاته بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » [الطبراني في الأوسط بسند حسن] .

عند المؤمن عزة لو وزعت على أهل بلدة لكفتهم ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمن يرى أنه عبد لله حقاً ، وأن الله لن يضيعه ، ولن يسلمه ، ولن يتخلى ، عنه أفلا يكون مع كل هذا عزيزاً ؟

عندنا قاعدة ثابتة : أنه إذا عَظَّمَ القلبُ الربَّ صَغُرَ الخلق في عينه ، فإذا كان الله ليس عظيماً في عينه كبر الخلق في عينه ، هذا امتحان ، فلان مثلاً يقولها بملء فمه : سيفعل ويترك ، وعنده قدرة على كذا وكذا وكذا ، إن كنت مثله فأنت لا تعرف الله إذاً ، مادمت

تُجِله كل هذا الإجلال فإنك لا تعرف الله ، لأن الله عز وجل لو جَمّد قطرة من دمه في أحد شرايين مخه لأصبح مشلولاً ، ولو أن الله عز وجل جمد بعض الدم في شرايين قلبه لمات بسكتة قلبية ، وقضى من فوره ، والإنسان كلما ارتقى إيمانه التفت إلى الله أكثر وأكثر ، قال تعالى :

﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يونس : ١١] .

إذا عرفت أنه المُعِزّ ، فلو اجتمع الناس جميعاً على أن يرفعوك درجة لا يستطيعون ، أما إذا رفعك الله عز وجل درجة أو أكثر ، لا يستطيع أهل الأرض أن يضعوك ، ومعلوم : إذا عرفت أنه المعز لم تطلب العز إلا بطاعته .

قال بعضهم : لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد عزاً ، فوق ما يثبته اليسير من طاعته لما قدروا ، لا تُعَزّ إلا بطاعة الله ، أَعِزَّ أمر الله يعزك الله ، قال العلماء : لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد ذلاً أكثر من اليسير من المعصية لم يقدروا ، هناك عامل واحد يرفعك ويخفضك هو الطاعة والمعصية ، كلما أطعته ازددت عزاً ، وكلما هان أمر الله عليك ، هنت عليه ، ويجب أن يفهم المسلم أن حال المسلمين اليوم : هان أمر الله عليهم فهانوا على الله .

قد يقع الإنسان في خطأ كبير ، يظن أن هؤلاء الذين يحسبون بالملايين في العالم الإسلامي يظنهم مسلمين ، والمسلم له صفات ، فإذا أحسن بهم الظن وهم تاركو الصلاة ، ويكذبون ، ويأخذون ما ليس لهم عدواناً ، وظلماً ، وقد يفعلون المعاصي كبيرها وصغيرها ، فقد انزلق فيما هم انزلقوا فيه ، هان أمر الله عليهم فهانوا

على الله ، هاتان الكلمتان تلخصان كل أحوال المسلمين .

أما على المستوى الفردي ، فإذا استقمت على أمر الله ، وإذا اعتمدت عليه ، وتوكلت عليه ، فالله سبحانه وتعالى يعاملك معاملة خاصة ، أما إذا عصاه مجموع الأمة فالله سبحانه وتعالى لا بد من أن يؤدبهم ، لأنه إذا عصاه من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه .

رجل ذهب لأداء فريضة الحج ، كان ذا شأن كبير ، رافقه عشرات الخدم والحشم ، فكان هؤلاء الخدم في أثناء الطواف يبعدون الناس عنه تعظيماً له ، حج وطاف وسعى ، وانتهى حجه ، وعاد إلى بلده ، راوي هذه الواقعة عمرو بن شيبة قال : وبعد حين وعند جسر في بغداد رأيت رجلاً يشبه هذا الذي رأيته يطوف ، لكن رأيته في حالة زريه قميئة يمد يده للناس ، يا ترى أهذا فلان ؟ أهو هو ؟ ليس هو ، دخل الشك في قلبه ، فتقدم منه فقال : مالك تنظر إليّ ، قال : كأنك تشبه فلاناً ، قال : أنا هو ، فقلت له : ما الذي جعلك في هذه الحال ؟ قال : إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه ، فكان هذا جزائي ، فالطواف حول الكعبة ليس فيه كبر ، أنا فلان ، أنا علان ، أنا حجمي المالي كذا ، لا كبر في هذا الموقف ، في هذا الموقف أنت عبد لله عز وجل ولو كنت ملكاً ، قال : ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس فيه .

كلما أحاط الإنسان نفسه بهالة من الكبر والاستعلاء هان وحطه الله جزاء وفاقاً ، صفتان لا تقربهما : الكبر والظلم ، إن الله سبحانه وتعالى يغفر عشرات الذنوب بسهولة ، إلا ذنبين يبطش بصاحبهما : الكبر والظلم ، إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً : الشرك بالله ـ أي : الكبر ـ والإضرار بالناس ـ أي : الظلم ـ

وبعد فنحن الآن تطالعنا مشكلة ، وهي ليست مشكلة صراحة . ولكنْ هكذا سميتها : كيف يقول الله عز وجل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

[فاطر : ١٠]

أي العزة كلها له ، هو العزيز ، ونقرأُ آيةً أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، يبدو أن هناك تناقضاً بين الآيتين ، هكذا يبدو ، والجواب : إذا ابتغيت العزةَ بالإقبال على الله والاعتزاز به فأنت عزيز ، لكن حينما قال الله عز وجل : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أي : مهما أردت العزة بغير الله فأنت ذليل ، إذا أردت العزة وأن تكون عزيزاً عن غير طريق طاعة الله ، عن غير طريق الاستقامة على أمره ، عن غير طريق إعزاز أمر الله ، فأنت ذليل .

ويروى أن امراة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه ، وكان يركب في زهاء اثنى عشر ألفاً من عظماء مملكته ، سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له ، إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين ، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً فقال يوسف كما أخبر الله تعالىٰ عنه : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقد نسمع ونقرأ عن إنسان كان في أعلى درجات العز ، فلما بنى عزه على معصية الله جعله الله في أسفل السافلين .

وهناك شيء آخر ، فسيدنا يوسف عندما قال :

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

جعله الله عزيز مصر فانظر واعتبر .

والله سمعت حكاية ، لولا أن صاحبها حيٌّ يرزق ، لما استطعت أن أصدقها : شاب حديث السن عنده دكان صغيرة في حي من أحياء دمشق ، وهي حكاية قديمة جداً ، يبدو أن فتاة ساقطة تحرشت به ، وأغرته ، فأغلق محله وتبعها ، وكان هذا الشاب لسبب معين قد حج في سن مبكرة ، وبينما هو في طريق متابعته إياها تذكر حجته فقال : لا والله لا أفسد هذه الحجة ، فركب الحافلة وعاد أدراجه إلى البيت ، أَيْ : خشي الله وأطاعه ، وفي اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي من جيرانه فقال له : يا فلان هل أنت متزوج ؟ فأجابه : لا والله يا سيدي ، قال له : عندي فتاة مناسبة ابعث أهلك ليروها ، فقال : ظننت أن في ابنته دمامة ، لأنه هو الذي عرضها عليه ، قال : فبعثت بأهلي ليخطبوها فرأوها في أحسن حال فوافقت ، وما هي إلا أشهر حتى جعلني شريكه في عمله التجاري وأغلقت المحل السابق وبعته ، طبعاً العم توفي ، لكن الرجل لا يزال حياً يرزق ، وغدا من كبار التجار .

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[يوسف : ٢٣] .

ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه ، أي شيء تدعه في سبيل الله فلابد من أن يعوضك الله خيراً منه في دينك ودنياك ، أتحبُّ أن تكون عزيزاً ؟ أتحبُّ أن تكون مكرماً ؟ أتحبُّ أن تكون محترماً ؟ أتحبُّ أن تكون مبجَّلاً ؟ بالغ في طاعة الله ، كلما

أطعته رفعك وكلما خالفت أمره وضعك ، فإذا هان أمره عليك هنت عليه ، وإذا عظَّمت شعائره أعزّك .

فالذي ذهب إلى المدينة ، وزار النبي عليه الصلاة والسلام ، يعلم ماذا أعني بهذا الكلام ، ما من مخلوق على وجه الأرض أعزه الله عز وجل كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو أن إنساناً في حرم النبي عليه الصلاة والسلام ودخل الملك لما رآه ملكاً ، في الحرم النبوي ، لو دخل الملوك مجتمعين لا ترى أنهم ملوك في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل عليه العبد وأصابته رعدة يقول :

« هون عليك ، فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد » [ابن ماجه عن أبي مسعود البدري] .

أناس يأتونه من أطراف الدنيا فإذا اقتربوا من مقامه يبكون ، وقد مضى على وفاته ألف وأربعمئة عام ويزيد ، ما هذا السر ؟ هل في الأرض كلها مخلوق أعزه الله كرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ خذ صحابته أمثله حية ، سيدنا الصديق ماذا كان يفعل ؟ له جيران فقراء ، وكان يحلب لهم الشياه ، فلما صار خليفة للمسلمين حزن أهلُ هذا البيت لأن منصبه الرفيع يمنعه أن يحلب لهم الشياه ، في اليوم الذي تلا تسلمه منصب الخلافة طُرِقَ الباب ، قالت الأم لابنتها : يا بنيتي افتحي الباب ، ثم قالت : يا أمي إن بالباب حالب الشاة جاء اليوم أيضاً ليحلب الشاه ، ما هذا التواضع ؟ وما من صحابي أعزه الله ، وذكر في القرآن ، كسيدنا الصديق .

ملخص البحث ، قانونٌ ، علاقة طردية ، كلما زدته طاعة وتعظيماً

زادك عزاً ، وكلما تساهلت بأمره وقلت : لا تدقق ، إن الله غفور رحيم ، والدين يسر ، وقلت لصاحبك : أنت متشدد ومتشنج كثيراً ، افعل ما تشاء ، ولا بأس عليك ، فكلما تساهلت في طاعته ، خفضك الله عز وجل وحطّ من شأنك ، وبلغت الهوان .

إن هؤلاء الذين علموا الناس ؛ الأئمة الكبار كالإمام الشافعي وأبي حنيفة ومن قبلهما الصحابة الكرام ، فاسم كل واحد منهم على كل لسان ، بذكرهم تتعطرالمجالس ، عظّموا الله فخلّد ذكراهم .

سيدنا موسى عليه السلام غدا في أوج عزه ، وفرعون يهون ويغرق ، يقول الله عز وجل :

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ـ٩١] .

وصدق الله العظيم .

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] .

سيدنا إبراهيم عليه السلام أرادوا به كيداً فقلنا :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

هذا هو العز ، عِزُّ الله لإبراهيم ، وموسى ، ويوسف ، كما علمت .

النبي عليه الصلاة والسلام ، ما من مخلوق أعزه الله كرسول الله ، وسيدنا الصديق ، وسيدنا عمر مر بخولة بنت ثعلبة في أيام خلافته . . قف يا عمر فوقف لها وأصغى لها وأطالت الوقوف وأغلظت القول وقالت : هيه يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً وأنت بسوق عكاظ . .

فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية. . . فقال لها الجارود : قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين ، فقال عمر : دعها أفلا يسمعها ابن الخطاب وقد سمع الله مجادلتها للرسول صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سماوات! ؟ .

كان وقّافاً عند كتاب الله فرفعه الله سبحانه .

وكذلك سيدنا عثمان ، سيدنا علي ، وبالمقابل أبو جهل مانهايته ؟ ما سُمْعَته ؟ ما قيمته ؟ وأبو لهب كذلك ، هؤلاء صناديد الكفار أين هم ؟ أما عكرمة بن أبي جهل فحينما تاب إلى الله تاب الله عليه وأصبح سيدنا عكرمة مع أنه له جاهلية وكان قد أهدر دمه وله موقفه المعادي لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

لا أريد أن أطيل ، فما من مخلوق على وجه الأرض إلا ويحب وجوده ، ويحب سلامة وجوده ، ويحب كمال وجوده ، ويحب استمرار وجوده ، وجزء كبير جداً من وجودك أن تكون مكرماً ، أن تكون عزيزاً ، أن تكون مرهوباً ، أن تكون سليماً من كل هُون ، وما من شيء يسبب لك الهوان كالمعصية أبداً .

فالعفيف عزيز ، وحينما يطمع الإنسان بأعراض الناس وينظر إلى نسائهم نظرات ريبة يصبح ذليلاً ، الإيمان عفة عن المطامع عفة عن المحارم .

الإيمان عفَّة ، عفَّة عمَّا في أيدي الناس ، وعفَّة عن أعراضهم ، لهذا غضُّ البصر من لوازم المؤمن ، المؤمن محصَّن من أن يتبع شهوته ، وكلما غضَّ بصره زاده الله عزاً ، وكلما غض بصره زاده

سعادة بأهله ، ولا يمكن أن تكون إلا بطاعة الله ، يعيشان حياة ثرة غنية ، موفقة لأنها أطاعت ربها فيه ، وأطاع ربه فيها .

فمطلب العزة مطلب عام ، ما من مخلوق إلا ويتمنى أن يكون عزيزاً ، والعزة ثمنها الطاعة ، وهذا الكلام موجه إلى الشباب ، اصبر على الحرام يأتك الحلال ، لا تفكر ولا تسمح لخاطرك أن تَرد عليه معصية وسوف توفق في عملك وتوفق في زواجك ، سوف يجعل الله لك مخرجاً ، وسوف ترزق من حيث لا تحتسب ، وسوف يرفع الله لك شأنك .

بعض الناس يموت فيسير في جنازته شخص أو شخصان هواناً لشأنه ، لمعصيته ، ويموت عالِمٌ فيسير في جنازته مليون ، أعزه الله ، لماذا أعزه ؟ لأنه أَعزَّ أمر الله ، أعز أمر الله يُعزَّك الله .

هذه حقائق ثابتة أيها القارئ الكريم ، فكل من يبتغي العزة بغير الله أدركه الهوان ، فلو أن الإنسان اتخذ الله ولياً لنجح وأفلح :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣] .

إذا ركنت لإنسان منحرف ، رأيته قوياً ، ورأيت عنده الدنيا ، ورأيت أنك إذا أَطعته جاءك خير كثير ، إذا ركنت إليه ونسيت الله عز وجل فلن يأتيك الذل إلا من طرفه ، لن يأتيك الضيم إلا منه تأديباً لك .

أحياناً يعتز الإنسان بقريب له ، له شأنه يُفاجأ بعد حين أن هذا القريب يتخلى عنه ، يدخل عليه فيتجاهله ، يعرض عليه قضية ليساعده بها فيقول : لا أستطيع ، أنا لا أخالف القوانين أبداً ، هذا

جزاء الذي ركن إليه . « **اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير** » .

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

وبعد فالوقائع والحوادث التي يمكن أن تروى في موضوع العزة والذلة أكثر من أن تحصى ، وما من واحد من الناس إلا من حلال معارفه وأقربائه ، ومحيطه وبيئته يعرف آلاف الحكايات ، هذا الشاب الذي استقام على أمر الله رفعه الله في الدنيا قبل الآخرة ، فقد أشاح بوجهه عن الحرام فزوجه الله حلالاً طيباً :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

قيل : « **جنة في الدنيا وجنة في الآخرة ، والدنيا قبل الآخرة** » .

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

وحسنٌ جداً أن أختم البحث بهذا الأثر أسوقه في هذه العجالة حول اسم : العزيز ، « **من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى** » . فأي شيء أردت أن تناله من خلال معصية يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الشيء ندَّ عنك ونأى ، وأي شيء إذا أردت أن تناله عن طريق الطاعة فاعلم علم اليقين أنه اقترب منك ودنا « **من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى** » ، أي : في التجارة لا تكذب تربح ، تربح وتكون عند الله صادقاً ، وإذا كنت محامياً لا تكذب وسيأتيك دخل وفير ، وتكون عند الله صادقاً ، كما تكون عند الناس مخلصاً قال صلى الله عليه وسلم :

« البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدق البيعان وبينا بورك لها في بيعهما .

وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويمحق بركة بيعهما » [رواه الشيخان] . فهذا الذي يعصي الله لينال دنيا فانية ، جاهل أحمق ، لا يعرف الله عز وجل ، فأضاع الآخرة الباقية . .

لأن الله عز وجل وعده حقٌ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فلتعلم إذاً أن ما وعد الله به المؤمن أن يحفظه ، ومما وعد به المؤمن أن يدافع عنه ، ومما وعد به المؤمن أن يرزقه ، مما وعد به المؤمن أن يعزه ، والدليل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

انظر ؛ لو قال الله : العزة للمؤمنين لكان من الممكن أن يُفهم : ولغير المؤمنين قد تكون عزة ، أما عندما قال : لله العزة ، وجاء الاسم المجرور مقدماً على العزة فأفاد القصر والحصر ، العزة وحدها إذاً لله فإذا أردتها فكن مع الله .

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك
وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك ؟! . .

* * *

الجبار

اسم الجبار اسم من أسماء الله الحسنى ، وقد ورد في آية :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر : ٢٣] .

تتداخل أحياناً صفات الإنسان مع صفات الخالق ، فلابد من التوضيح بأن هناك صفات إذا نسبت للخالق فهي صفات كمال ، أما إذا نسبت إلى المخلوق فهي صفات نقص ، فإذا وصفنا إنساناً بأنه جبار فهذه صفة نقص فيه ، لماذا ؟ إن وجود الإنسان مستعار ، وهو مستمد من الله عز وجل ، خُلق الإنسان ضعيفاً ، خُلق الإنسان عجولاً ، خُلق الإنسان هلوعاً ، هذا الإنسان الذي يوصف بأنه جبار هل بإمكانه أن يضمن استمرار حياته ثانية واحدة ؟ عشرات الأشخاص كل يوم يموتون بسبب وبلا سبب ، ومع تقدم العلم أصبح يقول الطبيب : سكته دماغية ، أو سكته قلبية ، أو هبوط مفاجىء في وظائف الكليتين ، أو تشمع في الكبد ، ونحن بين أظهرنا أشخاص كثيرون ، كانت لهم آمال طويلة جداً كل هذه الآمال تبددت ؛ لأن خللاً طفيفاً جداً أصاب أجهزتهم .

شاب كان في الصف الرابع في كلية الطب ، وكان من أذكى

الطلاب ، ومن أصحهم جسماً ، ومن ألينهم عوداً ، يتمتع بصفات في شبابه نادرة ، ومن أسرة ميسورة ، فجأة شعر بوهن في جسمه ، وبضعف في قواه ، وبدا اصفرار في وجهه ، الطبيب الأول قال : هناك فقر في الدم ، وكذلك أكد الطبيب الثاني ، بأن هناك فقراً في الدم ، ليس لهذا الفقر أسباب ، شاب في ريعان الشباب ، من أسرة ميسورة ، أي فقر دم هذا ؟ ثم اكتشف في النهاية ، أن في طحاله نشاطاً زائداً .

الطحال مستودع للدم ، ومعمل احتياطي لكرات الدم ، ومقبرة لكرات الدم الميتة ، ففي الثانية الواحدة يموت في جسم الإنسان مليونان ونصف كرية دم ، هذه الكريات التي ماتت تذهب إلى الطحال ، وفي الطحال ، وبطريقة اقتصادية ، تهدم هذه الكريات ، وتعاد إلى أصول تكوينها : حديد ، وهيموغلوبين ، الحديد يرسل ـ ثانية ـ إلى معامل كريات الدم الحمراء ، في نقي العظام ، ليعاد تصنيعه ، والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ليشكل الصفراء ، أخذت خزعة من طحال هذا الشاب وأرسلت إلى بلد غربي متقدم ، فكان الجواب أن الطحال يقوم بنشاط زائد يأخذ الكرية الحمراء الميتة ويحللها ، ويأخذ الكرية الحية ويميتها ويحللها ، فأصبح هناك نقص مستمر في كريات الدم الحمراء ، وانتهى أجله ، ومات في ريعان الشباب ، فإذا قال : أنا ! من أنت ؟ فالطحال لأنه عمل بنشاط أكبر ، كان سبباً في إنهاء حياة الإنسان .

شخص آخر أصيب بمرض نادر ؛ فقر دم لا مصنع ، أي : إنّ معامل كريات الدم الحمراء تكفُّ ذاتياً عن صنع هذه الكريات ، وهذا المرض العضال مجهول الأسباب ، ويعد سبباً في إنهاء حياة

الإنسان ، وهناك الهبوط المفاجىء في وظائف الكليتين مرض عضال يجعل حياة الإنسان جحيماً لايطاق ، وهناك التشمع في الكبد. . . فالإنسان لا تستمر حياته بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات ، وهناك نقطة دم تتجمد في بعض شرايين المخ ، في مكان ما يصاب الإنسان بالصمم ، في مكان آخر يصاب الإنسان بالعمى ، في مكان ثالث يصاب الإنسان بفقد الذاكرة ، في مكان رابع يصاب الإنسان بالشلل ، فهذا الذي يقول : أنا. . . هو أحمق ، لمجرد أن يقول : أنا ، فإذا وصف الإنسان بأنه جبار ، هذه صفة ذم في الإنسان ، لأن وجود الإنسان مفتقر إلى إمداد الله عز وجل ، وجود الإنسان تابع لمشيئة الله ، قوة الإنسان تابعة لمشيئة الله ، محاكمة الإنسان تابعة لمشيئة الله ، عقل الإنسان تابع لمشيئة الله ، فإذا قلنا : فلان جبار فإننا نصفه بالحمق ، لأنه يدعي ماليس له ، يدعي حجماً ليس له ، يدعي قوة ليست قوته ، أما إذا وصفنا خالق الكون الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الحي القيوم ، الذي لارادَّ لحكمه ، إذا وصفنا خالق الكون بأنه جبار فهذه صفة مدح ، وصفة تنزيه من جهة ، وصفة من صفات الذات لله عز وجل .

ويقاس على ذلك. . . إذا قلنا : فلان متكبر ، فهذه صفة ذم ، أما إذا قلنا : الله عز وجل متكبر ، فهذه صفة مدح ، الإنسان إذا تكبر يتكبر بغير حق ، أما ربنا عز وجل فمتكبر لأنه كبير فعلاً ، لأنه عظيم ، لأنه قوي ، لأنه خالق ، لأنه رب ، لأنه مسير .

أردت من هذه المقدمة أن يتقبل القارىءُ فكرة أن يتصف إنسان بصفة ، فنعدها ذماً ، وأن يوصف خالق الكون بهذه الصفة ، فنعدها مدحاً .

نحن في حياتنا عندنا شيء من هذا القبيل ، يوصف الرجل بأنه كريم مدحاً ، وتوصف المرأة بأنها كريمة ذماً ، لأن المرأة إذا بذلت من مال زوجها من دون إذنه ، وأتلفت ماله. . . هذه صفة ليست صفة مدح في المرأة ، إنها صفة ذم ، نصف إنساناً أحياناً بالجرأة ، وهو في موقع ، وقد تكون هذا الجرأة في موقع آخر تهوراً وحمقاً .

كلمة الجبار لها معان عدة :

المعنى الأول : الجبار هو العالي الذي لايُنال ، نقول : نخلة جبارة لارتفاعها ، فلا نستطيع قطف ثمرها ، نقول : ناقة جبارة يصعب أن نركبها ، والله سبحانه وتعالى يقول في قرآنه الكريم :

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة : ٢٢] .

أي : أقوياء أشداء ، لايرحمون ولايلينون .

أما إذا قلنا : فلان جبار أي : إنه إنسان لا يتواضع ، متعاظم ، متكبر ، لاينقاد إلى أحد ، ولكن تأكدوا أن هذا الذي يصف نفسه بأنه جبار ، أو يتصرف على أنه جبار ، أي متعاظم متكبر ، لاينقاد إلى أحد ، لا يخضع لأحدٍ ، لا يتواضع أبداً ، مثل هذا الإنسان ، لابد أن يقصمه الله عز وجل قصماً ، لذلك ترون وتسمعون في كل زمان وفي كل مكان عن جبار من جبابرة الأرض قصمه الله عز وجل ، وجعله عبرة لمن يعتبر ، لأن الكبرياء من صفات الله عز وجل ، والعظمة من صفات الله عز وجل ، فإذا جاء مخلوق حادث ضعيف ، ونازع الله هذه الصفات ، قصمه الله عز وجل[1] .

---

(١) روى البخاري في الأدب المفرد والطبراني بسند صحيح من حديث فضالة بن عبيد أن =

الجبار هو الله عز وجل ، لأنه لا تناله الأفكار ، ولا تحيط به الأبصار ، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء ، كل من بحث في أسماء الله الحسنى إلى يوم القيامة ، لا يستطيع أن يحيط بذات الله عز وجل ، كل ما كتب لم يكن سوى عملية تبسيط ، وعملية تقريب ، وعملية توضيح ، أما أن تستطيع أن تحيط بالله عز وجل هذا شيء مستحيل ، لذلك الجبار هو الله عز وجل الذي لا تناله الأفكار ، ولا تحيط به الأبصار ، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء .

لذلك من الجهل ، والتنطع ، والتطاول أن تظن أنه بإمكانك أن تفهم كل شيء عن الله ، هذه فكرة مغلوطة ، فعين العلم به عين الجهل به ، وعين الجهل به عين العلم به ، والعجز عن إدراك الإدراك إدراك ، أي : إذا قلت : لا أعلم عن الله إلا في حدود ضيقة جداً فأنت عالم ، هذه صفة علم فيك ، إذا قلت : لا أعلم فأنت العالم ، أما إذا أردت أن تقنع الناس ببساطة أنه بإمكانك أن تعرف كل شيء فهذا دليل عجز ، هذا المعنى الأول من معاني اسم الجبار الإله العظيم التي لاتناله الأفكار ، ولا تحيط به الأبصار ، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء ، وهو من صفات التنزيه .

المعنى الثاني : الجبار ، والقول المشهور : ما عُبِدَ الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر ، جبرت العظم : أصلحته ، المجبر : هو الذي يجبر العظم ، الجبار بهذا المعنى هو : المصلح للأمور ، كلما

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا تسأل عنهم : رجل ينازع الله إزاره ورجل ينازع الله رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره العز ، ورجل شك من أمر الله ، والقنوط من رحمة الله » .

حصلت مشكلة ، تهدم شيء ، افتقر إنسان ، تضعضع إنسان ، خالق الكون ، رب العالمين ، هو الجبار يرأب الصدع ، ويلم الشمل ، ويغني الفقير ، ويجبر الكسير ، ويعطي المحروم ، ويرفع الذليل ، لذلك كلما جئت الله عز وجل خاضعاً منكسراً جبر كسرك ، ولمَّ شعثك ، ورأب صدعك ، وقوى ضعفك ، وأغنى فقرك ، ورفع شأنك ، هذا معنى آخر للجبار : المصلح .

المصلح للأمور ، تقول : جبرت الكسر إذا أصلحته ، جبرت الفقير إذا أنعشته فهو جابر ، أما الجبار فهو كثير الجبر نوعاً وكماً ، تقول مثلاً : جبار ، لإنسان أعطى مئة رجل فقير لم تقل له : جابر بل : جبار لأن عطاءه شمل مئة إنسان ، أما إذا أعطى إنساناً واحداً عطاءً كبيراً فهو أيضاً : جبار ، فالمبالغة مبالغة عدد أو النوع ، على كلٍّ الجبار هو المصلح إن جبر الفقير أغناه ، وإن جبر المريض شفاه ، وإن جبر الذليل أعزه ، وإن جبر الضعيف قواه ، وإن جبر الخائف أمنه ، فالجابر هو المصلح والجبار كثير الإصلاح ؛ كمّاً ونوعاً ، هذا هو المعنى الثاني .

إذاً قل : يا جبار ، يقول التجار : يا جبار! لأن بيع البضاعة عند التاجر جبر ، وربنا عز وجل ما ذكر من صفات التجارة إلا صفة واحدة فقال :

﴿ وَتِجَـٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا ﴾ [التوبة : ٢٤] .

ما من منظر يتفتت له قلب التاجر كأن يرى بضاعته مكدسة في المستودع ، ولا أحد يسأله عنها ، لذلك. . . الله عز وجل عندما ذكر التجارة ذكر الشيء المؤلم عند التاجر ، إذاً يا جبار! أي : يا رب

اجعل هذه البضاعة نافقة ، وحبب الناس بها ، واجعلهم يقبلون عليها .

« يا جابر كل كسير » .

فالحزانى في كنف الله ، إن الله يحب كل قلب حزين ، والحزانى معرضون للرحمة .

أي إذا كان المرء في خصومة ، وكان قوياً ، واستعمل قوته في الظلم ، فليس رابحاً ، وليس منتصراً لأن هناك جباراً أعلى سوف يقصمه ، روي في الأثر :

« بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ، ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد سها ولها ، ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وطغى ،ونسي المبتدأ والمنتهى » .

أما إذا كان هذا المرء هوالجانب الأضعف فالجبار سيرحمه .

الجبار الذي يقصم الظالم ، والجبار الذي يرحم المظلوم ، فإذا كنت الجانب الأضعف كان الله معك ، فالله مع الضعيف ، والله هو الجبار ، سيجبر كسر الضعيف ، وهو الجبار سيقصم الظالم .

زوجان تخاصما ، أحدهما تجاوز حدوده ، هنيئاً لمن كان الأضعف ، هنيئاً لمن كان مظلوماً ، لأن الله مع المظلوم في الزواج ، وفي الشراكة ، وفي أي تعامل .

أب غني. . . ترك إرثاً كبيراً ، وترك أولاداً. . . وأحد أولاده كبير قوي ، والآخرون صغار ضعفاء ، الكبير استطاع بذكاء ، أو بحيلة ، أن يأخذ معظم الثروة له ، وأن يخص إخوته الصغار بشيء قليل ،

لايسمن ولايغني من جوع ، الله جبار ، يصلح الأمور ويقصم الجبابرة ، فما زال أحد إخوته الصغار يوفقه الله عز وجل ، ويمده ، وما زال الله عز وجل يضعف الكبير ، ويفقره ، ويسد الطرق في وجهه إلى أن اضطر الكبير أن يبيع الصغير كل ما أخذه من أبيه غصباً ، ثم اضطر الكبير أن يعمل عند الصغير محاسباً ومثل هذه القصص كثيرة جداً وكثير من كل الأسر .

اسم الجبار يقصم الظالم ، واسم الجبار يرحم المظلوم ، فالله جبار على الظالمين ، جبار للمظلومين ، جبار على الأقوياء ، جبار للضعفاء ، جبار على المتكبرين ، جبار للمتذللين .

فالجبار المصلح لكل الأمور ، المظهر لدين الحق ، الميسر لكل عسير ، الجابر لكل كسير ، وهذه صفة من صفة أفعال الله عز وجل إنها صفة فعل .

المعنى الثالث : الجبار بمعنى أنه جبره على كذا أي : أكرهه على ما أراد ، بمعنى أجبره ، الله عز وجل جبار أي : مشيئته هي النافذة ، أنت تريد ، وأنا أريد ، والله يفعل مايريد ، وورد في الأثر القدسي : **« أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد ، كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد ، أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد »** .

فرعون قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ، رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه ، فبدل أن يتوب إلى الله عز وجل ، وأن يعود عن غيه ، وعن ظلمه ، وعن كبره ، وعن ادعائه ، خطر في باله أن

يقتل كل أبناء بني إسرائيل ، وهكذا فعل ، لا تستطيع قابلة في عصره أن تخفي عن رجاله مولوداً ذكراً ولد لبني إسرائيل ، فإذا أخفت ذلك قتلت هي مكانه . . . يذبح أبناءهم .

أما هذا الذي سيقضي على ملكه ؛ فقد رباه في قصره ، الجبار الله عز وجل قهره ، وهو يغرق قال :

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ـ٩١] .

إخوة يوسف أرادوا به كيداً ، فجعلوه في غيابات الجب ، أي : أرادوا أن يقتلوه ، ما الذي حصل ؟ دخلوا عليه وهو عزيز مصر قال : ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] ويقول الله عز وجل موضحاً مغزى هذه القصة : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] ، هذه قصة ثانية .

إذاً الله جبار فقد أحبط مسعى إخوته الذين أرادوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأرادوا أن يقتلوه ، ثم صار عزيز مصر ، إذاً الله جبار .

قوم إبراهيم أرادوا أن يحرقوه ، وأن ينتهوا منه ، والأمر بيدهم ، وهم أقوياء ، وجاؤوا بالنار ، وأضرموها ، وألقوا إبراهيم عليه السلام فيها ، وكان من الممكن أن يتفلت من أيديهم ، كان من الممكن أن لا يعثروا عليه ، كان من الممكن أن تأتي أمطار غزيرة فتطفىء نارهم ، كان من الممكن ألا يعرفوا من كسر هذه الأصنام ، لكن أراد الله عز وجل أن يعرفوا أنه كسرها ، وهو فتى ، وأن يعترف

بفعلته ، وأوقدوا النيران ، واشتعلت النيران ، وألقوه في النار ، الله جبار. . . قال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩-٧٠] .

النبي عليه الصلاة والسلام ، ائتمروا على قتله ، قاطعوه ، نكلوا بأصحابه ، ثم دخل عليهم فاتحاً ، وهم رهن إشارة منه ، لو أعطى إشارة لقتلوا جميعاً قال : « ماتظنون أني فاعل بكم » ؟ فقالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم فقال : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم »[1] الله جبار .

في غزوة الخندق ضاق الأمر على النبي وأصحابه إلى أن ظن بعض أصحاب النبي أن الأمر قد انتهى ، وتكلم قوم بكلام قبيح فقال معتب بن قشير : يعدنا محمد كنوز قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته!! ما الذي حصل ؟ هبت الرياح العاصفة ، فقلبت قدورهم ، واقتلعت خيامهم ، وأطفئت نيرانهم ، قال تعالى :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

إذاً المعنى الأول من معاني الجبار : الشيء العالي الذي لايدرك ، فهو من أسماء التنزيه ، أي : من المستحيل بأن تحيط بالله عز وجل ،

---

(١) وفي المسند وسنن الترمذي : قال رجل لا يعرف : لا قريش بعد اليوم ، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ناساً سماهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فقال رسول الله : نصبر ولا نعاقب .

حتى الأنبياء لم يعرفوا الله المعرفة المطلقة ، عرفوا جانباً من كمال الله عز وجل ، عرفوا طرفاً من أسمائه ، فلا يعرف الله إلا الله .

المعنى الثاني للجبار : المصلح ، الضعيفَ يجبره ، الكسيرَ يجبره ، المظلومَ يجبره ، الفقيرَ يجبره .

أما المعنى الثالث : فهو الذي يجبر جميع الخلق على مشيئته ، وعلى إرادته .

والله لقد سمعت قصة مؤثرة رجل معروف بالغنى الفاحش يعمل في تجارة ناجحة جداً ، ورائجة جداً ، ويحصل منها على أرباح طائلة خطب ابنته شاب مهندس ، أخلاقي ، دخله دخل مهندس ، رفضه لفقره ، لكن رفضه كان باستعلاء ، وبكبر ، وبغطرسة ، هذه التجارة الرائجة ، أساسها قانون ، هذا القانون ، أوقف العمل به ، فجأة توقفت تجارته ، فجأة أصبح تحت طائلة المطاليب ، هذا العم الغني ، تراجعت تجارته شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح بحاجة إلى مصروف يومه ، ثم توسط لدى بعضهم أن يقنع الشاب المهندس أن يطلب ابنته مرة ثانية ، وتزوجها هذا المهندس ، وقد وفقه الله عز وجل في عمله ، ، ثم عمل العم عند صهره المهندس موظفاً ، الله جبار .

امرأة قالت لضرتها التي لا تنجب ، في بطني ولد وعلى يدي ولد ، وها هو ذا ولد أمامي ، ثلاثة أولاد ، ولد يتحرك أمامها وولد ترضعه ، وولد في بطنها ، من يصدق أن هؤلاء الأولاد الثلاثة ماتوا تباعاً ، وأن التي لا تنجب رزقها الله خمسة أطفال ذكور ؟!

الله الجبار ، مع الضعيف المظلوم المقهور ، ومع الكسير الحزين المستضعف ، الله عز وجل معه دائماً يؤيده ، وينصره ، ويوفقه ،

أقول أنا أعرف من هو المظلوم ، ومن هو الظالم من مستقبل الشـريكيـن ، فـالـذي وفقـه الله عـز وجـل هـو المظلـوم ، والـذي قصمه الله ، هو الظالم في الأعم الأغلب .

الزوجان ؛ طلقت امرأة من زوجها وهو يدعي أنها زوجة سيئة ، وهي تدعي أنه زوج سيىء ، في المستقبل إذا وفقت بزوج صالح أكرمها وورط الزوج بزوجة سيئة أزعجته ، معنى ذلك أنه كان ظالماً لها .

ويروى أن رجلاً كان جالساً مع زوجته يأكلان الدجاج طرق الباب طارق ، قامت الزوجة لتفتح الباب فكان بالباب رجل سائل ، ورغبت الزوجة أن تعطيه شيئاً من الطعام ، فنهرها زوجها وقال : اطرديه ، دارت الأيام وطلقت هذه من زوجها ، وخطبها إنسان ميسور الحال ، وهما جالسان يأكلان هذا الطعام نفسه ، ولحكمة بالغة طرق الباب ، فانطلقت لتفتح الباب ، فاضطربت قال زوجها : من الطارق ؟ قالت : سائل ، قال : لماذا اضطربتِ ، قالت : أتدري من السائل ؟ إنه زوجي الأول ، قال : أتدرين من أنا ؟ أنا السائل الأول ، الله هو الجبار .

وفي كل زمان وفي كل مكان وفي كل عصر وفي كل مصر تجري مثل هذه القصص ، غني يفتقر ، فقير يغتني ، ضعيف يقوى ، قوي يضعف ، كم من إنسان كان في قبضة إنسان ، يذيقه ألوان الإهانة والعذاب ، فجأة وقع هذا القوي في قبضة المستضعف ، فالإنسان المؤمن لو أن الدنيا أقبلت عليه ، عليه أن لا يتكبر ، ألايتجبر ، ألا يتعجرف .

والحقيقة ؛ كما أن الله عز وجل يعطي المال بحجم كبير ، فيدهش ، ويأخذه دفعة واحدة ، فيدهش .

كان هناك طبيب نسائي جبار ، لا يوجد في دمشق غيره ، قصة وقعت منذ سبعين عاماً تقريباً ، لا يخرج من العيادة إلا بـليرة ذهب وعربة ، لتنقله ، لعدم وجود السيارات في زمنه ، لابد من دفع الليرة الذهبية ولو كانت المريضة فقيرة ، ذكر لي بعضهم أن بعض الناس يضطرون لبيع الفراش من تحت المريضة ليعطوه الليرة ، ولادة عسرة ، وطبيب وحيد في البلد ، ولا يخرج من بيته إلا بـليرة ذهب وعربة .

بنى بناء في أرقى أحياء دمشق ، والبناء موجود الآن وهو من أندر الأبنية ، بعد ما بناه أصيب بالفالج ، تحملته زوجته زمناً يسيراً ثم أمرت زوجته أن يوضع في قبو البناء ، فوضعوه في القبو ، وكانت تبعث له الطعام مع الخادمة ، فيسألها عن زوجته فتقول له : قلت لها ولا أدري لم لا تحضر ، وقد طلبها أول مرة ، والثانية ، والثالثة ، وحينما تطل عليه زوجته بعد طلبه الملح تسمعه أقسى الكلمات ، وتغيب عنه ، بقي مشلولاً ثماني سنوات ، ويقدَّم له الطعام عن طريق الخادمة ، وبسبب من الرائحة الكريهة التي تفوح من القبو أمرت زوجته أن ينقل إلى بيت بعيد ليبقى هذا البناء أنيقاً ، وبعيداً عن رائحته الكريهة وعن صراخه ، وهو الذي بنى هذا البناء وزينه وزخرفه .

الله جبار ، لم يكن هذا الطبيب يرحم المرأة الفقيرة ، فيباع الفراش من تحتها ، ليأخذ الليرة الذهبية .

و كل إنسان يتجبر ، ويتحكم بالناس ؛ بعلمه حيث يقول :

لا يوجد غيري في هذا الاختصاص ، أو بماله ، أو بقوته ، فليعلم أن الله جبار .

والله جبار مع الضعيف ضد القوي ، مع المظلوم ضد الظالم ، ومع الفقير ضد الغني الظالم ، وليس كل غني بظالم .

فالله عز وجل جبار ، هذا هو المعنى الثالث جبره على كذا أي : أكرهه على ما أراد .

الجبار : هو الله عز وجل الذي أجبر الخلق على ما أراد وحملهم عليه ، أرادوا أم لم يريدوا ، أحبوا أم لم يحبوا ، أي : لا يجري في ملكه إلا ما يريد ، ولا يحصل في كونه إلا ما يشاء ، ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، سبحان من تنزه عن الفحشاء ، وسبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء .

فبعد توضيح المعنى الدقيق للجبار هل للإنسان علاقة مع غير الله عز وجل ، هل يوجد جهة غيرالله عز وجل أهل لأن تسأل وأن تخاف .

قال أحد العارفين : **« يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو أحداً غيرك ، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين على أمر بأحد غيرك ، وعجبت لمن يعرفك كيف يلتفت إلى أحد غيرك »** .

بعضهم قال : **« الجبار من لا يرقى إليه وهَمٌ ولايشرف عليه فهمٌ ولا يلحقه إدراك ، ينفذ أمره في كل شيء ، ولا ينفذ فيه أمر شيء ، من أصلح الأشياء بلا اعوجاج ، وأمر بالطاعة بلا احتياج »** .

هذا من تعاريف اسم الجبار .

وإذا كان الإنسان جباراً بالمعنى المذموم ، لا بد من أن يقصمه الله

عز وجل ، لكن يمكن للإنسان أن يكون جباراً من زاوية واحدة ، فمن لم يكن أسيراً لحب المال ، والجاه ، لأن كل إنسان يحب المال يصبح حب المال نقطة ضعف فيه ، أصبح ضعيفاً ، مفتاحه المال يقولون : فلان مفتاحه المال ، فلان تعظمه ، فيلين معك ، هذا يحب الجاه ، فكل إنسان أسير للمال أو الجاه هذا إنسان ضعيف ، فإذا تنزه الإنسان عن حب المال ، وحب الجاه ، أصبح جباراً بالمعنى الذي يليق بالإنسان ، لم يبق إنساناً ضعيفاً تستطيع أن تملك مفتاحه .

فالمؤمن مفتاحه الحق لا يوصل إليه لا بالمال ولا بالمديح ، لا تصل إليه إلا بالحق ، فإذا كان هناك مؤمن أحب أن يتخلق باسم الجبار لا بمعنى المتكبر ، ولا بمعنى القهار ، ولا بمعنى الذي ينفذ مشيئته ، بل بمعنى أنه ليس محتاجاً إلى مديح ولا إلى ثناء ولا إلى مال .

ففي كل شخص مهما يكن قوياً ، نقطتا ضعف ؛ المال والنساء ، ولا يوجد إنسان يتآمر على إنسان إلا بهاتين النقطتين ، إما بامرأة تغريه فيسقط ، وإما بمال يأخذه حراماً فيسقط ، فإذا كان الإنسان محصناً من المال والنساء ، لا يستطيع أعداؤه النيل منه .

فالجبار من الناس الذي يجبر الخلق بهيئته وصورته وأمانته وصدقه وعفته واستقامته على أن يقتدوا به ، يفيد ولا يستفيد ، ويؤثر ولا يتأثر ، هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام ، بلغ من الكمال درجة أنه يعطي ولا يأخذ ، ينفع الخلق كلهم ولا ينتفع منهم ، يؤثر فيهم ولا يتأثر ، روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم غنماً بين جبلين ، فأعطاه إياه ، فأتى

قومه ، فقال : أي قوم! أسلموا ، فو الله! إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر .

إذاً الجبار إذا أمكن لإنسان أن يكون كريماً فعليه أن يتنزه عن حب المال ، وعن حب المديح والجاه .

* * *



نواصل رحلتنا في الأسماء الحسنى . . . أخي القارئ الكريم لا بد للمؤمن من أن يعرف الله ، ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى جزء من معرفته ، إنه موجود وإنه واحد وإنه كامل ، وإني أكرر فأقول : لابد من معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى لقول النبي عليه الصلاة والسلام : « **إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ** » [صحيح البخاري] .

ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى لا يعرفه إلا الله ، هذه حقيقة يجب أن تكون واضحة لنا ، لا يعرف الله إلا الله ، ونحن إذا أردنا أن نعرفه فشأننا كمن يأخذ مخيطاً ويغمسه في مياه البحرثم لينزعه فلينظر بم يرجع ؟ هذا تشبيه ورد في الحديث الشريف قال عليه الصلاة والسلام : « **ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غمس في البحر من مائه** » [الطبراني بسند صحيح عن المستورد] .

فإذا كانت معرفة الله سبحانه وتعالى بحراً فمعرفة الإنسان لله عز وجل لا تزيد على أن يحمل المخيط فيغمسه في مياه البحر ، ولكن كما قال الإمام علي رضي الله عنه : « **أخذ القليل خير من ترك الكثير** » .

وبعد : فهل بالإمكان أن نضرب بعض الأمثلة كي نتعرف إلى الله عز وجل ؟ أيجوز أن نضرب أمثلة منتزعة من حياتنا من أجل توضيح بعض الحقائق ؟

أجل ، يجوز ولله المثل الأعلى ، سآتيكم بالدليل ، الدليل هو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعرفنا بذاته فضرب المثل فقال :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨] .

ربنا سبحانه وتعالى من أجل أن يعرفنا بأنه لا إله إلا الله ولا شريك له ولا أحد يشركه في حكمه ضرب هذا المثل ، إذاً يمكن أن أضرب بعض الأمثال لمعرفة أسماء الله الحسنى ، والسبب أن الاسم الذي نحن بصدده الآن هو المتكبر ، وكلمة المتكبر إذا أطلقت على إنسان تنفر النفس منه ، ولكن المتكبر هو الله سبحانه وتعالى .

إنسان بحاجة ماسة إلى مئة ألف ليرة ليجري بها عملية جراحية تحدد مصيره بالحياة ، قال الأطباء : لابد من إجراء هذه العملية ولابد من هذا المبلغ ، وهو لا يملكه ، توجه إلى رجل من أقربائه فقال : أمعك هذا المبلغ ؟ قال : نعم معي هذا المبلغ ، وهو كاذب ، وتوجه إلى إنسان آخر من أقربائه وسأله السؤال نفسه قال : أمعك هذا المبلغ ؟ قال : نعم معي وهو صادق ، فالذي قال : نعم معي هذا المبلغ ولا يملكه فهذا الرجل يكون ناقصاً ، ويدعي ما ليس عنده ، والثاني لو أنه قال لقريبه : لا ليس معي شيء وتواضع يعد ناقصاً ، بل يجب أن يقول : معي هذا المبلغ وخذه .

فالتكبر في الله كمال ، وفي العبد نقص ، لأن الله خالق الأكوان بيده ملكوت كل شيء ، كن فيكون ، وإليه يرجع الأمر كله ، لا نهاية لعظمته ، لا نهاية لكماله ، لا نهاية لعلمه ، لا نهاية لقوته ، فإذا تكبر الله سبحانه وتعالى لأنه علم أنه عظيم ، وهذا ينقلنا إلى اسم آخر من أسماء الله الحسنى وهو اسم المؤمن يعرف نفسه ، إذا كنت تحمل أعلى شهادة في اللغة العربية وجلس إلى جانبك إنسان يحمل الإعدادية ، وقرأ نصاً على سمعك ، فإذا في قراءته أغلاط كثيرة ، وأنت مهما كنت متواضعاً ألا تعرف أنك في اختصاصك متفوق ، وتحمل الدرجة العلمية ، وأن هذه القراءة كلها أغلاط ؟ بلى تعرف هذا وذاك ، ومعرفتك حقيقة مسلّم بها .

إذاً ، بادىء ذي بدء إذا قال الجبان : أنا شجاع ، فهذه صفة نقص في حقه ، وإذا قال البخيل : أنا كريم ، فهذا الكلام نقص في حقه ، وإذا قال الجاهل : أنا عالم ، فهذا نقص في حقه ، أما إذا قال العالم : أنا عالم وسأجيبك عن سؤالك رحمة بك فهذا كمال ، وإذا قال الشجاع : أنا شجاع ، وسأدافع عنك فهذا كمال ، وإذا قال الكريم : أنا كريم ، وخذ هذا المال فهذا كمال .

فعندما نقول : إن الله متكبر فهو اسم من أسماء الكمال ، وعندما تقول : فلان متكبر فالتكبر صفة نقص في الإنسان ، هذه الحقيقة الأولى .

المتكبر هو الذي يرى الكل صغيراً بالنسبة لذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد .

الله خالق السموات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء ، إليه يرجع

الأمر كله ، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كن فيكون ، فإذا كان الله متكبراً فهو يعرِّف ذاته ، وهذا يتصل باسم آخر من أسمائه الحسنى ، ألا وهو المؤمن .

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ** » [سنن أبي داود] .

وفي رواية أخرى : **قصمته** [الحاكم عن أبي هريرة] .

بعض العلماء يقول : « **المتكبر من الكبرياء وذو الكبرياء هو الملك** » . قال تعالى :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٧٨] .

فالمتكبر هو الملك الذي لا يزول سلطانه ، والعظيم الذي لا يجري في ملكه إلا ما يريد ، وهو الله الواحد القهار ، هذا معنى من معاني المتكبر .

معنى آخر المتكبر من الكبير والعظيم لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

ومعنى أكبرنه أي : عظمنه ، ومعنى قطعن أيديهن كما قال العلماء : جرحن أصابعهن .

الله متكبر أي : كبير ليس لكبريائه نهاية ، وهو عظيم ليس لعظمته غاية ، هذا المعنى الثاني من معاني المتكبر .

والمعنى الثالث : المتكبر هو الذي تكبر عن ظلم العباد ، والمتكبر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت ، وتوحد بالعظمة والجبروت ، والمتكبر هو الذي بيده الإحسان ومنه الغفران ، والمتكبر الذي ليس لملكه زوال ولا لعظمته انتقال .

وبعد فمن معاني المتكبر ؛ العظيم ذو الكبرياء ، وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد ، الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة ، والمتكبر هو الذي تكبر عن كل نقص ، وترفع عن كل نقص وتنزه عن كل ما لا يليق به المتعالي عن صفات خلقه أيضاً .

إذاً . . . لا بد من أن نعرف الله لأننا إذا عرفناه أطعناه فقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

لا يصح عملنا إلا إذا عرفناه ، ولا نسعد في الدنيا والآخرة إلا إذا صح عملنا ، ثلاث فقرات لا بد من أن نعرفه ، فإذا عرفناه أطعناه ، وإذا أطعناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة .

إذاً . . . المتكبر المتعالي عن صفات خلقه كامل في ذاته ، كامل في صفاته ، كامل في أفعاله . النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

« وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » . [صحيح مسلم] .

ورد في الأثر القدسي :

« أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد ، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد ، وأحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد ، وأحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد وأبغض ثلاث وبغضي لثلاث أشد ، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد ، وأبغض المتكبرين

وبغضي للفقير المتكبر أشد ، وأبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد » .

وهل تصدق أيها القارئ الكريم أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

« لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » .

[صحيح مسلم]

لماذا ؟ قال : لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله عز وجل ، أنت عبد وهو رب ، فإذا نازعته رداءه وإزاره قصمك كما ورد في الحديث الشريف الذي مر ذكره .

في الحديث الآخر يقول عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ تَوَاضَعَ للهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ »

[سنن ابن ماجه] .

النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة دخلها مطأطىء الرأس حتى كادت عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل .

قال عبد الله بن أبي بكر ـ كما يروي ابن اسحق ـ : « وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من فتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل » .

ودخل عليه مرةً رجل فأخذته رعدة فقال :

« هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

تكبره وكبرياؤه ورفعته وعلاه ومجده وثناؤه وعلوه وبهاؤه كل ذلك إخبار عن استحقاقه لنعوت الجلال وتنزهه عن النقائص والآفات .

قال أحد العارفين بالله في المناجاة : يارب بماذا أتقرب إليك ، فوقع في قلبه أن ياعبدي تقرب إلي بما ليس في ، فقال : يا رب وما الذي ليس فيك ، قال : الذل والافتقار وهو من أقرب الأبواب إلى الله عز وجل ومن أنجحها أن تأتيه طائعاً .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا
ولـذ بحمـانـا واحتـم بجنـابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلق المسرة والهنا
وسلم إلينا الأمر في كل ما يكو ن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

* * *

كـن مـع الله تـر الله معـك واتـرك الكلّ وحـاذر طمعـك
ثـم ضـع نفسـك بـالـذلّ لـه قبـل أن النفـس قهـراً تضعـك
كيفمـا شـاء فكـن فـي يـده لـك إن فـرّق أو إن جمعـك
في الورى إن شاء خفضاً ذقته وإذا شـاء عليهـم رفعـك
وإذا ضـرك لا نـافـع مـن دونـه والضـر لا إن نفعـك
وإذا أعطـاك مـن يمنعـه ثـم مـن يعطـي إذا مـا منعـك
ليـس يـوقيـك أذاه أحـد وإن استنصـرت فيـه شيّعـك
إنمـا أنـت لـه عبـد فكـن جاعلاً في القرب منه ولعك
فـز بـوصـل إن تـراه واصـلاً واقبـل القطـع إذا مـا قطعـك

كلما نابك أمر ثق به | واحترز للغير تشكو وجعك
لا تؤمل من سواه أملاً | إنما يسقيك من قد زرعك
ليت لو تشعر ماذا كنت من | قبل ما مولى الموالي اخترعك
كنت لا شيء وأصبحت به | خير شيء بشراً قد طبعك
تابعاً كن دائماً أنت ولا | تتمنى أنه لو تبعك
ودع التدبير في الأمر له | واصنع المعروف مع من صنعك
واحتفظ حرمة من يبصر إن | رمت فعلاً أو تنادي سَمِعَك

مطرف بن عبد الله قال : **لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً** ، وفي الحديث الذي رواه البزار بسند جيد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب** » .

طبعاً لا يعرف اسم المتكبر إلا من جال فكره في الكون ، يقول بعض العلماء : « **إن في الكون من المجرات ما يزيد على مليون مليون مجرة ، وفي كل مجرة ما يزيد على مليون مليون نجم ، وإن بين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة ، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلومتر ، وبين الأرض والشمس ثماني دقائق ، وبين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية** » ، فإذا أردنا أن نقطع هذه المسافة بسيارة لاحتجنا إلى ما يقرب من خمسين مليون عام ، ذلك إذا ركب الإنسان مركبة واتجه نحو أقرب نجم ملتهب في الكون من الأرض ، يحتاج إلى ما يقارب خمسين مليون عام ، فما قولكم بنجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ؟ تضرب بألف ، أي :

خمسين مليون ضرب ألف أي : خمسين ألف مليون عام لنجم القطب ، أربعة آلاف سنة ضوئية ، فما قولكم بالمجرة المسلسلة تلك المجرة الصغيرة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية ، فما قولكم بأحدث مجرة اكتشفت تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ؟ قال تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

[الواقعة : ٧٥ـ٧٦] .

يقول الإنسان : أنا ، من أنت ؟ تأمّل في هذه المسافات ، هذه المجرة كانت في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة ضوئية وهي الآن لا يعلم مكانها إلا الله .

ذكرت من قبل في دراسة بعض الأسماء الحسنى : أن بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، وأن الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، وأن في برج العقرب نجماً صغيراً أحمر اللون متألقاً اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، إذاً الله المتكبر ، فخلقه مظهر لكبريائه .

لقد ذكرت وأكرر أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، لا تدركه الأبصار ، ولكن الكون بين أيدينا وهو يجسد ويظهر عظمة الله عز وجل قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

من منا يصدق أن في اللقاء الزوجي الواحد يوجد ثلاثمئة مليون حوين تنطلق من الرجل ، وعلى كل حوين ملايين المعلومات المبرمجة ، وهذه المورثات لا ترى إلا بالمجهر ، خلايا الدماغ مئة

وأربعون مليار خلية سمراء اللون لم تعرف وظيفتها بعد ، في الشبكية مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط من أجل تحقيق الرؤية الدقيقة ، في العصب البصري تسعمئة ألف عصب .

من منا يصدق أن الإنسان إذا ذهب إلى شمال الأرض إلى القطب المتجمد الشمالي حيث الحرارة سبعون تحت الصفر بإمكانه أن يرتدي معطفاً يلف به جسمه جيداً ليقيه قسوة البرد هناك ، ويستعين بكل ما يقيه البرد ، وأن يضع الأشياء التي تقيه البرد ، لكن ليس بإمكانه أن يغطي عينيه ؟ فإذا لامس الهواء الخارجي ماء العين فلن يتجمد البتّة ، فمن وضع في ماء العين مادة مضادة للتجمد ؟ هو المتكبر ، لم ينسَ هذه ، إذا عاش الإنسان هناك بلا هذه المادة يفقد بصره فوراً ، هو المتكبر ، المنزه عن النقائص فعلاً وصفةً ، تفكر في خلق الله قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[آل عمران : ١٩٠ـ١٩١]

من منا يصدق أن في دماغ الإنسان جهازاً بالغ التعقيد يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين ، يصل الصوت إلى الأذن اليمنى إذا كان الصوت من جهة اليمين قبل الأذن اليسرى بواحد على ألف وستمئة وخمسة وعشرين جزءاً من الثانية ، وهذا الجهاز في الدماغ يحسب هذا التفاضل ، ويعرف الإنسان عندئذٍ جهة الصوت ، ولولا هذا الجهاز لما عرفت جهة الصوت أبداً ، حقاً هو المتكبر .

أسماء الله عز وجل نعرفها من خلال الكون ، من خلال هذه الآيات الدالة على عظمته ، كل منا عنده مستودع للوقود السائل ، فسعة المتر المكعب خمسة براميل من منا يصدق أن القلب يضخ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة ؟ ، وأن قلب الإنسان الذي يعيش في عمر متوسط يضخ مايملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم ؟!. .

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

من منا يصدق أن في الكبد وظائف تزيد على خمسة آلاف وظيفة ؟! وأن الإنسان دون كبد يعيش ثلاث ساعات فقط ؟!. . إذا أردت أن أمضي في الحديث عن معجزات الله عز وجل وعن إعجاز الله في خلقه فالأمر لا ينتهي ، لكن الله تعالى لخص هذا كله حيث قال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

جسمك ـ عزيزي القارئ ـ جهاز إيضاح ، أعضاء جسمك على اختلافها أعظم وسيلة إيضاح مستمرة ، لو أمضيت حياتك الدنيا كلها تفكر في عظمة خلق الإنسان لما عرفت الله عز وجل حق المعرفة ، ولكن الله سبحانه أحالك لتعرف عنه بعض المعرفة إلى ذاتك فقال : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

هذا الذي يتكبر وهو من بني البشر كم هو ظالم لنفسه ؟ الله سبحانه وتعالى تلطف بنا قبل أسابيع حينما جاءت هزة أرضية خفيفة جداً ، لو أنها كانت أشد لكانت أخبارنا في الآفاق ، مثلاً : ثمانون ألف قتيل ، سبعون ألف جريح تحت الأنقاض ، أبنية متهدمة ، لكنها كانت خفيفة حسب مقياس ريختر دون خمس درجات ، ولو كانت

خمس درجات حسب مقياس ريختر لكنا غير موجودين في هذا المجلس ، فعلى أي شيء نتكبر ، نحن نحيا ونعيش بلطف الله عز وجل ، مدن رائعة ، مدن جميلة جداً أصبحت أثراً بعد عين في ثوانٍ ، فعلام الكبر ؟

حينما انحبست أمطار السماء ، وأصبَحتْ كأس الماء عزيزاً ، وهُدِّدْنا بكأس الماء أن نفقدها ، فهل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تتخذ قراراً بإنزال الأمطار ؟ لكن الله سبحانه وتعالى تلطف بنا وأكرمنا وأرانا من آياته هو المتكبر من نحن ؟ هذه المركبة التي سموها « إشلنجر » المتحدي اسمها فيه سوء أدب مع الله عز وجل ، فيها سبعة رواد فضاء معهم رائدة فضاء أيضاً لتنجب ولداً في الفضاء ، الخطة كانت تقضي أن تحمل هذه المرأة من أحد هؤلاء الرجال ، وأن تنجب مولوداً في الفضاء ، ما هي إلا سبعون ثانية بعد إطلاقها حتى أصبحت كرة من اللهب ، علام الكبر ؟ من أنت ؟ أنت كن فيكون زل فيزول لا شيء ، لذلك :

مالي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك ربي أضرع

مالي سوى قرعي لبابك حيلة فلئن رددت فأيَّ باب أقرع

أنت في أعلى درجات العبودية مفتقر إلى الله عز وجل ، وأنت في أوج قوتك وأوج صحتك وأوج علمك يجب أن تكون مفتقراً إلى الله سبحانه وتعالى ، إذا أقدمت على عمل فقل : اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي ، والتجأت إلى حولك وقوتك ، ياذا القوة المتين .

فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا غزا قال : « **اللهم أنت عضدي**

وأنت نصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل » [رواه أحمد ، وابو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه] .

من منا يصدق (أذكر هذه الأمثلة لأوقظ بعض الناس من غفلتهم وشرودهم فإنه لا يصح للإنسان أن يتكبر فإذا تكبر فهو أحمق) أنّ نقطة من الدم لو تجمدت في بعض شرايين المخ في مكان يصاب بالشلل ، كان معززاً مكرماً ، خفيفاً ظله على الآخرين ، وفجأةً أصبح جسداً ملقىً على السرير ، واهناً خائراً ، فأقرب الناس إليه يتمنى موته ، على ماذا الكبر ؟ هذه النقطة لو تجمدت في مكان آخر لفقد الإنسان ذاكرته .

حدثني أخ كريم توفي والده ، وقبل وفاته فقد ذاكرته ، خرج من معمله وبيته في حي المهاجرين ، وبقي يبحث عن بيته نصف ساعة لم يعرف بيته ، من أنت بلا ذاكرة ؟ إذا فقدت ذاكرتك فأنت ذرة هباء في الهواء .

دخل ابنٌ على أبيه وهو صيدلي قال : من أنت ؟ قال : أنا ابنك يا أبتِ ، قال : لا أعرفك ، إذاً نقطة ما في مكان بالدماغ أفقدته ذاكرته ، وإذا وقعت بمكان غيره أصبح لا يبصر ، كل مافي الدنيا من جمال توارى واختفى ، فلا ألوان ، ولا جبال خضراء ، ولا بحار زرقاء ، ولا طفل جميل ، لقد توارى وراء ظلمة عينيه كل الجمال .

سمعت أن أحد الأدباء كان كفيف البصر ، وكان يقضي الصيف في النمسا في أجمل مكان ، أنا أقول : والله لو قضى الصيف في الصعيد في غرفة مكيفة فهو كما كان بالنمسا تماماً ، لأنه لا يرى شيئاً .

فالإنسان إذا غض بصره عن محارم الله ، وإذا باتت هذه العين خاشعة لله ، فأغلبُ الظن أن الله سبحانه وتعالى لا يفجعه بها .

أحد علماء دمشق الكبار علّم ثلاثة أجيال ، كان إذا رأى أحداً في الطريق يقول له : يابني كنت أنت تلميذي ، وكان أبوك تلميذي ، وكان جدك تلميذي ، بدأ بالتعليم في السنة الثامنة عشرة من عمره وتوفي في الثامنة والتسعين ، وكان مستقيم القامة حاد البصر مرهف السمع وأكرمه الله بأن زوجته عاشت مثله ، كان يقال له : يا سيدي! ما هذه الصحة ؟ يقول : يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ، من عاش تقياً عاش قوياً ، ألا تحب أن يكون خريف عمرك زاهياً جداً ؟ إذا أردت أن تكون كريماً على الله فاتقِ الله ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

انظر إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام هناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللامصنع ، هذه الخلايا هذه المعامل في نقي العظام تصنع في كل ثانية مليونين ونصف المليون كرية دم حمراء ، أحياناً تتوقف عن العمل بلا سبب وهذا المرض اسمه فقر الدم اللامصنع لماذا الكبر ؟ أنت مليون خطر يهددك ، ماذا تفعل ؟

أعرف إنساناً كان من أولي اليسار وله مكانة مرموقة في البلد فقد بصره فدخل عليه أحد أصدقائه فقال له : والله يافلان ، أتمنى ألا أحمل هذه الدكتوراه ، وألا أكون في هذا المنصب ، وألا أكون في هذه البحبوحة ، وأن أقبع على الرصيف أتكفف الناس ، وأن يرد الله إليَّ بصري ، هذه نعمة يجب أن نحفظها بطاعة الله عز وجل .

من أين يأتي هذا الورم ؟ الإنسان بكامل صحَّته فجأة تضطرب الخلايا في نموها فتكون القاضية!! هاتان الكليتان أحياناً تتوقفان فجأة عن العمل ، مرض اسمه هبوط مفاجىء في وظائف الكليتين ، إذن هليخ أن يغسل كليتيه في المستشفى مرتين مل أسبوع ، وهذا أمر لا يحتمل. . . إذاً علام التكبر ؟ هل تملك كليتيك ؟ هل تملك قلبك ؟ هل تملك دسامات القلب ؟ هل تملك الشريان التاجي المغذي للقلب ؟ هل تملك أن تبقى الأوعية في الدماغ واسعة لا تضيق ؟ هل تملك أعصاب الحس ألا تتلف وألا تلتهب ؟ هل تملك ألا تتكلس مفاصل الإنسان فيصبح قطعة واحدة ؟

هناك أمراض كثيرة جداً فعلام التكبر ؟ هل تملك هذا اللسان ؟ وأنت نائم يزداد لعابك في فمك فيذهب تنبيه إلى الدماغ بأن كمية اللعاب في الفم قد ازدادت يجب تفريغها ، فيأمر الدماغ لسان المزمار فيفتح الطريق إلى المري فيسقط اللعاب في المريء وأنت نائم ، كذلك وأنت نائم يقلبك الله ثمانياً وثلاثين مرة وأنت لا تدري ذات اليمين وذات الشمال لكي لا تقع عن السرير ، هذه نعم الله عز وجل ، تأمل فيها فتحب الله عز وجل ، وتبادر إلى طاعته ، لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت .

فهذا ثقب بوتال في القلب لو لم يغلق ماذا نفعل ؟ يحتاج الابن عند ولادته لمبلغ ضخم أجرة عمل جراحي من أجل إغلاق هذه الفتحة ، إنها فتحة بين الأذينين ، هكذا قال لي بعض الأطباء ، فتأتي جلطة تغلقها ، يد مَنْ داخل القلب ؟ يد مَنْ جاءت وأغلقت هذه الفتحة المعروفة بـ « ثقب بوتال » ؟ لو بقيت مفتوحة لبقي الطفل أزرق

اللون ، لأن الدم ينتقل من أذين إلى أذين ولا يتصفى عن طريق الرئتين .

الإنسان يأتيه مولود كامل الخلق فيقول : يا رب لك الحمد ، أما لو كانت فيه زرقة لاحتاج إلى عمل جراحي يكلف مبلغاً كبيراً ، فماذا نفعل ؟ علام الكبر ؟

الله عز وجل قادر أن يجعلك تبيع بيتك ومتجرك من أجل عملية جراحية واحدة ، علام الكبر ؟

أنا أؤكد على موضوع الكبر فهو في حق الله كمال ، وفي حق العبيد نقصان .

أعرف صديقاً لي توفي بمرض اسمه نقص في الصفيحات الدموية ، الإنسان من دون صفيحات دموية ينزف دمه كله من ثقب إبرة ، يوجد في الدم هرمون للتجلط وهرمون للتميع ، ونتيجة توازن هرمون التميع والتجلط يبقى هذا الدم بهذا الشكل المائع السائل ، لو زادت نسبة هرمون عن الهرمون الآخر لأصبح الدم وحلاً في الأوعية ولو زاد الثاني لأصبح الدم مائعاً ، من الذي نظم ؟ وأنت نائم ومرتاح ، ربنا عز وجل لم يوكل الأمر إليك بل أراحك منه .

فكرت بعملية التنفس ، فلو أن الإنسان يكلف بالتنفس ، لما استطاع أن ينام فيلغى النوم كلياً .

تكلمت مع أخ طبيب فقال لي : هذا مرض يقع أحياناً ، بسبب تعطل مركز التنبيه النوبي في البصلة السيسائية ، وله دواء الآن راقٍ جداً ومرتفع الثمن كثيراً ، يجب أن يأخذ كل ساعة قرصاً من هذا الدواء على مدى ساعات الليل ، فيضع المنبهات لتوقظه ، ويستيقظ

بواسطة المنبه كل ساعة ليأخذ قرص الدواء ، ثم يعود إلى النوم ، أهذه حياة ؟ إذاً عملية التنفس جارية وأنت لا تدري ، فنم وارتح ، التنفس بيد الله وكذلك القلب والرئتان والحركات ، فالحديث عن إعجاز خلق الإنسان يطول ، فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد تواضعاً ، والدليل قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فالعلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله عز وجل ، فكن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ، ولا تكن الخامسة فتهلك .

يقول الإمام الغزالي : « **العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً** » ، فما من قيمة اعتمدها الله عز وجل بين خلقه إلا قيمة العلم ، هناك مجموعة قيم يتفاضل بها الناس فيما بينهم المال والصحة والوسامة والقوة والذكاء ، أما قيمة العلم فقد اعتمدها الله عز وجل في القرآن فجعلها قيمة وحيدة للترجيح بين خلقه فقال :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] .

فتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً ، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومها وصلاتهما ، ويختلفان في العقل كالذرة جنب أحد ، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين .

لذلك « ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يابن آدم أنا فجر جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة » ،

وصالح المري روى عن الحسن أنه وصف الإنسان بأنه بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

فالمتكبر هو الله وهي صفة كمال فيه ، أما التكبر عند الإنسان فهي صفة غباء وجهل ونقص فيه فالحذر ، الحذر ، ورحم الله امرأً عرف حده فوقف عنده .

* * *

الغَفَّار

رحلتنا مع أسماء الله الحسنى طويلة فلا بد من أن نقيل ، وفي بستاننا دوحة وارفة نقيل تحتها اسم « الغفور » ولقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في صيغ ثلاث : الصيغة الأولى ورد على صيغة غافر قال تعالى :

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر : ٣] .

وورد أيضاً على صيغة ثانية وهي الغفور ، قال تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج : ١٤] .

وقال تعالى :

﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر : ٤٩] .

وقال تعالى :

﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر : ٥٣] .

إلى آخر الآيات التي ورد فيها هذا الاسم على صيغة غفور .

الصيغة الثالثة وردت غفار على وزن فعال قال تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] .

وقال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

إذاً غافر وغفور وغفار وردت هذه الأسماء كلها في القرآن الكريم ، وهذه الأسماء كلها مشتقة من مصدر واحد وهو المغفرة .

قال بعض العلماء : « الإنسان إذا عصى الله عز وجل وصف في القرآن بأنه ظالم وبأنه ظلوم ، وبأنه ظلام » قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

[فاطر : ٣٢]

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وقال تعالى :

فالمسرف ظلاَّم على صيغة المبالغة .

فإذا كان العبد ظالماً فالله غافر ، وإذا كان ظلوماً فالله غفور ، وإذا كان ظلاماً فالله سبحانه وتعالى غفار ، بأية صفة أتى بها العبد المعصية فهناك اسم لله عز وجل يقابل هذه المعصية .

النقطة الدقيقة في هذا الاسم أن صفات الإنسان متناهية ، معنى متناهية : أنّ الإنسان إذا فعل ذنباً فذنبه له حجم ، وقع في معصية ، ومعصيته لها حجم أيضاً ، فمهما تكن المعاصي والذنوب فإنها متناهية تنتهي عندّ حد ، لكن مغفرة الله عز وجل ليست متناهية لا حدود لها ، وغير المتناهي يغلب المتناهي ، إذاً ، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الكفور ، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجهول ، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجحود .

إذا كان ذنبك متناهياً ومغفرة الله عز وجل ليست متناهية ، فمن الغباء والحمق والجهل والجحود وقلة العلم أن تيأس من رحمة الله ، لذلك ، فاليائس كافر ، اليائس جاهل ، اليائس جاحد .

هناك شيء آخر بالنسبة لهذا الاسم أن الآيات التي وردت في هذا الاسم وردت مرة بصيغة الماضي ، قال تعالى :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص : ٢٤ـ٢٥] .

ووردت أيضاً بصيغة الفعل المضارع قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٣٥]

ووردت بصيغة الأمر ، قال تعالى :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

ووردت بصيغة المصدر قال تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] .

أي يغفر لك ما مضى ، ويغفر لك الآن ، ويغفر لك في المستقبل ، وهو ذو مغفرة ، بأي زمن كنت هو غفار ، لأي ذنب فعلت هو غفار ، إن كان الإنسان ظالماً فالله غافر ، وإن كان ظلوماً فالله غفور ، وإن كان ظلاماً فالله عز وجل غفار وإن فعل الذنب في الماضي غفر الله له ، وإن فعله الآن يغفر الله له ، وما سيفعل من ذنب في المستقبل فإن الله عز وجل يغفر بعد الانكسار والدعاء ، بأي شكل وبأي زمن فإن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم .

أسوق هذا الكلام ليعلم الأخ المؤمن أنه لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا اليائس ، إلا الجاهل ، إلا الجاحد إلا الكافر .

ولكن عزيزي القارىء : إذا توهم أحدٌ أن غافراً اسم فاعل ، وأما غفور صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، وأما غفار صيغة مبالغة المبالغة لاسم الفاعل ، (والحقيقة التي أتمنى أن تكون واضحة لدى القرّاء الكرام هي أن أسماء الله عز وجل لا تتفاوت أبداً) .

إذاً كيف جاء هذا الاسم على هذه الصيغ ؟ فالسؤال وجيه .

إذا تناول إنسانٌ الطعام يقال له في اللغة : آكل ، إذا جلس إلى الطعام فأكل خمسة أرغفة يقال : له أكول على وزن فعول ، يقال له : أكول إذا تناول كمية كبيرة ، إذا تناول وجبة خفيفة ، ولكن أكل في اليوم خمس مرات يقال له : أكول ، إذاً صيغة المبالغة ماذا تفيد ؟ تفيد النوع وتفيد العدد ، الحقيقة الأولى أن أسماء الله عز وجل لا تتفاوت ، كلها في مستوى واحد .

الإنسان كان في مستوى وارتقى إلى مستوى أعلى ، ثم ارتقى إلى مستوى أعلى ، كان ظالماً ، ثم فعل ظلماً أشد فأصبح ظلوماً ، فعل ظلماً أشد وأشد صار ظلاماً ، أما هذا المعنى فلا يليق بكمال الله عز وجل أبداً ، لو أن فلاناً ارتكب سيئة غفرها الله له فهو غافر ، فلان الآخر غفر الله له ، فلان الثالث غفر الله له ، فلان العاشر غفر الله له ، والعباد كلهم لو أذنبوا غفر الله لهم ، جاءت صيغة غفار لا من حيث النوع ، ولكن من حيث العدد ، لو قلت : فلان ليس أكولا ، إذاً نفيت عنه أنه أكول ، فهل نفيت عنه أنه يأكل ؟ لا ، إذا قلت : وما ربك بظلام للعبيد ، قد يقول قائل معلوماته محدودة وأفقه ضيق : الله ينفي عن نفسه مبالغة الظلم ، ولا ينفي عن نفسه الظلم ، فإذا قلت عن إنسان : ليس أكولاً فليس معنى هذا أنه ليس آكلاً ، قال العلماء : هذا لا يليق بكمال الله عز وجل لأن صيغة المبالغة بأسماء الله لا تعني الكم ، بل تعني العدد ، فكل عباده لو أنهم أذنبوا فالله عز وجل غفور ، فصيغة فعول تعني المبالغة لا في النوع ، لكن في العدد ، والدليل قوله تعالى :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت : ٤٦]

الظلام في حق الله تعني أنه لا يظلم ، فجميع عباده ينعمون بعدالته .

شيء آخر : المغفرة في اشتقاقها اللغوي تعني الستر ، المغفر : زَرَدُ من الدرع يلبس تحت القلنسوة ولكن ربنا عز وجل كما يتضح للقارئ الكريم ذكر بعض المعاصي ، فقال مثلاً عن سيدنا موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[القصص : ١٦] .

وقال مخاطباً سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام :

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح : ٢] .

فلا يستقيم معنى المغفرة ـ هنا ـ بمعنى الستر ، لكن يستقيم بمعنى الصفح والعفو ، والعفو والصفح يلغيان الشيء بمعنى واحد ، فالمعنى الأول للمغفرة : الصفح والعفو ، أي : عدم إيقاع العقوبة ، أي أن الله عز وجل غفور يمكن أن يعفو عنك فلا يوقع عليك العقاب .

المشكلة الأساسية هو أننا إذا قرأنا القرآن قد نقرأ بعضه وننسى بعضه الآخر ، قال تعالى :

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

يجب أن لا تقف عند هذا الحد في الآية ، بل تتابع ما بعدها قال تعالى :

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٤] .

أي : غفور لمن أقبل ، غفور لمن تاب ، غفور لمن رجع ، غفور لمن أناب ، غفور لمن أصلح ، غفور لمن استغفر ، أما أن يقيم الإنسان على معصية ، وينوي أن يبقى عليها ، ويقول : الله غفور رحيم فإن هذا من السذاجة والجهل وعدم الفهم :

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ الحجر : ٤٩ـ٥٠] .

أي : إما أن تأتيه طائعاً ، وإما أن يدفعك إلى أن تأتيه ، ربنا عز وجل قال في بعض الآيات : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ وفي بعضها ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٣٩] ، ما معنى توبة الرب إذا سبقت توبة العبد ؟ وما معنى توبة الرب إذا تأخرت عن توبة العبد ؟

قال بعض العلماء : « **إذا سبقت توبة الرب توبة العبد أي : إن الله عز وجل ساق له من الشدائد والمحن والمصائب ما دفعه إلى التوبة ، فما أكثر التائبين على أثر مصيبة نزلت بهم** » ، الله عز وجل تاب على العبد قبل أن يتوب ، أي : ساق إليه الشدائد والمحن والبلايا بحيث يحمله على التوبة ، وإذا قال الله عز وجل :

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾ [المدثر : ١٢ـ١٤] .

فحيثما جاءت كلمة ذرني يعني يا محمد إن لم يستجب فلان لك فدعه لي ، فأنا أسوق له من الشدائد ما أحمله على التوبة ، وهذه

آيات دقيقة جداً ، فالله عز وجل من رحمته أن يسوق لك إنساناً لطيفاً يقدم لك نصيحة هادئة رقيقة بينك وبينه ، يدعمها بالآيات والأحاديث والقصص فأنت إما أن تستجيب وإما ألا تستجيب ، فإن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى عنده من الوسائل والأساليب والأدوية والطرائق والمضايقات والشدائد ما يدفعك إلى بابه دفعاً ، فأيهما أرقى لك أن تأتيه طائعاً أو أن تأتيه بعد العصا ، هذا ما فسره النبي عليه الصلاة السلام :

« عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل وهم كارهون »
[الطبراني عن أبي أمامة وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسنده حسن] .

عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل ، **« كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قيل : ومن أبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى »** [رواه البخاري] .

فأنت أخوف ما يجب أن تخاف منه ، أن تدعى إلى الله عز وجل دعوة هادئة لطيفة فيها ستر بينك وبين أخ كريم ينصحك بغض البصر ، بتحرير الدخل ، بترك الظلم ، بترك العدوان ، ثم لا تستجيب له فإنك إن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى كفيل أن يسوق للإنسان من الشدائد ما يحمله على التوبة ، هذا معنى التوبة ، إذا سبقت توبة الرب توبة العبد ﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ ، أما إذا جاءت توبة الرب بعد توبة العبد فهي قبول التوبة ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٣٩] أي : يقبَلَ توبتهم .

إن الإنسان إذا قرأ عن المغفرة فإنه يجد الله واسع المغفرة ، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال فيما روى عن الله تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

« يَا عِبَادِي! إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ . . يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي! إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ . [صحيح مسلم] .

معنى هذا الحديث القدسي ؛ أن الإنسان إذا عاد إلى الله طواعية ضَمِنَ حفظ الله له وتأييده وإكرامه ، فإذا أبى ولم يستجب عندئذ سيأتيه العذاب من حيث لا يشعر ، لذلك ربنا عز وجل يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة : ٣٨ـ٣٩] .

إن لم تأته طائعاً دفعك إلى بابه دفعاً .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نزل جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة لم ينزل في مثلها قط ضاحكاً مستبشراً فقال : السلام عليك يا محمد قال :

وعليك السلام يا جبريل قال : إن الله بعثني إليك بهدية كنوز العرش أكرمك الله بهن قال : وما تلك الهدية يا جبريل فقال جبريل : **قل يا من أظهر الجميل! وستر القبيح! يا من لا يؤاخذ بالجريرة! ولا يهتك الستر! يا عظيم العفو! يا حسن التجاوز! يا واسع المغفرة! يا باسط اليدين بالرحمة! يا صاحب كل نجوى! ويا منتهى كل شكوى! يا كريم الصفح! يا عظيم المن! يا مبتدىء النعم قبل استحقاقها! يا ربنا! ويا سيدنا! ويا مولانا! ويا غاية رغبتنا! أسألك يا الله أن لا تشوي خلقي بالنار .**

دققوا في هذا الدعاء : يامن أظهر الجميل ، وستر القبيح ، أيّ قبيح هذا ؟ خواطرك ؛ تأتيك خواطر لا يعلمها إلا الله ، خاطر قبيح جداً ، خاطر معصية ، قد يأتي في بالك خاطر لا يرضي الله عز وجل ، لكن ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى جميل الستر كل خواطرك محجوبة عن الخلق ، لك أن تفكر بما تشاء ، ولك أن يخطر على بالك ما تريد ، وأنت عند الناس في أعلى مكانة ، لذلك قال عبد الله بن محمد القحطاني في نونيته :

والله لو علموا قبيح سريرتي ... لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي ... ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالبي ... وحلمت عن سقطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلها ... بخواطري وجوارحي ولساني

شريكان ، لو اطلع الأول على مايدور في خلد الثاني لفك معه الشركة ، لو اطلع الزوج على ما يدور في بال زوجته لطلقها ، ولو اطلعت الزوجة على ما في ذهن زوجها لتركته ، لو اطلع الأب على

ما يدور في بال ابنه عند تفكيره بموت أبيه لكرهه ، يقول الابن لأبيه أحياناً : أعطني يدك لتقبيلها ، وفي باله خاطر آخر ، لو اطلع الأب على ما يجول في خاطر ابنه لكرهه وطرده ، فالله عز وجل يستِّر جميل الستر ، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا ربه قال : يامن أظهر الجميل وستر القبيح .

أي ؛ أنت في حصن حصين ، فكل خواطرك الداخلية وكل المشاعر وكلِ الأفكار وكل الطموحات ، هذه كلها مستورة ، فهذا من معنى المغفرة أي : ستر عن الناس العيوب الفكرية .

وهناك شيء آخر : فالإنسان دون جلد قبيح جداً ، ولو رأيت إنساناً على مستوى العضلات فقط لرأيته مخيفاً ، إنها عضلات متداخل بعضها مع بعض ، لو رأيت عضلات الوجه وحدها لوليت من الإنسان فراراً ، عشرات العضلات المتداخلة والمستقيمة والمائلة ، لكن يأتي هذا الجلد فيجعل الوجه جميلاً ، فربنا عز وجل ستر العضلات بالجلد ، وهناك فتحات بالجسم كلها مستورة وما تراه هو المنظر الأنيق الجميل هذا من معنى : يامن أظهر الجميل وستر القبيح ، الوجه الجميل ، والسوءة القبيحة .

والمعنى الثالث : أن المؤمن في الجنة يستر الله عنه ذنوبه ، فلو أن المؤمن اطلع على جاهليته لاحترق ، وهذا شيء فوق طاقة البشر لأنه مع الكمال المطلق ، لو أن مؤمناً تاب إلى الله توبة نصوحاً وغفر الله له ، فإذا تذكر ما فعل في الجاهلية قضم أنامله على تفريطه ، فمن رحمة الله بالمؤمن أنه يستر عنه عيوبه ، وهذا ما فسره بعض العلماء في سر فناء الجسد ، إن هذه الصور في الذاكرة فإذا فني

الجسد بقيت النفس ، النفس طاهرة مقبلة مطهرة معطرة مرتبطة بالكمال الإلهي ، أحد المؤمنين له جاهلية وتاب ، إذا تذكر جاهليته ، وكيف كان ، وفي أي مستوى كان ، وفي أي منطق ، وفي أية مخالفات ، وفي أية معاصٍ يحترق ، يحرقه كماله ، هذا في الدنيا .

قالوا : لابد للمؤمن من ذلَّة أو قلَّة أو علَّة ، فما الذلة ؟ هذه ذلة الجاهلية التي كانت قبل أن يتوب إلى الله عز وجل ، لو أن الإنسان إذا تاب من معصيته ، وشفيت نفسه منها ، ثم تذكرها فإنها تحرقه أسفاً لتفريطه في الدنيا ، فمن رحمة الله بالمؤمنين أنه في الجنة يستر الله عنه ذنوبه كلها ، أبداً لا يرى شيئاً ، ربنا عز وجل في سورة غافر قال :

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر : ٣] .

قال بعض المفسرين : « غافر الذنب إكراماً ، وقابل التوب إنعاماً ، وشديد العقاب بالكافرين ، وذي الطول أي : ذي العطاء الكبير للسابقين والمقربين » .

في الآية تجد ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى للمؤمنين واسماً واحد للكافرين ، فربنا عز وجل غافر الذنب ، وقابل التوب ، ذي الطول شديد العقاب ، فقال : غافر الذنب لمن ظلم نفسه ، وقابل التوب للمقتصد ، وذي الطول للسابق ، فبعض المؤمنين مقصرون مخالفون ، بعضهم مستقيمون ، بعضهم متفوقون ، فربنا عز وجل للمقصرين غافر الذنب ، وللمقتصدين قابل التوب ، وللسابقين ذي الطول ، وللكافرين شديد العقاب ، لماذا كانت صفة واحدة من صفات الله عز وجل للكافرين لأن الكفر ملة واحدة فماذا بعد الحق إلا

الضلال ، الكفر واحد ، أما الإيمان فمراتب .

عندنا بعض التفسيرات اللطيفة لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الله عز وجل لم يقل قل يا عبادي الذين فسقوا ، قل يا عبادي الذين زنوا ، قل يا عبادي الذين شربوا الخمر ، قلْ يا عبادي الذين قتلوا ، بل قال : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فيها تلطف فيها سترٌ لحالهم ، تذوق الكلمات القرآنية ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

الشيء الثاني في الآية كلمة ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ﴾ ففيها لفتةٌ بلاغية جميلة موحية جداً ؛ أي هذا العبد أضافه الله إلى ذاته ، تحبباً لعباده ؛ تسلية وطمأنة لهم وإكراماً منه نسبهم إلى ذاته ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ فزينتهم بنسبتهم إلى ربهم وقبحهم لا يعقل أن يغلب نسبتهم إلى ربهم ، لذلك حينما يقول لك الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ﴾ يجب أن تفتخر يجب أن تطير إلى السماء حباً به وإقبالاً عليه .

والشيء الآخر الذي يلفت النظر في الآية : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ ﴾ لم يقل : في معصية ربهم . لا ، بل قال : أسرفوا على أنفسهم أي : هذه المعاصي ما ضروا بها أحداً ، بل ضروا بها أنفسهم ، وذات الله منزهة عن كل أذى .

« يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » [رواه مسلم] .

فـ ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ لا على الله عز وجل ،

ذات الله منزهة ، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ دقق في الآية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ، أي : هو الغفور إن أذنبت أو لم تذنب ، هو الغفور دون أن تذنب ، ولو أنك أذنبت فهذه هي صفته الثابتة هذه صفته القديمة والسرمدية والأبدية ، قال العلماء : وأما قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر : ٤٩] .

فقد روي عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم وهم يضحكون فقال تضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم ، قال فما رئي أحد منهم ضاحكاً حتى مات قال : وفيهم نزلت : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

لن يكون الإنسان في حالة نفسية سوية إلا إذا جمعت بين الخوف والرجاء ، فإذا غلب الخوف فهي حالة مرضية ، وإذا غلب الرجاء فهي حالة مرضية فلاحظ نفسك ووازن بين الحالتين ، يوجد في الدم هرمون التجلط وهرمون التميع إذا غلب هرمون التجلط رأيت الدم كالوحل في الأوردة والشرايين فيموت الإنسان فوراً ، وإذا غلب هرمون التميع سال الدم كله من ثقب صغير ، في كلا الحالين ، فالإنسان ميت ولا بد من التوازن الدقيق بين التجلط وبين التميع ، وبعلاقتك مع الله عز وجل يجب أن يكون هناك توازن دقيق جداً بين الرجاء والخوف ، فأكثر الناس يقول : لا تدقق فالله غفور رحيم ، وهذا رجاء أبله ، لو قرأت القرآن لوجدت أن الله سبحانه وتعالى يقول كثيراً : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل : ١١٩] ، إذا راجعت القرآن الكريم ودققت فالآيات التي وردت بموضوع المغفرة آيات كثيرة :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٥٣] .

فالتفاؤل والرجاء دون توبة ودون استقامة تفاؤل أبله أحمق ، والخوف إلى درجة الانسحاق واليأس من رحمة الله هذا يأس قاتل ، ولن تسعد مع الله عز وجل إلا إذا جمعت بين الخوف والرجاء قال تعالى :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

[الأنبياء : ٩٠]

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٣] .

قال تعالى : نبىء يا محمد : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قبل العباد جاءت شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد العباد جاءت رحمة الله تعالى ، والعبد بين شفاعة وبين رحمة ، هذا من باب التطمين ، ويقال : إن أحد الخلفاء دخل عليه ولد ابنه وولد ابنته فقال لهما : أنتما ابنا مَن ؟ فانتسب ابن بنته إلى أبيه وانتسب ابن ابنه إليه ؛ هكذا يروى ، وليس هذا الموقف كاملاً ، ملأ حجر ابن ابنه بالجواهر ، وملأ حجر ابن ابنته بالسكاكر ، لأنه انتسب إليه ، مغزى الخبر أن الإنسان إذا قال : يا رب أنت ربي لا إله إلا أنت ، يا رب ليس لي أحد سواك ، فانتسابك يرفعك عند الله عز وجل ، وربنا عز وجل أكرمك بهذا النسب فقال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ ﴾ فالذي يقرأ القرآن

يجب أن يتذوق كيف أن الله سبحانه وتعالى نسب العباد إلى ذاته ، ومما يزيد الآية روعة ما يوجد فيها أيضاً من تكرار للضمائر قال تعالى : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

في الآية تكرار ، بـ أنا ، أني أنا ، الياء ضمير متصل ، والمتصل بأني هو نفسه أنا ، أني أنا ، لماذا التكرار ؟ للطمأنة ، ﴿ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

بعضهم قال : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ يمحو هذه السيئة من دفتر أعمالك ، وأما الغفور فيمسحها عند الملائكة ، وأما الغفار فينسيك هذا الذنب ، فإما أن تمحى من دفترك ، وإما أن ينساها الملك ، وإما أن تنساها أنت ، هذا منتهى الكرم ، أن تأتي يوم القيامة وليس لك جاهلية ، وليس لك ذنب ، كمال في كمال ، لذلك تسعد في جنة الله التي عرضها السموات والأرض إلى أبد الآبدين .

إذا تاب الإنسان في سن مبكرة هذا رائع جداً ، ولكن إذا عرف الله في سن متأخرة فلا مانع ، فضل الله كبير ، وكأن الله عز وجل يقول للعبد إذا تقدم سنه : « **عبدي كبرت سنك ، وانحنى ظهرك ، وضعف بصرك ، وشاب شعرك ، فاستحِ مني فأنا أستحي منك** » .

روي « أن الله تعالى يحب أبناء السبعين ويستحي من أبناء الثمانين » .

وروي أنه « ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب وما من شيء أبغض إلى الله تعالى من شيخ مقيم على معاصيه » .

والحكاية التي أرددها كثيراً ولا أنساها ؛ أحد شيوخ الأزهر الكبار رأى خطيب مسجد شاباً فتمنى أن يكون مثله ، والرجل عمره آن ذاك خمسة وخمسون عاماً ، رجل من صعيد مصر أمي لا يقرأ ولا يكتب ،

لكن لا تنسوا أن مراتب الله العليا لا لمن سبق ، ولكن لمن صدق ، فساق دابته إلى القاهرة ، وسأل عن الأزعر ، وهو يقصد الأزهر ، فالذي سأله رجل صالح قال له : يا أخي اسمه جامع الأزهر ، وليس جامع الأزعر ، فتح الله عليك فتوح العارفين ، وهذه الحكاية سمعتها من أحد العلماء ، ثم قرأتها في كتاب وهي ثابتة ، وتكاد لا تصدق ، هذا الإنسان الأمي الصعيدي الجاهل الذي تمنى على الله أن يكون عالماً وشيخاً جليلاً ، وساق حماره إلى الأزعر!! وصوبه له ذاك البائع*، توجه إلى هذا المسجد ، وتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، وما زال يتقلب في مراتب العلم حتى عاش ستة وتسعين عاماً ، ولم يمت إلا وهو شيخ الأزهر ، ففي الخامسة والخمسين تاب هذا العبد إلى الله وهو في سن الشيخوخة ، فإذا ناجى ربه كان يقول : يا رب لقد أبطأت في المجيء إليك ، تأخرت كثيراً . . . . .

وإذا تاب المرء ، وذاق طعم التوبة يقول لك : قلبي يتلظى حرقة ، كيف أمضيت هذا العمر في معصية الله عز وجل ، بعد أن ذاق طعم الطهر ، طعم القرب ، طعم الإقبال على الله ، طعم العمل الصالح ، طعم العلم ، طعم الشرف يقول : ياليتني عرفت الله قبل هذه السن ، في المناجاة كان يقول : يا رب لقد أبطأت في المجيء إليك ، فوقع في قلبه أن يا عبدي لا تقل هكذا ، إنما أبطأ في المجيء إلي من مات ولم يتب ، مادام قد بقي يوم واحد فإنك تستطيع التوبة ، مادام القلب ينبض فالأمل كبير ، كلما بكرت كان أفضل لكن إنما أبطأ في المجيء إلي من مات ولم يتب .

وبعد ، فنحن كوننا عبيداً ما علاقتنا بهذا الاسم ؟ الله غفار ؟ وأنت أيها الإنسان. . . ألا تنسى أخطاء الآخرين ؟ ألا تغفرها ؟

قال العلماء : حظ المؤمن من اسم الغفار أن يستر من غيره ما يستره الله منه ، أدق حق يعنيك من اسم الغفار أن تستر من إخوانك المؤمنين وغير المؤمنين ما ستره الله منك .

أتى عمر ـ رضي الله عنه ـ رجل فقال : إن ابنةً لي كنت وأدتها في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنى الإسلام فأسلمت ثم أصابها حدٌّ من حدود الله فأخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أدواجها فداويتها حتى برأت ، ثم أقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب إلى قوم أفأخبرهم بالذي كان ؟ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه ؛ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار ، أنكحها نكاح العفيفة المسلمة .

فأنت بوصفك مؤمناً لك أخ صديق زلت قدمه ، وقع في معصية ، وعلمتها أنت فلا ينبغي أن تذكرها لأحد إذا كنت مؤمناً ، وعرفت اسم الغفار ، كما أن الله غفر لك وتاب عليك يجب أن تغفر لإخوانك ، وأن تستر ذنوبهم ، وما يعرفه كثير من المسلمين أن : **« الذنب شؤم على غير صاحبه ، إن عيره ابتلي به ، وإن اغتابه أثم ، وإن رضي به شاركه »** .

لك أخ وقع في ذنب إن تكلمت عن ذنبه فقد اغتبته ، وإن عيرته ابتليت به ، وإن رضيت منه هذا الذنب شاركته في الإثم ، إذا أحدنا بلغه أن أخاه أكل مالاً حراماً فيكفي أن يقول : **« جيد ما فعل ، استطاع أن ييسر معيشته »** فهو بهذه الكلمات يأثم معه ، فثناؤه على معصيته ، واستحسانه لعمله مشاركة في الإثم ، واحتقاره بقوله : كيف

فعل هذا ؟ سوف يبتلى بهذا الذنب لأنه عيره به ، وذكرُ معصيته للناس استغابة له ، هذا كله على من لم يفعل الذنب فكيف بالذي فعل الذنب ؟

فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب عظيم من الفضل ، عوّد نفسك أن تكون إيجابياً ، عوّد نفسك أن تذكر في الناس النواحي الإيجابية والمحاسن ، في تعاملك مع الناس تغافل عن عيوبهم وأبرز محاسنهم ، يحبوك ومن الناس من يتغافل عن المحاسن كلها .

« اللهم! إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيراً كتمه ، وإن رأى شراً أذاعه ، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء ، إن أحسنت لم يقبل ، وإن أسأت لم يغفر » .

من أقبح تصرفات الإنسان أن يستر الجميل ، ويذكر القبيح ، وأن يستر المحاسن ، ويظهر القبائح ، أما المؤمن فإنه يتغافل عن القبائح ، ويبرز المحاسن ، والعرب تقول : الشرف معوان .

لك ابن تعرفه صادقاً أثنِ على صدقه ، من الآباء من يبحث عن الغلط في ابنه ويقول : أنت كذا وأنت كذا ، دوماً يزرع اليأس في ابنه ، ألا يحمل ابنك أية ميزة ،

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينجي العبد من النار قال :

الإيمان بالله ، قلت : يا نبي الله! مع الإيمان عمل ؟ قال أن ترضخ مما خولك الله وترضخ مما رزقك الله ، قلت : يا نبي الله! فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ ؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر

قلت : إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر قال : فليعن الأخرق ، قلت : يا رسول الله! أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع ؟ قال : فليعن مظلوماً ، قلت : يا نبي الله! أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً ، قال : ما تريد أن تترك لصاحبك من خير ؟ ليمسك أذاه عن الناس قلت : يا رسول الله! أرأيت إن فعل هذا يدخله الجنة ؟ قال : ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة .

ليس من إنسان كله مساوىء ولا ميزة له ، عندك موظف مقصر لكنه أمين ، قل له : أنا مسرور من أمانتك ، شخص دخل على النبي عليه الصلاة والسلام ، دخل المسجد ليلحق ركعة مع رسول الله فركض ، وأحدث ضجة وجلبة وصخباً وضجيجاً ، وشوش على الصحابة صلاتهم فالنبيُّ الكريم صلى الله عليه وسلم ماذ فعل ؟ :

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ ثم مشى إلى الصف فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « زَادَكَ اللهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ » .

[صحيح البخاري] .

كان أحد أمراء الأندلس شاعراً ، قال ذات مرة ، وهو في حديقة قصره : « **نثر الريح على الماء زرد** » ولم يتمكن من إكمال البيت ، وراءه جارية قالت له : « **يا له درعاً منيعاً لو جمد** » أعجب بذكائها وشاعريتها فتزوجها ، ثم أصبح هذا الإنسان ملكاً من ملوك الأندلس ، وهو ابن عباد تزوجها ، وعاش معها حياة ناعمة ، اشتهت مرة حياة لفقر فأرادت أن تسير في الطين فجاء بالمسك والكافور ، فجبلهما

بماء الورد وقال : هذا طين امش عليه ، ثم جاء ابن تاشفين من إفريقية وحارب ملوك الطوائف وقضى عليهم ، وأودعهم في السجن ، وساءت حاله ، وله قصيدة تبكّي كل الإنسان ، النتيجة قالت هذه الجارية التي أصبحت ملكة وأكرمها إكراماً ما بعده إكرام قالت له مرة : ما رأيت منك خيراً قط ، فأجابها : ولا يوم الطين ؟!

لك زوجة لا تكثر من ملامتها ، عندك ابن لا تكثر من ملامته وذمه ، ألا يحمل أية ميزة ؟ لقد حطمته ، هذه الزوجة ألا تحمل أية ميزة أليست شريفة ؟ إذا ذهبت إلى عملك ألست مطمئناً لعفتها وشرفها ، فالإنسان المؤمن لا يغفل عن ميزات الناس ، النبي الكريم رأى صهره مع الأسرى ، أتى ليقاتل رسول الله يوم بدر ، فهو صهره زوج ابنته ، لم ينسَ أنه صهر ممتاز فقال : « **والله ما ذممناه صهراً** » . وأمر بفك أسره .

أرقى شيء في صفات الأنسان أن يكون منصفاً ، حولك زوجة ، أولاد ، إخوان ، أصحاب ، وجيران ، وأتباع ، وموظفون ، أنت تعلم ميزاتهم صراحةً ، وتعرفها حق المعرفة اذكرها لهم من حين لآخر ، يحبونك جميعاً ، عندئذٍ يتقبلون منك أية ملاحظة وأي نقد ، قال له ﷺ : « **زادك الله حرصاً ولا تعد** » .

أنت كونك مؤمناً يجب أن تظهر الجميل ، وأن تستر القبيح ، أما تصيّد الأخطاء وتصيُّد العيوب فليس هذا من أخلاق المؤمنين ، بل هذا من أخلاق أهل الدنيا .

يروى أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مر بجيفة كلب ولا أعتقد أن في الأرض أبشع لا في المنظر ولا في

الرائحة من الجيفة ، فقال الحواريون : ما أنتن ريحها! فقال عليه الصلاة والسلام : بل قولوا : ما أشد بياض أسنانها! ألم أقل لكم أحسنوا المحضر! لعل مغزى هذا الخبر : لن تكون أباً ناجحاً ، ولا معلماً ناجحاً ، ولا داعياً ناجحاً ، ولا تاجراً ناجحاً ، ولا مدير معمل ناجحاً ، ولا مدير مستشفى ناجحاً ، إلا إذا عرفت ميزات الذين حولك ، ذكرتها وقدرتها ، وبعدئذ وجه لهم ما شئت من النصائح فيقبلونها منك ، أما إذا غفلت عن ميزاتهم ، وتتبعت أخطاءهم فهذا مما يبعدهم عنك وينفرهم منك .

على كلٍّ هذا ما استطعت بيانه حول هذا الاسم من أسماء الله الحسنى ، وأسأل الله التوفيق دائماً ، وكما يعلم القارئ الكريم : لا يعرف الله إلا الله ، وقد ذكرنا بعض الآيات والأحاديث التي وردت حول اسم الغفار ، ويجب أن يدفعنا اسم الغفار جميعاً إلى طلب المغفرة من الله عز وجل على الدوام .

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا[١] ، ولقد كان هذا الدعاء من أحب الأدعية إلى النبي عليه الصلاة والسلام فلنكثر منه الحين بعد الحين .

* * *

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه .

القهّار

قبل أن أبدأ باسم جديد من أسماء الله الحسنى وهو اسم « القهار » ، لابد من وقفة عند حقيقة ثابتةٍ في الإنسان ، وهي أن الإنسان آتاه الله قوةً إدراكية تتمثل بحواسه ، وتتمثل بفكره ، وتتمثل بقلبه ، فالحواس تشعر ، والفكر يدرك ، والقلب يعقل ، الحواس الخمس مشتركة بين الإنسان وغيره من المخلوقات ، هناك حيوانات ترى وتسمع وتدرك المحيط الخارجي ببعض الحواس التي وهبها الله إياها ، ولكن الإنسان وحده ميزه الله بالفكر ، ويسميه بعضهم العقل ، ولا خلاف في ذلك ، هذا خلاف لفظي ، هذا الذي في الجمجمة هو الفكر ، ربنا عز وجل أشار إليه في آيات كثيرة ، قال :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

إذا جاء الفؤاد مع السمع والبصر فهو الفكر ، كل أولئك كان عنه مسؤولاً ، وأعطى الله الإنسان قلباً يعقل به ، والدليل قوله الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

الآن ما الفرق بين الإحساس والإدراك والعقل ؟

الإحساس : أن ترى الضوء بعينك أو أن تسمع الصوت بأذنك أو أن تشم الرائحة بأنفك أو أن تشعر بالحرارة بجلدك ، هذا هو الإحساس .

ولكن قد يضع طفل يده على أفعى يرى لها ملمساً ناعماً ، يروق له منظرها كما يروق له ملمسها الناعم وهي أفعى ، لو كانت سنه أكبر وعرف ما الأفعى لكان له موقف آخر ، إذاً هو رآها بعينه ولمسها بيده وما أدرك حقيقتها .

هناك إذاً فرق بين الإحساس والإدراك ، فالإدراك عن طريق الفكر . . . يمكنك أن تقرأ مقالة عن مضار التدخين وتدخن ، الإدراك أحياناً لا يكفي للابتعاد عن الشيء ، لكن في بعض الحالات إذا وصل الإدراك إلى درجةٍ محددة عَقَلَ القلب أبعاده عندئذ تكف عن هذا العمل .

الفرق الدقيق بين العقل وبين الإدراك ، هو أن الشيء إذا كان ضاراً وابتعدت عنه معنى ذلك أنك عقلته ، قد تدرك ولا تتخذ موقفاً ، أما إذا عقلته فلابد من أن تتخذ موقفاً من هذا الشيء ، دائماً هناك مع العقل موقف عملي ، ومع الفكر إدراك ، والإدراك قناعة .

تحرِّك الإنسان أحياناً شهواته لا قناعاته ، فمعظم الناس يعرفون الحلال والحرام لأن الحلال والحرام ، كما قال عليه الصلاة والسلام بيّن ، « الحلال بيّن والحرام بيّن » [متفق عليه من حديث النعمان بن بشير] ، يعرفونه بعقولهم يعرفونه بفطرتهم ، ويعرفونه بما يلقى عليهم من مواعظ وخطب ودروس دينية ، فلماذا يفعل الناس الحرام ؟ لأنهم ما عقلوا خطورته .

الحواس : تشعر وتحس ، والفكر يدرك والقلب يعقل ، المعول عليه هو القلب ، حينما تأخذ موقفاً عملياً ، معنى ذلك أنك عقلت الحقيقة ، والدليل قال الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

دليل آخر ، قال الله تعالى :

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص : ٥٠] .

ففي هاتين الآيتين مواقف عقلها المؤمنون ووقفوا عندها ملتزمين بمضمونها .

فالإنسان لا يمكن أن يسمى عاقلاً إلا إذا تُرجمت أفكاره إلى ممارسات ، إلا إذا تُرجمت أفكاره إلى سلوك ، وإلى مواقف ، فالذي ينجي الإنسان يوم القيامة لا قناعاته ، ولكن تصرفاته وانضباطه والتزامه واستقامته وفعله وتركه .

إذاً بالحواس نحس ، بالفكر ندرك ، بالقلب نعقل ، هذه الحواس وذاك الفكر وذاك القلب هي القوة الإدراكية في الإنسان ، ولو أغفلنا في الإنسان الجانب الإدراكي لصار بهيمة من البهائم ، ولولا العلم لكان كالبهيمة تماماً ، لأن العلم ينمي هذه القوة الإدراكية ويرقى بها . كما أن العلم وسيلة لبلوغ هدف سامٍ نبيل .

الحقيقة الثانية أن العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« تعلموا من العلم ما شئتم فوالله! لا تؤجروا بجمع العلم حتى تعملوا » .

وقال الشاطبي في الموافقات ، « العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً ـ أعني الذي مدح الله ورسوله أصله على الإطلاق ـ هو العلم الباعث على العمل الذي لا يخلي صاحبه جارياً على هواه كيفما كان بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه الحاملُ له على قوانينه طوعاً أو كرهاً » .

قد يحصل انحراف في طلب العلم فيصبح العلم هدفاً بذاته ، أما المؤمن فهو يرى دائماً أن العلم غير مطلوب لذاته ، ولكن العلم مطلوب دائماً لغيره ، تتعلم من أجل أن تعمل ، من أجل أن تطبق ، وهكذا روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« تعلموا من العلم ما شئتم فوالله! لا تؤجروا بجمع العلم حتى تعملوا » .

وقيل : **كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به** .

معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : **اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا** ، وقال الحسن رضي الله عنه : **اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فإن الله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه فإذا سمعت قولاً حسناً فرويداً بصاحبه فإن وافق قوله عمله فنعم عين ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه** .

في ضوء هاتين المقدمتين.. الإنسان فيه قوة إدراكية تتمثل بالحواس وبالفكر وبالقلب ، والعلم في الإسلام ليس هدفاً لذاته بل هو وسيلة لتطبيق منهج الله عز وجل .

والحقيقة الثالثة هي أن في الإنسان جانباً انفعالياً ، وجانباً إدراكياً ، وجانباً مادياً ، الجانب المادي : مشترك بين الحيوان والإنسان ، الإنسان يأكل والحيوان يأكل ، والإنسان يتعب وينام والحيوان يتعب وينام ، بل إن أكثر الحيوانات تتفوق على الإنسان في بعض الخصائص .

اسم القهار : مرَّ معنا سابقاً أن أسماء الله الحسنى لا تتغير في مستوياتها ، الطبيب أحياناً يكون لديه معلومات محددة فيعالج مريضاً في ضوء معلوّماته ، وبعد حين ينال شهادة أعلى فتصبح معالجته أدق في ضوء ما كسبه من علم جديد ، فكلما ارتقى علمه ارتقى مستوى معالجته ، إذا انطبق هذا على الإنسان ، فإن هذا لا يجوز أن ينطبق على الذات الإلهيه ، فأسماء الله الحسنى لا تفاوت فيها ، فكيف يأتي اسم غير مبالغ به كالقاهر ، لقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام : ٦١] .

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾غافر : ١٦] .

وردت « قاهر » ووردت « قهار » ، فكيف نوفق بين اسم قاهر « اسم فاعل دون مبالغة » وقهار (مبالغة اسم فاعل) علماً بأن أسماء الله تعالى من حيث دلالتها لا تتفاوت ، فنحن في الظاهر أمام مشكلة .

قلت من قبل في بحث اسم الغفار : إن الإنسان إذا أكل طعاماً يسمى آكلاً ، ولا يُسمى أكولاً إلا إذا أكل وجبة كبيرةً جداً أو إذا أكل

مجموعةً من الوجبات ، فالمبالغة عندئذٍ تكون تارةً بالنوع وتارةً بالعدد .

فأسماء الله الحسنى إذا وردت بصيغة المبالغة فالمقصود منها التكرار وليس النوع لأن مستوى أسماء الله الحسنى لا تتبدل ، الإمام أبو حامد الغزالي قال : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، هو يقصد أنه ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني .

فالله عز وجل حكيم في خلق النملة وفي خلق المجرة ، حكيم ، بالنسبة نفسها ، في خلق أصغر المخلوقات وفي خلق أكبرها ، عليم بكل شيء ، أسماؤه من حيث المستوى ثابتة لا تتبدل ، فإذا تبدلت فبحسب المخلوقات لا بحسب الخالق ، ولكن إذا ورد اسم مبالغ به فهو لمبالغة التكرار .

الإنسان أحياناً يحارب عدواً ويقهره ، وقد لا يتمكن أن يقهر عدواً ثانياً أو ثالثاً ، أما إذا قال : ربنا الواحد القهار فيعني أن كل المخلوقات مقهورة بالنسبة إليه ، وبشكل دائم ومستمر .

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ . . على وزن فعَّال . . وهو القاهر فوق عباده .

وقال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

والله غالب على أمره ، هذا مغزى قصة سيدنا يوسف ، هذا المغزى موجز ، والقصة بأكملها في تفصيل هذا المغزى .

قصة أخرى يتجلى فيها اسم القهار ، سيدنا موسى مع فرعون ، فرعون الذي أراد أن يذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً ليمنع حدوث رؤيا

قد رآها ، وهي أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه ، فالله عز وجل قهره بأن الطفل الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره ، والحقيقة كل أفعال الله عز وجل تصدر عن أسمائه ، أو أن أفعاله كلها فيها أسماؤه كلها ، وهذا ما يدعو إلى تفسير بعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن ذات الله بضمير المفرد وبعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن الله بضمير الجمع .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ [ق : ٤٣] .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٣] .

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه : ١٤] .

إذا جاء الضمير مفرداً فللتعبير عن ذات الله ، وإذا جاء جمعاً فللتعبير عن أن أسماء الله الحسنى جميعها واردةٌ في أفعاله ، ونحن عندما نذكر أنه سميع ، لطيف ، بصير ، قدير ، قوي ، حكيم ، هذا تفصيل دراسي مدرسي أما الأسماء فهي متداخلة بعضها في بعضٍ ، أحياناً ربنا عز وجل يجمع أسماءه في أسماء موجزة ، فمثلاً :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

فالجلال صفة تشعر بالعظمة ، والإكرام صفة تشعر بالعطاء ، فأنت في حياتك اليومية قد تتعامل مع إنسان تعظمه ولا تحبه ، وقد تتعامل مع إنسان تحبه ولا تعظمه ، والبطولة أن تجمع بين التعظيم والمحبة ، فربنا ـ عز وجل ـ هو في جلال ورفعة وعظمة وعلو شأن وكبرياء وجبروت وقهر وقدرة وغنىً وهو كذلك رحيم لطيف ودود كريم عفو غفورٌ ، هناك أسماء متعلقة بالجلال ، وهناك أسماء متعلقة بالإكرام ، وقد وردت هذه الأسماء في آيتين ، قال الله تعالى :

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن :٢٧] .

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

والله بهذين الاسمين : « ذي الجلال ، وذي الإكرام » تمثلت أسماؤه الحسنى كلها فيهما .

روى الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ورجل يصلي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم! أسألك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى » .

أحياناً في موضوع الاستقامة ربنا عز وجل يذكر اسمين فقط ، مثلاً قال الله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

اختار من كل أسمائه القدرة والعلم ، لأنك لن تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك ، ففي موضوع الاستقامة أنت بحاجة إلى أن تؤمن باسمي العلم والقدرة ، من أجل أن تستقيم ، وأن تعظم لا بد من أن تؤمن باسمه ذي الجلال والإكرام .

فاسم القهار إما أن يرد بصيغة اسم الفاعل مباشرة ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٨] . . وإما أن يرد بصيغة المبالغة كما في الآية :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، فيقول الله نيابة عن خلقه : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦].

هناك آية دقيقة جداً ، يقول الله عز وجل :

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[الشورى : ٥٣] .

الإنسان يعجب !! هذا كلام الله ، فَلِمَ يقول الله : ألا إلى الله تصير الأمور ، فهي أين كانت ؟ بيد من كانت ؟ المعنى المستنبط من هذه الآية أنها لم تكن بيده من قبل والآن أصبحت بيده ، إذا قلنا : صار الأمر في هذا الموضوع إلى زيد يعني أن زيداً لم يكن الأمر بيده من قبل ؛ فالواقع أن معظم الناس في غفلة عن الحقيقية ، فعامة الناس يرون أن الأمر بيد الأشخاص ، وأن القرار بيد فلان ، أو صانع القرار فلان ، وفلان هذا يفعل ، يقولون مثلاً : « إذا رفعك فلان يرفعك إلى السماء ، وفلان إذا غضب جعلك في أسفل سافلين » ، هذا كله شرك ، هذا الوهم الأعمى ، ففي يوم القيامة جميع المخلوقات ترى أن الملك لله الواحد القهار ، لكن في الدنيا لا يرى هذه الرؤيا إلا المؤمن أما في الآخرة فهذه الرؤية عامة شاملة .

قال الله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] .

وهذا الاسم ورد بشكل غير مباشر ، فقال :

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

يعني أمره هو النافذ. . . ورد في الأثر القدسي :

« عبدي خلقت لك السموات والأرض ولم أعي بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ، لي عليك فريضة ولك علي رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي ، وكنت عندي مذموماً. . . » .

« أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد ، كفيتك ما تريد ، وإذا لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد » .

هذا الأثر يعطي معنى القهار ، أمر الله هو النافذ ، الأمور كلها تدور وتدور ، ولكن أمر الله هو النافذ كيفما دارت الأمور ومهما تقلَّبت .

هناك أشخاص يقرؤون بعض الكتب ، التي تتحدث عن مكر اليهود في العالم ، يقولون لك : هذا المخطط يهودي .

اليهود بشر يخططون ويمكرون ، وهم من أخبث خلق الله مكراً وخداعاً ، ولكن الفعل ليس إليهم ، الفعل فعل الله ، فإذا آمنت بأنهم فعالون ، وأن كل ما يجري في العالم من تخطيطهم فقد ألَّهتهم وأنت لا تدري ، لكن أحياناً يقع في الأرض شيء مما خططوه فهم خططوه وقل : إن خطة الله استوعبت خطتهم ، فالله عز وجل قد يوظف مكرهم في تأديب بعض العباد بدليل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

حينما تقول : فلان يفعل ، فقد وقعت في الشرك وأنت لا تدري ، والصواب أن تقول : **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** .

« أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد » .

القهر في اللغة يعني الغلبة ، قهره أي : غلبه ، أو صرف الشيء عن طبيعته ، وهي طبيعةٌ قوية قهرية ، وجعلته ضعيفاً على سبيل الإلجاء ، قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ [الضحى : ٩] .

ودائماً وأبداً هناك أسماء إذا سمي الإنسان بها فهي صفة ذم ، وإذا كانت من أسماء الله فهي اسم من أسماء الله الحسنى .

إنسان بحاجة إلى مساعدة ، وتوجه إلى إنسانين : الأول غني ممتلئ ، والثاني فقير ، فقال له الفقير : أنا أعطيك ، أنا أمنحك ، هو لا يملك شيئاً فكذب عليه ، فهذا نقص بحقه ، فلو قال له : أنا لا أملك شيئاً أنا فقير ، فالكمال بحقه أن يكون صادقاً ، أما الغني لو قال له أنا لا أملك شيئاً أنا فقير ، وهو يملك وبإمكانه أن يعينه فقد كذب ، وهذا نقص في حقه ، فالمتكبر من أسماء الله الحسنى وهي صيغة مدح ، وإذا لجأ إليه العباد يعطيهم كل حاجاتهم ، بينما الإنسان الذي لم يعط لفقره وكذب ، والآخر الذي لم يعط لبخله وكذب ، فهذه صفات نقص فيهما ، قال الله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضحى : ٨ـ١١] .

والقهار على وزن فعَّال مبالغة من القاهر ، فيقتضي تكثير القهر التكثير العددي ، لأن التكثير النوعي لا يليق بحضرة الله تعالى .

لعلك تعلم أيها القارئ العزيز أن لله عز وجل أسماء ذات وأسماء صفات وأسماء أفعال ، وقد قال العلماء : القهر قدرة على وصفٍ مخصوص ، كما أن الرحمة إرادة على صفة مخصوصة ، والقاهر هو القادر على منع غيره أن يفعل بخلاف ما يريد ، فالقدرة صفة لله عز وجل في ذاته ، قدرة على نحو مخصوص يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون ، مشيئته هي النافذة ، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والاسم القهار له علاقة وشيجة بالتوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

فإذا قلنا : إن اسم القهار هو قدرةٌ على نحو مخصوص من أسماء الذات ، وإذا قلنا : هو فعلٌ يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون فهو من أسماء الأفعال .

القهار ، قال بعض المحققين إنه قهار للعدم ، فالعدم ما سوى الله عز وجل ، ما سوى الله كان عدماً فأوجده الله فهو ممكن ، وهذا الشيء الموجود بقدرة الله عز وجل لا يستمر وجوده إلا بقدرة الله ، قال الله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

السموات والأرض هذا تعبير قرآني عن الكون ، الكون كله كواكب ونجوم ومجرات ، الكون كله يتحرك ، ولو لم يكن متحركاً لأصبح الكون كله كتلة واحدة ، والدليل أن هناك قوى التجاذب بين الكواكب

والنجوم والمجرات والمذنبات ، قوى التجاذب ، تقول : إن النجم الأكبر يجذب الأصغر ، وهذا الجذب يتناسب مع الكتلة ومع مربع المسافة ، والقانون معروف « جداء الكتلتين مضروب بمربع المسافة » هذه قوة الجذب ، قوة الجذب لا ترى بالعين كما لو جِئت بمغناطيس ، ووضعت مسماراً ، وحركت المغناطيس يتحرك المسمار ، فهناك قوة جذب ، وقوى التجاذب هذه أودعها الله في الكون لحكمة بالغة فلو لم يتحرك الكون لأصبح الكون كله كتلة واحدة ، فالكوكب الأكبر يجذب الأصغر ، فما الذي يمنع ؟ فمثلاً أمسك وعاء ماء وحركه حركة دائرية سريعة فإنك تستغرب !! فحينما كان في الأعلى وفيه ماء فلماذا لا يندلق الماء ؟ فقوة النبذ تمنعه من الاندلاق ، وكثير من الآلات أساسها القوة النابذة كتجفيف الثياب في الغسالات ، وآلات عصر الفواكه . . إذاً مع الدوران تنشأ قوة نابذة ، هذه القوى النابذة تكافىء القوى الجاذبة ، فلولا أن الكون يتحرك لأصبح كله كتلة واحدة .

الأرض تدور حول الشمس منذ ملايين السنين فلم تنجذْب إلى الشمس قال الله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

معنى : ﴿ أَن تَزُولَا ۚ ﴾ [فاطر : ٤١] ، يعني : أن تنحرف كل منهما عن مسارها ، والذي قهر هذه النجوم وجعلها تبقى على مسارها الله عز وجل ، فالله عز وجل قهار للعدم ، فهذا الشيء الذي خلقه أصله لا شيء ، إذاً هو أصله العدم سبقه العدم وينتهي إلى فناء ، كل شيء

يسبقه العدم وينتهي إلى فناء فهو ممكن ، أما الله سبحانه وتعالى فهو واجب الوجود ، لا أول له ولا آخر له ، هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية .

ربنا سبحانه وتعالى قهار للعدم ، بمعنى أن هذا الممكن ممكن بقدرة الله ، وممكن بإمداد الله ، وممكن بتسيير الله ، وفي أي لحظة يوقف الله عز وجل عن هذا الممكن تجليه وإمداده ينعدم الممكن ، هذا معنى قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

يعني قيام كل شيء في الكون بالله عز وجل .

أول معنى يستفاد من معاني القهر أن الله عز وجل قهر الممكن ، وجعله قائماً ، جعله مستمراً ، جعله موجوداً ، قال الله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

[طه : ٤٩ـ٥٠]

لو ترك وحده لكان معدوماً ، فكأن جوهر الممكن هو العدم ولولا قدرة الله القاهرة في الممكن لما كان هذا الممكن موجوداً ، إذاً فالكلمة الدقيقة « كن فيكون ، زلْ فيزول » .

فأنت وجودك بالله عز وجل ، والدليل أجهزة الإنسان ، دماغه مثلاً مئة وأربعون مليار خلية ، الإدراك ، الإحساس ، الذاكرة ، المحاكمة ، التصور ، التخيل ، الغدد الصماء ، كل هذه الأجهزة أساسها أن الله عز وجل يتجلى عليك ، وينقطع التجلي عن الإنسان عند الموت .

وازن بين إنسان في أوج نشاطه يتحرك ، يفكر ، يحاكم ، يتصرف ، يرى ، يسمع ، يشم ، يلمس ، يأخذ مواقف ، ينشىء مشاريع ، يترك بصمات في المجتمع وبين جثة هامدة ، الفرق بين الجثة الهامدة وبين هذا الإنسان الممتلىء نشاطاً وحيويةً هو التجلي الإلهي ، هو القهار ، الله عز وجل قهر المادة فجعلها تفكر ، وتسمع وتعقل وترى وتشم وتبصر وتمشي وتتحرك وتغضب وتفرح وتحزن ، لو أن إنساناً وضع على ميزان قبل أن يموت بدقائق ومات فلا يخسر عند الموت شيئاً من وزنه ، هي قوة الله عز وجل ، هذه الروح هي سر حياته ، ولما سلبت منه عاد إلى ماديته فقط .

قال بعض المحققين : القهار للعدم والوجود ، لأن الممكن لو ترك وحده لكان معدوماً ، فكأن ماهية الممكن تقتضي العدم إلا أنه سبحانه وتعالى منزه يقهر هذه الحالة ويبدل العدم للوجود .

مثلاً الشمس عمرها خمسة آلاف مليون سنة ، هذا عمر مديد ، وللشمس طاقة لا تخبو ، هل عندنا على الأرض مصدر طاقة لا يخبو ؟ شخص ملأ خزان الوقود في سيارته بعد مئتي كيلو متر ينفد ، ملأ مستودع الوقود بمنزله بعد حين ينفد ، كل شيء ينفد ، أما هذه الشمس فهي من خمسة آلاف مليون عام لا تنفد ولا تنتهي ، هذا المعنى الأول ، يعني بدّل العدم وجوداً واستمراراً إلى حين .

المعنى الثاني : إن أصغر كوكب في الفلك أضعاف جرم الأرض ، ثم إن هذه الأفلاك مع ما فيها من كواكب يمسكها الله تعالى بقدرته معلقةً في الهواء كما قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

بعض العلماء يقولون : بالحياة أربع مواد أساسية هي الماء والهواء والنار والتراب ، وهذه كلها متنافرة والله سبحانه وتعالى بقوته القاهرة ألف بينها ، من معاني قهره أنه ألف بين المتنافرات ، فأنت لا تستطيع أن تجعل البحر يحترق ، والبحر ماء ، لكن ربنا عز وجل قال : ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ سجر النار يعني أشعلها ، كيف ؟ أنت بالماء تطفىء النار ، لكن هذا الماء هدروجين وأكسجين ، الهدروجين من أشد العناصر احتراقاً ، والأكسجين من أشد العناصر مساعدةً على الاحتراق ، حينما تشوي لحماً لماذا تهوي بالمهواة ؟ لتحرك الأوكسجين فوق الفحم فيزداد توهجه ، فالأكسجين يعين على الاشتعال والهدرجين يشتعل ، والمحصلة ماء يطفىء النار ، فالله عز وجل بقدرته يجعل من هذا البحر ناراً ، فمن معاني قهر الله عز وجل أنه يؤلف بين الأشياء المتنافرة ، وهذه العناصر الماء والهواء والنار والتراب كلها متنافرة ومع ذلك تأتلف في المخلوقات . وهذا هو المعنى الثالث .

شيء آخر ، إن الروح جوهر لطيف ، روحاني نوراني والبدن جوهر كثيف مظلم وبينهما منافرة عجيبة ، ومع ذلك أسكن الله الروح في هذا الجسد بقهره .

مثلاً إن كان لديك معدن تريد لصقه ؛ فيقال : لك إن هذا المعدن لا يلتحم بلحام ألمنيوم يحتاج إلى لحام خاص ، فهل يلتحم الألمنيوم بلحام حديد ؟ طبعاً لا ؛ لأنهما متنافران ، فالله عز وجل جعل الروح نورانية خفيفة سماوية ، وجعل الجسم مُنْشَدّاً للأرض ، ومع ذلك ألف بينهما في هذا الإنسان ، فالإنسان جسد ونفس ، أحياناً تتلألأ نفسه

ويبدو هذا على وجهه ، وأحياناً تظلم نفسه ، ويبدو هذا على وجهه . فالإنسان كائن فيه عنصر سماوي وعنصر أرضي ، لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة : ٣٨] .

يعني اتجهت نحو الأرض ، اتجهت نحو الشهوات ، نحو الدنيا .

المعنى الرابع من معاني القهار : أن الله تعالى يذل الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض ، فترى ملكاً من كبار الملوك عقيماً وهو يحب زوجته ، فهو يدفع ألوف الملايين على أن تنجب فلا تنجب .

ملك ثانٍ يصاب بمرض ، ولا يشفى منه ولو بذل الغالي والرخيص ، فمن معاني القهار أن الله قهر العباد كلهم بالموت ، لا نبي ولا رسول ، ولا قوي ولا غني ، ولا صحيح ، ولا مريض ولا فقير ، ولا رفيع ولا وضيع ، ولا ملك ولا وزير ، إلا ويموت ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وحتى مَلَك الموت يأتي دوره ، فيقال له مت يا ملك الموت ، فيذوق طعم الموت ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « **لا إله إلا الله إن للموت سكرات** » [رواه البخاري وأحمد من حديث عائشة رضي الله عنها] .

الله تعالى يذل الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض وتارة بالنكبات وأخيراً بالموت .

المعنى الخامس : إن العقول مقهورة عن الوصول إلى كنه صمديته والأبصار مقهورة عن الإحاطة بأنوار عزته ، فإياك أن تقول : أنا أدرك

عظمة الله لأن من معاني الإدراك الإحاطة ، فإذا أمسكت شيئاً صغيراً تعرف طوله وعرضه ووزنه ، عقلك يصل إلى الله ، لكنك لا تستطيع أن تحيط به ، لأن الله عز وجل لا يعرفه إلا الله ، قال الله تعالى :

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

عقلك يصل إليه وتعرفه بالقدر الذي يشاء ، فعقل الإنسان مقهور عن إدراك كنه صمديته ، فالإنسان العاقل لا يطمع أن يجيب عن كل سؤال متعلق بالله عز وجل فليس معناه أنه جاهل .

سأل إنسانٌ آخر عن البحر فقال : هذا البحر كم يساوي من الألتار ؟ نظر إليه وقال : هذا أمر بسيطو ثمانية وستون مليون وسبعمئة وستة وستون لتراً ، فهذا يكون جاهلاً ما دام أعطى رقماً ، قال لك : كم لتراً حجم هذا البحر ؟ وليس لديك حجوم ولا مقاييس لأعماق البحار ، فلو سُئلت : كم حجم هذا البحر ؟ فإذا أعطيت رقماً كنت جاهلاً ، وإذا قلت : لا أدري كنت عالماً ، كلمة لا أدري هي العلم وكلمة أدري هي الجهل ، لذلك قالوا : عين العلم بالله هو عين الجهل به ، وعين الجهل به هو عين العلم به ، فكلما قلت : أدري ، وكل سؤال له عندي جواب ، وأنا أعلم كل شيء ، فهذا دليل قطعي على أنك لا تعلم ، هذا ما يتعلق بذات الله عز وجل ، فلا أحد يمكن أن يحيط بها .

المعنى السادس : ربنا قهار فهناك حوادث لا تعلم كنهها فقل : سبحان الله! لا أدري ما حكمتها .

بلد وقع فيه زلزال قتل فيه تسعون ألفاً ، هناك حكمة ، ولكن

لا أعرفها ، فعقلي قاصر عن إدراك الحكمة ، ليس من المفروض أنه كلما وقع أمامي مشكلة أن أعطي التفسير البسيط ، قد يكون التفسير البسيط ساذجاً ، فإذا قلت : إنهم أصيبوا بسبب معاصيهم ، فهذا كلام إلى حد ما مقبول ، ولكن المؤمن أحياناً يُبتلى ، فالمؤمن له معاملة خاصة ، له ابتلاء ترقية ، فالأكمل ألا تدعي أنك تعرف كل شيء ، ولا تعرف خباياه ، فمثلاً مرض الإيدز إن قلت : إنه بسبب انحراف السلوك الأخلاقي وهو عقاب عاجل للعصاة ، للفجار ، ممكن ، لكن هناك أشياء صعب تفسيرها ، فمثلاً : لماذا هذا الشعب فقير ؟ لعل الله عز وجل اقتضت حكمته ذلك .

المعنى السابع والشامل ، إن جميع الخلق مقهورون لمشيئته ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

مثلاً عندك مئة جهاز في البيت كهربائيات ، وعندك مفتاح الكهرباء الأساسي فإذا أغلقته فسوف تقف كل الأجهزة ، البراد والغسالة. . إلخ ، فالقوى المحركة بيد الله عز وجل ، لا يستطيع إنسان أن يتحرك إلا بمشيئة الله ، إذاً هو القهار ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وبالجملة لا ترى شيئاً سواه إلا مقهوراً له تحت أعلام عزته ، ذليلاً في ميادين صمديته ، هناك معانٍ أخرى للقهار ، بعض العلماء يقول : « **القاهر هو الذي قهر نفوس العابدين** » ، ولله المثل الأعلى تكون فتاة جميلة جداً والخاطب غارق إلى قمة رأسه في حبها ، فتتحكم فيه

لجمالها ، وكذلك صاحب القوة كقوة المال ، يتحكم في الضعاف ، لذلك قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

كل القوى مصدرها من الله عز وجل ، إذا أقبلت على الله تسعد أضعاف ما يسعد من أحبوا أناساً من بني جنسهم ، إذا أقبلت على الله تغنى أضعاف ما يحس به الأغنياء في الدنيا ، إذا أقبلت على الله تشعر بقوةٍ أضعاف ما يشعر بها الموالون للأقوياء ، لهذا قيل « **إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك ، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله** » .

القاهر الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته ، العباد لما أقبلوا على الله ، وصلوا ، سعدوا ، فحبسوا أنفسهم على طاعته ، فالله قهرهم بجماله ، قهرهم بكماله ، قهرهم بتجليه ، فالمحب لم يعد يريد من الدنيا شيئاً .

فما مقصودهم جنات عدن ولا الحور الحسان ولاالخيام
سوى نظر الحبيب فذا مناهم وهذا مطلب القوم الكرام

شاب تعرف على فتاة في دمشق فخاف أهله أن يقع في شباكها فأرسلوه إلى بلد أجنبي بعيد جداً ليدرس في الجامعة ، وأعطوه قسط الجامعة ، وكان مبلغاً كبيراً ، أنفق كل هذا المبلغ على مكالمات هاتفية ليتصل بها ، فهي قهرته بجمالها .

فلو عرفت الله عز وجل لقهرك جماله ، ولقهرك كماله ، القاهر هو

الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته ، والقاهر هو الذي قهر قلوب الطالبين فآنسها بلطف مشاهدته .

حظ المؤمن من اسم القهار :

إن المؤمن حقاً يعرف القهار ، فمتى يكون ذلك ؟ إذا عرف حجم عبوديته ، فمن عرف نفسه عرف ربه ، ومن عرف ربه عرف نفسه ، كلمة سأفعل كذا وكذا ، وسأعطي وسأمنع ، هذا كله يبتعد عنه المؤمن لأنه يتنافى مع اسم الله القهار .

ولكن يمكن أن يكون المؤمن قهاراً بمعنى خاص ، أن يقهر شهوته ، وأن يقهر متعلّقات شهوته ، لأن شهوته هي أعدى أعدائه ، فإذا قهر ميله وشهوته وهواه فمعنى ذلك انتصر على ذاته ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

[النازعات : ٤٠ـ٤١]

فكل إنسان ينساق مع شهواته وميوله وأهوائه ، يتكلم كلاماً لا يرضي الله عز وجل ، يغتاب الناس ، يأخذ ما ليس له ، وأي حركة يتحركها الإنسان دون منهج الله عز وجل ، فمعنى ذلك أنه ينساق مع شهواته ومع رغباته ، إذاً هو ما طبق في نفسه أنه مقهور لاسم القهار ولم يسقها إليه .

إذاً عليك أن تقهر شهوتك التي هي أعدى أعدائك ، إن فعلت هذا فقد حققت في نفسك هذا الاسم العظيم ، بهذا الاسم تعرف ربك ، وبهذا الاسم تتخذ السبيل الى طاعته ومحبته ومرضاته .

* * *

الوَهّابُ

الاسم هو الوهاب ، فهب اللهم لنا من لدنك رحمةً تسعنا في الدنيا والآخرة إنك أنت الوهاب .

باديء ذي بدء ، الإنسان عقل وقلب ، بعقله يعرف الله ، وبقلبه يحبه ، وهذا الاسم كما يرى العلماء متعلق بالحب ، وقبل أن أشرح معنى الوهاب لغةً واصطلاحاً أضرب مثلاً مُنتَزَعاً من الحياة اليومية :

قد نتعرف إلى شاب فقير جداً يعاني من شظف العيش ومن خشونة الحياة ، فلو أن إنساناً اختاره زوجاً لابنته ، وابنته هذه مهذبة متعلمة مؤمنة طيّعة ، ومنحه منزلاً ومتجراً ومركبة ، ألا يمتلىء قلب هذا الشاب حباً وحمداً وشكراً لهذا الرجل الذي أنعم عليه بكل هذه النعم ؟ هذا شأن الإنسان مع من أحسن إليه من العباد ، فكيف إذا أحسن إليه رب العباد ؟

« يا داود! ذكّر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » .

القصد من معرفة اسم الوهاب أن تحب الله عز وجل ، لأنه لا إيمان لمن لا محبة له ، ليس الإسلام حقائق ندركها فحسب ، بل هو حقائق ومشاعر ، أن يكون العقل مدركاً لوجود الله ، ولعظمته ،

ولأسمائه الحسنى ، وأن يكون القلب مفعَماً بحب الله .

سأضع بين أيدي القراء الكرام هذه الحقيقة فأقول : إنَّ الذي يحرك الإنسان حبُّه أكثر مما يحركه عقله ، فالإنسان بدافع الحب يقدم الغالي والرخيص والنفس والنفيس ، بدافع الحب يقدم كل شيء ، بدافع العقل قد يقتنع ، وقد يعتقد ، وقد يوقن ، ولكن لا يتحرك .

لذلك فالدعاة إلى الله يجب أن يخاطبوا العقل والقلب في وقت واحد ، ربما إذا أحدثوا في العقل القناعة فهذا نصف النجاح ، أما إذا أحدثوا في الإنسان ، بالإضافة إلى قناعة العقل ، موقفاً أساسه الحب فهذا كل النجاح ، أنت قبل كل شيء إنسان ذو عقل ولك قلب ، العقل إذا أعمَلته في الكون عرفت الله ، وإذا أدركت النعم الإلهية أحببته بقلبك ، وإذا أحببت الله فقد أحسنت التوجّه ، لا يُسمى الإنسان إنساناً إلا إذا أحب .

مرةً كنا في الجامعة وقد أحيل أحد الأساتذة إلى التقاعد وأقيمت له حفلة طيبة وهو أستاذ علم النفس ، قال هذه الكلمة ولا أنساها :

« الإنسان الذي لا يشعر برغبة في أن يُحِب ولا يشعر برغبة أن يُحَب فليس من بني البشر » ، لا يمكن أن تُسَمَّى إنساناً إذا كان قلبك صخراً ، أو إذا كان قلبك جلموداً .

إذاً لا بد من أن تُحِبَّ ، الشيء الذي يلفت النظر هو أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله ، لماذا فعلوا المستحيلات ؟ لماذا باعوا أنفسهم ولماذا ضحوا بكل شيء ؟ أحدنا لو جرحت يده أو أصبعه لصاح ولضمدها ولاعتذر عن لقاءاته ولأخذ إجازةً . . . سيدنا جعفر بن أبي طالب تأتيه في غزوة مؤته ضربة سيف تقطع يمينه فيُمسك الراية

بشماله ، تأتيه ضربة سيف أخرى تقطع شماله ، فيمسك الراية بعضديه إلى أن يخِرَّ شهيداً ، ما هذا الحب الذي أدى بصاحبه إلى التفاني ثم للاستشهاد ؟!

الخنساء قبل أن تُسلم ملأت الدنيا صخباً وعويلاً على أخيها صخر ، فلما حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم :

يابنِيّ أنتم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، ووالله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله عز وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ولله على أعدائه مستنصرين فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون الأراجيز ، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً ، فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته فكان عمر رضي الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائة درهم حتى قبض وماتت الخنساء[1] .

---

(١) ذكر الحافظ في الإصابة في ترجمة الخنساء عن الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن المخزومي وهو المعروف بابن زبالة . . فذكر قصة الأبناء الأربعة ، لكن الحافظ ذكر أن ابن زبالة أحد المتروكين ، وقد نسب ابن جرير الطبري في تاريخه هذه القصة إلى امرأة من بني النخع .

زيد بن الدَّثِنَّة وهو على مشارف القتل ، صلبه المشركون في جذع نخلة ، تمهيداً لرميه بالسهام ، قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد! أتحب أن يكون محمدٌ مكانك ؟ . . الكلام الشائع الآن : « ألف أمٍ تبكي ولا أمي » . . أنشدك الله يا زيد أتحب أن يكون محمدٌ عندنا الآنَ في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ . . قال : « **والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي** » ما هذا الحب ؟ اقرؤوا تاريخ الصحابة أيها القرّاء الكرام تجدوا العجب العجاب ، تجدوا تضحيات لا توصف ، مصدرها حب الله ورسوله .

سيدنا الصديق وهو خليفة رسول الله ، من أعماله الطيبة أنه كان يحلب شياه جيرانه ، يبدو أنه قد توفي الزوج وليس عندهم من يرعى شؤونهم ، فكان يقوم يومياً بحلب شياههم ، فلما صار خليفة ظن الجيران أنه سينقطع عن هذه الخدمة ، وفي اليوم التالي طُرِقَ الباب وفتحت البنت ، قالت الأم : يا بنيتي من الطارق ؟ فقالت البنت : يـا أمـي جـاء حـالـب الشـاة . . . مـا هـذا ؟ رئيـس دولـة ، خليفـة رسول الله . . الذي ظهر من الصحابة من فعالهم شيء لا يصدق كأنه الأساطير ، أساسه الحب ، لأنهم أحبوا الله عز وجل ورسوله .

وأنا أقول لكل قارىء كريم : الذي يبذل ويضحي ويقف عند حدود الله ويتجشم المشاق في سبيل الله فالذي حركه هو الحب ، والذي يُسْعِده هو الحب ، فلن تَسْعَدَ إلا إذا أحببت الله عز وجل ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ بابه مفتوح .

هناك شخصيات يفتح بابها لأناس دون أناس ، يقبلون أناساً

ولا يقبلون آخرين ، يُستَرضَون وقد لا يرضون ، ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح لكل الخلق فقد روى الترمذي بسند حسن من حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه أنه قال : . . . فمازال يحدثنا ـ يعني رسول الله ﷺ ـ حتى ذكر باباً من قبل المغرب مسيرة سبعين عاماً عرضه ، أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاماً ، قال أبو سفيان قبل الشام ، خلقه الله يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً يعني للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه .

إذاً تأملنا في اسم الوهاب بحسب فطرتنا وبحسب جبلتنا فالقصد أن يمتلىء قلبنا حباً لله ، فإذا امتلأ قلبنا حباً لله رأينا من معاملة الله لنا ، ومن تجليه على قلوبنا ، ومن التوفيق ، ومن السَّداد ، ومن الرشاد ما نعجز عن بيانه ، ورأينا من الشعور بالتفوق ، ومن الشعور بالفلاح ما لا سبيل إلى وصفه .

إذاً الإيمان أساسه الحب ، فلا إيمان لمن لا محبة له ، هذا القلب متى يضطرب ؟ من علامة المؤمن أنه إذا ذُكِرَ الله وجل قلبه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

هذا من علامة القلب المؤمن بربه ، فالإنسان لا يجامل نفسه ولا يتملّق نفسه ، بل يتعهد قلبه ويتفحصه ، ويسأل نفسه السؤال الحرج ، أنا مَن أُحب ، دائماً دعوى الحب كثيرة فكل يدعي وصلاً بليلى ، لما كثُر دعاة المحبة طالبهم الله بالدليل ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

نحن غارقون في النعم ، لاحظْ نفسك لو ركبت سيارة عامة وبجانبك صديق دفع عنك ثلاث ليرات ونصف ، تشكره وتبالغ في شكره وتخجل ، وقبل أن تنزل تدعوه إلى البيت ، لأنه دفع عنك ثلاث ليرات ونصف.. راقب نفسك ، لو أن إنساناً قدم لك هدية فإنك تذوب خجلاً أمامه ، تعبر عن امتنانك وعن شكرك وعن محبتك وتعده بزيارة ، وتدعوه إلى بيتك لأنه قدم لك هدية ، هكذا النفس البشرية .

« يا داود! ذكر عبادي بإنعامي عليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » .

فما الفرق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يبقى في النعمة ومع النعمة حبيساً ، لكنك تجد المؤمن ينتقل منها إلى المنعم[1].. معقول أن تدخل إلى بيت وأنت في حال جوع شديد وترى طعاماً شهياً ؛ ألواناً منوعةً ، أطعمة فاخرة ، مقبّلات ، طعام من الدرجة الأولى ، من بعده الحلويات والفواكه ، وتأكل بنهم ثم تنتهي من الطعام وتتجه نحو الباب وتخرج ، أهكذا شأن الإنسان ؟ لا حظ نفسك لو أن أحداً دعاك إلى طعام فقبل أن تنتهي من الطعام تقول له : « أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة » ثم تقول له : نعمة دائمة أو أكرمتنا أكرمك الله ، وأسأل الله أن يديم عزك وأن يبارك فيك وأهلك ، تفتنُّ بالعبارات شكراً وامتناناً ، وتذوب استحياء.. لماذا إذا جاءتك نعمة

(١) حين خاطب الله بني إسرائيل قال : اذكروا نعمتي ، وحين خاطب هذه الأمة قال : فاذكروني .

من إنسان تذوب استحياء ؟ وإذا أنعم الله عليك بنعم لا تُقدّر تبقى صامتاً غافلاً !!!

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ [البلد : ٨] .

ترى ابنك الصغير ، ترى أهلك ، ترى إخوانك ، ترى الغابات ، ترى الأشجار ، ترى الأزهار ، ترى مَن تحب ، ترى معالم الطبيعة ، ترى الألوان ، ترى الأشخاص ، تسير في الطريق مرتاحاً مطمئناً ، الطريق واضح أمامك ، تقرأ ، تطّلع تُطالع تنظر تستمتع :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ـ٩] .

مرةً دخلت إلى محل إنسان لا يتكلم ويعمل في بخ (طلاء) قطع الأثاث ، وأردت أن أتكلم فأشار إلي أن أتحدث مع الصانع ، فتكلمت مع الصانع ، نظرت فرأيت لغة جديدة بينهما ، فقال له : يريد أن يبخَّ غرفة نوم ، بالإشارة ، قال للصانع : هل يريد مواد مستوردة أم تصنيع محلي ؟ ، وأنا ألاحظ هذا الحديث الطويل بالإشارة ، ، قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ـ١٠].

تتكلم وتعبر عن مشاعرك وعن أحوالك وعن قناعاتك ، تقول : قرأت اليوم مقالة كذا ، تعبر عن تفسير آية ، عن قصة ممتعة ، تتصدر المجالس تتحدث مع أهلك وأولادك .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ .

علمونا في الجامعة في كلية التربية أن الإنسان حينما يولد لا يملك إلا منعكساً واحداً ، منعكس المصّ ، صُنْعُ الله الذي أتقن كل شيء ، لو فرضنا أن أحدهم مسَّته جمرة لفافة تبغ ، يسحب يده قبل أن

يفكر ، فإذا جاء تنبيه عصبي بالحرارة فالأمر لا يأتي من الدماغ بل من النخاع الشوكي ، هذا يسمونه المنعكس الشرطي ، اكتشفه عالم يدعى « بافلوف » ، فالإنسان حينما يولد ليس لديه إلا منعكس شرطي واحد ، ولولا هذا المنعكس لما كنا ، ولما عاش إنسان ، فلمجرد أن يولد الطفل يُعطى ثدي أمه يضع شفتيه على ثديها ، يُحكِم شفتيه على حلمة الثدي ، ولو سمح للهواء أن يمر لما استطاع الرضاعة لابد من إحكام شفتيه على حُلمة الثدي ، وبعدئذ يسحب الهواء ، هذا منعكس معقّد جداً ، حينما يولد الإنسان تجده مزوداً بهذا المنعكس .

وما سوى ذلك من المنعكسات والمفهومات لا وجود له في هذه الفترة ، يصف الطفل الصغير كل رجل أنه أبوه ، بعد حين يقول : عمو ، فصل أولاً بذهنه بين مفهوم الوالد ومفهوم العم ، أول فترة كلُّ رجلٍ أب ، وبعد ذلك يظهر عنده مفهوم الرجل ، ثم يَفصل مفهوم الرجل عن مفهوم العم والوالد ، كيف تنشأ هذه المفاهيم ؟ يقول شجرة فيتصور الطفل معنى الشجرة ، لا يتصور برتقالة ولا جوزة ، يتصور مفهوماً مجرداً ، شجرة ، لو تتبعنا كيف تتشكل في الدماغ المفهومات والمصطلحات ؟ كيف يتعامل الإنسان ويفكر ؟ كيف يتعامل بالرموز ؟ عالم قائم بذاته !!

مئة وأربعون مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد في الدماغ ، فالدماغ عاجز عن فهم ذاته ، فالفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن ينتقل من النعمة إلى المُنْعم ، وغير المؤمن من الكفار والفُسَّاق والفُجّار يستمتعون بالنعم أعلى استمتاع ، ولكنهم غفلوا عن المنعم ، وغَفْلَتهُم عن المنعم سوف تودي بهم إلى النار إلى أبد الآبدين ، أما المؤمن فيفكر من أين هذه النعمة ، كل امرىءٍ متزوج يدخل إلى بيته

فيلقى زوجة لها مشاعر ولها تفكير ، يجد الطعام جاهزاً والبيتَ نظيفاً ، هذه هبة من الله عز وجل لا تقدر بثمن .

الإنسان في ساعة غفلة يقول : أنا تزوجت ، وأنا تعبت وسعيت بكد يميني ، وعرق جبيني ، وأسست هذا البيت وفرشْته ، وجمعت مهراً ، واخترت فلانة ، كلها نعم يراها ولا يرى المنعم ، فهذه هي الغفلة عن الله عز وجل ، هذه الزوجة هدية قدمها الله لك ، وهذا الطفل الذي يملأ بيتك سروراً وسعادةً مَن جعله بهذه النفسية اللطيفة ؟ مَن جعله بريئاً ومَن جعله ساذجاً ؟ لو كان الطفل الصغير يتعامل معك تعامل الكبير لن تحبه ، إذا تكلمت معه كلمة ، خاصمك شهراً . . لكنك قد تؤنبه وتوبخه وبعد قليل يقبل عليك ويقبلك ، من جعل الطفل بهذه النفسية من الصفاء وبهذه الذاتية الشفافة ، مَن جعل الطفل بهذا الحب والهاً قلبه بأمه وأبيه ؟ إنه الله عز وجل ، إنه الوهاب .

في مجال علم النفس أجريت تجربة مفادها أن حياة الإنسان النفسية أساسها الدماغ ، هكذا يقول العلماء ، فوجدوا طفلاً دماغه سائلٌ ، حالة نادرة ، فصار يبكي فلما جاءت أمه سكت ، معنى ذلك أن في الإنسان نفساً ، هذه النفس حتى الآن لا يستطيع أحد أن يكشف حقيقتها ، أساساً «**الإنسان ذلك المجهـــول**» عنوان كتاب شهير محوره : أن العالم الآن ما عرف إلا شيئاً طفيفاً عن طبيعة الجسد ، أما طبيعة النفس فلا تزال سراً مجهولاً ، قال الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء : ٨٥] .

طبعاً هذه المقدمة ، وغايتي منها أننا إذا تحدثنا عن اسم الوهاب

ورأيت النعم التي وهبك الله إياها ، فلا بد من أن يكون منعكس هذا البحث حباً ، والحب من علامته الطاعة .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الله الوهاب :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ [الشورى : ٤٩] .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥] .

وَهَبَ ، فعل ماض ، يهب فعل مضارع ، هَبْ فعل أمر ، معقول أن إنساناً يأمر الله عز وجل ؟!. . علماء البلاغة قالوا ، الأمر إذا كان من أدنى إلى أعلى فهو دعاء :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] .

فإذا كان من شخص مساوٍ إلى مساوٍ فهذا التماس ، مثلاً . . أنت موظف من المرتبة الأولى جالسٌ إلى الطاولة ، وأمامك بالغرفة نفسها موظف من المرتبة الأولى أيضاً لستَ رئيسه ، ولا هو رئيسك قلت له : رجاءً ، أعطني المسطرة مثلاً ، هذا ليس أمراً ولا دعاء بل ، هذا التماس ، فمن مساوٍ إلى مساوٍ : التماس ، لكن لو وجهت أمراً وأنت

معلم إلى طالب أو من ضابط ذي رتبة عالية إلى مرؤوسه فهذا اسمه : **أمر إذاً يخرج فعل الأمر عن معناه الحقيقي إلى الالتماس والدعاء وغير ذلك**. . . وهناك مثلاً أمر للإباحة ، قال الله تعالى :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

رجل استيقظ في السحور ليس جائعاً ، فإذا لم يأكل أيكون قد عصى ؟ لا ، قال العلماء : هذا أمر إباحة . .

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ﴾ [المائدة : ٢] .

لا أريد الصيد ، فهذا أمر إباحة ، وهناك أمر ندب :

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور : ٣٢] .

وهناك أمر وجوب :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦] .

وهناك أمر تهديد :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] .

اكفر إن شئت ، وانتظر ماذا يحصل لك ، مثلاً تقول الأم لابنها : اكسرها « تعني كأساً » لترى ، تقول له : اكسرها ، قالت له : اكسرها . أمر تهديد ، فالبلاغة ضرورية جداً لفهم كلام الله .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ . . معنى هب لي هذا دعاء ، وَهَبَ يَهَبُ هَبْ ،

صار الفعل من حرفين ، وهب فعل معتل الأول بالواو ، أحياناً يأتي الأمر حرفاً واحداً ، وقى يقي قِ ، قاف فقط : هذه القاف فعل أمر ، وفَى يفي فِ ، الفاء فعل أمر ، وأى يأي إِ ، همزة ، وهذه الهمزة فعل(١) .

والسؤال الآن : ما اسم الفاعل من هذا الفعل وهب ؟ . . واهب ، لكن ربنا وهَّاب ، وهاب صيغة مبالغة لاسم الفاعل .

أعطاك رجل قلم حبر ، هذا اسمه واهب . . وإذا أعطاك مركبة قال لك هذه هدية ، هذا لم يعد في نظرك واهب بل وهَّاب ، عندما يكون العطاء كبيراً نقول وهّاب ، وإذا كان العطاء يومياً متنوعاً أو كبيراً نستخدم صيغة مبالغة اسم الفاعل ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

ماذا وهبنا الله ؟ أول شيء وهبنا الله إياه هو نعمة الوجود ، في سجلات النفوس في دائرة الأحوال المدنية : فلان بن فلان مقيم في مكان كذا « **عمارة نارنجة خانة ٦٧ مثلاً** » فأنت موجود ، لك اسم في السجلات ، فمن وهبك نعمة الوجود ؟ الله عز وجل .

إذاً أنت متمتع بوجودك متمتع بصحتك متمتع بالطعام ، بالشراب ، متمتع بزواجك متمتع ببيت ، لك عمل لك شأن اجتماعي ، كلك ، وجودك مَن وهبك إياه ؟ الله عز وجل وهبك نعمة الوجود ، أوجدك وأمدك بكل شيء . فمثلاً ، كيف نتعامل مع الحجر بالحديد ؟ نريد أن نضع : « لساناً » « دلاية » بالحجر لغَلَق الحديد ، إذا حفرت الحجر ، وأدخلت الدلاية تنزل ، لكن ربنا خلق لنا معدناً

---

(١) ومنها كذلك : دِ : للأمر بدفع الدية ، وش : للأمر بشوي الطعام . . ، وع : ليكون المستمع واعياً ، وكِ : لكوي الملابس ، ولِ : للأمر بتولي ولاية . . وهكذاً . .

نصهره بدرجة قليلة ، نصبه في الحفرة وحينما يبرد يتوسع ويثبت الحديد ويصير اللسان « الدلاية » جزءاً من الحجر لقوة التماسك .

مرةً لفت نظري حديقة ألغيت وقد ثبتوا سور حديد على الحجر ، ولما أرادوا إعادة فتحها قصوا الحديد قصاً ، سألت نفسي سؤالاً : لماذا قص الحديد ؟ لماذا لم ينزع ؟ فلما سألت قالوا : قصهُ أهون ألف مرة من نزعه ، لأنه مثبت بالرصاص ، فلو أن الله عز وجل لم يخلق الرصاص ، هل تستطيع أن تُعامِل الحديد مع الحجر .

ولاحِظْ طبيب الأسنان. . . كيف يضع لك حشوة الضرس لونها أسود ، ففيها رصاص ، تتوسع ، وخلق لك جبساً ، تصنع منه إسفيناً في الحائط ، تُدخل قطعة خشبة مع الجبس ، فعندما يبرد الجبس يتوسع ، كل شيء يبرد ينكمش ، لكن الله خلق مواد ومعادن مع البرودة يزداد حجمها ، هذا خلق وإمداد .

خلق ماءً ، لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، لو كان الماء لونه زهر ، لضاق الإنسان بحياته ، لو كان الماء حلواً ، لأصبح الطعام وكل شيء حلواً ، لو كان الماء لزجاً ، بماذا يغسل الإنسان جسده وأشياءه ؟!. . تصور ماء كالقطر. . . لكن جعله الله سائلاً لا لون له ولا رائحة ولا طعم ، لو كان الماء يتبخر بدرجة مئة. . تنظف البيت في الشتاء فيبقى الماء على أرض المنزل وجدرانه إلى الصيف حتى يتبخر ، وهذه مشكلة حقاً ، فالماء يتبخر بدرجة أربع عشرة ، اسفح كأس ماء في غرفة بعد ساعتين يتبخر ، وكذلك ترى أن الماء يغلي بدرجة مئة ، لو كان يغلي بدرجة خمسمئة مثل الزيت لَحُرِق الطعام في أثناء الطبخ .

من أعطى الماء خواصه ؟ يغلي بدرجة مئة يتبخر بدرجة أربع عشرة ، له سيولة عجيبة يسري في أدق المسامات ، لا لون له لا طعم لا رائحة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

أنتحدث عن الكون كله ؟ أنتحدث عن العين ؟ عن الأذن ؟ جاؤوا بإنسان وضعوا له في صيوان أذنه شمعاً فلم يعد يعرف من أين يأتي الصوت ، هذا الصيوان لو أنك درسته دراسةً هندسية ، فيه سطح بكل اتجاه فمن حيث جاء الصوت فإنه يواجه سطحاً يعكسه إلى الداخل ، ولتتأكد ضع يدك فوق الصيوان ترى أن الصوت قوي عندك ، فالصيوان يتلقى الأمواج ويعكسها إلى الداخل .

مَن أعطاك ذاكرة صوتية ، فتعرف الأصوات حتى من خلال الحديث بالهاتف ؟ وإذا سحقت قطعة زجاج تحت الباب ، تنزعج وتخرج من جلدك ، فهذا اسمه الضجيج ، وتطرب لصوت العصفور ، وهذا اسمه النغم . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

من جعل الطعام ذا رائحة طيبة ، لو جعل الله الطعامَ المفيدَ رائحتُهُ كريهة والطعامَ غيرَ المفيد رائحتُهُ طيبة ، فكيف يحلو عيشك ، كاللحم إذا تفسخ له رائحة لا تطاق ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ كيفما تحركت أيها الإنسان ، وجودك ، المواد التي حولك ، حواسك ، كل هذه نعم من لدن الوهاب .

من وهبنا الشمس ؟ تدفع ثمن البيت مئة ألف زيادة إن كان ذا جهة قبلية ، والبيت الشمالي أرخص بمئة ألف ، هذه الشمس لا تنطفىء جذوتها ، قالوا : إن عمرها خمسة آلاف مليون سنة ، وطمأننا العلماء

قالوا : ستبقى خمسة آلاف مليون سنة أخرى ليس لنا مشكلة مع الشمس ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

من جعل القمر في السماء تقويماً ، ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

مَن جعل الرياح تتحرك ، تنشط ، وتُنعش الإنسان ، تتبدل الأجواء بفضل حركتها فيزول ما علق فيها من تلوث أو غبار أو روائح كريهة ، فتحريك الرياح من نعم الله العظمى ؟

تخزين المياه :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر : ٢٢] .

مرةً أجرينا حساباً درسنا من خلاله أن كل إنسان لو أراد أن يخزن احتياجه مِن الماء لمدة سنة تقريباً لاحتاج إلى خزان يعادل مساحة بيته تماماً ، فإذا كان بيتك مئة متر مربع فإنك تحتاج إلى خزان مئة متر مكعب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ .

تخزين المياه في الينابيع شيء يلفت للنظر ، صنعوا خزان ماء لتخزين مياه « نبع الفيجة » في دمشق ، قلدوا به تقليداً عملية التخزين الطبيعي ، تحت الأرض أربعمئة متر عمقاً لا ضوء ولا صوت ولا شيء ، من خزّنَ هذه الأمواه ؟ ، (أمواه جمع مياه) . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

تعريف الهبة ؟ . . إذا قال رجل لآخر : وهبتك هذا الكتاب بمئة ليرة ، هذا الكلام في الشرع عقد بيع ، ما دام قال له : وهبتك هذا الكتاب بمئة ليرة ، فهذا عقد بيع ، ولا عبرة لكلمة وهبتك ، وإذا

قلت : بعتك هذا الكتاب بلا ثمن ، هذا عقد هبة ، فما تعريف الهبة إذاً ، « **تمليك بلا عوض** » لذلك بعض الناس حتى يتهربوا من ضريبة انتقال الملكية ، صاروا يقبضون الثمن سراً ، ويصرحون بالهبة ، فانتبهت الدولة ووضعت ضريبة على الهبة ، فهذا ليس هبة ، هذا بيع غير مصرح به ، الهبة تمليك بلا عوض .

إذا كان للرجل ابنٌ متديّن خلوق بار بوالديه خدوم لطيف مهذب ، فإذا قال : أنا تعبت في تربية ابني كثيراً ، ربيته وعلمته وحرصت عليه ، أهذا الكلام صحيح أم خطأ ؟ أنا أقول : إن هذا الكلام خطأ ، لأنه نسي الوهاب ، قال الله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

فيعني بلا عوض ، فإذا أعطاك الله ولداً بلا عوض فهذا هبة من الله ، وقد تكون أعظم إنسان قوةً وحزماً وعلماً ، فيأتيك ولد يحيرك ويجعل حياتك شقاءً ، وكثير من الأشخاص في أعلى مستوى من العلم أبناؤهم ضالون ، سمعت عن إمام مسجد من أكبر المساجد إذا ذُكِّرَ بابنه يموت من البكاء ، ابنه منحرف انحرافاً شديداً ، والأمر ليس بيد الإنسان بل بيد الله سبحانه ، فإذا وهب الله لرجل ابناً صالحاً مطيعاً باراً فلا بد أن يُقَبِّل الأرض شكراً لله عز وجل ، فلا يعزى صلاح ابنه وطاعته وبره لذكائه « **أنا أب ناجح أنا فوق رأس ابني** » إذا كان الابن منحرفاً فمهما كنت رقيباً عليه قد يتفلت منك ، فكلمة : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ تعني أن هذا عطاء بلا عوض ، فأنت لم

تقدم شيئاً ، أنت تلقيت هذه الهبة من الله عز وجل .

إذاً الهبة عبارة عن التمليك بغير عوض ، والوهاب : صيغة مبالغة من وهب ، بناءً على هذا التعريف هل يصح أن نقول : إن فلاناً وهب فلاناً ؟ أتصدق أن إنساناً في الأرض كلها يعطي شيئاً بلا عوض ؟ لنفرضه مؤمناً كبيراً فعِوضُه الثواب من الله عز وجل ، يطمع برضاء الله عز وجل ، أيقدم شيئاً بلا مقابل ؟ أينطلق إلى خدمة الناس بلا مقابل ؟ أيسعف المريض بلا مقابل ؟ أيدرّس حسبة ، أو يخطب حسبة ؟ أو يخدم بيت الله حسبة ؟ ثم يقول : لا أريد شيئاً ، أأنت مصدق أنه لا يريد شيئاً ؟!

لو أن رجلاً قال لمعلم : علِّم الطالب فلاناً دروساً خاصة ، وخذ على كل درس مليون ليرة ، تأخذها مني ، ولا تأخذ شيئاً منه ، لكنه أخيراً أخذ من الطالب مئة ليرة مقابل كل درس ، فلما أخذ مئة من الطالب فَقَد حقَّه عند الأول .

فالذكي لا يطلب الأجر من الناس ، بل يطلب الأجر من رب الناس ، فهل تصدق إنساناً يفعل شيئاً بلا عوض ؟ أعلى عوض أن تطلب رضاء الله عز وجل ، أن تطلب جنته ، أن تطلب ما عنده ، أن تطلب توفيقه ، إذاً لا بد من عوض .

فلا يصح أن نقول : فلان وهب إلا مجازاً ، لكن الإنسان أحياناً يهب شيئاً وبنيته المديح ، فهذا هو العوض ، ثناء الناس عليه هو العوض ، أحياناً يجود أمام الناس فيقدم مبلغاً ضخماً لجمعية خيرية ، ويتمنى أن يشيد الناس به ، يقول : أنا قدمت ، أنا أعطيت وبذلت ، يريد لوحة رخامية ، يريد أن يقرأ اسمه ليُعرف أنه صاحب السبيل ، أو

صاحب الخير ، لماذا هذا الكلام ، يريد عوضاً ، إذاً تمليك بلا عوض ، لا يكون إلا من حضرة الله عز وجل .

وشيء آخر ، إذا وهبك إنسان شيئاً فمن هو الواهب الحقيقي ، فمن ألقى في قلبه أن أعطِ فلاناً ؟ الله عز وجل .

أحد العلماء الأجلاء في طرابلس الشام ، يسكن في بيت أجرة ويبدو أن صاحب البيت أراد أن يخرجه من البيت والقانون معه ، فأقام عليه دعوى واستحق الحكم ، والعالِم ليس له بيت وهو رجل صالح ، والحادثة غريبة جداً ، فأحد كبار أغنياء طرابلس رأى في المنام رسول الله ﷺ وقال له اِشترِ لفلان بيتاً ، وهذا الرجل ميسور الحال فما صدَّق ، بحث عنه حتى وجده ، فقال له : انتقِ أي بيت ، ثم اشتراه له ، فهو يبغي الجزاء والثواب من الوهاب .

لا تظن أن إنساناً يعطي شيئاً إلا والله عز وجل قد ألقى في قلبه الدافع . . . أحياناً تكون أمام موظف يقول لك : موافق ، فإذا أردت الحقيقة فهذه من الله ، فإذا كان الله يريد أن يؤدبك يخلق لك ألف عقبة ، تحتاج المعاملة إلى توقيع ، تحتاج إلى تصديق من السفارة السورية في الدولة الفلانية مثلاً ، قال لي رجل : ثمانٍ وثلاثون شاحنة أنزلت بضاعتها أرضاً لأنها غير مصدقة من السفارة السورية في الدولة الفلانية .

فإذا قدم إنسان لك معونة يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله عز وجل ألقى في رَوع هذا الموظف أن يتساهل معك ، ألقى عطفاً عليك في قلبه ألقى رغبةً بمساعدتك .

بناءً على هذا ألا أشكر الموظف ؟ لابد من شكره ، فإذا قدم

أحدهم لك خدمةً ولم تشكره فهذا من الكفر ، لأنه أيضاً خدمك باختياره ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » [رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

إن هذا الإنسان خدمك ، وهو واعٍ وعاقل ، وخدمك بمحض اختياره فلابد مِن شكره ، لكن الله عز وجل ألقى في رَوعه ودفعه لخدمتك ، فيجب أن تشكر الله أولاً على أنه ألقى في قلبه رغبةً في خدمتك ، وأن تشكر هذا الإنسان ثانياً على أنه خدمك مختاراً ، والنبي الكريم ﷺ يقول :

« مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنِ اسْتَجَارَ بِاللهِ فَأَجِيرُوهُ وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » [رواه النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنه] .

وللإيضاح أقول : المسلمون يعرفون كلمة ؛ الله يجزيك الخير ، وأكثرَ الله خيرك ، هذا شكر ناقص ، فإن قدَّم لك إنسان خدمة يجب أن تقدم له خدمة مقابلها ، أما إذا كنت عاجزاً ولا تملك ، فمقبول منك أن تقول : جزاك الله عني خيراً ، وهذه كبيرة جداً ، إذا كنت فعلاً عاجزاً عن رد جميله ، عاجزاً عن مقابلة هديته بهدية ، عاجزاً عن مقابلة خدمته بخدمة ، إذا كنت فعلاً عاجزاً وقلت له : « جزاك الله خيراً » فمقبولة منك .

روى الترمذي والنسائي بسند صحيح من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال : « من صنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء » .

إياك أن تظن أن الشكر على نعمة تكفيه بكلمة تقولها مثل : « أكثر الله خيرك ، فضلت » ، وإنما إذا خدمك إنسان خدمة وأنت تقدر على ردها فلابد من رد الجميل بمثله إن استطعت إلى ذلك سبيلاً ، فانظر ماذا فعل رسول الله ﷺ في مثل هذا الحال .

وعلمنا رسول الله ﷺ من موقفه عليه الصلاة والسلام مع سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي ، فسيدنا ربيعة خدم النبي عليه الصلاة والسلام . وبعد حين قال له : يا ربيعة سلني حاجتك ، فقلت لنفسي : سبحان الله نبي الله ، رسول الله ، ألا يستحق أن تقدم له خدمات بلا مقابل ، لقد رآها دَيناً عليه[1] ، هذا هو الكمال وصدق الله العظيم : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وأحذر أن تذكر أفعالك الطيبة للآخرين ، ولا تنس كل فعل طيب أُسدِيَ إليك ، فإذا خدمت إنساناً فالكمال يقتضي أن تنسى هذا المعروف ، وكأنك ما فعلته ، فأنت فعلتَه مع الله عز وجل ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩] .

أما إذا خدمك أحدٌ خدمة فإنه يعُدُّ جريمة إذا نسيت فضله ، « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » ، مع اعتقادك أن هذا الذي جاءك عن طريق فلان هو حقيقة مِن الله عز وجل ، أولاً ألهمه ، ثانياً سمح له ، ثالثاً مكّنه ، فلو ألهمه وما سمح له « يقول لك : العين بصيرة واليد

(١) الحديث رواه مسلم بلفظ : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي : سل فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة . . . الحديث ، والقصة بتمامها رواها الطبراني في الكبير من رواية ابن إسحق .

قصيرة وأحياناً إنسان يحب أن يخدمك ، فلا يقدر ، يقول لك : « لم أستطع » ، هو راغب في خدمتك ، ألهمه ولم يسمح له ، فإذا إنسان قدم لك خدمة فهذه يجب ألا تُنسى ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « **من أسلم على يد رجل فله ولاؤه** » . [رواه الطبراني والدارقطني والبيهقي بسند حسن من حديث أبي أمامة] .

الإنسان يعطيك حاجة تنتهي أثرها بانتهاء الحياة ، أما إذا ساق لك الله الهدى عن طريق إنسان ، فقد أسدى لك نعمةً يستمر أثرها فيك وفي ذريتك إلى أبد الآبدين ، فربنا عز وجل قال :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣] .

فإذا شرب الإنسان من نبع فليحذر أن يبصق فيه ؛ فإن هذا جحود وكفران بالنعم .

أُعلِّمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني

فالذي ألقى في روع الإنسان أن يخدمك هو الله ، والذي مكن هذا الإنسان من أن يخدمك هو الله ، المُلهم هو الله والفعّال هو الله .

ينادى له في الكون أنَّا نحبه فيسمع من في الكون أمرَ محبنا

ألم يمرَّ معك أن إنساناً خدمك وتعجبت لماذا خدمك ، بلا معرفة سابقة معه ، وكان معك هيناً ليناً ، يسر لك أمرك ، فيه سماحة وتساهل ، ألم يمر بك هذا ، فالله ألهمه ، هو الملهم وهو الممكّن وهو الفعال ، إذاً موقفك السليم الموحِّد ، بادىء ذي بدءٍ ، أن تقول : يا رب لك الحمد .

السيدة عائشة رضي الله عنه لما نزلت الآيات بتبرئتها قال لها أبوها : قومي إلى رسول الله . . قالت : **لا والله! لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله** [متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها] . فالنبي ﷺ لم يقل شيئاً ، الأصل أن الله عز وجل هو الذي برَّأها ، ثم قامت إلى رسول الله ﷺ ، كذلك رجلٌ قال للنبي عليه الصلاة والسلام : ما شاء الله وشئت ، قال : جعلت لله نداً ؟ ما شاء الله وحده [البخاري في الأدب المفرد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

قال بعض العلماء : « **الوهاب من يكون جزيل العطاء والنوال ، كثير المن والأفضال** » ، قال بعضهم : المَنُّ يفسد المَنَّ ، (جناس تام) ، كقولك : يقيني بالله يقيني ، إذا ملك لم يكن ذا هبة فدعه فدولته ذاهبة ، المرء تحت طي لسانه لا تحت طيلسانه ، هذا كله جناس تام ، وقد مر بالقرآن الكريم جناس :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم : ٥٥] .

ساعة . . ساعة . قالوا : الوهاب من يكون جزيل العطاء والنوال ، كثير المن والأفضال واللطف والإقبال ، يعطي من غير سؤال ، ولا يقطع عن العبد فضله في كل حال .

والوهاب من يعطيك بلا وسيلة ، وينعم عليك بلا سبب ولا حيلة .

والوهاب هو الذي يعطي بلا عوض ، ويميت بلا غرض .

نحن عبيد لله عز وجل ، وكل ما نحن فيه فضل من الله عز وجل ، فيجب أن تعلم علم اليقين أن كل نعمة أصبحتَ بها فمن الله ، وكلكم

يعلم أن الشكر ثلاث مراتب ، أول مرتبة أن تعلم أن هذه النعمة من الله هذا أحد أنواع الشكر ، وأن يمتلىء قلبك حمداً لله ، وهذا هو النوع الآخر ، وأن تنطلق إلى خدمة العباد ، وهذا أرقى أنواع الشكر ، قال الله تعالى :

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

يعني : ياعبدي! إذا استقمت على أمري ، وخدمت عبادي ، ودللتهم عليَّ ، ورعيتهم ، ونصحتهم ، وعاونتهم ، وتكرمت عليهم ، فقد أحسنت لعبادي ، فهل أنساك من إحساني ؟ هل جزاء إحسانك يا عبدي إلا أن أُحسن إليك ؟! فالله شكور .

إذا لم يعاين المؤمن من الله معاملة طيبة جداً ، وأنها تكريم له من الله ، بل رأى أنها نظير استقامته وإخلاصه وخدمته ، فعنده إذاً خلل كبير وإخلاصه ضعيف جداً ، فمن علامة الإيمان أن ترى ما أنت فيه من نعمة من آيات الله الدالة على فضله ، وإن أنت خدمت عباده فإذاً لك عون الله سبحانه ، « **والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه** » [رواه مسلم] .

هناك آية ثانية ، قال الله تعالى :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد : ١١] .

الوقائع والأحداث التي تؤكد أن الله وهاب كثيرة جداً في كل مكان وكل زمان ، لكن حادثة وقعت لأحد إخوتنا الكرام يعمل في محلٍ دخله بالشهر ثلاثة آلاف ، له أخ مؤمن فَقَدَ عمله ، فَقَدَ دخله كلياً ،

فشكا له همه ، فقال له : تعال واعمل معي ، وخذ نصف الربح ، وربحه ثلاثة آلاف كما علمت ، أقسم لي وهو صادق أنه في أول شهر ربح عشرة أمثال الدخل السابق ، عشرة أمثال ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

لذلك « أنفق بلال! ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً » .

لكن إياك أن تؤثر الخلق على الله ، فتنفق من دينك إكراماً للناس فهذا ليس هبة ، لا ينبغي أن تُؤْثر اجهة دون الله على الله ، والخير كله في المؤاثرة .

الشبلي أحد العلماء سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفي ، قال : أي اسم من أسماء الله تعالى يجري على لسانك ؟

قال : الوهاب ، لأنه أول هبات الله عز وجل هو وجودك .

حظ الإنسان من هذا الاسم أن يبذل لله وفي سبيل الله مما آتاه الله عز وجل ، من علمه من خبرته من وقته من عضلاته من جهده من مكانته من جاهه ، هذا الذي يستفاد من هذا الاسم .

* * *

الرَّزَّاقُ

﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] .

الاسم هو « الرزاق » . ورد هذا الاسم في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

والرزَّاق كما تعلمون صيغة مبالغة ، وإذا جاء اسم الله عزَّ وجل بصيغة المبالغة فمعنى ذلك أنه يرزق العباد جميعاً مهما كثر عددهم ، ويرزق الواحد منهم رزقاً وفيراً إذا شاء وبلا حدود ، إما على مستوى مجموع المرزوقين ، وإما على مستوى كمية الرزق ، لذلك لم تأت ـ هنا ـ الرازق ، بل أتت الرزَّاق ، لأنه يرزق كل العباد كما يرزق العبد الواحد ، وإذا أعطى أدهش .

وورد هذا الاسم في قوله تعالى على شكل فعل مضارع :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٦٠] .

ومن دعاء سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، اللهم يا رازق البُغاث ارزقنا ، (للبغاث حكاية) ، ولا بأس من التعريف به للقارىء الكريم : البغاث من فراخ الغراب ، أضعف أنواع

الطير ، والمثل العربي الشهير : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » ، لشدة ضعفنا فإن البغاث وهو أضعف الطيور غدا حيالنا كالنسر[١] .

هذا البغاث فرخ من فراخ الغراب فإذا انفقأت البيضة عنه خرج البغاث أبيض كالشحمة ، يعني قطعاً من الشحم ، فإذا رآه الغراب أنَحره لبياضه ، لأن الغراب أسود اللون ، فيسوق الله تعالى له بعض الحشرات يتغذى عليها إلى أن ينبت ريشه ويسود لونه عندئذ يتعرف عليه الغراب .

فمن أغرب هذه القصص أن فراخ الغراب وهي البغاث عبارة عن شحمة بيضاء لا تقوى على شيء ، والله سبحانه وتعالى يسوق لها الرزق ، إذاً ورد في بعض الأدعية : يا رازق البغاث في عشه ارزقنا .

والحقيقة أن من الخطأ والسذاجة أن تحصر الرزق في الطعام والشراب قال سبحانه :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

فقال العلماء : « رزق الأبدان بالأطعمة ورزق الأرواح بالمعرفة » ، والمعرفة أشرف الرزقَين ، فإذا خصك الله بدخل وفير أكلت به أطيب الطعام ، وخص عبداً آخر برزق المعرفة فاعلم علم اليقين أن العبد الآخر أكثر حظوةً عند الله منك ، لأنه منحه رزق النفوس رزق الأرواح وهي المعارف ، قال الله عز وجل :

---

(١) انظر مجمع الأمثال للميداني ١/ ١٢ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] .

هذا هو الرزق . . وقد ورد في بعض الأحاديث : « **أبيت يطعمني ربي ويسقيني** » [متفق عليه] وكأن النبي عليه الصلاة والسلام استعمل كلمة الطعام والشراب للرزق الروحي وهو أشرف أنواع الأرزاق .

أخي القارىء الكريم ، هذه بشارة : من أسباب سَعة الرزق الصلاة . . ما الدليل ؟ قال الله عز وجل :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] .

استنباط من الآية لطيف جداً ، فإذا أردت أن يزداد رزقك لن أقول لك : صلِّ ، فأنت مصلٍّ ، إنما أقول لك : أتقن صلواتك ، فالخشوع من فرائض الصلاة لا من فضائلها ، وربنا عز وجل حينما أثنى على المؤمنين ، قال الله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ـ٢] .

ومن آداب العبودية أن يرجع العبد إلى ربه في كل ما يريد ، في الأشياء النفيسة وفي الأشياء الخسيسة ، هذا من آداب العبد مع الله عز وجل ، أن يرجع إليه في كل شيء خسيساً كان أو نفيساً ، أي : إن الله يحب من العبد أن يسأله شسع نعله إذا انقطع . . ضيعتَ مفاتيح البيت مثلاً ، فقل : اللهم! يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع بيني وبين مفاتيحي ، اسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة . . إذا أضعت مكان موعد اللقاء مثلاً فاستفد من الواقعة التالية :

ذكر لي أحد الإخوة أنه توجه إلى المدينة المنورة للزيارة ، ونسي

العنوان الذي سوف يتوجه إليه ، فدعا الله في الطريق فساقه إلى البيت بشكل يسير ، بينما إنسان آخر بقي عشر ساعات ضائعاً عن مكان البيت .

إذاً اسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة ، وهذا من تمام العبودية لله عز وجل .

في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ليسأل أحدكم ربه حاجاته كلها ، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع »** .

الدليل . . سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ماذا سأل الله ؟ قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، فهذا من الأسئلة النفيسة من أرقى الأسئلة ، ولما جاع قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص : ٢٤] ، وهذا دليل على أن العبد يجب أن يسأل ربه كل شيء .

سيدنا علي رضي الله عنه يقول : **« لستَ مطالباً بطلبِ الرزق ولكنك أمرت بطلب الجنة »** فما الذي فعلته ؟ تركت ما أمرت بطلبه وطلبت ما أُمرت بتركه ، وهذا انحراف من الإنسان لقلة ثقته بربه ، والله سبحانه وتعالى ضمن لهم الرزق بأدلةٍ كثيرة ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [الروم : ٤٠] .

﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

أدلة كثيرة . . قال الله تعالى :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١ـ٢٣] .

إذاً ربنا سبحانه وتعالى طمأننا بأنه تكفل لنا رزقنا ، ومع ذلك يجهد الناس ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل من أجل الرزق ، « **خلقت السموات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ، لي عليك فريضة ولك علي رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك** » ، تكّفل لنا بالرزق ، وأمرنا أن نسعى للدار الآخرة ، فقال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] .

ما الذي يحصل ، إن الذي كُلِّفت في طلبه ، توانيت في طلبه ، والذي ضمنه لك سعيت إليه .

إذاً أَقبلوا على ما كُلِّفتم ودعوا ما ضُمِن لكم ، قال سالم بن بي الجعد حدثت أن عيسى عليه والسلام كان يقول : اعملوا الله ، ولا تعلموا لبطونكم ، وإياكم وفضول الدنيا! فإن فضول الدنيا عند الله رجز ، هذا طير السماء يغدو ويروح ليس معه من أرزاقه شيء ، لا يحرث ولا يحصد ويرزقه الله ، فإن قلتم : إن بطوننا أعظم من بطون الطير ، فهذه الوحوش من البقر والحمير تغدو وليس معها من أرزاقها شيء لا تحرث ولا تحصد يرزقها الله [خرجه ابن أبي الدنيا] .

إنسان توفي أخوه وترك له خمسة أولاد ليس لهم مورد رزق ،

فصار يبكي ، ثم التقى بشيخه فقال له : ما بالك يا ولدي ، قال : توفي أخي وترك لي خمسة أيتام ، قال : ألم يترك لهم شيئاً ؟ قال : بلى شيئاً يكفيهم سنة ، قال : جيد ، حينما تنتهي هذه المؤونة ابدأ بالبكاء ، فيروى أنّ هذا الرجل توفي قبل أن ينتهي الرزق بثلاثة أشهر .

أعرِفُ شخصاً سيُهدم منزله ، لسبب تنظيمي ، فضج وزمجر وأرعد ، وتمزق وبكى واستعطف ، وقد وُعِدَ وَعْدَاً قطعياً بتأمين بيتٍ لائق به ، رغم كل الوعود والمواثيق بقي مضطرباً وضَجِراً ومات بعد أشهر عدة قبل أن يهدم بيته .

الإنسان لا ينبغي له أن يهتم للشيء أكثر مما ينبغي ، فالله الرزاق موجود .

قال بعض العلماء : « **الرازق من غذّى نفوس الأبدان بتوفيقه ، وحلى قلوب الأخيار بتصديقه** » ، دائماً الرزق رزقان رزق الأبدان ورزق النفوس ، فإذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت .

وبعض العلماء فسر القوت برزق الأرواح ، يعني إذا صليت صلاةً وأعجبتك ، إذا صليت وبكيت ، إذا قرأت القرآن وخشع قلبك تطمئن ، فالمعنى أنك قريب من الله عز وجل ، وأن هناك حياة ونبضاً ، وأن هناك شيئاً من الإخلاص فيك ولذلك خشعت ، إذاً إذا أحرزتِ النفس قوتها اطمأنت ، بالمعنيين الأول والثاني .

قال بعض العلماء : « **الرزاق من خص الأغنياء بوجود الرزق** » ، ترى الغنيَّ المالُ بين يديه كثير ، يأكل ما يشتهي ، يشتري أجمل بيت ، يقتني أجمل أثاث ، يذهب إلى أي مكان يشاء ، يختار أجمل

مركبة ، يختار أجمل الثياب ، يختار أجمل الأماكن ، قال : « **الرزاق هو الذي خص الأغنياء بوجود الرزق ، وخص الفقراء المؤمنين بشهود الرزاق** » .

أعطاك طعاماً وأعطى الغني طعاماً وشراباً وبيتاً ودخلاً ومركبة وأعطى الفقير المؤمن شهود الرزاق ، إما أن تجد الأرزاق ، وإما أن تشهد الرزاق ، المجموع ثابت ، هناك نظرية رائعة جداً ، معناها لو جمعت كل شيء أعطاك الله إياه وجمع الآخَرُ كل شيء أعطاه الله إياه لكان مجّموع الاثنين واحداً ، فإذا أخذ منك بعض البحبوحة عوضك عنها ببعض التجلي ، وإذا أغرقك في النعيم المادي حرمك من نعيم القرب .

فهناك توازن يعبّر العلماء عنه ؛ بأن المجموع واحد ثابت ، وهناك نظرية أخرى ليست في المعنويات بل في الماديات ، فلو أعطى الإنسان علامة للزوجة ، والبيت علامة ، والدخل علامة ، ولوظيفته علامة ، ولصحته علامة ، ولوسامته علامة ، تجد أن معظم الناس ينالون مجموع علامات واحد ، لكن متفاوتة فيما بينها ، مثلاً ثماني علامات على الزوجة ، اثنتان على الأولاد ، خمس على الرزق فالمجموع خمس عشرة ، اثنتان على الزوجة ثمان على الأولاد خمس على الرزق المجموع خمس عشرة ، عشر على الرزق ثلاث على الزوجة اثنتان على الأولاد المجموع خمس عشرة ، فلو دققت ترى من له دخل أقل من حاجته هو منعم براحة البال التي لا يحلم بها من آتاه الله رزقاً وفيراً ، « **من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك** » [ابن ماجه بسند حسن عن الأسود بن يزيد] وروي عنه عليه الصلاة

والسلام : « **من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر** » .

وهذا شيء آخر عن الرزق ، فالرزق عزيزي القارىء في أدق تعاريفه هو ما يُنتَفع به : المال ينتفع به ، العلم ينتفع به ، الخلق ينتفع به ، شعور القلب بالطمأنينة ينتفع به ، في أدق تعاريف الرزق ، الرزق ما ينتفع به .

جاء رجل إلى حاتم الأصم ، فقال : من أين تأكل ؟ فقال : من خزائنه ، فقال الرجل : أيلقي الله عليك الخبز من السماء ، فما هذا الكلام ؟ قال : لو لم تكن الأرض له لألقى علي من السماء الخبز ، يرزقني من الأرض ، هكذا تجد أن الإنسان حينما يطلب الرزق من الله عز وجل فيسوق الله له الرزق ، فقد يلتقي أحدهم مصادفة بإنسان عاطل عن العمل فيسأله : أتعمل ؟ يقول : لا ، يقول له : هناك عمل في مكان كذا ، وعند فلان ، فاذهب إليه .

الموضوع طويل وله آلاف الشواهد ، قد ترزق من حيث لا تحتسب ، قد ترزق بسبب تافه جداً ، قد ترزق بنظرة ، قد ترزق برسالة جاءتك خطأً ، قد ترزق ببضاعة كاسدة .

سمعت أن أحد تجار البزورية في الحرب العالمية الثانية باع السكر بزيادة قليلة فجاءت الضابطة فأغلقت المحل بالشمع الأحمر ، إلى أن انتهت الحرب بعد أشهر قليلة فتضاعف السعر مئة ضعف فاغتنى إلى ولد ولده كما يقولون ، فقد ترزق بشيء مزعج ، فالله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين .

الشيء الدقيق والذي يلفت النظر حقاً : أنك إذا علمت أن الله هو

الرزاق ذو القوة المتين أفردته بالقصد ، الناس أحياناً يتجهون إلى زيد ، إلى عُبيد ، إلى فلان ، إلى هذه الجهة يطمعون ليأخذوا ، ولكن إذا علمت أن الله وحده هو الرزاق فإنك تفرده بالقصد ولا تسأل أحداً سواه ، تكسب العزة والكرامة والطمأنينة والحظوة عند الله عز وجل بتفويضك الأمر إليه ، وصدق التوجه والتوكل .

قيل لإنسان آخر : من أين تأكل ؟ قال : من خزائن مَلِكٍ لا تدخلها اللصوص ، ولا يأكلها السوس ، خزائن الله عز وجل مفتوحة ، وخزائنه مملوءة ، وخزائنه فيها كل شيء ، والدليل قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] .

من أسخف النظريات أن يقول كثير من علماء الغرب الماديين وغيرهم : إن موارد الأرض تشح شيئاً فشيئاً ، وإن الأرض مهددة بمجاعة ، إن ازدياد السكان ازدياد هندسي ، « مالتوس » يقول الانفجار السكاني سيوقع الناس بمجاعة كبيرة ، هذه كلها كلمات من لا يعرف الله عز وجل ، لأن كل تقتير أو تقليل في الرزق هو تقليل من نوع التأديب لا من نوع العجز ، والإنسان وحده إذا قتر فعن عجز فيما بين يديه ، أما الإله إذا قلل فلغاية التأديب فقط .

همَّ رجلٌ من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجته : لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة ؟ فقالت : زوجي منذ عرفته أكالاً وما عرفته رزاقاً ، ولي رب رزاق ، يذهب الأكال ويبقى الرزاق .

فمن الأخطاء الشائعة أخطاء في التوحيد ، يقولون : فلان « معيل » أي عنده عائلة كبيرة ، والصواب فلان مُعال وليس مُعيلاً ، المُعيل

هو الله عز وجل ، والناس كلهم على مائدة الرحمن .

كما قلت قبل قليل : إن الله عز وجل خص الأغنياء بوجود الأرزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق ، فمن شهد الرزاق ما ضره ما فاته من الأرزاق ، من علامة المؤمن أنه إذا عرف الله ووصل إليه ما تألم على شيء فاته من الدنيا قط ، إذا تألمتَ ألماً شديداً ، وإذا احترق القلب حرقة لاذعة على شيء فاتك من الدنيا فهذه علامةٌ على أنك لا تعرف الله ، وأنك ما وصلت إليه ، فلو وصلت إليه لما تألمت ، ولما حزنت على شيء فاتك من الدنيا إطلاقاً ، وقد قيل : إن سيدنا الصديق رضي الله عنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط ، أحياناً تجلس مع إنسان تحس قلبه يحترق حسرةً وندماً لأن هذه الأرض باعها ثم ارتفع ثمنها إلى مئة ضعف ، متألم ألماً شديداً لا حدود له ، بل إن معظم الأمراض اليوم أمراض القلب والشرايين أمراض المعدة وأمراض الأعصاب وأمراض الأوعية ، هذه الأمراض أكثرها بسبب الآلام والندم ، دائماً يتألم ، أما إذا شهدت الرزاق ما ضرك ما فاتك من الأرزاق .

ومن عرف أن الرزاق واحد قصده ولم يسأل أحداً سواه ، عن سفيان بن عيينة قال : دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله فقال : سلني حاجة قال : إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره فلما خرجا قال : الآن فسلني حاجة ، فقال له سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ فقال : من حوائج الدنيا قال : والله ! ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها .

هذا العِزّ عز التعفف ، فما أجمل أن يعطي الغني الفقير ،

والأجمل من ذلك أن يتعفف الفقير عن مال الغني ، وأن يقول : الحمد لله .

قال بعض العلماء : « **كما أن الله لا شريك له في خلقه ، لا شريك له في رزقه ، كما أنه لا إله إلا الله ، أيضاً لا رازق إلا الله** » .

يقولون دائماً : إذا أعطى أدهش .

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم

قد ترى إنساناً ذكياً جداً رزقه قليل ، وقد تجد إنساناً في منتهى البساطة والسذاجة رزقه وفير ، فالمعنى أن الرزق له عامل آخر غير عامل الذكاء وعامل السعي ، لكن ليتيقن كل إنسان أن للرزق علاقةً بالاستقامة ، العوام يفهمون أن هذا الرزق مكتوب ولا حيلة لأحد في كسبه ودفعه ، هذا الكلام صحيح من جانب واحد ، فالله يقول :

﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

روي عن رسول الله ﷺ : « **إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه** » إذا أردنا أن نوضح هذه الحقيقة ، مثلاً إذا رأيت أن ابنك ليس أهلاً لتملك المال ، فإنك تعطيه الحد الأدنى ، تعطيه مبلغاً يسيراً يكفي حاجاته الضرورية ، أما إذا كان ابنك من أهل الصلاح ، ورعاً واستقامةً واتزاناً وحكمةً تقول له : أبقِ معك الخمسمئة ليرة ولا شيء عليك ، أما أن تعطي خمسمئة لولد آخر قد يذهب لأماكن لا ترضي الله عز وجل فلا يصح ، بل تعطيه ثمن شطيرة وأجرة ركوب سيارة ، الحد الأدنى . . لذلك قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

الفكرة خطيرة ومهمة جداً ، التقليل تقليل تأديب لا تقليل عجز ، أو الأصح من ذلك التقليل تقليل حكمة لا تقليل حاجة .

يروى في بعض الكتب أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، سأل الله في مناجاته ، قال : يا رب إني لتعرض لي الحاجة الصغيرة أحياناً ، أفأطلبها منك أم أطلبها من غيرك ؟ فأوحى الله إليه : لا تسأل غيري ، أي : إنّ الإنسان أحياناً يحتاج شيئاً بسيطاً فليسأل الله حاجته كلها صغيرها وكبيرها ، فهل هناك رزاق سواه ؟ فمرةً حدثني طبيب ناشىء ، أول افتتاحه عيادة في الريف ، ووالدته مريضة في دمشق ، وهو يحتاج إلى مبلغ معين ، فتوجه إلى الله سبحانه يسأله ذلك المبلغ ، فعلى خلاف العادة أتاه مريض وراء مريض . . إلى أن اجتمع المبلغ بكامله .

تترتب على الإنسان أحياناً مدفوعات . . فليقل : يا رب أنا محتاج فقير لعطائك فأعطني ، عوّد نفسك الطلب من الله فإذا رأيت الزوجة متصلبة برأيها فقل : يا رب! . رأيت الشريك مزعجاً . . فقل : يا رب! لطّفه . . وجدت الابن منحرفاً . . يا رب! أدّبه . . وجدت العمل مزعجاً . . فقل : يا رب! بدّله ، عوّد نفسك أن تسأل الله عز وجل كل شيء ، قال : يا رب! إني لتعرض لي الحاجة الصغيرة أفأسألها منك أم أطلبها من غيرك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : لا تسل غيري .

أحياناً الإنسان يقول لأخيه المؤمن حفظاً لماء وجهه وإكراماً له :

إياك أن تسأل أحداً غيري ، فكلما سنحت لك حاجة تعال إلي وخذها مني ، هذه منتهى المودة ، فإنك إذا أحببت إنساناً حباً شديداً ، فإنك لا ترضى أن يبذل ماء وجهه لزيد وعُبيد من الناس ، فإنك تقول له : إياك وأستحلفك بالله أية حاجة تعرض لك فائتِ إلي ، وكأن الله عز وجل لشدة حرصه علينا وحبه لنا قالك لا تسأل غيري .

عفان بن مسلم قال قال لي حماد بن سلمة ـ الذي قال فيه الإمام أحمد : إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام ـ : ألح المطر علينا سنة من السنين وفي جواري امرأة من المتعبدات لها بنات أيتام فوكف السقف عليهم فسمعتها تقول : يا رفيق ارفق بي! فسكن المطر فأخذت صرة فيها عشرة دنانير وقرعت بابها فقالت : اجعله حماد بن سلمة فقلت : أنا حماد وقد تأذيت بالمطر فقلت : يا رفيق ارفق بنا! فما بلغ من رفقه بك ؟ فقالت : سكن المطر وأدفأ الصبيان وجفف البيت ، قال : فأخرجت الدنانير وقلت انتفعي بهذه فإذا صبية عليها مدرعة من صوف تستبين خروقها قد خرجت علي ، وقالت : ألا تسكت يا حماد! تعترض بيننا وبين ربنا ومولانا ؟ ثم قالت : يا أماه قد علمنا أنا لما شكونا مولانا أنه سيبعث إلينا بالدنيا ليطردنا من بابه ألصقت خدها بالتراب ثم قالت أما أنا وعزتك لا زايلت بابك وإن طردتني .

ثم قالت يا حماد! رد عافاك الله دنانيرك إلى الموضع الذي أخرجتها منه ، فإننا رفعنا حوائجنا إلى من يقبل الودائع ولا يبخس المعاملين .

أحياناً ينالك الخير من الله مباشرة وفي ذلك عز ، لا أحد له عليك

مِنَّة ، وأحياناً أنت تشتكي ، فإذا اشتكيت لمؤمن قد يرق لك قلب هذا المؤمن ، لكن الآن سيأتيك العطاء لا من الله مباشرة بل عن طريق هذا المؤمن ، فإذا اشتكيت إلى كافر يشمت بك ، وقد يعطيك ، لكن هذا منتهى الإهانة أن يعطيك عن طريق كافر ، فإذا كان هناك منظر يهز أعمق مشاعري أن أرى مؤمناً يتذلل أمام كافر ، يبذل ماء وجهه ، يتشكى ، يتضعضع .

إنَّ الذي يحرك الإنسان حبُّه أكثر مما يحركه عقله ، فالإنسان بدافع الحب يقدم الغالي والرخيص والنفس والنفيس ، بدافع الحب يقدم كل شيء ، بدافع العقل قد يقتنع ، وقد يعتقد ، وقد يوقن ، ولكن لا يتحرك .

لذلك فالدعاة إلى الله يجب أن يخاطبوا العقل والقلب في وقت واحد ، ربما إذا أحدثوا في العقل القناعة فهذا نصف النجاح ، أما إذا أحدثوا في الإنسان ، بالإضافة إلى قناعة العقل ، موقفاً أساسه الحب فهذا كل النجاح ، أنت قبل كل شيء إنسان ذو عقل ولك قلب ، العقل إذا أعمَلْته في الكون عرفت الله ، وإذا أدركت النعم الإلهية أحببته بقلبك ، وإذا أحببت الله فقد أحسنت التوجّه ، لا يُسمى الإنسان إنساناً إلا إذا أحب .

مرةً كنا في الجامعة وقد أحيل أحد الأساتذة إلى التقاعد وأقيمت له حفلة طيبة ، وهو أستاذ علم النفس ، قال هذه الكلمة ولا أنساها :

« الإنسان الذي لا يشعر برغبة في أن يُحِب ولا يشعر برغبة أن يُحَب فليس من بني البشر » ، لا يمكن أن تُسَمَّى إنساناً إذا كان قلبك صخراً ، أو إذا كان قلبك جلموداً .

إذاً لا بد من أن تُحِبَّ ، الشيء الذي يلفت النظر هو أن أصحاب النبي ﷺ عليهم رضوان الله ، لماذا فعلوا المستحيلات ؟ لماذا باعوا أنفسهم ؟ ولماذا ضحوا بكل شيء ؟ أحدنا لو جرحت يده أو أصبعه لصاح ولضمدها ولاعتذر عن لقاءاته ولأخذ إجازةً. . . سيدنا جعفر تأتيه ضربة سيف تقطع يمينه فيُمسك الراية بشماله ، تأتيه ضربة سيف أخرى تقطع شماله فيمسك الراية بعضديه إلى أن يخِرَّ شهيداً ، ما هذا الحب الذي أدى بصاحبه إلى التفاني ثم للاستشهاد ؟!

أصّحاب الحوائج النفيسة يقولون : يا رب! ارزقني الجنة ، يا رب! ارزقني أن أعرفك ، يا رب! لا تمتني قبل أن ترضى عني ، دائماً طلباتهم متعلقة بالجنة والمعرفة وفهم القرآن وقراءة تفاسيره ، وهناك أشخاص يقولون : يا رب! أخرج المستأجر مِن داري. . فناس يطلبون أشياء نفيسة وناس يطلبون أشياء خسيسة ، هذا اجتهاد ، فاللهم ألهمنا رشدنا ، وهذا أيضاً رزق .

هناك من يقول : « لا أطلب من مولاي غير رضاه » ، أي لا أطلب من الله إلا رضاه ومحبته ، وإذا كان شيءٌ حقيرٌ أطلبه من أهل الدنيا .

يُحكى أن امرأة يحيى بن معاذ قالت ليحيى : لقد رأيت العجب العجاب ، إن بنيتي طلبت مني شيئاً تأكله مع الخبز ، فقلت لها : سلي الله تعالى ، قالت ابنتها : « إني أستحيي من الله أن أسأله ما آكل » ، هذا رأي ، ولكن روي :

« **لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ** » .

فانظر معي رحمك الله إلى هذه المفارقة العجيبة : هذه الصبية

الصغيرة تستحيي أن تسأل الله مباحاً ، وشيخ طاعن في السن لا يستحيي أن يعصي الله .

ـ والله ـ هناك منظر لا يصدق ؛ إنسان في الستينيات يلعب بالنرد في المقهى ويترك الصلاة ، وإنسان متصابٍ بالخمسينيات يتزيّن أمام الفتيات أو واقف على محل أو على شرفة أو على طريق ينظر إلى النساء ، أو يجلس في مقهى يطل على الرصيف تلاحق نظراته النساء ، هذا شيء عجيب غريب ، « ... **وأُبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد** » .

إن الله عز وجل يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر ، أؤكد لك إذا أنت صليت صلاة صحيحة ، أو إذا أكرمك الله بالحج مثلاً فاعلم أن هذا رزق عظيم ساقه الله تعالى إليك ، فأحدهم وقف في عرفات وبكى حتى انتشى ، وبعضهم بقي شهراً في نشوة هذا البكاء ، أو هذا القرب أو هذه الرحمة ، إذا صلى فرض صلاة وشعر أن هذه الصلاة أدّاها بخشوع ، وهذه هي الصلاة التي أرادها الله عز وجل ، وشعر فيها بخشوع ، وفتح الله عليه في فهم ما تلا من قرآن ، هذه أرزاق ، إذا صام رمضان صياماً مقبولاً وشعر أن صيامه كان صحيحاً ، ليس فيه معاصٍ ، كان منيباً إلى الله فيه ، وصلى التراويح بنشاط ، فهذا فوز عظيم . إذ تحرّى رضا الله والالتجاء إليه وسعد بالقرب منه .

قال العلماء : إن الله يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر ، وأرزاق القلوب الكشوفات والمعاني ، كما أن أرزاق الأجساد الغذاء والأحاظي ، (جمع حُظوة) ، الكشوفات أي : إنّ

المؤمن يرى ما لا يرى الآخرون ، عنده رؤية ، عنده شعور ، يعرف جوهر الحياة ، يعرف أين كان وإلى أين المصير ، يعرف أثمن ما في الحياة .

أحياناً الإنسان يضيع وقته بأشياء تافهة ، وأحياناً يمضي وقته بأشياء ثمينة ، وهذا أيضاً رزق ، هناك نقطة أخرى ، وهي عكس اليسر في الرزق ، أي العسر في الرزق بالنسبة إلى بعض الناس قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ١٤ـ٢٠] .

تراه ذكياً ، يحمل شهادة عليا ودخله قليل ، ليس له وظيفة ولا عمل ، هذا بتقدير الله عز وجل فكما أن الله عز وجل ، يضيّق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي ، يصلي صلاة لا معنى لها جوفاء ليس فيها خشوع ، يشرد في الصلاة ، قال لي شخص يعمل محاسباً : إذا وقعت في غلط بالمحاسبة فلا أذكر الصواب إلا في الصلاة ، وقد تكون حسابات لم تسجل سهواً ، فإذا صلى ذكرها في الصلاة ، قال مكرراً : بالصلاة كل المشكلات تأتي إلى خاطري ، فمعناها : هناك سد ، كما أن الله عز وجل يضيق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي ، هذا التضييق له تفسيران ، الأول أن هناك معصية ، هناك مخالفة ، هناك تقصير ، هناك حقوق لم تؤدِّها ، هذا حجاب ، نعوذ بالله من أن نتردى فيه ، كل معصية لها حجاب .

وهناك تفسير آخر ، قد تكون مستقيماً على أمر الله لكن هذا التضييق سببه التعطيش وصلتَ لمرتبة أنت راغب بأن تبقى فيها ، والله عز وجل أراد لك أن ترتقي عن هذه المرتبة ، فكيف تنتقل من مرتبة إلى مرتبة ، يحجب الله عنك الأحوال والمواجيد والتجليات ، فتضج وتقلق ، وتخاف ثم تشمر وتعمل الصالحات ، تصعد درجة ، تعيش فيها فترة لا بأس بها ثم تألفها وترضى بها ، لكن الله لا يرضى لك في هذه الحالة أن تستمر ، فيحجب عنك الأحوال ، فلا صلاتك صلاة ، ولا ذكرك ذكر ، ولا تلاوتك تلاوة ، قلب متصحّر ، حالٌ فيه ضيق واشمئزاز .

هو مستقيم ، ولكن لا شفافية ولا أحوال ولا سرور ولا تجلِّيات ، فيدفعه هذا إلى أن ينطلق إلى المزيد من العمل الصالح فيرفع المستوى فيقفز قفزة تبلغه أعلى درجة أرادها الله له بهذه الطريقة ، إذاً هذا تفسير قد يضيق الله على عبده رزق الأرواح ليندفع بعد ذلك إلى الأرقى .

قال أحدهم : دخلت على داود الطائي فرأيته منبسطاً ، وقبل أن أتابع القصة لي هذه الملاحظة ، أنت كونك مؤمنا ، إن سعدت بقربك من الله عز وجل فأنت مؤمن ورب الكعبة ، وإذا كانت نشوتك وسرورك وطلاقتك وراحة نفسك وجدتها بإقبالك وقربك ، فهذه علامة إيمانك ، أما إذا تألقت عيناك وتورد خداك وانطلق لسانك لأرباح حققتها أو لمكسب وصلت إليه فهذه علامة أخرى ، فمن أنت ؟ أَمِنْ أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ إذا سرك عطاء البشر فأنت من أهل الدنيا ، أما إذا سرك عطاء الله عز وجل فأنت من أهل الآخرة .

قال : دخلت على داود الطائي فرأيته منبسطاً ، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً ، المؤمن إذا أنكر قلبه وضعفت صلته بالله عز وجل يصبح كاليتيم ، تراه هادئاً ، تسأله : ما الخبر ، خير إن شاء الله ؟ يقول : لا شيء ، قال الحسن البصري : إذا تلوت القرآن وذكرتَ الله عز وجل وصليت ولم تجد بشراً وانشراحاً فاعلم أنك محجوب ، قال الله تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] .

ذاك حجاب الآخرة ، ولكن هناك في الدنيا حجاب ، إذا شعرت أنك محجوب انتبه وابحث عن السبب ، لعلك مقصر ، لعله معتَدٌّ بنفسك ، لعلك مستغنٍ عن الله ، لعلك وقع في نفسك سوء ظن بالله وأنت لا تدري ، لعلك وقعت في سوء ظن بالنبي عليه الصلاة والسلام وأنت لا تدري ، فإذا شعرت أن بينك وبين الله حجاب فابحث عن السبب ، وإياك أن يزداد الحجاب ، والحجاب يرق ويثخن ، فإذا كان الحجاب كثيفاً فالمشكلة خطيرة جداً ، كما قال سيدنا عمر : « تعاهد قلبك » ، يعني راقب قلبك ، راقب أحوالك ، راقب طمأنينتك ، لو أن إنساناً استيقظ بعد صلاة الشمس فإذا لم يشعر بانقباض فحالته خطيرة جداً ، لكن إذا شعرت بانقباض شديد وألم وشعور بالخزي والعار من الله عز وجل وشعور بالضياع فهذه مشاعر إيمان وصلاح ، أما إذا قال : مثل بعضها ، ماذا جرى ؟ فهذه أيضاً مشكلة كبيرة جداً .

« دخلت على داود الطائي فرأيته منبسطاً ، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً فقلت أي شيء حالك ؟ فقال سقاني البارحة شرابَ أُنسِهِ

فأردت أن أجعل اليوم يوم عيد » ، يعني صار له صلة بالله ، أقبَلَ على الله ، وشعر بنشوة الاتصال ، هذا أجمل ما عنده ، فقال : أردت أن أجعل ذلك اليوم يوم عيد ، لذلك إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أنْ هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

نشوة المؤمن في تقربه من ربه ، أرجو أن يتسع صدرك لهذه الكلمة ، إذا سعد الإنسان في الدنيا فهذه علامة سلبية خطيرة فليحذر ، الأهم والأولى أن تسعد بالله ، وفي هذا الإيجابية والفلاح ، والحقيقة الأخرى التي لابد من التذكير بها : أن الإنسان لا يمكن أن يسعد إلا بالله ، إذا سعد إنسان بما سوى الله فهذا شتاته وهوانه !! فالقرآن كلام الله ، وربنا عز وجل قال :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ـ١٢٦] .

سأل رجل : ما بال الملوك والأغنياء فالدنيا كلها بأيديهم ؟ كل شيء عندهم ، وكذلك الأغنياء ؟ والجواب : ضيق القلب ، في قلوبهم من الضيق والتبرّم والشقاء ما لو وزع على أهل بلد كفاهم ، لذلك فالله عز وجل قد يعطيك الدنيا ، ويأخذ منك راحة قلبك ، وقد يعطيك راحة القلب ، ويسلب الدنيا منك ، فالعبرة أن يكون قلبك غنياً بالله عز وجل .

قال : سقاني البارحة شراب أنسه فأردت أن أجعل من ذلك اليوم عيداً ، فقلت : أتأذن لي أن أحمل لك طعاماً حتى تفطر ؟ فقال : لست أشير إلى هذا ، وشتان بين شراب يدار على الكف وشراب

يكون في موجب لطف وروية كشف ، هناك شراب مادي وهناك شراب معنوي .

إذاً الرزاق هو الله عز وجل .

وأخيراً فما علاقتنا بهذا الاسم ؟ وهذه خلاصة مهمة جداً ، أولاً عليك أن ترضى بقسمة الرزاق بِدءاً من أمك وأبيك ، فأنت ابن فلان وفلانة ، هذا تقدير الله عز وجل .

عليك أخي المسلم أن ترضى بوالديك لأن هذا منتهى الحكمة ، ويجب أن ترضى بشكلك ، فالله أقامك بهذا الشكل ، طول زائد ، قصر ، وسامة ، دمامة ، صحة ، ضعف ، هكذا أقامك الله ، فإذا اعترضت على الله فلست مؤمناً ، يجب أن ترضى عن اختيار الله لك من أي رجل وامرأة كان وجودك ، وبأي شكل كان وجودك ، وأن ترضى عن رزقك وعن زوجتك ، فالله اختار لك هذه الزوجة ، أكثر الأشخاص غير المؤمنين يمضي كل حياته في عذاب ، يقول : ما توفقت في هذه الزوجة ، فالله اختارها لك ، علم فيك خيراً فضمها إليك لعلك تهديها إلى الله ، انظر إلى المؤمن عنده حسن ظن بالله ، لو أن الله ساق له ولداً سيئاً لا يتبرم ، يقول : إن الله عز وجل هكذا اختاره لي ، ولو كانت زوجه امرأة سيئة ، رضي باختيار الله له . . قال له أحدهم : طلقها ، قال : والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين .

هذا يعني أن ترضى عما رزقك الله .

والمعنى الثاني : أن تجعل يدك على مالك يد الرجل الأمين على مال الله ، وأن تجعل مالك خزانة ربك ، يدك على المال يد الأمانة لا يد الملك ، قال الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧] .

إذاً المعنى الأول من معاني الرزق أن ترضى بما قسمه الله لك ، وإذا رضيت بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس ، أما المعنى الثاني : فأن تجعل مالك مال ربك وأنت عليه أمين ، ولستَ مالكاً .

* * *

الفَتَّاحُ

فيما يلي نجتاز إلى ردهة أخرى فنستشف شفافيات اسم « الفتاح » .

الفتاح على وزن فعَّال ، وصيغة فعَّال من صيغ مبالغة اسم الفاعل ، وحينما يصاغ اسم الله عز وجل الفتاح أو أي اسم آخر ، صيغة مبالغة فالمعنى أن الله عز وجل يفتح كل الأبواب أو يفتح ما استعصى من الأبواب ، إما مبالغة تكثير أو مبالغة نوع فقد يستعصي باب على الخلق ، فالله سبحانه له ولغيره فتاح .

قد يصاب الإنسان بمرض عضال ، الأطباء جميعاً أعطوا قرارهم ، لا شفاء لهذا المرض ، لا أمل يرجى من هذا المريض ، لا بد أن يموت المريض بعد أيام ، ولا تُجدي معه العملية ، ولا ينفعه أن يسافر إلى بلاد الغرب ، ولا أن يفعل ، ولا أن يدع ، باب الشفاء أُغلق وأُرْتِج وأحكم الإغلاق ، وتواترت آراء الأطباء بذلك .

أعرفُ صديقاً لي أنجب مولوداً بولادة عَسِرة ، سحب الجنين من رحم الأم بآلة تستخدم في الولادة العسرة ، حينما وضع الجهاز على رأسه وسحب أصيب دماغه بخلل ، فصار هذا الطفل الصغير كلما مضى وقت قليل ينتفض ، فسأل صديقي هذا أول طبيب فقال له :

هذه إصابة بالدماغ ، ولابد أن يكون هذا الطفل مستقبلاً أعمى ، أو أبله أو مشلولاً ، قلنا : هذا الطبيب حديث عهد بالعلم ، فسألنا أشهر طبيب أطفال في دمشق يعرف برسوخ قدمه في مجال طب الأطفال ، فقال الكلام نفسه ، ما أضاف ولا أنقص ، سألنا طبيباً ثالثاً ورابعاً وخامساً ثم أُدخِل الطفل مستشفى الأطفال ، وآراء الأطباء وأقوالهم لم تتغير ، لأن الاختلاجات أساسها إصابة الدماغ ، وإصابة الدماغ لا شفاء منها ، لأن الخلية العصبية لا تنمو وهذه « قاعدة » طبية معروفة في عالَم الطب .

لو أن الأعصاب تنمو لمات الإنسان ألماً ، فمن رحمة الله بالإنسان المصاب بهذه الإصابة أن أعصابه لا تنمو ، فالأطباء جميعاً أجمعوا على أن هذا المولود قد يكبَر ويبقى أبله أو مشلولاً أو أعمى ، وصدقوني أن أباه كان يتمنى أن يموت طفله ، لأن موت الطفل الصغير أهون بكثير من أن يكبر على هذه الحالة ، ثم أُخِذَ إلى طبيب آخر ، وهذا الطبيب على شيء من الإيمان ، قال : لعل الله يشفيه ، فأجرى تخطيطاً للدماغ ، وأعطى الدواء وما هي إلا ستة أشهر حتى صار الطفل سوياً كغيره من الأطفال الأسوياء لا شيء يقلق في صحته ، والآن عمره .ـنا عشرة سنة ويتحرك ويلعب وهو متفوق في دراسته ، فهل في الأمر سرّ ؟ نعم : إن الله هو الفتاح ، لقد أغلقوا كل الأبواب ، وربنا عز وجل فتح باب الشفاء .

المعنى البسيط إما أنه يفتح كل باب ، يفتح لك باب الرزق ، يفتح لك باب العمل ، يفتح لك باب الزواج ، يفتح لك باب الراحة النفسية ، يفتح لك باب التوفيق ، يفتح لك باب الطمأنينة ، يفتح لك باب العمل الصالح ، يفتح لك باب الدعوة إلى الله . . أو أنَّ أحد

الأبواب التي استعصت على كل طبيب يفتحه الله عز وجل .

إذاً فتاح صيغة مبالغة اسم الفاعل الفاتح ، الفاتح والفتاح ، يفتح ما أغلق من الأبواب أو ما استعصى من الأبواب ، أو يفتح كل باب ، قال الله تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

يفتح باب رحمته ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، فإذا أمسك ليس في الأرض كلها قوة تستطيع أن تفتح ، وإذا فتح ليس في الأرض كلها قوة تستطيع أن تغلق ، قوى الأرض مجتمعةً ليس في إمكانها أن تفتح ما أغلقه الله ولا أن تغلق ما فتحه الله ، قال تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

إذاً الأمر بيد الله وحده ، وإذا أيقنت أن الأمر بيد الله وحده لا بد أن تتجه إليه ، هذه الآية تترك صدىً طيباً جداً في نفس المؤمن ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمْسِك لها ، علاقتك محصورة مع الله عز وجل ، ما سوى الله أشباح ، لا تستطيع أن تقدم ولا أن تؤخر ، إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق وهو النبي الرسول الذي يوحى إليه ، وهو أكرم الخلق على الله ، قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الأعراف : ١٨٨] قل لهم يا محمد : لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلأن لا يملك لغيره من باب أولى ، الله هو الفتاح .

كلمة يرددها الصالحون كلما التقوا بإنسان متوثب ، متفتح ، مندفع ، يقال لهذا الشاب : « **فتح الله عليك فتوح العارفين** » فهي كلمة متنوعة النتائج ، الله يفتح لك باب رزق ، الله يفتح لك باب علم ، الله يفتح لك باب كشف ، الله يفتح لك باب قرب ، الله يفتح لك باب رُقيّ ، الله هو الفتاح ، والكلمة الشهيرة « **فتح الله عليك يا ولدي فتوح العارفين** » .

الآية الأولى إذاً ، قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

الفتاح له معنى آخر مستنبط من قوله تعالى :

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

أحياناً الأمور تشتبك ، قوى تتصارع ، فلان يدَّعي أنه على حق ، وفلان يكيل التُّهم للآخرين بغير حساب ، الآخرون يكيلون له الصاع صاعين ، ترى الحياة صراعات وتبادل تهم ، تبادل تهاترات ، توزيع ألقاب سيئة أو راقية ، هذا يقول : الشيخ الفلاني سلطان العارفين ، وأولئكِ يقولون : هو الشيخ الأكفر ، فمن هو الحَكَم ، رجل عالم جليل عارف بالله ، بعضهم وصفه بأنه سلطان العارفين ، وبعضهم الآخر في الطرف المقابل وصفه بأنه الشيخ الأكفر ، فمن هو الحَكَم ؟ من عنده قول الحق ؟ من الذي يعرف حقيقة هذا الإنسان بالضبط ؟ الله عز وجل ، فمعنى الفَتْح هنا معنى آخر معنى الحُكْم ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾ .

يعني كلٌّ يدعي أنه على حق ، كلٌّ يكيل للطرف الآخر التُّهم ، هو

مؤمن والآخرون كفار ، هو مستقيم والآخرون منحرفون ، هو قريب والآخرون ضالون ، هذا على مستوى دين واحد ، أما على المستوى الأرحب فكل دين يتهم الأديان الأخرى بأنها أديان ليست من عند الله ، أو أديان منحرفة ، واللادينيون يتهمون أصحاب الأديان بالتخريف والغيبية والضعف ، الدينيون يتهمون غير الدينيين بأنهم كذا وكذا ، فمن هو الحَكَم ، مَن صاحب الكلمة الفاصلة ؟ من هو الذي يقول أنتم على حق وأنتم على ضلال ؟ الله عز وجل هو الفتاح ، هذا المعنى الثاني مستنبط من قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .

ما علاقتك بهذا المعنى من هذا الاسم ، فإن كنت على حق فلا تخف لأن الله هو الفتاح ، قد يقول الناس عنك الأقاويل ، قد يتهمونك بتهم لا أساس لها من الصحة ، إذا كنت على حق لا تخف ، ولا تنس قوله تعالى :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل : ٧٩] .

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

إذا آمنت أن الله هو الفتاح وهو الحكم ، هو الذي يرفع ويخفض ، هو الذي يكشف الحقائق هو الذي يُجَلي الأمور ، هو الذي يزيل الالتباس ، هو الله عز وجل الذي بيده الخير كله ، إذا آمنت بأنه هو الفتاح فلا تقلق ، ولو أن الناس أساؤوا فهمَك ، ولو أن الناس أساؤوا الظن بك ، ولو أنهم اتهموك تهماً باطلة لأسباب تافهة ، لا تخف ، من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس فيه .

ما الذي يُقلق الإنسان في زمننا هذا ؟ يقلقه أنه متمزق بين جهات

عديدة ؛ تصور ؛ موظف في شركة بل في معمل له عشرة أرباب عمل ، شركة فيها عشرة شركاء في معمل كبير وهو موظف عندهم ، ولو أن هؤلاء الشركاء متفقون متفاهمون ، فعلى الرغم من ذلك فكل شريك سيعطي هذا الموظف أمراً مناقضاً للآخر ، الأول تعال ، الثاني اذهب ، الأول كن غداً في المكتب ، الثاني سافِر ، الأول تأخَّرْ بعد الغداء ، الثاني تعال بعد الظهر واذهبْ باكراً ، هذا إذا كانوا متفاهمين ، فكيف إذا كانوا متخاصمين ، فكيف إذا كانوا شركاء متشاكسين ، فالحياة عندئذٍ لا تطاق .

الإنسان المشرك أو غير المؤمن أو ضعيف الإيمان حياته ممزقة ، كذلك الموظف الذي مر بنا فهو بين أن يُرضي رئيسه وبين أن يُرضي مرؤوسه ، بين أن يُرضي زوجته ، إن أرضى من حوله في العمل تغضب امرأته ، وإن أرضاها يغضب شركاؤه ، وإن أرضى جيرانه يغضب الله عز وجل ، وإن امتنع عن حضور هذه الحفلة أغضب أقرباءه ، حياة كلها تعب ونصب وهو مشتت ، لكن المؤمن يعلم أن الفتاح هو الله ، هو الحكم ، إذا أرضى جهة واحدة استراح « **من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله الهموم كلها ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك** » ، ولا تنسوا قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

أحد أكبر عذابات النفس أن تشرك بالله ، أن تدعوَ مع الله إلهاً آخر ، ليس معنى أن تدعو مع الله إلهاً آخر أن تقول : فلان هذاإله ، بل أن تعامله كما تعامل الإله ، أن تعتمد عليه ، أن تتكل عليه ، أن

تُعلّق عليه الآمال ، أن تطيعه وتعصي خالق الأكوان ، هذا معناه أنك اتخذته إلهاً .

المعنى الأول : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ الأبواب المغلقة كثيرة ، قد يقال لك : الأبواب كلها مغلقة ، الطرق كلها غير سالكة ، كلما اتجهتُ إلى جهة أُغلق الباب في وجهي ، هذا تعبير يستعمله عامة الناس ، من هو الفتاح ؟ هو الذي يفتح لك الأبواب المغلقة أو الأبواب المستعصية ، أو الأبواب الكثيرة إنه الله الفتاح ، وحينما يَطْهُر الإنسان ، حينما تصبح سريرته سليمة ، حينما يستحق الإكرام تأتيه الدنيا وهي راغمة ، والأثر القدسي « **خلقت لك السموات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً** » .

إذا كنت في المستوى الذي يستحق الإكرام ، إذا سرت في موجبات رحمة الله عز وجل تأتيك الدنيا وهي راغمة ، لذلك هذا الحديث الذي رواه ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه :

قَالَ خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ بِنِصْفِ النَّهَارِ قُلْتُ : مَا بَعَثَ إِلَيْهِ هَذِهِ السَّاعَةَ إلا لِشَيْءٍ سَأَلَ عَنْهُ ، فَسَأَلْتُهُ ، فَقَالَ : سَأَلَنَا عَنْ أَشْيَاءَ سَمِعْنَاهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ

الدُّنْيَا إلا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » .

ما تعلق أحد بحب الدنيا إلا أُصيب منها بثلاث ، شغل لا ينفكُّ عناه ، وأمل لا يُدرَك منتهاه ، وفقر لا يُدرك غناه ، لكن حال المؤمن كما قال الله :

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : ٣] .

متاع المؤمن متاع حسن ، تلفّه راحة نفسية تامة ، ولديه أمل بجنة عرضها السموات والأرض ، ولكن متاع الكافر كله قلق ، ينوبه شعور بالمستقبل المجهول ، شعور قاتل بأنه مُقدِم على مجهول ، ولا سيما الموت المتربص به ، قال الله عز وجل حينما سمع دعاء إبراهيم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ البقرة : ١٢٦] .

أجابه ربنا : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ما الفرق إذاً بين متاع المؤمن ومتاع الكافر ؟ متاع المؤمن تتخلله راحة نفسية يمازجها شعور بأن الله عز وجل ادَّخر له نعيماً كبيراً في الآخرة ، أما الكافر فإنه وفي قمة استمتاعه في الدنيا يشعر بقلق من مجهول أقله الموت ، أقله أن تسلب منه هذه النعمة ، لذلك الدعاء الذي أدعو به وأكرر : **« اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء ومن شماتة الأعداء ومن السلب بعد العطاء »** قاصمة الظهر أن يسلب منك شيء قد نلته من الله عز وجل ، فالله عز وجل ، من إكرامه

للمؤمن يجعل خير عمره آخره ، يتعبه في أول حياته ولكن يريحه في آخره ، أما أهل الدنيا فيُعزُّهم في مقتبل حياتهم ثم يأتي العِقاب والذل والهوان والفقر .

« اللهم! اجعل خير عمري آخره اللهم! اجعل خواتيم رضوانك ، اللهم! اجعل خير أيامي يوم ألقاك » .

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وبعد فما علاقتك بهذا الاسم ؟ هذه الآية لابد للمؤمن أن يفهمها كما أراد الله عز وجل ، فلو أنه قال : ومفاتح الغيب عنده ، هل تغير المعنى ؟ هو سبحانه قال : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ ، هل يستفاد معنى آخر من تقديم عنده ؟ نعم ، فلو قال : ومفاتح الغيب عنده ، فقد تكون عند غيره أيضاً ، أما إذا قال : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ فالتقديم فيه قصر ، فالغيب لا يعلمه إلا الله ، وعنده مفاتح الغيب وحده والعوام يقولون كلمة صحيحة : **« الذي عند الله ليس عند العبد »** ، مرَّ وقت قال الناس فيه : انحبست الأمطار ، جفاف دائم ، ففي العام الحالي بعض ضفاف نهر بردى زرعت ، والناس في الغوطة استيأسوا من أن ترجع هذه الأنهار متدفقة كعادتها ، فهم في جفاف مستمر ، فجأة تدفق نهر بردى بشكل كبير وبكميات دافقة ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ

مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ والناس خاب ظنهم ، فلو قال الطبيب : لم يبق هناك أمل في المريض ، فلا تصدق ، وقل :

إن الطبيـب لـه علـم يـدل بـه   إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته   حـار الطبيـب وخـانتـه العقـاقيـر

على حسب عمر الإنسان ، فإذا انتهى عمره وقال الطبيب : لا يوجد أمل ، فلا أمل فيه فلا أمل حقاً ، أما إذا كان هناك بقية في حياته فقد أخطأ الطبيب .

أذكر طبيباً قال عن مريض : بعد أربع ساعات ينتهي عمره ، اشترى أهله السواد وكتبوا النعي ، ثم شفاه الله عز وجل ، هذا الإنسان عاش ثلاثين سنة بعدها والطبيب مات بعد اثني عشر عاماً ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ، ليس من باب التكذيب ، لا ، ولكن الطبيب يتكلم بحسب علمه ، أما ما سيكون فلا يعلمه إلا الله عز وجل ، فمثلاً : هناك بلاد بالشرق آمنة مطمئنة رخاء مال ، بترول ، غنى ، من يصدق أنها مع رخائها تلتهب فيها نيران الحروب ، ليس هذا في الحسبان .

لبنان في عام ١٩٧٤ كان جنة الله في الأرض ، الأمن والرخاء والبذخ والترف ، كل ما في العالم في هذا البلد ، من يصدق أن الدمار يغطيه والذين زاروه يصفونه بأنه صار قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ هناك تفسيرات إلهية ، نحن نفهم التفسيرات الأرضية ، على أنها صراع ، حرب أهلية ، مشكلة عربية ، دولية ولكن هناك فهماً دينياً آخر ، قال الله تعالى :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل : ١١٢] .

دائماً اعتمد التفسير القرآني للأحداث ، هناك تفسير أرضي معين ، هناك تفسير من زاوية معينة ، تفسير عربي ، تفسير دولي ، هناك تفسيرات كثيرة جداً ، حتى هناك تفسير نسائي لأحداث لبنان ، قلن « **أصابتها عين** » فالصواب أن تعتمد التفسير الديني ، قال الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ .

لبنان وغير لبنان ، شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً . ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هذه الآية إذا فهمتَها تكذِّب الدجالين ، والكهان ، والسحرة ، والمنجمين ، والأفاكين ، تسمع في هذا العصر أنه في كل بلد متقدم جداً هناك فلكيٌّ أو عرّافٌ يأتيه كبار الشخصيات يسألونه عن مستقبلهم المالي مثلاً ، أو الإداري أو السياسي ، فلو قرؤوا هذه الآية لامتنعوا عنهم وعلموا كذبهم .

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ .

انتهى الأمر ، ووضحت الرؤية ، فلمجرد أن تسأل إنساناً عن الغيب فأنت لا تعرف الله ، ولمجرد أن تطرح سؤالاً على كاهن ، تأكد

أنك لا تعرف الله ، والدليل قوله عليه الصلاة والسلام « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » [رواه الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] ، كل هذا القرآن بصدقه ، ووضوحه ، ورؤيته الصحيحة ، الصافية تتغافل عنه ، والله سبحانه يقول :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ٥٠].

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

﴿ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ [الجن : ٢٥_٢٧] .

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ هذا موقف الإنسان المؤمن ، هذه الآية خطيرة جداً ، قد تطالع مقالة تتحدث عن تنبؤات عام كذا من الأعوام الميلادية ؛ فتسمع بعض الصحفيين وبعض المفكرين يتنبؤون بما سيكون في المستقبل ، مثل هذه المقالات لا تقرأ لأنه ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ إلا إذا كان تنبؤاً لا من باب الجزم بل من باب التكهين حسب معطيات الحاضر ، كاحتمال أن العالم مقبل على أزمة معينة ، مقبل على كذا ، ولكن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، هذه الآية إذا فهمتها

استرحت من اللهاث حول سلبيات كثيرة واطمأنت نفسك .

قالوا : « **ما مضى فات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها** » ، أنت لا تملك إلا وقتك الحاضر ، في هذا الوقت بالذات بإمكانك أن تتوب .

كانت تحضر عندنا في جامع النابلسي أخت كريمة ، منذ ستة عشر عاماً ، ولها صهر بعيد عن الدين بُعداً شديداً ، بل إنه ينكر وجود الله عز وجل ، فكانت تدعو ابنتها أن تدعوَ زوجها لدرس المسجد ، وقد دعته لأكثر من عامين ، ليحضر ولو درساً واحداً لكن دون جدوى ، قال : ذات مرة دخلت ابنتها إلى الدرس ففرحت فرحاً شديداً ، قالت لها : أزوجك معك ؟ قالت : نعم ، كادت ألا تصدق ، هذا الرجل حضر درسين وبعدها أصابته أزمة قلبية ، ونقل إلى المستشفى على شكل إسعاف ، وهو على الحمالة ، قال لأولاده : كل شيء قلته لكم في الماضي باطل ، الحق هو ما جاء في القرآن... لا أنسى هذه الكلمات ، ربّى أولاده على شاكلته على أنه لا إله ، حضر درسين ووافته المنية ، وهو على فراش الموت قال لأولاده ، وله ولد مهندس ، قال : كل شيء قلته لكم باطل ، الحق هو ما جاء في القرآن ، نرجو الله أن يقبله ، ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ما مضى فات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها ، لماذا قال بعض العلماء : إن الحج على الفور ؟ ، من أين انطلقوا ؟ ، لأن الإنسان لا يعرف متى يموت ، ما دام الحج فرضاً على

المستطيع ، فحينما تصبح مستطيعاً يجب أن تحج ، لأن العمر ليس بيدك ، قال ﷺ :

« تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ ـ يَعْنِي : الْفَرِيضَةَ ـ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ ».

[رواه الإمام أحمد بسند حسن من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً]

أي ما يعرض له من مرض أو مشكلة ، أو موت مفاجىء . قال الله تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] .

كلمة فتح باللغة تعني أن هناك شيئاً مغلقاً ، فهل تقول لإنسان : افتح هذا الباب وهو مفتوح ؟! كلمة ليس لها معنى ، فأنت لا تقول : افتح إلا لما هو مغلق ، إن أُغلق باب بوجهك يجب أن تذكر اسم الفتاح ، حتى لو ضاعت مفاتيحك ، لو ضاعت محفظتك ، لو ضاع شيء ثمين .

حدثني أخ قال : كنت ذاهباً إلى ميناء اللاذقية لتخليص بضاعة ، ومعي مستندات كثيرة جداً ، وهناك أشخاص كلفوني بإيصال مستندات لهم إلى بعض الموظفين في الميناء ، محفظة كلها مستندات ، ذهبت إلى مركز انطلاق المركبات لأركب ، تفقدت هذه المحفظة الممتلئة بهذه المستندات لبضاعة وصلت إلى اللاذقية فلم أجدها ، أقسم بالله ؛ إن الدم جف في عروقه ، قال : اصفرَّ وجهي ، بضائع بالملايين له ولزملائه ، قال : وقفت على مدخل المركز وأدعو يا فتاح ، قال : وقفت ساعة كاملة لا أجد عندي حلاً ، وألغيت سفري ، فما عدت أذكر السيارة التي أقلتني إلى المركز ، ثم بدعاء شديد ، وبدعاء فيه

إلحاح ، وقفت أمامي سيارة ، فقلت لنفسي : أذهب ماشياً على الأقدام ولا أريد الركوب ، قال له السائق : ألست الذي ركبت معي قبل قليل ؟ ثم قال : خذ هذه المحفظة فهي لك ، ببركة الدعاء ، عادت المحفظة ، هو لم يعد يتذكر في أية سيارة ركب ، ولكن السائق بيد الله عز وجل ، وإذا أراد الله عز وجل للسائق أن يعود يلهمه العودة ، ويلقي عطفاً في قلبه ، أو يلقي فيه خوفاً منه ، قال لي بعد ساعة ، وقفت أمامي السيارة ، وظننتها تعرض علي الركوب ، فأشرت للسائق أن اذهب ، لكنه قال لي : ألست الذي ركب معي قبل ساعة ؟ قلت له : بلى . أليست هذه محفظتك ؟ فتلقفتها منه وكدت أطير فرحاً ، وعدت إلى الحياة من جديد .

إذاً فكلمة فتح تعني هناك شيئاً مغلقاً ، وفاتح اسم فاعل ، فتاح صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، صيغة مبالغة لِلْكَم والعدد ، للكم والنوع ، فقضية مستعصية جداً تدعو بيا فتاح يا عليم ، أبواب كثيرة ، يا فتاح يا عليم . ومنه قوله تعالى :

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ [القمر : ١١] .

يعني أنها كانت مغلقة ، يقولون في النشرة الجوية : منخفض متمركز في قبرص اتجاهه نحو القطر ، توقع هطول أمطار غزيرة ، تتلبد السماء بالغيوم ولا تنزل أمطار ، تعاد الكرة بعد يومين ، توقع هطول أمطار ، توقع هطول أمطار ، أسبوعاً أولاً ، أسبوعاً ثانياً ، وثالثاً ورابعاً ، مضى أيلول والتشرينين لم تنزل أمطار ، توقع هطول أمطار لا أمل بنزول أمطار ، ومن بعد توقع هطول أمطار بإذن الله ، وبعدها : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ ، يعني أن السماء مغلقة

ومفتاحها بيد الله عز وجل ، والفتح في الحرب الظَفر .

البلاد المفتوحة ، كانت مغلقة محصنة ، جيوش ، قوى ، فتحت الأبواب كلها فتحت للمسلمين ، أصبحت بلاداً إسلامية ، هذه البلاد كانت محتلة من قبل الرومان ففتحت للمسلمين .

كذلك من معاني الفتاح ، هو الحاكم بين الخلق ، لأنه كلما استغلق أمر خلافي بينهم يفتحه الله عز وجل .

ولدينا معنى آخر لكلمة فتح ، هناك فتحٌ لكبار المؤمنين ، أي أن المؤمن أحياناً يفتح الله عليه فيلقي في قلبه نوراً ، يلقي في قلبه معرفة ، وهذا ما يسميه بعض العلماء الكشف ، يكشف الله عن بصيرته ، يرى الحق حقاً والباطل باطلاً ، يسميه علماء آخرون الإراءة ، قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

أحياناً تشعر أنك لم تكن ترى فأصبحت ترى ، رؤيا قلبية ، أحياناً يرى الإنسان أن مع الكذب تروج تجارته ويربح الكثير فهذا أعمى البصيرة ، إلى أن يرى أن الصدق وحده هو الذي ينجيه ، هذه رؤيا قلبية ، يرى أن الاستقامة في الحياة هي سبب الكرامة ، هذه رؤيا ، بعض الناس يكذب ويغش ويخدع ، ويظن نفسه ذكياً ، لأنه أعمى القلب ، فما هو الفتح بالمعنى الجديد ؟ الفتح أن يفتح الله على بصيرتك ، أن يكشف الله على بصيرتك ، أن يجعل بصيرتك صافيةً ترى بها الخير خيراً والشر شراً .

إذاً بعض العلماء قالوا : « الفتاح هو الذي فتح قلوب المؤمنين

بمعرفته ، وفتح على العاصين أبواب مغفرته ، فإن كان عاصياً فالله عز وجل يفتح له باب المغفرة ، وإن كان مؤمناً يفتح له باب معرفته » .

إذا سألت نفسك عما كنت عليه قبل خمس سنوات من الآن ، هل مشاعرك النفسية في المستوى ذاته أم صرت تشعر أن لك رؤية جديدة ولك الآن بصيرة نافذة ، لك إدراك أعمق ، لك قيم أمتن ؟ إن كنت تغيرت عما كنت عليه فهذا هو الفتح ، كلما كشف لك عن بعض الحقائق فقد فتح عليك ، إلى أن يفتح عليك الفتح المبين .

المؤمن يتفاوت مع المؤمن باليقظة والغفلة ، فهناك مؤمن أغلب وقته في غفلة ، مؤمن بالله ولكن في غفلة ، أما المؤمن الأرقى ، أكثر وقته مع الله عز وجل ، دائماً يدعوه ، يستعيذ به يرجوه ، يهتدي بهديه يستلهمه ، والله عز وجل يتجلى على قلبه ، يلقي في قلبه نوراً ، يلقي في قلبه معرفةً ، هذا معنى الفتح .

فالفتح يستخدمه العلماء كثيراً كأن يقولون : **« فتح الله عليك »** أو يقولون **« جاءه الفتح »** .

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر : ١] .

الكثير من العوام ، إذا فتح محلاً بشارع فيه رواج شديد مثلاً ، والبضاعة ألبسة نسائية ، والنساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، وعنده موظفون غارقون في المعاصي والآثام ، يكتب على محله التجاري :

﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [الفتح : ١] .

هذا هو الفتح ؟ أن تربح ، أن تبيع النساء الكاسيات العاريات ،

وأن تدير معهن أحاديث ماجنة تدعو إلى الزنى ، هذا هو الفتح المبين ؟ هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً .

الله عز وجل فتح للنبي ﷺ مكة المكرمة فتحاً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، هذا هو الفتح حقاً وحقيقة .

إذاً الفتاح الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته ، وفتح للعاصين أبواب مغفرته ، وقيل الفتاح : الذي يعينك في الشدائد وينيلك وجوه الزوائد ، يعينك في الشدة وفي الرخاء يرفعك ، يعطيك عطاءً زائداً ، إذاً هو فتاح .

بعضهم قال : الفتاح هو الذي يفتح أبواب الخير على عباده ، ويسهل عليهم ما كان صعباً ، هذا الفتح يكون تارة في أمور الدين ، يقول لك أحدهم : لديّ كتاب أقرؤه ، ولكني لا أفهم ما فيه ، صعب ، بعد حين يفتح الله على قلبه ، فيقرأ ويفهم ، يقرأ ويتعمق ، يقرأ ويستمتع ، يقرأ ويفقه ، يقرأ ويحفظ ، يقرأ ويتكلم ، فأجرى الله الحكمة على لسانه ، ولكنه سلك طريق العلم والتعلّم طبعاً ، أول الأمر يقول : هذا كتاب لا أفهمه كأنني أنحت في صخر ، ما هذا الكتاب ، أقرأ القرآن لا أفهمه أبداً ، أقرأ الحديث لا أفهمه ، ثم وافاه وقت آخر فبدأ يفهم وبدأ يتعمق وبدأ يطرح أسئلةً ، وبدأ يتلقى أجوبة ، بدأ يحفظ ، بدأ يتمتع ، بدأ يدعو .

إذاً فالله هو الفتاح ، يفتح عليك أبواب العلم ، يفتح عليك أبواب الحكمة فتنطلق على لسانك ، فإذا أخلصت لله أنطق الله لسانك بالحكمة ، فأول أنواع الفتح يفتح عليك في أمور الدين وهو العلم ، ويفتح عليك في أمور الدنيا ، تكون فقيراً فيغنيك ، تكون ضعيفاً

فيقويك ، تكون مظلوماً فينصرك على أعدائك ، تكون مكروباً فيزيل هذه الكربة ويحل محلها الفرحة ، لذلك فالإنسان إذا كان بعيداً عن الله عز وجل لا يمكن أن يسعد ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه : ١٢٤] .

إنه الانقباض ، سل أهل الدنيا ، سل أصحاب مئات الملايين ، سل من يهلكون ألوف الملايين ، سل من أوتي قوةً لا حدود لها ، من أوتي مالاً كمال قارون ، سلوهم أيها القرّاء الكرام ، أستحلفكم بالله ، قد يقولون : نحن أشقى الناس قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ .

ماذا يعني فتاح ، يفتح لك باب الأنس به ، يفتح لك باب الإقبال عليه ، يفتح لك باب الرضوان ، يفتح على قلبك باب الرضا ، ترضى أن تسكن في غرفة ونصف تحت الأرض ، وتقول الحمد لله ، وتدخل على رجل بيته خمسمئة متر ، ثمنه ثلاثون مليون ليرة ، يقول لك : السوق كاسدة ، وخسارة هذه السنة كذا مليون ، يعني تدنى مستوى أرباحه كذا مليون ، وعنده مال يكفي الأولاد والأحفاد ، تراه معكراً ، أما الفقير فقد فتح الله عليه باب الرضا ، فتح الله عليه باب السكينة باب الشكر ، الصحة طيبة والحمد لله ، أنا أسعد الناس ، وهذا الذي ما عرف الله عز وجل دائماً في ضيق وضنك وسخط على الله عز وجل ولو حاز الملايين .

إذاً يفتح لك باب الدين بفتح باب العلم على قلبك ، أو يفتح لك باب الغنى إن كنت فقيراً ، إن كنت ضعيفاً يفتح لك باب القوة ، وإن

كنت مريضاً يفتح لك باب الصحة ، إن كنت مكروباً يفتح لك باب الفرحة . قال بعض الشعراء : يا فاتحاً لي كل باب مرتَجِ ، « المرتج أي المغلق » الله عز وجل يفتح الأبواب المغلقة يفتح الأبواب المرتجة .

المؤيد في دين الله قال :

يا رب أنت المرتجي ومَن سواك أرتجي
أم هل سواك فاتح لكل باب مرتج

قيل : الفتاح هو الذي يفتح على النفوس باب توفيقه ، يجب أن تعلم أن في القرآن آية واحدة لا ثاني لها ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود : ٨٨] .

قال بعض العلماء : « لا يمكن أن يحدث شيء في الكون إلا بتوفيق الله تعالى » ، فحينما بنوا سفينة الفضاء : المتحدي ، أرادوا أن يجربوا تجربة فريدة ، أن يخرج إلى الفضاء الخارجي لمدة تسعة أشهر أو سنة سبعة رجال وامرأة كي تنجب المرأة وهي في الفضاء ، وأعدوا لكل شيء عدته ، ولكل جهاز في المركبة جهازان للمراقبة ، وقد ضبط الجهاز بعدّ تنازلي دقيق جداً وأطلقت المركبة إلى الفضاء وسماها أهل الدنيا المتحدي هذه المركبة بعد سبعين ثانية ، أصبحت كتلةً من اللهب ، فالله ما فتح عليهم ، أغلق دونهم باب التوفيق ، فلذلك ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ .

فإذا فتحتَ محلاً تجارياً ، أو أسست معملاً ، أو أسست مدرسة ، إن أزمعت الزواج ، فقُل : يا فتاح وتخلَّ عن ذاتك ، ولا تقل : أنا خبير سأستخدم كل خبرتي وسأستشير ، وسأسأل محامياً .

أعرف رجلاً ، متبرماً دائماً ، مشمئزاً دائماً ، جمع وطرح وضرب وانتهى رأيه إلى أنه إذا باع معمله ، وبيته ، ومحله التجاري في الحريقة بكذا مليون (القصة قديمة) ، ووضع ماله هذا في بنك في أوروبة والفائدة بالمئة ثمانية عشر ، يعيش في أوروبة ملكاً ، ثم نفّذ الخطة ، باع المحل وباع المعمل وباع البيت وباع السيارة ، ثم أخذ تأشيرة خروج ، وذهب إلى أرقى بلد في العالم ذهب إلى السويد ، في باله أن يضع الأموال بالبنك ويشتري بجزء منها بيتاً وسيارة فخمة ، ثم يعيشُ على فوائد المبلغ في بحبوحة ، فماذا جرى ؟ إن البنك يطلب وثائق معينة لوضع المبلغ لديه ، والمبلغ كبير جداً فوضعه باسم شخص آخر ، إما قريب له أو صديق له هناك ، وفي اليوم التالي سأله إعادة المبلغ ، قال له : مَن أنت ؟ لا أعرفك وأنكره ، كل ثروته ضاعت بساعات قضاها ، لتأمين وثيقة معينة ، وفي اليوم التالي أنكره ، فأين الذكاء ؟!

هذه أبقِها في بالك ، مع الله لا ينفع ذكاء قال ﷺ : « لا يغني حذر من قدر » ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل ، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ لن يقع شيء إلا بأمر الله .

علاقتك بهذا الاسم أن تسعى جاهداً كي يفتح الله على قلبك باب العلم ، والشيء الثاني أن تفتح أنت على العباد باب خيراتك ، لا تكن قابضاً ، ولتكن باسطاً .

* * *

العليم

الاسم هو اسم العليم ، قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

بادىء ذي بدء أسماء الله كلها حسنى ، وكل اسم قائم بذاته ، ومع ذلك فبعض الأسماء أكثر تأثيراً في نفوس العباد من بعض الأسماء الأخرى ، قال عز وجل :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

إذاً فربنا عز وجل اختار في معرض الخلق والتنزيل من بين أسمائه كلها اسمين : العليم والقدير ، لأن الإنسان لن يستقيم على أمر الله إلا إذا أيقن أن علم الله يطوله ، وأن قدرته تطوله ، واسم العليم مهم جداً في طريق الإيمان ، لأنك إذا أيقنت أن الله يعلم ظواهر الأمور وبواطنها ، يعلم سرك وجهرك ، يراك في خلوتك ، وفي جلوتك ، في حضرك وفي سفرك ، يعلم نياتك كلها ، يعلم ما يدور في خلدك ، ما يجري في نفسك ، ما تتمناه ، وما تصبو إليه ، وما تشتهيه ، إذا أيقنت أن الله يعلم لزمت جانب الاستقامة .

إذاً أكثر أسماء الله الحسنى تأثيراً في استقامتك اسم العليم ، وأكثر

أسماء الله الحسنى تأثيراً في استقامتك اسم القدير ، والآية الكريمة تؤكد هذا المعنى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴾ .

من تعاريف العلم أن تكون هناك علاقةٌ ثابتةٌ بين شيئين ، مقطوع بصحتها ، عليها دليل ، مطابقة للواقع ، لكن علم الله عز وجل يختلف اختلافاً كلياً عن علم البشر ، فالله سبحانه وتعالى محيط بكل شيءٍ علماً ، في ظاهر الأشياء وفي بواطنها ، في دقيقها وفي جليلها ، في أولها وفي آخرها ، في فاتحتها وفي عاقبتها ، ومع ذلك فعلم الله عز وجل من طبيعة أخرى .

أضرب مثلاً موضحاً : لو أن رجلاً عبقرياً اخترع آلة ، وجاءت من بعده أجيال ودرسوا هذه الآلة ، وعرفوا دقائق صنعها ، واكتشفوا العلاقات فيما بين أجزائها ، واكتشفوا القوانين التي على أساسها بنيت هذه الآلة ، فعلم الجيل اللاحق يختلف عن علم العبقري الذي اخترع الآلة ، فعلم المخترع هو سبب وجود الآلة ، علم المخترع سبق الآلة ، لكن علم الدارس جاء بعد وجود الآلة وجاء استنباطاً من دقائقها ، هذا المثل ضربه الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه (إحياء علوم الدين) ، فأنت علمك مستنبط من الوجود ، من القواعد التي قعدها الله ، من القوانين التي قننها الله ، من السنن التي سنها الله ، من الخصائص التي خص الله بها الأشياء ، علم البشر مكتَسَب ، مكتسب من الوجود ، من قوانينه من قواعده ، من سننه ، من علاقاته الثابتة ، من خصائص الأشياء ، لكن علم الله هو الذي قنن القوانين ، هو الذي خصص الأشياء بخصائصها ، هو الذي سنن السنن ، ففرق كبير بين أن تكتشف علاقةً ثابتة بين أشياء موجودة ،

وبين أن تخلقها خلقاً من عدم ، هذا هو الفرق. . . ! فعلم البشر لاحِقٌ للوجود ، كسبي ، وعلم خالق البشر سابِق للوجود وسببي .

وهذا مثل آخر : حينما أنشأ مهندس في العصور القديمة جسراً ، فلما جاء الصيف تصدع هذا الجسر ، ذلك لأن الحديد تمدد ، إذاً منذ استنبطوا أن هذا الحديد يتمدد بالحرارة ، واكتشفوا قانون التمدد بالحرارة ، صاروا في المراحل القادمة إذا أقاموا جسراً أو أنشؤوا بناء يتركون فواصِل تمدد ، فنقول : علم البشر كسبي وعلم الله قديم .

وضعوا وقوداً سائلاً في شاحنة ، هذا الوقود خاص بالطائرات ، فلما سارت هذه الشاحنة تحت الشمس المحرقة ، اشتعل هذا الوقود بفعل الشمس المحرقة ، إذاً هذا الوقود يمكن أن يشتعل دون أن تمسه النار بفعل حرارة الشمس الملتهبة ، لذلك صنعوا لهذه الشاحنة التي تحمل الوقود السائل الخاص بالطائرات طبقة ثانية لتكون عازلاً لحرارة الشمس. . فعلم البشر إذاً مكتسب. . . !

إنَّ كل حقيقة وصل الإنسان إليها ، إنما هي عن طريق التجارب ، وعن طريق الخطأ والصواب ، وأكبر دليل أنك إذا دخلت معرض سيارات وتأملت سيارة صنعت عام ألف وتسعمئة واثني عشر ، ووازنت بينها بين سيارة صنعت في عام ألفين ، ترى البون شاسعاً ؛ العجلات دون هواء ، الإضاءة بالفوانيس ، علبة تبديل السرعة غير موجودة ، سرعة واحدة للمركبة ، تشغيل المركبة القديمة من أمامها « بالمناويل » وازن بين مركبةٍ صنعت قبل مئة عام تقريباً وبين مركبة صنعت قبل عام ، تتيقن أن علم البشر علم كسبي ، ولكن علم الله علم أزلي .

إذاً فالعلم هو سبب وجود الأشياء ، لكن تعلَّق علمه سبحانه وتعلقت إرادته ، وتعلقت قدرته بهذا الشيء فكان ، إذاً علمه سبق هذا الشيء ، بل إن علمه سبب لوجود هذا الشيء ، أما علم البشر فلاحقٌ للوجود . . هناك جبال وهناك أنهار وهناك بحيرات ، عرفنا خصائص المياه عرفنا خصائص الهواء ، صنعنا الطائرة وفق خصائص الهواء ، صُنعت الباخرة وفق قانون أرخميدس المعروف . . إذاً كل علم الإنسان وكل معلوماته مستنبط من القواعد التي قعَّدها الله ومن القوانين التي قنَّنها الله ، ومن السنن التي سنها الله ، ومن العلاقات الثابتة التي ثبتها الله ، ومن الخصائص التي خص الله بها الأشياء ، إذاً يجب أن تتيقن أنه من الخطأ الفاحش أن تظن أن علم الله كعلمنا .

أنت ـ بوصفك إنساناً ـ يحكمك المكان والزمان ، أنت وسط المكان والزمان تتحرك على أرضٍ من مكان ، وفي ظرفٍ من زمان ، أنت يغلّفك المكان والزمان ، لكن الله عز وجل ، خالق المكان والزمان ، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم مالم يكن لو كان كيف كان يكون . . . هذه واحدة .

أردنا أن نبين الفرق الجوهري بين علم الإنسان وبين علم الرحمن ، علم الله قديم ، علم يُعدُّ سبب وجود الأشياء ، تعلق علمه وإرادته وقدرته بوجود هذا الشيء فكان هذا الشيء ، وتعلق علمه وإرادته وقدرته بتخصيص هذا الشيء على شكل معين فكان هذا الشيء على شكل معين ، وما القضاء والقدر في حقيقته إلا أن علم الله تعلق بشيء فكان كما أراد الله عز وجل .

في الحقيقة إن هذا الموضوع موضوع واسع جداً ولا يعقل أن

تكفيه صفحات قليلة لتوضيحه ، فكل هذا الكون أثر من علم الله عز وجل ، فأنت إذا اطَّلعت أو قرأت أو تأملت في المركبة الفضائية التي صنعها الإنسان ووصل بها إلى القمر ، هل تصدق أن علم البشر كله منذ أن وجد علم على أرض البشر ، قد ساهم هذا العلم كله في صنع هذه المركبة ، كيف عرفوا أن هذه المركبة يجب أن تنطلق بسرعة كافيةٍ كي تتفلّت من الجاذبية الأرضية ، وكيف درسوا حركة القمر ، وأن هذه المركبة يجب أن تنطلق بزاويةٍ مدروسةٍ دراسة ساهمت فيها أجل عقول علماء الرياضيات بحيث تصل إلى القمر في مكانه الجديد بعد أيام ثلاثة ، وهي المدة التي استغرقتها المركبة في الوصول إلى القمر إذاً هناك علم الفلك وعلم الرياضيات وكذلك درست شروط الحياة على سطح الأرض ومدى توافر كل هذه الشروط على سطح القمر. . البزة التي ارتداها رجال الفضاء كلفت ستة عشر مليون دولار ، كي توفر لهم الضغط المناسب والهواء وضخ الهواء ليتكلموا ، طبعاً لا أذكُر هذه التفصيلات إلا لأبينَ أنك إذا رأيت مركبة انطلقت من الأرض ووصلت إلى القمر ، فيجب أن تعلم علم اليقين أن علم الرياضيات منذ أن وجد وفي أرقى تطوراته أسهم في إيصال هذه المركبة إلى القمر ، وأنّ علم الفيزياء في أعلى تطوراته : **« النظرية النسبية والفضاء الأحدب والخطوط المنحنية ، والسرعة والتسارع والجاذبية »** كلها ساهمت في إيصال هذه المركبة إلى القمر ، وعلم الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء وعلم الفيزيولوجيا ، وعلم الطب : **« الضغط المناسب وضربات القلب المناسبة ، الأوعية المناسبة »** ، وكيف أن هذا الإنسان يعيش في جو انعدمت فيه الجاذبية ، وهذا شيء يمكننا أن ندرسه في هذا البحث إلى حدٍّ معين

فقط ، يمكننا من أن نعلم أن مركبة الفضاء تشف عن علم كبير جداً هو علم عباقرة البشر كلهم مجتمعين في أعلى مستوى .

وإذا رأيت حقلاً من النفط وسط بحر الشمال اكتُشف ، قد تسأل : كيف اكتُشف هذا الحقل ؟ بأي جهاز وعلى أي مبدأ ؟ أعلى مبدأ الليزر أم على مبدأ المغناطيس ، أم على مبدأ الموجات ، على أي مبدأ ؟ وحينما اكتشف هذا الحقل في قعر بحر الشمال كيف وصلوا إليه ؟ . . كيف غطسوا في الماء خمسة آلاف متر ؟ . . وكيف وصلوا إلى أرض البحر ، وكيف حفروا خمسة آلاف متر أخرى ؟ . . وكيف لم يدخل هذا الماء المالح في البئر ، وكيف أنزلوا هذه المواسير وهذه الأنابيب ، وكيف أفرغوا ماء البحر من هذه الأنابيب ، وكيف حقنوا الإسمنت السائل ، ألا تشعر أن هؤلاء الذين أنشؤوا منصةً على بحر الشمال ، تهبط عليها طائرات هليوكبتر وفيها شبه مدينة ؛ بيوت ومكاتب وإدارات كلها عائمة على سطح مياه البحر ، ودرسوا تلاطم الأمواج وارتفاع الأمواج وعمق الأمواج ، وتيارات البحر والملوحة وعلاقة الحديد بالملوحة ، ومع ذلك في ليلةٍ عاصفةٍ هبت أمواجٌ عاتيةٌ فحطمت هذه القاعدة ، إذاً الدراسة غير كافية .

تصنع طائرة فتسقط بلا سبب ، إذاً لابد من خلل في صنعها ، ضربت هذين المثلين ليكون لك أيها القارىء الكريم منفذاً يوصلك إلى أن تتبصّر في علم الله الخالق المبدع للكون ، قد تجد مثلاً ساعة صغيرةً مبرمجةً لمئتي عام تشعرك بأوقات الصلوات الخمس في أي بلد تشاء . . أنت في دمشق تضبطها على دمشق ، فإذا هي تشعرك وقت صلاة الصبح وصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وقد برمجت لمئتي عام وعلى مستوى مدن العالم ولا يزيد حجمها على حجم

الساعة التي تضعونها على معاصمكم ، ألا تشعر أن الذي صنعها على مستوى رفيع جداً من العلم .

أطلعني أخٌ على جهاز كمبيوتر صغير بحجم الكف ، فيه خمسة وثلاثون ألف معلومة ، يتسع لعشرة آلاف رقم هاتف ، ولخمسة وثلاثين ألف معلومة وعنوان ، ولك أن تستدعي هذه الأرقام بأقل من لمح البصر بحركة واحدة ، إذا ضغطت على أول حرف من اسم الشخص الذي تبحث عن رقم هاتفه يظهر على الشاشة ، ألا تشعر بقدرة العقل* البشري الذي هو بعض خلق الله سبحانه [ما أردت من هذه الأمثلة أن ألفت النظر إلى صناع البشر وإلى المخترعين بل إلى الله الذي خلق وأبدع] ، إن أعظم جهاز تطّلع عليه وأعظم آلة تطلع عليها ، ويقولون لك : هذه آلة تعمل ذاتياً ، هذه الآلة الإلكترونية ، هذا المجهر الإلكتروني يُكبِّر خمسة آلاف مرة ، ترى النملة الصغيرة وكأنها فيل كبير ، ترى المسام في الجلد وكأنها كهوف ، ترى قطعة من جلد الإنسان وكأنها غابات الأمازون ، هذا التكبير خمسة آلاف مرة ، هذا الحاسوب المعقد الذي فيه خمسمئة ألف مليون معلومة ، فانظر إلى ما تراه من وراء هذه الأجهزة ، لترى القدرة الأولى ومن ثَم تعرف من هو الله .

أحد الإخوة الأكارم أطلعني قديماً على كمبيوتر ـ أصبح اليوم في معظم البيوتات ـ سجِّل فيه القرآن الكريم ، وقال لي : سَلْه أيَّ سؤال يحلو لك ، سألته كم مرة وردت : ﴿لكم﴾ ؟ ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ ، فأجابني فوراً أنها وردت مئة وثماني عشرة مرة ، فسألته : أين الآيات ؟ فجاءت الآيات وراء بعضها بعضاً ، أتحب أن تطبعها بنفسك ؟ بضغطة زر تطبعها على ورق.. سألته : ما هو أكثر حرف تكرر في سورة ﴿ق﴾ ؟ وكنت أظن أنها القاف ، فكان الجواب :

لا ، ليس القاف ، كله ديسك لا يزيد على حجم الكف ، فأنت أمام كمبيوتر ، أمام حاسوب ، أمام منصة نفط أمام طائرة ، أمام مركبة فضاء. . تدهش . !! .

هل تصدق أن كل هذه الآلات وكل هذه المخترعات لا يمكن أن تكون إلا شيئاً بدائياً جداً أمام جسمك ، فهذا الدماغ أربعة عشر مليار خلية ، خلية قشرية ، فيها المحاكمة والتصور والتذكر والتخيل ، فيها السمع والبصر والحس باللمس والضغط ، فإذا ذهبتُ أتحدث عن جسم الإنسان ؛ سيرى القارىء أن أعقد آلة صنعت لا ترقى إلى أن تكون آلة بدائية أمام هذا الجسم البشري .

فأنت أمام آلة صغيرة قد تعظم الآلة لصغر حجمها ولعظم مفعولها وقد تعظم الآلة لضخامة كتلتها ، ألم تَشْدَه لمجرة تبعد عن الأرض ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية ، وأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلومتر ؟ ، ألا تشده حينما تعلم أن في رأسك ثلاثمئة ألف شعرة ؟ وأن لكل شعرة عصباً ووريداً وشرياناً وغدة دهنية وغدة صبغية ؟ ألا تُدهش إذا علمت أن في الدماغ مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد ؟ ألا تدهش إذا علمت أن في الشبكية مئة وثلاثين مليون مخروط وعصية ، وأن العصب البصري يمر فيه تسعمئة ألف عصب ، وكذلك بالدماغ ، بالأعصاب ، القلب الذي يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة دون كلل أو ملل ، الكليتان اللتان يمر فيهما الدم في اليوم خمس مرات ويقطع مئة كيلومتر ، في الغدة النخامية التي إذا رأت خطراً أعطت أمراً إلى الكظر ، والكظر يصدر أربعة أوامر ، أمراً إلى القلب ليسرع في نبضه ، وأمراً إلى الرئتين لتسرعا في وجيبهما ، وأمراً إلى الأوعية كلها كي تضيّق لمعتها ويتوفر

الدم للحركة والهجوم ، والى الكبد كي يطلق كميات السكر في الأوعية .

هل اطلعت على تركيب جسمك ؟ فجسم الإنسان يتفق مع أحدث نظريات الميكانيك ، هل تعلم أن عنق الفخذ يتحمل وزناً يزيد على مئتين وخمسين كيلواً لكل عظم ، الإنسان بإمكانه أن يتحمل خمسمئة كيلو قبل أن تنكسر عظامه ، ولو ذهبت ساعات طويلة أتحدث عن جسم الإنسان لما وفيت الدراسة حقها ، ومثلها ساعات طويلة عن النبات ، فالورقة النباتية مثلاً قرأت عنها مرةً في كتاب والله اقشعر جلدي ، قال العلماء : إن أعظم معمل صنعه الإنسان لا يرقى إلى هذه الورقة الخضراء ، إنها معمل ، تأخذ ثمانية عشر معدناً محلولاً في الماء ، هذا النسغ الصاعد ، في الورقة مادة اليخضور ، في الورقة الفوتون الطاقة الشمسية ، في الورقة الآزوت ، في الورقة شلات الحديد ، مع هذا النسغ الصاعد تصنع الورقة النسغ النازل ، هذا النسغ يصنع الثمار ويصنع الأزهار .

هل عند الإنسان سائل يحقن فيكون خشباً ، ويحقن تارةً يكون حديداً ، وتارةً أخرى إسفنجاً ، أمعقول هذا ؟! السائل واحد والمواد مختلفة ، قرأت مرةً أن هذا النسغ الصاعد يجري في أوعية ، الشجرة إذا نَمَتْ عرضاً ربما ضاقت لمعة الأوعية فضعفت التروية ، إذاً هذه الأوعية مدعّمة بألياف حلزونية لئلا تضيق لمعتها إذا نمت الشجرة ، هذا في النبات .

ولنأخذ الطيور أيضاً : فالطائر يرى ثمانية أمثال الإنسان ، وكذلك لنأخذ الحيوان فبعض الكلاب تشم بدقة تزيد على مليون ضعف من شم الإنسان .

وماذا أقول عن الأسماك مليون نوع من السمك ؟!. . عن الحوت الذي يزيد وزنه على مئة وخمسين طناً ، فيه من اللحم ما يزيد عن خمسين طناً ، وفيه خمسون طناً من الدهن ، وفيه خمسون طناً نت العظم وفيه تسعون برميل زيت ، ورَضْعتُه الواحدة تزيد على ثلاثمئة كيلو ، ثلاث رضعات ، طن من الحليب في اليوم ، وجبته الصغيرة إذا كبر واشتد عوده أربعة أطنان .

ماذا أتحدث عن الأسماك الجميلة التي ترونها في أحواض الأسماك. . هذا كله علم الله عز وجل ، قوانين ، علاقات ، وأعمال دقيقة ، هذا الماء يتمدد بالحرارة ، شأنه شأن أي عنصر ، فما الذي يحدث إذا بردناه إلى درجة خمس عشرة ثم عشر ، ثم إلى أربع ؟!. . يحدث المستحيل ، تنعكس الآية .

قرأت مقالة في مجلة العلوم حول آلية عكس هذه الخاصة أن الماء قبل الدرجة زائد أربع يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة ، كيف تنعكس الآية عند هذه الدرجة ، والله قرأت هذه المقالة مرتين وشعرت بصداع في رأسي لتعقيد الموضوع ، مَن قنن هذا القانون ؟ كل حياة البشر مبنية على هذه الخاصة ، لو أن الماء استمر بانكماشه مع التبريد لانتهت الحياة من على سطح الأرض ، لأن البحار كلما تجمدت غاصت هذه الكتل المتجمدة إلى الأعماق ، ولأن الشيء عندما يتجمد وينكمش تزداد كثافته ، خلال فترة من الزمن تصبح البحار كلها متجمدة ، ينعدم التبخر ، تنعدم الأمطار ، يموت النبات ، يموت الحيوان ، يموت الإنسان .

فقبل أن يقول المتقولون : إن الله يعلم أو لا يعلم ، فهناك

موضوعات كثيرة جداً لابد من النظر فيها والحكم بموضوعية ، كل هذا الكون مظهر لعلم الله عز وجل ، أنا أردت أن أمثل بمنصة النفط في بحر الشمال فلو أنك زُرتها بطائرة ، وهبطتَ على سطحها لرأيت مدينة كاملة ؛ بيوت ، مكاتب ، أجهزة اتصال ، مطار ، وهذه منصة عائمة على سطح الماء ، والأنابيب تصل إلى خمسة آلاف متر ، وتحت سطح البحر إلى خمسة آلاف متر أخرى كيف وصلوا إلى النفط هناك وكيف ضخ هذا النفط ، ألا تشعر أنك أمام عقول جبارة صنعت هذه المنصة ؟

إن ركبت أكبر طائرة اختُرعت حتى الآن ألا تشعر أن هؤلاء الركاب الخمسمئة كأنهم في مدينة يجلسون في أحد مطاعمها والمقاعد وثيرة يأتيهم الطعام ساخناً وهم يحلقون فوق ارتفاع يزيد على ثلاثة وأربعين ألف قدم ، وكيف أن هذه الطائرة يحملها الهواء ، والهواء ترونه وتحسونه فهل بقدرته أن يحمل طائرة ؟ والسؤال هام ووجيه ، كم هي القوانين معقدة جداً في الطائرة ؟ ، نحن نتصور بسذاجة أن جناح الطائرة فيه بترول ، فيه الوقود اللازم ، فلو أن الجناح مجوف وفيه بترول كما تظن ، بمجرد أن تميل الطائرة كي تدور يميناً أو يساراً تسقط ، فلا بد من حواجز وسط هذا الجناح كثيرة جداً وثقوب صغيرة ومضخات تضخ البترول إلى الجهة المعاكسة ، وهذا الجناح يتعرض لبرودةٍ في أعالي الجو قدرها خمسون درجة تحت الصفر ، وهناك بخار ماء ، إذن يمكن أن تغطىٰ بطبقات من الجليد تسهم في سقوط الطائرة إذن لابد من جهاز تسخين للأجنحة لئلا يتراكم الجليد عليها .

مرةً جلست مع طيار حدثني عن دقائق الطائرة ، فدقة صنعها لا تكاد تصدق ، إذاً لتعلم أن هذه الطائرة وراءها عقل كبير ودماغ

عظيم وعلوم كثيرة ودقة متناهية ، فإذا كنت أمام طائرة شعرت بعظمة مخترعها ، كذلك وإن وقفت أمام باخرة ، يقال لك مثلاً : هذه الناقلة تحمل مليون طن فتصيبك الدهشة ، قوة محرك دفتها أربعة آلاف حصان ، تحريك الدفة فقط ، غير تحريك الناقلة ، فما قولك بهذا الكون ؟! قال تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٥ـ٧٦] .

هناك أشخاص مساكين ما عرفوا من علم الله عز وجل إلا أنه يعلم أو لا يعلم .

هذا الاسم العظيم الذي يمكن أن تمضي كل حياتك ، تحاول خلالها الوقوف على بعض دقائقه ، فتجد أن قدمك لم تلمس ماء بحر العلم بعد ، ولكن ضُغِط ذلك كله بكلمة واحدة : « عليم » .

سوف نبدأ إن شاء الله تعالى الحديث عن هذا الاسم في بعض التفصيلات ، وقبل كل شيء أذكر أن أسماء الله الحسنى توقيفية ، بمعنى أنه لا يجوز أن تشتق أنت اسماً لله من عندك ، فالله عز وجل مثلاً قال :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥] .

فلا يجوز أن تقول : إن الله كائد . .

ويقول : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . لا يجوز أن تقول : الله ماكر .

أسماء الله الحسنى توقيفية ، لا نذكر منها إلا ما ورد في الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة ، هل يجوز أن يقال : الله معلم ؟ لا . . هل يجوز أن يقال : الله علامة ؟ لا . . أعوذ بالله ، ما من أحد قال هذا الكلام ، أجمعت الأمة على أنه لا يجوز أن تقول : الله معلم ، مع أن الله قال : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم : ٥] ، ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء : ١١٣] ، علم يعلم معلم ، فلا يجوز أن تقول : الله معلم ، أجمعت الأمة على أن أسماء الله توقيفية ، لا يجوز أن تَذكر منها إلا ما ورد فيٌ الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة .

هل يجوز أن يقال : الله عارف ؟ لا ، ولا تقل أيضاً : الله يعرف ، لأن كلمة عارف ويعرف وعرف تعني أن قبل المعرفة جهل ، فمثلاً أقول : أنا عرفت الشيء بعد أن جهلته ، فكلمة يعرف يسبقها جهل ، لا يليق بالله عز وجل أن تقول هو يعرف ، بل هو يعلم ، لأن كلمة يعلم لا يسبقها جهل ، ليس قبل العلم جهل ، فالعلم قديم عند الله عز وجل .

هل تقول : الله فطن ؟ لا ، هل تقول : الله عاقل ؟ لا ، هل تقول : الله ذكي ؟ أعوذ بالله ، إذاً أسماء الله تعالى توقيفية لا يجوز أن تخترع اسماً ، ولا أن تشتق اسماً إلا أن يرد في الكتاب والسنة وتجمع عليه الأمة .

الفرق الدقيق جداً بين علم الله وعلم البشر أنّ علم الله سبحانه وتعالى بالأشياء غير مستفاد من الأشياء ، بل الأشياء مستفادة من علم الله ، وعلم العبد بالأشياء مستفاد من الأشياء .

أقول لكم هذه الكلمة : شرّف الله العبد العالم بسبب أن العليم

اسم من أسماء الله الحسنى ، تقول : إنسان عالم أو عليم أو علامة ، من أين جاءه الشرف ، لأن الله عليم ، أنا لا أقول : للإنسان اسم يشبهه حاشا لله ، ليس كمثله شيء ، لكن قل : الله عليم ، وهذا الإنسان عالم ، من هنا جاء شرف العلم ، إن الله عالم يحب كل عالم .

وبعد ، فها نحن بصدد سؤال يطرح نفسه : ما هي أشرف العلوم ، أو كيف تكتسب العلوم شرفها ؟

إذا كان عند أحد علم بطريقة كسر أقفال المحال ، هل تحس أن هذا العلم شريف ؟ لا ، فهذا سارق .

إذا كان عنده علم بوسائل تزوير العملة ، عنده أجهزة معقدة وآلات تصوير ملونة وورق خاص ، ودرس هذا الفن ، وعنده كتب وحضر دورات في هذا المجال ، فهل تُعظِّمُ هذا العلم ، تزوير العملة مثلاً ؟!

علم تهريب مخدرات مثلاً ، أعوذ بالله ، أحياناً يسلك المهربون في المخدرات أساليب وطرائق يعجز عن فهمها الأذكياء ، وقال لي بعضهم : إن كشف عملية تهريب المخدرات بنسبة عشرة بالمئة فقط ، ويكون ذلك مصادفة أو بإخبار ، لأن هؤلاء المهربين على مستوى رفيع جداً ، فهل تُعظِّمُ هذا العلم ؟ ، لا بل تحتقره .

فلان يعلم عن أمراض القلب أشياء كثيرة ، لأن الناس بحاجة إليه ، فأنت ترى أن هذا العلم مفيد ، فهو أعلى ، إذاً فمن أين يكتسب العلم شرفه ؟ من شرف المعلوم ، فكلما شرُف المعلوم شرُف العلم .

إذا كان عند أحد معلومات دقيقة عن المغنين والمغنيات ، وعن أوقات استيقاظهم ، وعن أوقات نومهم وعن مسَّاجهم ، وعن أغذيتهم ، وعن قضاء أيام عطلاتهم ، فهل تحترمه ؟!

أريد أن أؤكد أنه لا يرتفع العلم إلا إذا ارتفع المعلوم ، إذا اعتمدنا هذا المبدأ فما هو أعظم العلوم ؟ العلم بالله .

« **فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه** » [رواه الترمذي من حديث أبي سعيد] .

تعلمنا الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب والهندسة والفيزيولوجيا والمورفولوجيا و..إلخ ، وعرفنا الله ، هذه كلها مخلوقات ، والله هو الخالق ، إذاً أشرف علمٍ أن تعرف الله لأن شرف العلم من شرف المعلوم ولا موضوع للعلم أعظم من ذات الله عز وجل .

وبعد ، فأن تعرف الطريق الموصل إلى الله ، علم شريف ، أن تعرف أمر الله ، علم شريف ، أن تعرف الأحكام الشرعية التي استنبطت من القرآن ، علم شريف ، أن تعرف أمراض القلب وكيف يسمو هذا القلب إلى ربه ، هذا علم شريف ، إذاً أشرف العلوم أن تعرف الله ، ويليها في الدرجة العلوم الموصلة إلى الله .

ولتعلم من ثم أن في الكون حقيقة واحدة هي الله ، وأي شيء يوصلك إليه فشرفه من شرف غايته ، فإذا تعلمت العربية كي تفهم كلام الله بدقة ، فشرف هذا العلم مقتبسٌ من شرف الهدف النبيل .

نتابع الموضوع : الإمام الغزالي كما ذكرت من قبل قال : « **هناك علم بالله ، وعلم بأمره ، وعلم بخلقه** » ، العلم بأمره وبخلقه علمان

شأنهما كشأن أي علم ، يحتاجان إلى مدارسة وكتب وإلقاء ودروس ، وحقائق وحفظ وتذكّر ، وهذه العلوم تبقى في الذاكرة ، لكن العلم بالله له طبيعة أخرى ، هذا العلم من أثره السمو بالنفس والارتقاء بها إلى الله ، العلم بالله لا يأتي بالمدارسة ، بل يأتي بالمجاهدة ، ولا يبقى في الدماغ بل يسمو بالنفس ، ثمنه باهظ ونتائجه باهرة جداً ، إذاً العلم بالله أشرف العلوم .

أعود وأكرر : إنه أشرف العلوم أن تعرف الله ، أن تعرف اسم القدير ، اسم العليم ، اسم العزيز ، اسم الحكيم ، اسم الغفار ، اسم القهار ، اسم الملك ، اسم القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن . . إلخ .

أن تعرف الله ، وأن تكون في المستوى الذي يريده الله ، أن تكون مخلصاً محباً مستقيماً عالماً ورعاً متوكلاً ، فالفضل لله عز وجل ، وشرح أسماء الله الحسنى منها ما يتعلق بذات الله ، ومنها ما يتعلق بقلب الإنسان ، وماذا ينبغي أن يكون عليه هذا القلب ، من علم وإخلاص وحب وتوكل وصدق واستقامة ، فكأن ما يدور من بحث لفهم أسماء الله الحسنى هو خلاصة العلوم كلها .

وإليك بعض التفصيلات :

أولاً : ورد العلم في القرآن بمعنى إثبات العلم لله ، وأحياناً تسأل : فلانٌ عالم أم غير عالم ؟ لا ، بل عالم إن شاء الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

إثبات العلم لله سبحانه :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

إثبات العلم لله سبحانه :

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٦٦] .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١] .

إذاً هناك آيات كثيرة محورها إثبات العلم لله ، فالله عالم يحبُّ كلَّ عالم ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ .

تكلم شاب يوماً عند الشعبي بأمر فقال الشعبي : ما سمعنا بهذا ، قال الشاب : كل العلم سمعت ؟ قال الشعبي : لا ، قال الشاب : فشطره ؟ قال الشعبي : لا ، فقال الشاب : فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه ، فأفحم الشعبي .

فمن يحيط بالعلم ؟ يظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ، إذا قلتَ : إني عالم فأنت جاهل ، بكل تواضع ، بكل صراحة ، لذلك أنا أتمنى من الذين لهم رغبات علمية جامحة ، ويحضرون مجالس علم ، ويحرصون على فهم كلام الله وعلى فهم السنة المطهرة ، أتمنى عليهم إذا تحدثوا عن أنفسهم أن يقولوا : نحن طلاب علم ، هكذا الأدب ، ولقد سمعت هذه الكلمات من علماء كبار يقول أحدهم : « أنا طالب علم » .

فيما مضى ألَّف أحدهم كتاباً كتب عن نفسه أنه أحد علماء دمشق.. بخلاف ما كان عليه الأجداد من السلف الصالح كانوا إذا وصفوا أنفسهم قالوا : الفقير إليه تعالى ، غفر الله له ذنبه ، آمين .

فإذاً وردت بعض الآيات في القرآن بمحور إثبات العلم لله ، يقول لك : رسول الله أمي..

والشيء يذكر بالشيء فإن رئيس جامعة من الجامعات ، طُلب منه إحداث قسم دراسات على مستوى ماجستير في كلية الشريعة ، فقال رئيس الجامعة : لماذا الماجستير أنتم يا طلاب الشريعة نبيكم أمي ، فأجابه عميد الكلية : ولكنه يوحى إليه وحينما يوحى إلينا نستغني عن كل الجامعة ، لذلك قال العلماء : الأمية صفة كمال في حق رسول الله ﷺ ، وصفة نقص في حق غيره ، إذا قلت عن إنسان : هو أميّ يعني جاهل ، أما إذا قلت عن النبي الكريم ﷺ : هو أمي يعني أنه هو تنزه عن علم البشر ، تنزه عن ثقافة عصره ، تنزه عن معطيات الأرض ، وعلَّمه الله .

أحياناً يكون أحد الناس خريج جامعة فيتفاخر قائلاً : أنا معي « بورد » من أمريكا ، وفلان يقول : معه « إف . آر . إس » من إنكلترا ، وآخر يقول : معه « أكريجيه » من السوربون ، يعطيها اسماً مفخماً يمطها قليلاً ، وبعضهم يفتخر بالأستاذ الذي علّمه ، وأشرف على شهادته ، فإذا افتخرنا بأن فلاناً أستاذنا ، ونحن علّمَنا فلان ، ونحن علّمْنا فلاناً ، فإني أجلس إلى المثقفين الذين يفتخرون بأساتذتهم ، فأقول : فمن علم النبي ﷺ ؟! الله سبحانه وتعالى خالق الكون علّمه ، فحسبه هذا العلم وذاك الشرف ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ

وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٣] .

يـا أيهـا الأمـي حسبـك رتبـةً   في العلم أنْ دانت لك العلماء

كذلك ؛ يأتي إنسان عبقري ذكي جداً فيقتطف خمسين حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ يدرسها ويحللها ويدرس صياغتها ، وبلاغتها ، مضامينها ، أبعادها ، مدلولاتها ، ثم يُمنح درجة الدكتوراه ، فموضوع شهادته بل حجمها خمسون حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ ، أصبح بعدها دكتوراً في الشريعة ، يقول : أنا أحمل الدكتوراه ، يكتب : دكتور في الشريعة ، حتى يعرف الناس قدره .

إذاً :

يـا أيهـا الأمـيُّ حسبـك رتبـةً   في العلم أن دانت لك العلماء

الأمية في حق رسول الله ﷺ كمال ، وفي حق غيره نقص ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

الآن وردت آيات العلم في محور آخر ، هذا المحور أن الله عالم قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن : ٢٥ـ٢٧] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

[فاطر : ٣٨] .

المحور الأول : أثبتنا العلم لله ، المحور الثاني : وصفنا ربنا بأنه عالم ، المحور الثالث : الله علاّم ، كلمة علاّم على وزن فعّال ، صيغة مبالغة يعني : كثير العلم ، لنوضحها لكم ، نقول : فلان كاذب ، يعني هو في هذا القول كاذب ، يعني في حياته كلها كذب كذبة واحدة ، يسمى في اللغة كاذباً ، أما إذا كان يكذب كلما تنفَّس يقال عنه : كذّاب ، إذاً صيغة كذاب تعني التكرار ، التكثير ، المبالغة .

قد مر بنا سابقاً أن صيغة المبالغة تعني النوع أو الكَم ، إما أنها كذبة كبيرة جداً ، وإما أنها كذبات كثيرة ، إذاً صيغة فعال تعني الكثرة أو الضخامة ، تعني مبالغة العدد أو مبالغة النوع ، فإذا قلت : إن الله علام الغيوب يعني كل الغيوب يعلمها ، الله عز وجل علمه مطلق يعلم كل غيب ، يعلم مصير كل مخلوق ، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، فتصور نفسك في حقل زيتون في الخريف وكلما هبت نسمات من الرياح تساقطت أوراق الزيتون ، وفيها وفي مثلها قال تعالى :

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

المحور الرابع : الأعلم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] .

روى البخاري في الأدب المفرد من حديث عدي بن أرطاة قال : كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ إذا زكي قال : اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، واغفر لي مالا يعلمون .

إذاً الله عز وجل أثبت العلم لذاته ، ووصف نفسه بأنه عالم ، وأنه علام ، وأنه الأعلم ، لكن لا يصح أن تقول : معلم ، قال تعالى :

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

[الرحمن : ١ـ٤]

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

[الكهف : ٦٥]

ملاحظة على الهامش :

إذا قال الله عز وجل : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ [طه : ١٢١] ، قال العلماء : لا يجوز أن تقول : آدم عاصٍ ، ليس لك الحق أن تشتق من فعل : ﴿وعصى﴾ اسماً لسيدنا آدم ، وإذا قال الله عز وجل :

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

[القصص : ٢٦]

قال العلماء : لا يجوز أن تقول : موسى أجير ، طبعاً هناك تعليلات لطيفة لكل هذه الأوصاف ؛ فأمر الله عز وجل لسيدنا آدم في الجنة أمرٌ إرشادي ، وليس أمراً تكليفياً ، والمعصية على حقيقتها لا تكون إلا من مخالفة أمرٍ تكليفي ، فحينما أكل هذا النبي العظيم سيدُنا آدم ، أجل حينما أكل التفاحة لم يخالفْ أمراً تكليفياً بل خالف أمراً إرشادياً ، فربنا قرب إلينا ما حدث قال :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] .

ليس لك أن تقول : آدم عاصٍ ، ولا أن تقول : موسى أجير ، هذه الملاحظة على هامش الموضوع ، أيضاً ما ورد في حق الأنبياء يجب أن يكون كما ورد من دون تبديل أو اشتقاق أو تغيير .

وأخيراً فالعالم والعلام والأعلم ، كل هذه الأسماء مع أنها وردت في القرآن الكريم إلا إنها لم ترد في أسماء الله الحسنى ، لم يرد في أسماء الله الحسنى إلا العليم ، والعليم : صيغة مبالغة أيضاً تفيد المبالغة في العدد وفي النوع .

وبعد ، أتمنى على القراء الكرام أن يقفوا الآن وقفة متأنية عند هذا السؤال الملح : ماذا نستفيد من اسم العليم ؟ قال أبو الجلد : أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لقومك ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي وإن كنتم ترون أني أراكم فلم تجعلوني أهون الناظرين إليكم .

وكان وهب بن الورد يقول : خف الله على قدر قدرته عليك ، واستحي منه على قدر قربه منك ، وقال له رجل : عظني! فقال : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

وكان بعض السلف يقول : أتراك ترحم من علم أن لا عين تراه غيرك ، وقال بعضهم : ابن آدم إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عيني ناظرة إليك فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصيته ولم تهتحي منه حياءك من بعض خلقه ؟ ما أنت إلا أحد رجلين إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه .

إذا كنت لا تعلم أن الله يراك فهذا ضعف في الإيمان كبير ، وإذا علمت أن الله يراك لِمَ جعلت الله عز وجل أهونَ الناظرين إليك ، قال الله تعالى :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء : ١٠٨] .

لذلك : اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وقال بعض العلماء : « **إنّ حال المراقبة أن تشعر أن الله معك دائماً ، وهذا الشعور يورثك الخشية والاستقامة** » ، ونعود إلى أول آية طرحناها في هذا الدرس :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ولن تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك .

وأخيراً المراقبة : هي التعبد بأسمائه : الرقيب ، الحفيظ ، العليم ، السميع ، البصير ، فمن عقل هذه الأسماء ، وتعبد بمقتضاها ، حصلت له المراقبة .

* * *

القابض، الباسط

في الصفحات التالية يتجلى علينا الله سبحانه باسميه القابض والباسط وهما من الأسماء الحسنى ، والبحث فسيح رحيب إن شاء الله .

الحقيقة أن إخوةً كثيرين جداً ممن تابوا إلى الله توبةً نصوحاً وممن اصطلحوا مع الله ، دائماً يسألون هذا السؤال ، فيقولون أحياناً نشعر بالسعادة والغبطة والسرور والانشراح بحيث نرى أنفسنا في الجنة ، وتأتي علينا ساعة أخرى فنشعر بالانقباض والضيق بحيث نتمنى الموت ، فما تفسير هاتين الحالتين ؟ لذلك سأحاول الإجابة إن شاء الله عن هذا السؤال المتكرر الذي يعاني منه كل مؤمن من خلال هذين الاسمين .

فمن أسماء الله تعالى أنه القابض والباسط ، وأول ملاحظة أذكرها أنه لا يجوز أن تقول : إن الله قابض فقط ، لأنك إذا قلت : قابض فمعنى ذلك أنك تصفه بالمنع والبخل ، ولكن إذا قلت : إنه قابض باسط ، فمعنى ذلك أنك وصفته بالقدرة والحكمة ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

وهكذا فإذا أردت أن تعلل فتقول : يقبض ليبسط ، ويضر لينفع ، ويمنع ليعطي ، ويذل ليعز ، فأنت إذاً سائر في طريق الصواب .

ثم لابد من أن نعطي الكلمة معناها اللغوي : فمعنى القبض لغةً هو الأخذ ؛ والبسط هو التوسيع والنشر ، هذان الأمران يعمَّان جميع الأشياء ، فكل أمرٍ ضيقه الله عز وجل فقد قبضه ، وكل أمر وسعه فقد بسطه ، ثم علينا أن نتحول إلى بعض أبواب القبض والبسط ، فالمعنى الأول : الرزق ، قال الله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[العنكبوت : ٦٢]

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الروم : ٣٧] .

فلا تقل : فلان ذكي ، وثان عنده خبرات في التجارة رائعة جداً ، وثالث خطط ، ورابع مقتدر ، وآخر صاحٍ ، فالله عز وجل يقبض ويبسط ويرزق ويسلب ويعطي ويمنع ، فإذا أراد أن يرزقك ألهمك الوسائل والأساليب والموضوعات والمواقف والتحركات المناسبة للربح ، وإذا أراد أن يقبض وكنت غنياً فقد سرت في طريق الإفلاس وأنت لا تدري ، وإذا أراد ألا يرزقك لحكمة أرادها سد في وجهك كل الأبواب ، إذ قد تكون ذكياً جداً إلا أنك في هذا العمل تسلّم المحل ، وفي ذاك العمل تفك الشراكة .

فإذا قال الله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أو قال الله عزَّ وجل : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فاعلم علم اليقين أن الله هو الرزاق ، وهو الذي يمنع الرزق ويسلبه . والعوام يقولون :

إذا أعطى أدهش وإذا حاسب فتش ، لكن أيها القارىء الكريم إياك أن تظن أن البسط عند الله عز وجل فيه معنى الإسراف ، وأن القبض فيه معنى البخل ، فهذان المعنيان يجب ألا يرِدَا على ذهنك إطلاقاً ، فإذا تحدثت عن أن الله يقبض ويبسط ، فليس إذا قبض قبض بخلاً ، ولا إذا بسط بسط إسرافاً ، بل يقبض عن حكمة وقدرة وعلم وتقدير ، ويبسط عن إكرام وتوسعة وامتحان ، فبسطه إكرام أو امتحان وقبضه معالجة أو وقاية ، والدليل قول الله تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

إذاً المعنى الأول متعلق بالرزق ، وأما المعنى الثاني فمتعلق بالسحاب ، قال الله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم : ٤٨] .

هذا السحاب ينتشر في السماء كما يشاء الله عز وجل ، وقد يقبضه عن قوم ويبسطه لقوم ، مطرة واحدة في منطقة ما ثمانون ملم في ليلة واحدة ، ومنطقة أخرى ملم واحد ، معنى هذا قبض عن هؤلاء وبسط لأولئك .

والمعنى الثالث ، يقبض ويبسط في الأنوار والظلال ، قال تعالى فيما يتحدث عن الليل والنهار :

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٦] .

أين النهار إذا جاء الليل ، وأين الإشراق والوضوح ؟ وأين الليل

إذا جاء النهار ؟ تكون في وحشة وفي خوف وفي قلق ، فتشرق الشمس فتحس بالراحة ، وبالأُنس والطمأنينة ، إذاً يقبض ويبسط ، يقبض النور ويبسطه .

والمعنى الرابع : أن الله عز وجل يقبض الأرواح ، فإذا قبض روح العبد أماته ، وإذا بسطها أحياه ، فالأرزاق والسحب والظلال والأنوار والأرواح يقبضها ويبسطها .

والمعنى الخامس يتعلق بالأرض أيضاً ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يقبضها ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] .

فبسط الأرض : أنه جعل الدنيا صالحة لحياتنا ، وقبضها : أي أنهى عملها ووظيفتها ، فهي مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين .

والمعنى السادس : أن الله سبحانه وتعالى يأخذ الصدقات أي يقبضها ؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« إنَّ الْعَبْدَ إذَا تَصَدَّقَ مِنْ طَيِّبٍ تَقَبَّلَهَا اللهُ مِنْهُ وَأَخَذَهَا بِيَمِينِهِ وَرَبَّاهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلَهُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ بِاللُّقْمَةِ فَتَرْبُو فِي يَدِ اللهِ أَوْ قَالَ فِي كَفِّ اللهِ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ فَتَصَدَّقُوا » .

[مسند الإمام أحمد]

لكن الموضوع الحساس الذي نحتاجه جميعاً هو أن الله سبحانه وتعالى يقبض القلوب ويبسطها. . . والخوف والرجاء للمستقبل ، فأنت دائماً تخاف من الله عز وجل أو ترجوه ، والقبض والبسط للحاضر فأنت الآن في حالة قبض أم في حالة بسط ؟. . فإذا قلت :

لا أعرف ، فمعنى ذلك أنت خارج المدرسة ، وخارج التعليم كله ، فاسأل طالباً : ما العلامة التي نلتها بالرياضيات ؟ وما العلامة التي نلتها باللغة العربية ؟ فإذا قال : لا أعرف فمعنى ذلك أنه خارج المدرسة كلياً ، فالمؤمن الصادق بين حالتي القبض والبسط .

والحقيقة إذا قبض الله عنك الأحوال الطيبة ، شعرت بالوحشة ، وبالضيق ، وبالحرمان ، وشعرت أنك مردود ، ثم شعرت أنك مرفوض ، ضن الله عليك بالتجلي ، فقد تلوت القرآن وما شعرت بتجلٍّ وقمت إلى الصلاة وما شعرت بخشوع ، ثم أردت أن تذكر الله عز وجل فما شعرت برغبةٍ ، فهذه الحالة ما اسمها ؟ إنها حالة قبض ، يعني أن تحس أن الله عظيم وأن الله جلَّ جلاله كبير ومتعال ، ومن أنت حتى يتجلّى الله عليك ، فالله عز وجل مربٍّ ، فإذا بسط الله للإنسان الأحوال والسرور والانشراح والأنس واستمر هذا الحال الطيب تراه بعد حين يقصر في عباداته ويتهاون في صلواته ، ويتكاسل في أعماله الصالحة ، أما حينما ينتابه القبض ، فيكون مع القبض الضجر والضيق عندئذٍ يفزع إلى الله سبحانه ليعود إلى حالة الانشراح ، إذاً مع القبض الخوف ثم القلق ، ويعقب ذلك إنابة إلى الله يمازجها الرجاء والأمل .

إذاً فربنا عز وجل يعالج المؤمن ، ولكن هذا الكلام أقوله للمستقيم ، أما غير المستقيم فتعروه حالة انقباض لا معالجة لها ، بل هي نتيجة طبيعية لمعاصيه ، وكل معصية معها انقباض ، حتى إن علماء النفس الأجانب قالوا : إن المنحرفين يشعرون بكآبة .

والآن يسمي علماء النفس الأمراض الشائعة الوبائية في الشباب

أمراض الكآبة ، وأسبابها الانحراف عن الفطرة العالية التي فطروا عليها ، وكل إنسان مفطور فطرة عالية فإذا انحرف عنها وأساء وتعدى وبنى متعهُ الرخيصة على حقوق الآخرين شعر بالانقباض والكآبة ، وهذه خارج درسنا فأنا أتحدث عن المؤمنين المستقيمين الورعين ، إذ أحياناً تصيبهم حالة الانقباض ، وهذه حالة نسميها علاجاً من الله عز وجل ، فالله عز وجل يقلب المؤمن بين القبض والبسط ، فتراه أحياناً متفائلاً ، طليق اللسان ، واضح السرائر ، بشوش الوجه ، وتشعر أنه مبسوط الأسارير والصدر والنفس ، وأنه سعيد ، يمشي واثقاً من مشيته ، ويتحدث واثقاً من حديثه ، وهذه الحالة اسمها حالة البسط ، فالله عز وجل تجلى على قلبه باسم الجميل ، إذ جمَّله فأحس بالجمال ، والسعادة .

ولكن هناك منزلق ، فعندما يشعر المؤمن أنه قريب من الله ومتفوق وفالح وناجح وفائز ، والناس مساكين ضعيفون ، ضعيفو الهمة والعزيمة ، ومقصّرون ، وغارقون في المعاصي ، وبعيدون منقطعون ومطرودون ملعونون ، وهو وحده في سعادة ، وهذا الشعور بالانبساط يصاحبه أحياناً انزلاق ، وعُجب ، أو كِبْر أو تعالٍ أو استطالة على الآخرين ، فالعلاج حالة أخرى مضادة وهي القبض ، فتراه بعد أيام مستكيناً فتقول له : خير! ماذا بك ؟ فيقول : الحمد لله ، لقد كان يمشي قفزاً على الطريق ، ويقول : الحمد لله ، وهو الآن متضايق ولا يعرف السبب إذ لا معصية ندّت منه ولا ذنباً اقترف .

والكلام مُوجَّه للمؤمنين ، فإذا كان الكلام لغير المؤمنين فنقول له : لمَّا عصيت الله عز وجل أشعرك بالضيق ، وخالفت فطرتك فشعرت بالكآبة وهذا مرض ، وليس من إنسان مؤمن يرتكب إثماً أو

معصيةً إلا ويشعر أن الأرض لا تسعه على اتساعها ، قال الله تعالى :

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٨] .

فهؤلاء الذين أمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه ألا يكلموهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، فحالة القبض للعاصي والمنحرف والمقصر .

ولو افترضنا أن الوالدة الجليلة طلبت منك حاجةً في منتصف الليل « دواء » مثلاً ، فقلت لها : لا أستطيع فإنني أشعر بحاجة إلى النوم ، أو ليس هناك صيدلية تفتح أبوابها في هذا الوقت المتأخر ، فهذا السلوك يبعث على الشعور بالذنب ويورث صاحبه كآبة ، وهذا موضوع آخر ، فإذا قصّر الإنسان في أداء واجباته ، أو ارتكب معصية أو إثماً أو خرج عن خط الاستقامة أو اغتاب ، أو أطلق لسانه في أعراض الآخرين ، أو أكل ما ليس له ، أو نظر إلى ما لا يحق له أن ينظر إليه ، فإذا وقع في معصية أو مخالفة شعر بالقبض ، وهذا القبض ليس موضوع بحثنا اليوم ، هذا قبض المعصية .

وأنا أقول : إن الإنسان إذا أطاع الله عز وجل وشعر بأنه تفوق وفاز ، وأن الله يحبه ، وأن الله يقربه ، وأن الله تجلى على قلبه ، فقد ينزلق مع هذا الحال الذي ألمّ به حال البسط ، فيستعلي على الناس ، فيعتز بنفسه ، ويعجب ، وعندئذ علاج هذا الانزلاق حالة مضادة هي القبض ، فتراه ساكتاً ، أو يتلعثم لسانه إذا تكلم ، فيشعر بضيق ، ويقوم ليصلي فلا يشعر بطمأنينة ، ويقرأ القرآن فما ترتاح نفسه ، فهذه

الحالة علاج رباني لمن أعجب بنفسه ، وتاه على عباد الله ، واستطال باستقامته ، هذه حالة القبض .

أما البسط ، فحينا يتألم ويتضايق ، ويشعر بالوحشة ، ويتصحر قلبه ، فقد ينزلق مع القبض إلى حالة مرضية وهي اليأس ، فإذا شارف اليأس جاءت حالة مضادة وهي البسط ، فاعلم أيها القارىء الكريم أنك بين حالتين ؛ القبض والبسط ، لأن الله هو القابض وهو الباسط ، فإذا كان القبض يناسبك قبضك ، قبض الأحوال عنك ، وضيَّق عليك الدنيا وأشعرك بالسأم والضجر ، وبالوحشة والبعد إذ أبى أن يتجلى على قلبك ، وإذا اقتربت مع القبض إلى اليأس تجلى على قلبك فأشعرك بالقرب والأنس والسرور والانشراح ، فأنت أيها المؤمن بين حالتي القبض والبسط ، فما العلاج ؟ العلاج أنك إذا استحققت من الله حالة البسط ، فإياك أن تنزلق منها إلى الغرور أو إلى الاستعلاء أو الإعجاب أو أن تستطيل على عباد الله .

إذاً مع البسط هناك منزلق وهو الإعجاب « **لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك** » ، فما الذي هو أكبر ؟ « **العُجْبَ العُجْبَ** » ، وإذا أصابتك حالة القبض ، فما ينبغي أن تنزلق منها إلى اليأس .

إذاً : رب العالمين هو رب النفوس إذ يربي الأجساد بإمدادها بالمواد ، ويربي النفوس بتقليبها من حال إلى حال ، قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء : ٢١٢ـ٢٢٠] .

فأنت أيها المؤمن تتقلب من حال إلى حال ، من حالة بسط إلى حالة قبض ، وإلى بسط وإلى قبض ، فأنت موضوع عناية الله عز وجل وتربيته ، فلذلك استسلم .

أما إذا جاءك القبض إثر معصية أو مخالفة أو عدوان أو انحراف ، فهذا قبض المعصية ، وهذا موضوع آخر أشرت إليه من قبل ، فأية معصية يعقبها إحساس بالكآبة ، وهذه هي الفطرة .

وربنا عز وجل لِمَ أودع فيك العقل ؟. . لتعرفه ! ولِمَ أودع فيك هذه الفطرة العالية ؟. . لتعرف خطأك .

فبالعقل تعرف ربك وبالفطرة تعرف خطأك ، إذ ينتابك الانقباض . .

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ : « **الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** » . [صحيح مسلم] .

واعلم أن معك ميزاناً ، إذا كذب الإنسان أو اعتدى أو خان أو نظر نظرة لا تحق له أو استطال بلسانه أو. . . إلخ ، فإنه يشعر بالانقباض ، وهذا ينتابه إذا كان فيه إحساس .

وأحياناً تنطمس الفطرة ، ويتعطل الميزان ، فهذا الإنسان لا يعي الخير : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ الله فِي كِتَابِهِ ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** » . [سنن ابن ماجه] .

فالمعاصي تِلوَ المعاصي والمخالفات تلو المخالفات والانغماس في الدنيا والتطاول على خلق الله وترك العبادات وترك الذكر ، وهذا كله ينتهي إلى قلب مغلف :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

فإذا امتلأ القلب من حب الدنيا ، فليس هناك محل لشيء آخر فيه ، إذاً ختم القلب ختماً حُكمياً ، فالقبض والضيق والوحشة الناتجة عن المعاصي هذه علاجها الطاعات والتوبة ، أما القبض الذي ليس له سبب ظاهر لمن يمشي في طريق الإيمان فهو معالجة إلهية لطيفة له ، وقد قال العلماء : « **إنه على المؤمن أن يصبر حتى تنجلي هذه الحالة بتقدير الله عز وجل** » .

وهناك تعريف لطيف جداً للقابض ذكره القشيري ، يقول : « **القابض الذي ملك زمام كل شيء** » ، ومن معاني القابض القدير ، فأحياناً أنت لا تستطيع أن تدس الحزن في قلب إنسان إذا كان سعيداً ، ولو كلمته لا يبالي بكلامك ، لكن ربنا عز وجل قدير ، ومعنى قدير أنه ملك زمام كل شيء ، يقبض ويبسط كيف يشاء ، يقبض العقل ، فلا يفهم المقبوض شيئاً ، ويقول لك : ما فهمت .

دخل طالب مغرور الامتحان ، فجاء سؤال حول مؤتمر برلين في لتاريخ ، قال : بقيت ساعة وأنا أفكر أين عقد هذا المؤتمر ؟ وهو سمه مؤتمر برلين ، وعقد في برلين..! أحياناً يرى الشيء على خلاف ما هو عليه في مواقف الامتحان ، فالإنسان إذا اعتزَّ بعقله وتاه

بذكائه يرتكب حماقات يترفع عنها الحمقى ، ليُرِيَهُ الله عز وجل أنه هو القابض ، يقبض عنك الفهم ، ويقبض العقل فلا يفهم ويقبض القلب فلا يغنم ، تراه يقول : « ضاق قلبي » ، هذه المشاعر ليس لها سبب واضح ، فالبيت واسع ، والزوجة ممتازة ، والأولاد أصحاء ، والدخل يسير فلا مشكلة ، ويقول : « ما أكثر ما يضيق قلبي ، وأكاد أموت ضيقاً » فتقول له : قلبك بيده ، القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، هو الذي يسعدك وهو الذي يقبض عنك كل سعادة . وقد ملك زمامْ كل شيء ، إذْ يقبض العقل فلا يفهم ، يقبض القلب فلا يغنم .

وهناك قلب كبير ، مفعم بالسعادة والرضا وبالإشراق الرباني وقلب متصحر ، كالصخر لا يرحم ولا يلين ولا يتأثر ولا يبكي ، وإن يقبض الله القلب فلا يغم وإن يقبض الصدر فلا يفرح ، وإن يقبض الرزق فلا يمنح ، « فيقول : أَرْمِي بالطلب يميناً فيرتد شمالاً » ، وهذا أحد الشعراء ترك لبنان إلى أمريكا ، فقال :

أغرب خلف الرزق وهو مشرق   وأقسم لو شرقت راح يغرب

فإذا أراد الله عز وجل ألا يرزقك فلو ذهبت إلى أقصى الدنيا ، ولو ذهبت إلى بلاد الغنى فإنك تعيش فيها فقيراً ، وقد يرزقك في بلدك في أصعب الظروف ، لأنه هو الرزاق ، هذا هو الإيمان .

قالوا : ويقبض الروح فلا تفرح ، فيأتي « التشاؤم والسوداوية » ويقبض النفس فلا تمرح ، ولا يفرُّ من حكمه وقضائه خلق من خلقه ، حكيم في فعله وتقديره ، لذلك قال ربنا عزَّ وجل :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٣] .

كلمة (متين) هذه صفة الأجسام التي تتحمل قوى الشد ، وأما القساوة فصفة الأجسام التي تتحمل قوى الضغط ، فالماس قاسٍ ، أما الفولاذ المضفور فمتين ، ولذلك فبعض الحبال العظيمة تحمل الجسور الكبيرة « التلفريك » مثلاً على أي شيء يُحمل ؟ على حبال من الفولاذ المضفور ، فالفولاذ المضفور من أمتن المعادن والماس من أقساها ، وربنا ـ عزّ وجل ـ وصفَ كيدَهُ بأنه متين ، وكأن الله ـ عز وجل ـ شبه كيده بحبل متين لا يمكن أن يُقطع والكافر مربوط به ، ولكن هذا الحبل مرخى فالكافر يتوهم أنه طليق ، فهو يتحرك ويؤذي ويتكلم ويتبجّح ويتفلسف ويتحدى ويتطاول ، ويوقع الأذى بزيد وعُبيد وهو يظن أنه يفعل ما يشاء . ويظن أنه على كل شيء قدير ، وفي لحظة واحدة يشد الله الحبل المتين فإذا هو في قبضته ، ومعنى القابض أنه قول الله عز وجل : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ .

ومعنى القابض يمكن أن يغلق عليك عقلك ، وأن يجعل قلبك متصحراً ، وأن يصيِّر نفسك سوداوية المزاج متشائمة ، وهناك حالات كآبة تدفع أصحابها إلى الانتحار ، لكن المؤمن بالله عز وجل في منجىً من ذلك .

وهـذا رأي آخـر للقشيـري ، قـال : « **القبـض والبسـط حـالان يهذب الله بهما الذاكرين** » ، ألم يروَ عن النبي الكريم ﷺ « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** »[1] .

فأحد إخواننا الكرام عنده معمل متواضع ، وأخ آخر علم أن هذا

---

(١) المعنى صحيح ، لكن لا يعرف له إسناد ثابت . قال الحوت في أسنى المطالب : سنده ضعيف ومعناه صحيح .

المعمل لفلان ، في اليوم التالي ذهب إليه ، وهو معمل يصنع ألبسة ، يبيع بالجملة من خمسمئة إلى ألف اثني عشرية ، وهذا الأخ دخل إلى المعمل وطلب ست قطع ، فكأن هذا الطلب أهان صاحب المعمل ، فقال : أنا لا أبيع مفرقاً ، فودعه شاكراً ، وانصرف خجلاً ، فيقول صاحب المعمل : لقد مرَّ علينا ثلاثة وعشرون يوماً وما دخل معملي إنسان ليشتري ! أما الآن فأبيع ولو قطعة واحدة ، وهذا تأديب الله عز وجل ! تتكلم كلمة في غير موضعها فيحجبك عنه أسبوعاً فيتفجر صدركُ ضجراً ، فإذا كان هناك تقصير أو تجاوز ، فيأتي القبض ، وما القبض إلا دليل على أن الله رفضك ، أي : رفض عملك ، ورفض التصرف الذي بدر منك ، فما أقبل على قلبك بعد ذلك ، وما تجلّى عليك ، وهذا لمن عنده حساسية بالغة .

وهناك ميزان توزن به السيارات ، تصعد فوقه فيسجل عشرين طناً ، وهذا الميزان لا يزن أوقية بن ، ولا خمسة غرامات ذهب ولا ماسة ثلاثين قيراطاً ، وإذا وضعت عليه كيساً وزنه مئة كيلو فلا يتحرك ، وهناك أشخاص عندهم ميزان غير حساس ، وهو لا يفكر بربه أبداً ، وهذا الإنسان وأمثاله ليس موضوع بحثنا الآني .

أما المؤمن فبعد اللطف التام والوجهة إلى الله عز وجل يملك حساسية مفرطة ، فإذا شعر أن قلبه في الصلاة منقبض غير خاشع أدرك أن في تصرفاته شائبة ، فلعله فاه بكلمة جارحة ، أو خطر في باله خاطر سوءٍ ، أو أساء الظن بالله عز وجل ، أو لعلّهُ جرّح كرامة شخص ، أو كسر قلباً بريئاً ، أو أومأ لإيماءة مشبوهة .

ولذلك أقسم ربنا عز وجل في القرآن الكريم بالنفس اللوامة ،

فهناك نفس مطمئنة ، هي نفس الأتقياء الصديقين ، أهل الإحسان ، وهناك نفس أمارة بالسوء : هي نفس العصاة ، أما نفس المؤمن فلوامة ، وهي دائماً في حساب مع ذاتها عسير ، تقرّعه ، تعنفه ، لعلي تكلمت كلمة لاذعة ، أو منعت عطاءً أو أسأت أدباً وتصرفاً ، فهو دائماً في معاتبة مع ذاته ومحاسبة مع نفسه ، وهذا معنى النفس اللوامة .

قال العلماء : القبض والبسط حالان يهذب بهما عباده الذاكرين ، ويفتح بهما عليهم أبواب العلم والحكمة ، فإذا هجم القبض على أحدهم فإنه يهجم على صدره من أبواب الجلال وحكمة الكبير المتعال ، وتكثر الخواطر فيشتد الخوف ، ويتذوق العبد جلال الله عزّ وجل ، فتمنع الذات الإلهية عن العبد ويشعرها بالجلال ، وإذا اشتد عليه هذا الحال أي لطف الله به ، فعند ذلك المقدار الذي يطيقه ينفرج صدره بالبسط ، وإذا هجم عليه حال القبض وشعر بالخوف فالله عز وجل حكيم لا يسحقه ، بل يعطيه قدراً من القبض يطيقه ، وعندئذ يغشاه حال البسط ، وهذا كلام يتوجه إلى أناس لهم خبراتهم مع الله ، ولهم صفاؤهم ولطفهم ، ولهم صدقهم وحرصهم على طاعة الله ، بل لهم ورعهم ، وعندئذ يصبح قلبهم ميزاناً دقيقاً وحساساً ، ونرجو من الله عز وجل أن نملك هذا الإحساس .

أما قلنا : هناك ميزان لا يتأثر ولا يتحرك ولا بمئة كيلو ، هذا معد ليزن حجماً كبيراً ووازناً ، كسيارة شاحنة ، لكن هناك ميزان ، تراه عند الصائغ فيوقف المروحة أثناء وزن الذهب ؛ لأن الهواء الصادر عنها يغير كفة الميزان وهناك موازين تزن بها ورقة مثلاً فيتحرك مؤشره ، فوزنه دقيق ، ولو كتب على الورقة كلمة واحدة لرجحت

الكفة بوزن المداد الذي على الورقة ، فكلما ارتقى المؤمن دقَّ ميزانه ، فقل لي : ما مستوى ميزانك أقل لك من أنت ، وما مستوى إيمانك ؟

الميزان الدقيق دائماً له حساسية : زائد ناقص درجة ، ولو افترضنا أن عندنا ميزان حرارة غالياً جداً ، وقسنا عليه ميزان حرارة رخيص فإنه يتغير درجة ، نقول : حس هذا الميزان زائد ناقص درجة ، وحس هذا الميزانِ زائد ناقص غراماً ، فكلما اشتد الحس قلَّ الخطأ ، والمؤمن كلما ارتقى أصبح عنده ميزان دقيق جداً في محاسبته نفسه .

قال الحسن البصري رحمه الله : « أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله عز وجل في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الدين لله هموا بالله وإن كان عليهم أمسكوا وإنما يثقل الحساب على الذين أهملوا الأمور فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر فقالوا : ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ » .

وعن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن المؤمن قوام على نفسه لله عز وجل وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا . . وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إني لأشتهيك! وإنك لمن حاجتي! ولكن والله ما من صلة إليك هيهات هيهات حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا مالي ولهذا ؟ والله! لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه .

وعن موضوع القابض الباسط ، فأصحاب النبي عليهم رضوان الله قالوا : يا رسول الله قد غلا السعر فسعِّر لنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق ، إني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد يطلبني بمظلمة في دم ولا مال** » [رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه واللفظ له بسند صحيح من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ] .

والذين ضمنوا المشمش في الغوطة في أحد الأعوام قدروه بسعر عشرين ، واشتروه بهذا السعر ، وباعوه بخمسٍ ، والإنتاج كان غزيراً جداً ، والكمية الكبيرة خفضت الأسعار ، فإذا قال النبي ﷺ : الله هو المسعِّر ، فالكميات بيد الله . ومرةً في محافظة الجزيرة أنتج الكيس ثمانين كيس قمحٍ ، والعادة أن ينتج عشرة ، أو خمسة عشر ، وكل سنة ينفرد موسم ما بكميات عجيبة ، مرةً موسم الزيتون ومرة موسم البطاطا ومرة موسم البصل وترى الأسعار تنخفض إلى أرقام خيالية ، فالله هو المسعر ، والله القابض يقبض فتكون الكميات قليلة ، فالأسعار عالية ، فيبسط ، فتكون كميات كثيرة ، فالأسعار منخفضة ، وإن الله تعالى هو الخالق القابض الباسط المسعر .

وقال بعضهم : أنت بين أن يقيك وبين أن يبقيك ، وهو القابض الباسط ، والقابض الذي يقبض الصدقات من أربابها فيربيها والباسط الذي يبسط النعمة وينميها ويهنيها ، إذ يقبض الصدقات ويبسط النعم .

والقابض هو الذي يخوفك من فراقه ، والباسط الذي يؤمنك بعفوه وإطلاقه ، والإمام الغزالي يقول : « **القابض الباسط من العباد من ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم** » ، فمثلاً ، أنت داعية فإذا حدثت الناس عن رحمة الله وكرمه وعطائه وعفوه ، وقلت : لا تخافوا يا إخواني! فالقضية سهلة والله غفور رحيم ، ولا يسعنا إلا عفوه وكرمه ، ومن نحن أمام عفو الله ، فإذا جعل كل دعوته الجانبَ المُشْرِقَ ، أيكون حكيماً! ؟

قيل إن الإمام الغزالي كان يكتب كتاباً فوقفت دويدبة فانتظرها حتى شربت من مداد القلم ، فلما مات رآه أحد تلاميذه وقال : ياسيدي ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني الله بهذه الدويدبة التي انتظرتها حتى شربت!! وهل كل عمله ليس له قيمة ؟ فمثل هذا الكلام ليس فيه حكمة .

تحدثنا عن الله عز وجل كيف يقبض الأرواح ويبسط الحياة ، ويقبض الأرزاق ويوسعها ، ويقبض القلوب أو يفيض عليها من جلاله وجماله .

والسؤال الملح بعد كل هذا ؛ أنت مؤمن فما علاقتك بهذا الاسم ؟ أي إذا دعوت إلى الله عز وجل يجب أن تجري موازنة دقيقة بين أن تطمع الناس برحمة الله وبين أن تيئسهم من جنته ، فاليأس مرض والطمع مرض ، فإذا ذكرت الجانب الرحماني فقط وعفوه وكرمه وتجاوزه وحلمه ، ولم تذكر عذابه وعقابه وإيلامه وما عنده من عذاب مقيم فلست محسناً ، ولست حكيماً في ذلك ، إذاً اجمع بين القبض والبسط حتى في دعوتك إلى الله عز وجل ، لأن الإنسان

بحسب ما تُلقِّنه ، وبحسب ما تغذيه يعوجّ أو يستقيم ، وماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِي الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : **« عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ ـ وَالله أَعْلَمُ ـ لا أَنْتِ أَطْعَمْتِيهَا وَلا سَقَيْتِيهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِيهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ »** . [صحيح البخاري] .

ويفهم من ذلك أن النبي ﷺ قد خوفنا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله إِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ الله فَإِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاتِهَا ، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ وَلا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ » . [مسند الإمام أحمد] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي ؟ قَالَ : « فَلا تُعْطِهِ مَالَكَ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ : « قَاتِلْهُ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : « فَأَنْتَ شَهِيدٌ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ؟ قَالَ : « هُوَ فِي النَّارِ » . [صحيح مسلم] .

فأنت تقرأ أحاديث النبي ﷺ فتعجب ، فأحياناً تخاف خوفاً شديداً ، وأحياناً تسمع النبي عليه الصلاة والسلام يطمئنك ويبشرك ويلقي عليك من رحمة الله عز وجل الشيء الكثير ؛ ليجعلك بين الخوف والرجاء ، وهذا أسلوب الحكيم .

فأنت أيها الداعية اقتد بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وهناك دعاة

كل حديثهم عن جهنم ودعاة كل حديثهم عن الجنة وعن الحور العين ، فهؤلاء بهذا الحديث ـ وحده ـ أخطؤوا ، وهؤلاء بهذا الحديث وحده أخطؤوا ، وكما أن الله قابض باسط فيجب أن تكون مرةً في دعوتك تخوف عباد الله من معصيته ومرةً تحببهم في طاعته .

ورد في بعض الآثار : « **قال داود فيما يخاطب ربه : يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال : يا داود! أحبُّ عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يأتي إلى أحد سوءاً ولا يمشي بالنميمة ، تزول الجبالُ ولا يزول ، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى عبادي ، فقال : يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادي ؟ قال : ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي** » .

هنا الدِقة : « **ذكرهم بآلائي** » ، بهذه الآيات الدالة على عظمتي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني ، إذاً لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال الكون ، ومحبةٌ له من خلال النعم ، وخوفٌ منه من خلال النقم .

وأحياناً يريك ربنا إنساناً مصاباً بمرض خبيث ، أو توقف كليتين فحياته جحيم ففي كل أسبوع تُغسل فيه الكليتان مرتين فيشعر بانقباض شديد ، وهناك أمراض وأوبئة وأمراض عضالة ، وفقر شديد ، والله عز وجل قد يمنع عطاءه حتى يندفع الفقير إلى أن ينقب في القُمامة ، والله بعيني هذه رأيت أناساً كثيرين يبحثون في القمامة عن شيء يأكلونه ، ألم يُقلْ : « **إذا أعطى أدهش ، وإذا حاسب فتش** » ووراء العطاء والمنع حكمة له قد ندركها وقد لا ندركها .

« **ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي** » ذكرهم بآلائي كي يعظموني ،

إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ، « وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني » .

وهناك حالات كثيرة ، يتجاوز فيها الإنسان حدّه ، فيؤذي مخلوقاً من مخلوقات الله عز وجل ، فربنا عز وجل يكلّفه الثمن باهظاً ، فمن حوله يرتدعون ، ويخافون ، فإذاً هذا البلاء بلاء ردعي ، وهذا الإكرام إكرام تشجيعي ، ولكنَّ العطاء الكامل يوم القيامة ، قال الله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

[آل عمران : ١٨٥] .

وبعد ، إن الله سبحانه إذا أكرم إنساناً في الدنيا فهذا إكرام تشجيعي له ولغيره ، وإذا عاقب إنساناً فهو عقاب ردعي له ولغيره ، فإذاً يجب أن يكون في القلب حب لله عز وجل وخوف منه وتعظيم له .

* * *

المعزُّ، المذِلُّ

في وحاب المعز نَسْعد ، ونَهْنأ مع اسم من أسماء الله الحسنى ، والاسم الذي هو مناط هذا البحث هو « المعز » « والمذل » ، ولهذا الاسم مقدمة مهمة أرجو أن تكون واضحةً في الأذهان .

حينما فطر الله عز وجل الإنسان ؛ فطره على أسس فيها قيام عيشه وحياته ، من هذه الأُسس أنه خَلَقَ فيه دافع الجوع ، وهذا الدافع هو سبب بقائه وسبب استمرار الحياة بالنسبة إليه ، لولا ذا الدافع لترك الطعام والشراب ، وانهار جسمه ، ومات دون أن يشعر بحاجة إلى تناول الطعام ، فدافع الطعام والشراب هو الذي يدفعه دائماً إلى التزود بهما حفاظاً على وجوده أو حِفاظاً على حياته ، هذا الدافع الذي أودعه الله بالإنسان معروف لدى الجميع .

أما بقاء الجماعة ، بقاء الجنس البشري فإنه يحتاج إلى دافع آخر ، إنه دافع الجنس ، فقد أودع الله في الرجل وفي المرأة على حد سواء ما يدفع كلاً منهما إلى أن يتجه إلى صاحبه إلى أن يتم الاتصال ، وقد شرع الله له الزواج ، هذا دافع آخر يدفع الإنسان إلى الحفاظ على بقاء النوع ، فالطعام والشراب يضمن بقاء الفرد ، أما دافع الجنس فيضمن بقاء النوع .

لكن علماء النفس وجدوا أن في الإنسان دافعاً قوياً جداً لا يقلُّ عن دافع الطعام والشراب ، ولا يقل عن دافع الجنس ، هو دافع ما يُسمى بالشعور بالأهمية ، أو تحقيق الذات أو تأكيد الذات ، ويمكن أن ندرجه تحت عنوان العزة ، فكل مخلوق لو توافر له الطعام والشراب ولو توافرت له الزوجة ، يشعر أنه لا بد أن يكون مهماً ، لابد أن يعتز ولو بجسمه ولو بماله ، ولو بنسبه ولو بخبرته ولو بحرفته ولو بقدرته على الأذى ، ولو بجبروته ، هناك دافع فطري يدفع الإنسان إلى الاعتزاز ، أن يؤكد ذاته ، أن يشعر الآخرين بأنه إنسان خطير ، بأنه متفوق أو بأنه عزيز .

والسؤال المطروح هو : لماذا أوجد الله في الإنسان دافع الطعام والشراب ؟ الإجابة سهلة ، حِفاظاً على بقاء الفرد ، ولماذا أوجد الله في الإنسان دافع الجنس ؟ حفاظاً على بقاء النوع وإعمار الأرض .

أما لماذا خلق الله في الإنسان دافع الاعتزاز ؟ دافع تأكيد الذات ، دافع الشعور بالأهمية ؟ فالإجابة عنه أيضاً سهلة ، هذا عون من الله عز وجل للنفس البشرية لعل هذا الدافع يقيها من الانحراف .

الإنسان أحياناً يخاف على سمعته ، يخاف على شرفه ، يخاف على مكانته ، يخاف على مرتبته ، يخاف على جاهه من أن يُخدش وأن يُمرّغ في الوحل ، وأن يتحدث الناس عنه بالمكروه ، يخاف أن يفتضح ، ويخاف أن يسقط من عين الناس ويهون عندهم ، لولا هذا الدافع ، دافع الاعتزاز ، لهان على كل إنسان اقتراف المعصية ، ولهان سقوطه ممرغاً ، ولهان عليه انحرافه ولهان عليه انغماسه في الوحول ، طبعاً ليس معنى هذا أنه ليس في بني البشر من هانت عليه

نفسه ، الفطرة قد تشوّه والعزة قد تمرغ بالوحل ، هذه حالات شاذة وحالات استثنائية ليست مناط الحكم ، نحن حينما نقول الإنسان هكذا نقصد في الأعم الأغلب وفي الخط العريض ، إلا أن هناك لكلٍّ حالة استثناءات وخصوصيات في الطرف الأول والطرف الثاني ، ولنضرب مثلاً : لو أن طفلاً في مدرسة رأى قلماً وأعجبه فوضع القلم في جيبه ، صاحب القلم اشتكى ، والمدرس سأل ، فلا أحد يجيب ، ولو فرضنا أن هذا المدرس منع الطلاب من الخروج من الصف ، وفتش الطلاب واحداً واحداً ، وضبط هذا القلم في جيب أحد الطلاب ، حتى لو أن هذا الطالب في الصف الأول أو في الحضانة أو في أي صف ، لشعر هذا الطالب وقد كشف أنه سرق قلماً وكذب ، لشعر بآلام لا توصف ، وبخجل شديد ، ويتمنى أن تبتلعه الأرض ، فما هذا الشعور ؟ هذا شعور الاعتزاز الذي أودعه الله في الإنسان .

أودع الله في الإنسان هذا الشعور من أجل أن يبتعد عن المعصية ترفعاً واعتزازاً وتأثماً ، فنحن بادىء ذي بدء نقول : أودع الله عز وجل في الإنسان دافع الطعام والشراب ودافع الجنس ودافع الاعتزاز ، ويمكن أن نطلق على الدافع الأسماء المتنوعة التالية : الشعور بالأهمية أو تأكيد الذات أو إثبات الذات أو دافع الاعتزاز .

فلو جلست إلى أي إنسان يقول لك مفتخراً : أنا لي موقف لا ينسى ، هذا يقول لك : أنا فعلت كذا ، أنا في مصلحتي الأول ، صنعتي متقنة ، لن تجد إنساناً إلا ويعتز إما بحرفته أو بمهنته أو بماله أو بصحته أو بقوته أو بنسبه أو بكذا وكذا .

إذاً ما أودع الله في الإنسان هذا الدافع إلا من أجل أن يقيه السقوط ، إلا من أجل أن يقيه الانحراف ، إلا من أجل أن يقيه

الفضيحة ، وهذه واقعة أرويها سريعاً للقراء الكرام ، دعماً للفكرة ، وعسى أن يجدوا فيها العبرة والعظة :

رجل منحرف متبذل متحلل من كل قيد اقتنى آلة تصوير فيديو وصوّر نفسه مع زوجته ، بأوضاع مبتذلة ، وأعاد الشريط إلى مكتب إعارة الأشرطة بالخطأ ، إذ وضعه خطأً في علبة من نوع علب الإعارة ، ففوجىء صاحب هذا المكتب بشريط جديد ، طبع منه نسخاً كثيرة ووزعه ، إلى أن وصل الشريط إلى أحد إخوة هذا الإنسان ، نظر فإذا أخوه وامرأة أخيه في أوضاع مبتذلة يندى لها الجبين ، أعلم أخاه ، هذا الإنسان ظروفه جيدة ، ودخله وفير ، مطمئن في بيته ، اضطر هذا الإنسان إلى أن يبيع بيته في دمشق ، وأن ينتقل إلى حمص فِراراً من الفضيحة ، ما الذي حرّك هذا الإنسان ؟ اعتزازه فهذا فضيحة كبيرة جداً ، حين تنكشف الأشياء الخاصة لدرجة أن تصبح منشورة بين الناس .

لمثل هذه الحال يقال : **طوبى لمن وسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة** ، هذه بدعة ، وهناك أحاديث شريفة كثيرة جداً تؤكد أن هذه العلاقات الحميمة الخاصة لا ينبغي أن يجاهر المرء بها ، فكيف إذا صُوِّرَت ؟ فما الذي دفعه إلى أن يهجر بلده ؟ الفضيحة ، وقد يندفع الإنسان إلى الانتحار إذا شَعَرَ بالفضيحة ، أحداث كثيرة جداً ، يكتشف المرء أنه تلاعب أو أنه سرق ، وسوف يفضح على الملأ وعلى صفحات الجرائد ، فقد ينتحر .

إذاً : ينبغي ألا يستخفَّ أحد بهذا الدافع ، دافع الاعتزاز ودافع الشعور بالأهمية ، دافع العزة ، دافع تأكيد الذات ، دافع إثبات الذات

فهو دافع كبير جداً وخطير وما أودعه الله في الإنسان إلا رحمة بالإنسان وما أودعه الله في الإنسان إلا حصناً له ، ما أودعه الله في الإنسان إلا سياجاً منيعاً يحول بينه وبين السقوط في براثن القيل والقال .

وبعد فإن من أسماء ربنا سبحانه وتعالى المعز ومن أسمائه المذل ، والحقيقة أنت تكون عزيزاً لمجرد أن طبقت أمر الله ، مثلاً حينما تغضِ بصرك عن محارم الله ، حينما لا تخلو بامرأة أبداً ، حينما لا تكذب ، حينما لا تبوح بسرك وبما في قلبك لا يستطيع الناس أبداً أن يضعوك في موضع التهمة والذلة ، لو أن إنساناً دخل إلى بيت صديقه وصديقه ليس في البيت ، ولو كان بريئاً يتحدث الناس عنه ، يجرحه الناس ، إذاً أنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل ، تكون نزيهاً عفيفاً مستقيماً ملتزماً بالشرع فتكتسب عزة الشرع ، هذه أول نقطة ، فأنت عزيز لأنك مطيع لله عز وجل والله المعز حينما أمرك بهذا المنهج حصّن سمعتك .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، لا ينطق عن الهوى ، قال :

« لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »

[رواه الترمذي من حديث عمر]

فأنت ما دمت ملتزماً وعاملاً بنصِّ هذا الحديث فلا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك ، ولا أن يتهمك ، ولا أن يمرغك في الوحل ، ولا أن يلهج بين الناس بما يشينك ، لأنك عملت بأمر الله عز وجل ، في تطبيق أمره سبحانه حفاظ على سمعتك وعلى كرامتك وعلى عزتك وعلى مكانتك وعلى شأنك .

إذاً : الفكرة الأولى في هذا البحث أنك إذا طبقت أمر الله عز وجل واستقمت عليه ، ووقفت الموقف الشرعي في كل حالاتك فأنت عزيز ، والنبي ﷺ علمنا أشياء كثيرة ، كان مع زوجته صفية رضي الله عنها ، مر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ « على رِسلِكُمَا ، إنها صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله! يا رسول الله! قال : « **إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً** » [رواه مسلم] ، فالبيان يطرد الشيطان ، فأنت أدركت أن هذه حرام ، وهذه حلال ، هذه تجوز ، هذه لا تجوز ، وعزمت مثلاً ألا تدخل بيتاً ليس فيه رجل حتى لو كنت من أصحاب الحِرَف التي تستدعي العمل داخل المنازل ، إذا وجدت أن في الدخول لهذا البيت كإصلاح صنبور الماء ، خلوة ، فأنت لأنك مؤمن عليك ألا تدخل ، ولك أن تضحي بأجر ذلك اليوم حِفاظاً على سمعتك وعلى عزتك وعلى كرامتك ، هذا هو المعنى الأول ، فأنت أمين ، فالأمين عزيز ، عفيف ؛ العفيف عزيز ، صادق ؛ الصادق عزيز . تصور نفسك أنك تكلّمت بكلام فيه كذب في مجلس فدخل رجل يعرف الحقيقة ، فقال : ما الموضوع ؟ فقال أصحابك : والله فلان حدثنا كذا وكذا ، فقد ينظر إليك ، ويقول : لقد كنت معك حين ذاك ، والأمر غير صحيح . . فيبهت الذي كذب . .

إذاً لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت صادقاً ، لن تكونَ عزيزاً إلا إذا كنتَ عفيفاً ، لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت أميناً ، والدليل ، لو أن ابنك رَجَاكَ أن ترد على أصدقائه إذا اتصلوا به بالهاتف وتقول : إنه غير موجود ، وهو موجود حقيقة ، وكذبت ، فإنه لو لم يطلع إنسان على هذه الكذبة ، وتمت ، يعلم ابنك ، بل هو الذي طلب منك

ذلك ، فإنك تشعر أن هناك ضعفاً في شخصيتك ، تشعر بانهيار جزئي ، لا ، بل قل له : ابني مشغول ، وهو يعتذر عن لقائك ، هذا هو الصحيح ، فأنت لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت مستقيماً على أمر الله ، العفيف عزيز ، الأمين عزيز ، المستقيم عزيز ، الصادق عزيز ، المخلص عزيز ، الواضح عزيز .

إنّ أيَّ انحراف يتبعه ذُل الفضيحة ، عرف أحدهم أنك لست بصادق ، لحقك الذل ، عرف أنك لست بحكيم جاءك اللوم ، كشف أنك لست بأمينٍ فسحب الثقة منك ، كُشِفَ أنك لست بعفيف تشكك الناس فيك .

إذاً من أسماء الله المعز ، الذي أنزل على نبيه ﷺ كتاباً وأنطقه ببيان ، ونظّمَ نظاماً ، وقنن قانوناً ، وسنَّ سُنَناً ، وشرع شرائع إذا طبقتها بحكمة وبحذق وبدقة ، فأول ثمرة من ثمارها أنك تعيش بين الناس عزيزاً ، لا يستطيع أحد أن يلوك سمعتك بلسانه ، لا يستطيع مفترٍ أن يفتري عليك ، لا يستطيع متهم أن يتهمك ، لا يستطيع لأنه ليس لديه دليل ، أما إذا كانت هناك انحرافات ، هناك اختلاط ، وأماكن مشبوهة ، وعلاقات مريبة ، وهناك تداخلات وقد تكون بريئاً ، ولكن الناس يمضغونك بالأفواه ، هذا المعنى الأول : أن الله عز وجل يعزك من خلال شرعه ، يكفي أن تطبق شرعه فأنت عزيز ، وإذا كنت عزيزاً حققت ثلث وجودك ، الأول : الطعام والشراب ، الثاني : الزواج ، الثالث : تحقيق الذات ، تأكيد الذات ، الشعور بالعزة ، ومعلوم مما سبق أنه لا يجوز أبداً أن تقول : الله مذل فقط ، بل الله معز ومذل ، والأصوب أنه يذل من أجل أن يعز .

مثلاً : أذكر أن أحد إخواننا الأكارم صاحب محل تجاري ، عيّن

موظفاً ، ذلك الموظف ضعيف الوازع الديني ، ضعيف الانضباط ، فمنذ الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة الحادية عشرة ، وحده في المحل ، وهو متزوج حديثاً ، وزوجته لها طلبات كثيرة ، ضعف أمام نفسه فمن حين لآخر يضع مبلغاً في جيبه دون أن يعلم صاحب المحل ، صاحب المحل بالفراسة ، بالحاسة السادسة شعر أن المحل فيه نقص في البضاعة ، وفيه نقص في الغلة ، فماذا فعل ؟ رجا صديقاً له أن يأتي محله التجاري الساعة التاسعة ويشتري حاجات بخمسمئة ليرة ويدفع ثمنها نقداً ، ثم يعود في الساعة الخامسة ليعيد البضاعة لسبب ما ، فجاء صاحب المحل في الساعة الحادية عشرة ، وسلم على موظفه الكريم وسأله : ماذا جرى في هذه الساعات الثلاث ، فأخبره أن لا شيء ، قال : أما جاء أحد واشترى ؟ قال : لا ، حينما دخل ذاك الذي اشترى بضاعة في الصباح يريد أن يعيدها الساعة الخامسة وكان صاحب المحل وراء الطاولة ، والموظف حاضر فأخذت الموظف الخائن رعدة كاد أن ينهار على إثرها ، ووالله لو نظرت إلى وجهه لرأيت دماً ، قفز إلى وجهه ثم تبدد ليعلو الوجه شحوب المهانة ، وذل الخيانة .

ألم يذله الله ؟ لماذا أذله ؟ ليحمله على التوبة ، فإذا تاب واستقام على أمر الله صار عزيزاً ، فالله عز وجل لا يضع الإنسان في موضع ذليل إلا من أجل أن يعالجه كي يعزه ، فاعلم إذاً أن الله عز وجل هو المعز وهو المذل ، وينبغي أن تنطق هذين الاسمين معاً ، وينبغي أن تعتقد جازماً أنه إذا أذل فمن أجل أن يعز ، لكن البطل لا يحتاج إلى أن يذل كي يعز .

ذكرت من قبل أن الإنسان يمكن أن يكشف الحقائق بنفسه ، ولكن قد يكشفها بعد فوات الأوان ، وقد يكشفها وقد دفع حياته ثمناً لها ، وقد يكشفها وقد أضاع سعادته الزوجية وأردى نفسه وأهله .

إنسان تزوج امرأة ، دفعها إلى أن تعمل خارج البيت طمعاً براتبها ، دفعها إلى التحرر الزائف ، دفعها إلى الاختلاط المريب ، فهو إنسان عصري ، إنسان متفتّح العقل كما يقال ، إنسان واثق من زوجته إنسان. . إنسان. . إنسان ، وبعد أن دفعها إلى الانفتاح ، وإلى الاختلاط ، وإلى التبذّل ، وإلى أن ترتدي ثياباً وفق أحدث الصرعات ، صار اهتمامها به قليلاً ، صار غيابها عن البيت كثيراً ، اتصالاتها مريبة ، فوجىء أنها اشترت بيتاً آخر ، من دخل خاص جاءها ، فوجىء أنها استغنت عنه ، فقال بالحرف الواحد : يلزمني ذبح على هذا التصرف الذي فعلته مع زوجتي ، يحبها فدفعها نحو التحرر فأحبت غيره ، وانساقت مع غيره ، واستغنت عنه ، هذا الإنسان بربكم أيها القراء الكرام لو أنَّ في دمه كريات حمراء وبيضاء لرأى أنه كان مخطئاً في عمله بداية ، لقد عرف أنه كان مخطئاً لكن بعد فوات الأوان ، بعد أن ضحّى بسعادته الزوجية ، بعد أن ضحّى بأم أولاده ، بعد أن افتقر إلى العُش الإسلامي الحاني الدافىء .

أنا لا أريد لك هذه التجربة ، ولا أريد أن تكون حكيماً بعد أن تدفع الثمن باهظاً ، لكنك إذا اتبعت كتاب الله وسُنةَ رسولهِ ﷺ في مقتبل حياتك فأنت تهتدي برأي الخبير ، وبِحِكَمِ الخبير العليم ، أنت تستعمل هذه الآلة وفق هواك ، فيصيبها العطب ، ثم تُصلِح العطب ،

وتدفع الثمن باهظاً ، ويهبط مستواها ومردودها ، فلو أنك استعملت تعليمات الصانع لَصُنتَ هذه الآلة وأخذت منها أكبر مردود ، فليست البطولة أن تعرف الحقيقة بعد فوات الأوان ، ولكن البطولة أن تعرفها في الوقت المناسب .

إذاً : يمكن أن تكون عزيزاً إذا اتبعت كلام الله ، ويمكن أن تكون عزيزاً إذا أذلك الله عز وجل إثرَ انحراف ثم تبت من هذا الذنب ، فأنت بين أَن تكون عزيزاً بعد ذل ، وبين أن تكون عزيزاً بعد علم ، والفرق كبير ، تعلّم منذ البدء وكن عزيزاً ، وإيّاك أن تدفع ثمن عزتك ذلاً ومهانةً وإيلاماً .

قيل : المُعِزُّ والمُذِلُّ اسمان من أسماء الله تعالى ، وصفتان من صفات فعله ، والله عز وجل له ذات وله صفات وله أفعال ، إذاً له أسماء ذات وله أسماء صفات وله أسماء أفعال ، فمعظم العلماء يؤكدون أن اسم المعز والمذل من أسماء الأفعال ، هما اسمان من أسمائه تعالى ، وصفتان من صفات فعله ، فإعزازه للعبد يكون في الدنيا والآخرة ، لكن إياك أن تغتر بعز الدنيا ، فقد يكون عز الدنيا استدراجاً ، لذلك :

رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة . ورب نفس جائعة عارية في الدنيا ، طاعمة ناعمة يوم القيامة . ورب مكرم لنفسه وهو لها مهين . ورب مهين لنفسه وهو لها مكرم . ورب متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ، ما له عند الله من خلاق . ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة . ألا وإن عمل النار سهل بسهوة . ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

أحياناً ترى شخصاً حياته ناعمة جداً ، منزل واسع مفروش بأجمل الأثاث ، التكييف ، التدفئة ، التزينات ، الجبصين ، الثريات ، لا تُضاهَى أناقته ، مركبته ، مكتبه ، دخله ، تجارته ، مكانته ، ثيابه الأنيقة من أعلى مستوى ، ما شاء الله ، هذا طاعم شارب ناعم ، وقد يكون مصيره إلى النار ، وقد تجد إنساناً خشن الثياب خشن الطعام خشن الشراب ، منزله ضيق ، حياته من الدرجة الخامسة ، لكنه طائع لله عز وجل ، العبرة في النهاية ، « **ألا يا رب نفس طاعمةٍ ناعمةٍ في الدّنيا جائعةٍ عارية يوم القيامة ، ألا يا رب نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمة ناعمةٍ يوم القيامة** » .

لكن : « **ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » أحياناً الإنسان بدافع من عزته الباطلة يعصي الله ليحافظ على مكانته ، فلو كُنت بين أُناس فُجّار ، بين أُناس منحرفين وأردت أن تماشيهم في معصية حِفاظاً على مكانتك عندهم ، فقد أكرمت نفسك أمامهم ، ولكنك سوف تجعلها في الوحول يوم القيامة ، « **ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » .

قد تضع نفسك في الدنيا حفاظاً على دينك وحفاظاً على استقامتك ، وحفاظاً على مرضاة ربك وحفاظاً على آخرتك ، وحفاظاً على اتصالك بالله ، قد تضع نفسك في موضع صعب جداً ، قد تقول : لا أفعل ، وهناك ضغط كبير من أجل أن تفعل ، قد تقول : لا أفعل وهناك إغراء كبير من أجل أن تفعل ، حينما ترفض تأتيك عبارات التقريع والسخرية والتعليقات والاتهامات ، « **ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » .

قد تكون عضواً في لجنة يعرض عليك كذا وكذا ، تقول : لا أفعل هذا ، حينما ترفض أن تفعل هذا ، تُعزَل من هذه اللجنة ، ويأتيك اللوم الشديد ، ويُقال لك : إنك مجنون ، ضيّعت فرصة العمر في أن تكون غنياً ، « **ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » .

إذا أردت أن تفعل أمراً فتدبّر عاقبته ، مرة قرأت بحثاً لطيفاً ، سألوا مئة زوج في بلد غربي : لماذا لا تخون زوجتك ؟ هذا اسمه استبيان في علم النفس ، يعني هذا الذي لا يخون زوجته ما الذي دفعه إلى ذلك ؟ فجاء الجواب متنوعاً ، بعضهم قال : لا أستطيع ، لأنه يعمل معها في مكان واحد فهي تراقبه ، فقالوا : هذا أسخف جواب ، هو يتمنى ، ولكنه لا يستطيع .

أحياناً لا يستطيع تحمل الإثم ، ولو كان بينه وبين نفسه ، إذا فعل الإنسان فعلاً شنيعاً ، ولم يعلم به أحد ، يواجه نفسه بمرارة التعنيف ويواجه اللوم الداخلي ، يواجه التحقير الداخلي ، يواجه السقوط الداخلي ، فجاءت بعض الأجوبة : إنني لا أستطيع تحمل هذا الإثم ، وجاء جواب آخر : إنني أكره الخيانة ، فالثاني إذاً لو أنه تحمّلَ ألم الشعور بهذا الإثم لفعلها ، لكن ابتغى راحة نفسه ، لكن الثالث قال : أنا أكره الخيانة ، هذا أرقى جواب .

فالإنسان حينما يضع نفسه في مواطن صعبة حِفاظاً على عزته البعيدة ؟!! ، فالأغبياء دائماً يعيشون وقتهم ، الأغبياء يعيشون لحظتهم ، يعيشون ساعتهم ، أما الأذكياء فيعيشون مستقبلهم ، فإذا أردتَ أن تجري فحص ذكاء ترى إنساناً يعيش وقته ، يهمل صحته ، يهمل واجباته ، تأتيه المتاعب ، تأتيه الهموم ، تأتيه الأمراض ، لكن

الإنسان الأعقل هو كما قال في وصفه النبي ﷺ : **« الكيس من دان نفسه وعمِلَ لِما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسَهُ هواها وتمنى على الله الأماني »** [أحمد والترمذي وابن ماجه] عن شداد بن أوس .

عاش في العصور العباسية أديب اسمه ابن المقفع ، له كتاب كليلة ودمنة ، وهو كتاب مترجم عن اللغة الفارسية ، كتاب فيه قصص على ألسنة الحيوانات ، وهي مواعظ بالغة ، من هذه القصص حديث عن سمكات ثلاث ، قال : كيّسة وأكيس منها وعاجزة ، هناك غدير ماء ، فيه سمكاتْ ثلاث كيّسة ، يعني : عاقلة ، وأكيس منها يعني : أعقل ؟ وعاجزة ، هذا الغدير له فتحة يتصل بها مع نهر ، فقال : اتفق أن مر بهذا المكان صيادان ، فأبصرا الغدير ، وأبصرا ما فيه من السمك ، فتواعدا أن يرجِعا ومعهما شباكهما ليصيدان ما فيه من السمك ، فسمعت السمكات قولهما **« القصة رمزية طبعاً »** ، أما أكيسهن ، يعني أعقلهن ، أما أعقلهن فإنها ارتابت وتخوفت وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، هذا العاقل ، خذ هذه القاعدة واعمل بها **« العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها »** ، والأقل عقلاً حين وقوعها ، والأحمق بعد وقوعها ، هذه الكيّسة قالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، ولم تعرج على شيء حينما سمعت هذه الكلمة ، وسارعت حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت واستراحت ، وأراحت ، وانتهى الأمر ، وهذا شأن العاقل من الناس .

وأما الكيّسة الأقل عقلاً ، فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان ، وبسذاجة قالت : سوف أخرج من هنا حين يقدمون ، فلما أرادت أن تخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سدّه الصيادان ،

فقالت : فرطت وهذه عاقبة التفريط ، لكنها لم تستسلم ، وقالت : إن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ذكية ولكنها أقل ذكاء من الأولى ، ثم إنها تماوتت ، فطفت على وجه الماء منقلبةً تارةً على بطنها وتارة على ظهرها ، فأخذها أحد الصيادين فوضعها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت في النهر فنجت « **ولكن تحطمت أعصابها ودفعت ثمناً باهظاً** » ، وأما العاجزة ، فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت وأكلت ، وهذا حال العاجز من الناس « **تراه مرتبكاً يتلجلج جسماً ونفساً** » فالعاقل إذاً يحتاط قبل وقوعها ، الأقل عقلاً يبادر مع وقوعها ، العاجز يعرف الحقائق وعواقب الأزمات بعد وقوعها فيردى .

إن الله عز وجل يُعز الإنسان استدراجاً ، كأن يسول له بعضهم : إن فعلت كذا نضعك في هذا المكان ونمن عليك بكذا وكذا ، شيء مغرٍ ، مما يرفع شأنك عالياً بين الناس ، مبلغ كبير جداً تحل به كل مشاكلك ، تشتري بيتاً فخماً ومركبة تزهو بها بين الناس ، نبوئك منزلة رفيعة تمكنك من الهيمنة على الآخرين ، فكل هذا عِزّ ، ولكن هذا العز استدراج ، فإيّاك أن تفعل من هذا ، قل : الله الغني ، لو كنت في دائرة مظلمة ، لو كنت في زوايا النسيان وكنت طائعاً للواحد الديّان فأنت العزيز وأنت الرابح .

قالوا : فأما في الدنيا فقد يكون العِز إما بالمال أو بالحال ؛ بالمال ، وبالجمال ، وبالغنى ، وبالقوة ، وبالأعوان والأولاد ، وبالزوجات ، وبالمناصب ، وبِمتع الدنيا ، وبالبيوت وبالبساتين ، أحياناً قد يكون للإنسان منتجع جميل ، أو بستان وارف الظلال ، يدعو أصدقاءه ، ما شاء الله ، ما هذا الجمال ؟ يشعر عندئذٍ بِعِزّ ،

يزهو بهذا المنتجع ، ويشمخ بهذا البستان وما علم أنه فيض عطاء من الله سبحانه ، وأخذته عزة الدنيا زهواً .

اجعل لربك كل عزٍّ ك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزك ميت

فحينما يعتز بشيء من متاع الدنيا فإن عزه باطل ، بل يعتز أحياناً بشخص قد مات ، أو بمتاع فانٍ ، لذلك من علامات قيام الساعة أن المرء في آخر الزمان قيمته متاعه فقط ، كل مكانتك من ثيابك المستورة ، أصرت عظيماً بذلك ؟ أصرت عظيماً من مساحة بيتك الواسع ، أو من موقع بيتك في شارع كذا أو حي كذا فمن استمد عِزّهُ من الدنيا فقد وقع في متاهة كبيرة .

قال بعض العارفين : « **عز الدنيا بالمال وعز الآخرة بالحال** » ، لك حال فيه طهر ونقاء واستقامة وشوق ومحبة وقرب ، هذا عِزّ الآخرة أما المال فهو عز الدنيا والمال والدنيا إلى زوال .

قيل : إن فتحاً الموصلي ، كان قاعداً ، فسُئِلَ عمّن يلهث وراء الشهوات كيف صفته ؟ وكان بقربه صبيان ، مع أحدهما خبز بلا إدام ، ومع الآخر خبز وإدام ، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه : أطعمني مما معك ، فقال : بشرط أن تكون كلبي ، فقال صاحبه : نعم ، فجعل خيطاً في عنقه يعطيه اللقمة في فمه ويجره من عنقه كما يُجر الكلب ، فقال فتح الموصلي للسائل : أما إنه لو رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصر كلباً له . قال أبو موسى : فهكذا الدنيا .

إنها حكاية بليغة حقاً .

قصة ثانية ، وهذا حديث ورد على لسان سيدنا داود ، أن الله تعالى أوحى إليه أن يا داود ، حذِّر وأنذر أصحابك الشهوات ؛ فإن القلوب المعلّقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة .

وحُكِي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ خبزاً قفاراً ولم يكن له إدام ، فأخذ يتمنى بقلبه ؛ أن ليت كان له إدام يقدمه إلى أستاذه ، فأدرك الأستاذ أمنية الطفل فقام وقال : تعال معي ، فحمله إلى باب السجن ، فرأى الناس يضربون وتقطع جلودهم ويعذبون ، فقال الأستاذ لتلميذه : ترى هؤلاء الذين لم يصبروا على الخبز وحده ماذا حل بهم ؟ إنهم سرقوا ووقعوا تحت السياط .

وقيل : إن رجلاً خرج من السجن وفي رجله قيد يسأل الناس ، ويقول : أعطوني كسرة خبز ، فقال له أحدهم : لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك .

وهذه قصة رمزية ، يُروى أن رجلاً وقف بباب أمير ، فرأى خادماً يدخل بلا استئذان ، فعلم أن عفة هذا الخادم هي السبب في أن الحجاب قد رفع بينه وبين الأمير ، فلا شيء يدق أعناق الرجال كالطمع ولا شيء يذل الرجال ويحقرهم كالجشع .

الله عز وجل مُعِزّ ، مُعِزّ إذا طبقت شرعه ، ومُعِزّ إذا استغنيت به عمّن سواه ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه** » ، قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال : « **يتعرض من البلاء لما لا يطيق** » [رواه الترمذي من حديث حذيفة رضي الله عنه] .

« **اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ؛ فإن الأمور تجري بالمقادير** » .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن سهل بن سعد قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد! ، عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » .

فالعزة التي هي اسم من أسماء الله أيضاً صفة أساسية من صفات المؤمنين ، لقوله تعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

إذا كنت مؤمناً حقاً فأنت عزيز لأنك مع العزيز ، ولأنك على شرع العزيز ، ولأنك مفتقر للعزيز ، ومعتمد على العزيز ، والعزيز لن يخيب ظنك .

قال بعضهم : إعزاز الله لعباده يكون بصحة قناعتهم ، فإن الذل كله في الطمع .

وخلاصة البحث إذاً : المعز والمذل اسمان من أسماء الله الحسنى لصفتين من صفات أفعاله ، وموقف العبد من هذين الاسمين أنه إذا طبق أمر الله صار عزيزاً ، حكيماً ، وبمصطلح الفقهاء تحصيل حاصل ، يعني أمر الله فيه بذور عزه المطبق ، والله عز وجل بأمره التكويني يعزك إذا اعتززت به واعتمدت عليه وأخلصت له وأقبلت عليه ولم تشرك به ، والمعز والمذل اسمان يجب أن نلفظهما معاً ، والأصوب أن نقول : يذل ليعز .

* * *

الخالق

الحمد لله رب العالمين ، مع اسم « الخالق » ، بادىء ذي بدء يقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : ٢١] .

يُفهم من هذه الآية أن الخالق وحده ، ولا أحد سواه ينبغي أن تعبده ، فإذا توجه الإنسان إلى غير الخالق فقد ضلَّ سواء السبيل ، والخالق وحده هو الذي إذا عبدته سعدت بعبادته ، وإذا عبدته نجوت من عذابه ، وإذا عبدته أفلحت في حياتك ، وفُزت بعد مماتك ، ودخلت الجنة وسعدت فيها إلى الأبد ، قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

في المعنى المألوف اليوم أن الصانع وحده هو الجهة الوحيدة التي يمكن أن تعطي تعليمات التشغيل ، فمثلاً لديك آلة ، فما الجهة المخوّلة والوحيدة التي لها الحق أن تُصدر تعليمات التشغيل ؟ إنه الصانع ، فلو أن آلة ثمينة تملكها ، واتّبعت في تشغيلها جهةً غير جهة الصانع فقد أفسدتها ، وأعطبتها ، وأضعفت مردودها وخسرتها ، فببساطة بالغة ، يقول العقل : لا يعبد إلا الصانع ، أي لا يُتبع إلا

الصانع ، ولا يُطاع إلا الصانع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ لماذا ؟ ألا يعلم من خلق ، فهو عليم خبير حكيم يعرف طبيعة هذه النفس ، وما يصلحها وما يفسدها ، وما يسعدها وما يشقيها ، وما يرفعها وما يخفضها ، وما يطمئنها وما يخيفها ، إنه هو الخبير ، قال الله تعالى :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] .

أيّ إنسان واعٍ مَلك جهازاً له قيمته يحرص على سلامته ، ويسأل الخبراء المتخصصين دون غيرهم ، فقد تشتري سيارة ، وتراها ذات مظهر أخّاذ ، ولكن تخاف أن يغدر بك البائع ، وتسأل قبل شرائها خبيراً ، فتقول له : انظر لي هذه السيارة ما قوتها ؟ وما طبيعة محركها ؟ وما وضعها العام ؟ وما سلامة هيكلها ؟ إذاً أنت في أمورك التي تتعامل معها يومياً تبحث عن الخبير ، وتبحث عن العليم ، وربنا عز وجل قال :

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ، فمثلاً في الحياة الزوجية ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق : ١] .

أولاً نهى الرجال عن أن يُخرِجوا زوجاتهم من بيوتهن إذا طُلّقن ، ونهى النساء عن أن يخرُجْنَ دون إذن أزواجِهن إذا طلقن طلاقاً

رجعياً ، لأنه عليم بطبيعة النفس البشرية ، فالرجل والمرأة كلاهما ذو ميل فطري نحو صاحبه ، والنفس الفائرة قد تهدأ فورتها بعد حين ، فإذا ابتعد الزوج عن زوجته ، تفاقمت الأمور ودخلت جهات كثيرة على خط العلاقة الزوجية ، وربما أفسدته ، فإذا بقيت الزوجة في بيت زوجها فأكبر مشكلة في يومين أو ثلاثة تتضاءل بإذن الله ، أما إذا خرجت الزوجة إلى بيت أهلها غاضبة فأصغر مشكلة تغدو كبيرة إذا تناولتها ألسنة كثيرة ، فتفسد ما بقي صالحاً ، فلذلك هذا قانون وضعه الخبير ، والصانع والعليم والخالق ، قال :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٤] .

فإذا كنت أفضل علماً وخلقاً وورعاً وتقى وقد أنفقت من مالك على زوجتك فلك القوامة ، وإذا أردت أن تُفلح في إصلاح ما انخرق بينكما فعُد إلى كتاب الله ففيه الخير والفلاح ، لقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

ففي أي موضوع. . . حتى في شأن صحتك ، وعلاقتك الخاصة جداً ، وكسب رزقك ، وفي شأن شيخوختك ، عليك بهذا القرآن ففيه الهدى :

يقولون : « **من جمع القرآن ، متعه الله بعقله حتى يموت** » .

وقد استرعى نظري أحد الأطباء وهو يُعالج مريضاً مصاباً بتضيّق

شرايين الدماغ ، فصار إلى الحركة البطيئة ، فقال هذا الطبيب عليكم أن تحدثوه ، قلت : وما السر في ذلك ؟ قال : إذا حدثتموه اضطرَ إلى أن يُجيب ، فإذا أراد أن يجيب تنشطت خلايا الدماغ وتوسعت الشرايين في الدماغ ، قلت : يا سبحان الله : **« من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت »** .

فدماغ المصلي وقارىء القرآن ، والعابد لله عز وجل ، في نشاط دائم ، هل أذّن الظهر ؟ وهل دخل الوقت ؟ وكم ركعة ؟ أول ركعة ، الثانية ، الثالثة ، الأولى مع قراءة ، الثالثة بِلا قراءة ، فهو في نشاط دائم ، فإذا قرأ القرآن هنا إدغام ، وهنا ، إظهار ، وهنا إخفاء ، وهنا قلقلة ، وهنا مد طبيعي ، فالذهن متقد دائماً ليس ذلك فحسب وإنما يهتم بما هو أعمق من ذلك فهو يحاول أن يفهم معاني الكلمات ومعاني الآيات ، فالإنسان إذا قرأ القرآن فهو في نشاط دماغي دائم ، إذاً **« من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت »** . قال تعالى :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه .

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

لا يندم على ما فات ولا يخشىٰ مما هو آت :

ونحن في الصفحات التالية ندور حول آية واحدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

فأنت ليسَ لك حق أن تتبع إنساناً بعيداً عن الله عز وجل ، إيّاك أن

تستشير في أمورك شخصاً بعيداً عن كتاب الله ، مقطوعاً عن الله عز وجل ، لقوله تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان : ١٥] .

إذاً : الجهة الوحيدة في الكون التي تستحق أن تطيعها ، وأن تعبدها هو الخالق جل وعلا ، قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وقد ذكرت من قبل أن الإنسان إذا تولى جهات أخرى يُصاب بهزات تبعثره ، وخيبة أمل تمزقه ، وإحباط يدمره ، لأن أية جهة أخرى قد لا تعطيك الحقيقة ، أو قد تعطيك الحقيقة مزوّرة ، أو تنقل إليك فكرة مغلوطة لا يؤكدها الواقع ، ولا يخفى على أحد أن طمأنينة المرء وسعادته تكمن في أن يعتقد ما صح نقله ، وما قَبِلَهُ العقل ، وما أكَّدتُه الفطرة ، وما أيّده الواقع ، واقعٌ ونقل وعقل وفِطرة ، هذا هو الحق ، فإذا انطلقت في حياتك وفي حركتك اليومية وفي نشاطك من نقل صحيح وعقل راجح ومن واقع موضوعي وفِطرة سليمة ، وإذا اجتمعت لديك هذه الخطوط الأربعة في دائرة واحدة فأنت مع الحق ، والذي يكون مع الحق لا يخيب ظنه ولا يحبط عمله ولا ينقطع رجاؤه ولن يُفاجأ بحدث لم يكن متوقعاً .

ومن الآيات التي تتحدث عن اسم « الخالق » قول الله عز وجل :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٤] .

فكلمة : « الله » عَلَم على الذات ، أي : إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذات الموجودة الواحدة الكاملة ، وأسماء الله الحسنى على كثرتها تعود إلى أصول ثلاثة ، الله موجود ، والله واحد ، والله كامل . . فالله موجود ، والله واحد ، واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله ، أما وإن الله كامل فأسماؤه كلها حُسنى وصفاته كلها فُضلى ، لذلك لا غرابة إذ صاح أحد العارفين « يا رب لا كرب وأنت الرب » فالله موجود ، واحد ، ليس من جهة ثانية .

أصعب ما في الحياة أن يتبعثر الإنسان بين جهتين ، فيكون له رئيسان ، هذا يأمره بكذا ، وهذا يأمره بكذا ، ولقد حدثني أحد الأصدقاء فقال : معمل يملكه ثلاثة شركاء ، والثلاثة إخوة ، فالعمال تمزقوا ، فهذا الأخ يعطي أمراً ويجب أن يُنفّذ ، وذاك الأخ يعطي أمراً آخر ويجب أن يُنفّذ ، والأخ الثالث يعطي أمراً ثالثاً قد يتناقض أو قد لا يتسع وقت هذا العامل لتنفيذ الأوامر الثلاثة ، فتضطرب الأمور ، وقد ذكر الله عز وجل هذا في كتابه الكريم ، فقال :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] .

ولماذا يشقى بعض الناس في الحياة ؟ لأنهم موزّعون بين جهات عديدة ، إذ عليه أن يُرضي زوجته ، وأن يُرضي أمه ، وأن يُرضي من فوقه في العمل ، وأن يُرضي فلاناً الذي يُهدده ، فهو يتبعثر ، لكنّ المؤمن يُرضي جهة واحدة ، وهذه الجهة الواحدة هي القوية ، وبيدها

كل الجهات ، ومن هنا قال رسول الله ﷺ : « **من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك** » [ابن ماجه عن ابن مسعود] .

اسألوا الأطباء فمعظم الأمراض لها أسباب نفسية ، ومعروف عِندَ عامة الناس أن القرحة أساسها أزمات نفسية ، وأمراض القلب في معظمها مردها إلى أزمات نفسية ، كذلك وهناك أمراض تُصيب الجهاز العصبي أسبابها أزمات نفسية أيضاً ، والأمراض النفسية في أصلها مشكلات يعانيها الإنسان ، كما أن لدي معلومات حديثة مفادها ؛ أن هناك دراسات تؤكد أن معظم الأمراض العضوية لها أسباب نفسية ، وحينما يحاول الطب أن يفصل بين الأمراض العضوية والنفسية يقع في ضلال كبير ، حتى إن بعض أصدقائي حدثني أنه ذهب إلى بلد غربي لإجراء عملية جراحية في قلبه ، فقال : دَخَلَتْ عَلَيَّ ممرضة ذات مستوى رفيع ، نسقت الأزهار في غرفتي ، وبينما هي تُنسّقها سألتني : ما مرضك ؟ قلت لها : عملية دسام في القلب ، قالت : من الذي سيجري لك هذه العملية ؟ قلت : فلان ، فدهشت ، وقالت : فلان ؟! قلت : نعم ، قالت : فلان قبل أن يجري لك هذه العملية ، أجرى عشرة آلاف عملية مماثلة وكلها ناجحة ، ولم يخفق في واحدة ، قال : والله اطمأننت وارتحت ، ما دام هذا الطبيب الذي اخترته ليجري هذه العملية من أمهر الأطباء في هذه البلدة ومن أشهرهم ومن أنجحهم ، وقد أجرى عشرة آلاف عملية دون أن يخفق في عملية واحدة ، فارتاحت نفسي ، لكنه فوجىء وهو يسدد قائمة الحساب ، أن القائمة تتضمن مبلغاً كبيراً مقابل رفع معنويات المريض عن طريق هذه الممرضة ، وهي ليست ممرضة بل هي عالمة نفس ،

وظيفتها أن ترفع معنويات المريض ، ومن أجل أن تستفيد العضوية من ثقة الإنسان في الشفاء كانت هذه العملية .

وهذا الارتباط الدقيق بين النفس والجسد هو أحدث ما يبحث عنه الطب اليوم ، فلماذا كان المؤمن سعيداً ؟ لأن علاقته مع جهة واحدة ، ولا يحتاج معها إلى حلف يمين ، لا يحتاج معها إلى إيصال ، ولا إلى شاهد ، فالله مُطَّلع ، على ظاهرك وباطنك وحقيقتك ونياتك ومطامحك ، وألخص الأمر كله بالعبارة الدقيقة التالية : الإيمان صحة وعافية ، والمؤمن تبدو صحته طيبة ، والسبب لأنه موحد قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

جهة واحدة تستحق العبادة ، والحب ، والإخلاص ، وأن تعمل لها ، وأن تفني شبابك من أجلِها ، وأن تبذل كل عمرك في سبيلها ، هي الذات الإلهية ، لذلك لما قال ربنا عز وجل :

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] .

أي هو أهل أن تفني شبابك من أجله ، وأن تمضي كل حياتك في خدمته ، وأن تنفق مالك في سبيله ، وأن تبذل كل ما تملكه في رضاه ، وألخصها بكلمة واحدة : تضحية صادقة لكنها مجزية .

ولذلك فالإنسان عندما يستهلك نفسه استهلاكاً رخيصاً وينحدر إلى خريف العمر وهو قادم على حياة مجهولة ، لا يملك من نقدِها شيئاً ، وقد أمضى حياته كلها في أشياء لا تنفعه في آخرته ، فهو في ضياع ؛ فندائي صدى لنداء الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ .

الجهة الوحيدة التي تستحق الطاعة والعبادة والإخلاص والحب هي الله ، فأنا لا أعتقد أن في الأرض رجلين تحابا كسيدنا الصديق وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومع ذلك ماذا قال عليه الصلاة والسلام قال : « لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخي وصاحبي »[رواه البخاري من حديث ابن عباس] قال : « أيها الناس! إنه قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء ، وإني أبرأ إلى الله أن يكون فيكم خليل ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً وإن ربي اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » .

فأقول لكم : سِرُّ السعادة أنك تعمل لوجه واحد ، فتُرضي جهةً واحدة وتبحث عن خالق عظيم فتمحضه كل نفسك ، قال الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٤] .

فالخالق هو الله ، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، علم على الذات .

وفي آية أخرى قال الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

فالله سبحانه ؛ يحتاجه كل شيء في كل شيء فاعبدوه ، فلنلاحظ أن أمر العبادة يأتي في الأعم الأغلب في القرآن الكريم بعد اسم الخالق ، ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ ، ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ .

ومن ثم تطالعنا حقيقة أخرى : هو وحده « الخالق » ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] .

عندما تَحاوَرَ سيدنا إبراهيم مع النُّمرود قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت ، فرد عليه متنطعاً : أنا أُحيي وأَميت قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة : ٢٥٨] .

فكان النمرود الغباء كله ، والضلال والضياع والكفر .

وحينما تشح الأمطار وتنحبس السماء ، أقول لمن حولي : هل في الأرض كلها جهة بإمكانها أن تجتمع ، وأن تتخذ القرار بإنزال المطر ؟ لا ، فليس لأحد حيلة إلا أن يجأر بالدعاء إلى الله عز وجل ، والضراعة لاستنزال رحمة الله سبحانه وتعالى ، إذاً هو الله الخالق .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] .

أما صيغة « الخلاّق » ، فهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، يعني كثير الخلق وعظيم الخلق ، إذ ترى مجرة بُعدُها عنّا ستة عشر ألف

مليون كيلو متر ، ونجم قلب العقرب ، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ، وأربعة أخماس الكرة الأرضية بحر ، وبعض أعماقه تزيد على عشرة آلاف متر ، إنه شيء مخيف ، واصعد إلى بعض الجبال جبال الهمالايا مثلاً ، يهولك ارتفاعها . وانظر إلى بعض الحيوانات ، فالحوت الأزرق ، وزنه مئة وخمسون طناً ، ويستخرج منه تسعون برميلاً من زيت السمك ، يستخرج من حوت واحد ، فيه من اللحم خمسون طناً ، ومن الدهن خمسون طناً تقريباً ، وأحشاؤه خمسون طناً ، فهل من خالق غير الله ؟

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

غزارة الأمازون ، ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية ، يمتد مجرى هذا النهر في البحر بما يزيد على خمسة وثمانين كيلومتراً دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط ، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان : ١١] ، ترى محرك ماءٍ بسيطاً يملأ الفضاء صخباً وضجيجاً ، وقد يفسد عليك نزهتك ، وإذا كنت في مزرعة واحتجتَ إلى ماء ، وأدرت المحرك فإنه يفسد عليك سكون المزرعة وجمال الطبيعة ، قال الله تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

كتل السحاب تتحرك محملة بألوف الأطنان ، ومع ذلك تمر بلا صوت ، بل فيها الهدوء والبشرى ، قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم : ٤٦] .

وقال الله تعالى :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

وهذه الآية ذات معانٍ كثيرة ، فمن بعض معانيها أن الإنسان أحياناً يصنع شيئاً يكون في البداية بسيطاً ، لكنه كلما ارتقى علمه وارتقت خبرته يكمُل عمله ، وأكبر دليل انظر إلى مركبة صنعت في عام ألف وتسعمئة وإلى مركبة صنعت في عام ألف وتسعمئة وتسعين ، فإنه لا يوجد نسبة للمقابلة ، الأولى ، فانوسان بالأمام ومستودع زيت وسِراج ، تفتح باب البلور وتُشعِل الفانوس بالثقاب ، من أجل أن ترى طريقك في الليل ، والعجلات دون هواء ، والتشغيل من الخارج بالمحرك ، وحركة واحدة والمزمار هوائي ، ؟! هذه صناعة عام ألف وتسعمئة ، وبعض نماذجها موجود الآن في المتاحف ، وانظر إلى مركبة عام ألف وتسعمئة وتسعين فتفهم شيئاً كثيراً من أن الإنسان ارتقت صناعته وتكاملت أعماله ، لضعف خبرته ، إذاً فخبرته مكتسبة ، لكن انظر إلى خلق الإنسان ، فهل هناك إنسان معدّل ؟ إنسان نمط تسعين أو ثمانين ، هذا ، ليس إلا نوع واحد ودون أي تعديل ، لأن علم الله قديم وخبرته قديمة ، فما من مرة حمل أب ولده من يده فانخلعت يده ، فالصنعة متقنة ، والأربطة محكمة تماماً تحمل الجسم بالكامل ، قال سبحانه :

﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾ [لقمان : ١١] .

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] .

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ فإذا كنت تريد أن تعمل موازنة بينَ ما يصنعه الإنسان وبين صنعة الواحد الديّان فإنك ترى فرقاً كبيراً ،

فأنجح طبيب أسنان إذا أراد أن يقلع لطفل سناً فلابد من إبرة تخدير باللثة ، ويبكي ويشتم الطفل ويتمرد ، وأبوه يهدئه ، أما عندما يقلع الله ضرساً لطفل صغير كيف يقلعه ؟ يسقط مع الأكل ، فقد ذاب جذر السن شيئاً فشيئاً ، وانقطع العصب ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ اعمل موازنة ، ولْترَ الأشياء بحجمها الحقيقي ، فآلة التصوير تحتاج إلى تحميض فيلم ، يُقال لك غداً ، ونظرك الأشياء لا يحتاج إلى تحميض ، تنظر فتشاهد حالاً بالألوان وبالحجم الطبيعي مع الحركات ، صوراً متحركة ملونة! فأنت إذا نظرت بالعين المجرّدة ، رأيت مئة إنسان أمامك دفعة واحدة ، وكل إنسان له لون عندك ، ولكنك إن صورت في فيلم مئة رجل تقريباً فإنهم يظهرون بلون واحد ، فالعين المجردة تفرق بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة باللون الواحد ، فلو درَّجنا اللون الأخضر ثمانمئة ألف درجة وجدنا العين السليمة تفرق بين كل درجتين .

إذاً : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ، وازن بين آلة التصوير والعين ، تر فرقاً كبيراً جداً ، فمتى أُخذت المسافة والسرعة والفتحة ؟ هناك فتحة وسُرعة ومسافة ، فعينك بشكل عفوي وبشكل آلي تقيس المسافة ، والعضلات الهدبية تضغط على الجسم البلوري ضغطاً بحيث يتقوَّس تقوُّساً يجعل الخيال على الشبكية ؛ هذه المطابقة ، وهي من أعقد العمليات في العين ، فكل إنسان ينظر إلى شيء دون ستة أمتار يحتاج إلى مطابقة ، فالمطابقة ؛ أن هذا الشيء لو اتجه نوره إلى العدسة لوقع الخيال إما بعد الشبكية أو قبلها ، فحتى يقع خيال ظلِّ الشيء على الشبكية لا بد أن نعدل احديداب الجسم البلوري إما ضغطاً أو بسطاً ، فهذه العضلات الهدبية فيها علم كبير جداً تُرى كم

ميكروناً تضغط حتى يقع الخيال على الشبكية ؟ أعتقد أن عملية مطابقة العين من أعقد العمليات في جسم الإنسان ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

طائرة تُباع من مصنع لدولة ما ، فالمصنع لا علاقة له بحركة الطائرة ، ها هي ذي تقصف مدينة ، وتنقض على قرية ، والمعمل باعها وانتهى أمره ولا علاقة له بها ، لكن ربنا عز وجل ما من شيء خلقه إلا وأمرُه بيده ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

والحقيقة أن القرآن الكريم كتاب العمر ، وهو الكتاب المقرر ، وأنا أتمنى على القرّاء الكرام إذا قرؤوا القرآن ومرت بهم كلمة الخلق فليبحثوا عن العلاقة بينها وبين ما قبلها وما بعدها ، على جناح السرعة .

﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ﴾ خالق الكون هو الله رب العالمين ، عَلَمٌ على الذات ، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، خالق كل شيء ، أي لا خالق آخر خلق أي شيء ، هو خالق كل شيء فاعبدوه ، هذا المعنى الإيجابي ، أما المعنى السلبي ، ﴿هل من خالق غير الله﴾ ، ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ ، يعني خلق الجبال وخلق المجرات ، أي : إمّا كثرة الخلق عدداً ، وإمّا عظمة الخلق نوعاً ، وهذا معنى الخلاّق .

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ، يعني عليك إجراء موازنة بينَ ما يصنعه الإنسان وما يصنعه الواحد الديّان .

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ مما يُطمئن الإنسان أن الذي يخلقه الله عز وجل يبقى رهن أمره ، فأنت اطمئن أن كل من حولك وما حولك بيد الله عز وجل .

ومن ثم ندخل في بعض التفاصيل ، ولنبدأ في تفسير كلمة الخلق ، الخلق في اللغة جاءت بمعنى الإيجاد والإبداع والإخراج من العدم إلى الوجود .

الآية الأولى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ هذه الآية تشير إلى خالقين ، وثَبتَ بالدلائل العقلية والسمعية أنه لا مُوجِدَ إلا الله تعالى ، فوَجَبَ حملُ الخلق في هذه الآية على « التقدير » ، أما أنت فتصنع من خشب ومن جلد مقعداً ، فتكون قد قدرت كمية الخشب ونوعه وجودته ونوع الجلد ومتانته ولونه ، ونسّقت بينهما على شكل كُرسي ، فأنت حينما صنعت هذا الكرسي لم توجده من عدم ، ولكن صنعته من مواد موجودة ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ هذا مما تقتضيه هذه الآية .

والآية الثانية ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فالتراب موجود قبل الخلق ، والخلق هو « التقدير » ، أي قدّر كمية تراب معينة بنوعيتها وخصائصها وطريقتها ، وأسلوبها معين ، فهُنا من خلال آيات كثيرة جداً يأتي الخلق بمعنى التقدير .

فالآية الأولى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ، والآية الثانية :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ومعلوم أن المُراد من قوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ هو الإيجاد من العدم ، إذاً : خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ، إذاً الإيجاد من العدم شيء والخلق شيء آخر .

بل إنَّ بعض العُلماء يُفسّر قوله تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي خلق : قدر ، ثم أمر : كن فيكون يعني أوجد من عدم .

والآية الثالثة على أن الخلق هو « التقدير » ، فهناك سبب ، لأن الله عز وجل يقول ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

الخالق ، ولله المثل الأعلى ولكن للتقريب ، مهندس صمم بناء على الورق ، وعلمه كله وضعه في هذه الخريطة ، الخريطة تضم : خريطة الأساسات ، فالطابق الأول والطابق الثاني والدعائم الإسمنتية ، والشُّرُفات وكله على الورق ، فالخلق تقدير ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ﴾ ، أما البارىء فهو الموجِد من عدم ، كن فيكون ، والآن جاء دور المتعهد فحفر الأساسات وصبها خرسانة ، وأشاد الطابق الأول فوضع الإسمنت السائل فوق الحديد المسلّح إلى أن قام البناء ، فالخلق هو التقدير ، والبارىء هو الذي أوجد من عدم .

لكن البناء على الهيكل منظره قبيح جداً ، فلابد من عمل آخر وهو إعطاء هذا البناء الشكل المقبول ، فجاء دور الطيان ثم البلاط ، وأتى دور عامل الكهرباء وزيَّن الشرفات ، والجدران من الداخل والخارج ، فصار البناء جميلاً جداً ، فبين أن تضع العلم كله في أصل البناء ، ثم أن تبنيه وتعطيه صورةً محببة ، وهذا هو تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ

﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ، المصوِّر إعطاء الصورة الخارجية ، فالذي عنده أطلس تشريح ، يرى فيه إنساناً كله عضلات ، وهو منظر مخيف ، فعضلات الوجه بالعشرات ، ويرى إنساناً كله أعصاب ، وآخر كله أوعية ، وهناك صورة هيكل عظمي ، وانظر إلى الإنسان في آخر وضع بعد كسوته بالجلد تجده جميلاً ، وانزع الجلد عنه فهناك المنظر المخيف ، فربنا أعطاه صورة جميلة ، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ .

وإن شاء الله تعالى لنا عودة أخرى لهذا الموضوع لأنه متعلق بالخالق البارىء المصور ، وبشكل موجز فالخالق هو المُقدر ، والبارىء هو الذي يوجد من عدم ، والمصور هو الذي يعطي الصورة المناسبة لكل مخلوق ، فهذا الإنسان خلق بعلم ، فالقلب والعظام كلها خلقت علم ، وبعد العلم هناك إيجاد ، وبعد الإيجاد هناك صورة أعطاها الله هذا المخلوق كالبناء تماماً ، وكجواب عن سؤال يفرض نفسه وهو : ما الفرق بين خلق وفطر ؟

فأقول موضحاً : إن الفرق بين الخلق والفطر : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالحال واضح كثيراً ، لاحظ الطفلة الصغيرة ما الذي تفعله ؟ دع بُنْية جسمها وأعضائها وأنسجتها وأشكالها وخطوطها ، فلها بُنْية خاصة ، وميول خاصّة ، دعني أطلق عليها البُنية النفسية ، فهي تميل إلى تربية الأولاد ، فقد تضع وسادة على يدها وتربت عليها ، أما الطفل فقد يركب قضيباً يتخذه كحصان يعدو به ، فلماذا اختار الطفل لعبة الحصان ؟ واختارت الفتاة مخدة (وسادة) جعلت منها رمزاً لوليد على يدها ، يعني البُنى النفسية هي الفِطْرَةُ .

ترى الإنسان أنه يخاف :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ١٩ـ٢١] .

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] .

البُنى النفسية ، يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

هذه بنية نفسية ، وبُنى جمع بنية ، وللبنية النفسية خصائص ، فالغنمة لها خصائص بجسمها وعضلاتها وجلدها وصوفها ، وهذه البنية الجسمية . ولها خصائص بنفسيتها ، يقال « مثل الغنمة » أي : مطواعة ، مذللة ، قال الله تعالى :

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] .

فأنت ترى أنها تنساق مع صاحبها إلى حيث يريد وكيفما يريد ، وطبيعة الغنم أنها تجتمع بعضها مع بعض فلا يستطيع راعٍ أن يجمع خمسين كلباً بعضهم مع بعض فكل واحد في جهة ، أما قطيع الغنم فيجتمعون ، هذه بُنى نفسية ، انظر إلى البقرة ، وانظر إلى الجمل ، يقال لك الجمل حقود ، والحصان وفي ، فخصائص نفس المخلوق من الفطرة ، أما خصائص جسمه فمن الخَلْق ، أعود فأكرر : إن الشيء المتعلّق بجسمه وبأعضائه وبتشريحه وبوظائفه هذا متعلق بالخلق ، وأما الذي يتعلق بخصائص نفسيته فهذا من الفطرة لذلك قال

تعالى : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، فالثعلب ماكر ، والجمل حقود ، وهكذا كل حيوان له خصائصه ، وهناك حيوانات أهلية وحيوانات متوحشة ، وحيوانات مفترسة ، وحيوانات وديعة ، وربنا قال ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ .

والخلاصة إذاً : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهذا يبرز أن الله سبحانه أعطى كل مخلوق خصائص نفسية في التعامل مع الآخرين ، وأما الخلق فيبرز الخصائص المادية التي جعلها لكل مخلوق ، والخلق تقدير ، والبَرءُ هو الإيجاد من عدم ، والتصوير هو إعطاء الشيء الصورةَ التي أرادها الله ـ سبحانه ـ له .

* * *

البارئ المصور

من أسماء الله الحسنى ، « البارىء المصور » ، إذ حديثنا في الصفحات السابقة عن اسم الخالق الذي ورد في القرآن الكريم مقترناً مع اسم البارىء والمصور ، فقد دَرَجَت الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى على أن تشرح الأسماء الثلاثة معاً في سياق واحد ، وقبل أن أنتقل إلى اسم الله البارىء المصور لابد من وقفة قصيرة مع اسم الخالق ، فتتساءل كيف يقول الله عز وجل :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

وكيف يقول في آية أخرى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] .

في الآية الأولى يُثبت الله عز وجل أن هناك خالقين كثيرين ، لكن الله أحسنهم ، وفي الآية الثانية يقول : هل من خالق غير الله ؟ هو ينفي عن طريق الاستفهام الإنكاري أن يكون في الكون خالق غير الله .

فالإنسان حينما يقرأ القرآن قراءة أولية ، ولا يتعمّق في العلم ولا يسأل أهلَ الذِّكر ، وحينما يقف عند آية من الآيات المتشابهة ولا يحاول أن يسأل عنها فقد يشعر أن في القرآن تناقضاً ، ولذلك

فهؤلاء الغربيّون أو المستشرقون الذين درسوا ما في الشرق من أديان ومن ثقافات ، هؤلاء قالوا : إن في القرآن تناقضاً ، وهذه نظرة ساذجة أولية لا تقف على قدميها ، فالعلماء المحققون قالوا : إذا قال الله عز وجل : تبارك الله أحسن الخالقين أي : إنّ إنساناً أخذ مواد أولية من الأرض وصنع منها شيئاً ، يسمى خالقاً مجازاً ، فتعريفه كما يلي : الإنسان خالق إذ يصنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق ، فإذا قلت : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ، فهؤلاء الذين يصنعون نماذج في بعض محال الألبسة ، ويضطرون إلى صنع تماثيل يضعون عليها الألبسة ، فهذا التمثال إن كان من شمع أو من جِبس أو من أية مادة ، اجعله إلى جانب إنسان من لحم ودم ولاحظ الفرق بينهما ، فهذا إنسان فيه حياة وله فكر وقلب ومشاعر وهو ذكي ، يستنبط ويحاكم ، ويفكر ، ويتفاعل ، ويغضب ، ويخاف ويرجو ، وله أوعية وشرايين وأعصاب ، وعضلات ودماغ وجهاز عصبي ، فإذا وازنت بين من يصنع هذا التمثال كي توضع عليه الألبسة ، وبين من يخلق هذا الإنسان من لحم ودم ، فقُل : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ .

وإذا رأيت وردةً طبيعية تفوح برائحة زكية ، فأنت تشعر أن قلبك قد هفا إليها ، وإن باقة ورد تُضفي على المكان أنساً وفرحاً وسروراً ، وإذا دُعي الإنسان إلى عقد قِران رأى الأزهار ، وهذه النباتات الطيبة الرائحة بألوان مختلفة دقيقة جداً ، ولا تعرفون قيمة التلوين إلا من خلال صنع الحكيم.. فالفراشات والأزهار هي الأساتذة لمهندسي التلوين ، فلو نظرت إلى مركبة حديثة جداً ، فإنك تجد ألوانها مقتبسة إمّا من زهرة أو من فراشة ، يقول العوام هذا أصفر غير جميل وهذا لون زهر جميل جداً ، لكن يمكن تدريج اللون الواحد إلى ثمانمئة

ألف درجة والعين البشرية تفرّق بين كل درجتين ، وإذا وضعت في بيتك ورداً صناعياً ، فبعد أسبوع تضيق ذرعاً به ، وتجد الإنسان بعد فترة أمسك بهذا الورد ووضعه في سلة المهملات ، إذ لا يحتمله ، على الرغم من منظره الجميل وحجمه الكبير وألوانه الزاهية ، فالفرقُ كبيرٌ بين الورد الطبيعي والورد الصناعي ، وانظر إلى عين صُنعت لتكون وسيلة إيضاح ، وإلى العين البشرية ، ففيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط ، فالعصب البصري وحده مؤلف من تسعمئة ألف عصب ، فوازن بين آلة تصوير والعين ، فالعين الواحدة في الثانية تلتقط عشرات الصور ولابد أن تمحى الصورة الأولى لتأتي مكانها الصورة التالية ، ولو أن الصورة تنطبع في العين ، وتبقى فالرؤية تستحيل كما أنها ترى الحركات والسكنات ، حتى إن الذي اخترع السينما ، قامت لديه على مجموعة صور تُعرض تِباعاً في زمن قصير بحيث تتوهم أنها متحركة ، لا ، إنما هي صور ثابتة وجامدة ، فكذلك العين لابد أن تنطبع هذه الصورة على الشبكية أولاً ، وبعد ذلك تُمحى وتأتي الصورة التي تليها وهناك عتبة للرؤية ، وهذه العتبة تُريكَ الأشياء متحركة ، فإذا وازنت بين العين وآلة تصوير ، وبين وردة طبيعية ووردة صناعية ، وتمثال من شمع وإنسان حقيقي ، فمجال الموازنة كبير جداً ، فإذا أردت أن ترى صنعة الإنسان دقق في محرك يخرج كمية من الماء له صوت يصم الآذان ، أما حينما يهطل المطر مدراراً بكميات كبيرة جداً فلا صوت ولا صخب ، قال ربنا عز وجل :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

فالجبال تمر في سرعة السحاب بلا صخب ولا ضجيج ، فإذا قرأت قوله تعالى :

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

إذاً فلا غرابة أن يسمى الإنسان خالقاً لأنه صنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق ، فإذا قلت : ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ تفهم من هذه الآية أنه إذا عُزي الخلق إلى الله فالمعنى أن يخلق الله شيئاً من لا شيء على غير مثال سابق ، وشتان بين الخلق على غير مثال سابق ومن دأبه التقليد لمثال سبق .

فليس في الكون كله إلا الله يستطيع أن يصنع شيئاً دون شيء على غَير مثال سابق ، أما إذا قلت : إن الإنسان يخلق شيئاً فتجد حقيقته واضحة في قول الله عز وجل :

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

أجل ؛ كهيئة الطير وليس طيراً ، ومن طين ، لا من لحم ودم وروح ، إذاً لا تناقض بين الآيتين ، إذ قال تعالى في الأولى : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بينما قال تعالى في الثانية : ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ .

ولكن الشيء الذي يلفت النظر ، وسبق لي أنْ أوضحته أنّ في القرآن الكريم كلمات إذا جاءت مجتمعة فلها معنى ، وإذا جاءت منفصلة بعضها عن بعض فلها معنى آخر ، مثلاً : الفقراء والمساكين ، هاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا ، وإذا تفرقتا اجتمعتا ، أي إذا ذكر الله في القرآن كلمة المساكين فقط ، فالمقصود عندئذٍ : الفقراء والمساكين ، أما إذا ذكرت كلمة الفقراء والمساكين معاً فالفقراء صنف

والمساكين صنف ، وبناءً عليه إذا وردت كلمة خالق وحدها معزوّة إلى الله عز وجل فهو الذي يوجد من العدم على غير مثال سابق ، أما إذا قال الله عز وجل : هو الله الخالق البارىء المصور ، صار « الخلق » هو التقدير ، و« البَرء » هو الإيجاد من عدم و« التصوير » إعطاء الصورة .

وبعد ، فقد يسأل سائل : ما علاقتنا بهذه الأبحاث المتعلقة بأسماء الله الحسنى ؟ إنه وقت مناسب جداً لأن أجيب عن هذا السؤال ، فالإجابة : أنك إذا عرفت أن الله خالق فقط ، فهذا تعرفه العامة كذلك إذ لو سألت عامّةَ الناس : مَن خلق الكون ؟ لقالوا : الله ، ولكن لو سألتهم : ماذا تعرفون عن الله ؟ لوجموا ، وهذا ما لابد من بحثه ، فأن تعزو خلق الكون إلى الله ، هذه قضية أقرَّ بها إبليس ، والدليل قال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] .

فاعترف إبليس أن الله رب وعزيز ، ولكن الاعتراف والإقرار لا يكفي ، بل المهم هو : ماذا تعرف عن الله عز وجل ؟ وبذلك يظهر إيمانك بالله ودرجة إيمانك به ، ولدينا مقياس دقيق وصائب ، فهذا الإيمان إذا حملك على طاعة الله فهو كاف كي تنجو به من عذاب الله ، أجل إذا حَمَلَكَ إيمانُكَ على طاعة الله فنَمْ قرير العين واطمئِن لأنه ينجيك ، أما إذا كان بحجمٍ لا يكفي أن يحمِلَكَ على طاعةِ الله فذلك الخسران المبين ، أقول لكم ما روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ : لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ

بِاللَّيْلِ وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ » وَروي عن رَسُول اللهِ ﷺ : « إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللهِ » [الترمذي من حديث أبي هريرة] وَروي عن رَسُولِ اللهِ ﷺ : « جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ : « أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا الله » . [أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة] .

إذاً ، إذا اكتفيت بمعرفة الله فالطريق أمامك لازال طويلاً ، وليس المهم المعرفة المهم مردودها ، والمردود هو الطاعة لله عز وجل ، ولذلك قال بعض العلماء في قوله تعالىٰ :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ما الذي يجعله يصعد إلى الله عز وجل ؟ العمل الصالح الذي يرافقه ، فلو أن الكلم الطيب خلا من عمل صالح لما صعد إلى الله عز وجل .

إذاً : فالذي يرفعك هو عملك الصالح ، وعملك الصالح أساسه حجم معرفتك ، فمن الممكن أن نُعطي الإيمان كما يقولون حجماً مادياً لنتبيّن الحقيقة ، فلو وضعنا الإيمان في كفة ، ووضعنا الشهوات في كفة ورجحت كفة الشهوات فالإيمان لا يكفي ، والصِّراع قائم لا محالة .

وربنا عز وجل حينما وصف النبي عليه الصلاة والسلام قال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

فالنبي متمكّن من أخلاقه ، وقد انعدم أي صراع لديه ، أما إذا كان حجم إيمانك بحجم شهواتك ، أو كان وزن الإيمان الضاغط عليك كوزن شهواتك الضاغطة عليك ، أي : كان الوزنان متساويين

فقد دخلت في الصِّراع بينهما حتماً ، أما إذا كان حجم إيمانك أكبر فسوف تنجو من الصِّراع ، وتكون من الفائزين ، وتقترب من معنى التمكن من الخُلُق العظيم .

وإذا كان حجم الشهوات أكبر فقد ولج المرء باب مدخل ثانٍ ، ونبدأ عندئذٍ بالسؤال التالي : لماذا أودع الله فينا الشهوات ؟ . . فلنتصوّر أولاً أن الإنسان ليس فيه شهوات ، بل عنده عقل فقط ، وعقله يأمره أن يتجه إلى الله ، فأين العبودية لله ، لا تبدو عبوديتك ولا حبك ولا إخلاصك ولا طاعتك ، بل كل حقيقة الحياة الدنيا التي أساسها الابتلاء لا تظهر ، إذا ليس لدى المرء شيء من الشهوات فلِحِكمةٍ أرادها الله عز وجل ، أودع فيك أيها الإنسان شهوةً وأعطاكَ عقلاً ، فالعقل له نِداء والشهوة لها نِداء ، فإذا غَلَبَ نِداء الشهوة فسينطبق على هذا الإنسان قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

[المؤمنون : ٩٩ـ١٠٨] .

أي : غلبت علينا شهوتنا ، التي أشقتنا ، فسمَّاها بنتائجها ، غَلَبَت علينا شهواتنا التي كانت سبب شقائنا ، وكنا قوماً ضالين : ﴿ رَبَّنَآ

أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٩-١١١] .

إذاً لابد من معرفة أن في الإنسان دافعاً شهوانياً ووازعاً عقلياً ، فإذا غَلَبَ العقل على الشهوة نجا ، وإذا غَلَبَت الشهوة على العقل هَلَك ولِحِكمَةٍ أرادها الله أنت مُمتحنٌ دائماً ، مُمتحنٌ بين أن تنام وأن تُصلي ، فالعقل المساق بالشرع يقول لك : قم فصلِّ ، والجسم يقول : اخلُد إلى الفراش فأنتَ متعب ، تسمع أذان الفجر ، فيقول لك العقل المقاد بالشرع : قُم فصلِّ هذا وقت الصلاة والصلاة خير من النوم ، ويقول لك الجسد : ابقَ مستريحاً فقد سهرت طويلاً ، وأنت إنسان مُتعب ، وعليك أن تقوم إلى عملك نشيطاً ، فتصلي قضاءً ، لاحظ نفسك دائماً فأنت بين نداء الشهوة ونداء العقل ، فإذا غَلَبَ عقلُكَ الخاضع لشرع الله نجوت وسَعِدت ، وإذا غلبت شهوتك أهلكت نفسك وشقيت .

لذلك هذا ماقاله الإمام رضي الله عنه **« رُكِّب المَلَكُ من عقل بلا شهوة ورُكب الحيوانُ من شهوة بلا عقل ، ورُكِّب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان »** .

وما تراه عيناك في الدنيا من انحراف الناس وسقوطهم في مهاوي الرذيلة وانغماسهم في الملذّات المُحرّمة ، إنما هي معركة انتصرت فيها الشهوة :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

[النازعات : ٤٠ـ٤١] .

فلماذا يجب أن تتعرف على أسماء الله الحسنى ؟ كي يكون أمر الله عز وجل عظيماً مستمداً من عظمة الله ، لاحظ نفسك لو كنت في ثُكنة ، فجاءك أمر من عريف ، فالأمر له وقع عندك ، لو جاء من عريف أول لكان له وقع آخر ، وكلما ارتفعت الرتبة كان وقع الأمر أشد ، فلو جاءك أمر من قائد الجيش لبادرت إلى التطبيق خوف العقاب والمسؤولية ، فإذاً المشكلة أن أمر الله بين الناس مبذول ، والقرآن موجود والعلماء يشرحون كل أمر ، فلماذا يعصي الإنسان الله عز وجل ؟ لأنه لا يعرف حقيقة الآمر ، فلو عرفه لَطَبّقَ الأمر ؛ فإذا عرفنا أسماء الله الحسنى وعرفنا عظمة الله عز وجل عندئذ يعظُم عِندَنا أمرُه ، وإذا عظّمنا أمره بادرنا إلى تطبيقه ، فلذلك : أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ .

وحينما نتلو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] .

إذاً لماذا تعبدونه ؟ لأنه الذي خلقكم ، وهو سبحانه خالق ورب ومسير ، فيجب أن تؤمن أنه خالق ورب ومسيّر ويجب أن تؤمن أنه واحدٌ في خلقه ، واحدٌ في ربوبيته ، واحدٌ في تسييره ، فوحدانية الخلق ووحدانية الربوبية ، ووحدانية التسيير ، هذه هي التي إذا أيقنت بها وعملت لتحقيقها وبمقتضى ما أمرك هذا الخالق نجوت وارتقيت .

وبالمناسبة ، ففهم الاسم شيء ، وأن تعيشه شيء آخر ، أي : إذا فهمت أن الله هو الخالق بمعنى أنه خلق الأشياء من غير شيء على غير مثال سابق ، فقد تنطلق في الحياة مؤمناً بأن كل ما يجري من فعله وبإرادته .

وأسماء الله الحسنى منها ما يكون على صيغ مبالغة اسم الفاعل فتعني الكثرة النوعية والعددية ، لكنك إذا انطلقت في الحياة العملية ، ورأيت زيداً وعُبيداً ، وحوادث وأفعالاً ، ونسيت أن الله هو الذي يخلق كل هذا ، ويفعله ، وتجري به إرادته ، فعندئذٍ نقول لك : أنت فهمت معنى الخالق ، ولكن لم تعش هذا الاسم ولم تفكر به ، وبعد فإن السعادة الكبرى الحقيقية ، ليست في فهم تعريفات هذه الأسماء ، ولكن في أن تعيشها ، ولا يمكن لك ذلك إلا إذا اجتهدت وجاهدت نفسك وهواها ، وفي ممارسة العمل الصالح وبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس ، وعندئذ تُقبِل على الله عز وجل ، وإذا أَقبلت عليه فهو يلقي في قلبك المعرفة والسكينة والطمأنينة ، وعندئذ ترى الله في كل شيء .

لا أريد أن يبقى الدرس كما يقولون أكاديمياً ، أي : معلومات وتعريفات أملأ بها صفحات الكتاب ، بل أريد أن يعيش أحدنا هذه الأسماء ، وهذا ينقلنا إلى أنَّ المعلم يختلف عن المربي ، فالمعلم إنسان يلقي على الناس حقائق ، وأدلة ، ومعلومات منظمة ، ومبوبة ، ومرتبة ، ومصنفة مع أدلة قطعية ، ونقلية ، وعقلية ، وواقعية ، وفطرية ، والبحث منظم ومبوّب ، ومبرمج ، فهو والله موضوع لطيف ، ولكن الذي يسعى إلى أن يصطبغ بِصِبغة هذا العلم ، والذي

يسعى ؛ ليكون في مستوى هذه الأسماء ؛ وأن تمتزج بها نفسه لا أن يفهم تعريفاتها فقط ، هو المربي ، فأنت أيها القارىء الكريم حاول إذا علّمت الناس أن تكون مربياً ؛ لأن كل مربٍّ هو في الأصل معلم ، لكن المعلم وحده لا يكفي لملء فراغ النفوس والأفهام ، فالكلمة الأخيرة إذاً ترتكز حول اسم الخالق بين أن تفهم تعريفه النظري ، أو أن تفهم هذا الاسم ، وأن تعيشه مدى الحياة .

لقد ضربت على هذا مثلاً ، مفاده أن الإنسان إذا قرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

وهذا أخ مستقيم على أمر الله ، وله صديق غارق في معصية الله ، لكن هذا الصديق ذو بحبوحة كبيرة ، ويغبطه صديقه المستقيم على ماله ورخائه وصحته الجيدة ، ولكن المستقيم يعاني من كذا وكذا ، ويذكره إخوة له صادقون معه : أنت مستقيم وهو غير مستقيم ، وتقول : هنيئاً له !! ، فإذاً هذا وإن قرأ هذه الآية مرات ومرات : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ، ولم يعِش مفهومها ، ولا تأثر بمعناها ، فما فهم منها شيئاً .

إن الفرق كبير جداً بين أن تفهم أسماء الله الحسنى بحدودها وتعريفاتها ، والفرق بينها وبعض الأدلة وأقوال العلماء فيها ، وبين أن تعيش هذه الأسماء ، فإذا تأملت الكون وعرفت الله عز وجل وبذلت جهداً كبيراً في طاعته ، وفي التقرّب إليه فقد عاد عليك ذلك بالخير الكثير ، وهو أنَّ الله يملأ قلبك غنى ، ونفسك بصيرةً ، وترى عندئذٍ ما لا يراه الآخرون ، وتسمع ما لا يسمعون ، فهذا هو التميز ، فإذا أردنا أن نُقرر حقيقة ، وهي أن هذه الأسماء الحسنى ينبغي ألا نكتفي

بفهم مدلولاتها وحدودها ، وأبعادها وتعريفاتها وما تعنيه في المعاني العامة والخاصة ، ولكن ينبغي أن نعيشها ونمتزج بها .

ولابد من أن يكون هناك اتصال بالله عز وجل ، حتى تعيش هذه الأسماء وحتى تشعر أنك مع الله دائماً ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟! هذا الذي قاله الإمام الغزالي ، ومن ثم فلتعلم أن هناك عِلماً بأمر الله وعِلماً بخلق الله ، وآخر بالله .

العلم بأمر الله وبخلق الله يحتاج إلى مدارسة كتابٍ نقرؤه ونحفظه ونفهمه : أي نعيد ونكرر ونتذكر ونكتب ، ثم نؤدي فحصاً ونأخذ شهادة ، فهذه المُدارسة عن طريق الكتاب والقراءة والمراجعة والفهم والتلقي والإلقاء ، وما شاكَلَ ذلك ، هذه المُدارسة تؤدي إلى حفظ المعلومات ، ولكن أين تُحفَظ ؟ إنها تُحفَظ في الدماغ ! .

ولكن المُجاهدة ، وغض البصر ، وإنفاق المال ، وبِرّ الوالدين والصدقة النافلة غير الزكاة ، وقيام الليل ، وإتقان الصلوات ، وكثرة الذِّكر وتِلاوة القرآن فهذه اسمُها مجاهدة للنفس وطاعة لله ، ثم إذا عَزَفْتَ عن رحلة لا تُرضي الله وعن حفلة لا تُرضي الله ، وطعام شهي جداً ، ولكن حوله مجتمع اختلاطٍ وقُلت : مَعَاذَ الله ، فهذه هي المُجاهدة للنفس لردها عن سُبل الهوى ، أي : أن تُجاهد نفسك وهَوَاك ، ومن شأنِها أن تصلك بالله ، وإذا اتصلت بالله عز وجل جاءتكَ أنواره وسكينته ، وجاءتك السعادة ، والبصيرة النافذة ، فالإنسان المؤمن شخصية فذة ، أي : يتمتع برؤية صحيحة ، فيرى حقائق الأشياء ، وبواطِنَها ، وما تنطوي عليه وأبعادها الحقيقية وخلفياتها الغائبة عن معظم الناس ، فهذه البصيرة خاصة بالمؤمنين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلوبهم النور ، والدليل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

أجل ، هذه خاصّة بالمؤمن ، فإن الله يعطي السكينة أصفياءه المؤمنين بقدره ، والمؤمن شخصية فذة ، وحينما يجاهد نفسه وهواه يأتيه الجواب ، وتأتيه ثمرات جهاده ، وهي نورٌ في قلبه ، وبصيرةٌ نافذة ، فقلبٌ واثق بالله عز وجل ، وكلامٌ سديد ، وتفكيرٌ صحيح ، وموقفٌ متوازن فهو شخصيةٌ واثقة بالله لا تنهار سريعاً ، لأنه حصل على هذه الثِّمار ، وأفاد مما فيها .

ولذلك فمعرفة الله عز وجل طريقها المُجاهدة ، لكن معرفة شرعه أو معرفة خلقه طريقها المُدارسة ، فبين المُدارسة والمُجاهدة بونٌ شاسع ، والمُدارسة لا تُكلّف كثيراً فقد تحتاج إلى طاولة وكتاب وقلم ، وقد تكون أنتَ في واد والكتاب في واد ، ولهذا فقد يأخذ الإنسان أعلى الشهادات وهو غارق في أحط الشهوات ، أما إذا جاهَدَ نفسه وهواه فقد اصطبغ بِصِبغة الله عز وجل ، أي : شَعَرَ في نفسه سمواً وعن شهواته تنائِياً وتصعيداً ، وفي ميولِهِ شرفاً ، وفي تفكيره دقة ، وفي كلامه سداداً ، وفي مواقفه أخلاقاً وشرفاً .

إذاً كل ثمار الدين تأتي من معرفة الله ، ومعرفة الله ثمنها المجاهدة ، فالذي يتمنى أن يعيش هذه الأسماء ، لا أن يعرف مدلولاتها وأحكامها- وأبعادها ومعانيها الدقيقة بشكل نظري فقط ، فعليه أن يعيش هذه الأسماء بشكل عملي ، وأحياناً المؤمن يرى يد الله تعمل في الخفاء ، فكل شيء يشاهده أو كل قصة يسمعها أو كل حادث يراه ، إنما يفهمه فهماً من خلال شعوره أن الله يرقبه ويصحبه ، وأن الله خالق كل شيء .

إذاً : أردتُ في خِضَمِّ الحديث عن أسماء الله الحسنى أن أقف وقفة قصيرة حول الجدوى التي تُعلَّق عليها الآمال من معرفة أسماء الله الحسنى ، فالمعلومات النظرية قضية سهلة جداً ، فأي إنسان حتى من غير المسلمين ، بإمكانه أن يقرأ ، ويحفظ ، ويكتب ، ويجيب ويأخذ شهادة بهذا الموضوع ، أما أن تُجاهد نفسك وهواك كي تعقد مع الله صِلة ، فهذه الصِّلة إذا انعقدت أتاك منها كل خير ، ولذلك عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الْمَاءُ النَّارَ وَالصَّلاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ** » . [رواه ابن ماجه والبيهقي بسند ضعيف] .

والصلاة طهور . والصلاة حبور . أما أنها طَهور ، فمستحيل أن يحقد المصلي أو يتكبر أو يكون ذا أثرة أو يكون مستعلياً ، وأنا أقول دائماً : للإعراض عن الله أعراض! ومِنْ أعراض الإعراض التكبر ، والعلو والعنجهية والغطرسة وحب الذات ، والدناءَة أحياناً ، وأن تأخذ ما ليس لك ،و أن تتمنى أن تكون فوق الناس جميعاً ، هذه كلها أعراض الإعراض ، فإذا حصل اتصال بالله عز وجل ، عُدتَ إلى حجمك الحقيقي ، حجم العبودية ، وشعرت أن الله عز وجل عليك رقيب ، وأن الله معك ، وفي الحديث الشريف :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزاً يَوْماً لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : « **الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ** » قَالَ : مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ : « **الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ** » قَالَ : مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » . [متفق عليه] .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا نظر في المرآة يقول :

« اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي » . [رواه أحمد] .

فلأشكرنك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمي في قبرها

فإذاً ليشكر الإنسان الله عز وجل على أن أعطاه قَواماً ورأساً فيه سمع وبصر وفم ولسان وأنف ، وهذا الخَلْقُ السوي الكامل من نِعَمِ الله عز وجل كذلك ، حتى إذا جاءه مولود ورآه كامل الخِلْقَة فهذا من فضل الله عز وجل أيضاً ، وهذا هو معنى المصوِّر ، أي جعله صورةً حسنةً .

إذاً : مازلنا في الحديث عن أن معرفة أسماء الله الحسنى من حيث إنها معلومات فهذا وجه ، ومن حيث أن تسعى لأن تعقد صلة مع الله عز وجل وجه آخر ؛ لأنك عندئذ تعيش هذه الأسماء ، وحينما تعيشها تشعر بعظمة هذا الدين ، والإنسان وقته ثمين جداً ، والعُمر لا يحتمل تجارب كثيرة خاطئة ، يروى أن حارثة قال : أنا مؤمن حقاً فقال : « ما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزاً فقال ﷺ « عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان » .

فالإنسان معنيٌّ أن يرى بعينيه أن هذا الكون من خلق الله وأن الله سبحانه وتعالى ربه ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى مُسيّره ، وأنَّ كل شيء وقع أراده الله ، وأن الله عز وجل أراده لحكمة بالغة ، ولو لم يقع الذي وقع لكان نقصاً في الحكمة ، وكان الله سبحانه وتعالى ملوماً من عباده يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ

﴿إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص : ٤٧] .

فأسماء الله الثلاثة الخالق والبارىء والمصور ، أسماء متلازمة متآلفة في غايتها تجمع بينها آصرة واحدة هي العلاقة الوشيجة لعملية الخلق ؛ خلقاً وبرءاً وتصويراً ؛ والمصور يعني أن الله عز وجل أعطى كل شيء صورته ، ليس معنى الصورة الشكل الخارجي بل القَوام الكامل : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] .

فمعنى التصوير يعني أعطاك الشكل الكامل طولاً وعرضاً وارتفاعاً وعمقاً ، فالنملة لها صورة ، والفيل والحوت والإنسان ، وكل مخلوق له صورة ، والله سبحانه وتعالى هو المصور ، يقول الله عز وجل :

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ٦] .

وهذا من معاني اسم المصوِّر ؛ وأيضاً فهذا الجنين في بطن أمه حينما تشق عيناه ويشق سمعه ، ويُعطى رأسُه حجماً ، وجسمه حجماً وله جلد وأعضاء وحركات ، فهذا من التصوير ، وليس هناك فصل بين الخلق والتصوير إلا فصل نظري ، فالخلق والتصوير يَتِمّان في وقت واحد .

* * *

اللَّطِيفُ

الاسم هو اللطيف ، وقبل أن نبدأ بتعريف هذا الاسم لابد من مقدمة قصيرة : فعندما يعرض الإنسان لمعالجة بحث يجب أن يعود إلى الأهداف الكبرى ، يحددها أولاً كأن يشير إلى الهدف العام من بحثه ، وإلى الهدف الخاص ، لأنَّ الباحث أحياناً تَزِلُّ قدمه وينحرف عن الهدف الكبير ، وتشغله فروع البحث فتستأثر باهتمامه وينسى الغاية الأهم في معالجته للبحث المعني به ، وقد تضيع الفكرة الرئيسية على القارىء ، ونحن هنا مع أحد أسماء الله الحسنى ، فالبحث مُهّم والغاية سامية ، وحذرنا من الانسياق وراء الفروع قائم إن شاء الله .

إن شرف العلم من شرف المعلوم ، وهذه الحقيقة أكررها كثيراً في كتابي ، فإذا درست موضوعاً حقيراً أو تافهاً أو سخيفاً ، فهذه الدراسة ، وتلك التمحيصات والتحقيقات والمتابعات بجملتها سخيفة لماذا ؟ لأنَّ الموضوع تافه ، وكلما شرُفَ الموضوع شرُفَ العِلم .

والسؤال المُلح دائماً : هل يُوازَن خالق مع مخلوق ؟ أو قديم مع حادث ؟ أو كامل كمالاً مطلقاً مع ناقص ؟ لا ، وحينما يتعرف المرء إلى أسماء الله الحسنى يتعرف إلى خالق الكون ، وقد يَسأل سائل :

وما علاقتي بأسماء الله الحسنى ؟ فأقول : أصل الدين معرفته .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فأنت أيها الإنسان خليفة في الأرض ، ولن تُحققَ هذه الخِلافة إلاّ إذا اصطبغت بصبغة الله عز وجل ، فإذا عرفنا جانباً من أسماء الله الحسنى فينبغي أن نتساءل : ما حظ المؤمن مِن معرفة هذا الاسم ؟ وما حظه من معرفة اسم العزيز ؟ أقول : حظه أن يكون عزيزاً ، وابتغوا يا عباد الله العزة عند الله .

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ » قَالُوا : وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ : « يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ » . [أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد] .

« ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير » .

وإننا في الصفحات التالية نطوف حول اسم اللطيف ، والحقيقة التي أتمنى على كل إنسان أن تكون واضحةً في ذهنه ؛ هي أن هذا الكون كله في أصل خلقه خُلِقَ وسُخر للإنسان تسخيرين : تسخير تعريف وتسخير تكريم ، فالمرء قد يشرب الكأس من الماء ، فيروي العروق ويَذْهب الظمأ ، ولكن هذا الماء خُلق لهدف أكبر من أن تشربه ، خُلق لكي تعرف الله من خلاله ، فمَن جعل الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ؟ ومَن جعله ذا خاصية عالية في النفوذ ؟ ومَن جعله يتبخر في درجة منخفضة جداً ؟ ومَن جعله يحل المواد الكثيرة ؟ ومَن جعله قِوام الخلية الحية ؟ إلخ. . . ؟

فإذا عرفت ـ أيها الإنسان ـ الله من خلال الماء فقد حققت الهدف

الكبير من خَلْقِ الماء أما إذا شربت كأس الماء وارتويت به ، ثم أغلقت دون عقلك الأبواب فقد حققت الهدف الصغير ؛ فالهدف الكبير أن تعرف الله من خلال الماء والهواء والطعام ، وأن تعرفه من خلال نفسك التي بين جنبيك ، وأن تعرفه من خلال ابنك ، ومن خلال كل شيء حولك ، هذا كله بينه النبي عليه الصلاة والسلام في حديث موجز قصير جامع مانع ، حينما رأى الهلال. . .

حَدَّثَنَا قَتَادَةُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلالَ قَالَ : « هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ » ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا » . [أخرجه أبو داود] .

إذا وقفت أمام بائع أزهار وتأملت اسم الجميل ، من خلال جمال الزهرة ، وتأملت هذه الرائحة الفواحة العَطِرة ، ورأيت في الزهرة تناسق الألوان وأنت تعلم علم اليقين أن هذا الزهر لا يؤكل ، وإنما خُلِقَ خصيصىً لإمتاع عينك وأنفك ، إذاً هذا مِن إكرام الله عز وجل لك ، وإذا عرفته شكرته وعظمته .

لو قرأت كتاباً عن العسل ، وتملَّكك العجب العُجاب من هذه النحلة : تلك الحشرة الاجتماعية ، ذات النظام البديع ، في مجتمعها الذي هو أرقى من المجتمعات البشرية ـ وهذا كلام علمي ـ فأي مجتمع بشري ، يعرف فيه كلُّ مواطِنٍ ما له وما عليه ، من حقوق وواجبات ؟ إن النظام لدى مجتمع النحل دقيق جداً ، إذ لا ترقى إليه التنظيمات البشرية ، إذ كل شيء في وقته وموقعه ومكانه وزمانه ، فأرقى المجتمعات البشرية لا ترقى إلى مستوى النظام الاجتماعي عند النحل والنمل .

أجل ، إذا قرأت كتاباً عن النحل ، وشعرت أن الخالق جلَّ وعلا أبدع في خلق النحل ، فأدركك الخشوع وربما انهمرت عينك بالدموع ، فأنت حققت الهدف الأكبر من خلق النحل ولو لم يكن دخلك يسمح أن تشتري شيئاً من العسل ، أما الذي أكل العسل حتى امتلأت حجراته وخلاياه منه ولم يفكر في هذه المادة التي أكرَمَ الله بها الإنسان فقد عطّلَ الهدف الأكبر واستفاد من الهدف الأصغر .

إذاً اتفقنا على أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى. . وما دمنا نطوف حول اسم اللطيف ، فهل ترى في الكون ما يدل على أنه لطيف ؟ . . نعم فالهواء يحيط بنا من كل جانب ، نستنشقه ، ولو حركناه لشعرنا بوجوده ، يحمل طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طناً ، منها مئة وخمسون : هيكل الطائرة ، ومئة وخمسون : الوقود ، وخمسون : الركاب مع الحاجات ؛ فالهواء يحمل ثلاثمئة وخمسين طناً فهو إذاً شيء عجيب جداً .

وحينما تدخل المركبةُ الفضائية في الغلاف الجوي تصبح كتلةً من اللهب لاحتكاكها به ، ومع ذلك إذا كنت على سطح الأرض فالهواء لا يُرى وليس له صوت إذا كان ساكناً ، فهو موجود وكأنه غير موجود فلا يحجب الرؤية ، وترى أخاك من خلاله ، وتسمع صوته ، إذاً الهواء لطيف ، وربنا عز وجل يقول :

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الشورى : ١٩] .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

اسم اللطيف له معانٍ كثيرة ، أحد هذه المعاني أن الشيء الصغير الذي لا يُحس به لصغره يسمى لطيفاً ، مثلاً : ائتِ بين يديك بجهاز

راديو ، أَدِرْ مؤشره إلى إذاعة من الإذاعات ، تستمع إلى نشرة الأخبار ، فالكلام أين هو ؟ إنه موجود في الجو المحيط ، وبهذا الجهاز اللاقط التقطها ، فهل تستطيع أن ترى بعينك موجات الإذاعة ؟ لا تراها بعينك ، ولا تسمعها دون جهاز استقبال ؟ وهل لها وزن ؟ لا ، وهل لها رائحة ؟ لا ، إذاً موجات الإرسال لطيفة ، وموجودة ، والدليل استماعك لها من الجهاز الذي بين يديك ، فإذا أزحت عنك الجهاز فإنك لا ترى شيئاً ، ولا تسمع شيئاً ولا تشم شيئاً ، إذاً هذا الإرسال موجود ولكن بلطف ، وسأُقرّب الأمثلة لأفهام القراء الكرام :

الإرسال موجود ولكن بلطف ، والهواء موجود ولكن بلطف ، أما الهواء فإنه إذا تحرّك بسرعة تزيد على ثمانمئة كيلو متر في الساعة ، فلن يُبقي هذا الإعصار شيئاً على سطح الأرض ، وقد قرأت أن في أمريكا إنساناً عنده دار فخمة جداً ، وله سيارة من الوزن الثقيل وأصاب هذه المدينة إعصار ، فعثر على محرك سيارته بعد خمسة كيلو مترات من داره ، ولم يجد أي أثر لا للدار ولا للمركبة ، وهذا نتيجة حركة الهواء ! أما إذا سكن فلطيف جداً ، إذ لا تراه بعينك ، وليس له رائحة ، ولا صوت ولا حِس .

إذاً معنى اللطيف بالمعنى اللغوي : الشيء الصغير الذي لا يُحس به لصِغره ، وهذا الشيء الصغير الذي لا يُحس به لصِغره يُسمى لطيفاً ، وهذا الماء ، لو أخذت منه نقطة من الكأس ووضعتها تحت المجهر ، وكبَّرْت النقطة مئات المرات لرأيت فيها عشرات ، بل مئات ، بل ألوف الكائنات الحية ، في حين يبدو أمامك ماء صافياً عذباً فراتاً رائقاً . لكن الكائنات التي فيه غير ضارة ، وهي كائنات

لطيفة ، وما معنى لطيفة ؟ أي : هي من الصِّغر بحيث لا تراها من لطفها ، فهذا معنىً من معاني لطيف .

ثم إن الهواء لطيف أي : موجات الإرسال لطيفة ، بلا رائحة ولا صوت ولا حس وغير مرئية ، وهذا معنى آخر أيضاً . والكائنات الحية في هذا الكأس من الماء لطيفة ، وإذا قلنا : الله لطيف بعباده ، فالله عز وجل معك يسمع صوتك ، ويعلم ما في قلبك ، وما في رأسك من أفكار وطموحات ، وصراعات ، وآراء ، ومعتقدات ، وتصورات وتخيلات ، ويعلم ما في قلبك من هموم ومتاعب وآلام وضغوط من خوف ومن قلق ، ومع ذلك وجوده معك محببٌ ، تصوّر لو أن إنساناً لازَمَ إنساناً . جلس فجلس معه ، مشى فمشى معه ، دخل إلى بيته فدخل معه ، أكل فأكل معه ، فإن بقي يلازمه خمسة أو ستة أيام يخرج من جلده ، ويقول له صائحاً : إليك عني ، انصرف بعيداً ، وقد رأينا أنه لم يتكلم بأية كلمة ، ولم ينتقد ، ولم يعترض ، ولم يطلب منك طلباً ما ؛ إن ذلك الشخص بملازمته لك عبء عليك ، لكنك تعلم أن الله معك دائماً ، ولكن لا تُحِس بوجوده ، فوجوده محبب إليك ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] .

تعني كلمة لطيف ، أن الله عز وجل من اللطف بحيث لا تراه ولا تسمعه ؛ ولكن تراه بعقلك ، وهذا أحد المعاني لكلمة لطيف ، لهذا جاء في الحديث الصحيح :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزاً يَوْماً لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ ، قَالَ : مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ : الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، قَالَ : مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ [رواه مسلم] .

« اللهم! اجعلني أخشاك حتى كأني أراك أبداً » .

إذاً : المعنى الأول أن الشيء الصغير الذي لا يُحس به لأنه بعيد ، أو لصِغره يسمى لطيفاً ، ولما كان الله سبحانه وتعالى منزّهاً عن الجسمية ليس بجسم ولا صورة ، ولا متبعض ولا متجزّئ ، ولا متحيّز ، وكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك ، لا يُسأل عنه ؛ متى كان ؟ لأنه خالق الزمان منزّه عن الجسمية والتحيز في كل مكان مع كل شيء بعلمه ، محيط بكل شيء علماً ، وعلمه مع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وإلى جانب كل شيء ، وما معنى الحيّز ؟ مثلاً هذا الكأس يشغل حيزاً في الغرفة ، وله وزن وارتفاع وقُطر وقد حجز على الطاولة مكاناً ، وفي الفراغ مكاناً وله وزن ؛ هذا هو الحيز ، فربنا عز وجل ليس بمتحيز ، أي لا يشغل حيزاً ، وأحياناً يكون الإنسان مُنحرفاً ، مُسرفاً ، يأتي كل يوم كاليوم السابق صحة وطعاماً وشراباً ومكانة اجتماعية ، وقوة وطغياناً وسيطرة ، ولكن فجأةً يأتيه مرضٌ عُضال لا يرى ، أو قد يشعر بآلام شديدة في صدره أو في يده اليسرى مثلاً .

إذاً إذا قلت : الله لطيف يعني أن الله عز وجل لا يشغل حيّزاً ،

وليس بجسم ولا صورة ، ولا متبعّض ولا متجزّىء ولا متحيّز ، إلى آخر هذا التعريف .

ولما كان الله منزّهاً عن الجسميّة لم يحس به فأطلقوا اسم الملزوم له على اللازم ، فوصفوا الله تعالى بأنه لطيف بمعنى أنه غير محسوس ، وكونه لطيفاً بهذا الاعتبار ، فهذا الاسم من صفات التنزيه أي سبحانه أن يكون له جسم ، أو أن يكون متحيّزاً ، سبحانه أن يُحيط به زمان .

إذاً : اسم اللطيف من أسماء التنزيه ، فهو معك لكن بلا شعور ، لا تُدرِكُه الأبصار لأنه لطيف وهو يُدرِكُ الأبصار .

وأحياناً تعمل عملاً لا يُرضي الله فتُحاسب عليه بعد قليل حساباً عسيراً ؛ إذاً رآك ، وأحياناً تفكر في عمل لا يُرضي الله ، تجد الله عز وجل قد عاقبك ، لأنه عَلِمَ ما في نفسك ، إنه لطيف لا تُحِس بوجوده ، فوجوده ليسَ ثقيلاً عليك ، لكنه موجود ، يَحولُ بين المرء وقلبه ، ويعلم السر وأخفى ، ومعنى : (وأخفى) ، أي : وعَلِمَ ما لم يكن لو كان وكيف كان يكون إنه يعلم لِمَ وكيف ، وماذا ، وعلامَ ، وهذه أحوالك أيها الإنسان يعلمها الله دون أن تراه ، فالله لطيف ، ولطيف اسم تنزيه ، وفي الوقت نفسه لطيف لكنه موجود معك ، فخواطرك ومشاعرك وأحاسيسك وطموحاتك وصراعاتك وآلامك ، وضيق نفسك كله معروف عنده لكن دون أن تشعر به .

إن المؤمن ما دام يَعبُد الله وكأنَّ الله يراه فإنه يكون متأدباً حتى ولو كان في خلوته ، وهو لا يرى الله بعينه لكنه يراه بعقله ، فالمؤمنون وهم في فرشهم يتأدبون مع الله عز وجل ، ويحب أن تكون حركته

كلها أدباً ، حتى إذا دخل الخلاء له دعاؤه ، وحتى إذا دخل الحمام له موقف فيه أدب ؛ لأن الله يراقبه .

فكلما ارتقى إيمانك تشعُر أنَّ الله معك . . « يا موسى! أتحب أن أكون جليسك ، قال : وكيف هذا يا رب ؟ قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني » .

وبعد ، فكم من مصلٍّ يقول : سَمِعَ الله لمن حمده ، فهل عرفت معناها ، يعني يا عبدي أنا أسمعك ، فاحمدني ؛ فإن قلت : سمع الله لمن حمده ، فأنا أسمعك وأصغي إليك ، . . أين هو ؟ فلذلك إذا صليت فاعلم أنك بين يدي الله عز وجل ، والسيدة عائشة تقول : كان النبي يحدثنا ونحدثه ، يجالسنا ونجالسه ، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه ، وهذا ما يجب أن يكون عليه كل مسلم .

ترى الإنسان يعتني بمظهره عناية مطلقة إذا دعيَ لمقابلة مسؤول مثلاً ، وهو إنسان مثله ، يموت ، ويجوع ، ويعطش ، ويتعب ، ويغضب ، فكيف إذا وقف بين يدي الواحد الديّان ؟ فليعلم أن الله لطيف ، موجود ولكن لطيف ، وجوده لطيف وليس ثقيلاً ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : اللطيف هو العالم بدقائق الأمور وغوامِضِها . ويُقال فلان لطيف اليد إذا كان حاذقاً في صنعته ، ومهتدياً إلى ما يشكل على غيره ، وعلى هذا التفسير يكون الله لطيفاً بمعنى أنه عليم .

وقد تفهم الأمر بشكل ظاهري لا بخباياه ، ولا بخلفياته ، ولا بتحليلاته العميقة ، ولا بالدوافع الخفية لهذا الأمر ، فالإنسان

كلما ارتقى عِلمُه فهم البواطن وفهم السرائر ، ومابين السطور ، بل يفهم الدافع الحقيقي .

أضرب مثلاً بأشخاصٍ غير مستقيمين : في أيام الشتاء جاءت صديقة زوجته ، وهو جالس في غرفة الجلوس والمدفأة مشتعلة ، فقال لها ولزوجته : تعالين إلى هنا ، أدفأ لَكُنَّ ، وهل حقاً أدفأ لَهُنَّ ؟ أم له هدف أبعد من ذلك ، أن يطّلِعَ على هذه المرأة صديقة زوجته ، من يعلم هذا الشيء ؟ الله عز وجل يعلم السر وأخفى .

وما معنى لطيف يعني يعرف دوافعك الحقيقية ، وهذه المواقف الملتوية والسِّرّ ، والحِكمَة ، وهو الذي يعلم دقائق الأمور ، وبواطِنها وخلفيات الأشياء ، وحقيقة كل أمرٍ ، ويعلم ما خَفِيَ على معظم الناس .

فالذي يعلم بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها ، ومؤدياتها ومضاعفاتِها وما ينجم عنها وما أساسها ، وما سِرُّها ، وما أسبابها الحقيقية هو اللطيف هذا معنى ثان ، اسم اللطيف يعني الذي يعلم كل شيء مهما دق وخفي .

المعنى الثالث : اللطيف هو البَرُّ بِعِبَادِه الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويهيِّىء مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، فاليوم حَرٌّ شديد مثلاً ، فربنا عز وجل يهيِّىء لأهل هذه البلدة إنضاج فاكهتهم ، وهم لا يعرفون ، وبعد شهر ترى هذه الفاكهة معروضة في الأسواق بوضع جيد وجميل وطعم طيب ولذيذ ، فمن أنضج هذه الفاكهة طَوَال هذه المدة ؟ الله عز وجل ، إنه لطيف بعباده ، فساعة حر ، وساعة برد ، وساعة ماء غزير ، وساعة ماء قليل ، وأنت لا تدري فاللطيف

بعباده هو البَرُّ بهم ، والذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويهيِّىء مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، ومن قول الله عز وجل : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ ومنه يأتي المعنى الثالث أي : البر بعباده .

لكن المعنى الرابع وهو من أروع المعاني التي قالها الإمام الغزالي ، أن اسم اللطيف الذي يعلم دقائق الأمور ، وينقل عبده من حال إلى حال بلطف عجيب .

فهذا الطفل الصغير يجب أن يُغيّر أسنانه ، لأنه لو نبتت له أسنان نهائية ثابتة وفمه صغير جداً ، فمنظره مُنَفِّر ، فأسنانه كبيرة ، والفم صغير ، ولو نبتت له الأسنان وهو يلتقم ثدي أمه فيمكن أن يؤذيها أذى مؤلماً لا تحتمله ، فهذا الطفل يكون في السنة الأولى بدون أسنان ثم تنبت له أسنان لبنية ، ومن بعد ، ربنا عز وجل يُبدّل لهذا الطفل أسنانه ، فالله لطيف ، ولا يوجد طبيب في الأرض يستطيع أن ينزع سناً لطفل من دون أن يبكي ، حتى إن حقنة المخدر مؤلمة جداً ، فيبكي منها ، ولكن ربنا عز وجل يذيب هذا السن شيئاً فشيئاً ثم يأكله الطفل مع اللقمة ولا يشعر بشيء ، فمعنى لطيف كما قال الإمام الغزالي : « **هو من يعلم حقائق المصالح وغوامضها ، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف** » .

وأحياناً قد يُكرِهُك الله على شيء ما ، ليس فجأةً ، بل بالتدريج ، خلال خمس سنوات مثلاً ، وتأتيك منه بعض المتاعب ، أزاح منك بالمئة خمساً من محبته ، وبعد أسبوعين تأتي متاعب جديدة فيزاح بالمئة عشر ، وبعد أسبوعين متاعب جديدة بالمئة خمس عشرة ، وبعد

شهرين أو ثلاثة تقول : زهقت روحي ، ولم أعد أطيق ذلك ، فهناك شيء غير صحيح قد تعلقت به ، فربنا عز وجل نزعه منك شيئاً فشيئاً بلطف .

على هذا النحو تم تحريم الخمرة ؛ إذ كان العرب متعلقين بها تعلقاً شديداً ، فلو أمرهم أن يتركوا الخمرة بآية واحدة فربما ارتدّ بعضهم ، أو نصفهم عن الإسلام ، لكن الله لطيف ، قال :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] .

فقط . . ألطف إشارة إلى أن الخمر هي رزق ، ولكنه ليس حسناً ، فقال : تتخذون منه سَكَراً ، مادة مُسكِرة ، ورزقاً حسناً : تظنون أنه حسن وهو مسكر فليس بحَسَن ، هذه أول إشارة ، وبعد ذلك قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ [النساء : ٤٣] .

يعني : إن شربْتَ فلا عليك ، ولكن دعه عند الصلاة ، وبعد ذلك قال :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

المنافع للذين يتجرون بها ويعيشون على دخلها ، ثم يقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

فهو سبحانه لطيف حرّمَهَا بالتدريج ، وكذلك قد يذهب شاب إلى الجامع فيسمع درساً ووعظاً ، فيقول : والله إنه درس جميل ، وأريد أن أداوم عليه ، ويكون على عشرين أو ثلاثين معصية ، وربنا للطفه لا يذكره بها كلها ، لكن الله اللطيف يذكره بواحدة منها بين الحين والحين ، هذه حرام وهذه حرام ، فلا حول ولا قوة إلا باللهِ ، لقد كنت جاهلاً ، فلعله يتركها ؟ ؟ ولو أعطيناه القائمة بالمعاصي كلها لترك الدين كله ، ولكن اللطيف تدرج به واحدة واحدة ، وبعد ستة أو ثمانية أشهر ، ترك هذه وهذه وهذه ، وربنا يُسخِّر لَهُ شخصاً يُذكِّرُهُ بالأشياء بلطف ، فهذه حرام يا أخي وهذه لا يجوز أن تأتيها ، وهذا اللقاء لا يجوز ، وهذا البيع فيه شبهة وهذه البضاعة لا يحل الاتجار بها فهي محرمة شرعاً ، أتتاجر بطاولات نرد ؛ فإليك حديث النبي صلى الله عليك وسلم فيها :

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ** » . [رواه مسلم] .

وبالتدريج ربنا يعالج الأمور ، فربنا لطيف في العلاج ، والإنسان أحياناً يغلب رجاؤه على خوفه ، وربنا لطيف يخوفه ، وأحياناً يغلب خوفه على رجائه وربنا لطيف يطمئنه .

العلم الدقيق مع التدريج في العمل ، هذا هو الاسم الجامع المانع لاسم اللطيف ، ويستحقه من يعلم حقائق المصالح وغوامضها ، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف ، حين يجتمع له هذا العلم . وإليك مثلاً : إن الوالد إذا ارتكب ابنه مخالفة للشرع أو للأخلاق ، فيمكن أن يعاقبه بعنفٍ وقسوة ، ولكن الأجدى أن

يتابعه ، ويراقبه ، ويشجعه ، ويكافئه ، ويعاقبه ، ويعرض عنه ، ويراوح في كل ذلك ، وبعد شهرين أو ثلاثة يستقيم طواعية وقناعة ، فأنت نقلته من حال التلبُّس بهذه المخالفة إلى حال التوبة منها بطريقة لطيفة دون أن تُحطِّمَهُ ، أو تجرحه ، أو تَسحَقَهُ ، أو ترضّه رضاً ودون ألم وعنف ، والمربي المؤمن لطيف ، ينقل من يعالجه ، ويربيه من درجة إلى درجة بالرفق واللطف .

دخل رجل إلى المسجد فأحدث جلبة وضجيجاً يريد أن يدرك الركعة ، فلما انتهى قال عليه الصلاة والسلام لهذا الذي أحدث جلبة وضجيجاً : « **زادك الله حِرصاً ولا تعد!** » لقد ترفق به ، ولذلك « **إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف** »[١] إذاً علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف .

ومن لطف الله بعباده ، أنه أعطاهم فوق الكفاية ، وكلّفهم دون الطاقة خمس صلوات ، كل صلاة ثلث ساعة ، عشرون دقيقة بخمس صلوات أي : مئة دقيقة ، ومجموعها ساعة وثلثان من أربع وعشرين ساعة ، ولو كلّفَكَ خمسين صلاة لما استطعت! ثلاثون يوماً تصوم في السنة فلو كلفك ستة أشهر صياماً متتابعة لما أطقت .

الله لطيف بأوامره ، لطيف بخلقه ، فلو كانت هذه التفاحة تحتاج إلى أدوات لتأكلها لَشَق الأمر على الناس جميعاً ، فأنت بسكين تأكلها ، ولو كانت البيضة تحتاج إلى مفتاح ولم تجد المفتاح لأتعبت الحياة أهلها ، لكن على طرف الصحن تكسرها .

---

١) البخاري في الأدب المفرد وأبو داود من حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه ، وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ، وأحمد والبيهقي من حديث علي .

عنقود العنب تريد أن تسحبه نحو الأسفل فينسحق بيديك ، ولكن بالعكس له مفصل ، الله لطيف ، إذا عملت حركة معاكسة باتجاه العنقود يصير بيدك ، تُمسك الدراقة فتصبح بحركة في يدك ، فربنا عز وجل لطيف ، الفاكهة لها طعم ، ولها شكل ، ولها قِوام مقبول مع الأسنان ، ولو كانت التفاحة بقِوام الصخر تماماً فما الطريقة إلى أكلها ؟ إننا نحتاج إلى مطحنة حجر كي نصنع عصير تفاح ، إذ لا نقدر على أكلها ، فالتفاحة قِوامُها هشّ ممكن أن تأكلها بسهولة .

الذي دبّرَ الأمور هو الحكيم ، والذي أوجدها هو الجواد ، والذي رتبها هو المصوّر ، والذي وضع كل شيء في موضعه هو العادل ، أما الذي لم يترك فيها دقائق إلا وعرفها فهو اللطيف ، واللطيف هو الذي أعطى العباد فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة ، واللطيف الميسر لكل عسير الجابر لكل يسير ، واللطيف من وفق للعمل في الابتداء وختمه بالقبول في الانتهاء ، واللطيف هو الذي وليَ فستر ، وأعطى فأغنى ، وأنعم فأجزل ، وعلم فأجمل .

أما حظ العبد من هذا الاسم فهو الرِّفقُ بعباد الله ، واللطف بهم في الدعوة إلى الله .

﴿ اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٣ـ٤٦] .

دخل أحدهم على الرشيد وقال له : سأعِظُكَ بِغِلْظَة ، قال له : ولِمَ الغِلْظَة يا أخي ؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر

مني ، أرسل موسى وهارون إلى فرعون فقال لهما : فقولا له قولاً ليناً .

فإذا عرفت شيئاً سيئاً فاستره ، وكن لطيفاً ، وإذا تحركت نحو فعل شيء فكن بهذه الحركة لطيفاً ، وإذا أردت إحداث شيء فاجعل لهذا الشيء برنامجاً لا يُثقل على صاحبه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان في قمة النشوة في صلاته مع ربه ، ووراءه أصحابه ، فسمع بكاء طفل صغير ، فعلى غير عادته قرأ آية قصيرة رحمة بهذا الطفل ، واختصر الصلاة وسلّم وفي الصحيحين والمسند من حديث أنس رضي الله عنه : إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطولها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه ببكائه. . . فإذا دعوت إلى الله عز وجل فكُنْ لطيفاً وليناً ورحيماً .

وقال بعض المحققين : العارف إذا أمر بالمعروف أمر برفقٍ ناصحٍ لا بعنفِ معسرٍ ، وكيف وهو مستبصر بسر الله تعالى .

وخلاصة بحثنا أنه إذا كان الله لطيفاً في علمه ، لطيفاً في وجوده ، لطيفاً في تصرفاته فاشتق منه هذا اللطف .

* * *

العَدْلُ

والاسم اليوم هو : « العَدْل » فقد اتفقت الأمة على إطلاق هذا الاسم على الله تعالى ، وهو مصدر عَدَلَ يَعْدِل عدلاً فهو عادل ، عُدِلَ عن اسم الفاعل عادل إلى المصدر العدل ، فمن أسمائه جل جلاله ؛ الحَكَمُ العَدْلُ ، هذا المصدر أقيم مقام الاسم ، كأن تقول : الرب بدل الراب ، والبَر بدل البار ، والرضا بدل الراضي ، والعدل بدل العادل ، إذاً فاعلم أن أحد أسماء الله الحسنى : « العدل » .

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى عدل في خلقه ، وعدل في تشريعه ، وعدل في أمره التكويني ، وفي أفعاله ، أي : عدل في خلقه ، وعدل في أمره ، وعدل في فعله ، خلق ، وأمر ، وفعل فعدل ، فهو عدل .

عدل في خلقه ، فمكان اليد مناسب جداً ، وفي موقع متوسط ، والشيء المعتدل الذي هو بين الإفراط والتفريط ، فمفتاح الكهرباء مثلاً إذا وضع في مكان يتناسب مع أهل البيت ، فالأب يحرك يده إلى مستوى معين فيستخدمه ، والأم والابن وجميع من في البيت يستعملونه براحة فهذا المكان معتدل ، ولو كان مرتفعاً لاحتاج الأمر إلى سلم ، ولو كان منخفضاً مع الأرض لاحتاج الأمر إلى أن ينبطح

الإنسان ليتألق المصباح ، أما أن يكون هذا المفتاح في مكان معتدل بين الارتفاع والانخفاض فهذا المكان اسمه مكان معتدل ، والاعتدال من العدل والاعتدال هو التوسّط ، ودائماً التوسّط هو الموقف الأكمل بين الإفراط والتفريط .

ولو أن الإنسان رأى في كأس الماء كل الكائنات الحية لما شرب الماء ، فلو أن العين بلغت من الدقة بحيث ترى كل شيء لاستحالت حياتنا شقاءً ، ولو أنَّ العين بلغت من ضعف الرؤية ألا ترى الشيء الخطر لهلكنا ، إذاً في الحالة الأولى إفراط وفي الثانية تفريط ، فعتبة الرؤية لها حد معتدل ، فالله سبحانه وتعالى عدل في خلقه .

وأما عن عتبة السمع ، فهناك أصوات لا تسمعها ، ولو سمعتها لما نمت الليل ، فالموجات الصوتية تخمد ، وليست كالأمواج الكهرطيسية التي لا تخمد ، وقد أطلقت مركبة إلى كوكب المُشتري وبقيت مركبة الفضاء تطير في الفضاء بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة ، فقضت ست سنوات إلى أن وصلت ، وأَرسلت منه رسائل بالراديو ، وكما يقولون : فإن الأمواج الكهرطيسية لا تخمد بل تبقى سِعَتُها هيَ هيَ ، لذلك فهذه الأمواج الكهرطيسية هي سبب البث الإذاعي ، فالأمواج الصوتية العادية تتخامد ، ولو كانت كالأمواج الكهرطيسية ، لسمعت في دمشق وفي هذا المسجد كل صوت في الأرض ، كصوت أمواج البحار ، ومعامل الفولاذ ، وانفجارات البراكين ، ولأصبحت الحياة مستحيلة ، إذاً عتبة السمع وتخامُد الأصوات خلق معتدل .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

إذاً فبصرك بقدر ، وسمعك بقدر ، ورؤيتك بقدر ، والإنسان أحياناً تُجرح يده فلو أمسك باب الثلاجة عندئذٍ لأحس بلسع الكهرباء الساكنة ، ولو تناول طعاماً فيه حمض لتألم ، فيقال لك : عرق ملح ، ولو أن الأعصاب الحسية نمت أكثر مما هي عليه لأصبحت الحياة مستحيلة ، وكذلك أعصاب الضغط وأعصاب الحس والسمع والرؤية والحركة .

فمفصل المرفق في مكان معتدل بحيث يمكن أن تأكل ، ولو لم يكن هذا المفصل أو كان في مكان آخر فلابد أن تضع الصحن على الأرض وتنبطح وتأكله بلسانك ، ولا يوجد طريقة ثانية فمكان المفصل معتدل .

وضع اليد على الكتف ، فلو كانت على الورك إلى الأسفل مع القدم لفسد كثير من أمرك ، أو لو أن العين في قمة الرأس أو في الظهر أو في الكف ، لاختل نظام حياتك وعملك قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار : ٦ـ٨] .

أي : خلقك أيها الإنسان بحواسك وأعضائك وأجهزتك والغدد الصماء وجهاز الهضم والقلب والرئتين ، وكل ذلك باعتدال ، إذاً : فسوّاك فعدلك .

وكذلك تجد الاعتدال بخيوط النسيج ، فلو أن الثوب يهترىء من لبسة واحدة لشق الحال على الناس ، فليس معقولاً أن تتصور إنساناً اشترى قطعة جوخ وفصّلَهَا ، وأخذ قياسات ، الحين بعد الحين ، وبعد شهر استلمها صاحبها ، ثم لبسها لبسةً واحدةً واهترأت ! فترى

الخيط له متانة معتدلة تلبسها سنة أو سنتين وتهنأ بها ، ثم تهترى ، إذاً فالخيوط تماسكها باعتدال .

وهذه الدجاجة تعطي كل يوم بيضة ، فلو أعطت كل شهر بيضة لكان البيض غالي الثمن كثيراً ، ولو كان ثمن العلف للبقر يفوق ثمن حليبها فلا يُربي أحد بقراً ، إذاً كمية الحليب التي تنتجها البقرة بالقياس إلى ثمن العلف معتدله .

ويمكن أن تسير بهذا الطريق إلى مئة عام ، فتشعر وتتحقق : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، لا إفراط ولا تفريط ولا تهور ولا تقصير ، ولا مبالغة ولا إيجاز ، بل كل شيء خلقه الله باعتدال ، فهو عدل في خلقه .

بُعد الأرض عن الشمس باعتدال ، فلو أن الشمس أقرب لأصبحت الأرض فرناً ، ولو أنها أبعد لأصبحت قبراً جليدياً ، إذاً الشمس والقمر بحسبان والمسافات بمنتهى الدراسة الدقيقة .

والطفل يبقى في بطن أمه تسعة أشهر ، ولو بقي خمس سنوات فأمر لا يُحتمل ، ولو كان الحمل أسبوعاً واحداً لأصبح عندك مئتا ولد وهذا شيء لا يحتمل أيضاً ، ولو كان المبيض عند المرأة ينتج البيوض إلى ما لا نهاية كالرجل لكنت تراها في الخامسة والثمانين حاملاً يجيئها المخاض ، وهي عجوز بلا أسنان ، فالبيوض عدد معتدل ، وحينما تنفذ هذه البيوض في سن اليأس ، أي : في الخامسة والأربعين إلى الخمسين فلا حمل من بعد ، فهذه رحمة الله بالمرأة ، فهو عدل في خلقه .

هذه أمثلة مرتجلة غير معدة مسبقاً ، من خلق السموات والأرض

والشمس والقمر والليل والنهار ، ولو كان النهار خمسين ساعة وطاقتك ثماني ساعات ، تفتح المحل وتغلقه ، وتذهب إلى البيت ، وتنام في النهار وغيرك يعمل ، تعود وتعمل مرة ثانية فحياة لا تحتمل ، ولو جعل النهار خمسين ساعة والليل خمسين ساعة تنام وتستيقظ ، وتعمل ، وتنام ، وتستيقظ ، وتعمل ، ولعمّ الخلل ، وانعدم النظام ، قال تعالى :

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص : ٧١ـ٧٢] .

إذاً : يجب أن تؤمن بأن طول الليل وطول النهار وبعد الشمس والقمر عن الأرض ، وحجم القمر والأرض كله عدل وبقدر .

ولو أن حجم الأرض خمسة أمثال حجمها الحالي ، فوزنك يتضاعف خمسة أمثال ، وتصبح حركتك أشغالاً شاقة لأنَّ وزن الإنسان متعلق بحجم الأرض ، والدليل وزن الإنسان على سطح القمر سدس وزنه الحالي يهبط من ستين كيلو إلى عشرة .

إذاً : حجم الأرض وكثافتها وقوة جذبها وبُعدها عن الشمس وعن القمر وهي تجري وتدور ، كل ذلك باعتدال ، فسبحان من خلق فسوى .

وأما المحاصيل ، فلو أن القمح ينضج تباعاً كالبطيخ ، لاحتجنا إلى أن نمسك سنبلة سنبلة لنتبيّن هل نضجت فنقطعها أم لا فنتركها ؟ لكن السنابل تحتاج ثلاثة أشهر ، ثم تستحصد كلها دفعة واحدة ،

وتجمع القمح في يوم واحد ، أما الفواكه فتنضج تباعاً .

إذاً :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار : ٦ـ٨] .

فالله سبحانه وتعالى عَدْلٌ في خلقه ، أي : خلقه في درجة مناسبة حكيمة معتدلة دقيقة مدروسة كما يقولون ، وهذا الذي قاله الله عز وجل في الآية السابقة ؛ عدل في خلقه .

إذا استيقظت صباحاً وصليت الفجر ، وجلست كي تفكر ، فيمكن أن تمشي في هذا الباب الطيب الذي يزيدك معرفةً بالله إلى مسافات طويلة ، فانظر كل شيء فأمره إلى الاعتدال !

تصوّر لو كان قِشرُ البندورةِ للبطيخ ، فلن تأكل بطيخة في حياتك لأنها لا تنتقل معك من مكان إلى آخر ، وتصوّر قشرَ البطيخ للبندورة ، فتصير كلها قشراً . . القشر معتدل والحجم والقِوام والطعم معتدل والحلاوة معتدلة فتصميم ربنا عجيب .

وقد يصنع الإنسان حلويات بعيارات غير دقيقة فتنبو على الذوق ، أما ربنا عز وجل فقد خلق فقدر فتأكل التفاح والإجاص والكمثرى والعنب والتين والبلح ، وكله باعتدال .

إذاً : أول معنى من معاني العدل عدل في خلقه ، يعني خَلَقَهُ بِحكمة بالغة ، وهذه آية أخرى تعبر عن هذا المعنى نفسه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ ﴾ [الأنعام : ٧٣] .

يعني بالحق بالدرجة الحكيمة ، المعتدلة التي لا تزيد ولا تنقص ،

فتأمل خلقك ، ثم تأمل طعامك ؛ وكذلك أجل نظرك في خلق الإبل قال تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس : ٢٤] .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق : ٥ـ٨] .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧ـ٢٠] .

هذا في خلقه فاعتبروا يا أولي الألباب .

والآن في أمره : أمرك أن تصوم ثلاثين يوماً في العام فلو أمرك أن تصوم ستة أشهر ، فشيء فوق طاقة البشر ، والدليل أن الإنسان يشعر أن آخر خمسة أيام من رمضان طويلة شاقة ، وكأن كل يوم شهر ، فثلاثون يوماً هذا هو الحد المعتدل ، وأمرك أن تُصلي خمس مرات فلو كانت خمسين صلاة وكل صلاة خمسون ركعة لما أطقنا ذلك فالأمر معتدل :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

فالصيام إذاً معتدل ، والحج في العمر مرة ، والزكاة ربع العشر ، مقدار معتدل ، الشريعة عدل إذاً ، ولكن انظر في قوانين البشر أن بعض الضرائب بالمئة ثمانون إلى ثلاث وتسعين ، فكم يشعر الإنسان أنه مغبون ؟ أما الزكاة فربع العشر ، النسبة المعتدلة بالألف خمس وعشرون ليرة وبالمئة ليرتان ونصف ، وفي مئة ألف ألفان وخمسمئة ، وفي مليون خمسة وعشرون ألفاً فالرقم مقبول ، ومعه راحة نفسية ،

فالزكاة ، والصيام ، والحج كلٌّ باعتدال ، وحتى الأوامر فمثلاً غُضّ من بصرك ، قال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

ولو قال : غضوا أبصاركم لَهَلَكنا جميعاً ، ولكن جاء الأمر : « من أبصارهم » فإذا حصل مفاجأة غير متوقعة وبأقل من عُشر الثانية غضضت بصرك فلا شيء عليك ، فالأمر معتدل .

أَمرُ غضِّ البصر معتدل ، وأمر الزكاة معتدل ، وأمر الصوم معتدل ، فإن سافرت رخّص لك بألا تصوم :

﴿ أَيَّامًا مَّعْـدُودَٰتٍۢ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًـا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : ١٨٤]

وإن كنت على سفر فصلِّ ركعتين فقط في الرباعية ، اقصُر من الصلاة ، والقصر عند السادة الأحناف واجب .

وأنت على موعد مع السيارة ومع الطائرة ومع المطار وفكرك مضطرب ، فقال لك : صلِّ الظهر ركعتين ، واجمع جمع تقديم وجمع تأخير ، فالشرع معتدل ، والله عَدْلٌ في خلقه ، وعَدْلٌ في أمره .

قبل أن نتابع الموضوع ، فما حظ العبد من هذا الاسم ؟ نحن دائماً بأسماء الله الحسنى لنا هدفان كبيران ، الهدف الأول أن نتعرف إلى الله ، وهل في الحياة كلها موضوع أجدر من أن نعرف الله عز وجل ، أي : هذه الذات الكاملة التي ستبقى في جوارها إلى أبد الآبدين ، والهدف الثاني طاعته لنسعد بقربه ورضاه وجنته .

وإذا أراد إنسان الزواج ، فإنه يخطب عشر سنوات حتى يجد من

يطمئن إليها ، لأنه كما يبدو له أنه سيبقى معها العمر كله ، أربعين أو خمسين سنة ، وقال أحدهم : لمّا بدأت والدته تخطب له بقيت تخطب خمسة عشر عاماً ، ثم استقرَّ الرأيُ على فتاة كانت قد ولدت يوم خرجت والدته لأول مرة للخطبة ؛ ويقولون : الزوجة رفيقة العُمر ولابد من الأناة والتروّي لاختيارها ، فأنت سوف تعيش في جوار الله ورحمته إلى الأبد ، وهل هناك ذاتٌ تستحق أن تعرفها غير الله عز وجل ؟ وهل هناك موضوع أخطر من أن تعرف الله تعالت قدرته ، فلذلك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] فإذا قلت : يا لطيف ، يا رحيم ، يا غني ، يا قدير ، ألا ينبغي أن تعرف ما معنى قدير ؟

وهناك أشخاص كثيرون يصابون بمرض ، فيقول الطبيب لأحدهم : ليس لك أمل في الشفاء ، فتراه ينهار! لأنه لا يعرف أن الله قادر على شفائه مهما يكن المرض عضالاً ، ومهما يكن كلام الأطباء قطعياً ، يخلق من الضعف قوة ، ومن الضيق فرجاً ، ومن اليأس مخرجاً ، وعندما يقول الإنسان : يا قدير وييأس فهو لا يعرف القدير ، والذي نريد أن نقوله : هو أنك إذا عرفت القدير زالَ عنكَ اليأس ، وأنا أؤكد أنك إذا أيقنت أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفيك من أخطر مرض وبِلا سبب فأنت ذا إيمانٍ حقاً ، ولا يأس مع الإيمان ، يقول العارفون ويرددون : « يا رب لا كرب وأنت الرب » ، وهل يتألم الإنسان والله موجود ؟ وهل يخاف والله موجود ؟ فهو يطمئنه ، وينصره ويقويه ويشفيه فاسمعوا كلام سيدنا إبراهيم في قوله تعالى :

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ

إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء : ٧٥-٨٥] .

يخلق ، ويهدي ، ويرزق ، ويشفي ، ويُحيي ، ويميت ، ويغفر ؛ ذلكم الله رب العالمين لذلك أنت تقول « يا رب لا كرب وأنت الرب » ، وأكرر وأعيد هذا الكلام الدقيق ؛ لا يحق لمؤمن بالله أن يحزن ، فالله معك فأحسن الظن وثق بالله ، قال تعالى :

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة : ١٢] .

فمثلاً إذا كان هناك شخص قوي نسبياً في المجتمع وقال لآخر : أنا معك فلا تخف ، وهذا رقم هاتفي ، فقد يمنعه وقد لا يمنعه ، وقد ، وقد ، . . . ومع ذلك يطمئن قليلاً ، لكن المؤمن إذا طمأنه الله فالأمن محقق وقال سبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة : ١٢] .

وبعد ، فلماذا تتعلم أسماء الله ؟ من أجل أن تَسعَدَ بِها ، فتعرف أن الله رحيم لتعلم أن الله يعلم فهل تراقب نفسك ، ولتعلم أن الله قدير

وأنه غني. . . إلخ ، إذاً حينما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على شِفائك من مرضك وأنت مؤمن إذاً فلا تيأس .

ولماذا كانت نِسَب الانتحار في أعلى مستوياتها في بلاد الغرب ، لأنهم لا يعرفون الله من خلال أسمائه ، ولكنها في بلاد مظاهرها الحضارية متواضعة ، والحياة فيها خشنة والأمور صعبة ، ومع ذلك فالانتحار فيها نادر جداً !! والسبب الإيمان بالله عز وجل .

كان لنا أستاذ في الجامعة في علم النفس ، فحضر مؤتمراً لأمراض النفس في أوروبة ، وقال لنا : لقد قلت في المؤتمر : إنَّ نِسَبَ الأمراض النفسية في بلادنا قليلة جداً ، والسبب أننا نؤمن بالله ونرضى بقضائه وقدره ، والحقيقة أن المؤمن يسلم قياد نفسه لله ويقول : هكذا يريد الله ، هذه مشيئة الله ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا ما يحول بينه وبين التوترات النفسية ، وأجمل حديث :

عَنْ أُسَامَةَ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ وَعِنْدَهُ سَعْدٌ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذٌ أَنَّ ابْنَهَا يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَبَعَثَ إِلَيْهَا « للهِ مَا أَخَذَ وَللهِ مَا أَعْطَى كُلٌّ بِأَجَلٍ فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » . [متفق عليه] .

الذي أخذه له ، والذي أعطاك تفضل به عليك ، فإذا أيقنت أن لله ما أعطى وله ما أخذ فلا مشكلة إذاً .

موت طفل صغير في أسرة إيمانها ضعيف يسبب آلاماً لا تحتمل ، بينما صحابي جليل له ابن مريض بمرض عُضال ، فجاء من السفر وهو قلق عليه قال : كيف ابني ؟ قالت له : ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة وأرجو أن يكون قد استراح ، فهم منها أنه قد شفي فأعدت له الطعام ، وفي بعض الروايات أنها تزينت له وفي الصباح قالت له : لو

أن قوماً أعاروا قوماً عارية لهم فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . قالت : فإن الله كان أعارك ابنك عارية ثم قبض إليه فاحتسب واصبر ، لما قالت له : في أهدأ حال ، يعني هو ميت ، يقولون : إنه ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقص عليه الأمر الذي جرى كله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بارك الله لكما في غابر ليلتكما » [الطيالسي ـ البيهقي ـ ابن حبان ـ أحمد ـ والبخاري ومسلم مختصراً] وتروي الأخبار أنه أنجب غلاماً من ذريته عشرة كلهم صاروا حفظة للقرآن .

إذاً ذاك حادث وفاة الابن في أسرة مسلمة ، ولكن حادث وفاة الابن بأسرة غير مؤمنة ، كثيراً ما تُجَنُّ الأم فوراً ، أو تكاد .

إذاً : معرفة أسماء الله من أجل أن نَسَعَدَ بِها ، وأنت مع الله إلى أبد الآبدين فإذا عرفته في الدنيا فهذا عين العقل ، وذلك أن تعرفه قبل فوات الأوان ، وأن تعرفه وأنت في حياتك الدنيا معافى صحيح الجسم ، مسرور .

والشيء الثاني : ما حظك من هذا الاسم ؟ أنت مؤمن فماذا تستفيد من هذه الأسماء ؟

فأمّا حظ العبد من هذا الاسم فهو أن يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط ، فلا فراط ولا تفريط ، ففي أفعال الشهوة يحترز عن الفجور الذي هو الإفراط وعن الجمود الذي هو التفريط .

وقد نجد إنساناً كما يُقال « زير نساء » ، إنه غارق في الشهوة إلى قمة رأسه ، عدواني ، ينتهك أعراض الناس ، هذا فجور ، وقد تجد إنساناً كما قالت المرأة : « يا أمير المؤمنين! إن زوجي يصوم النهار

ويقوم الليل ، لم ينتبه سيدنا عمر رضي الله عنه فقال : نعم الرجل زوجك ، فقال له كعب : إنها تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه ، فجاء به ونصحه ، وقال له كعب : إن لك ثلاثة أيام بلياليهن ـ يعني للعبادة ـ ولها ـ يوم وليلة »[1] .

وعن أبي موسى الأشعري قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها : ما لك ؟ ما في قريش رجل أغنى من بعلك ؟ قالت : ما لنا منه من شيء أما نهاره فصائم وأما ليله فقائم . فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فذكرن ذلك له .

قال : فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عثمان أما لك فيَّ أسوة ؟ » قال : وما ذاك يا رسول الله! أفداك أبي وأمي . فقال : **« أما أنت فتقوم بالليل وتصوم بالنهار وإن لأهلك عليك حقاً ، وإن لجسدك عليك حقاً ، فصلِّ ونمْ وصم وأفطر »** قال : فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس فقلن لها : مه ؟! قالت : أصابنا ما أصاب الناس [رواه أبو يعلى والطبراني بأسانيد وبعض أسانيد الطبراني رجاله ثقات] .

فإذاً : نحن حينما نعرف اسم العدل ، نعرف كيف نتخلق بالأخلاق التي ترضي الله في ضوء هذا الاسم قال العلماء : أن نحترز

---

(١) ذلك أنه هجرها لانشغاله بالعبادة وقد كان قال له :

زهدني في فرشها وفي الحلل أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف نزل

فقال ذلك القاضي . إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع . . فلك ثلاثة أيام . . . القصة!

عن الإفراط وهو الفجور ، والتفريط وهو الجمود ، ونبقى في الوسط وهي العفة ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾[المؤمنون : ٥-٧] .

هذا الموقف العدل في علاقتك بالزوجة .

أما مع الأولاد ، فإياك أن تعطيهم عطاءً يفسدهم أو أن تحرمهم حرماناً يحقدون به عليك ، فأعط الواحد منهم المبلغ الكافي ، وأعطه حاجته ، ولو أعطيته فوق حاجته فإنك قد أفرطت ، ولو أعطيته أقل من حاجته فإنك قد فرطت ، وقال ﷺ لهند بنت عتبة وقد قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ، فقال : « **خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف** » [متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها] .

وفي أفعال الغضب يُحترز من التهور الذي هو الإفراط والجُبن الذي هو التفريط ، ويبقى في حدٍّ وسط وهو الشجاعة ، وفي العقل يُحترز من الدهاء والخبث والمكر والخداع أو من البلاهة والغباء ، ويبقى في حدٍّ كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه : « **لست بالخب ولا الخب يخدعني** » ، وأدقُّ موقف : لستُ من الغباء بحيث أُخدَع ولا من الخبث بحيث أخدع . حينما قال الله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي : في وضع معتدل بين الإفراط وبين التفريط .

وفي تربية الأولاد من السهل أن تكون عنيفاً ، والعنف لا يحتاج إلى بطولة ، ومن السهل أن تكون ليناً ، واللين لا يحتاج إلى بطولة . علموا ، ولا تعنفوا ، فإن المعلِّم خير من المعنِّف .

وأيضاً لا ترخِ له الحبل فيتجاوز حده ، فالاعتدال أن يبقى ابنك راغباً فيك خائفاً منك « رغباً ورهباً » ، وهذا حد دقيق جداً فدائماً الحالات المتطرفة سهلة ، فلا تكن ليناً فتُعصر ، ولا تكن قاسياً فتُكسر « **مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخرُّ مرة ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزال مستقيمة حتى تخر ولا تشعر. . .** » ، والخير أن تكون بينك وبين الناس شعرة إن شدوها أرخيتها وإن أرخوها شددتها فهذه هي البطولة ، البطولة أن يكون الذي حولك في حيرة من أمرك ، هم يرجونك ويخافونك في وقت واحد ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وبعد ، فلنا وقفة عند العدل في أفعاله ، لقد تحدثنا عن العدل في خلقه وعن العدل في أمره ، وبقي العدل في فعله ، فيجب أن تعلم علم اليقين أن في الكون عدالة مطلقة ، لكن قد تُفاجأ بسؤال ، إن فلاناً مستقيم بعمله التجاري ، فمحله التجاري كله منضبط ، وأسعاره مسجلة ، ومعتدلة ، ولديه مستندات كاملة ، فجاءه موظف وافتعل مخالفة ، وكتبه ضبطاً ، وزجّهُ في السجن ، أليس هذا ظلماً صريحاً ؟

الجواب : هذه الحادثة بحد ذاتها هي ظلم ظاهري ، أما لو ربطت حياة هذا الإنسان في بيته ، مع أهله وجيرانه ، ومع من هم دونه ومع من هم فوقه ، وجمعت الحسابات كلها بعضها إلى بعض ، لرأيت في هذا البلاء منتهى العدل ، وبالتعبير التجاري هناك حساب جارٍ وهناك حساب السندات ، في حساب السندات كل حساب على حدة ، أما في الحساب الجاري فتضم الحسابات بعضها إلى بعض .

حادثة جرت من عشر سنوات ، اثنان تشاجرا في سوق من أسواق دمشق ، أحدهما معه سلاح فأطلق رصاصة ، فأخطأت خصمه ، وهناك من سمع الشجار فمد رأسه من دكانه فجاءت الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري ، فَشُلَّ فوراً .

فاستوقفني رجل وقال : يا أستاذ أنت تحدثنا عن عدالة الله ، فما صنع هذا ؟ إنه رجل صالح فتح دكانه ليسترزق ويسعى على عياله وهو يبيع أقمشة ، ولا ذنب له ، سمع شجاراً ، فمد رأسه فجاءت هذه الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري فأصبح مشلولاً ، فأين عدالة الله ؟ قلت : والله أنا أعرف أن الله عادل ، ولكنك أطلعتني على فصل من فصول هذه الحادثة ، ولعل لها فصولاً لا نعرفها ، لا أنا ولا أنت ، وأنا أسلم لعدالة الله .

فوالله الذي لا إله إلا هو ؛ إنها من غرائب المصادفات ، والأصح أنها ليست مصادفات : وهي أن صديقاً لي من حي الميدان حدثني بعد عشرين يوماً عن حادثة غريبة فقال : لنا جار كان وصياً على أموال أولاد أخيه الأيتام ، وبقي لهم معه عشرون ألفاً ـ ثمن بيت ـ والحادثة قديمة ، وكان البيت ثمنه عشرون ألفاً ، فرفض أن يعطيهم هذا المبلغ فشكوه إلى أحد علماء الميدان ، الشيخ حسين خطاب رحمه الله تعالى ، فاستدعاه واستدعى أولاد أخوته ، فأصرَّ على عدم دفع المبلغ الذي عليه فقال الشيخ حسين رحمه الله بالحرف الواحد : « يا بني هذا عمكم ، فإياكم أن تشتكوا عليه للقضاء ، هذه الشكوى لا تليق بكم ، ولكن اشكوه إلى الله » هذه الواقعة تمت الساعة الثامنة مساءً ، في ليوم الثاني مد رأسه من الدكان فأصابته الرصاصة فشُلَّ جسمه .

وهذه حكاية رمزية ، يقولون إن شوحة (حدأة) قالت لسيدنا سليمان : اسأل لنا ربك هل هو مهول أم عجول ؟ نريد أن نتحرك ، فلما سأل الله عز وجل ، قال له ربنا : قل لها إنني مهول لا عجول ، هذه الشوحة رأت أناساً يشوون اللحم فخطفت من هذا اللحم قطعة إلى عشها ، وقطعة جمر بقيت متعلقة بقطعة لحم فأحرقت العش كله ، عادت إليه من توها ، فقالت : يا سليمان الحكيم ، ألم تقل لي قبل قليل : إن الله مهول ، هاهو ذا عجول ، فلما سأل الله عز وجل قال : قل لها هذا حساب قديم .

وقال لي رجل : هل من المعقول أن يعاقبني الله على ذنب لم أفعله حتى الآن ؟ قلت : هذا العقاب جزاء ذنب قديم ، فيجب أن تؤمن بعدالة الله المطلقة .

عن قتادة قال : عقوبة بذنبك يا ابن آدم . قال ﷺ : **والذي نفسي بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما .**

ويقول ﷺ : **ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب وما يدفع الله عنه أكثر .**

ويقول ﷺ : **لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر .**

مرة كنت راكباً مع أخ في سيارته ، وقد أوقع أذى بسيارة أخرى فتوقعت من الذي ضربت سيارته أن يكون عصبي المزاج ، ويغضب ويعلو صوته فنزل ، ونظر إليه وقال له : اذهب ، ولا أريد شيئاً ، فاستغربت والله! وفوجئت بأن الحادث أدى إلى أضرار بهيكل السيارة والمصباح ، فلما رجع صاحبي إلى سيارته رأيت على خده دمعة ،

قلت له : ما القصة يا فلان ؟ قال : والله ، منذ سنة ضرب شخص سيارتي ، وفي سيارته نساء محجبات فكبر علي أن أزعجه ، وقلت له : سامحك الله ، فربنا بعد عام عاملني كما عاملت ذلك الشخص ، وكال لي بالمكيال الذي كلت به لغيري .

يجب أن تبلغ درجة من اليقين أن :

« **اعمل ما شئت كما تدين تدان** » [مصنف عبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلاً] .

« البِرُّ لا يَبلَى والذنب لا يُنسى والديّان لا يموت ، اعمل ما شئت ، كما تدين تدان » تكون باراً بوالديك فالله عز وجل يلهم أبناءك أن يكونوا بررة بك وإن تخدِم تُخدم ، « **أنفق بلال! ولا تخش من ذي العرش إقلالاً** » ، « **أنفقْ أنفقْ عليك** » [رواه الشيخان وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] ولا أعتقد إلا أن أكثر القراء لديهم من مثل هذه الوقائع والأحداث الكثيرة ، والعبرة منها كلها : أنه كما تدين تدان ، وكذلك اعمل ما شئت فإنك مجزي به .

وهذه الحادثة ذكرتها أكثر من مرة ، لكن أعيدها للعبرة الصارخة التي فيها : رجل عنده زوجة يحبها وتحبه يأكلان دجاجاً ، طُرق الباب فتحت فإذا سائلٌ يسأل ، فهمّت أن تعطيه من هذا الدجاج فنهرها زوجها ومنعها أن تعطيه شيئاً ، وقال : اطرديه ، نفذت أمره وطردته ، وتمضي السنون فتسوء العلاقة بينهما ، ويشتد الخصام ويطلقها ، فتقترن بزوج آخر ، وتعيش معه حياةً سعيدة ، وبعد خمس أو ست سنوات ، وهي مع زوجها الثاني ، وتأكل دجاجاً كما كانت تأكل مع الأول ، طُرق الباب ، فذهبت لتفتح الباب فاضطربت ، قال زوجها : مالكِ ؟ قالت : سائل ، قال : وليكن ، قالت له : أتدري من هذا

السائل ؟ إنه زوجي الأول ، قال : أتدرين من أنا ؟ أنا السائل الأول .

طبعاً هذه حكايات لكن ؟ نحن نقتنص ما بها من عبرة ، وأنا متيقن أنه لا يقع شيء في الأرض إلا وفق عدالة مطلقة ، فدائماً إذا سمعت حكاية أو حادثة فيها ظلم ، فسأنصحك هذه النصيحة : قل لنفسك : لقد سمعت فصلاً أو عدة فصول من هذه الواقعة وبقي فصل لا أعرفه ، ولو عرفته لرأيت العدالة المطلقة ، فاعرف الفصل الأخير دائماً ولا تتسرع ، وتمهل ولا تحكم وقل : الله أعلم ، وكفى بربك بعباده خبيراً بصيراً ، الله يعلم ونحن لا نعلم .

فاعلم علم اليقين أن الله عز وجل عدل في خلقه ، وعدلٌ في أمره وعدلٌ في فعله ، أفعاله كلها عادلة ، ولذلك [illegible]ل مرة ثانية : « ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر » .

شيء آخر :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾

[الشورى : ٣٠] .

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾

[الكهف : ٥٩] .

وتقرأ عن زلزال أصاب البلدة الفلانية ، فلعلك تفهم الزلزال فهماً مادياً من أنه اضطراب القشرة الأرضية ، هذا الزلزال قوته ثمانية مقياس رختر ، فأغادير في شمال إفريقية كانت من أجمل مدن المغرب ، تقع على البحر الأطلسي لكن فيها من الفسق والفجور والنوادي العارية ، والملاهي الليلية ، ودور البغاء والفنادق الغارقة في

الإثم حتى قمتها مما لا سبيل إلى وصفه ، فبمدة ثلاث ثوان أصبحت أغادير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، فاعتقدْ جازماً أن الزلزال بحكمة ولحكمة يريدها الله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

إذاً : فالله سبحانه وتعالى عدل في خلقه ، وعدل في أمره وعدل في فعله ونحن « المؤمنين » ينبغي أن نقف بين الإفراط والتفريط ، وأن نكون معتدلين في كل أفعالنا .

* * *

الحليم

الاسم الذي نحن في رحابه « الحليم » ، ومعلوم أن من أسماء الله الحسنى ما لا يُسمى الإنسان بها كاسم الخالق ، ومن أسماء الله الحسنى ما يسمى الإنسان بها كالرحيم والحليم والعفو ، فمِمَّا يلفت النظر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال أشج عبد القيس فيما رواه مسلم في صحيحه : إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة .

وقد قيل : « كاد الحليم أن يكون نبياً » .

فما هذه الصفة التي إذا اتصف بها العبد كاد أن يكون نبياً ؟ إنها الحلم والحلم سيد الأخلاق ، والله سبحانه وتعالى حليم ، أمّا الآية التي في القرآن الكريم والتي يُستنبط منها اسم الحليم في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر : ٤٥] .

هذه الآية يُستنبط منها اسم الحليم ، وفي سورة النحل أيضاً الآية الواحدة والستون ، قد يستنبط منها اسم الحليم .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ ، إذاً هم ظالمون ، وهناك مؤاخذة ،

فما تعريف اسم الحليم ؟ هناك إنسان ظالم ، وهناك عقوبة لهذا ، والله سبحانه وتعالى حليم ، فكيف تجلى حلمه ؟ هناك ظالم أو عاص متلبس بظلم ، وهناك عقوبة مختصة بهذا الظلم أو هذه المعصية .

لكن الله سبحانه وتعالى حليم بمعنى : أنه يؤخّر العقوبة ، لماذا يؤخر العقوبة ؟ وهذا السؤال وجيه !! فلو أن الله سبحانه وتعالى عجّلَ العقاب لكل مذنب حين يقع في ذنب لما كان هناك حلم ، ولو أن الله عز وجل أخّرَ العِقاب ويريد بعد تأخير العقاب أن يوقع بهذا الإنسان أشد العقاب ، فهذا هو الحقد ، وحاشا لله فالحاقد يمتلىء شعوراً بالغيظ لكنه يؤخر تنفيذ عقابه لسبب أو لآخر ، قد يكون ضعيفاً وحقده عن ضعف ، وقد يكون قوياً ولكن يحب هذا الظالم لهذا المسيء أن تزداد إساءته ليأخذه بأكبر ذنوبه ، فحينما يؤخّر إنسان العقوبة لضعفه فهو الحاقد ، وحينما يؤخر إنسان العقوبة ليجعل خصمه يقع في ذنب أكبر فيوقع به أشد العقاب ، فهذا أيضاً حاقد ، وهو حاقد قوي ، فهناك إذاً حاقد قوي وهناك حاقد ضعيف .

وتأخير العقاب من قِبَلِ الله عز وجل ليس له علاقة بهذا المعنى إطلاقاً ، فلو أنه ألغى العِقاب فهل يسمى حليماً ؟ لا ، فماذا يُسمى إذاً ؟ . . يسمى عفواً غفوراً ، وإذا أخّرَ العِقاب ليُعطي هذا الإنسان فُرصةً ليعود فهذا هو الحلم .

مثل بسيط يمكن أن يوضح هذه الحقيقة : أنشأنا مدرسة هدفها الأول التعليم والتهذيب والتربية والتثقيف والتقويم وما إلى ذلك ، ولهذه المدرسة نظام داخلي ، ومن بنود هذا النظام أن الطالب إذا غاب عن هذه المدرسة أسبوعين يُفصل ، فلو أن المدير كلما رأى

طالباً غاب أسبوعين فصله ، لفصل كثيراً من الطلاب في فترة وجيزة ، لكن هناك مديرون يحلمون ، يطلب من الطالب أن يأتي بوليّه ، وأن يأتي بتقرير طبي ، يتغاضى أحياناً ، يتغافل أحياناً ، لا يُطالب الموجّه بتقديم بيان بالغائبين ، لأن الهدف من إنشاء هذه المدرسة نبيلٌ جداً ، ليس القصد أن يفصلهم ولكن القصد أن يعلمهم ، لذلك ربنا عز وجل قال : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : ١٢٩] .

ما هذه الكلمة ؟ لولا هذه الكلمة لكان لزاماً أن يوقع العقاب عليهم ويعجله ، لولا هذه الكلمة لكان لزاماً أن يهلكهم ، لولا هذه الكلمة لكان لزاماً أن يأخذهم ، ما هذه الكلمة التي أخرّت العِقاب ، وأخرّت الهلاك ، وأخرّت الجزاء ؟ ما هذه الكلمة ؟ . . إنها الرحمة أراد أن يرحمهم ، يؤكد هذه الحقيقة ؟ « سبقت رحمتي غضبي » ، [متفق عليه] « إن رحمتي تغلب غضبي » [الترمذي من حديث أبي هريرة] .

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٩] .

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

لولا أنكم تعرفونه ، وتدعونه في ضوء معرفتكم ، ولولا الأمل في أن ترقوا ، ولولا الأمل في أن تتوبوا ، ولولا الأمل في أن تنجوا ، فما يعبأ بكم ربي ؟! . . ، لولا أنه يعبأ بكم لأوقع الهلاك والعِقاب والجزاء وانتهى الإنسان إلى بوار .

إذاً : من أسماء الله الحسنى أنه حليم ، لا يُوقِع العِقاب فوراً ، ما من مسلم إلا وهو يعلم أن صُلْحَ الحُديبية ، في ظاهره مهانة للمسلمين ، لأن فيه تنازلات وهم في حالة قوية ، تنازلات أباها الصحابة ، ورأوها نوعاً من الذُلّ ونوعاً من الاستسلام ، وقد أدهشهم موقف النبي عليه الصلاة والسلام ، والنبي ﷺ لما رأى هذا الغليان في صدور الصحابة ولاسيما عمر رضي الله عنه الذي ظن أن في الصلح هذا قبولاً للدنية في الدين قال : « **إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً** » [رواه الشيخان] ثم جاء الجواب :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح : ٢٥] .

في مكة أُناسٌ آمنوا خفية ، آمنوا بقلوبهم وبقوا مع قريش بأجسامهم ، هؤلاء يعلمهم الله ، لذلك أخَّرَ فتح مكة كله ، وأمر النبي ﷺ أن يقبل بهذه الشروط التي تبدو مهينة من أجل أن يعطي هؤلاء فرصة كي يؤمنوا ، إذاً أنت تتعامل مع الحليم .

« **عبدي لي عليك فريضة ، ولك علي رزق ، فإن خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك** » .

« **إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب** » .

وأسماء الله عز وجل منها ما هي أسماء ذات ، ومنها ما هي أسماء صفات ، ومنها ما هي أسماء أفعال ، فيا ترى اسم الحليم اسم ذات ، أم اسم صفة ، أم اسم فعل ؟

لأنه أخّرَ العقوبة فهي صِفة فعل ، فالله عز وجل يُحب عباده جميعاً

« لو يعلم المُعرِضون انتظاري لهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لتَقَطَّعَت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي » . والله سبحانه وتعالى كما قال على لسان السيد المسيح :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[المائدة: ١١٦] .

وأحياناً الإنسان لا يُعاقِب ، لكن من الداخل يغلي ، يقول : اشتهيت أن أُمزقه ، فليس هذا هو الحلم ، الحلم لو شققت صدر هذا المؤمن لرأيت فيه السلام ، فيه الراحة ، ليس في قلبه حقد ولا يتمنى أن يقهر خصمه ويمزقه .

المؤمن العادي الحليم ينطوي على نفسٍ وديعة ، صافية ، مُسالِمة لا حقد فيها فكيف بالله رب العالمين ؟ لذلك إذا سمعتم في الحديث الشريف أو في القرآن الكريم أن الله قد غضب ، وقد لَعَنَ ، فالله سبحانه وتعالى لا يبغض العبد ، بل يبغض فعله فقط ، ويلعن فعله فقط ، ويحبه كحب الأُم حينما يعود ابنها إلى الصواب .

إن رجلاً من أصحاب ذي النون المصري ، شَعَرَ بضيق ، وبتشتت ، وشَعَرَ بضياع ، فقال : أين قلبي ؟ أين ضاع قلبي ؟ قلبي في ضياع ، وفي طريقه في بعض أزقة المدينة رأى باباً يُفتح ، ورأى أُماً تطرد ابنها ، وتلقيه خارج البيت ، وتُغلق الباب ، جلس هذا الطفل يبكي فأين يذهب ؟ إلى أي بيت يدخل ؟ من يسأل ليطعمه ؟ أين ينام ؟ فما كان منه إلا أن عاد إلى باب بيته ، وجلس على عتبة الباب يبكي ويبكي ، وكانت أمه من رحمتها الشديدة به تنظر إليه من ثقب الباب ، فما كان منها إلا أن فتحت الباب وأخذت ابنها ، ووضعته في حضنها وقالت : يا قرة عيني! يا عزيز نفسي! لاتحملني

بمعصيتك على خلاف ماجبلت عليه من الرحمة بك ، لو أطعتني لما رأيت مني ما تكره ، فصاح هذا العارف بالله : وجدت قلبي وجدت قلبي .

إذاً : فالحليم من أسماء الأفعال ، يعني : أخر العقوبة فقط ، أما إذا قلنا : الحليم من أسماء الذات أو أسماء الصفات فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحقد .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : **« يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ »** . [صحيح مسلم] .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

[إبراهيم : ٨]

﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

ربنا عز وجل أراد أن يُعرِّفَنا بذاته ، فجعل نظام الأبوة والأمومة وهو في ظاهره أبوة وأمومة وأولاد وتربية ومستقبل ، وباطنه أن تتعرف إلى الله من باب المثل .

سأنقلكم من هذا المثل إلى مثل أوسع : فكيف جعل ربنا عز وجل هذا الطعام الذي تأكله أعني لحم الضأن ، لِحِكمةٍ أرادها جعل بُنية

هذا الحيوان مشابهة تماماً لبنية الإنسان ، فليس كل واحد منا طبيب ، وليس لكُل واحد أن يرى ما في بطن الإنسان ، فلن يتمكن من رؤية المعدة والكبد والأمعاء ، والرئتين ، والقلب والشرايين والأوردة والعضلات والأعصاب والأوتار والغدد والكليتين والمثانة والحالب والدماغ ، والعين ، ولا يُتاح لواحد منا أن يرى ذلك ، ولكن يرى هذا كل يوم عند القصاب ، تريد طحالاً ، بيضات غنم ، أنواع اللحم ، هنا عضلة مخططة ، هنا عضلة ملساء . هنا قفص صدري ، هنا عمود فقري ، هنا نخاع ، الإنسان يطلب النخاع ليستخلص ما فيه من لب ، هذا اللب معامل تصنع كريات الدم الحمراء ، فلِحِكمةٍ بالغة جعل هذه الأنعام لها بنية تشريحية تُشابِه خَلقَ الإنسان ، فمن لم ير في كلية الطب فإنه سوف يرى ذلك عند بائع اللحم .

عودة إلى نظام الأبوة والأمومة ، هذا نظام فريد من نوعه ، ترى الأب يهمل نفسه أحياناً ويسعى من أجل أولاده ، الأولاد يقفون موقفاً قاسياً أحياناً فيه فظاظة ، غلظة ، كلامٌ قاسٍ ، لامبالاة ، عقوق ، وقلب الأب وقلب الأم معلّق بأولادهما ، وفي أية لحظة قد يعود هذا الابن إلى أبيه تائباً ، يعود إليه منيباً فيقبله الأب ويفرح فرحاً كبيراً .

الذي أراه أن نظام الأبوة والأمومة له هدف أكبر من تربية الأولاد أن تتعرف إلى الله من باب المثل ، كيف أن الأب لا يحقد ، الأم لا تحقد ، الأم كل حياتها من أجل أولادها ، كل سعادتها في إسعاد أولادها ، وحينما رأى النبي عليه الصلاة والسلام أماً تقبل ترضع صبياً

في السبي فقال لأصحابه : « **أترون هذه طارحة ولدها في النار** » قالوا : لا قال : « **لله أرحم بعباده من هذه بولدها** » .

الأب لا يبتعد عن ولده ، يُحلل شعوره تجاه ابنه والأم شاهدها معها ، ألا وهو قلبها الرحيم الحاني ، فمن أودع في هذا القلب الرحمة ؟ تستيقظ عشرات المرات في الليل من أجل وليدها ، إن أصاب وليدها مكروه تبكي ، تتمنى أن تعطيه من صحتها ، من جسمها ، من غذائها ، إذاً نظام الأسرة نظام له هدفان ، هدف لتربية الأولاد وهدف أكبر بكثير أن تتعرف إلى طرف يسير جداً من رحمة الله عز وجل .

تُشاهد حادثاً تتجلّى فيه رحمة الله كما تتجلّى فيه عناية الله سبحانه ، ترى حادثاً مروّعاً وقد نجا الكُل بعناية الله وقدرته ، قد ترى إنساناً في ساعة ضيق شديد فيأتيه الفرج ، ويتبدد الكرب ، وأحياناً يصل الإنسان إلى درجة اليأس فيأتيه الإكرام ، لذلك قيل :

فلَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تُفرج

وليست معركة الخندق بخافية عليك أيها القارىء الكريم ، إن الله عز وجل يمتحن المؤمنين ؛ إيمانهم وصبرهم ، ومدى التجائهم إليه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ٩ـ١٢] .

لكنه بعد ذلك رحمهم ، وأكرمهم ، ونصرهم ، وأعزهم ، ورفع شأنهم ، وأحبطَ أعداءهم ، بعدما بدا للمؤمنين أن الإسلام انتهى أمره ، وأن المعركة مع الكفار ليست معركة نصر أو هزيمة بل معركة حياة أو موت ، معركة نكون أو لا نكون ، هذا الذي حصل ويحصل في كل معركة حاسمة .

وأكرر ؛ إن الله عز وجل حليم. . ومعلوم أنَّ الله يُحب الكمال ، إن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً ، والله سبحانه وتعالى يحب المحامد ، « **ليس أحدٌ أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحدٌ أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش** » [رواه مسلم] و « لاأحد أحب إليه المدح من الله [رواه مسلم] إن الله يُحب الكمال ، يُحب العمل الذي يُحمد عليه الإنسان ، يُحب الحلم ، يُحب الرحمة ، يُحب الإنصاف ، يُحب العدل .

ومعلوم أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق ، ففي حياته امرأةٌ زنت وكان لابد أن يُقام عليها الحد ، والحد هو الرجم ، فجاء أهلها إلى حب رسول الله ، إلى أحب الناس إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يشفع لها عنده ، من هو ؟ أسامة بن زيد ، فجاء أسامة على استحياء وكلّمَ النبي عليه الصلاة والسلام في شأن هذه المرأة الزانية ، وفي رواية للنسائي : تلون وجه رسول الله ﷺ ، وقال : يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟!

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ

الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا : وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِىءُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ ؟! ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » . [صحيح البخاري] .

فالله يُحب العمل الذي يُحمد صاحبه عليه ، يعني يُحب مكارم الأخلاق .

« إن الله جواد يحب الجود ، ويحب معالي الأمور ، ويكره سفاسفها » . [أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز] .

إن الله يُحب أن تكون عالياً في نظر الناس .

الله عز وجل يحب الحليم لأنه حليم ، والحليم يحب الحليم ، وعلاقتنا بهذا الاسم كمؤمنين ، أن نكون حلماء ، فما الطريق إلى الحلم ؟ وهو سؤال جدير بالإجابة .

ما دامَ الله عز وجل يُحب المحامد ، ومن محامده أنه حليم ، كيف أكون حليماً ؟ التفكّر في اسم الحليم طريق إلى أن نكون حلماء ، هناك طريق آخر : أن يكون الإنسان متحلماً ، أي يتصنع الحلم .

فكل واحد منا له مرتبة عند الله ، لو افترضنا أن إنساناً مرتبته دُنيا ، ووضع في ظرف فيه استفزاز ، فأحياناً يدخل إلى البيت ولا يجد طعاماً ، ولم يأكل قبل مغادرته صباحاً ، وقد أمضى يوماً

شاقاً ، زوجته عند أهلها ، وذهبت بلا إذن وعادت الساعة الثالثة ، وقالت : لم أعد طعاماً لو دبرت أمرك ، ببساطة وببرود ، والزوج في غليان ، فيصيح ، ويتكلم كلمات قاسية ، ويمكن أن يضرب ، لكن المؤمن ماذا يفعل ؟ قال الله :

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران : ١٣٤]

فالقرآن ذكر كظم الغيظ ، وحث عليه ، وأثاب عليه ، والنبي ﷺ دعا إلى التحلم ، يعني ليتصنَّع الحلم فهو من الداخل يغلي غليان البركان ، فليتصنّع الحلم ، وليضغط على أسنانه ، كفعل الإنسان عندما يعطى إبرة البنج ، فيمسك وسادة المقعد ويشد عليها ، ويتحامل على نفسه قال ﷺ « **ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة** » أما الصغير فقد يسب الطبيب ، وفوراً يصيح ، يبكي ، هذه العملية ، عملية كظم الغيظ ، عملية السيطرة على الأعصاب هذه اسمها تحلّم ، لكن ، لو سألت نفسك لماذا كظمت غيظي ؟ فتجيب نفسك بنفسك : حباً بالله ، تقرباً إليه ، تنفيذاً لأمر نبيه ﷺ ، ومرة مع مرة مع مرة ستشعر أنَّ الله عز وجل راضٍ عنك ، إذ عاهدته على الحلم أو أن تتحلم .

وبعد ، من خلال اتصالك بالله عز وجل تدرك أن مكارم الأخلاق مخزونةٌ عِندَ الله تعالى ، فإذا أحبَّ الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً .

هناك حِلْم تطبع وحِلْم طبع ، حِلْم التطبع هو التحلّم ، عملية كظم غيظ ، عملية ضبط الأعصاب ، رغم الغليان من الداخل ، ومع هذا الواقع المر فوراً ، أقول كما قال عليه الصلاة والسلام :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتوقَّ الشر يوقه** » ، و« **لن ينال الدرجات العلا ؛ من تكهن أو استقسم أو رجع من سفره تطيراً** » . [رواه الطبراني بإسناد رواة أحدهما ثقات] .

يعني خُلُق الحلم الأصيل بدايته تكون بالتحلّم ، تحلمت أول مرة والثانية والثالثة والرابعة والخامسة ، فمن تراكم هذه المواقف البطولية يكون الحلم ؛ لأنه :

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ « **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ** » .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ : « **اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي** » قَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي ، وَلَمْ تَعْرِفْهُ فَقِيلَ لَهَا : إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ : لَمْ أَعْرِفْكَ ، فَقَالَ : « **إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى** » . [صحيح البخاري] .

منذ أيام توفي رجل ، فدخل أحد ذويه وتكلّم كلمات بحق الله لا تليق ، بعد نصف ساعة استعاد توازنه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، رسب في الامتحان ، أجل ، رسب في الامتحان ، ليقُلْ : لا حول ولا قوة إلا بالله ألف مرة ، ليقل : سبحان الله! يا رب لك الحمد ، كله كلام لا طائل تحته الآن ، إنما الصبر عند الصدمة الأولى ، حين يتلقى الخبر ماذا يقول ؟ يا رب لك الحمد ، فهذا نجح مئة على مئة لأن الحمد علم ، تعرف أن الله حكيم ، وأن أفعاله كلها

كمال وكلها عدل وكلها رحمة ، إذاً إنما الحلم بالتحلم ، يعني أن تملك أعصابك مرات متتابعة فموقف كله تصنع ، وهو موقف تكلّف ، هذا الحِلم المتكلّف هو حِلم المبتدئين ، لكن والله الذي لا إله إلا هو بعد أن تكابد مواقف التحلم وتقبل على الله عز وجل مكابدةً ، يصطبغ قلبك ببعض أسماء الله الحسنى ومنها الحِلم ، ويصير حِلمكَ طبعاً ، لو شققت صدر إنسان مؤمن متفوق رأيت في قلبه برداً وسلاماً ، زين العابدين علي بن الحسين استفزّه شخص ، وقسا معه بالكلمات ، فقال له : إن كنت صادقاً فيما قلت لي فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

كم من رجل دمّر مستقبله في ساعة غضب ، طلّق زوجته وله منها خمسة أولاد ، وفي ساعة غضب ارتكب جريمة .

أعرف رجلاً عنده أجير ، حدث بينهما خِلاف فطرده ، وفي المستودع بضاعة غير نظامية ، فاشتكى عليه ، جاء المسؤولون عن البضاعة غير النظامية وكتبوا مخالفة كلفته ـ والحادثة وقعت سنة ١٩٧٠م ـ ستمئة ألف تقدر بستة ملايين في أيامنا هذه ، وهذا الرجل لديه مسدس ، فأطلق النار فأصاب الأجير ، حكموه ثلاثين سنة سجناً ، كانت ساعة غضب ، فهذه القضايا خطيرة جداً ، كم من بيوت دُمِّرَت ، وأُسَر تَشَتت ، وشركة ناجحة جداً انتهت بدداً في ساعة غضب جراء كلمة من أحد الشريكين .

وفي ساعة غضب قد يرتكب الإنسان حماقة كبيرة ، أما الحليم في بحر الأمان ، فسلام داخله ، سلام خارجه ، أمره سلام ، فلو شققت صدر مؤمن يتمتع بالحلم لرأيت في قلبه برداً وسلاماً .

سمعت عن زوجٍ ، زوجته جاهلة بأحكام الدين ، وقفت عند بائع ، من كلمة إلى كلمة ، قالت : راعنا نحن جيرانك ، ولعل الكلمة من الخضوع بالقول ففهم شيئاً آخر من الكلام ، فهم أنه ممكن أن يزورها بالبيت ، فدخل إلى البيت ساعة غياب الزوج ، فاستنجدت بزوجها عن طريق ابنها الصغير الذي قال له : عندنا رجل في البيت يا أبي ، جاء زوجها بحالة غضب شديد ، أغلق الباب وجاء بالشرطة ، وفضح زوجته وطلّقها ، ثم استفتاني يريد أن يردها ما الطريقة ؟ ، لقد ارتكب حماقة كبيرة جداً فقد أخطأت الزوجة لكنها بريئة ، ولكن خطأك كان أفدح وأشنع ، فأين أنت من حادثة الإفك وموقف رسول الله ﷺ ؟

والنبي علمنا لما سمع الخبر المؤلم في قذف السيدة عائشة وكيف بقي شهراً في أشد حالات الحلم وضبط الأعصاب ، هذه السيرة كلها دروس ، فإذا كان الرجل غير حليم يصبح كالمتفجرات ، يفجر نفسه : « **إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم** » [الدارقطني في الأفراد من حديث أبي هريرة وهو حديث حسن] .

تتحلم تتصنع الحلم تجعل نفسك حليماً تتكلف الحلم ، تضغط على نفسك تكظم غيظك فتحدث لك صِلة بالله حقيقية ، أنت تجاهد نفسك : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى .

تُقبل على الله عز وجل ، تصطبغ هذه النفس بأحد أسماء الله الحسنى وهو اسم الحليم ، ثم تصبح حليماً أصيلاً ، حقيقةً ، ويزينك الحِلم قلباً وقالباً ، ماذا قال الله :

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

أول الأمر صبر ، وبعده صلاة ، والصلاة تأتي بخير ، ثم يأتي منها الحلم والرحمة والإنصاف .

النبي الكريم ﷺ في الخندق ومعه ثلاثة آلاف صحابي أجلاّء ، والظرف الطبيعي برد شديد وخوف وجوع وما اجتمع في الجزيرة من قبلُ جيشٌ يُعدّ عشرة آلاف مقاتل مطلقاً ، جاء ليستأصل المسلمين من جذورهم ، ومع ذلك كان النبي ﷺ مع أصحابه في الخندق يحفرون ويتمترسون ، وقد أصابهم جوع شديد ، قال جابر : فانكفأت إلى امرأتي فقلت هل عندك شيء فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً فأخرجت إليّ جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير. . . ثم قال : « يارسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا. . فتعال أنت ونفر معك » ، من حبهم الشديد للنبي ما كان أحدهم يستسيغ أن يأكل لقمة وحده ، فماذا فعل النبي ﷺ ؟ أيمكن أن يأكل النبي وحده مع نفر قليل من أصحابه ، ويدع بقية أصحابه جوعى ؟ أبداً لا ، وقال للجيش كله : « **يا أهل الخندق! إن جابراً قد صنع لكم سوراً فحيّ هلا بكم** » فهذا الصحابي ذاب كالشمعة استحياء ، أي طعام هذا لقد هيأ طعاماً لثلاثة نفر أو أربعة ، وهناك آلاف ، فالنبي ﷺ ما كان له أن يفعل إلا ما فعل ، إلا لأنه رحيم بالناس ، وهو كما وصفه الله تعالى :

﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] وللقصة بقية .

وفي عصر النفاق تجد مواقف ذكية جداً فترى بعض الناس يتصنع الرحمة ، ويتصنع الحلم. . لكن ذات ليلة واحدة من ليالي قطع تيار

الكهرباء في مدينة بأمريكا ، ارتُكبت مئتا ألف سرقة بليلة واحدة ، مع كل هذا الانضباط الخارجي ، لذلك عظمة الدين أنه يَخلِق في الإنسان وازعاً ، في حين أن القانون يَخلِق رادعاً ، القانون دائماً ردعه خارجي ما دامت الطريق مراقبة ، وفيها رادار ، فالسرعة محدودة بثمانين كيلو متراً في الساعة ، وإذا خلت الطرقات من الرادار فالسرعة تزيد على المئة وعشرين ، ما دامت الصالة مراقبة تلفزيونياً لا يسرق أحد شيئاً وإلا فالسرقة شريعة القوم ، فهذا القانون لا يستطيع أن يفعل في الإنسان إلا فعل الرادع ، أما الدين ففيه وازع داخلي يرقى بالإنسان رقياً إلى مرتبة الملائكة .

سيدنا عبد الله بن عمر رأى راعياً ، أحب أن يمتحنه قال له : بِعني هذه الشاة وخُذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ، قال : ليست لي ، قال : خذ ثمنها وقل له : أكلها الذئب ، قال : ليست لي ، ولما ضاق هذا الراعي ذرعاً بالطلبات ؛ قال : والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن يا هذا أين الله ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين .

لعلي الآن لا أرى مؤمناً يقول : أين الله ، لا في بيعه ولا في شرائه ، ولا في حديثه ولا في وصفه ، وفي مدحه ، ما دامت البضاعة كاسدة يمدحها ليبيعها .

ـ خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون فقال : يامعشر التجار فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال :

« إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق » [رواه الترمذي]

ـ **« إن التجار هم الفجار »** ، قالوا : يارسول الله! أليس قد أحل الله البيع ؟ قال : **« بلى ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون »** [رواه أحمد]

روي أن إبراهيم عليه السلام رأى رجلاً مشتغلاً بمعصية ، فقال : اللهم أهلكه ، فأوحى الله إلى إبراهيم أن يا إبراهيم لو أهلكنا كل عبد عصى لما بقي إلا القليل ، ولكن إذا عصى أمهلناه ، فإن تاب قبلناه ، فإن أصر أخّرنا العقاب عنه لعلمنا بأنه لا يخرج عن ملكنا .

جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله ﷺ فقال : إن دوساً قد هلكت ، عصت وأبت ، فادع الله عليهم ، فظن الناس أنه يدعو عليهم فقال : **« اللهم اهد دوساً وائت بهم »** [متفق عليه من حديث أبي هريرة] والطفيل هو الذي قال للنبي ﷺ إنه قد غلبني على دوس الزنا [ابن هشام] فالنبي ﷺ ما كان لعّاناً .

طبعاً لو تُرك الأمر إلى الناس لأهلَكَ بعضهم بعضاً ، ولكن الله يرحم .

يُروى أن شاباً كثير الذنوب ، ولكنه ما كان من المصرِّين ، بل كان يتوب ثم يرجع إلى الذنب فلما كثر ذلك منه قال الشيطان : إلى متى تتوب وتعود ؟ وأراد أن يُقنِطَهُ من رحمة الله ، فلما جاء الليل قام وتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع بصره إلى السماء وقال : يا من عصمت المعصومين ، ويا من حفظت المحفوظين ، ويا من أصلحت الصالحين ، إن عصمتني تجدني معصوماً ، وإن أهملتني تجدني

مخذولاً ، ناصيتي بيدك ، وديوني بين يديك ، يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك ، فقال الله سبحانه وتعالى للملائكة : أما سمعتم قوله ، اشهدوا أني قد غفرت له ما مضى من ذنوبه ، فهذه الواقعة لها في القرآن ما يؤيدها .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وموقف سيدنا يوسف ، فيه من التواضع وصدق العبودية لله عزّ وجل ، ما يشدَه العقول : نبيٌّ عظيم ، قال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

مرةً زارني أخ شاب أحبه ، وكان شاباً مندفعاً وتائباً ، حينما دخل بيتي أجهش بالبكاء ، قلت : خيراً ، قال : أمد بصري مداً وأحدق بالنساء ، قلت : تُب إلى الله ، قال تُبتُ كثيراً ، كلما تُبت نقضتُ التوبة ، قلت : أعوذ بالله ، فلمع في خاطري أنه حينما تاب إلى الله من قبل توبةً أولى واستقام على أمره شَعَرَ باعتداد واعتزاز فصار يقيِّم الناس ، كلما رأى رجلاً من أقربائه ينظر يتهمه بالفسوق والكفر والفجور ، ولكنه يرى نفسه أنه مستقيم ، وبدأ يوزع على الناس ألقاباً ، فربنا عز وجل أدبه ، أضعف له مقاومته ، إلى أن أصبح على أعتاب الله ذليلاً ، وعرف أنه ضعيف بنفسه ، ولعله نسي أنه لا حول عن معصيته إلا به ولا قوة على طاعته إلا به ، وغابت عنه الآية الأساسية في سورة الفاتحة وهي :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

فلعله قال مدركاً : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ولم يقل بالدرجة نفسها : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فلذلك الافتقار إلى الله عز وجل هو المعين .

وكان لأبي حنيفة جار مغنٍّ ، وهو تارك الصلاة ويشرب الخمر ويلهو بالغناء يومه كله ، وكانت أغنيته المفضلة :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فهذا المغني ملأ الحي صخباً وضجيجاً وآذى الجيران ، وذات ليلة لم يسمع صوته ، فسأل عنه ، قالوا : أُلقيَ القبضُ عليه ، فأبو حنيفة النعمان بقدره العظيم وشأنه الجليل توجه إلى الأمير رجاء أن يعفو عنه ، الأمير لم يتوقع أن يأتي أبو حنيفة بذاته وحين علم قال : ايذنوا له وأقبلوا عليه وأقبلوا به راكباً ولاتدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته ، وإكراماً له أفرج عنه وعن كل من ألقي عليه القبض في ذاك اليوم ، فساقه أبو حنيفة من يده قائلاً : يا فتى هل أضعناك ؟ تقول : أضاعوني وأي فتىً أضاعوا.. فقال : لا ، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق وكان هذا الموقف سبب توبته ، فإذا حلمت على رجل عاصٍ فقد يكون حلمك سبب توبته ، أما إذا كفّرته وفسّقته ولعنته وسببته فقد يكون هذا الموقف سبباً لاستطالته في فجورهِ ، والنبي ﷺ لم يبعث لعاناً حتى نلعن الناس ، ولسنا قضاة لنحاسب الناس ، ولكننا دعاة إلى الله عز وجل .

إن الحِلم حارس أمين يحول دون حماقات كبيرة جداً ، قد تتردى فيها ، وتكون عاقبتها مدمرة ، والعكس صحيح ؛ إذ قد يكون الحِلم

سبباً لتكون هادياً وداعياً إلى الله سبحانه ، والحِلم محبوب ، إذ كاد الحليم أن يكون نبياً ، والحلم سيد الأخلاق .

بالحِلم تتبوّأ أسمى المكانة في قلوب الناس ، فلهذا قال مالك بن دينار : كان لي جار يتعاطى من الفواحش الكثير وجيرانه يتأذون منه ويمقتونه ، فشكوا منه إلي ، فأحضرناه ونصحته إما أن تتوب وإما أن ترحل من المحلة ، فأبى أن يفعل واحداً منهما ، فقلنا : نشكوك إلى السلطان ، فقال : السلطان يعرفني ، فقلنا : ندعو الله عليك ، فقال : الله أرحم بي منكم ، فغاظني ذلك فلما أمسيت قمت وصليت ودعوت عليه ، قال : فوقع في قلبي : لا تدع عليه ، بل ادع له بالتوفيق . يبدو أن هذا الشاب تاب توبةً نصوحاً وعاد إلى الله واتفق أن رآه مالك في موسم الحج يطوف ويبكي .

وواقعة أخرى شبيهه يقول مالك بن دينار : بينما هو ماشٍ في الطريق رأى رجلاً مخموراً طرحته الخمرة أرضاً والزبد على شفتيه ويقول : الله ، الله ، وهو في حالة هذيان ، فعظم على هذا الإمام الكبير أن يخرج هذا الاسم العظيم من فمٍ نجس ، فتَلَطّفَ معه ومسح فمه وأكرمه على رغم من سكره ، وبعد أن صحا قيل له : أتدري من اعتنى بك واهتم بحالك ؟ إنه الإمام مالك ، ويبدو أن هذه العناية اللطيفة بهذا العاصي أثارت حساسية نفسه ، فبكى تأثراً وندماً ، وبالمناسبة فالعصاة أكثرهم فيهم رقة تحملهم على البكاء ، ونام الإمام مالك ليلته تلك فسمع في منامه صوتاً يخاطبه : يا مالك طهّرت فمه من أجلنا فطهّرنا قلبه من أجلك ، وخرج مالك إلى المسجد فرأى رجلاً يبكي ويصلي ويتهجد قال : من أنت يرحمك الله ، قال : إن الذي هداني أخبرك بحالي .

إنك لا تعرف عمق شعور المؤمن الصادق إذا استطاع أن يهدي رجلاً ضائعاً منحرفاً يعتقد بأن الله ليس عادلاً ، فإذا قدرت أن تُقنع إنساناً بعيداً وتروِّضَه على طاعة الله ، وتروِّضَه شيئاً فشيئاً إلى أن يستقيم على الطريق الصحيحة فهذا عمل بطولي ، بل إنك أنت البطل .

أحد العلماء قال لتلميذه كلمة ذات معنى إيجابي دقيق جداً ، قال : « **يا بني الشخص الصالح الجيد لا يحتاج إليك في موعظة ، وإنما يحتاج إليك السيىء المنحرف** » بطولتك ليست مع الصالحين ، ولكن بطولتك مع المنحرفين والعاصين ، وتلك البغي التي رأت كلباً يلهث ويأكل الثرى من العطش سقته فغفر الله لها ، أُنموذج للعودة إلى الله والعمل الصالح حتى ولو كان مع حيوان بهيم .

قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٣] .

فأجاب الله دعاءه بقوله : ﴿فبشّرناه بغلامٍ حليم﴾ ، والعلماء قالوا هذه الخلاصة : « **الحليم من كان صفّاحاً عن الذنوب ستاراً للعيوب** » ، الحليم هو الذي غَفَرَ بعدما ستر ، الحليم يحفظ الودّ ويُحسِنُ العَهد ، ويُنجِزُ الوعد ، الحليم يُسبِل سِترَ عفوهِ على العُصاة ويسحب ذيلَ عفوهِ على الفُجّار ، الحليم الذي لا يستخفّهُ عصيانُ عاصٍ ، ولا يستفزّهُ طُغيانُ طاغٍ .

المؤمن الصادق إن رأى عاصياً يرأف ويحنو ولا يتكبر ، ويحدث نفسه : لعل هذا العاصي يتوب توبةً نصوحاً ، ويَصدُق مع الله أكثر مني فيسبقني ، لا تحتقرنَّ عاصياً ادعُ له بالهِداية ، وتلطف معه والطف

به ، وما أمر وحشيٌّ عنك بخافٍ فقد فعل ما فعل ، ولما رجع إلى الله تاب عليه .

وكذلك سهيل بن عمرو الذي تمنى سيدنا عمر أن يضرب عنقه بالسيف ، حين قال له النبي ﷺ اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، قال : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك ولكن اكتب : محمد بن عبد الله [متفق عليه] ، كان في منتهى الغِلظة والقسوة ، وسيدنا عمر همَّ به حينما أسر سهيل بعد معركة بدر فقال : يارسول الله دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً ، قال عليه الصلاة والسلام : « **إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمه** » تسمع منه كلاماً تحمده عليه ، والحقيقة أنه قال كلاماً بعد موت النبي يُكتب بماء الذهب حينما ثبت الناس على الدين الحنيف في مرحلة الردة .

دخل عمير بن وهب على رسول الله فقال عمر : « **لقد جاء عمير وإنه لأضل من خنزير ثم خرج وهو أحب إلي من ولدي** » .

نضرع إلى الله عزّ وجل أن يرزُقَنا الحِلم ، فهو زين ، ونحن نتعلم أسماء الله الحسنى أملاً في أن نتخلّقَ بِها .

* * *

الشَّكُورُ

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

والاسم هو اسم « الشكور » .

الحقيقة أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض وكفى فأنت إذاً ما عرفته ، لأن الإيمان بوجود الله يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين الناس كلهم جميعاً يعني :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

حتى الذين عبدوا الأصنام قالوا : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

إذا أقررت بوجود الله عزّ وجل ، فأنت لم ترتفع عن أي مستوى من مستويات الناس العاديين ، ولكن معرفة الله تقتضي أن تعرف أسماءه وما من معرفة لها علاقة وشيجة بحياتك الدنيا وبمآلك إلى الآخرة كمعرفة أسمائه الحسنى ، فكلما ازددت معرفة به ازددت حباً له ، وازددت استقامة على أمره ، وازددت عملاً صالحاً تتقرب إليه ، وازدادت سعادتك في الآخرة .

إذاً شيء في غاية الأهمية أن تتعرف إلى الله من خلال أسمائه الحسنى ، اسم الشكور ثابت بالقرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٤] .

وفي سورة الإسراء يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

مشكور : اسم مفعول ، من الشاكر ؟ هو الله عز وجل .

وفي آية ثالثة في سورة النساء يقول عز وجل :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

إذاً شكور وشاكر ومشكور ، الفعل المشكور هو فعل العبد ، والله سبحانه وتعالى شاكر وشكور ، وبعد فما تعني كلمة « شَكَرَ » في اللغة ؟

الشكور مبالغة من شكر ، ودائماً صيغ المبالغة إذا اقترنت بأسماء الله الحسنى فتعني إما عدد الشُّكر أو حجم الشُّكر ، أما حجم الشُّكر ؛ فأنت قد تعيش في الدنيا لسنوات معدودات ، سنوات قد تزيد على الستين سنة أو السبعين ، فإذا أطعته في هذه السنوات المعدودات يَهَبُك حياةً أبدية لا تنقضي ، وكلمة (أبد) هذه كلمة قد لا ننتبه إلى معناها ، وها أنا ذا أُخاطب الإخوة الرياضيين ، الذين يدرسون الرياضيات ، لو أن « واحداً » في دمشق ووضعنا أصفاراً وبين كل صفرين ميلمتر ، وتابعنا الأصفار إلى حمص إلى حماة إلى حلب إلى أنقرة إلى موسكو إلى القطب الشمالي إلى المحيط الهادي إلى

القطب الجنوبي إلى إفريقية إلى إلى. . . . حتى عادت هذه الأصفار حول الأرض إلى أن استقرت على شمال « الواحد » ، هذا الرقم كم هو ؟ هذا الرقم « واحد » في دمشق والأصفار حول الأرض ، لو وضِعَ هذا الرقم صورة لِكسر عادي ، وفي مخرج الكسر إشارة للانهاية ، هذا الرقم يساوي صفراً في الرياضيات ، يعني : أي رقم مهما بدا لك كبيراً إذا قيسَ إلى اللانهاية فهو صفر ، فأنت إذا عِشت في الدنيا سنوات معدودات ، وفي هذه السنوات المعدودات أطعت الله عز وجل ، ونهيت نفسك عن الهوى ، وضبطت جوارحك ، وحررت دخلك ، وتعرّفت إلى الله ، وجلست في مجالس العلم ، وتلوت القرآن وفهمت القرآن ، ودعوت إلى الله ، وأنفقت من مالك ومن جاهك ومن علمك وجاء الأجل ، إذا قِستَ هذه السنوات المعدودة إلى الحياة الأبدية فأنت ما فعلت شيئاً ، فمعنى « شكور » أنه يعطيك على الشيء القليل الشيء الكثير .

أيعقل أن تدفع ربع ليرة سورية ، لتشتري بها محالَّ شارع الحمراء في دمشق على الطرفين ؟ الطوابق والمخازن والمستودعات ، والحريقة وطريق الصالحية والبحصة وحمراء بيروت ، وشارع بيكاديلي بلندن ، وشارع كذا بفرنسا ، هل من الممكن شراؤها بربع ليرة ؟ أؤكد لكم أن كل عمل الإنسان إذا قيسَ بما أعدَّ الله له من نعيمٍ مقيم ، والله إنه أقلّ من هذه النسبة .

انظر في هذه الشركات الكبرى في العالم ، فقد سمعت عن شركة قالوا : عندها فائض هم في حيرة من توظيفه ، مليار دولار ، فائض ليس له وظيفة يوظف بها ، هناك شركات كبرى في العالم ميزانياتها

وأرباحها بِقَدَر ميزانيات مجموعة دول ، هذه الشركة هل تُشتَرى بليرة ؟ ها أنا ذا أقول ودون أن أبالغ : إن ما أعدَّه الله للمؤمن من نعيمٍ مُقيم نظير ما يُقدمه من طاعةٍ لله في الدنيا ، كالنسبة بين ما قدّم وما سيأخذ ، وهي لا تتعدى أن تكون كمن يشتري إحدى أكبر الشركات في العالم بليرة سورية .

هذا معنى « الشكور » ، صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، عندنا « شاكر » وعندنا « شكور » صيغة المبالغة أنه يعطي اللانهاية ، يعطي الأبد .

مرةً سمعت أن بعض القضاة في بلد معين ليس لهم رواتب ، بل لديهم شيكات مفتوحة ، أي مبلغ يريده القاضي يأخذه ، لو طلب مبلغاً فلكياً يأخذه فوراً ، معنى « الشكور » إذاً ، أنه يعطي الشيء الذي لا نهاية له ، الذي لا حدود له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : قَالَ اللهُ : **أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .** » .

[صحيح البخاري]

الحقيقة أنّ هذا الكلام نقرؤه ونردده كثيراً ، ولكن لو وقفنا عند مدلول هذه الكلمة ، كل واحد منا له دائرة مشاهدات ، فأنت مثلاً إلى أين ذهبت ؟ تقول : ذهبت إلى لبنان وإلى الأردن ، وذهبت إلى الحج ، وذهبت إلى مصر وإلى قبرص ، فقط ؟ أجل ، فقط .

وقد تجد شخصاً يعرف أمريكا ، يعرف اليابان ، يعرف روسيا يعرف إفريقية ، وشخص آخر يعرف جنوب شرقي آسيا أيضاً ، وتجد

آخر ذهب إلى أستراليا ، وغير أولئك من ذهب إلى القمر .

على كلٍّ دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات لا شيء ، سمعت بالمريخ ولكن لم تذهب إليه ، وسمعت بالمشتري وسمعت بنجم القطب ، وسمعت بآلاسكا ، وسمعت بسيبيريا وسمعت بالقطب الشمالي ، دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات فهي لا شيء ، أما دائرة الخواطر قد يخطر ببالك جبل طوله من هنا إلى الشمس ، هذا خاطر ، ما دام الخاطر ليس له واقع فالقضية سهلة ، قد يخطر ببالك إنسان إذا وقف على الأرض اقترب من القمر ، طوله ثلاثمئة ألف كيلو متر ، هذا خاطر .

فعندما حدثنا النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه في الحديث القدسي قال : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، هذا معنى « الشكور » ، نظير ثلاث وستين سنة عشتها ، انقضى خمسها حتى أصبحت مكلّفاً ، يعني هذه السنوات المعدودة كل يوم خمس صلوات كلما رأت عينك امرأةً غضضت البصر عنها ، وكلما لاح لك مبلغ من شُبهة قلت معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين ، يعني مجموعة صلوات ومجموعة أيام صمتها ، ومجموعة مواقف خِفت فيها من الله عز وجل ، فاستحققت هذا العطاء الكبير . وربنا عز وجل قال :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢٠] .

أحدهم قال لي : كنت ببلد أجنبي ودعانا ، مدير الشركة إلى قصره ، فشدهنا إذ رأينا ما يفتن العقل والنظر ، دخلنا في غابة بقيت السيارة منطلقة ربع ساعة في هذه الغابة المحيطة بقصره ، في حين

يحتاج المرء في بلدان كثيرة إلى بيت مساحته مئة متر ، يأوي إليه ، في حين أن الغابة مساحتها مئات الكيلو مترات ، غابة صنوبر وبالمنتصف قصر كبير ، بل ملك كبير ، قصر وحوله حديقة مترامية ، غابة صنوبر ، فربنا عز وجل قال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ .

الله سمى ما أعد لك في الجنة ملكاً كبيراً ، هذا معنى « الشكور » ، شيء لا يُقدّر بثمن ، مقابل شيءٍ قليل جداً قدمته نلت به شيئاً كثيراً .

والمعنى الآخر لكلمة « شكور » هو المعنى العددي ، يعني لا يمكن أن تقدم شيئاً لله عز وجل إلا ويشكرك عليه .

حينما علم أبو لهب بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام أعتق ثويبة ، فقيل : إنه يخفف عنه العذاب كل يوم اثنين[1] ، وأنه أعتق هذه الجارية فرحاً بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام ، كل شيء محفوظ عند الله سبحانه ولو أنقذت نملة ، قال تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء : ١٤٧] .

قد تخدم شخصاً ، الخدمة لا يمكن أن يشكرك عليها إلا إذا

---

(١) قال ابن حجر في الفتح [٩/ ١٨٠] وذكر السهيلي أن العباس قال : لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال : مالقيت بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عني كلّ يوم اثنين ، قال وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم الاثنين ، وكانت ثويبة بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها .

عرفها ، مثلاً ، كأن تزور مريضاً ، فتحمل هدية وتتوجه إليه ، في مدخل البيت أخذها منك ابنه ، ولم يبلغه ، ثم جلست عند المريض فهل يعقل أن يشكرك هذا المريض بقوله : (فضلت ، شكراً) لا . طبعاً إنه لم يدر بالهدية ، فكيف يشكر وهو لا يعلم ، لذلك ربنا عز وجل : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ فهو يعلم ، يعلم أي عمل مهما بدا صغيراً ، لو أنقذت فراشةً ، لو رحمت إنساناً ، لو أمّنت إنساناً خائفاً ، أو هدأت من روع إنسان خائف ، لو طمأنت إنساناً ، لو أطعمت إنساناً جائعاً ، كل شيءٍ محفوظ عِنْدَ الله ، فكلمة « شكور » إما لحجم « الشُّكر » وإما لعدد مرات الشُّكر ، وهي مبالغة اسم فاعل .

قال العلماء : معنى « الشكور » ، في اللغة : الشُّكر في الأصل الزيادة ، فلان شكير أي عياله صغار ، وشكير الشجر ما نبت في أصلها من القضبان الصغار ، وناقة شكيرة وشَكْرى إذا كانت ممتلئة الضرع ، وشكرت الأرض إذا كثر النبات فيها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعطى من العلف ، وكل نبت يكتفي بالماء القليل فهو شكور ، هذا ما ورد في كتب اللغة عن كلمة شكور .

أما الشكر في حق العباد فله طريقان ، ويمكن أن نضيف لهما طريقاً ثالثة ، شكر باللسان ، وشكر بالعمل ، ونقول : لن يكون الشكر لا باللسان ولا بالعمل إلا إذا عرفت النعمة ، أساس الشُّكر المعرفة ، إذاً أنت تعرف ثم تشكر ، لا تشكر ما لم تعرف .

فشكر العمل ، مثلاً : هناك شخص قدم لك بيتاً ، فهو إذاً قدّمَ لكَ شيئاً ثميناً ، أو كُنتَ واقعاً في ورطةٍ كبيرة فأنقذك منها ، ثم رأيت ابنه في الطريق ، فإذا قدمت لهذا الصغير قطعة حلوى فهذه الحلوى في الحقيقة شُكر لوالده ، فأنت عبّرت عن امتنانك من أبيه بإكرام ابنه ، هذا بشكل مبسط .

لذلك فالمؤمن إذا أسدى للعباد خدمات ، أو إذا رحم العباد أو أكرمهم ، طمأنهم ، أطعمهم ، أسقاهم ، كساهم ، رحمهم ، حينما تُسدي معروفاً إلى مخلوق كائناً من كان ، لِقطة ، لجروٍ صغير ، فقد ترى حيواناً قد مرض وتأخذه إلى مشفى بيطري أو إلى طبيب بيطري ، فإذا أردت الحقيقة فهذا هو عين الشُّكر ، لأنك تُعبّر عن شُكرِكَ لله عز وجل وعن امتنانك له بخدمة مخلوقاته ، وإذا أردت أن تعرف سِر العمل الصالح في الدنيا ولماذا المؤمن يعمل الأعمال الصالحة ، ليس لها تفسير إلا أنها تعبير عن شُكر العبد لله عز وجل من خلال خدمة عباده ، إذا نصحت زبائنك نصيحةً صادقة ، فهذا شُكر منك لله ، إذا رحمت الناس ، إذا عطفت عليهم ، إذا أنصفتهم ، إذا خففت من مآسيهم ، إذا مسحت جراحهم ، إذا أمنتهم من خوفهم ، إذا قدمت لهم المعونة ، إذا فعلت أي عمل صالح هو في الحقيقة تعبير عن امتنانك لله عز وجل من خلال عباده ، ومألوف عند الناس على نحوٍ واضح جداً أن تكرمَ الأب من خلال إكرام الابن ، إذا رأيت رجلاً تحبه يصحبه ابنه فيمكنك كحد أدنى أن ترحب بالابن ، كيف أنت يا عم ؟ ما اسمك ؟ بأي صف ؟ وإذا معك قطعة سُكر أعطيته إياها ، وإذا وجدت لديك قلماً ثميناً ، وهذا الإنسان له فضل عليك أعطيته

القلم ، وهذا طبيعي جداً ، وهو شكر عملي حقاً .

تُريد شيئاً يريح قلبك ، تُريد لهذا الإنسان الذي أكرمك ، أن تُعبّر عن امتنانك له ، فتلقى أمامك ابنه وتكرمه ، الله عز وجل غني عن العالمين ، يطعم ولا يُطعم ، مستحيل أن تقدم هدية إلى الله لكن ليس أمامك إلا عباده ، كلهم عباده ، حتى الكفار ، حتى الذين أنكروا وجوده هم عباده إذا أحسنت إليهم فهذا عمل خيرٍ عند الله محفوظٌ ، فإن كنت طبيباً وجاءك مريض ، والمريض تعرفه غير مؤمن بالله ولا دين له ، فهذا عبد لله أمامك يجب أن تقدم له كل شيء ، كل ما في إمكانك لأنه عبد لله .

مثل آخر في مجال الحيوان ، فإذا وجدت حيواناً يحتاج إلى أن يأكل ، فتطعمه ، نعرف أُناساً يطعمون الطيور ويشعر أحدهم بلذة عارمة وبسعادة ، فيشتري كمية من الحبوب ، التي تصلح للطيور يضعها على السطح فترى مئات الطيور تسقط على السطح وتأكل يقول : كأني أتغذى أنا ، شعور نبيل سامٍ ، هؤلاء مخلوقات لله عز وجل ، لذلك فالمؤمن وهو يقود مركبته يحرص حرصاً كبيراً على ألا يؤذي بها مخلوقاً ، فمثلاً لو قتل غنمة لقطع أصحابها عنقه ، ويقطعون عليه ؟ الطريق ، ثمنها ثمانية آلاف يغرمونه الثمن . لكن إذا قتل كلباً لا أحد يُحاسبه ، ترى في الطرقات منها عشرات مقتولة ، أما المؤمن فهو يعلم أن هذا الكلب حتى لو لم يكن ملكاً لأحد ، ولو لم يكن هناك يحاسبه عليه ، سوف يحاسبه الله عليه ، لذلك فالمؤمن يحرص حرصاً بالغاً على ألا يدعس حيواناً ، وإذا وقع منه من غير قصد يبادر إلى أداء صدقة فلعل الله سبحانه وتعالى يعفو عنه .

هذا هو الشُّكر ، فالشُّكر بالأفعال أن تعمل عملاً صالحاً مع كل مخلوق ، وأنا أؤكد أنك إن خدمت المسلمين فقط أو إن خدمت المؤمنين فقط فهذا أرقى وأجدى عند الله تعالى ، أما أن تخدم إخوانك ممن تلتقي بهم في المسجد ، فهذه نظرة ضيقة جداً ولا تُرضي الله كثيراً ، بل يجب أن تخدم الخلق عامة .

عن أبي موسى رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول :

« **لن تؤمنوا حتى تراحموا قالوا : يارسول الله! كلنا رحيم قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة** » [رواه الطبراني] .

حدثني أخ قال : رجل مُنعَم يركب سيارته الفخمة يمشي في طريق بين مدينة ومدينة رأى شاباً راكباً دراجة أصابها خلل ، والرجل له مكانته التجارية والاجتماعية ، وقف وأصلح له الدراجة ، فكان هذا العمل سبب هداية الشاب وإيمانه ، وأصبح من أخلص إخوانه .

إذاً ، هذا هو الشُّكر ؛ الإسلام نظرته أممية ، وليست نظرته نظرة ضيقة ، هذا مسلم وذاك غير مسلم ، هذا مؤمن وذاك غير مؤمن ، هذا من إخواننا وهو من جماعتنا ، هذه كلها عنعنة جاهلية ، إذا كنت فعلاً تعرف الله فهؤلاء جميعاً عبيده .

والله الذي لا إله إلا هو ما من مخلوق ترحمه إلا شكر الله لك.. قال : بغيّ ، والبغيّ معروفة ، رأت كلباً يأكل الثرى من العطش فسقته فشكر الله لها وغفر لها ، والحديث الشريف :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :

« بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي ، فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ : « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » . [صحيح البخاري] .

ذات مرة رأيت في مزرعة قرب يعفور سمكاً ، صاد بعض من في المزرعة سمكاً من هذا السمك وأرادوا فوراً أن ينظفوها ، بحجة تستغرق وقتاً طويلاً لتسكن ، قلت : فما المانع أن تنتظر ولا تعذب مخلوقاً ، انتظر حتى تسكن الأسماك ، هو يريد أن يفتح البطن وهي حية ، فهذا تعذيب لبعض خلق الله ، أشاهد أحياناً بائع فراريج يذبح الفروج ويلقيه فوراً في ماء يغلي ، قبل أن يموت ، إن هذا خطأ يحاسب الله عليه ، فاحذر ، قال تعالى :

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : ٣٦] .

لماذا الدين ضروري ؟ هذا مخلوق ، قدم جسمه لك ، فوق هذا المعروف تسلقه حياً بالماء المغلي ، بعد أن تذبحه وقبل أن يموت لاتضعه في البرميل الذي يغلي غلياناً ، والله كبير وشديد العقاب ، ففي الحديث الشريف :

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » . [صحيح مسلم] .

هذا هو الشكر .

إذا عرفت الله عز وجل ورأيت فضله عليك ، فقد عرفت كيف تتعامل مع مخلوقاته أياً كانت ، اقرأ هذه الآية مثلاً :

﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

أوجدك من عدم ، عمرك الآن ثلاثون سنة ، افتح كتاباً قد طبع سنة ألف وتسعمئة وثمانيةٍ وخمسين ، فأثناء صف الحروف أين كنت أنت ؟ أكان لك وجود ؟ أكان لك ذكر ؟ أكان لك حجم ؟ أكان لك جرم ؟ أكان لك أهمية ؟ لم تكن موجوداً أصلاً ، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

فأنعَمَ الله عليك بنعمة الوجود ، وأعطاك صورة ، قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٨-١٠] .

إن العبد إذا أطاع ربه ، ثم إن الرب تعالى كافأه على طاعته ، كان ذلك شكراً للعبد ، فكيف بالجزاء الأوفى الذي سيجزي الله به عباده ، فهذا يعني أن الله شكور .

والشكر المُفسّر بالثناء ، يعني إذا عملت عملاً طيباً لك الجنة ، أنفقت من مالك لك جنة عرضها السماوات والأرض ، أنفقت من وقتك أنفقت من خبرتك من علمك ، عاونت ، أخلصت ، أتقنت عملك ، ونصحت المسلمين ، يعني قدمت الحد الأدنى ، كأن تكون

لك مهنة تتقنها ثم تعمل العمل بإتقانٍ وتأخذ أجراً معتدلاً ، فالحد الأدنى أن تنفع المسلمين بطريقة ما .

فالحد الأدنى أن تتقن عملك ، وأن تتقاضى ثمناً معتدلاً ، والحد الأعلى حدث ولا حرج ، تطعم الطعام تعين الضعيف فليس كل مصل يصلي ، إنما يتقبل الله الصلاة ممن تواضع لعظمته ، وكف شهواته عن محارمه ، ولم يصرَّ على معصيته ، وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك له .

حدثني أخ والقصة قديمة منذ عقدين تقريباً في أثناء أحداث لبنان قال : جئت من « الهامة » فرأيت رجلاً واقفاً في ضاحية « دُمر » أيام البرد الشديد حاملاً طفلاً صغيراً يلفه بسترته ، وبجانبه امرأة ، وكانت الساعة الثانية عشر ليلاً ، فقلت : أوصلهم لدارهم ، وإذا بالطفل حرارته مرتفعة جداً ، واحدة وأربعون درجة وهذان أبواه أتيا من لبنان أثناء أحداث لبنان ، سكنا في بيت في دمر ولا يعرفان أحداً في الشام ، قال : أركبتهم بالسيارة وأخذتهم إلى طبيب مناوب عالج الصغير واشترينا الدواء من صيدلية مناوبة ، ذهبنا إلى مشفى لأعطي الطفل إبرة ، وانتهينا الساعة الرابعة صباحاً ، بقيت أسبوعين أو ثلاثة مغموراً بسعادة لا تُوصف .

يقول بعضهم : والله نحنُ نُريد السعادة ، السعادة بين يديك ، إذا أردت أن تَسعَد فأسعد الآخرين ، كل واحد منا يذوق لذة الأخذ ، هو يقبض المال فيفرح ويمرح ، ولكن ما أحد ذاق لذة العطاء ، العطاء له لذة أكبر ، العطاء تمسح به جراح أسرة ، فمثلاً شخص لهفان تحل له مشكلته ، بلا مأوى أمّنت له بيت ، بلا زوجة ساعدته على الزواج ،

أو رجل مريض دللتَهُ على طبيب مُخلص لا يَغُشُّهُ ، لا يبتزّ أمواله ، له قضية بالقضاء دللتَهُ على محامٍ صادق .

لا تعرف طعم السعادة حقاً إلا إذا خدمت الناس .

مرةً سمعت متهجداً ، يقول : يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك ، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك .

على المسلم أن يزور مريضاً أو أن يقدم معونةً : « **ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجةٍ أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً** [رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج بسند حسن عن ابن عمر] » . هذا الحديث الشريف أصل في الدين .

الشُّكر الثاني : أيها الإخوة أن تُثني على الله : يا رب أنت اللطيف ، أنت الرحيم ، أنت القوي ، أنت الغني ، أنت الرؤوف ، يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، يا غفار الذنوب ، يا ستار العيوب ، أنت الذي تعطي ولا تسأل ، تحلُم ولا تعجل .

لسانك ينطلق : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، يعني إذا أثنيت على الله ، هذا شُكر أيضاً .

يا ربِّ لقد خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عني ، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك .

أن ينطلق لسانك بذكر الله بالثناء عليه ، يا رحمن الدنيا والآخرة ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة ، أعوذ بك من أن تنزل بي سخطك أو أن تحل علي غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك هي أوسع لي .

إذا رأيت مؤمناً من غير رواد جامعك ومن غير جماعتك ، ورأيته مستقيماً محباً لله إن لم تحبه فلست مؤمناً ، لِمَ تُعمّق انتماءك فقط لجماعتك ؟ إذن أنت طائفي ، أنت عُنصري محدود الأفق ، بل عليك أن تنطلق إلى الناس جميعاً . . فالدعوة عامة . .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا قَالَ : « **قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ . . .** » .

الإسلام للناس جميعاً ، يجب أن تعمل تحت ضوء الشمس ، لا مُعميات في الإسلام ، كل شيء واضح ، خالق الكون هذا كتابه وهذا منهجه وهذه سُنّة نبيه ﷺ ، فأنا أُلح ألا يقتصر العمل الطيب على من يلوذ بك أو ممن تعرف من العباد ، لا . . بل خيرك للناس كافة ، ولا تدري في أية لحظة يُشرق في نفس هذا الإنسان الذي أسديت إليه الجميل ؛ فهذا هو الإيمان لعلَّ الله عز وجل يهدي بك وأنت لا تدري .

فمثلاً كان لأبي حنيفة النعمان جارٌ مغنٍّ تارك صلاة شارب خمر لا ينيمه الليل وطول الليل يغني :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ذات ليلة لم يسمع أبو حنيفة غناءه في البيت المجاور ، يعني أن المغني لديه عارض عرض له ، تفقده فوجده في السجن لقضية ما ، فذهب إلى مدير السجن وشفع له ، مدير السجن لم يُصدّق ، وجد الإمام الأعظم عنده في المكتب ، فأطلق إكراماً له كل من أُلقي القبض عليهم في تلك الليلة ، وهو في طريقه قال له : يا فتى هل أضعناك . . نسيناك ؟! فكان هذا المعروف سبباً لتوبته .

اجتهادك وبطولتك ليس في إسداء خدمةٍ إلى مؤمن ، المؤمن سوي مثلك ، تجلس إلى مؤمن فتقول : لقد أقنعته ، وهو مقتنع أصلاً قبل أن تؤثر فيه ، إذا كنت بطلاً تُقنع إنساناً تارك صلاة ، تُقنع إنساناً عنده شكوك بالله عز وجل ، هُنا البطولة ، أن تُدخل على المجتمع المؤمن عنصراً جديداً ، تجلس إلى عدو للدين عنده شبهات ، ولا يعبأ بالعلماء ، ولا يعبأ بالدين تقنعه ، تحلم عليه ، وتعطيه الأدلة القطعية ، ويرى منك خُلُقاً حسناً ، لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة فيشرح الله صدره ، ومن بعد يصلي ثم يتوب ، ويأتي إلى المسجد ، ويعتاد المساجد وحلقات العلم ، فهذه البطولة حقاً وليست البطولة أن تُفسد الناس على شيوخها ، ولا الشيوخ على تلاميذها لا ، فأنت مهمتك أن تُحدث عنصراً جديداً في المؤمنين ، البطولة على قدر المشقة وبحجم العمل الإيجابي النافع .

مرة ذكرت كلمة قالها رجل يدعو إلى الله عز وجل ، قال لتلميذه : يا بني ، السليم لا يحتاجُ إليك ، يحتاج إليك السقيم السيىء ، فالفهيم والذكي والمتفوق والورع والتقي والنقي ، إذا حدثته عن الله فأبكيته فماذا فعلت ؟ عنده مشاعر ولديه عواطف صادقة فلما

ذكّرته تأثّر ، أما إذا كنت تستطيع أن تجلس مع البعيدين والمنكرين والمتشككين تمنحهم من علمك وأدلتك وحجتك ، وتزيل عنهم كل الشبهات وتأخذ بيدهم درجة درجة ، مرحلة مرحلة ، تأخذ بيدهم ، تعينهم ، تكرمهم ، حتى يحبوك ، وترقى بالعليل والسقيم إلى السعادة فهذا العمل طيب مشكور .

وبعد ، فإن الشُّكر يكون بالثناء ، فالربّ سبحانه وتعالى إذا أثنى على عبده فقد شكره ، أنت تثني على الله في مجالسك والناس يحبونك لأحاديثك هذه ويمدحونك في غيبتك ، هذا شُكر الله لك ، إذا أحسنت للعباد أحسن الله إليك :

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

والإمام الغزالي له كلمة ، قال : « **إذا كان الذي أخذ فأثنى شكوراً فالذي أعطى وأثنى أولى أن يكون شكوراً** » .

فالذي قبض القبضة قال شكراً ، والذي أعطاك ، وبعد أن أعطاك وسمع ثناءك أثنى عليك ، أيهما أحق أن يكون شكوراً أكثر ، فالله الذي أعطى سبحانه وتعالى هو الشكور ، فالذي أخذ فأثنى على الله يُعد شكوراً ، أما الذي أعطى وأثنى مرتين هذا هو الشكور ، مرةً أكرمه بعطاءٍ مادي ، ومرةً أثنى عليه عند الخلق .

لذلك : روى الشيخان وأحمد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال يقول الله عز وجل : « **إن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم** » .

أنت تكلّمت بين خمسة طلاب أو ستة ، والله عز وجل جعل ذكرك

بين ثلاثمئة رجل ، فلما ذكرت قام أحدهم وتكلّمَ عليك كلاماً تعطّرَ المجلس بِذكرك ، الله شكور ، أنت أثنيت على الله أمام خمسة أشخاص من عامة الناس ، والله عز وجل أثنى عليك أمام عِلْيَةِ القوم ، **« لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى »** [الطبراني بسند حسن من حديث معاذ بن أنس] .

هذا هو الشكور ، إن عملت يعاملك بالإحسان فهو شكور ، وإن تحدثت عن الله عز وجل يعاملك بالعرفان فهو شكور .

الشكر يتوجه لمن ؟ إما إلى الخالق وإما إلى المخلوق ، ومن ثم فشكر الخالق مستحيل : أي إنك يستحيل عليك أن توفيه حقه بشكرك له ، لماذا ؟ قالوا : لأن شُكر النعمة مشروط بمعرفة هذه النعمة ، وما دامت معرفة النعمة مستحيلة فالشُّكر مستحيل ، والدليل :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] .

انظر إلى نعم الله عليك ، فإذا أردت أن تجري إحصاء : فالطحال والكلية والكظر ومركز التوازن ، ومركز توازن السوائل ، مراكز عديدة في جسمك ، وبإيجاز : إنك إن تعد نعمة الله عليك لا تحصيها .

ما دام يستحيل عليك أن تعرف نعمة الله كما هي ؛ إذاً يستحيل أن تشكر الله حق الشُّكر ، لهذا ماذا قال النبي ﷺ : **« لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »**[1] .

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان =

مستحيل أنْ توفي الله حقه من الشكر هذه واحدة .

الثانية : الشُّكر نعمة من الله ، فأنت تشكُر على نعمة والشُّكر نفسه نعمة ، فأنت في نِعم ، يا رب كيف أشكرك وشُكرك لا يتم إلا بنعمة منك جديدة ، إذاً أنت مفتقر إلى أن تكون شاكراً لله عز وجل .

هناك نقطة دقيقة وهامة : رؤية النعمة نعمة ، الله عز وجل يعطيك مع استغنائه عنك ، لكنك تشكُرُهُ مع افتقارك إليه ، وشتان بين هذا وذاك ، وهناك أدلة كثيرة على أنه يستحيل أن تشكُر الله كما ينبغي ، لكن أخذ القليل خير من ترك الكثير ، وما دام مستحيلاً أن تشكُر الله كما ينبغي فلذلك قل : يا رب! لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، يا رب! ليس في قدرتي أن أشكرك كما ينبغي لكن أشكرك بقدر ما أعلم وبقدر ما أستطيع .

آخر ما ينبغي شد أفكار القارىء إليه بالموضوع يتلخص بالسؤال التالي والإجابة عنه : أسدى مخلوق إليك نعمة فلمن الشُّكر ؟ الجواب : لله فقط ، فهذا المخلوق الذي أكرمك مِن خلقه ، أعطاه الله عز وجل قوةً وحياةً ، والله عز وجل هو الذي سمح له أن يخدمك ، كما ألهمه أن يخدمك ، بماذا خدمك ؟ أعطاك مثلاً طعاماً ، من خلق الطعام ؟ الله عز وجل ، أعطاك مالاً ، وهذا المال قيمته بقيمة مشترياته ، من خلق النِّعم ؟ الله عز وجل ، أعطاك طعاماً كيف تأكل الطعام ؟ تحتاج إلى أجهزة ؟ إذاً الذي خلق والمُنعِم هو الله ، والذي أَلهَمَهُ هو الله ، والذي مَكَّنَهُ هو الله ، والذي خَلَقَ النِّعمة التي هي

= وهو يقول : اللهم! إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لاأحصي . . الحديث .

موضوع عطائك هو الله ، والذي مكّنَكَ من أن تستفيد من هذه النعمة هو الله ، إذاً الشُّكر لله عز وجل ، ولكن هذا المخلوق مادام مُخيّراً ، إذاً يستحق أن تشكُرَهُ بعد الله عز وجل ، فالشُكر لا تقل : لله وفلان ، بل قل : لله ثم لفلان .

هذه (ثم) ضرورية جداً ، الحمد لله على هذه النعمة التي أنعم الله بها علي ثم الشكر لفلان الذي جاءتني عن طريقه ، لهذا قال عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » .

لو افترضنا أنه جاءك معروف من جماد ، رجل ماشٍ في طريق مر بشرفة من إسمنت ومشى تحتها فوقع حجر من آخر البناية عليه ، هذه الشرفة تلقت الحجر ، لولا هذه الشرفة لهلك ، فهل يشكر الشرفة ، هذه شرفة جامدة لا تعقل ، إذا جاءك خير من جماد أو من حيوان أو من مخلوق غير مكلف فالشُّكر لله فقط ، أما إذا جاءك خير من مخلوق مكلّف مخيّر ، قلت : ما دخله إن الله سخّرَهُ ليّ ، فهذا منتهى الوقاحة ومنتهى الجحود ، إذا جاءك الخير من إنسان مكلّف يجب أن تشكُرَ الله لأنه خَلَقَهُ ، وألْهَمَهُ ، وسَمَحَ لَهُ ، ومَكَّنُه ، وخَلَقَ الله النِّعمة التي بين يديه وجعلك تنتفع بها ، كله لله ، لكن ما دام مخيّراً وقدّمَ لك هذه النِّعمة باختياره إذاً نزجي له الشُّكر ثانياً بعد الله عز وجل .

وبعد ، وقفة أخيرة في الموضوع وهي لطيفة ؛ موازنة بين نعمة أسداها الله إليك ونعمة أسداها زيد إليك ، قالوا : أولاً : إن إنعام الأمير مكدر من وجوه ، أحدها : أنك ربما احتجت إلى شيء ولا يعطيك إيّاه لأنه محتاج إليه ، مرة كنت في الحج احتجتُ إلى ليتر

ماء ، فسألت حاجاً قال : والله يلزمني الماء ، فمعه حق لأن الماء يلزمه ، فأنت قد تطلب من إنسان شيئاً هو بحاجة إليه ، وإن كنت بالمطار مثلاً وأردت أن تكتب بطاقة وليس معك قلم ، فتقول لواحد : إذا سمحت أريد قلمك ، يقول لك : أحتاجُ إليه والله ، فأنت إذا طلبت من إنسان حاجة قد يكون هو محتاج إليها فلا يعطيك إياها ، أما إذا سألت الله عز وجل ، فإنه يلبيك ولا يمنعك ، وهذا أول فرق .

الأهم من ذلك أنه يمكن لفلان أن يعطيك ، ولكن فلاناً ليسَ حاضراً الآن ، فأنت مسافر وهو بالشام وعطاؤه مستحيل لبعد المسافة بينكما أما الله فهو معك دائماً ، هذه النقطة الثانية ، النقطة الأولى قد يكون الشخص قادراً على العطاء ، لكن هذا الشيء يحتاج إليه قبلك ، النقطة الثانية : أنك قد لا تستطيع أن تصل إلى هذا المنعم لسبب ما .

النقطة الثالثة ؛ أنك إذا قصّرتَ مع إنسان فإنه يقطع عنك فوراً ، لكن كما قال نبينا ﷺ : **« ليس أحد أصبر على أذىً سمعه من الله تعالى ، إنهم ليدعون له ولداً ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يرزقهم »** .

والأمير إذا أعطى يقول لك : اللحم الذي على أكتافك من خيري . صاحب معمل عنده أجير ، يمنُّ عليه ، وإذا أعارَهُ بزة ، فإنه يمن عليه بها أمام الناس ، ويفَضَحُهُ أمام الناس ، كأن يقول له : حافظ عليها ولا تفسدها .

فأول نقطة أن الأمير قد لا يعطي لأنه بحاجة لهذا الشيء ، وقد لا تستطيع أن تصل إليه ، وإذا قصّرتَ في خدمته حَرَمَكَ هذا العطاء ، وقد يمنُّ عليك .

وفي ختام معالجتنا للموضوع أقول : الشكور الذي إذا نَوَّل أجزل ، وإذا أطيع بالقليل قبل وهو الذي يقبل القليل ويعطي الجزيل ، وهو الذي يقبل اليسير من الطاعات ويعطي الكثير من الدرجات ، وقيل : حقيقة الشُّكر الغَيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم .

الدول البعيدة العلمانية ماذا ترى بعينيها ؟ النعمة فقط ، وكل شيء ثمين عندها وله ثمن لكن المؤمن ماذا يرى ؟ المُنعِم ، وملخّص الدرس كله ، أنك إذا استطعت أن تتجاوز النعمة إلى المُنعم فأنت شكور .

يسمع أحدنا النشرة الجوية أن هناك منخفضاً ، وأمطاراً ، وثلاثون ميلمتر من الأمطار نزل ، فهو في النشرة مع النعمة وفي النعمة ، أما المؤمن فيقول : يا رب لك الحمد ، هو مع المنعم .

* * *



الاسم هو اسم الكريم ، وهذا الاسم أيها القارىء الكريم له دلالات كبيرة ، وجدير بالإنسان أن يتخلّق بهذا الاسم لأنه من الأسماء التي يمكن لكل امرىءٍ أن يتخلّق بها فيرقى بها إلى الله سبحانه ، وأسماء الله كما تعلمون ، منها أسماء خاصة بالله عز وجل كالخالق ، القديم ، وهناك أسماء أُمرنا أن نتخلق بها ، واسم الكريم واحد منها .

اسم الكريم ثابت بنص القرآن الكريم ، وسوف يتضح بعد قليل بما معنى اسم « القرآن الكريم » ، وهو ثابت في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٥ـ٨] .

وهذه الآية تخاطب القلب والعقل معاً ، وقد ورد هذا الاسم بصيغة اسم التفضيل في آية أخرى بقوله تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ـ٥] .

فالكريم في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ .

والأكرم في قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

قبل أن نصل إلى ما تعنيه كلمة كريم في حق الله جل وعلا نريد أن نبدأ الحديث بما تعنيه كلمة كريم في التعامل اليومي ، فكلمة كريم نستخدمها كثيراً ، قال العلماء : كل صفة محمودة تسمى كرماً على خلاف ما يظنه معظم الناس ، من أن فلاناً كريم يعني أنه يعطي ، وعطاؤه كثير .

فكلمة كريم شاملة واسعة : فالحلم كرم ، السخاء كرم ، اللطف كرم ، الصبر كرم ، المروءة كرم.. فالكرم يعني أيّة صفة حميدة يتصف بها الإنسان ، بل إن الصفات الحميدة كلها تلخص بكلمة واحدة هي الكرم ، على حين الصفات الخسيسة كلها تلخص بكلمة واحدة هي اللؤم .

فالخسيس لئيم ، والمتكبر لئيم ، والجحود لئيم ، والذي يرفع ذاته على أنفاق الآخرين لئيم ، والبخيل لئيم ، كل الصفات الخسيسة تجمعها كلمة لئيم ، وكل الصفات المحمودة تجمعها كلمة كريم ، فالناس رجلان ؛ كريم ولئيم .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

* * *

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

والواقع يثبت أن « **الناس رجلان فالمؤمن غرٌّ كريم ، والفاجر خبٌّ لئيم** » ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام[١] .

فليس معنى كريم أنه الذي يُعطي العطاء الكثير فقط ، بل إن الحليم كريم ، اللطيف كريم ، الرحيم كريم ، الصافي كريم ، الودود كريم ، المُنصف كريم ، ومنه حجر كريم : اللؤلؤ ، الماس ، الياقوت ، المرجان .

محمد بشر ، وليس كالبشر بل هو ياقوتة والناس كالحجر

فالياقوت حجر لكنه كريم ، والماس حجر لكنه كريم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام .

« **أكرم الناس أتقاهم** » [متفق عليه]

ومن معاني الكريم من كان كريم النسب ، من هو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ؟ إنه سيدنا يوسف ، قال عليه الصلاة والسلام :

« **أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم** » [متفق عليه] .

أو نقول : فلان كريم الطرفين ، يعني أمه كريمة وأبوه كريم ، فقد حاز الشرف من طرفيه ، من طرف أمه وأبيه .

من معاني الكريم من كان ذا صورة حسنة ، والدليل قول الله عز وجل حينما وصف سيدنا يوسف ، قال الله عز وجل :

---

(١) الغر في كلام العرب : هو الذي لا غائلة ولا باطن له يخالف ظاهره ومن كان هذا سبيله أمن المسلمون من لسانه ويده وهذه صفة المؤمنين .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

فالكرم يُستعمل بمعنى النسب الشريف ، ولا يُتحدث عن شرف النسب إلا بعد معرفة الله وتطبيق منهجه ، فإذا تحدثنا عن النسب فقط ؛ فقد يعني نسب الدنيا المتعارف عليه عند الناس ، فأبو لهب بن عبد المطلب عمُّ النبي ﷺ ؛ والقارىء الكريم يعرف من أبو لهب :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾

[المسد : ١-٢] .

لا نتحدث عن النسب إلا بعد الإيمان ، إذا أضيف النسب إلى الإيمان فهو نور على نور ، أما قول الشاعر :

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوسِ

إنما يعزز المعنى من أن المرء الجميل الخلقة ، لابد له من خلق ودين يجمله كذلك ، فتتم الصورة حسنةً صافية .

أما المقام الكريم ؛ فهو الجنة ، فلا تعب هناك ولا نصب ولا خوف ولا حزن ولا حسد ولا تباغض ، ولا شيء يزعج ، ومن كان ذا مقام كريم في الجنة فقد فاز حقاً .

ومن معاني الكريم ؛ الشيء العزيز ، الذي تشتد الحاجة إليه ، ويقلُّ وجوده ولا يستغنى عنه إطلاقاً ، والدليل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والكريم : الشيء الذي تكثر منافعه ، قال تعالى :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٩] .

كتاب كريم ؛ كله منافع ، كله فوائد ، كله حقائق ، كله توجيهات صائبة ، كله خيرات ، كله بركات ، إذاً معنى القرآن الكريم صار واضحاً : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، القرآن الكريم ليس فيه باطل ولا غلط ، ليس فيه خلل ولا تناقض ، وليس فيه مخالفة للواقع ، ولا ضعف في أسلوبه ، ولا غثاثة ، ليس فيه معالجة سريعة ، ولا معالجة متناقضة ، قرآن كريم ، خلا من كل شائبة ، يعني المعنى الذي يجمع كل هذه المعاني ، الكرم ، يعني الكمال ، قرآن كريم أي : خلا من كل عيب .

كذلك ، نقول ناقة كريمة ، أي غزيرة اللبن ، درها كثير ، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أرسل سيدنا معاذاً الى اليمن ، قال له :

« **إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ ، فإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، فإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ** » .

[أخرجه البخاري] .

كرائم أموالهم ؛ يعني إن كان عنده بقرة يحرص عليها حرصاً شديداً فدعها له ، وخذ بقرة أخرى يختارها لك هو ، لا كما يفعل بعض الناس ، يأخذ ما يعجبه وهذا يتعارض مع السُّنة الشريفة ، فالسنة كما قال له : « **إياك وكرائم أموالهم** » .

وسُمي العنب كرماً لأنها فاكهة كثيرة الخير ، ظل ظليل ، وثمار يانعة ، وقطوف دانية ، وغذاء جيد ، وفاكهة محببة .

أحياناً ينصب الناس خياماً على مداخل البيوت ؛ هذه الخيام من حين لآخر تتمزق ، تعصف بها الرياح ، تتلفها الأمطار ، ولكن أناساً يزرعون الكرم على مداخل البيوت ، فهذا الكرم ظل ظليل وفاكهة دانية ويانعة ومفيدة وما شاكل ذلك .

وإذا قلنا : مكارم الأخلاق ، فذلك يعني أفضلها وأحسنها وأرفعها وأسماها . . فهناك إذاً مكارم الأخلاق ، والكرم وهو العنب ، وهناك ناقة كريمة كثيرة الدَّرِّ ، وهناك الكتاب الكريم ، كثير الفوائد ، وهناك الأحجار الكريمة الصافية من كل شائبة ، وهناك العزيز ، الشيء النادر ، وهناك مقام كريم ، وهناك الجمال الصوري :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

فإذا قلت : قرآن كريم فهو كتاب الله ، فالله سبحانه وتعالى كماله مطلق وكلامه في كماله مطلق ، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه .

الآن إذا وصفنا الله سبحانه وتعالى ، كما وصف هو نفسه ، بأنه كريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦] .

كلمة ما غرك ، ما الغرور ؟ . . الغرور أن ترى علبة مثلاً في الأرض فتظنها شيئاً ثميناً ، تنكبُّ عليها وتلتقطها ، فإذا هي علبة

فارغة ، ظننت فيها قطعة ألماس أو ظننت فيها قطعة ذهب ، أو ساعة ثمينة فانكببت عليها ، فإذا هي علبة فارغة ، هذه الحادثة اسمها الغرور ، أنت اغتررت بها ، هذا المعنى هل يمكن أن ينسحب على هذه الآية ، لا . .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ .

معنى هذه الآية ن الأنسان قد يغتّر بالله فيظن بالله غي رالحق ظنَّ الجاهلية ، قد يظنه لا يحاسب ولا يعاقب ولا يأخذ حقَّ الضعيف من القوي ولا حقَّ الفقير من الغني ولا حقَّ الجاهل من العالم كما لو ظنَّ المتهم أن القاضي يأخذ رشوة فيحكم للظالم ويضيع حقَّ المظلوم ثم يفاجأ أن القاضي عادل ونزيه وورع ، إذا ظنَّ الإنسان بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية فقد اغتر بربه .

التعريف الدقيق لاسم الكريم ، هو المنزّه عن كل عدم وعن كل نقص ، العزيز الذي لا إله غيره .

هذا الكلام يُلخّص بصفات ثلاث ، وجوده ووحدانيته وكماله ، فالله كريم يعني موجود وواحد وكامل .

ومن ثم لابد من شرح هذه التعاريف الدقيقة لهذا الاسم العظيم :

الكريم ؛ هو الذي يبتدىء بالنعمة من غير استحقاق ، تفضل علينا وأوجدنا دون أن يكون لنا حق في أن نوجد ، ليس لنا حق عنده بل تفضل علينا وأوجدنا ، فنعمة الإيجاد ابتدأها الله دون استحقاق منا ، أنت كإنسان عندك موظف ، وأخلص إخلاصاً شديداً ، وقدّم جهداً طيباً ربما تكافئه ، فهذه المكافأة ، جاءت منك ليس ابتداءً ولكن عَقِبَ

إحسانه وإخلاصه ، مقابل شيء فعله ، أما الكريم الحقيقي ، الكريم المطلق هو الذي يبتدىء بالنعمة دون استحقاق ، أوجدنا من دون اختيار ، ومن دون طلب . ويتبرع بالإحسان من غير سؤال .

فإذا قلت يا كريم العفو . . ما هو العفو الكريم ؟ . . قد يعفو عنك شخص ، من حين لآخر يقول لك لا تنس أنك فعلت كذا ، ثم بعد حين يذكرك : أنت فعلت كذا ؟ فتقول : نعم . . جزاك الله خيراً عفوت عني ، من حين لآخر يذكرك بمساءتك ، لكنك إذا قلت يا رب ، يا كريم العفو ، عفو الله عز وجل ليس معناه أن يلغي العقاب فحسب ، وليس معناه أن ينسي الناس ذنبك أيضاً ، ولكن عفو الله معناه ، أن ينسيك ذنبك ، معنى دقيق جداً ، يعني أنت صاحب الذنب ، ومن كمال عفوه عنك أنه ينسيك ذنبك . « **إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه وملائكته ، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه** » ، وأنساه هو نفسه ما فعل .

المؤمن ـ من كرم الله عز وجل ـ له جاهلية ، وقد ينسى أن له جاهلية ، فيعيش في جو لطيف ، والله عز وجل يكرمه ، هذا معنى كريم العفو .

ومن معاني الكريم أنه يستر الذنوب ويخفي العيوب ، إنسان قد يلقى من إنسان آلاف الأعمال الطيبة ، فإذا عثر ذات مرةٍ على نقص لديه ، تشبث به وأظهره وأذاعه بين الناس ، لذلك « **اللهم إني أعوذ بك من جار سوء ، إن رأى خيراً كتمه ، وإن رأى شراً أذاعه ، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء ، إن أحسنت لم يقبل ، وإن أسأت لم يغفر** » .

لكنَّ الكريم يغفر الذنوب ويستر العيوب ، حتى قال عبد الله بن محمد القحطاني :

والله لو عرفوا قبيح طويتي ... لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي ... ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالبي ... وحملت عن سقطي وعن طغياني

فربنا عز وجل يظهر من عبده الكرم الجميل ويستر القبيح ، فإذا قلت يا ستار ، ستار العيوب ، يجب أن يقشعرَّ جلدك ، لأن الله سبحانه وتعالى إذا ستر . . ستر حقاً ، أما الإنسان فلابد من أن يذكر هذا العيب بأن يهمسه بأذن إنسان آخر يقول : انتبه ، هذا الرجل فيه من العيوب كذا وكذا . . فهو بذلك ما ستره بل شهر به ، لكن جميل الستر هو الله سبحانه وتعالى .

ومن المعاني الجميلة أن الكريم متغافل ، يتغافل ، الكريم لا يغفل ولكنه يتغافل ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

وجاءته امرأة فأثناء صعودها درج السلم صدر منها صوت كريه فخجلت خجلاً لا حدود له ، فلما اقتربت منه ، قال : ما اسمك يا أختي ؟ قالت له : فلانة ، قال : لم أسمع ، قالت له : فلانة ، قال : لم أسمع ، ارفعي صوتك ، فأنا سمعي ضعيف ، فقالت هذه المرأة لأختها : لم يسمعنا . . ولهذا سمي حاتماً الأصم وليس بذي صمم .

الكريم يتغافل ، واللئيم يدقق بالعيوب ، يتَّبع العيوب .

الكريم يتغافل واللئيم يتبع ويتحرى ، والكريم إذا استغفره عباده غَفَرَ لهم ، ولا يذكّرهم بأنواع معاصيهم وقبائحهم وفضائحهم .

مرةً وقفت بمنطقة مشرفة على دمشق ، بيوت كثيرة ، متقاربة ، متراصة ، تعد الشام خمسة ملايين نسمة ، تلوت قوله تعالى :

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٧] .

هذه البيوت لا يعلم ما فيها من طاعات أو من معاصٍ إلا الله ، ومع ذلك يرزقهم ويعافيهم : **« ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى إنهم ليدعون له ولداً ويجعلون له أنداداً وهو مع ذلك يرزقهم »** ، والكريم إذا أتاه عباده بالطاعات اليسيرة قابلهم بالثواب الجزيل .

إنسان يطعم لقمة ، هذه اللقمة تصبح يوم القيامة كجبل أحد ، لا أعتقد في الدنيا أن أحداً يقدم ليرة ويأخذ بدلاً منها خمسة آلاف مليون ليرة ، بالآخرة تأخذ أكثر ، أعطيت شيئاً يسيراً ، قمت ببعض الطاعات أنفقت بعض مالك ، ضبطت شهواتك ، التزمت طريق الحق ، فأعطاك الجنة وما فيها ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

الله الكريم جعل هذا العبد الحقير ، هذا العبد الضعيف ، هذا العبد الذليل يرتفع ، أجل ، رفعه فقال :

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] .

فهل لنا عهد ؟ من كرم الله عز وجل أنه خاطبنا ، وحينما خاطبنا علّلَ أوامره ، وتعليل الأوامر إكرامٌ لنا ، قال تعالى :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

الإنسان القوي يعطي أمراً لإنسان ضعيف دون تعليل افعل كذا فقط ، ولكن الله عز وجل حينما أمرنا ذكر لنا التعليل كرماً منه وطمأنة لنا ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

فلذلك جعلنا أهلاً لمعاهدته فقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ .

الله كريم ، والكريم جعلنا أهلاً لمحبته ، قال تعالى :

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] .

الله الكريم أعطانا الدنيا كلها ، والدليل قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

أما الهواء ، فهل الهواء في قائمة النعم عندكم ؟ أجل ، نعمة بلا ثمن فأنت تستنشق الهواء في أي مكان ، وكذلك الماء ، هذا الذي تدفعه ثمن الطعام ، هذا شيء رمزي ، من منكم يُصدّق أنه يدفع ثمن التفاح ، هذا ثمن خدمة التفاح ، فالتفاح ليس له ثمن ، فهذا الفلاح

الذي اعتنى بهذا البستان وسقاه وسمّده وقطف الفواكه وجاء بها إلى السوق ، فأجرته ثمن كيلو التفاح ، أما التفاح فلا يُقدّر بثمن إذ هو من الله عز وجل .

والآخرة أيضاً ملّكها لعباده المؤمنين ، وسخّرَ الله سبحانه وتعالى ما في السموات والأرض جميعاً منه ، تسخير تكريم وتسخير تعريف .

الكريم هو الذي يعطي من غير مِنّة ، من الصعب أن ترى إنساناً يعطيك بلا مِنّة ، بل يقول لك « لحم كتفك من خيري ، أنا فضلت عليك ، أنا أنقذتك من الهلاك ، أنت كنت لا شيء » . لكن العطاء من الله سبحانه وتعالى من غير مِنّة .

ولا يحوجك إلى وسيلة ، أحياناً لا تعطي الشخص حتى تستنفد طاقاته : قدم طلب أولاً ، هات هويتك ، اذهب واحضر بعد أسبوع ، تعال بعد يومين ، سنجري تحقيقاً ، يكره العطاء لشدة التحقيقات وكثرة التأجيلات والتأخيرات والتعقيدات والوثائق ، أما الكريم فلا يحوجك إلى وسيلة ، والكريم لا يُقنط العصاة من توبة ، قال تعالى :

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

الكريم ؛ إذا أعطى أجزل ، وإذا عصي أجمل . . حليم .

الكريم ؛ هو الذي لا تتخطاه الآمال . . أحياناً يأتيك إنسان ويعرض عليك حاجته ، ويتذلل ، ويبذل ماء وجهه ، فترده بعدها ، فيمحوك من قائمته ، ويلغيك من مخيلته ، لأنك خيّبت أمله ، لكنك لا تجد إنساناً يسأل الله عز وجل ويخيبه فهذا مستحيل ، لا تتخطاه الآمال . . إذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره ، فالإنسان الكريم إذا أعارك

لباساً من ملابسه ، فقد يقول لك أمام الناس : البسها ارتدِها لا شيء عليك ، يفضحك أمام الناس ، كثيراً ما تلاحظ مثل ذلك على شخص أعطى حاجة لإنسان آخر ، أو أعاره إياها ، فيمنُّ بها أو يعرّض بآخذها .

والكريم دائم المعروف كثير النوال ، ذو الطول والإنعام يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ، هذه كلها أوصاف قرآنية .

وإن الله حَيِيٌّ كريم ، ومن حيائه وكرمه أنه يستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما خائبتين .

يا ابن آدم كبرت سنك ، وانحنى ظهرك ، وضَعُفَ بصرك ، وشاب شعرك فاستحِيي مني فأنا أستحي منك .

وفي الأثر : « **ما أنصفني عبدي ، أستحي أن أعذبه ولا يستحي أن يعصيني** » .

« وما قال عبد قط : يا رب ، ثلاثاً ، إلا قال الله : لبيك يا عبدي » .

بل إنَّ الكريم يغضب على من لا يسأله ، قال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله كريم يحب الكرماء ، جواد يحب الجَوَدَة ، يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها** » [ابن عساكر بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص] .

سفساف الأمور يعني أن يرى شخصاً سخيفاً ، والموضوع المعالج سخيف جداً وهو بخيل وأناني ، ومحور حياته مصالحه ، هذه سفساف الأمور ، أما إذا اطَّلع على قلبك فرآه قلباً يهتم لعامة المسلمين وقضاء حاجاتهم فهذا من مكارم الأخلاق ، فالله عز وجل لا ينظر إلى صوركم ، فهذا طويل وذاك قصير ، هذا عيونه كبيرة ،

وذاك عيونه صغيرة ، هذا ناتىء الوجنتين ، والآخر غائر العينين ، هذا حواجبه متصلة وغيره منفصلة ، خده أسيل .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . [صحيح مسلم] .

والقلب محل نظر الرب .

قالوا : الكريم الذي لا يبالي كم أعطى ، ولا لمن أعطى ، بل إن الكريم من إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى .

أحياناً يقصد شخصٌ إنساناً كريماً فيقول له : إياك أن تسأل أحداً غيري ، حاجتك عندي مضمونة ، فهذه أعلى درجة في الكرم ، أنا أغضب لو سألت غيري .

تصوّر إنساناً محتاجاً ، والأمر كله بيد الله عز وجل ، يقف أمام إنسان ضعيف حقير ، لئيم يتذلل له ، يبذل ماء وجهه أمامه ، ثم يرده ، ولكن الله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فلذلك الكريم من إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى .

الكريم من إذا جُفي عاتب وما استقصى ، وعدك أحدهم أن يزورك ، لم يأتِ ، عاتبته ، قال لك : ابنتي كانت مريضة ، ثم اتصلت بجاره فقال : صحيح كانت ابنته مريضة ، هذا اسمه استقصاء ، هو استحيا منك فقدّم عذراً ، من الكرم ألا تستقصي الأمر ، بل الاستقصاء في هذه المواقف مثلبة .

إنسان اعتذر منك فقل في نفسك : جاءني أخي متنصلاً من ذنبه ، فأقبل منه محقاً كان أو مبطلاً ، هناك أشخاص ، عندهم نفسٌ طويل ، فكلما اعتذر إنسان إليهم يتبعون الأمر ويلاحقونه ؛ يقولون : ظَهَرَ

كذاباً ، ابنته غير مريضة ، هو نسي الموعد واستحيا منك فاعتذر بمرض ابنته ، فالكريم ؛ من إذا جُفي عاتب ولم يستقصِ .

حديث أسرَّهُ النبي إلى بعض أزواجه ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، لن تكون كريماً إلا إذا غضضت البصر عن تسعة أشياء ، وحاسبت على العاشر ، كثرة العتاب تورث البغضاء ، فالكريم عرف بعضه ، وأعرض عن بعض .

الكريم ؛ لا يُضيّع من لاذ به ، ولا يضيع من التجأ إليه ، هذه تعاريف دقيقة جداً ، الملخص يجب أن تعتمد على الله وحده ، وأن تلتجيء إليه ، وأن تُعلّق عليه كل الآمال ، وأن تقطع آمالك من البشر جميعاً ، إذا كنت ترغب في أن تسعد في الدنيا والآخرة ، فحيثما تعلقت بالبشر ، واعتمدت عليهم وعقدت عليهم الآمال خيبوك .

رجل له صديق تولى منصباً رفيعاً ، عرضت له حاجة ، فذهب إليه ، فأقسم بالله أنه وقف أمام مكتبه ، ولم يقل له تفضل استرح ، وعندما سأله عما يريد قال : كذا ، قال : « مع عدم الموافقة » ، صديق ، فهل أصابه مرض قصر البصر ، فلم يعد يرى ؟ لكن الكريم يُغنيك عن الوسائل والشفعاء ، واعلم أن المعروف بتمامه ، أن تكرم إنساناً عفواً وسماحة ، دون أن تمُنَّ عليه ، دون أن تضعه أمام عقبات تعجيزية . الكريم من إذا هجرته وصلك .

أحياناً تجد إنساناً بائساً مهتزاً فقيراً مثلاً ، أموره مضطربة ، متداخلة ، فتنفر نفسه من الدين ، تراه يترك الصلاة ، لكن الله عز وجل لا يدعه ، فقد يُكرمه رغبة في جبر خاطره ، فيحل مشكلته ، ويريه مناماً طيّباً ، فالعبد هجر لكن الله عز وجل وصل .

الكريم من إذا هجرته وصلك ، إذا مرضت عادك ، إذا وافيت من سفر زارك ، إذا افتقرت أحسن إليك ، فمن أدقّ معاني الكرم ، أنّ الكريم من بني البشر إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه ، لِمَ لمْ يبادرْ إلى قضائها قبل أن تسأله هذه الحاجة ؟ هذا واللهِ معنى دقيق .

أحياناً يكون لك أخ وافتقر ، وكانت حالتك المادية جيدة ، وهذا الأخ له كرامته ومكانته وعِزتَهُ ولكنه افتقر ، يجوز أن يسحق سحقاً ولا يسألك ، لكن ربما سألك ، فاعلم علم اليقين عندئذٍ أنك لما أحوجته إلى أن يسألك فقد أسأت إليه .

دققوا في هذا الكلام ، إذا كنت كريماً فعلاً فعليك أن تتقصى شؤون إخوانك وأقربائك ، وأخواتك ولا تُحوجهم إلى أن يسألوك ، فالكريم من إذا رُفِعت إليه حاجةٌ عاتب نفسه لِمَ لمْ يبادرْ إلى قضائها قبل أن يسأل .

وبعد ، فما حظ العبد من هذا الاسم ؟ قال العلماء : قد يتصف العبد بأنه كريم ، هذا العبد الكريم إن ألحّ عليه أحد بطلب ، أو زارهُ وبقي في زيارته ثلاث ساعات مثلاً ، فإنه يتأفف ويتضايق ، ويسكت ، ثم لا يلبث أن يقول للزائر : عندي موعد ، فإذا ألح عليه بالطلب مرات عديدة يضجر ، وقد ينهره ، وقد يقسو عليه ، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان كريماً كرماً مطلقاً ، فكرم الإنسان كرم نسبي ، ألا هكذا فلتعلم ، لكنَّ الكريم كرماً مطلقاً هو الله وحده ، إن الله يحب المُلحِّين في الدعاء أحضر لي إنساناً واحداً يحب من يُلحُّ عليه . . بل سيقول : يا أخي أضجرتني ، سأخرج من جلدي منك ، يا أخي اذهب عني .

هذا الإنسان الكريم ، أما الله عز وجل « **فليس شيء أكرم على تعالى من الدعاء** » ، « **من لم يسأل الله يغضب عليه** » ، الإنسان كي يكون كريماً يجب أن يتجاوز عن ذنوب المسيئين ، ويجب أن يوصل النفع إلى جميع الخلق ، أحياناً ترى بلداً متقدماً والمواطن في هذا البلد يحيا أرقى حياة ، له حقوق كثيرة جداً ، الطعام ، الشراب ، المسكن ، أنواع الأطعمة ، الحريات ، لكن هذا البلد المتقدم الذي يوفر لمواطنيه حياة رفيعة المستوى ، ينهش بلحوم بقية الشعوب ، إذاً هؤلاء ليسوا كرماء هؤلاء أنانيون ، إذ بنوا أمجادهم وحضارتهم ورفاه شعبهم وغِنى أبنائهم وتوافر الحاجات عندهم على نهب ثروات الآخرين ، وعلى قهر الآخرين ، هؤلاء ليسوا كرماء ، لن تكون كريماً إلا إذا عمَّ نفعك كل الناس وكل الخلق حتى الحيوانات .

عندهم في المداجن ؛ إذا كان إنتاج الصيصان أكثر مما هم بحاجة إليه يضعونه في حراق ويتلفونه ، هكذا في أوروبة ، نعم ، هكذا التعليمات .

هل يفعل هذا مسلم ؟ صوص يُسبّح الله عز وجل تحرقه ، ماذا عمل ؟ اجعله ينمو واذبحه وكله ، واستفد منه ولك أجر بهذا العمل ، أما أن تحرقه بنار الدنيا فهذا اللؤم كله .

لن تكون كريماً إلا إذا عمَّ خيرُكَ الناس جميعاً ، وأنا أقول لكم : والله إذا أسأت إلى مجوسي ، أو إلى عابد صنم أو إلى مُلحد ، والله هذه الإساءة إثمها كإساءتك لمسلم ، لأن هذا عرف الدين من خلال إساءتك أنه عدوان ، فأبعدته عن الدين بهذه الإساءة .

الكريم من بني البشر صفوح عن الذنوب ، ستّار للعيوب ، تارك للانتقام ، مسبغ للإنعام .

سمعت حادثة أن إنساناً كان على وشك أن يلقي كيس القمامة في الحاوية ، فرأى كيساً فيه حركة ، دُهش ، أخذ الكيس المتحرك ففتحه فإذا فيه طفل قد ولد حديثاً ، يبدو أنه ألقي منذ نصف ساعة ، أخذه إلى البيت ، ثم أسرع به إلى المستشفى ، ووضعه في الحاضنة ، واعتنى به ، إلى أن أصبح هذا الجنين طفلاً ، أدخله المدرسة ، حتى أنهى الابتدائية ، ثم الإعدادي ثم الثانوي ، سمعت أنه اعتنى به عناية كبيرة ، والخبر انتهى إلى هكذا ، فلو أن هذا الإنسان تابع العناية ، حتى تخرج طبيباً مثلاً ، وطلب اختصاصاً فأرسله إلى بلد متقدم وجاءه ببورد ، ثم اشترى له عيادة ، زوّجَهُ ابنته ، أعطاه رأس مال ، هذا الإنسان الذي لقي كل هذا الإنعام ، ما موقفك ممن أنعم عليه ؟

هذه الحادثة ذكرتني بموقف الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ، لما رأى صاحبيه قد استشهدا وهو على وشك موت سريع جداً قال :

يــانفــس إلا تقتلــي تمــوتــي هــذا حمام الموت قد صليت
ومــا تمنيــت فقــد أعطيــت إن تفعلــي فعلهمــا هــديــت

قال رسول الله ﷺ : أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم صمت النبي ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه كان في عبد الله بن رواحة بعض مايكرهونه قال : « ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً » . ثم قال : « لقد رفعوا إلي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً

عن سريري صاحبيه فقلت : بم هذا ؟ فقيل لي : مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ومضى » . [رواه الطبراني ورجاله ثقات] .

وعودة إلى هذا الجنين الذي كان في الحاوية ، إذ بعد ما أصبح طبيباً معه بورد كما يتراءى لنا ، وبينما وهو راكب سيارة ، شاهد عمه الذي التقطه من الحاوية ، قال له : يا بني أوصلني الى البيت ، تردد خمس ثوان ، ثم قال له : إلى البيت ، قال : نعم ، تفضل ، هذا التردد إجرام بحق هذا العم ، كان في الحاوية وكان موته محققاً ، صنع منه طبيباً يحمل شهادة عَليا ، فهذا إنسان فكيف خالق الأكوان ؟

فلذلك حق الله كبير كبير ، قال الله سبحانه وتعالى في حق المنافقين :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] .

فحينما اقترب أجل النبي ﷺ أَسرَّ إلى سيدنا حذيفة سراً إذ ذكر له سبعة عشر اسماً ، وقال له : هؤلاء إذا ماتوا لا تصلوا عليهم ، لأنَّ الله نهانا عن أن نصلي عليهم ، هكذا الآية : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ .

فسيدنا حذيفة أمين سر رسول الله ﷺ ، ثم جاء سيدنا الصديق خليفة من بعده ، ثم مات سيدنا الصديق ، وجاء سيدنا عمر من بعده ، سيدنا عمر عملاق الإسلام ، الخليفة الراشد ، ثاني الخلفاء الراشدين ، جاء إلى حذيفة وقال له : يا حذيفة أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم . . والله ما قالها تمثيلاً ، لا والله ، والله قالها صادقاً ، قال

له : أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم ، وذلك لِعظَمِ حق الله عليه ، فقد خاف الله أن يكون قد زلت قدمه ، ثم قال : لعلي مقصر ، لعلي منافق ، لو عثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها ، جاءه ليلاً من أذربيجان رسول ، كره أن يطرق بابه ليلاً ، جاء إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي ويبكي ، ويقول : يا رب هل قبلت توبتي حتى أهنىء نفسي ، أم رددتها حتى أعزيها قال له : من أنت ؟ قال : أنا عمر ، قال : ألا تنام الليل ، قال له : يا أخي إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي ، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي ، في الصباح خيَّره ، أتحب أن تأكل مع فقراء المسلمين . . الفقراء يأكلون اللحم ، أم تحب أن تأكل عندي ؟ لا بل آكل عندك يا سيدي ، أنت الخليفة ، ذهب به إلى بيته فما وجد عنده إلا الخبز والملح فقط ، ثم قال له : ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال : جئتك بهذه الهدية من أذربيجان ، علبة فيها حلوى ، لكنها من الدرجة الأولى ، قال : أويأكل عندكم هذا الطعام عامة المسلمين ، قال : لا ، هذا طعام الخاصة ، الطبقة الراقية ، الغنية ، فأرسل كتاباً إلى عامله على أذربيجان عنَّفه فيه ، وقال له : كل مما يأكل عامة المسلمين ؟ وقال له : أعط هذه الهدية لفقراء المسلمين في المدينة ، وحرام على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين .

ورأى عمر إبلاً سمينة في الطريق ، فقال : لمن هذه الإبل ؟ قالوا : هي لابنك عبد الله ، قال : ائتوني به ، قال له بقسوة : لمن هذه ؟ قال : هذه إبلي اشتريتها بمالي ، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن . فهل أخطأت أو أسأت ؟ فقد اشتريتها بمالي ، وأُسمِّنُها لأبيعها وأرتزق بها ، قال له : ويقول الناس ارعوا هذه الإبل فهي لابن

أمير المؤمنين ، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين ، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين .

ولأنك أنت ابني سمنت هذه الإبل ، ثم قال له : بِع هذه الإبل ، وخذ رأس مالك ، ورد الباقي لبيت مال المسلمين .

ومرةً بينما هو جالس مع أصحابه ، قال أحدهم : والله ما رأينا من هو خيرٌ منك بعد رسول الله ﷺ ، والله كلام لطيف كان عليه أن يقول : بارك الله فيك ، لكنه أحدَّ إليهم النظر ، حتى كاد أن يسحقهم بنظراته ، إلى أن قال أحدهم : لا والله ؛ لقد رأينا من هو خير منك . قال : من هو ؟ قال : أبو بكر ، فقال رضي الله عنه : كذبتم جميعاً وصدق . . عدَّ سكوتهم كذباً ، قال : والله كنت أضل من بعيري وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك .

هذا الذي سأل أحد عماله ، قال : ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال : أقطع يده ، قال له : إذاً ، من جاءني من رعيتك جائع أو عاطل فسأقطع يدك ، إن الله قد استخلفنا على خلقه لِنَسدَّ جوعتهم ونَستُرَ عورتهم ونوفر لهم حِرفَتَهُم ، إن وفيناهم ذلك تقاضيناهم شُكرها ، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية .

هذا الخليفة الذي قال لسيدنا حذيفة : أنشدك الله هل ذكر اسمي بين أسماء المنافقين ؟ قال : لا ولا أزكي أحداً بعدك استحيا سيدنا حذيفة ، فهذا الكرم .

هذا الاسم الإلهي العظيم ، علينا أن نتخلّق بأخلاق الله ، هذا

الكرم ، أن تصل من قطعك ، وأن تعفو عمن ظلمك ، وأن تعطي من حرمك ، وأن يكون صمتك فكراً ونطقك ذكراً ونظرك عبرةً .

وبعد ، فإني أسوق إليكم واقعتين بل أكثر من ذلك : إن سيدنا موسى حينما ناجى ربه ، قال : يا رب ، إنه لتعرض إلي الحاجة أحياناً فأستحيي أن أسألك ، أفأسأل غيرك ؟ فأوحى الله إليه أن يا موسى لا تسأل غيري ، وسلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك .

ربنا عز وجل يحب الملحين ، لِمَ لا تسألوه في السجود في صلاة السحر ؟ لِمَ لا تسألوه حاجاتكم كلها ؟

حُكِيَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه جاءه إنسان ليلة يسأله حاجة ، فقال : يا غلام "ارفع السراج ، ولما رفع السراج ، قال : سلني حاجتك ، لماذا فعل هذا ؟ قال : لئلا أرى في وجهه ذُلَّ السؤال ، حتى لا يُحرج ، فلا يستحيي إن عرفنا من هو ، هذا من كرم سيدنا علي .

وكذلك أحد العلماء ، كان لا يناول الفقير شيئاً بيده ، بل يضعه على الطاولة ثم يقول له : خذه . لئلا تكون يده عُليا ويد الفقير سفلى .

يُحكى عن أحد الصالحين أنه قال : خرجت يوماً فرأيت جنازةً يحملها أربعة من الزنج ، ولم يكن معهم رجل آخر ، قلت : سبحان الله ، سوق البصرة وجنازة رجل مسلم لا يشيعها أحد فلأكونن خامسهم ، « إذا رأى رجل جنازة ومشى فيها فهذا حسن ، وله أجر ولو لم يعرف صاحبها المحمول ، وليتبعها حتى القبر ، فلعله إذا فتح

النعش ، ورأى ماذا فُعل بهذا الميت وكيف وضع في القبر ، وكيف أهيل التراب عليه ، أن يعتبر » ، فتتبع الجنازة ، ثم قال : فمضيت معهم فلما وضعوها بالمصلى ، قالوا لي : تقدم . قلت : أنتم أولى ، قالوا : كلنا سواء لا نعرفه ، حتى دفنوه ، وصليت عليه ، وقلت لهم : ما القصة ؟ قالوا : اسأل هذه المرأة ، فهناك امرأة واقفة بعيداً فلما سألتها ، قالت : هذا ابني كان مذنباً ، وقال لي : يا أماه إذا مت فلا تُخبري بوفاتي جيراني لئلا يشمتوا بي ، وضعي رجلك على خدي وقولي : هذا جزاء من عصى الله ، فإذا دفنتيني فارفعي يديك إلى الله تعالى وقولي : إني راضية عنه .

أعطاها معلومات دقيقة ، لم تخبر أحداً ، ووضعت رجلها على خده بعد الموت وقالت : هذا جزاء من عصى الله ، تقول هذه المرأة : فما رفعت يدي إلى السماء حتى شعرت أنه يقول بلسان فصيح : انصرفي يا أماه فقد قدمت على رب كريم.. هذا سِرّ القصة .

فإذا كان الإنسان يخاف الله عز وجل ويستحي منه فهذه فضيلة ، أما الأكمل للإنسان أن يكون بالرخاء تائباً منيباً مستقيماً وباب رحمة الله واسع .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتغمدنا برحمته ، وأن يلهمنا أن نكون كرماء لأنه كريم ، والكريم بالمعنى الموجز ما كان خالياً من كل شائبة فكتاب كريم ، ومقام كريم ، ورب كريم ، وإنسان كريم ، ومؤمن كريم .

إنّ الكذب والنميمة والغيبة وتتبع العورات هذه كلها تقدح بكرم

الإنسان ، بل ليسمح لي القارىء الكريم أن أقول : إن هذه المثالب سلبت صاحبها كل فضل وكرم ، وأبقت عليه اللؤم وخزي الأحدوثة .

* * *

الحكيم

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

الاسم هو اسم « الحكيم » .

أيها القارىء الكريم ، أسماء الله الحسنى كثيرة ، وردت في الآثار الصحيحة أنها تسعة وتسعون اسماً ، وأسماء الله كلها حُسنى ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى موجود وواحد وكامل واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله ، كامل كمالاً مطلقاً ، ولكن بعض هذه الأسماء أقرب إلى العبد من بعضها الآخر ، فأقرب أسماء الله الحسنى إلى العباد اسم الرب ، لأنه ربهم ، قال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

ويعني هذا الحُكم حُكم المربي ، حُكم الذي يعلم ، وحُكم الرحيم ، حُكم الحكيم ، واسم الحكيم هو من أقرب الأسماء إلى الإنسان كذلك بالإضافة إلى اسم « الرب » كما بينت قبل أسطر قليلة .

لماذا قدّمت هذه المقدمة ؟ لأنَّ الإنسان أحياناً يرى ما لا يُرضيه ، إذ يسوق الله له ما لا يسره ، وما لا يعجبه ، فإما أن يسخط على ربه ، وعلى قضائه وقدره ؛ فهو الجهل المطبق ، وإما أن يرضى عن ربه وعن قضائه وعن قدره فهو العلم السديد الرائع .

ولابد أن يعلم الإنسان أنه ما من شيء يقع في الكون منذ أن خُلق هذا الكون حتى نهايته إلا بإرادة الله ، لأنه إذا وقع شيء دون إرادته إذاً فليسَ الله هو القهار ، وليس هو الجبار ، وليس هو القوي ، وليس هو الغني ، ويكفي أن يقع شيء واحدٌ في الكون دون إرادته حتى تتعطل أسماؤه الحُسنى ، إذاً : لا يقع في الكون الذي هو ملكه ، ولا يقع في ملكه إلا ما قد أراده .

وإني لأستميح القارىء الكريم عذراً لأن هذه الفكرة أعيدها كثيراً ، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى يعيد الحقائق الأساسية في القرآن كثيراً ، وأنت تقرأ الفاتحة في كل صلاة ، تقرؤها وتعيدها منذ أن كُلفت بالصلاة وحتى نهاية الأجل ، وتكررها عشرات المرات يومياً في صلاتك .

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة : ١ـ٢] .

ما من شيء وقع في الكون إلا أراده الله ، وإذا أراد الله شيئاً وقع ، وليسَ في الكون مسيطر إلا الله ، هذا هو التوحيد ، إذ ليس في الكون إلا يدٌ واحدة هي المسيطرة وهي الحكيمة وهي القديرة ، ترفع ، وتخفض ، وتُعطي ، وتمنع ، وتُعز ، وتُذل ، وتَبسُط وتقبض .

كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلّقة بالحكمة المطلقة ، حتى يتضح الأمر ؛ فقد يقول الإنسان شيئاً ليس مقتنعاً به إما بضغط ، أو بإغراء ، فإن قال كذا وكذا يرتقي ، وإن يقل كذا وكذا مع الضغط عليه ، فقد يكون قوله مجانباً للحِكمة ، لأنه وقع في شِباك الإغراء أو في شِباك الإكراه ، والإنسان ضعيف بين

الإغراء والإكراه ، فتارةً يُكره وتارةً يُغرى ، فإذا أُكره فَقَدَ الحِكمة ، وإذا رغب فَقَدَ الحِكمة ، إذاً ربما تصرف الإنسان تصرفاً غير حكيم لأنه قد ضُغط عليه أو أغري بشيءٍ من حِطام الدنيا ، وقد يتصرف الإنسان تصرفاً غير حكيم لأنه قد يكون جاهلاً ، فالطيشُ والحُمق والخرقُ يأتي من الجهل ، فأنت بين جهل وضغط وإغراء تفقد الحِكمة ، ففي حالات الجهل والضغط والرغبة كثيراً ما يجانب الإنسان الحِكمة ويفقدها .

والجهل والإكراه والرغبة هذه حالات تستحيل على جلال الله عز وجل ، فلا إله آخر يضغط ، وكل رغبة وجهل وإكراه يغري لااعتبار له .

إذاً : أفعال الله سبحانه وتعالى كُلُّها متعلِّقة بالحِكمة ، والحِكمة عند ربنا عز وجل متعلّقة بالخير المُطلق .

ولتأخذوا عني ـ أيها القراء الكرام ـ هذه الكلمات القليلة : إنَّ كلَّ شيٍء وقع أراده الله ، وإن كل شيءٍ أراده الله وقع ، وإن أفعاله تتعلق بالحِكمة المُطلقة ، وإن حِكمتَهُ المطلقة تتعلق بالخير المطلق ، واللهِ لو أنّا فهمنا هذه الكلمات واستوعبناها وعقَلناها وعشنا معانيها لتلاشت كل الأحزان في حياتنا .

لكل شيء حقيقة ، « وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه » [الترمذي من حديث جابر] ، فالغلط مجاله بين البشر ، أما في حق خالق البشر فهو يستحيل ، والذي يبدو لك غلطاً وخطأً وظُلماً هو عند الله حِكمة بالغة ، وإنني أضرب مثلاً :

فتاة نالت شهادة ثانوية وهي تبحث عن وظيفة ، هناك مسابقة لوظيفة معلمة فتقدمت إليها ، فطولبت بشهادة صحية فتوجهت إلى مستشفى حكومي لتفحص صدرها ، فجاءت النتيجة أنها مصابة بمرض السل ! بكت وبكت وبكى من حولها ، ومن حولها خافوا من العدوى فابتعدوا عنها ، وتركوها تأكل وحدها ، وأعطوها أدوات خاصة بها ، وتوجّسوا منها خيفة ، وازدادت بهذه العزلة ألماً إلى أن قررت أن تتوب إلى الله ، وأن تصلي وأن تتحجب ، ثم راجع أخوها المستشفى بعد حين ، فإذا هم يعتذرون إذ هذه النتيجة ليست لها بل لغيرها ، فهي سليمة! خطأ الموظف ، إذاً وظفه الله عز وجل كي تتوب هذه الفتاة .

وهناك أخت كريمة تحضر معنا الدروس في جامع النابلسي ، هكذا سمعت وعلمت أنها كانت معارةً إلى بلد نفطي للتدريس ، واختصاصها رياضيات ، عُيّنت في مدرسة في أطراف المملكة ، والمديرة أمرتها أن تُدرّس تفسيراً وفقهاً ، فقالت لها معتذرةً : اختصاصي رياضيات ، فكيف تريدينني أن أدخل إلى صف ثالث ثانوي وأدرسهنَّ تفسيراً وفقهاً ؟ وأنا لا أفقه شيئاً من هذه الموضوعات ، قالت لها : إما أن تدخلي وتدرسي هذه المواد أو نلغي عقدك ، فدخلت هذه المدرسة ، وفتحت كتاب التفسير ، وأول آيات التفسير آيات الحجاب ، ولم تكن الفتاة تؤمن بالحجاب فقرأت الآيات وقرأت التفاسير ، فانهمرت عيناها بالدموع : اعتذرت من الطالبات ، وقالت لهن : دعنني هذه الساعة مع نفسي ، واقرأن ما بدا لكن ، وكانت توبتها حينما أُجبرت أن تقرأ هذه الآيات ، وأن تُفسِّرها للطالبات ، إذاً حُمقُ هذه المديرة وظفه الله عز وجل لصالح هذه المُدرِّسة .

يعني كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادته متعلّقة بالحِكمة المطلقة ، وحِكمته متعلّقة بالخير المُطلق ، وهذه حادثةٌ من حوادث ، ولتعلم من قبل ومن بعد لو أن ورقة سقطت من شجرة فذلك لحِكمة بالغة . . فما قولنا فيما فوق هذه الحادثة ، الظلم في النفوس فقط ، والظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه ، ولذلك فكل قصة فيها عشرة فصول مثلاً ، فقد نعرف فصلاً واحداً فلا يكفي ، وقد نعرف فصلين أو ثلاثة أو أربعة وهذا لا يكفي ، فلسنا مؤهلين أن نحكُم على هذه القصة إلا إذا عرفنا كل الفصول .

إذاً : أقرب اسم من أسماء الله الحسنى إليك ، اسم الرب واسم الحكيم وقد تتساءل : لماذا فلان يُعاني من هذه المتاعب في جسده ؟ . . فقُلْ لحِكمةٍ بالغة ولا تخف ، ولو كان لديك وقت طويل ونفَس طويل وبحث دقيق لمتابعة أمره لوجدت أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان .

قد يسأل آخر : لماذا فلان كان عقيماً ؟ لحِكمة بالغة . . ولماذا فلان مات في سن مبكرة ؟ لحِكمة بالغة . . لماذا فلان عاش عمراً مديداً ؟ لحِكمة بالغة . . ولماذا فلان كان غنياً ؟ لحِكمة بالغة . . ولماذا فلان كان فقيراً ؟ لحِكمة بالغة . . فأنا أذكر كل هذا وأنا واثق مما أقوله ، وأي شيء أعجبك أو لم يعجبك فقل : لابد من حِكمة بالغة ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُمكن أن يتصرّف بلا حِكمة ، لأنه عليم ، ولأنه واحد ، ولأنه موجود ، ولأنه كامل .

موجود ، فإذا قلت : أين الله ؟ . . فسؤالك يعني أنه غير موجود . . بل هو موجود .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

هو موجود وواحد ، وليس مع وجوده وجود ، وكامل ، ومن كماله أنه حكيم . . . هذه مقدمة .

وبعد ، فكلمة الحكيم وردت في القرآن الكريم ثمانياً وثلاثين مرة ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] .

وكذلك فهناك بحث قائم بذاته يحسن بنا أن نلفت نظر القارىء إليه ، فحينما تأتي الأسماء مثنى مثنى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٣٠] .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ١٩] .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] .

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : ١٠] .

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]

﴿ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] .

هكذا جاءت الأسماء في سياق الآيات القرآنية فاحذر أن تلتبس

عليك الأمور ، لأن هذا مزلق خطير ؛ مثل أن تقول : حكيم لأنه عليم ، فلا يمكن في علم التوحيد أن يُعلّق اسم على اسم ، فحكيم لأنه حكيم ، وعليم لأنه عليم ، لا يفتقر اسم إلى اسم في أسماء الله الحسنى ، واسع وحكيم ، إذا قلت حكيم لأنه واسع ، لا . ثم لا . . واسع لأنه واسع وحكيم لأنه حكيم .

وكلمة حكيم وُصِف بها القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يونس : ١] .

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يس : ١ـ٢] .

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقال بعض العلماء في تفسير كلمة الحكمة : « **إن الحِكمة إذا قرنت بكلمة الكتاب ، فهي سنة رسول الله ﷺ** » وهذا أروع تفسير ، وأدقّ تفصيل وأوضح تبيين هو كلام سيد المرسلين ﷺ ، والحِكمة أيضاً جُعلت أسلوباً في الدعوة إلى الله ، قال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

والحِكمة يمكن أن يؤتاها الإنسان ، وأقول : لو أنَّ الله عز وجل آتاك أجمل امرأة في الأرض ولم يؤتِكَ الحِكمة لجعلتها أسوأ امرأة ، ولو أعطاك مال قارون ولم يؤتِكَ الحِكمة لبُدِّد هذا المال ولكان حسرةً

عليك يوم القيامة ، ولو أعطاك صِحةً رائعة ولم يؤتِكَ الحِكمة لاستهلكت هذه الصحة في سفساف الأمور ، ولو أعطاك أولاداً نجباء ولم تكن حكيماً لكانوا زادك إلى النار . فأي شيء إذا أُعطيته دون أن تعطىٰ معه حِكمة كان حسرةً عليك يوم القيامة ، ولهذا قال الله عز وجل :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

فأنت بالحِكمة يمكن أن تكون أسعد الناس بدخلٍ قليل ، وبالحُمق تشقى بالدخل الكثير ، وبالحِكمة تَسعَد بزوجة من الدرجة الخامسة ، وبالحُمق تشقى بزوجة من الدرجة الأولى . بالحِكمة ترقى بأولادٍ ضِعاف ، وبالحُمق تسفل بأولادٍ نجباء ، نعم . . لا يكون الرفق في شيء إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلا شانه .

لذلك أذكر وأكرر أن الله قد يؤتيك مال قارون وهو لا يحبك ، قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾

[القصص : ٧٦]

آتاه الله المال وهو لا يحبه ، وقد تكون قوياً والله لا يحبك ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

إذاً : قد يؤتيك الله المال وهو لا يحبك ، وقد يؤتيك الله القوة

وهو لا يحبك ، أما إذا أحبك فعلاً فسيؤتيك العلم والحِكمة ، قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[القصص : ١٤] .

فأنت من المؤمنين إن شاء الله تعالى فانظر بماذا تفضّلَ الله به عليك ، إن تفضّلَ الله عليكَ بالحِكمة والعلم فهذا العطاء من نوع عطاء الأنبياء ، وإن زادكَ مالاً فالحمدُ لله ، وإن زادك صحةً فالحمدُ لله ، وإن زادكَ قوةً فالحمدُ لله ، لكن الأصل أن تكون حكيماً عليماً .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : **« من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله عز وجل لا يُسمى حكيماً »** . . **« وهذا المعنى قائم بنفسي منذ أمد طويل »** .

ولقد اجتمعت مرةً مع شخص يحمل شهادة الدكتوراه في التربية والدكتوراه في العلوم الفيزيائية ، فحسبته جمع المجد من طرفيه دكتوراه في التربية ، علوم إنسانية ، ودكتوراه في العلوم الفيزيائية ، وفي أثناء اللقاء أخبروني : أنه لا يصلي ، وهو في الخمسين ، والله الذي لا إله إلا هو سقط من عيني كما يسقط النجم إلى الأرض ، أوَ كلُّ هذا العِلم وأنتَ لا تُصلي ؟ فهذا الإله العظيم ألا يستحق أن تعبده ؟ .

يقول الإمام الغزالي : **« من عرف جميع الأشياء ، ولم يعرف الله عز وجل لا يستحق أن يسمى حكيماً »** .

وأنا بدوري أُعبّر عن هذا المعنى على النحو التالي : إن الذكاء ذكاءان ، ذكاء جزئي وذكاء شمولي ، فهذا من حيث الذكاء الجزئي

طبيب متبحّر في العلوم دقيق الفهم لمّاح الحِكم ، قوي الحافظة ، ولكنه يعصي الله لأنه لم يُفكّر فيما بعد الموت ، ولأنه لم يُفكّر فيمن خلقه ، ولأنه لم يُفكّر في منهج هذا الخالق العظيم ، ولأنه لم يطمح إلى مرضاة الله عز وجل ، ولأنه لم يرَ عظمة الخلق ولم يرَ من خِلالها عظمة الخالق ، فهو مدموغ بالغباء ولو كان من أذكى الأذكياء .

إذاً حق أن نقول : هناك ذكاء جزئي يتعلق بالجزئيات ، وهناك ذكاء شمولي يتعلّق بالكليات ، فمن غفل عن ربه وخرج عن منهجه وانغمس في الشهوات ، ولو كان في اختصاصه في القِمة ، وفي فرعه العلمي في الأوج ، ولو حصَّلْ أعلى الشهادات ، فإن دمغة الغباء سمته الأولى .

والناس على ما هو معروف يهنِّىء بعضهم بعضاً دائماً ، فتهنئةٌ بشراء منزل ، وتهنئة بنيل منصب ، وتهنئة بنيل شهادة علمية ، وتهنئة بمولود ، وتهنئة بزواج ، وتهنئة بشراء مركبة ، وتهنئة بسفرة ببعثة إلى خارج بلدك . . أما أنا فوالله لا أرى أن كلمة التهنئة تُقال على حقيقتها إلا إذا اصطلحتَ مع الله حقاً وصدقاً .

كان بعض الشيوخ إذا رأى تلميذه قد اصطَلَحَ مع الله تماماً وأقبل عليه يقول له : هنيئاً لك يا ولدي .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٧] .

كيف تنساه ؟ وهذا بعض العارفين : يقول « يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ » ، هذا كلام بليغ ! وكذلك يقولون : « إذا كان الله معك فمن عليك ؟ ، وإذا كان عليك فمن معك ؟! » فهذا كلام أبلغ .

والسؤال المطروح الآن هو : إذا تعلّمت علماً ، فشرف المُتعلّم من شرف العِلم ، ولو تصورّت إنساناً يقرأ في كتاب أصول سرقة البنوك مثلاً ، فأنت تراه يقرأ كتاباً ويتعلّم ؛ ألا تحتقر هذا العلم ؟ ، ولو افترضناه كتاباً مؤلفاً حول طريقة تزوير العملة مثلاً! وهو عاكف على هذا الكتاب ويدرسه بنهم وشغف ، ويضع خطوطاً ويُلخِّص فقراته ، ألا تحتقر هذا الجهد كله ؟ بلى ، لأن هذا الموضوع دنيء وإجرامي .

إذاً : شرف المتعلّم من شرف العِلم الذي يتعلّمه ، وكلما ارتقى العِلم ارتقى المُتعلّم ، فمن الناس من يتعلم القوانين المتعلّقة بالفيزياء ، وهناك قوانين الكيمياء ، وقوانين الفَلَك ، وقوانين الجيولوجيا ، وقوانين التاريخ ، وقوانين النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الذرّة ، وعلم الفيزياء ، وعلم الكيمياء ، طبعاً الفيزياء صوت وحرارة وكهرباء ومغناطيس وضوء ، والكيمياء عضوية ولا عضوية فهذه كلها علوم قد تسمو بصاحبها .

فإذا كان المُتعلّم يعلو في نظر الناس كلما ارتقى علمُهُ ، إذ يُقال لك فلان يحمل اختصاصاً نادراً ، وفلان مثله ، في حين أن هناك خمسة آلاف حقوقي بلا عمل ، فهذا حائز على شهادة الحقوق ، والحقوق اختصاص رائع جداً ، ولكن لكثرة المتخصصين به ، ولعطالة أصحابه ربما رأيت هذا الفرع فرعاً سهلاً ، وكلما كان الفرع أصعب منالاً وأعظم فائدةً ، كان أعود على صاحبه نفعاً ، يطلب مثلاً ثمانين ألفاً بالشهر ، فهو ذو اختصاص نادر .

أما هذا الذي تعرف إلى الله فما حاله ؟ فهذا السؤال وجيه حقاً ،

إن الذي تعرف إلى بعض الحقائق عن بعض المخلوقات يرقى في نظر الناس ، فكيف إذا كان موضوع المعرفة هو الله ؟ فمثلاً إذا قرأت شعراً لأحد الشعراء ودرست الشعر وحللته ، العاطفة والخيال والأسلوب والأفكار الدقيقة وتسلسل الأفكار وعمقها وواقعيتها كنت مرموقاً عند أهل الاختصاص ، فكيف إذا حللت كلام الله عز وجل ، فلذلك كلما ارتقى اختصاصك ارتقت مكانتك ، فمن اشتغل بغير الله لا يُسمى حكيماً .

وما أكثر ما ذكرت أن كلَّ علم ممتع ، وهناك عِلمٌ ممتع ونافع ، وهناك عِلمٌ ممتع ونافع ومُسعد ، إن العلم بالله ـ وحده ـ هو العِلم المُمتع النافع المُسعد ، والاختصاص النادر هو العلم المُمتع النافع ، وأيّ علم مُمتع ، وأي كتاب إذا قرأته تستمتع به ، لأن العلم ممتع ، ونقل المعرفة عمل مقدّس ، وكلما ارتقيت بهذه المعرفة إلى المستوى الذي يُرضي الله عز وجل ارتفعت معه .

قال بعض العلماء : « **من عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره** » وهل يمكن لإنسان يعرف الله أن يَسهرَ سهرةً إلى الساعة الواحدة ويكون الحديث خلالها عن الطعام مثلاً ، فيستهلك خمس ساعات من عمره بدداً أو في لعب النرد أو في الشطرنج ، أو الحديث عن زيد أو عبيد ، فمستحيل ذلك إلا عند صغار الهمم .

لكن « **من عرف الله عز وجل كان كلامه مخالفاً لكلام غيره** » ، كلامه مقدّس ، كلامه في الكُليّات ، وفي الأصول ، وفي الأهداف الكبرى ، وكلامه في السمو. . وكل إناء بالذي فيه ينضح .

كنت ضربت مثلاً ، هناك أوعية تعبأ من أعلاها ولها صنبور في

أسفلها ، فأنت لا تصدق أن يخرج من الصنبور سائل يخالف ما في هذا الإناء أبداً ، فإن عبأته ماء يخرج من أسفله ماء ، وإن عبأته لبناً تجد لبناً ، وإن عبأته ليموناً تلق ليموناً ، وإن عبأته مثلاً ماء زهر ، تجد ماء زهر ، وإن عبأته ماء آسناً ، أخرج ماء آسناً فكل إنسان له منهل يَنهَلُ منه وله ما يَخرُجُ منه ، والإنسان كلامه يتحدث عما فيه ، ونفسه وعاء امتلأ .

فإذا كانت ثقافة الإنسان حصاد مجلات وقصص ومسلسلات ، وتكلم ، تسمعه يقول لك : فلانة طُلقت ، وفلانة خانت زوجها ، ونحو ذلك إذ ليس عنده شيء آخر ، بل كل معلوماته مورد هذا الإناء الذي عبأه من أخبار هؤلاء الساقطين والساقطات ، فلو أراد أن يتحدث لما فاض إلا بما امتلأ .

فلو أن الإنسان عبأ وعاءَهُ من أخبار أصحاب رسول الله ﷺ وعبأه من دقائق السُّنّة المطهرة ، ومن بطولات من عاصر النبي عليه الصلاة والسلام ، وعبأ وعاءَهُ من العلم الشريف الذي يرقى بالإنسان ، ثم قيل له تفضل وتكلّم ، فلن يتكلّم إلا بالحكم والدُّرر والقرآن والحديث والتفسير والموعظة الحسنة والحقائق العلمية المتألقة والمشاعر الرقيقة ، والمواقف النبيلة ، ولن يصدر عنه إلا الدر واللؤلؤ ، فهذا الذي قاله الأسلاف ملأ به وعاء عقله : وكل إناء بالذي فيه ينضح .

وأخطر ما في الموضوع من أين تنهل ؟ ومن أين تشرب ؟ وما الذي يدخل إلى أذنك ومنه إلى قلبك ؟ وما الذي يدخل من بصرك ومنه إلى قلبك ، لأن السمع والبصر نافذتان ، فما تقرأ يدل عليك من

أنت ؟ وما تسمعْ ؟ يخبر مَن أنت ؟ قُل لي من تُجالس أقُل لكَ من أنت ؟ وقل لي من تصحب أقُل لكَ من أنت ؟ ومن تصادق أقل لك من أنت ؟ فالمرء على دين خليله ، ومن شيخُك ، أقُل لكَ من أنت ؟ فهؤلاء مناهل .

وهناك منهل ماء صافٍ ، ومنهل ماء معسل ، ومنهل ماء مزهر ، ومنهل ماء آسن ، فإذا كان حديث الإنسان ساقطاً ، ومزاحه جنسياً رخيصاً ، وتعليقاته لاذعة ، وكلماته بذيئة ، فطابعها طابع المجاري الآسنة ، لأنه ينهل من مياه المجاري فإذا فاض بشيء فلن يخرج منه إلا ماء آسن تفوح منه رائحة الزنى والغدر والخيانة والأثرة والاستعلاء والعنجهية والقسوة ، ولذلك فالإنسان منهي أن يتحدث عن أمثال هؤلاء ، لأنَّ الحديث عن المنحرفين يقبض القلب ، وأما الحديث عن الصالحين فإنه يُعطِّر المجلس .

« **رأس الحكمة مخافة الله تعالى** » ، إن لم تخف الله عز وجل فأنت لا تعرف من الحكمة شيئاً .

« **الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني** » [أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس] ، فالعاجز يعيش لحظته ، ويعيش حظوظه ، وميوله ، ورغباته ، أما الكيّس فيعيش حياة ما بعد الموت يُعِدُّ لها منذ الآن .

« **ما قلَّ وكفى خير مما كثُرَ وألهى** » ، يعني ما يكفيه لا ما يطغيه ، ولا ما يلهيه ، أجل ، ما يكفيه ، إذ غاية كل حاجاتك أن تكون صحيح البدن مكتفياً ، تقطُن في بيت ، الحاجات الأساسية فيه

موفورة ! هذا هو الغِنى ، أمّا أن تفهم الغِنى أن يزداد الرقم الذي تملكه ، فهذا ليس هو الغِنى .

قال عليه الصلاة والسلام : « **من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في بدنهِ عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها** » .

كُن ورعاً تكن أعبدَ الناس ، وكُن قنعاً تكُن أشكر الناس ، « ومن حُسنِ إسلام المرء تركُهُ مالا يعنيه » ، و« السعيد من وُعِظَ بغيره » ، و« الصمت حِكم وقليلٌ فاعِلُهُ » ، و« القناعة كنز لا يفنى » ، و« الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » ، والحقيقة هذه الحِكم مبذولةٌ بينَ أيدينا ، فيمكن أن تشتري كتاباً في الحديث الشريف ، فتجد الحكم كلها فيه ولكن بين أن تقتني الكتاب وتقرؤه شيء ، وأن تعيش هذه الحِكمة شيء آخر ، البطولة أن تعيش هذه الحِكم ، وأن تطبقها إلى واقع ومشاعر ومواقف وسلوك .

الآن نعود إلى اسم « الحكيم » بالشكل المنهجي ، لاسم الحكيم معانٍ ثلاثة أساسية :

المعنى الأول : اسم « الحكيم » على وزن فعيل ، بمعنى مُفعل تقول : جرح أليم بمعنى مؤلم ، وفعيل بمعنى مُفعل ، فحكيم بمعنى مُحكم ومعنى المُحكم المُتقن ، والمتقن هو المقدِّر التقدير الصحيح .

فلو أن إنساناً قص قطعة خشب مثلاً بأقل من اثني مليمتر فإنك تنزعج لأنها قصرت ، ولو كان تقديره حكيماً وصحيحاً لجاءت الصنعة مُحكمةً من كلمة مُحكم فهي متعلقة بالتقدير ، وكلما دقَّ التقدير أُحكِمت الصنعة .

تجد بعض الآلات غالية جداً ، ولا ترى فيها عيباً أبداً ولا نقصاً

ولا لميلمتر واحد ، فالآلات من الدرجة الخامسة ، تراها ذات عيوب كثيرة ، فيقال لك هذا النقص مثلاً لا يُؤثر ، ونقصه مقبول ، أو سلبيته طفيفة محتملة ، فهذه ليست صنعة مُحكمة ، إذ نرى الأجانب يأخذون عشرة أضعاف أو مئة ضعف عما نصنعه نحن ، وذلك لإتقان عملهم .

حدثني أخ يعمل في المنسوجات ، قال : إن آلة استقدمناها من بلد غربي نبيع الثوب كله من إنتاجها بمئتي ليرة ، والآلة نفسها في بلد آخر نشتري المتر الواحد بسبعمئة ليرة ! المتر الواحد من إنتاج هذه الآلة بسبعمئة ليرة في حين الثوب بأكمله بمئتي ليرة والآلة واحدة ، والفرق هو الإتقان .

فلذلك معنى حكيم أي مُحكِم ، ومعنى مُحكِم أي مُتقن ، وأصل الإتقان من دقة التقدير ، إذاً : ربنا عز وجل خلق كل شيء فقدره تقديراً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

وأنت عد إلى جسمك ، فالدم الذي تنبض به عروقك فيه ملح بنسبة سبعة بالألف إلى ثمانية ، إذا قلّت النسبة عن هذا الرقم تنكمش الكريّات ويموت الإنسان ، وإذا زادت تنفجر الكريات ، من جعل نسبة الملح في الدم ثابتة ؟ الفضل لله عز وجل ، إذ إن الكُلية إذا زادت نسبة الملح في الدم تفرز الزائد ، وإذا قلّت تحتفظ وتدخر ، فالكُلية هي التي تَزِن السائل الدموي أو البلازما بميزان دقيق .

هناك هرمون التجلّط يُفرِزُهُ الكبد ، وهرمون التمييع ، من إفراز الهرمونين معاً ، ومن ثبات النسبة بينهما ثباتاً دقيقاً تنشأ ميوعة الدم وسيولته ، وقد قيل : لو زاد هرمون التجلّط عن الحد الذي رسمه الله

عز وجل لأصبح الدم كالوحل في الأوردة والشرايين ولمات الإنسان ، ولو زادت نسبة هرمون التمييع عن حدها الذي رسمه الله عز وجل لنزف دم الإنسان كله من جرح صغير .

لي صديق توفي رحمه الله تعالى ، زرته في المشفى ، فوجدت أمام فمه لصاقات طبية لا أبالغ قرابة ثمانية سنتمتر ، فقلت : خيراً إن شاء الله ، قال : عندي نقص في الصفائح الدموية ، والصفائح الدموية تماماً مثل أحجار البناء ، إذا حصل ثقب في البناء تسده ، وهذا سببه رعاف أذهب معه الصفائح لديه ، وكلما أزلت اللصاقات فالدم ينزف ، إذ لم يبق في دمه صفائح دموية ، وفي الميلمتر المكعب عادةً سبعمئة ألف صفيحة تقريباً ، وهذه الصفائح تسد أي خرق في الأوعية .

إذاً : ما هذه الحِكمة ؟ وهذه معلومات قديمة ؛ وإخوتنا الأطباء الذين يدرسون حديثاً ، يعرفون أشياء عجيبة ، إنها حكمة الله الخالق البارىء .

وهناك زُمر نسيجية ، أحدث رقم : ملياران ونصف مليار زُمرة نسيجية في العالم ، ولا يوجد إلا إنسان واحد في الأرض له زُمرة نسيجية تُشبه زمرتك ، وعلى النُّوَيَّة عدد كبير من الجينات المبرمجة عُرف منها حتى الآن ثمانمئة جينة فقط ! فإذاً ما معنى حكيم ؟ الحكيم يعني مُحكِم ، ومُحكِم بمعنى مُتقن ، والمُتقن هو الذي قدّرَ الشيء فأحسنَ تقديره ، قال تعالى :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

إذاً : معنى الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه ، هذا معنى قول الله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [تبارك : ٣] .

وبعد ، انظر تر النملة في أكمل وضع ، والذبابة بأكمل وضع ، والفيل بأكمل وضع ، والمجرّة بأكمل وضع ، والذرّة بأكمل وضع ، وأيّ مخلوق بأكمل وضع هذا معنى الحكيم ، وهذا هو المعنى الأول ، الحكيم المُحكم .

وتفسير هذا الاسم :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٥ ـ ٨] .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

هذا معنى الحكيم ، وسِرُّ الحكيم :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

ويسألونك مثلاً : هل قست ضغط عينك ؟ ما ضغط العين ؟ إنه شيء متقن ، إذ بالعين سائل ، وهذا السائل لا بد أن يتجدد ، فكيف يتجدد ؟ يصب عليه مورد وله فتحة في أسفله ، فإذا سُدت هذه الفتحة تحتقن العين ، ويزداد ضغطها فتضيق لمعة الشرايين المغذية لها ، وأطباء العيون يقيسون ضغط العين .

والدِقّة بالغة جداً ، فلقد حدثني أخ طبيب ؛ أنهم في أثناء عمليات القلب المفتوح يعطون بوتاسيوم بِنِسَب دقيقة جداً فلو زادت لمات المريض فوراً ، وقال لي : لو كنا نقوم بعملية لمريض وشخصت عيناه ومات فقد يقال : هناك خطأ بالبوتاسيوم ، أو هناك شوارد بالدم .

بل هناك دقائق بخلق الإنسان وهي أشياء فوق التصور ، وهذا أول معنى من معاني الحكيم .

المعنى الثاني : الحِكمة عبارة عن معرفة أفضل المعلومات بأفضل العلوم ، فهناك عِلمٌ مُطلق ، والإنسان مهما تعلّم فإنه يقف على شاطىء بحر العلم ، قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

مهما تعلّم العالم المؤمن وارتقى علمه فإنه يقول : لم تبتل بعد قدماي ببحر المعرفة .

ومن علامة العالِم الحقيقي أنه متواضعٌ ، وكلما ازداد علماً ازداد تواضعاً ، والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : « **كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي** » ، فمن هو العليم عِلماً مُطلقاً ؟ الله لا غيره ، الحكيم تُطلق على ذي العِلم المُطلق : العِلم الذي لا يعتوره خلل ولا جهل ولا شائبة ، وما من إنسان يدّعي أنه بلغ العلم المُطلق ، حتى في الحِرَف والمِهَن ، وحتى الأطباء والعُلماء والمُهندسون ، يرتكبون أغلاطاً كبيرة جداً ، أما العِلم المُطلق فهو لله عز وجل ، ولهذا يقول الإمام الغزالي « **لا يعرف اللهَ إلا الله** » .

المعنى الثالث : الحكيم هو الذي يتنزّه عن فِعل ما لا ينبغي ، يعني هو الذي يضع الشيء المُناسب بالقَدر المُناسب وفي الوقت

المُناسب وبالمكان المُناسب ، فهذا معنى الحكيم ، إذ لا نستطيع أن ننطق بكلمة ولا حرف زيادة عما يجب ، فأحياناً نضع الشيء المُناسب ولكن بحجم غير مُناسب ، وأحياناً أخرى نضع الشيء المُناسب بالقدْر المُناسب وفي وقتٍ غير مُناسب ، وكذلك أحياناً نضع الشيء المُناسب بالقدر المُناسب وفي الوقت المُناسب وفي مكان غير مُناسب ، فالحكيم هو الذي يفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وبالمكان الذي ينبغي ، فهذا هو الحكيم .

وبعد ، فما حظك ـ أيها الإنسان ـ من اسم الحكيم ؟ إن الحكيم من الأسماء التي يمكن أن يتحلّى بها الإنسان انطلاقاً من المقولة : **تخلقوا بأخلاق الله** .

فالمؤمن الحق حكيم ، فحِكمَتُهُ من أين تأتي ؟ ومن أين يستقي حِكمَتَهُ ؟ من معرفته بالله . . فإن كان لديك آلة ، معقدّة جداً ، ولديك تعليمات دقيقة عنها فأنت تكون حكيماً لو نفذت هذه التعليمات التي هي من عند الصانع ، فالقضية سهلة جداً ، وإذا قرأت القرآن وفهمته ، وفهمت السُّنّة المُطهرة فأنت بمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل وأمرَ النبي ﷺ فأنت حكيم ، فمثلاً ، غضُّ البصر حِكمة بالغة ، فأنت إذا غضضتَ بصرك عن محارم الله فلابد أن تبقى في حياتك امرأة واحدة ، وليس مسموح لك غير زوجتك ، والحِكمة تقول : إنك تُقبل على هذه الزوجة إقبالاً يجعل الود بينكما متنامياً ، فلو كانت لك منافذ أخرى لنشأت في البيت بعض المتاعب الزوجية .

وهناك نقطة مهمة جداً ، وهي قاعدة في المنطق وهي : « **الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به** » فيمكن أن نأتي ببدوي ونعطيه سيارة

من أحدث السيارات ، وهو سائق ماهر ، يتمتع بسرعتها وتكييفها وصوتها الناعم ، وبكل ميزات هذه السيارة وهو لا يفقه شيئاً من أساليب صناعتها ، واليوم صار عند كل الناس أجهزة متقدمة كثيرة فالذي عنده مكيّف مثلاً هل يعرف مبدأ عمله ؟ إنه يكتفي بأن يضغط المفتاح ثم يقول لك : تكيّفنا ، والذي عنده براد هل يعرف مبدأ عمله ؟ ومن يركب طائرة وهي خلاصة علم البشرية كلها ؛ وكل من سافر فيها يقول لك : حلقنا على ارتفاع أربعين ألف قدم ، وأكلنا طعاماً ساخناً ، ورأينا الغيوم. . فالانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، فأنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل سواء أعرفت حِكمَتَهُ أم لم تعرف ؟ أتعمقت في تحليلها أم لم تتعمق ؟ تقطف ثمارها كلها ، هذا الذي أريد أن أقوله لكم. . أَمَرَكَ بغضّ البصر فأطعت ، وأَمَرَكَ أن تكون صادقاً ، والحِكمة كلها في الصدق ، وكلما كنت صادقاً عند الناس ارتفع شأنك فشعرت بمكانة الرجل الصادق فأنت رأسُكَ مرفوع .

ذكرت قصة فيما سبق ، أعدتُها وكررتها مراراً لأن فيها عبرةً بالغةً وهي أن سائق سيارة رأى امرأة ملفعة بعباءة فأشارت إليه فوقف ، والسيارة من سيارات الأجرة طبعاً ، قالت له : خذني إلى المكان الفلاني وفي منتصف الطريق خلعت ما عليها ، وأعطته مبلغاً بالعملة الصعبة كبيراً جداً ، وقالت : خذه واقض حاجتي ، أخذ المبلغ الضخم وقضى حاجتها وحاجته ، وأعادها إلى مكان الانطلاق ، وأعطته رسالة ، فقرأها وصُدِم ، إذ هنأته على أنه أصبح عضواً في نادي الإيدز ، إنها مصابة بهذا المرض الخبيث ، وتريد أن تنتقم من الناس جميعاً ، ومعها عملة مزورة أيضاً ، فذهب ليبدل هذا المبلغ

بالعملة المحلية ، فوقع تحت قبضة العدالة ! فقولوا بربكم : أيمكن لمؤمن أن يقع في هذا الفخ ؟ ذاك مستحيل ، إنه يخاف من الله . . ولا بد من صرفها بصورة من الصور .

فأنت حينما تُطبّق أمر الله حكيم ، دون لف أو مواربة أو تعقيدات ، فالله أمرني ألا أكذب فلا أكذب ، وألا أغش فلا أغش ، أما تحليلات الغش : فهناك قانون اقتصادي ، تروج به الدول الغنية بضاعتها فتعطي قروضاً للدول الفقيرة حتى ينشأ عندها قوة شرائية ، ثم بعد ذلك تقع تلك الدولة تحت نير الديون للدول الكبرى فتستغلها أبشع استغلال ، لكن المسلم عندما يؤدي زكاة ماله ، وكل غني يؤدي زكاة ماله كذلك ، فينفرج الفقير ويصير ذا مال ويتمكن من أن يشتري قميصاً وبزّة وحذاء وحاجات زائدة وسيوسع على أهل بيته ، دون أن يبتز أحداً أو يحمل أحداً ديوناً ، ومن جهة أخرى عندما دفعت زكاة مالك قطفت كل ثمار الزكاة ، فالفقير صار بخير وأنت بخير ، ونلت ثواب الله الجزيل .

مؤلف غربي اسمه « ألكسي كارليل » ألّفَ كتاباً (الإنسان ذلك المجهول) وبعد بحث طويل وجد أن نظام البشر لا يصلح إلا بزوجة واحدة ، شريطة أن يقصر الرجل طرفه عليها أي : أن يَغُضّ بصره ، فأنت دون تعمق ودون أن تقرأ الكتب ، حينما تَغُضَّ بصرك ملتزماً بأمر الله تقطف كل ثمار هذه الحِكمة ، فالإنسان يجب أن يكون حكيماً ، وكيف يكون حكيماً ؟ يكفي أن يُطبّق أمر الله وأمر رسوله ﷺ فقط .

اسأل طبيباً يحدثك عشر ساعات عن الاعتدال بالطعام والشراب ،

فالمؤمن دون أن يفهم كل هذه التفصيلات ، فهو يعرف أننا قومٌ لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع . . . انتهى الأمر ، هذا هو الطب الوقائي كله ، إذاً يمكنك أن تقطف ثمار كل المعارف بلا تعمُّق . . حينما تطبق أمرَ الله ، إذاً مَن هو الحكيم ؟ هو الذي طبّق تعليمات الصانع ، هذا هو الحكيم .

أحياناً يكون له موقف ليس فيه تعليمات ، إذ ينشأ ظرف ليس فيه نص آية ولا حديث حول هذا الموقف العارض ، فالحِكمة تأتيك إلهاماً من الله . إذاً إما أن تكون الحكمة في أساسها نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً تُطبّقُهُ فتغدو حكيماً ، وإما أن تكون الحِكمة إلهاماً يُلقى في قلبك ، لأنك تطلب رضاء الله عز وجل ، وتتكلم الكلام المُناسب في الوقت المُناسب ، مع من يُناسبُ في المكان المُناسب : تعطي وتمنع ، وتغضب وترضى ، وتصالح أو لا تصالح ، فهذه المواقف المتجددة والتي ليس لها بين النصوص نص واضح متعلّق بها ، تصل من الملائكة حينما يلقون في روع الإنسان بعض الإلهامات ، قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

هذا وحيُ إلهام وليس بوحي رسالة ، فأحياناً يقول لك : لم ذهبت وأنت لا تعرف ؟ فالله عز وجل يسوق لك الخير الكثير من حيث لا تدري ، أو يرد عنك أذىً أو شراً من حيث لا تدري أيضاً ، فهذه هي الحِكمة ، فكن مع الله دائماً ، فإن واجهت موقفاً ليس فيه نص لتتصرف فالله عز وجل يُلهِمُكَ الصواب ، وهذا عين دعاء الصديق :

« اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه » .

إذاً أنت تكون حكيماً باتباع أمر الله وأمر النبي ﷺ ، وحينما تشعر بانقباض أو انشراح فهذا نوع من إلهام الله عز وجل لك ، والإنسان كلما كان أكثر إيماناً كان أكثر حِكمةً ، والنبي عليه الصلاة والسلام كانت حِكمته من أعلى مستوى ، لأنه قريب مباشرة من الله عز وجل ، ومن الناس من يمشي في طريق مليء بالحفر والأكمات ، والحشرات المؤذية ، وعلى جانبيه أشجار ثمارها يانعة ، فلو أن لديه مصباحاً كاشفاً فهل يمكن أن يخطىء ؟ لا إذ بالمصباح الكاشف يرى الحفرة فيتجنبها ، ويرى الأكمة فيبتعد عنها ، ويرى الثمرة فيأكلها ، ويرى الحشرة فيقتلها ، فمن أين يأتي الحمق ؟ من العمى . قال تعالى :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

إني لأرى أحياناً أن إنساناً ما يطلّق زوجته بِحُمق ، وبِلا أسباب موجبة في ساعة غضب ، وهذا عَمى حقاً ، فإذاً الحمق أساسه العَمَى وهو يُردي ، والحِكمة أساسها البصيرة في القلب ، ونتائجها تردي :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ـ١٢٦] .

كان أعمى في الدنيا ، فنسي أمر الله فآل إلى زوايا النسيان والإهمال ، أما نحن المؤمنين إن شاء الله ، فحِكمتُنا في اتّباع القرآن الكريم ، وفي اتّباع السنة المطهرة ، وكلما كنا أكثر إخلاصاً وأكثر

ورعاً واستقامةً ألهمنا الله رشدنا ، اللهم ألهمنا رشدنا ، وخذ بنواصينا إلى المواقف الحكيمة .

أخيراً ، إليكم أيها القراء الكرام قصة لعلكم تعرفونها جميعاً ، حصلت منذ خمسين سنة لإمام وخطيب جامع الورد في دمشق ، إذ رأى في المنام النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال له عليه الصلاة والسلام : في المنام قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة ، وجاره سمّان ، وهو الخطيب والعالم فتمنى لو أنه بمكان هذا الجار ، طرق باب جاره ، ودخل عليه وقال له : لك عندي بشارة ، ولكن والله لا أقولها لك إلا إذا أطلعتني على حقيقة أمرك ، وماذا فعلت حتى حللت هذه المنزلة عند الله عز وجل ؟ فامتنع عن الإجابة وبعد إلحاح شديد ، قال : لقد تزوجت امرأة وفي الشهر الخامس تبيّن لي أنها حامل ، وحملها الطبيعي في الشهر التاسع ، فعلمت أنها قد زلّت قدمها ، فكان بإمكاني أن أُطلِّقَها ، وأن أفضحها ، وأن أسحقها ، وأنا محق في ذلك ، والناس يقروني ، فجئت بمولّدة ، فولدت غلاماً ، وحملته تحت عباءتي ، ودخلت إلى جامع الورد بعد أن كبّر الإمام لصلاة الفجر ، ووضعت هذا الغلام خلف الباب ، واقتديت بالإمام ، فلما انتهينا من الصلاة بكى المولود ، فتحلّق المصلون حوله واندسست بينهم ، قلت : ما الخبر ؟ قالوا : مولود ، فقلت : هاتوه أنا أتكفله ، فأخذته أمام أهل الحي على أنني قد تبنّيته ، ودفعه لأمه التي ولدته قبل ساعات ، فهذا تصرف أهل التقوى ، وهذا تصرف أهل الحكمة ، وإنه لرجل حكيم .

* * *



الاسم هو اسم « الحق » وهذه الكلمة متُداولة بكثرة كاثرة ، والله سبحانه وتعالى هو الحق ، وكلامه هو الحق ، ووعده هو الحق ، ووعيده الحق ، وأفعاله حق .

وكلمة حق قبل أن نمضي في الحديث عنها لابد من ضرب الأمثلة : معك جهاز كهربائي ، وبحاجة إلى طاقة كهربائية ، توجهت إلى مأخذ كهربائي ووضعت فيه الشريط ، فالآلة لم تتحرك ، فهذا المأخذ ليس فيه كهرباء ، فتوجهت إلى مأخذ آخر ووضعت فيه الشريط فدارت الآلة ، أول مأخذ باطل ، الثاني حق.. فما معنى الحق إذاً ؟..

الشيء الموجود موجود ، الحقيقة أن الله هو الحق ، وإذا توجهت إلى غيره فلن تجد شيئاً بل سراباً في سراب ، وعودٌ كاذبة ، وأقوال فارغة ، وكلمات طنانة ، لكنها هراء وهواء ، وإذا توجهت إلى الله عز وجل وجدت كل شيء ، فأول معنى من معاني الحق الشيء الموجود ، وأول معنى من معاني الباطل الشيء المعدوم ، والإنسان إذا وعدك وعداً ونفّذَ وعده فوعده حق ، فإن لم يُنفذ فوعده باطل ، وإذا توهمت أن الجِنّ بإمكانهم أن يفعلوا كذا وكذا فهذا مجرد وهم .

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ما أعطى الجن قوةً أبداً ، فاعتقادك أن الجن بإمكانها أن تفعل ، وأن تؤذي ، وأن ترفع ، وأن تخلص ، فهذا اعتقاد باطل ، لأنه لا يُطابق الحقيقة ، وإذا قُلت مثلاً : فلان بإمكانه أن يفعل شيئاً خارقاً فأنت مخطىء ، إذ هو في الحقيقة عبد مثلك لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك ، فقولُك باطل ، فالشيء الموجود والاعتقاد بوجودِهِ والاعتراف بوجودِهِ ، هذا هو الحق ، والشيء المعدوم أن يتوهَّم الإنسان أن هذا الشيء موجود ، وهو ليس بموجودٍ فهذا الوهم باطل ، وأن تعتقد أن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا اعتقاد باطل ، وإذا قلت : إن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا قول باطل ، والصواب أن الحق هو الموجود ، والباطل هو المعدوم ، والاعتقاد الحق حينما يوافق اعتقادُك الواقع فهو حق ، وإذا خالف الواقع فهو باطل ، والقول الحق حينما يوافق قولك الموجود فقولك حق ، وحينما يخالف قولك الموجود فالقول باطل .

وأخطر ما في الحياة أن تتجه إلى جهة لا تملك شيئاً ، وأخطر ما فيها أيضاً أن تعتقد اعتقاداً غير صحيح ليس له مرتكز واقعي أبداً ، وأخطر كلام تقوله أن تنطق بشيء لا يرتبط بالواقع ، فما الذي ضيّعَ الناس ؟ الباطل ، وقد تعتقد اعتقاداً وبعد سنين طويلة ينكشف للعالم كله أنه اعتقاد باطل ، وأن هذا المبدأ غير صحيح ، وأن هذا المبدأ ما حقق نفعاً للإنسان ، بل زاده شقاءً .

فإذا كنت مع الحق فأنت في سعادة كبيرة ، لماذا ؟ لأنك مع الثابت ومع الموجود ، وهذا ملخص الفكرة ، أو هذه هي الخطوط العريضة لها .

والشيء الموجود إما أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود ، فالخالق لابد أن يكون موجوداً ، ولا يُمكن إلا أن يكون موجوداً ، والعقل لا يقبل هذه الدِّقّة البالغة في الخلق دون إلهٍ خالق ، ودون إلهٍ مبدع ، ودون إلهٍ خبير ، أو إلهٍ حكيم ، أو إلهٍ عليم أو إلهٍ قدير ، فالموجود واجب الوجود ، أما المُمكن فهو ما كان مُمكن الوجود ، فنحن مثلاً مُمكن أن نكون أو لا نكون ، ولا يكون وجودنا حقاً إلا إذا شاء الله أن نكون ، ولذلك ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

وعدُ الشيطان باطل ، وأحياناً الشيطان يخوفك ، وتخويفه باطل وأحياناً يَعِدُكَ بالفقر ، ووعده باطل ، والقضية ليست قضية فكرة تتعلمها بل القضية قضيةٌ مصيرية ، فإن كان لك ـ مثلاً ـ مبلغ في حلب كبير جداً ، ولن تقبضه إلا من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الواحدة من يوم السبت ، وهذا المبلغ إذا قبضته يحل كل مشكلاتك ، فإن توجهت إلى المحطة ، وركبت قطاراً يوصلك إلى حلب ، وصلت إلى غايتك ، لكنك قد تخطىء وأنت راكب في هذا القطار عشرات الأخطاء ولكن ما دام هذا القطار في طريقه إلى حلب وسوف تصل إلى هذه المدينة قبل الساعة الثانية عشرة ، فأنت في الحق ، أما إذا ركبت قطاراً متجهاً إلى درعا في مسار معاكس لمدينة حلب فهذا القطار باطل لأنه لن يوصلك إلى هدفك ، إنه قطار ولكن يتجه بك إلى عكس

هدفك ، وأنا أحاول أن أبدد كل حيرة من أجل توضيح هذا الأمر لأنه دقيق وعميق جداً ، وقد يحتاج الإنسان لتوضيح الحقائق إلى ضرب الأمثلة .

الله هو الحق ، وهذا الكون لأنَّ الله خلقه هو حق ، وكذلك لأنه موجود فهو حق ، ولكن هذا الشيء ممكن الوجود ، فيمكن أن يكون ويمكن ألا يكون ، لكن أن تعتقد بوجود الله سبحانه وتعالى فاعتقادُكَ حق ، وأن تُقِرَّ بوجودِهِ فإقرارُكَ حق ، وإذا اعتقدتَ بأنَّ زيداً من الناس بإمكانه أن ينفعك فاعتقادُكَ باطل ، أو بإمكانه أن يضركَ فاعتقادُكَ باطل ، وإذا قلت هذا فقولك باطل ، فصار الموجود هو الحق ، والاعتقاد بالوجود هو الاعتقاد الحق والإقرار بالوجود هو الإقرار الحق ، وهذه الفكرة النيّرة تقودنا إلى فكرةٍ أخرى ، بأنَّ الحق في الكون لا يتعدد ، بل إن الحق واحد ، لقولِهِ تعالى :

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

[يونس : ٣٢] .

فإن اعتقد أحدٌ خِلَافَ ما في هذا القرآن فهو بالدليل القطعي ضال ، وعليه أن يقيل عثرة نفسه .

وإذا اعتقد أن الأجل بحسب العناية بالصحة ، والعناية بالصحة واجب ، فإذا اعتقد أن الأجل متعلّق بذلك فهذا اعتقادٌ باطل ، لأن الإنسان لا يموت إلا إذا انتهى أجله .

أخٌ كريم من إخواننا الكرام حدثني قصة ، فقال : أنا وُلِدتُ في بيتٍ ، ولي عمّان ، فوالدي له غرفة ، وعمي له غرفة ، وعمي الآخر له غرفة ، وفي الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء ولدت في غرفتنا ،

والغرفة الملاصقة لها هي غرفة عمي ، وفيها زوجته ، وقد أصيبت بمرض عضال خطير ، واستُدعي أربعة أطباء لمعالجتها ، ومن غرائب المصادفات أن الأطباء الأربعة اتفقوا على أنها لن تعيش أكثر من ساعة ، فأنا ولدت ، وكبرت ، وترعرعت ، ودخلت المدرسة ، وتخرجت فيها ، وعملت مع والدي ، وتوفي والدي ، وتزوجت ، وانتقلت من بيت إلى بيت إلى بيت ، واشتريت آخر بيت وهو الذي أسكنه وأقيم فيه ، وأصبح عمري خمسة وأربعين عاماً وجاءت زوجة عمي لتزورني قبل أيام ، فرغم قول الأربعة أطباء أنها ستموت بعد ساعة ، فلقد عاشت بعد ذلك خمسة وأربعين عاماً .

إن الطبيب لـه علـم يـدل بـه إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حـار الطبيـب وخـانتـه العقـاقيـر

عزيزي القارىء ؛ هل تعرف من البطل ؟ البطل هو الذي يأتي اعتقادُهُ مطابقاً للواقع ، ويأتي حديثه مطابقاً للواقع ، وتأتي حركاته مطابقة لمنهج الله عز وجل ، ولنا مثل في آلة غالية الثمن ، معقدة التركيب ، عظيمة النفع ، وأنت حريص حِرصاً لا حدود له على أن تستعملها وَفْقَ تعليمات الشركة ، فكيف بك وأنت المخلوق الأول ؟ .

إذاً : كلمة (حق) ذات شأن وخطر ، وإني لأتمنى على كل أخ أن يراجع نفسه وحقيقة أفكاره عن الدين ليتبين هل هي صحيحة ؟ وهل معتقداته صحيحة ؟ وهل تصوراته عن الله صحيحة ؟ وهل مُعتقده بالنبي عليه الصلاة والسلام صحيح ؟ وهل آراؤه في القضايا المعاصِرة صحيحة ؟ وما قيمة رأيك أنت ؟

ذكرت ذات مرةً أنه قد جرت حرب أهلية في بلد مجاور دامت

أربعة عشر عاماً ، وانتهت ـ والحمد لله ـ هذه الحرب الأهلية ، ويُمكن وقد مضى عليها زمن ، أن تُفسر تفسيراً عربياً فنقول : هذا البلد أصبح ساحة صِراع للقِوى العربية ، ويمكن أن تُفسر هذه الأحداث الدامية تفسيراً طائفياً ، كما يمكن أن تُفسر تفسيراً دولياً ، إنه مركز مالي قوي جداً نافَسَ مراكِزَ أُخرى ، ويمكن أن تُفسر تفسيراً قرآنياً ، دينياً ، إلهياً ، قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

هذا التفسير الديني ، تفسير خالق الكون لما حدث ، فأي هذه التفاسير هو الحق ؟ إنه التفسير الديني .

إذاً : إذا توجهت إلى تفسيرات أخرى فتكون في باطل ، لقد حصل زلزال ، فهُدمت مدينة بأكملها ، هناك تفسير سادّج إذ يقال : إنه تصدع بالقشرة الأرضية أو التواءات داخلية ، فهذا تفسير علمي ، ولكن هذا التفسير لا يتناقض مع التفسير الديني ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

فلن تكون بطلاً إلا إذا استطعت أن تتعرّف إلى الحق ، وأن يكون اعتقادك حقاً ، وأن يكون كلامُك حقاً ، وأن تكون حركتُكَ حقاً .

وإذا كنت تعاني من مشكلات ، وأن تفسِّر هذه المعاناة بقلة الحظ ، فهذا تفسير باطل ، وهناك تفسير آخر أن تقول لي حُسّاد كثيرون رموني بحسدهم ، وهذا تفسير باطل أيضاً ، لأنَه لا يستطيع أحد أن يَضُرَّ أحداً ، إلا إذا كان مستحقاً أو غافلاً ، ولكن إذا قلت

ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يعفو الله عنه أكثر ، فهذا التفسير حق ، وأنت في اليوم الواحد أمام آلاف المقولات الباطلة ، فالبطولة أن تتعرف إلى الحق وأن تعتقد الحق ، وأن تَنطِق بالحق ، ولن تكون على حق إلاّ إذا عرفته ، ولن تعتقد به ، ولن تَنطِق به إلا إذا عرفته ، لذلك **أصل الدين معرفة الله** .

ومثلاً عن أصحاب الصنعات ، فلو أفترضنا أن إنساناً تصرّفَ في صنعته تصرُّفاً خاطئاً ، فنقول : إن هذه الطريقة باطلة ، ولو أشاد إنسان بناء على الشاقول ، فسوف نقول : هذا البناء حق لأنه سيستمر ، ولو أشاد بناء بلا شاقول فنقول : هذا البناء باطل ، لماذا ؟ لأنه سيسقط وينهار . فما هو الحق إذاً ؟ هو الشيء الموجود ، ولكن يجب أن نضيف إلى ذلك شيئاً فعندما قال ربنا :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥] .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم : ٨] .

وآية : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] .

الباطل : هو الشيء الزائل ، والحق : هو الشيء الموجود الثابت ، ومن معاني الحق الشيء الموجود الثابت ، والآن سنضيف شيئاً ، الموجود حق ، أمّا الدرجة الأعلى ، فدائم الوجود ، وهناك أعلى من ذلك ، ولا موجود آخر معه ، إنه واحد في وجوده ، ثم

انتهينا إلى درجة أعلى : كامل في وجوده . فهو دائم وواحد وكامل ، هذه حقائق ثابتة عن الله عز وجل .

الله موجود ، بل هو أبدي الوجود ، لا شيء بعده ، وهو واحد في وجوده ، وكامل في وجوده ، فإذا عرفته بهذه الصفات فقد عرفت كل شيء ، وإن فاتتك هذه المعرفة فاتك كل شيء ، ووالله ما حصَّلتَ شيئاً ، ولو ملكت أموال الدنيا ، أو ارتقيت إلى أعلى مكانة في الحياة ، ولو حصلت كل الشهوات وما عَرَفتَ الحق ، فلست بشيء ، لأنَّ وجودكَ ليس ذاتياً ، فلو كان وجودُكَ ذاتياً فليس هناك مانع ، لكن وجودك مرتبط بالله سبحانه وتعالى ، فإذا شاء الله أن يُلغي وجودك فعندئذٍ ينتهي أمرك كله .

لقد كنا مدعوين إلى حَفْلٍ في دمشق ، والذي دعاني وقدم لي بطاقة الدعوة أحد إخواننا الأكارم ، فتوجهت إلى مكان الحفل ، وفي مدخله رجال عديدون يقفون لاستقبال المدعوين ، صافحتهم واحداً واحداً ، وسألت الذي دعاني في الطريق : من الذي أشرف على هذا الحفل ؟ قال لي : عمي فلان والد زوجتي ، قلت له : أين عمك ؟ قال : هو في الداخل ، فلما دخلت ، رأيت رجلاً مُكتمل الرجولة ، يرتدي الثياب الأنيقة مورد الوجه نشيطاً ، ولم أكن أعرفه من قبل ، فرحّبَ بي ترحيباً حاراً ، وأفاض ، فدخلت إلى مكاني في الحفل ، وكان أحد الإخوة الأكارم يلقي كلمة ، وفي أثناء إلقاء كلمته ، تحرك اثنان من المدعوين ، فما فهمت لِمَ تحركا ، ثم ألقيت كلمتي التي استغرقت عشرين دقيقة ، وبعد أن أنهيت كلمتي ، جاء رجل وهمس في أذني أن هذا الذي استقبلك في صحن المسجد قد توفي ، وما استمع إلى كلمتك .

لا تعجب فأنت ممكن الوجود ، والدليل أن الله أنهى وجوده بثانية ، فقد كان ينتظر أن ألقي كلمة ، فما استمع إليها ، وبعد أن دخلت وقع ومات ، ونحن والله لم نُصدّق ، أُنهِيَ الحفل ، وذهبنا إلى المستشفى ، ودخلنا إلى غرفة العناية المشددة فإذا هو مسجى ، قد فاضت روحه إلى بارئها ، فأنت لست واجب الوجود بل ممكن الوجود ، وأنت لست حقاً ، فالله هو الحق ولو كنت حقاً لسرى عليك قوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٦ـ٨٧] .

نعم . إنني مدين ، وكلنا مدينون .

وإذا هطلت الأمطار عمت الفرحة وشملت العباد والبلاد ، لكن لو أن السماء انحبست ،فما مصيرنا ، وما وجودنا ؟ إذ ستجف الآبار والأنهار ، والنباتات تصير إلى الذبول واليبس ، والسؤال الذي يطرح نفسه ، هل وجودنا ذاتي ؟ لا ، نحن وجودنا متعلّق بمشيئة الله وفي المطر ، وفي كل شاردة وواردة ، وفي كل صغيرة وكبيرة .

وكم يكون هذا الإنسان غبياً إذا ظنَّ أنه موجود ، وأنه يعمل ، وأنه يكسب المال ، فهذا هو الباطل ، وهو اعتقاد باطل ، فأنت كُلما تعرفت إلى الله صَغُرَت نفسك في عينك ، وكَبُرَ في عينك الله سبحانه وتعالى ، فمن هو المؤمن إذاً ؟ الذي لا يرى إلا الله .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

قد تسأل : لماذا يتكلم فلان بما ليس مقتنعاً به ؟ . . لأنه لم ير أنَّ الله هو كل شيء ، فلعله رأى الله عظيماً ، كما رأى فلاناً عظيماً ، فهو يرى أن زيداً وعُبيداً وفلاناً بإمكانهم أن يفعلوا ، ويرفعوا ويخفضوا ، وينفعوا ويضروا ، وكلما نقص توحيدك ازداد شِركُك ، فاعتقادك غير صحيح .

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

فالقضية أخطر بكثير من أننا استمعنا إلى محاضرة فذة معانيها مقنعة ، مؤثرة ، هادفة ثم تفرقنا إلى بيوتنا ، فالأمر يتعلق بحياة أبدية ، فهل أنت على حق وهل اعتقادُك حق ، وهل تصوراتك حق ، أو أفعالُك حق ، ومواقِفُك حق ، وهل أعطيت بالحق أم بالباطل ؟ وهل منعت بالحق ؟ وغضبت بالحق ؟ ورضيت بالحق ؟ .

هناك غضب بالحق ، ورضا بالحق ، وإعطاء بالحق ، وصِلة به أو قطيعة ، وحينما تعرف الحق وأنه أبدي الوجود ، وأنه واحد في وجوده ، وكامل في وجوده ، ولا موجود سِواه ، وإليه المصير ، فعندئذٍ تقطع كل العلائق مع أي كان ، وتتجه إلى الخالق ، فالقضية أخطر بكثير من أن الإنسان حضر مجلس علم ، وأخطر بكثير من أنه صلى ركعتين ودفع ليرتين ، لأن الأمر أمر مصير أبديّ ، والقضية قضية حق أو باطل ، قال تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس : ٣٢] .

وشيء آخر : ثم اعلم أيها ـ القارىء ـ العزيز أنك لو اعتقدت اعتقاداً ليس قطعياً ، إذ سألك سائل : هل أنت مؤمن بالجنة ؟ فقلت : والله أغلب الظن أن هناك جنة ، فهل علمت أن هذا اعتقاد باطل ، ولن يغنيك شيئاً وهل أنت مؤمن أنَّ الله عز وجل سيسألك عن كل صغيرة وكبيرة ؟ فقلت : لن يُدقق ، ولن يحاسبنا إلا على قدر عقولنا . فهذا اعتقاد باطل أيضاً ، وهل أنت مؤمن بقوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر : ١٩] .

فالله سبحانه يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، أي : يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفمن حقت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ؟!

وقد تقول كما يقول بعضهم : لقد حكى لنا فلان حفظه الله ؛ أن رسول الله ﷺ لن يدخل الجنة حتى يُدخل كلَّ عصاة أمته ، فنحن إذاً ـ والحمد لله ـ مصيرنا معروف ، فهذا اعتقاد باطل ، وإن هي إلا أماني ، وإن هم إلا يظنون ، ولا بد من مراجعة حساباتك ، إذ الإنسان أحياناً ومن خلال دروس في المساجد متقطعة ، ومن خلال خُطب غير دقيقة ، ومن خلال أقوال في جلسات غير صحيحة ، يتسرّب الباطل إلى ذهنه وعند ذلك سوف يتصرف بالباطل ، فمثلاً لِمَ تغش يا فلان ؟ فيقول : أنا عندي أولاد والنفقات باهظة فماذا أفعل ؟ فهذا كلام باطل ، إذ غاب عن ذهنه أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وإن لكل حسنةٍ ثواباً ، ولكل سيئةٍ عِقاباً ، فأولى بك وأجدر أن تُنقّح عقيدتك من كل غلط اتهم به الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فتبادر إلى القول : هذا نبي وقدم همَّ بالزنا ، وإن هذا اعتقاد باطل ، وهذا التفسير للآية باطل ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، ولقد همت به ثم تقف ، ثم تقرأ : وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، فهذا من التفسير الحق ، عن الأنبياء .

الله عز وجل يلقي نوراً في قلب المؤمن يُريهِ الحق حقاً والباطل باطلاً .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] .

فيجب أن تفهم القرآن فهم حق وليس فهم باطل ، وأن تفهم كلام النبي فهم حق :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » . [صحيح مسلم] .

ماذا يعني بهذا الحديث ؟ هل نسارع إلى اقتراف الذنوب ؟ ليس هذا هو المعنى. . . المعنى إذا بلغتم درجة لم تشعروا بذنوبكم فأنتم موتى ، لَذَهَبَ الله بكم ، فمن أمضى سهرة بالغيبة ونام مرتاحاً ، فالنبي الكريم روي عنه :

« الغيبة أشد من الزنا » . [رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي مرفوعاً وهو ضعيف] .

فإذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يشعر بشيء فهو ميّت ، أما المؤمن فيملأ ليله ونهاره بالعمل الصالح .

فيجب عليك أن تكون عقيدتك صحيحة ، عن الله عز وجل ، والله قال :

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وهناك خلق كثير أكثر أفكارهم عن الله ورسوله مغلوطة ، وأكثر تصوراتهم ومعتقداتهم وفهومهم خاطئة ، فمثلاً يقولون : إن رسول الله كان ماشياً في الطريق فطرق باب زيد ، ففُتِحَ الباب ، وبدت زوجته زينب من دون ثياب وقد وصل شعرها إلى أسفل ظهرها فأُعجب بها النبي صلى الله عليه وسلم وقال : سبحان الله ، سبحان مُقلّب القلوب !. . من قال لك : إن هذه القصة صحيحة ؟ من قال هذا ؟ فهل نبي عظيم يفعل هذا ؟ فأنت إن كنت مؤمناً فلن تفعله ، لذلك فهذه الخرافة باطلة ، مدسوسة دساً على الإسلام ونبيه .

أما عن النبي داود فيقولون : عنده تِسعٌ وتسعونَ امرأة ، وأحب زوجة أحد قوّاده ، فقال : قدموه في الحرب لعله يموت ونأخذ زوجته ، فعاتبه الله عز وجل وقال : يا داود أعرض عن الهوى ، هذا تفسير غير صحيح ، والصواب أن سيدنا داود انشغل بعبادته عن حل مشكلات الخلق ، فأرسل الله له ملكين تسورا المحراب ، وافتعلا خصومة وسمع من الأول ولم يسمع من الثاني ، وقال للأول متسرعاً : قد ظلمك ، ليعود إلى مصلاه ، فالهوى الذي نهي عنه هوى رفيع ، هواه في الإقبال على الله عز وجل فيجب أن تُفسّر التفسير الذي يليق بالأنبياء ، ويليق بهذا الدين العظيم ، ونحن نريد أن نعتقد اعتقاداً صحيحاً ، ونقول قولاً صحيحاً ، وأن نُطبّق تطبيقاً صحيحاً لنكون على الحق .

وأعود فأقول : الحق ؛ هو القول المُطابق للواقع ، بدليل أنك إذاً لا تقبل كلاماً غير صحيح ، لا يُطابق الواقع ، إذ هناك دجالون كثيرون ، يزخرفون القول فيدعون مثلاً أن هذه علاقتها مع زوجها سيئة ، فيقولون لها : إنك تحتاجين إلى خروف أسود وأبيض ، تذبحينه لكي يحبك ، فهذا كلام باطل ، كله دجل وكذب ، وليعلم كل مسلم أن بين أظهرنا كتاب الله القرآن الكريم ، فلنأخذ بما فيه ، إذ به انتصر الصحابة وفتحوا الأمصار ، ونشروا الإسلام ، والبعض يدعون إلى الله عز وجل عن طريق ضرب الشيش مثلاً ، فماذا أفاد المسلمين ؟ ما أفادوهم بل أضلّوهم ، ولو أن مريضاً يشكو آلاماً مبرِّحة في المعدة ، وزار طبيباً ، فقال له انتظر ، ونصب حبلاً في العيادة ، وصعد يمشي عليه فرأى المريض أعمالاً خارقة ، وهو مريض ويحتاج إلى دواء وعلاج ، فماذا يستفيد إذا سار الطبيب على حبل وكان بهلواناً ؟!

سردت هذه الأمثلة وأطلت لأننا بحاجة إلى علاج ، وإلى راحة نفسية وإلى توازن ، وإلى سعادة وإلى حقيقة ثابتة لا تكشف الأيام أنها زائفة ، ويمكن أن يعتقد المرء اعتقاداً ما إلى أمدٍ طويل وفي النهاية يظهر أن هذا الاعتقاد باطل ، ولا أساس له من الصحة ، وما سبَّبَ إلا دمار المسلمين ، إذاً كلمة الحق ، الله هو الحق .

لابد أن يعرف المسلم أن اعتقادكَ إذا كان مُطابقاً للواقع فهذا الاعتقاد حق ، وأنَّ قولَكَ إذا كان مُطابقاً للواقع فهذا حق .

وما قولك إذا ركب أحدهم سيارة ، فقيل له : لمَ هذا الضوء ، وما فائدته ؟ وهو ضوء صدر عن ساعة الزيت ، فأجاب : إنه يتألّق

ليُسليك في الطريق ، وليس له غاية أخرى ، فهذا التفسير صحيح أم غلط ؟ وهل التصديق صحيح أم غلط ؟ وهل الكلام صحيح أم غلط ؟ كله غلط ، لأنَّ هذا لو تألّق وبقيت ماشياً لاحترق المحرك ، فيكلفك خمسين ألفاً ، أما لو تألّق ووقفت مباشرةً فيُكلِفُكَ مئة ليرة فقط .

يجب أن تكون معلوماتك ، وتصوراتك ، واعتقادك ، ومواقفك ، وعطاؤك ومنعك ، وصلتك وقطيعتك ، وغضبك وسرورك ، كله بالحق ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، فيمكن أن تمزح ولكن مزح حق ، لا خدشاً لمشاعر إنسان ، ولا تحقيراً لأحدٍ ، ولا تحقيراً لحِرفة أو مهنة ، ويمكن أن تروي طُرفة ممتعة وأنت صادق وبحق ، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يمزح ، ولا يقول إلا حقاً .

كلمة « حق » أتمنى أن تكون واضحة ، وفي القرآن وردت مئات المرات ، والله هو الحق ، أما معنى إحقاق الحق ، وأنَّ كل ما سِوى الله لا وجود له إلا بالله ، وفي أية لحظة إذا أراد الله لشيء أن يزول فإنه يزول ، كن فيكون زُل فيزول ، إذاً ما سِوى الله مُمكن الوجود وإذا وُجِدَ فبالله ، وإذا استمر فبالله ، وإذا انتهى فبالله ، وهناك دعاء للنبي عليه الصلاة والسلام : « **أنا بك وإليك** » [رواه مسلم] .

معنى أنا بك : يعني قائم بك ، والله سبحانه ماذا قال ؟ قال : قل اللهم مالك الملك ، مالك الملك ، وكل شيء يُمَلَّك فالله مالكه فعينك ملكه ، وأنت ترى بها ما دام قد سمح لك أن ترى بها ، وفي أية لحظة لو شاء أن تفقدها لفقدتها بلا سبب فالله حق .

والسمع يُمَلَّك ، والأصل أن الله مالكه ، واللسان يملك ، حدثني

أخ قال لي : بمشفى الأمراض العقلية ، هناك مهجع خطير جداً ، هذا المهجع نزلاؤه عراة كما خلقهم الله عز وجل ، يمزقون كل ثيابهم ، ويأكلون من نجاساتهم ودمائهم وشعورهم ، أي شيء يوضع في هذا المهجع يُتلف ، أقوياء البنية ، لكن عقولهم معطّلة ، فأنت لك مركز ، ولك عمل ، وتُتقن حرفة ، وأنت قائم بالله ، فلو أخذ ما أوهب انتهيت ، وبيتك أنت عمرته ، ورتبته وزيّنته فلو صار في عقلك خلل ، فأهلك يطرقون أبواب المسؤولين حتى يسمحوا لهم أن يضعوك في مستشفى الأمراض العقلية ، ويتوسلون ويرجون ، في حين كنت أنت الأب وأنت مالك البيت ، وأنت الذي اشتريته ورتبته ، لكنك الآن سلبت ما تملك ، وفي أية لحظة قد يفقد الإنسان عقله ، أو يفقد بصره ، أو سمعه ، وأنت عندك كليتان تعملان بانتظام ، وإلى الآن لم يعرف الطب سبب هبوط وظائف الكليتين الفجائي ، فجأةً تقف الكليتان عن العمل ، فتصبح الحياة جحيماً لا تُطاق ، فتحتاج إلى غسيل كل أسبوع مرتين ، وكل مرة سبع ساعات ، مرة بهذه اليد ومرة بالأخرى ، ومرة بالقدم ، ويبقى بالمئة عشرون من حمض البول (الأوريه) بالدم ، تُسبب لك مواقف عصبيّة صعبة ونرفزة وضيق نفس ، أين آمالك ، هل تملك كليتيك ؟ لا والله ، وهل تملك دسام القلب ؟ لا والله ، وهل تملك الشرايين التاجية وأنْ تبقيَها واسعة ؟ وعندما تضيق تمشي مترين فتقع ولا تستطيع أن تُكمِل سيرك .

قال لي أخ : كنت أصعد إلى الطابق الرابع بسهولة فصرت إلى الثالث أتعب ، ثم إلى الثاني ، ثم إلى الأول ، ثم بعد درجتين أتعب ، أجريت له عملية بكلفة مليون وما نجحت ، فهل أنت تملك شرايين قلبك ؟ لستَ بمالِكِها ، وهل تملِك البنكرياس لتعطيك

الأنسولين بشكل منتظم ؟ إنك لا تملكه ، وإذا قصّرَ بواجبه هرولت مستغيثاً : أدركوني . أدركوني .

فأنت حياتك مرهونة بسلامة الطحال بحيث لا يزيد نشاطه ، والأنسولين ألاّ ينقص ، والدسام ألا يخطىء والشريان ألا يضيق ، والكلية ألا تقف ، والأعصاب والعضلات ، واعلم أن نقطة دم في الدماغ تسبب الشلل ، وأنتَ لا تملِكُ شيئاً :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

وأما عن وجودك أيها الإنسان وسعادتك ، فأحياناً يعطيك الله الدنيا مع الانقباض ، فكل المال ليس له قيمة ، ولو أعطاك المال وسَلَبَ مِنكَ الطمأنينة فحياتك في قلق ، ولو أعطاك المال وسَلَبَ منك الصحة ، أو الاستقرار والشعور بالأمن ، فحياتك لا قيمة لها ، قال تعالى :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١ـ٨٢] .

أهم ما في حياتك أن تعرف الحقيقة ! ابتدأتُ الحديث معك أن لو كان لديك آلة وأنت مضطر إلى تشغيلها ، وهي تحتاج إلى طاقة كهربائية ، فتوجهت إلى مأخذ لا طاقة فيه ، فهذا المأخذ باطل ، ثم توجهت إلى آخر فكان المأخذ الآخر صالحاً ، إذاً هو حق ، فالحق الشيء الموجود ، بل هو ودائم الوجود ، وواحد في وجوده ، وكامل في وجوده ، فهو دائم واحد كامل ، واعتقادك هذا حق ، واعترافك هذا حق .

لذلك أعود فأقول : إن (الحق) ؛ كل قول وافق الواقع بدليل ، أما بلا دليل فهو تقليد فإذا قال أحدهم : أشهد أن لا إله إلا الله ، فحقيقة الكلام حق ، وما الدليل ؟ إنه لا يعرف ، فهذا كلام بلا دليل ، فالحق أن يأتي كلامك مطابقاً للواقع مع الدليل .

وبعد ، لو كان اعتقادكَ بالحق اعتقاداً غير قطعي ، فلا قيمة له ، قال تعالى :

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات : ١٥] .

فلو كان في اعتقادك ارتياب ، أو تردد ، أو عدم قطع ، أو كان اعتقادك بالشيء ثلاثين بالمئة فما دون فهذا اسمه وهم ، وإن كان اعتقادك خمسين أو حول خمسين بالمئة فهذا اسمه شك ، وإذا كان اعتقادك سبعين بالمئة فما فوق فهو ظن ، ولو كان اعتقادك تسعين بالمئة فهذا أطلقوا عليه « غلبة ظن » ، أمّا إذا كان مئة بالمئة ، فهذا هو الحق وإيمانك بالجنة والنار والحساب لابد أن يكون قطعياً ، وأن المُرابي سوف يَمحَقُ الله ماله وأن الزاني سوف يَفتقر ، وأن الذي يُطلق بصره لا بد أن يشقى في بيته ، وأنَّ الذي له مال حرام سوف يُتلفه الله ، وأن هناك وقفة بين يدي الله عز وجل ، فإذا اعتقدت بهذه الأمور اعتقاداً قطعياً جازماً مئة في المئة ، فأنت على حق ، فالحق لا يقبل الظن ، ولا غلبة الظن ولا الشك ولا الوهم ، قال المعري :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لن تبعث الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

هذه عقيدة باطلة ، وقولهم إذا كان هناك آخرة نجونا ، وإن لم توجد فما خسرنا شيئاً ، فهذا ليس ديناً ، بل هو شك ؛ وعدم تصديق بكلام الله .

الحق لا يتحمل وهماً ولا شكاً ولا ظناً ولا غلبة ظن ، ولا يناسبه إلا القطع .

أكرر : الحق هو كل قول مقطوع به ، موافق للواقع ، وأي قول خالف الواقع فهو باطل فيمكن أن تنفي عن الدين آلاف الأفكار ، وآلاف المعتقدات الزائفة ، وآلاف القصص الباطلة ، وكل شيء خالف الواقع كذلك . .

عزل سيدنا عمر سيدنا خالداً ، هذا الذي خاض مئة معركة أو زهاءها وفي كل هذه المعارك كان منتصراً ، ففي كثير من كُتب التاريخ يَقول مؤلّفوها : كان بينهما حزازات في الجاهلية ، فلما صار خليفة شفى غليله وعزله ! أهكذا كان أصحاب رسول الله ؟! لو كانوا كذلك والله الذي لا إله إلا هو ما خرجوا من مكة ، ولم يفتحوا مصراً واحداً . . وأنت تسمع تفاسير كثيرة جداً حول عزل عمر لخالد ولقد عثرت أخيراً على تفسير حق ، جاء سيدنا خالد إلى سيدنا عمر ، فقال له ، يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني ؟ فقال : والله إني أحبك يا أبا سليمان ، فقال : لمَ عزلتني ؟ فقال : والله إني أحبك ، فقال : لمَ عزلتني ؟ قال : والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك ، لكثرة ما أبليت في سبيل الله .

« كاد الناس يظنون أنك أنت الذي تنصرهم ، خفت على العقيدة ، فأردت أن أريهم أنني لو عزلتك . . . يبقى النصر ما دمتم مؤمنين » ،

هذا التفسير للحادثة يليق بسيدنا عمر ، ويليق بسيدنا خالد ، وهذا تفسير حق .

وأحياناً تقرأ تفاسير للأحداث وتقرأ قصصاً غير صحيحة وغير معقولة ، فتهتز بها الصورة المتألقة للصحابة الكرام ، وهذا من عمل الشيطان وأهل الزيغ والباطل .

إذاً : الحق لا يقبل الشك ولا الوهم ولا الظن ولا غلبة الظن ، ولا يقبل إلا القطع .

ونسمع من يقولون في زماننا : إن هذا الكلام واقعي إلى حدٍّ ما! فقولهم : « إلى حدٍّ ما » ليس حقاً ، بل يحمل كل معاني الشك ، وواقعي بالمئة ثمانين فليس حقاً ، وواقعي بالمئة خمسين فليس حقاً ، وواقعي نوعاً ما ، فليس حقاً ، الحق واقعي مئة بالمئة ، دائماً وأبداً .

وهو ما كان مقطوعاً به ، وموافقاً للواقع ، وعليه دليل ، ولو ألغي الدليل لصار تقليداً ، ولو اعتقدت تقليداً فعقيدتك غير مقبولة .

وإذا قبلنا التقليد بالعقيدة ، كأن يقول لك إنسان : الله عز وجل ليس رحيماً وهذه الكوارث والمصائب والأمراض دليل على ذلك ، فتقول : صحيح وأنا سأقلدك الآن ، فإذا كان يوم القيامة ، فيقول لك الله عز وجل : لِمَ اعتقدت أنني غير رحيم ؟ تقول : يا رب أنا قلدت فلاناً هو قال كذلك فصدقته ، فيقال لك : أين عقلك ؟ لذلك لا يمكن أن تقبل من الإنسان العقيدة بالتقليد ، فلا تقبل بلا دليل ، ولا ترفض بلا دليل ، بل عود نفسك المنهج العلمي ، فإن حدثك أحد بقصة ، فقل : ما مصدرها ؟ وإذا كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مدعياً فالدليل ، ولا يبنى شيء على أغلب الظن . :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦] .

الحق يحتاج إلى دليل ، وإلى مطابقة للواقع ، وإلى قطع ، فإذا استطعتَ أن تعمل مراجعة لِكُلّ أفكارِك وكُل مُعتقداتِك وكُل تصوراتِك حتى تجعلها كلها مطابقة للواقع قطعيّة الثبوت وعليها دليل فأنت من الفائزين ، وإن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، كما روي عنه عليه الصلاة والسلام : « **يا ابن عمر! دينك دينك إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا** » .

فالله هو الحق ، وكلامه هو الحق ، والجنة حق ، ومعنى حق موجود ، والنار حق ، والحِساب حق ، والعذاب حق ، والصّراط حق ، والحوض حق ، وغضُّ البصر حق ، فما معنى حق ؟ أيْ لو طبقته عملياً لقطفت ثماره ، والأمانة حق ، فلو كنت أميناً لوثِقَ الناس بك ، فالأمانة غنىً ، وأي شيء تُطَبِّقُهُ ، تقطِف ثِمارَهُ ، فالوقت ثمين وغال والحياة لا تحتمل إلا التطبيق ، وإن كنت من رواد المساجد ، فإن لم تطبق ما تتعلم فلن تقطف شيئاً ، وتكون كل حركاتك عشوائية ، والتطبيق هو الجانب العملي ، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

وهذا الكلام مؤداه خطير ، فمؤداه أن تتعامل مع الدين تعاملاً جديّاً ، فتصل إلى الغاية والهدف .

ثم انظر ملياً فحينما تقول : إن في الدار الآخرة أبدية والحياة الدنيا زائلة ، فهل عملك يتوافق مع اعتقادك ؟ قد يكون الاعتقاد

حقاً ، ولكن التطبيق باطل ، وهل تقبل من طبيب أن يقول لك : إيّاك والدخان فإنه سرطان في الرئة ، وضيق في الشرايين ، وجُلطة ، وهو يُدخن أمامك ، فهذا كلامه باطل ، ولو كان يوقن بما يقول ما فعل هذا .

إذاً : كلمة « حق » مدلولاتها كبيرة جداً ، فالله هو الحق ، ومعنى هو الحق ؛ لابد أن يظهر الحق ، وإن كنت على حق فلا بُدَّ أن ينصرك ولو بعد حين ، أما إن كنت على باطل فلا بد أن يخذِلَك ولا بُدَّ أن يَفضَحك ، فكُنْ مع الحق أبداً ، وإلاّ فهناكَ خذلان وفضيحة ، ولكن المشكلة ، التي أتمنى من الله عز وجل أن تكون واضحة عِندَ كل مسلم ، هي أن الله عز وجل يُرخي الحبل ، ومعنى يرخي الحبل ، أي يمهلك إلى أمد بعيد أن تفعل ما تشاء وأنت سالم ، وتتصرف باختيارك ، ولو عاجلك بالعقوبة عند كل خطيئة لاستقمت ولكن استقامتك ليست عن حبٍّ لله عندئذ ، ولا عن طاعةٍ له ، بل تستقيم خوفاً منه ، وعندئذ أنت لست مخيّراً بل مسيّرٌ ، ومعنى مخيّر أي يمكنك أن تأكل مالاً حراماً وتستمتع به سنوات طويلة ، وبعدئذ تلق العقوبة المروعة ، وتنوء بك ، وقس على ذلك الشيء الكثير من الحرام .

قال تعالى :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر : ٥-٧] .

كذلك إذا رأيت دخاناً وراء جدار فستحكُم مئة بالمئة أنه لا دُخان بِلا نار ، ثم ذهبت خلف الجدار ، فرأيت لسان اللهب ، فمشاهدة

الدخان عِلمُ اليقين ، وعندما وقعت عينك على ذات النار فهذا عين اليقين ، فإن قربت يدك منها فلسعتك بحرارتها فهذا حق اليقين ، الحق مئة بالمئة وهو يقين ، عِلمُ اليقين وعين اليقين وحقُّ اليقين .
﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .

إذاً لا بُدَّ أن نتعرف إلى الحق ، ولا بُدَّ أن نعتقد حقاً ، وأن نقول حقاً ، وأن نسلُكَ المنهج الصحيح لنكون على حق ، وحتى نستحق أن يرفعنا الله عز وجل ، وحينما يُحِقّ الله الحق يسمح لعباده الطائعين أن يرتفعوا ، وليس سوى الله عز وجل قال :

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] .

إذاً المُلَخَّص الذي ينطق بالحق هو : يا رب! ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك ؟! وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك .

وهناك في الكون حقيقة واحدة وهي الله ، كل شيء يُقرِّبُكَ منها فهو حق ، وكل شيء يُبعِدُكَ عنها فهو باطل ، فعليك أن تعرف الله ، وأن تعرف منهجه ، وأن تُطبّقه ، وهذا هو الحق ، وما سِوى ذلك كله باطل ، والمؤمن يرى بأم عينه ، أن الباطل قد يصمد سبعين عاماً ، وبعدئذ يتهاوى كبيت العنكبوت ، لأنه باطل فالفكرة باطلة ، والمبدأ باطل ، والتطبيق باطل ، وإذا رأيت بأم عينك جداراً بُني بِلا شاقول ، فالمهندس لابُدَّ قائلٌ : إن الجدار سينهار لا محالة ، لأن بناءه باطل :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

إن الباطل من صفاته الثابتة أنه زَهَوق ، وإن كان الاعتقاد باطلاً فهو زَهَوق ، وإن كان السلوك باطلاً فهو زَهَوق .

* * *

الوَدُود

الاسم هو الودود ، لقول الله عز وجل في سورة البروج :

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج : ١٤] .

الله سبحانه وتعالى ودود. .

الودود على وزن فعول ، من صيغ مبالغة اسم الفاعل ، واسم الفاعل وادّ والمصدر هو الودُّ ، إذاً اسم الودود أصله من الودِّ ، فماذا تعني كلمة ود ؟

في المعاجم ؛ الود هو الحب ، ولماذا سُميَ الحب حباً ؟ قال : الحب مأخوذ من حَبَب الأسنان ، وحبب الأسنان صفاؤها وبياضها ونقاؤها ، وأسنان بيض ناصعة نظيفة نقية صافية ، فالذي يُحب الله عزَّ وجل من خصائصه الصفاء والنقاء والطُّهر والإخلاص .

والحُب مِن أحبَّ البعيرُ ؛ أي استناخ ، فالمُحب خاضع لمحبوبه ؛ فنأخذ من حبب الأسنان الصفاء والنقاء ، ونأخذ من أَحَبَّ البعيرُ أي أناخ أي خضع ، فإنَّ المُحب لمن يحب مطيع ، والمُحَب : مستعل ، والمُحِب خاضع ، والمحِب متواضع ، والمُحب مُتذلل ، والحُبُّ هو القرطُ ، والقرط ما تضعه النساء من الحلي في آذانهن ،

ومن شأن القرط أنه دائم التقلقل ، فالمُحِب يتقلّب في اليوم الواحد من عشرين إلى أربعين حالاً ، أما هذا الذي يلزم حالاً واحدة فهو منافق ؛ فالمحِب يتقلب من الخوف إلى الرجاء ، إلى السكينة إلى القلق إلى السرور إلى السعادة إلى الشعور بالخطر إلى القلق على محبوبه وما دام هناك حياة فله حركة ، أما الميّت فهو ساكن ، والذي مات قلبه تسكُن أحواله ، إذاً من معانيه : والمُنافق يمضي عليه أربعون عاماً ولا يتغير ، حالُه حال السكون ، لكنَّ الحياة فيها غليان ، وفيها تقلّب وفيها تغيّر من حال إلى حال . فالحُبُّ ؛ إذاً من معانيه : القرط ، ومن شأن القرط التقلقل والتحرك .

والحَبّ ؛ من الحبة التي تنبت شجرة ، فالحَب له ثمار يانعة مثلُ كلمة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين .

وهذا يعني أنك إذا أحببت الله ، فحُبُّكَ لله عز وجل بذرة ، تنبت شجرة وارفة الظِلال يانعة الثمار باسقة الأغصان ، خيرها دائم وظِلُّها ، كل هذه المعاني ، الصفاء والنقاء والخضوع والتذلل والتقلقل ، والنماء والخير العميم ، أي : كل هذه المعاني مستفادة من الحب ، لكن السؤال الدقيق هل الودّ هو الحب ؟ إذا قلنا : نعم يأتي سؤال وما الفرق بينهما ، وهل في اللغة اسمان مختلفان لمُسمىً واحد ؟ أم أنَّ الاختلاف في المبنى دليل اختلاف المعنى ؟ لا شك أن هناكَ فرقاً دقيقاً بين الحُب والود ، الحب ما استقر في القلب ، والود ما ظهر على السلوك ، فإن كنت تُحب فلاناً فمشاعر الميل نحوه هي الحب ، وابتسامتك في وجهه هي الود ، وإذا قدمت له هديةً فهي ود ، أو أعنته في مشكلة فهي ود ، أو عُدته إذا مرض فهي ود ، أو أعطيته هديةً في زواجه فهي ود ، أو نصحته فذلك ود ، فالمشاعر

الداخلية هي الحب ، والظواهر المادية هي الود فكل ودود محب ، وليسَ كلُّ مُحب ودوداً .

ويمكن لإنسان أن ينطوي على محبة ، ولا تظهر في سلوكه ، وكل ودود مودته أساسها مشاعر الحب في قلبه ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ .

كل هذا الكون تودُّدَ من الله إلى الإنسان ، فالكون والمجرات والسموات والأرض ،و الشمس والقمر ، والأمطار ، ومليون نوع من السمك ، ود ، وتسعمئة ألف نوع من الطيور ، ود ، والآلاف المؤلفة من أنواع الأزهار بِشتّى الأشكال والروائح ود ، وأنواع الفواكه ود ، وهذا الطفل الصغير الذي يملأ البيت حيوية ود ، وهذه الزوجة التي خلقت تكريماً للرجل ، وهذا الزوج الذي خُلق تكريماً للمرأة ود ، وهذا الصوف الذي خلقه الله لنا ليقينا برد الشتاء ود ، وأيُّ شيٍء سُخرَ لهذا الإنسان هو في الأصل ود ، والخلق ، والكون كله قد سخره الله لهذا الإنسان تسخير تعريف وتكريم ، فالوَدود هو الذي ينقل حبه إلى سلوك .

وهنا تطالعنا حقيقة ملموسة وهي أن الإنسان إذا أحب يميل ، فإذا ابتعد المحبوب أَلَمَّ بالمحبِّ ألم ، وهذا ألمُ الفِراق ، وما من إنسان يودّع محبوباً في المطار إلا ويبكي ، وما من أُم يفارقها ابنها إلا وتبكي ، فهل يصح هذا المعنى بالنسبة إلى الله عز وجل ؟!

إن علماء التوحيد قالوا : « لا ، فالميل الذي من شأنه الضعف والتحسر والألم ، هذا لا يصدق على الله عز وجل ، ولكن الإنسان إذا

أحب أحسن ، وإذا أحب خضع ، وإذا أحب تذلل » ، فالإنسان هكذا يفعل ، ولكن الله إذا أحب أحسن ورحم وأكرم ، فحُب الله عز وجل للمؤمنين ثابت في القرآن الكريم والدليل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

محبة الله عز وجل للمؤمن تعني حِفظه ، وتأييده ، ونصره ، وإكرامه ، وإنزال الرحمة على قلبه ، وإنزال السكينة ، وإغناءَه بكل ما يحتاج ، هذا هو الحب الإلهي أما حُب الإنسان لله عز وجل فيعني الميل ، فإذا جفاك ربك وأبعدك عن أنواره شعرت بألم لا يطاق .

فما حبنا سهل ولكن من ادعى سهـولتـه قلنـا لـه قـد جهلتنـا
فأيسر ما في الحب للصبّ قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

والإنسان إذا أحب الله مالَ إليه ، وخَلَدَ إلى ظِلِّهِ وإلى أنوارهِ وإلى تجلّياتهِ وإلى سكينته ، وإلى الشعور بأن الله يحميه ويحفظه ، لكن حُب الله للإنسان يعني التأييد والنصر والحفظ ، وما شاكل ذلك ، أمّا الودّ فهو ما يتجسّد به الحب ، وهذه مقدمة أظنها ضرورية ومفيدة .

ونتجاوز المقدمة الآن إلى المعاني الدقيقة التفصيلية لمعنى الودود فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ .

الودود بوزن فَعول ، والفعول هنا بمعنى فاعل ، الوادّ : الذي يُكرم عباده ، والذي تُعَدُّ نِعَمُهُ مظهراً لحُبهِ لعباده ، فأنت مثلاً وعلى نحو بسيط إذا أحببت إنساناً ، ورأيت على ظهره نملة ، فإنك تنحّيها عنه ، وإذا أحببت إنساناً ورأيته يرتجف برداً فإنك تعطيه معطفك ،

وإذا أحببت إنساناً ، ورأيته بحاجة إلى شيءٍ ما فأنت تقدمه له ، فالود هو المظهر المادي للحب ، وربنا عز وجل هو الغفور الودود ، والوادّ .

كل هذا الكون مظهر لحبه ، وكل هذا الكون نوع من أنواع الود الإلهي ، إنه تودَّدَ إلينا بهذا الكون . ومن أجل ألاّ نبتعد عن هذا الموضوع كثيراً ، فهذه الدواب ألا تأكل طوال حياتها الشعير فقط ، فهو بالنسبة لها المقبلات وهو الحَلْوَيَات وهو الفواكه ، وليس لها غير الشعير والأعشاب ، أما الإنسان فيمكن أن يأكل إلى شهر كل يوم لوناً من الطعام ، ويمكن أن يتذوّق أنواعاً كثيرة من الفواكه ، ويمكن أن يستعمل الأزهار .

وإذا دخلنا إلى محل عطورات فشيء يأسِر ويدهش ، إذ منها ألوف الأنواع ، وكلها في الأصل من خلق الله عز وجل ، فهذا الياسمين وهذا البنفسج وهذا الورد ، وكل أنواع الروائح عطاءُ فيضٍ من خلق الله عز وجل .

خلَقَ هذه الروائح الطيبة ، وخلق هذه الحاسة الدقيقة التي تتذوق هذه الروائح الطيبة ، إذاً : خَلَقَ الشيء ، وخَلَقَ الجهاز المُستقبِل لَهُ ، وخَلَقَ هذه النِّعمة وخَلَقَ ما يستقبِلُهَا ، فهذا هو الود .

إذاً : هنا الودود يعني الوادّ ، والودود هو الذي يتودد إلى عباده بالنِّعم ، فإذا صحت الرؤية واستيقظَ القلب وتفتّحَت البصيرة ، رأيت أنَّ كل هذا الكون ما هو إلا تودد من الله إلى هذا الإنسان .

والآن أنت حينما تصلي وتصوم وتحج ، وحينما تغض من بصرك وتتصدق ، وتكون أميناً ، وتنصح المسلمين ، وتأمر بالمعروف وتنهى

عن المنكر ، وتنفق من مالك ، كل هذه الأفعال من اعتقادات إلى عبادات إلى معاملات إلى آداب ، هي في حقيقتها تودد إلى الله عز وجل ، هو تودد إلينا بالكون ، وأوجدنا بالخلق ، وسخر لنا هذا الكون ، وأعد لنا جنة عرضها السموات والأرض ، ونحن نتودد إليه بالإيمان به ، وبعبادته وطاعته ، وامتثال أمره ، وبترك ما نهى عنه ، وبالتخلّق بأخلاق نبيّه وبالبذل والعطاء ، ويكون الكون كله من قبل الله تودد إلى هذا الإنسان ، وكل أعمال الإنسان الصالحة هي في حقيقتها تودد إلى هذا الخالق العظيم . ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ أي الواد ؛ الذي يتودد إلى عباده بنعمه .

أسألك بالله عزيزي القارىء ، لو دعاك أحدهم إلى بيته ، ورأيت هذا البيت مُدفَّأً مسبقاً إكراماً لك ، والماء العذب الزلال المُعطّر بماء الزهر ، والأرائك ، والمشروبات اللذيذة المتقنة والطعام النفيس العطر ، والورود والهدايا ، ألا تذوب حُباً له ، ألا تشكره من أعماقك ، ثم ألا تقول له : والله يا أخي ، فضلت عليَّ ، والإنسان عبد الإحسان ، ولماذا تتحسس إذ أدى إنسان عنك الأجرة في سيارة ؟ طوال الطريق تبقى مستحيياً منه : وتقول يا أخي والله أكرمتني . . كلها من أجل ليرتين ، أو إن جاءك إنسان مهنئاً ومعه هدية ، تحار كيف تُكرمه ، ولماذا هذا الأحساس بفضل الإنسان ؟ وهذا الفضل الإلهي ، وأوّلُه أنه خلقك من لا شيء ، ألاّ يستحق منك كامل الاهتمام ، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

هذا الفضل الإلهي دون إحساس ، ودون شكر ، هل قلت من

أعماق أعماقك : يا رب لك الحمد على أن خلقتني ؟ يا رب لك الحمد على أن عرّفتني ذاتك ، يا رب لك الحمد على أن أعنتني على طاعتك ، ثم يا رب لك الحمد على أن نوّرت قلبي بنورك ، ويا رب لك الحمد على أن ألهمتني أعمالاً صالحة ، فالله يقول لك : أنا سأسمع ؛ فقل وتكلّم لأسمعك ، ألا تقول : له سَمِعَ الله لمن حمده ، ألا تفعل هذا في الصلاة ألا تقول : سَمِعَ الله لمن حمده ، يعني يا عبدي أنا أسمعك فيما تقول ، ربنا لك الحمد والشُّكر ، وهناك من يقول : يا رب لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد ، هناك من يقول : يا رب لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً بعدد خلقك ، فما نَشَأَ بقلب الإنسان من شعور عميق بالحمد فلله عز وجل ، واذكروا دائماً أنّ كل هذا الكون تودد إليك .

مرةً سافرت إلى الحج ، فانتظرني أخ بالمطار ، وأخذني إلى بيته ، وخصص لي سائقاً وسيارة ، وأنزلني بأفخم فندق في مكة المكرمة وبالمدينة كذلك ، وعمل دعوتين أو ثلاثاً ، ودعا إليها عشرات الأشخاص ، وقدم معروفاً لا أنساه حتى الموت ، وكلما جاء إلى الشام أحار كيف أُكرمه ، وكيف أُقدم له الهدايا وأدعوه ، وهو إنسان استضافني عشرة أيام في موسم الحج .

فالنِّعم الإلهية على هذا الإنسان تترى لا حصر لها ، فعندما يدخل إلى الخلاء يُفرغ مثانته ، دون آلام ولا تمييل ، ولا حصر بالبول ، ولا صراخ ، ولا إسعاف إلى المشفى ، هذه نعمة عظيمة ، بدأت بذكرها لأن كثيراً من الناس غافلون عنها ، فهل من مدّكر .

والقلب يعمل بانتظام ، والدسام يعمل بانتظام ، الأوردة والشرايين

والمعدة والأمعاء والكبد والكليتان ، وجهاز التنفس والأعصاب والإنسان يتمتع بنعمة عقله في رأسه ، وهذه من نِعم الله العظمى .

فكل هذا الكون تودُّد لهذا الإنسان ، ويجب أن يكون لسان حال المؤمن :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

فحياتي كلها ، ووقتي كله ، وطاقتي ومالي وإمكانياتي وعلمي وأولادي ، وبيتي في خدمة عبادك ، ومهنتي في خدمة عبادك ، ومالي امتثالاً لأمرك وإيماناً بك ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فأنت لم تكن شيئاً مذكوراً خلقك تنعم من أول لحظة بهديتين نفيستين :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠] .

فأول هدية أنه حينما يولد الإنسان يلهمه الله عز وجل عملية بالغة التعقيد هي المص ، الآن ولد ، وخلال دقائق يضع شفتيه على حُلمة الثدي ، ويُحكم إغلاقَهما ، ويسحب الهواء ، فلولا أن الله يُلهمه هذا السلوك المُعقّد لما كُنا على وجه الأرض جميعاً .

والهدية الثانية ؛ هي الأم ، مَن هذا الكائن ؟ إنها الأم آية من آيات الله ؛ فوجودها من أجل ابنها ، وأعصابها وإدراكها ومشاعرها إنها تتفاعل مع ابنها تفاعلاً عجيباً ، وكأن هناك اتصالاً دائماً ، فإذا كانت عند الجيران ، تقول : لقد استيقظ ابني ، كيف عرفت ؟ لقد خرج الحليب من ثديها .

فالأم هدية ، والأب هدية ، وقد قال لي رجل : أنا خادم مخلص

بلا أجرة ، فما أريد في هذه الدنيا سوى طعامي وكسائي ، إنني أتعب من أجل أولادي ، فالأب خادم لأولاده ، يشقى ليسعدوا ، ويريد توفير بيت لأحد أبنائه مثلاً يسعى ليزوج آخر وهكذا. . فالأب هدية ، والزوجة هدية والأولاد هدية .

هذا الهواء ، وهذا الماء العذب الزلال ، فكل ليتر ماء تكلّف تحليته ما يقارب السبعين ليرة في بعض الدول ، فأنت تأخذ ماء عذباً زلالاً ، ففي كل ثانية تستهلك دمشق ستة عشر متراً مكعباً من مياه عين الفيجة ، ماءَ مُصفّى عذباً فراتاً ، فالماء هدية من الله عز وجل .

وما تقول في أنواع الفواكه أيضاً ؟ وكذلك منحك الله عقلاً فأتقنت أعمالك وسعدت به ، فإتقان العمل كرامة ، وذاك دخل ثابت ، فهذه حِرفة وكلّ له اختصاص ، فهذا طبيب وهذا مهندس ، فلذلك بحثنا هذا شامل شمولاً كبيراً جداً ، فكل الكون تودد من الله إليك ، ويجب أن تكون حياتك ومماتك ونُسُكُكَ وعبادتك ، ومالك لله ، قالْ أحدهم لشيخه : يا سيدي كم الزكاة ؟ فقال : يابني أعندكم أم عندنا ؟ قال : ما هذا السؤال ؟ مَن نحن ومَن أنتم ؟ قال : عندكم اثنان ونصف بالمئة ، أما عندنا ، أهل الحب فالعبد وماله لسيده. . فهل تتفهم هذا الكلام الذي تبدأ به صلاتك ؟

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] .

هذا هو المعنى الأول .

والمعنى الثاني ؛ أن يكون معنى كونه ودوداً أي : يخلُق المودة بين خلقه ، فمن ألقى حُب الأبناء في قلوب الأمهات ؟ ادخلْ مشفى

الأطفال فإنك ترى منظراً يُبكّي ، فالأم البدوية تبكي من أجل ابنها ، والسافرة ، والمثقفة ، والجاهلة ، والمؤمنة المحجبة كلهن يبكين ، إنه نمط واحد ، فكل هؤلاء الأمهات أودع الله في قلوبهن محبة تجاه أبنائِهن .

إذاً ، أحد معاني كلمة : « ودود » ؛ أنه يخلق الود بين عباده ، الأب أب ، والابن ابن ، والأخ أخ ، والزوجة زوجة كلهم يتوادون فيما بينهم قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

من خلق هذه المودة ؟ .

لي قريب كان مسافراً خارج القطر لأربع أو خمس سنوات وعنده في كل سنة إجازة شهر ، ويأتي كل سنة ليتزوج ، فلا يرى شيئاً مناسباً ، وتنتهي إجازته ، ثم يعود ويسافر ، وبعد أن أمضى سنوات عدة توتر توتراً شديداً ، ما هذه الظروف المعاكسة ؟ يقول : هذا البيت لأهله مشكلة ، ولهذه الفتاة مشكلة ، وهذه لا تُناسب ، وفي السنة الرابعة وفي آخر يوم بالإجازة وجد فتاة مناسبة ، فأحبَّ ألاّ يغادر إلاّ وقد عُقِدَ العقد ، إذ والدته تعرفت إليها عصراً ، فتواعدوا في اليوم التالي ظُهراً أن يأتي موظف المحكمة ليعقد القران ، إقلاع الطائرة الساعة الرابعة عصراً ، فحدثوني أن هذه الفتاة حينما خرجت بعد أن عُقد قرانها على هذا الشاب قد بكت بكاء شديداً! البارحة كان يوم الخطبة إنه يوم غريب ، مداه أربع وعشرون ساعة إلا أنه كان يوماً عجيباً ، وفي اليوم التالي كان الوداع فبكت هذه الخطيبة وبكت ،

ولما يمض على العقد إلاّ سويعات ، قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أول معنى هو يُودكم ، بهذه الصحة بالنِّعم بالماء بالطعام بالشراب بالفواكه ، بالأسماك بالأطيار ، وأحياناً ترى أسماك زينة ، وليست للأكل ، ويكلف الحوض عشرة آلاف أو أكثر ، ومنها أسود ومنها أخضر ومنها خيوط فانظر هذه الأسماك ، لماذا خُلقت ؟ من أجلك ، ومن أجل أن تستمتع بمنظرها فقط وهذه العصافير الجميلة لماذا خُلِقت ؟ . . وهذه الأصوات الرائعة لماذا خُلِقت ؟ وهذه الروائح الزكية لماذا خلقت ؟ وهذه الورود ، اطلّعت على كتاب من ثمانية عشر مجلداً ، وهو كتاب كبير الحجم ، وفي كل صفحة صورة وردة ، ثمانية عشر جزءاً كل صفحة فيها صورة لنوع من أنواع الورود فلمن هذا ؟ أعطوا الدابة وردة فأكلنها ، فالذي أعطاها الوردة هو الغبي ، فهذه للشم وليست للأكل ، وليس الورد للدواب .

وفي الشتاء في غرفة الجلوس تُحب أن تستمتع بنباتات ضمن الغرف لا تحتاج في نموها إلى شمس ، وهي تنمو وتتنامى ، وهي جميلة إنها نباتات صالونات ، وهناك نباتات للمياه ، ونباتات للحقول .

ثلاثمئة نوع عنب ، التفاح أنواع منوّعة ، أخ من إخواننا كان في إفريقية ، أحضر لي موزتين ، من غينيا لِمَ هاتان ؟ قال : هاتان لأجل القلي ، ما هذا الكلام!! ، هذا للطبخ فقط ، وعلى حين أن الموز عندنا فاكهة للأكل ، وعندهم للطبخ ، ذقتها فوجدتها لا تؤكل نيئة ،

قليناها مثل البطاطا فهي طيبة شهية ، فكم نوعٍ خَلَقَ الله من الموز ؟ والقمح ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع .

أنواع البرتقال ، منها غزير ماء ، ومنها ناشف ، وحلو وحامض كبير وصغير ، وماوردي ، كلها مودة من الله عز وجل ، والنوع الواحد من الفاكهة أنواع منوعة ، هذه المودة .

فالمعنى الأول أنَّ الله يودك ، والمعنى الثاني يخلق المودة بين خلقه ، تدخل إلى سهرة في بيت أهلك فترى مودة ، منها مزاح ومعاونة ، والإنسان كائن اجتماعي ، فمن خلقه هذا الخلق ؟ ، يقول لك : سهرنا إلى الساعة الثالثة ، مسرورين بما بينهم من مودة ، وأحياناً بحسب السن وبحسب الحِرفة ، تجلس مع أطباء يتحدثون عشر ساعات عن حرفتهم مسرورين ، ومع المهندسين الشيء نفسه ، مع المدرسين ، يقول لك مزهواً الدرس الفلاني أتقنته ، والطلاب أعجبوا به ، اجلسْ مع التجار يقولون لك : هذه الصفقة ممتازة ، وهذه لم تربح وهذه أرباحنا فيها كانت خيالية كل مجتمع له حديث ممتع وله ترتيبات ، فهذه هي المودة ، خلق بين عباده الود .

المعنى الثالث بمعنى فعول : أي : إنّ الله سبحانه وتعالى يتوددُ عبادُه إليه ،و هو يتودد إلى عباده ، وهو يخلق المودة في قلوب عباده بعضهم لبعض ، فعباده يتوددون إليه ، فهذه ثلاثة معانٍ دقيقة للود ، من الله إلى عباده ، ومن العباد إلى ربهم ، وبين العباد فيما بينهم . لهذا روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« **أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله : التودد للناس** » [الطبراني في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة] .

وأعقلُ عمل ، وأحكمُ عمل ، وأذكى عمل يفعله المؤمن بعد أن يؤمن بالله أن يتودد إلى الناس ، حتى يسري الحق إليهم ، قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

بينما كان الرشيد يطوف في البيت الحرام إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة فقال الرشيد : لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن تقول قولاً ليناً . [البداية والنهاية ٢١٧/١٠] .

الإمام الرازي كان من كبار العلماء ، إنه الفخر الرازي ، وله هيبة كبيرة ، وله موكب فخم ، وقد كان في درسٍ من دروسه ، فخرج من المسجد ، ثياب أنيقة ومعه تلاميذه ، روجهه منير متألق مهيوب ، فرآه يهودي ، فقير مسحوق ، جوع على مرض على حرمان على فقر على احتقار الناس له ، فنظر هذا الرجل إليه وقال له : يا هذا يقول نبيكم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[1] ، فأي سجن أنت فيه وأي جنة أنا فيها ؟ فقال له الإمام الرازي : يا هذا ما أنا فيه إذا قيس إلى ما أعدَّ الله للمؤمن فأنا في سجن ، وما أنت فيه إذا قيس بما أعد الله للعصاة من عذاب فأنت في جنة ، حقاً إنه جواب مفحم ، أي : ما أنا فيه من هذا العِزّ إذا قيس إلى ما وعدني الله به من جنة عرضها السموات والأرض فأنا في سجن .

---

(١) الحديث رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهكذا قال عليه الصلاة والسلام ، انتقال المؤمن من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا ، فالجنين يعيش في سبعمئة وخمسين سنتمتراً مكعباً بالضبط ، والرحم تجويفه قبل الحمل زهاء سنتمترين مكعبين ، وكأنه لا يوجد تجويف ، بل عبارة عن عضلة على شكل إجاصة ، وحجمه في أثناء الحمل أو بأعلى نسبة سبعمئة وخمسين سنتمتراً مكعباً ، والإنسان إذا ولد ثم كبر وتجوّل يقول لك : والله كنا في أمريكا واستغرق سفرنا عشر ساعات طيراناً ، كان محبوساً في سبعمئة وخمسين سنتمتراً ، ثم طار في الأجواء ، فكيف ينتقل الإنسان من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا ، قالوا : المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٥-٥٩] .

هذه هي البطولة ، أن يأتي هذا اليوم وأنت في منجاة ، وأنت من أهل الجنة ، نسعى كلنا ونجتهد ، ونحضر دروس علم ، ونغضّ بصرنا ونخاف من الله ، ونضبط ألسنتنا ، ونضبط جوارحنا ، ونقرأ القرآن ويخدم بعضنا بعضاً ، حتى يأتي هذا اليوم الذي نسعد فيه .

فحظ العبد من هذا الاسم أن يتودد إلى العباد ، فهنا طفل تودد إليه ، وهناك كبير تودد إليه ، وأكبر منك عامله بالاحترام ، وأصغر منكَ فبالرحمة ، وبمستواك فبالإحسان ، هذا هو المؤمن ، يجعل من إحسانه طريقاً إلى الدعوة إلى الله عز وجل .

وبعد ، فهناك سؤال لا بد منه : هل الود هو الرحمة ؟ فهمنا أن

الود هو الحب والحب مشاعر داخلية تنتقل إلى سلوك مادي ، هذا هو الود ، الود والمحبة وجهان لشيء واحد ، مثل الإخلاص والعبادة ، من الداخل إخلاص ومن الظاهر طاعة ، فالشعور الداخلي حب ، والسلوك العملي مودة .

وهل هناك فرق بين المودة والرحمة ؟ ، إنه لفرق كبير فالرحمة متعلّقة بمخلوق ضعيف ، بمخلوق يستجير ، وبإنسان مريض وبإنسان مُعذب ، بإنسان فقير ، فأنت ترحمه! أمّا الود فليس للضعيف ، فأنت حين تعطي إنساناً ما شيئاً من الأشياء دون أن يسألك ، فابتداءً هذا هو التودد وأحياناً يطرق بابك إنسان ، فيتوسل إليك ويقول : أقرضني أرجوك أسعفني ، اقبلني عندك ضيفاً ، أو أوصلني إلى هذا المكان ، أو ارحمني خذني إلى الطبيب الفلاني ، فهذا إنسان مستجير ، وأنت إذا فعلت ما يناسب فما اسمك ؟ اسمك رحيم ، وذاك مخلوق ضعيف استجار بك ، أما إذا زُرتَ صديقاً في أوج صحته وقوته وشبابه ، ومكانته ، وأعطيته هدية بمناسبة زواجه ، وهو لم يستجر بك ، فالود ابتداء ، وأمّا الرحمة فيسبِقُها طلب والود لغير الضعيف ، والفقير والمستجير ، هناك فرق بين الود والرحمة ، فربنا عز وجل حينما خلقنا كان ودوداً ، ونحن لم نكن موجودين ، فهو خلقنا وأكرمنا وأنعم علينا ، مودته لنا ابتداء وهي أرقى بكثير .

حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآني قال لي : عباس! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين! قال : خذ هذا إليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في

نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري ، ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو ، فقال : أنا من دمشق ، فقلت : جزى الله وأهلها خيراً فمن أنت من أهلها ، قال : وعمن تسأل ؟ فلت : أتعرف فلاناً ، قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقع لي معه قضية! فقال : ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه ، فقال : ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي ، فما زلت أعدوا أمامهم حتى فتهم ، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ، فقلت : أغثني أغاثك الله! قال : لا بأس عليك أدخل الدار فدخلت فقالت زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار ، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون : هو والله عندك ، فقال : دونكم الدار ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا : هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرهم فانصرفوا ، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف ، فقالت المرأة : لا بأس عليك ، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى ، فقلت له : جزاك الله خيراً فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكانا في داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد

عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني ؟ فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه ، فخرجت وطلبت غلماني ، فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني ، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية ، فقال : علام تعزم ؟ فقلت : عزمت على التوجه إلى بغداد ، فقال : القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك ، فقلت له : إنك تفضلت علي هذه المدة ولك علي عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل ، ولأوفينك مهما استطعت ، قال : فدعا غلاماً له أسود ، وقال له : أسرج الفرس الفلاني ثم جهز آلة السفر ، فقلت في نفسي : أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي : يا فلان! قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي : كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوباً ؟ ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقته فشدهما في وسطي ثم قدم بغلام فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش ودفع إلي نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم إلي الفرس الذي كان جهزه وقال : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري ، وركب معي يشيعني ، وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته وأشغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث ،

قال : لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت وكيف ذلك ، قال : أنا ذلك الرجل وإنما الضر الذي أنا فيه غير عليك ما كنت تعرفه ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته ، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له فما الذي أصارك إلى ما أرى ؟ فقال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بي إلي أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية ، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري ، وهو نازل عند فلان فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة ، وقمت لي بوفاء عهدك قال العباس قلت : يصنع الله خيراً ، ثم أحضر حداداً في الليل فك قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سير من أحضر إليه غلامه فلما رآه جعل يبكي ويوصيه فاستدعى العباس نائبه ، وقال : علي بالفرس الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عدد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا ، قال ذلك الرجل وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار فقلت له ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم وخطبي جسيم وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرد وأقتل فقال لي : انج

بنفسك ودعني أدبر أمري فقلت : والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الامر على ما يقول فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه ، وأنشدك الله! أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد في إخراجه من بغداد ، قال الرجل : فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به ، وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفنا قال العباس فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي ويقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك ، وقم ، قال فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل ؟ فسكت فقال ويحك أين الرجل ؟ فقلت يا أمير المؤمنين اسمع مني! فقال لله علي عهد لئن ذكرت إنه هرب لأضربن عنقك! فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين! اسمع حديثي وحديثه ، ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري ، قال : قل! فقلت يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي ، وقلت : أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين إما ما فعله معي إما أن يصفح عني فأكون قد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت وها كفني يا أمير المؤمنين ، فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك! لا جزاك الله عن نفسك خيراً أنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير هلا عرفتي خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر فقال المأمون

وهذه منه أعظم من الاولى اذهب الآن إليه فطيب نفسه وسكن روعه ، وائتني به حتى أتولى مكافاته قال العباس فأتيت إليه وقلت له ليزل خوفك ، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء غيرُه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدثه حتى الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفي فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابة يقول لي يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم .

استرعى نظري في القصة ، أنه أكرَمَكَ وهو لا يعرِفُك ، هذه هي المودة ، أما أنت فإكرامك له الآن ردٌّ جميل لا أكثر ، أنت مدين له ولو قدمت نفسك مكانه لما فعلت إلا القليل ، هو أعطاك الحياة ، فقد كنت مقتولاً ، وأدخلك إلى البيت ودافع عنك وأعطاك كل شيء أربعة أشهر واعتذر إليك وهو لا يعرفك ، الأولى أبلغ من الثانية ، قال له : مهما فعلت فلن تكافئه وأنا سأكافئه ، البر لا يبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

لكن الإنسان إذا ما أحس فضل الله عز وجل ، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ وفي سورة أخرى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ وقال تعالى :

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس : ١٧ـ٢٣] .

ماذا ينتظر الإنسان وماذا يفعل ؟ وما الذي منعه أن يتوب إلى الله ؟ وما الذي يمنعه أن يصلي ؟ وأن يذكر الله عز وجل ، وأن يفعل الخير مع الناس جميعاً .

لا يعرف طعم الإحسان إلا المُحسن ، وسيدنا عمر كان يمشي ذات ليلة في المدينة مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، فلما رأى قافلة في أطراف المدينة وقد نام أصحابها ، قال لصاحبه : تعال نحرسها لوجه الله إنهم تُجّار ومعهم متاع وبضاعة فبكى طفل صغير ، فقال لأمه أرضعيه سكت الطفل ، ثم بكى ، فقام إليها وقال : أرضعيه ، أسكتته ثم بكى ، فغضب فقام إليها وقال : يا أَمَةَ السوء أرضعيه ، قالت : يا هذا ما شأنك بنا ؟ إنني أفطمه وعمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام ، « العطاء يعني التعويض العائلي في زماننا » ، يقول سيدنا عمر وقد ندّت منه صيحة ، وضرب رأسه وقال : ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين ، فكل هذا التعذيب مني وأنا السبب ، لأن العطاء بعد الفطام ، وهي الآن تفطمه وتجيعه ، فأصدر أمراً فورياً أن العطاء يبدأ ساعة الولادة ، ثم صلى الصبح وما سمع أصحابه من قراءته شيئاً لشدة بكائه ، وكان يقول : يا رب هل قبلت توبتي فأهنِّىء نفسي ، أم رددتها فأعزيها ؟

المُحسن أسعد الناس ، وقد قرأت كلمة في مجلة ، وهي أربع كلمات فأحياناً تنتهي المقالة في المجلة ، ويبقى في صفحة منها فراغ فيزينونها بكلمة مثل هذه « إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين » .

عزيزي القارىء اذكر دائماً : الله عز وجل مُحسن ، ويحبك أن تكون محسناً .

* * *

التَّوَّابُ

الاسم المقرر : « التواب » .

أخي القارىء الكريم : ما من عبد إلا وله خِبرة ـ إن صحَّ التعبير ـ مع هذا الاسم ، خبرة لا حدود لها .

قبل أن نتحدث عن معنى الاسم لغوياً ، وعن صيغته ، وعن تصريفاته ، وعن معانيه المتعددة ، وعن بعض الآيات التي ذكر فيها ، قبل أن نفعل ذلك ؛ لا بد من عدة مقدمات تُلقي ضوءاً على حقيقة هذا الاسم .

مثلاً يمكن أن تُفتح ثانوية وتكون أنت مديرها ، وأن يُسجل الطلاب فيها ، وأن يوضع لهذه الثانوية نظام داخلي دقيق جداً ، وأن تستقبل الطلاب ، وأن تُلقى المحاضرات ، وأن تُجرى المذاكرات ، وأن تعين مواعيد الفحوص ، وأن تُجرى الفحوص ، وأن ينجح من يستحق النجاح ، ويرسب من يستحق الرسوب ، وأنت في أعلى درجات العدل ؛ فإذا طلبت علامات الطلاب من مدرسيهم بعدَ شهر من بدء العام ، وتابعت المُقصّر ، وجئت به ، ونصحته فلم يرعَوِ ؛ فهددته ، وأحضرت وليه ، وضغطت عليه إلى أن غيّر خطته ، وضاعف جهوده فإذاً هو من الناجحين ؛ لكنك لو أهملت هذا الطالب

وعاملته وفق النظام الداخلي ، فأنت في أعلى درجات العدل ، أما إذا تتبعت أحواله وقبل فوات الأوان ، ووجّهته ونصحته وضغطت عليه حتى غيّر أسلوبه ، وضاعف جهوده فاستحق النجاح فأنت الآن في أعلى درجات الرحمة .

إن طبقت عليه الأنظمة العادلة ، فأنت في أعلى درجات العدل ، لكنك إذا تتبعت أحواله ، وذكّرته تارة ، وهددته تارة ، وشجعته تارة ، وكافأته تارة ، وعاقبته تارة حتى استقام أمره واستحق النجاح فنجح ؛ فأنت بهذه الطريقة عاملته بأعلى درجات الرحمة .

يُمكن أن تُرسل ابنك إلى بلدٍ غربي ، وأن تُعطيه المبلغ الذي يلزمه ، وأن تُهمل أخباره ، ثم بعد خمس سنوات تفاجأ بأنه قد ضيّع هذا المال على شهواته وأنه لم يدرس أبداً ، وعاد بخُفي حُنين ، فتقول له : يا بني أنا بذلت من أجلك كل شيء وأعطيتك هذا المبلغ الضخم وضيّعتَه ، فأنت في أعلى درجات العدل ، ولكنك إذا تتبعت أخباره ، وذهبت إليه تارةً واستقدمته تارةً ، وقلّلت المصروف تارةً وهددته تارةً ، ورغّبته تارةً ، وشجعته تارةً ، حتى عاد إليك بعد أربع سنوات وهو يحمل درجة الإجازة فقد عاملته مع العدل بأعلى درجات الرحمة .

قَد تعيِّن موظفاً تحت التدريب مدة ستة أشهر ، فيمكن أن تراقبه فقط فكلما أخطأ سجلتها عليه خطيئة ، حتى يصبح حجم أخطائه لا يحتمل فتفصله وأنت في بحبوحة ، لأن هذا الفصل كان ضمن الستة أشهر ، فأنت ماذا فعلت ؟ عاملته وفق قيم العدل ، فالعقد : ستة أشهر ، تحت المراقبة والتجريب ؛ ولكنك اذا أردت أن تعامل

هذا الموظف بالرحمة ، فكلما أخطأ تقول له : لا ، هذا لا يصح ، وهذا هو الصحيح ، فإذا هو يستقيم شيئاً فشيئاً ، وبعد حين يعجبك وتتمسك به ، شتان بين أن تعامل من حولك بالعدل ، وأن تعاملهم فوق العدل بالرحمة .

فالله سبحانه وتعالى خلق الانسان ومنحه العقل ، وجعل الكون نعمةً ، كلُّ ما فيه يدل على أسمائه الحسنى ، وأعطاه العقل ، وركّب فيه الفطرة ، وزوّده بالشرع ، وخيّره وأودع فيه الشهوات ، وأعطاه قوة فيما يبدو ، وتركه إلى أن يأتيه أجَلُهُ ، فإذا هو من أهل النار . فالله عز وجل عامله بالعدل ، لكنه لما كان في مقتبل حياته لو أنه اتجه إلى أن يسرق فأدبه الله عز وجل وخَوّفَهُ تارةً وأدبه تارةً وضيّق عليه تارةً وجمعهُ مع أهل الحق تارةً وقبضه تارةً وشرح صدره تارةً إلى أن صلح هذا الإنسان وصار من أهل الجِنان ، بماذا عامله الله عز وجل ؟ بالرحمة .

إذاً : اسم التواب من أين نفهمه ؟ من رحمة الله عز وجل فقد أعطانا العقل ، وأعطانا الاختيار ، وأودعَ فينا الشهوات ، وخلقَ الكون دالاً على أسمائِه وصفاتهِ ، مَنَحَنا قوة فيما يبدو ، وركّبَ فينا فِطرةً عالية وأرسل الرسل ومعهم الشرع :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت : ٤٦] .

هذا هو العدل ؛ لكن الرحمة بالمتابعة ، الله معك في كل خطراتك ، معك في كل حركاتك ، معك في كل تصوراتك ، معك في كل طموحاتك ، معك في سرّك ، معك في جهرك ، معك في

خلوتك ، معك في جلوتك ، معك في كل حال من أحوالك ، وكل شأن أنت فيه هو معك ، وله شأن ، كل شأن أنت فيه فلله معك شأن يقابله ؛ إن كان شأنك الإعراض فشأنه التأديب ، وإن كان شأنك الإقبال ، فشأنه التجلّي ، وإن كان شأنك العدوان ، فشأنه العِقاب ؛ وإن كان شأنُك الإحسان ؛ فشأنه الإكرام ، أي : المتابعة ، فأنتَ لن تكون رحيماً إلا إذا تابعت من حولك المتابعة اليومية ، حتى في الدعوة الى الله عزّ وجل ، فهناك عالِم وهناك مربٍ ، فالعالِم يُلقي الدرس وانتهى الأمر لا يعنيه المجتهد ولا مَنْ فهم ، ولا من استوعب ، ولا من لم يستوعب ، ولا من طبّق ، ولا من لم يُطبق ، ولا من تقدّم ، ولا من تأخر ، ولا من حضر ولا من غاب ، ألقى الدرس وانتهى الأمر ، فهذا اسمه في عالم التدريس معلم ، لكنَّ المُربي هو الذي يُتابع ، وذات يومٍ سألني سائل : فقال إنك تحدثنا عن علم الشريعة وعن علم الطريقة ، وعن علم الحقيقة ، فالأمر واضح تماماً عندي بين علم الشريعة وعلم الطريقة ، ولكن ليس لدي الوضوح الكامل بين علم الطريقة وعلم الحقيقة ؟

أردت أن أشرح له فشعرت أن الموضوع دقيق جداً ، فأُلهمتُ مثلاً طَرِبَ له ، قلت : جبل شامخ فيه تِلال ووديان ومسارب ومداخل ، وفي قمته قصر مُنيف فيه كل شيء تشتهيه النفس ، هناك علماء ثلاثة : عالم يُبيّن لك أن في هذا القصر ثلاثمئة غرفة وفيه أبهاء مُدَفَّأَة وفيه تكييف ، وفيه من أنواع الطعام ما لذّ وطاب ، وفيه حدائق وغرف نوم وثيرة ، فهذا العالِم يُبيّن لكَ ما في القصر فهذا عالِم الشريعة ، وقد قال لك : القصر مُدفأ وأنت تشعر بالبرد ، فيه طعام نفيس وأنت جائع ، والقصر فيه راحة تامة وأنت مُتعب .

أما عالِم الطريقة فهو يعرف طريقاً لِهذا القصر من أين تذهب ، وفي أي مركبة تركب ؟ وكيف تُقدّم الوثائق عِندَ الحواجز وكيف تصل الى هذا القصر ؟ يُبيّن لكَ طريق الوصول إليه ، وأنت واقف في مكانك ، لكنَّ عالِم الحقيقة هو الذي يأخذ بيدك ويُدخلك إلى القصر .

كلُّ النعيم وكلُّ الدفء ، وكلُّ الطعام الطيب ، وكلُّ الفرش الوثيرة ، وكلُّ الأمن ، وكلُّ المناظر الجميلة ، وكلُّ النباتات الرائعة ، وكلُّ الفواكه الطيبة ، كلها في هذا القصر ، والذي يأخُذ بيدك ويدخلك الى هذا القصر ، هو عالِم الحقيقة ، والذي يَصِفُ لكَ الطريق إليه ، هو عالِم الطريقة ، والذي يَصِف لكَ القصر وما فيه وأنت في مكانك ؛ هو عالِم الشريعة ، فإذا أردنا أن نبقى في مُصطلحات الإسلام فهناك إسلام ، وهناك إيمان ، وهناك إحسان .

الإحسان أن تدخل لهذا القصر ، وأن تستمتع بما فيه ، وفي الحقيقة هو الهدف الأخير وهو المعول عليه . فالله عزَّ وجل خلقنا للجنة وخلقنا لسعادة أبدية :

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٩] .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

هذا هو الهدف ، فمن المُمكن أن تُخلق للجنة ، وأن يُعطيك الله العقل والفطِرة ، والاختيار والشهوة ، والكون والقوة والتشريع ، وانتهى الأمر ، ترى إنساناً يمشي في طريق متعرّج ، في طريق العدوان ، في طريق الانغماس في الملذات متنكراً المنهج الإلهي ، فهذا ينتهي به المصير إلى جهنم ، لكن ما الذي يحصل ؟ إنَّ ربنا عز

وجل لا يدعه هكذا ؛ بل يتدخل ، يلفت نظره ويُسمعه الحق ، فإن لم يستجب فإنه يَسوق له بعض الشدائد فيما بينه وبينه ، فإن لم يستجب يرفع مستوى الشِّدَّة ، وسماه الله عذاباً صُعداً .

والطبيب أحياناً يصف دواءً بمستوى مئتين وخمسين وحدة ، فإن لم يستفد المريض يغيره إلى مستوى خمسمئة ، فإن لم يستفد تصبح سبعمئة وخمسين ، ثم تصبح ألفاً ، كلما كان تأثير الدواء ضعيفاً رفع الطبيب مستواه .

فما سبق بيانه كان ضرورياً قبل أن أشرح معنى التواب ، فالقضية قضية الرحمة ، قضية أن الله عزَّ وجل يُمكن أن يُعاملنا بعدلِه فنستحق النار ، ولكنه إن عاملنا برحمته فإنّما يؤهِّلَنا لدخول الجنة ، هذا هو التواب . يعني لم يتركك ولكن تابعك وراقبك ، فأنت تحت سمعه وبصره يُحاسِبُكَ على كل حركةٍ ، وعلى كل سكنةٍ ، وعلى كل خاطر أكلت مالاً حراماً ، مَحَقَ لك من مالك عشرة أمثال ، أدَّبك . اعتديت على أعراض المسلمين فساقَ لك مُشكلة بغير حل فبقيت سنوات وأنت في ضيقٍ شديد ، ثم ألقى في روعك أن هذه المشكلة يا عبدي من هذا الذنب الوبيل ، فالموضوع موضوع التوبة وهو أنَّ الله عزَّ وجل يُربي عباده ليستحقوا الإكرام في الدنيا ، حتى إذا كان يوم القيامة كانوا من أهل الجِنان .

مُنطلق اسم التواب يبدأ من أنَّ الله عزَّ وجل يُعامل عِباده بالرحمة ؛ لو عاملهم بالعدل ، لاستحقوا الهلاك ، ولا أدري إذا كانت الأمثلة واضحة فأعود وأوجزها ثانية : يمكن أن أرسل ابني إلى بلدٍ أجنبي وأُهمله ولي عليه حجة ، يا بني أعطيتك كذا وكذا وأنت أهملت فماذا أفعل من أجلك ؟

يُمكن أن تُعيّن موظفاً تحت التدريب والتجريب لمدة ستة أشهر من دون أن تُراقِبَهُ ، فإذا لم يعجبك صرفته ، لكنك إذا كنت رحيماً ؛ كلما وقع في خطأ صححته له ، وبعد شهرين أصبح يُرضيك فتمسكت به .

يُمكن أن تُنشىء ثانوية ، وتضع لها نِظاماً داخلياً دقيقاً ، وأن تُهمل الطلاب ، هذا نجح ، وهذا رسب ، لكنك إذا استقدمت الكسول ، وسألته عن تقصيره ، ووجهته ، ووبخته ، وكلفته أن يُصحح ، وأن يُضاعف جهوده ، حتى استحق النجاح ؛ فأنت عاملته بالإحسان . هذه الأمثلة من أجل أن يتضّح معنى اسم التواب .

كُلُّكُم يعلم أنَّ التواب على وزن فعال وهي صيغة مبالغة اسم الفاعل ، تقول مثلاً : تائب مرة واحدة ، تواب كثير التوبة ، إذا ذكرنا أحد أسماء الله عز وجل بصيغة المبالغة فالمقصود أن الله عز وجل كثير التوبة على عباده ، أو أنه يتوب على عبده مهما كَبُرَ ذنبه ، إمّا كمّاً أو نوعاً ، وهو شيء معروف عندكم .

واسم تواب من فعل تاب ، تاب يتوب توبة وتوباً بمعنى رجع ، وآبَ بمعنى رجع ، وأنابَ بمعنى رجع ، وثابَ بمعنى رجع . تقول : ثابَ إلى رُشدِه . أي : رجع إلى رُشدِه ، وأنابَ الى ربه وتابَ ، أي : رجع ، وآبَ أيّ : رجع ، تابَ وثابَ وآبَ وأنابَ ، كلُّ هذه الأفعال بمعنى رجع ، إذا قُلنا : الله تواب ، أي يعود على عباده بالخيرات ، ويعود على عباده بالإحسان يعود على عباده بالرحمة وبالغُفران ، هذا معنى أنَّ الله عزَّ وجل تواب وهو معنى من معاني تواب ، ولكنَّ المعنى الدقيق مُستنبط من قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

فما معنى تابَ عليهم ؟ تابَ عليهم يعني أنه ساقَ لهم من الشدائد كي يَحمِلَهُم على التوبة ، لو تركهم هملاً ، وأمدّهُم بصحةٍ جيدة وبأموالٍ كثيرة وأمطارٍ غزيرة وبلادٍ جميلة وهم غارقون في شهواتهم ، في ملاهيهم ، في أفراحهم ، في نواديهم ، في سُكرهم وانحرافهم في كل الملذّات ، فلو أن الله عزَّ وجل تركهم هكذا ليس تواباً ، ولكن يسوق لهم من الشدائد ليتوب عليهم .

أعرف رجلاً رَبِحَ أرباحاً طائلة ، وأراد أن يُمتّع نفسه فأزمعَ السفر الى أمريكا ، وكأنه يتمنى أن يفعل فيها ما يشتهيه ، وأن يغرق في بحر المعاصي ، وهناك شعر بألم شديد في ظهره فتوجه إلى مستشفى ، وصور عموده الفقري ، فكانت نتيجة التشخيص ؛ ورمٌ خبيثٌ في النخاع الشوكي ، سمعت من أخيه تتمة الخبر بأنه لم تستطع قدماه على حمله حينما سمع الخبر ، قطع رحلته وعاد إلى الشام ومن مسجد إلى مسجد ومن مجلس علم إلى مجلس إلى أن تاب إلى الله توبةً نصوحاً .

هذا الذي ساقه الله إليه حمله على التوبة ، فلو أنه تركه هكذا بصحة جيدة ، وقوة ومال وغِنى ، وعاد من نزهته الجميلة بعد شهرين أو ثلاثة ليُتابع عمله التجاري ، وليُعيد الكرّة في العام القادم إلى أوروبة وهكذا. . . حتى مات. . لكان على الله غير كريم .

أعرف رجلاً ذكياً جداً ، لكنه يتفنن بالسُّخريّة من الدين ومن علماء الدين ، يَعُد الدين كله خُرافة ، فابتلي فجأة بحالةٍ مرضية ، وهو أستاذ فلسفة ، وفجأة رأيته في حالة على غير ما أعرفه بها ، وهي حالة

إنابة ، فلما سألته عن حاله قال : أنا وزوجتي منذ سنة تُبنا إلى الله توبةً نصوحاً ، وتحجَّبت زوجتي ، واستقمْنا على أمر الله ، وأنا أحضر عندك في المسجد مجالس العلم منذ ستة أشهر ، فرحت له وبه فرحاً شديداً ، ثم سألته : ما السبب ؟ فقال : لي ابنة أصيبت بمرض خبيث في دمها ، وكنت أحبها حباً جماً ، وما زلت أعالجها في هذا البلد وذاك البلد حتى اضطررت إلى بيع بيتي ، وفي نهاية المطاف راودني خاطر : أنك لو تبت إلى الله أنت وزوجتك لعلَّ الله يشفيها ، فتابا إلى الله وشفاها الله عزَّ وجل ، وقبل سنة دُعيت إلى حفل عقد قِران وألقيت كلمة في هذا الحفل ، وقلت له : أهي هي ؟ قال : هي هي .

والله أيها الإخوة القراء : كل حادثة أو واقعة أسمعها أحِسُّ أنَّ رحمة الله عزَّ وجل لا حدود لها ، فلو ترك العباد على معاصيهم وانحرافاتهم وشرودهم عن الله عزَّ وجل وانغماسهم في الملذّات وأكلِهم المال الحرام وتطاولهم على الحق ، فلو تركهم هكذا لاستحقوا النار ولأُدخلوها ولكنه يرحمهم ، ومعنى ذلك أنّهُ يتوب عليهم أي يسوق لهم من الشدائد ما يحمِلُهُم بها على التوبة .

هُناك رجل همُّه الوحيد أن يُفسد عقائد المؤمنين ، وهو يُؤمن في كل كُريّة في دمه أنه (لا إله) ، وأن كل شيء متعلّق بالدين خُرافة بِخُرافة ، وهو يجهد في إفساد عقيدة كل مؤمن ، جاءته بنت صغيرة وأحبها حباً لا حدود له فارتفعت حرارتها ، أخذها إلى الطبيب ووصف لها الدواء وبقيت حرارتها مرتفعة ، ومن طبيب إلى طبيب إلى طبيب إلى أن قال له أحد الأطباء الكبار : حالة ابنتك نادرة جداً ، في المئة ألف من الأطفال الصغار لا تشبه حالتهن حالة ابنتك ، هذا مرض

مستمر حتى الموت ، حرارتها أربعون بشكل مستمر ، وهو يؤمن أنه (لا إله) ، فما استطاع تحمّل هذه الصدمة وبكى وتألّم ، وبعد حين اختل توازنه وصار يأتي بها إلى دائرته وهو شيء غير مقبول لكونه موظفاً ، فخاف أن تموت في غيابه فلم يحتمل ، تقول زوجته : بعد شهرين أو ثلاثة من استمرار حالتها المتردية قال لها : أريد أن أغتسل ، ويبدو أنه يغتسل لأول مرة في حياته ، اغتسل وقام ليصلي ، وهكذا قال حسب رواية زوجته ، قال مخاطباً ربه تعالى : يقولون إنكَ موجود ، فإن كنت موجوداً فإما أن تشفي ابنتي وإما أن تميتها وإما أن تميتني وقام وصلى ركعتين ، بكى فيهما بكاء شديداً وهُما أول ركعتين في حياته ، وما إن سلّم من صلاته ، حتى انخفضت حرارة ابنته ، وشفاها الله .

من هذه الأحداث الواقعية الشيء الكثير ؛ فمرةً بعد انتهاء درس المساء قال لي شاب : أريد أن أُقابلك ، فحدثني وقال : والله يا أستاذ ما من معصية تعرفها إلا وأنا أقترفها ، نشأت جاهلاً وعند رجل أَكَّدَ لي أنه (لا إله) ، سَوّل له أن افعل ما شئت ، ثم حدثني عن نجاحه في التجارة وعن أرباحه الطائلة وانحرافه وانحطاطه وسفرياته ، وقصته قصة طويلة معقّدة إلى أن عاجلته ضربة من الله عز وجل فحطمته فجأة فغدا بلا دخل ، واعتورته أمراض وبيلة أصابته وأولاده وزوجته ، فلم يعد يملك ثمن الطعام ولا ثمن الدواء ، وتابع وصف ظروفه : والله كأنَّ مطرقة تطرُقُ رأسي كلَّ دقيقة ، الى أن مررت بأحد المساجد وسمعت المؤذن يؤذن فدخلت المسجد ، وصليت لأول مرة في حياتي ، وبكيت بُكاء شديداً ، وعاهدت الله على التوبة ، فهذه أحداث ووقائع وصلت إلى مسامعي خلاصتها أن الإنسان يجب أن

يعلم أنه ما من رجل في الأرض إلا وله مع الله أوضاع وأحوال تنتهي بالإنابة ، وهذا معنى تواب ، « **إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب** » . . أعرف كيف أداويهم .

وكثير من رواد المسجد سببُ مجيئهم إليه مشكلة كبيرة ساقَهَا الله إليهم ففزعوا وأنابوا ، ورجعوا وتابوا ، فقَبِلَهُم الله عزَّ وجل وتجلّى عليهم ، وهناك أشخاص أصابهم مرضٌ عُضال ، أحدهم خاطب الله عزَّ وجل ضارعاً متوسلاً ، وهو في غرفة العمليات لاستئصال الورم الخبيث قال : يا رب أعاهدك إن شفيتني من هذا المرض ألا أعصيك ما حييت ، وشفاه الله من هذا المرض فبقي ثابتاً على عهده ، فلولا هذا الورم الذي ساقه الله له ما كان ليتوب .

صدقوني أيها القراء الكرام أنّ عشرات بل مئات بل آلاف الحكايات التي انتهت إلى سمعي مصادفة فكيف لو أنني تتبعت الأمر ؟ هذا معنى التواب ، يعني : ﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا ﴾ هيَ من أجمل آيات البحث ، يعني ساق لهم من الشدائد ما يَحمِلُهُم بها على التوبة ، فَمَنْ هو البطل ؟ الذي يأتيه طوعاً ، والذي يأتيه وهو في الرخاء ؟ هذه هي البطولة ، ولتكن إذاً بطلاً .

وطبعاً بعد المصيبة فالتوبة مقبولة وجيدة ، وبارك الله لكلٍّ من تاب بعد مصيبة ، ولكن الأكمل والأقوى أن تعرفه في الرخاء لا في الشِّدة ، أن تعرفه وأنت غني وأنت قوي .

إذاً فالمعنى الثاني : تواب : أي يسوق لعباده من الشدائد ما يحملهم على التوبة قال تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٠] .

وهذه آيةٌ ثانية : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ ، يعني إذا جاءت توبة الله قبل توبة العبد فتعني الشدائد التي يسوقها للعبد ، وإذا جاءت توبة الله بعد توبة العبد فتعني قبول التوبة ، يحملك على التوبة ، ثم يقبل توبتك ، فأنت بين دافع إلى التوبة وبين قبول لهذهِ التوبة .

أنا أتمنى على كل أخ كريم أن يُجري مناقشة منطقية ويسأل نفسه : هل من تقصيرٍ أو انحرافٍ بدر مني وساقَ الله لي شدة وأعادني إليه بعدها ، فما بال أحدنا إذاً ينتظر الشدة أن تقع ، إذاً فليعدْ إلى الله بلا شدة وبلا تأديب وبلا مشكلة وبلا مصيبة وبلا تضييق ، هذا هو الذكاء ، وهذا هو العقل ، وهذه هي الحِكمة ، أما الشباب فليأخذوا العبرة من غيرهم ، مما يقرأون ويسمعون

هُناكَ شيء آخر : قالوا : الله عزَّ وجل يتوب على عبده ابتداء أي يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة ، وأما تمام التوبة أن يقبَلَهَا منه وأن يُثبّته عليها ، فمثلاً : لو قال عبد : يا رب أنا تُبتُ إليك ، فهذا الذنب لا أقع فيه مرة ثانية ، ولم يقل : يا رب ثبتني ، اللهم يا مثبّت القلوب ثبّت قلبي على دينك ، ثبت قلبي على طاعتك ، فلو قال أنا تبت واكتفى بمقاله هذا ، وقال : لم يبق عليه شيء بعد ذلك ؟ فهذا الذي ينسب التوبة إلى نفسه ويعتدُّ بإرادته وبقدرته على متابعة التوبة ربما ضَعّفَ الله مقاومته ، فوقع في الذنب مرةً أخرى .

لذلك تمام التوبة قبولها والثبات عليها لأنَّ الإنسان إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه يختل توازنه وينهار ، فلو فعلت هذا الذنب للمرة

الألف قبل التوبة أهون من أن تفعله مرة واحدة بعد التوبة ، دققوا ، لأنك إذا فعلته بعد التوبة انهارت معنوياتك وشعرتَ كأنَّ الطريق الى الله عزَّ وجل غير سالك ، أما الشيء الذي يُلفت النظر فقوله سبحانه وتعالى :

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٢٧] .

« لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد » .

أعرابي ركب ناقة عليها طعامه وشرابه ، ثم جلس ليستريح فشردت عنه فأيقن بالهلاك فجلس يبكي حتى نام ، ثم أفاق فرأى الناقة عند رأسه فمن شدة فرحه اختل توازنه فقال : **« اللهم أنت عبدي وأنا ربك »** . وفي رواية يقول عليه الصلاة والسلام : **« لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده »** [متفق عليه] .

واللهُ عزَّ وجل يريد أن يتوب عليكم ، إذا رَجَعَ العبدُ العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله . ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ .

جالسْ أهل الدنيا ، جالسْ أهل الشهوات ، جالسْ أهل الفجور ، هذا الفاجر وهذا العاصي يتمنى أن يَجُرَّكَ إليه حتى إنه يقول له : ضعها برقبتي ، ومَنْ أنت حتى أضع خطيئتي برقبتك ؟ ثم يقول : الله تواب رحيم وغفور رحيم ولا تُدقق فالله لا يدقق فما هذا الكلام! هذا ما يقوله الضال لمن يضل ، فاسمع قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ

عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ يجب أن تُقدّس هذه الإرادة الإلهية ، فالله عز وجل يُريد لكَ الخير ، كما يريد لك السعادة الأبدية .

هذا الإنسان بعد حين سوف يُعذّب عذاباً لا يُحتمل ، بينما هو الآن يركب مرحاً وفرحاً سيارة ، وهناك إنسان بعد حين سينال أعلى مرتبة وهو الآن يمشي على قدميه ؛ التقيا في الطريق فمن هو الفائز ؟ حسب الظاهر ، الذي يركب المركبة الفاخرة ، لكن الفائز بعين العقل هو الذي يمشي على قدميه . تصوروا بيتاً فخماً جداً ثمنه مئة مليون فيه كل دواعي الترف وله طريق وعلى هذا الطريق إنسان يمشي على قدميه ليتملك هذا البيت ، وإنسان آخر يركب مركبة فارهة باتجاه أن يُشنق في ساحة عامة ، التقى هذا الذي يركب المركبة مع هذا الذي يمشي إلى هذا البيت على قدميه في الطريق فهنيئاً لمن ؟ لمن يمشي على قدميه ، بعيون رؤوسنا ، فالتهنئة لراكب السيارة ، أما بعيون عقولنا فالتهنئة لمن يمشي على قدميه ، فالأمور بخواتيمها .

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم : ٣٠] .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

[البقرة : ١٢٦] .

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران : ١٩٦-١٩٧] .

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء : ٧٧] .

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص : ٦٠ـ٦١] .

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم : ٣٦] .

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة : ١٨] .

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم : ٣٥] .

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية : ٢١] .

كلام واضح كالشمس .

عزيزي القارىء : معنى : الله تواب يعني يعود بالخير على عباده ، فالأمطار من التواب عاد بها علينا ، والهواء الذي نستنشقه من التواب عاد به علينا ، وهذه الأجهزة التي تعمل بانتظام من التواب عاد بها علينا ، وكل ما أنعم الله به علينا من التواب ، فهذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : تواب قبل التوبة ، بمعنى يسوق لعباده الشدائد :

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٧] .

انظروا إلى الآية ما أروعها بياناً ومعنىً ، وما أدقّها ، ما معنى هذه الرحمة ؟ قال : ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذه رحمته تقتضي ألا يَردَّ بأسه عن القوم المجرمين ، تصوّر ابناً ذكياً وأبوه عالم ، فالابن مقصّر فضربه وضيّق عليه ، حاسبه ، زجره إلى أن نجح ، تابع عليه المراقبة الى أن صار طبيباً ونالَ أعلى الشهادات ، وجلس في عيادته ، وثلاثون زبوناً في الخارج وتصوير ومعاينات ودخل يومي من خمسين إلى ستين ألف ، فيقول : جزى الله والدي

كل خير على الضرب الذي ضربني إياه في الصِّغَر ، فلولاه لما كنت اليوم طبيباً ، فلو قال الابن : لا أريد الدراسة ، فلم يزجره أبوه ، بل تركه لأصبح يلهث وراء الناس فيقول : لماذا لم يضربني أبي ، ولماذا لم يُضيّق عليّ ، أو ينصحني ، أو يطردني من البيت لماذا ؟ رحمة أبيه الساذجة ؛ مع جهل الابن في صغره تجعله يحقد عليه ، وشدة والده الواعية ؛ تجعل الابن يذوب حباً له .

أمثلة بسيطة لو افترضنا أنَّ إنساناً كان منحرفاً فضيّق الله عزَّ وجل عليه وخوّفه ، وأرسل له شدائد الى أن استقام على أمر الله ، فذاقَ طعم القُرب ومعنى الهِداية ، وشَعَرَ بنعمة الاستقامة فإنه يقول : يا رب لك الحمد على أن سُقت إليَّ هذه الشدائد ، والله إني ليسعدني أن أقول لكل منْ ابتلاهم الله ببعض المصائب : ثقوا بالله بلا حدود أنه سيأتي وقت يكشف لك الله فيه عن سر هذه المصائب ، فإن لم تذب كالشمعة حباً لله عز وجل ؛ فهذا الكلام هراء ، لكن ما شاء الله أن نقول ، وإنما الأحداث تتكلم ، واقرؤوا عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، ففي أخبارهم وعقابيلها المُثُلُ الواضحة .

فالإنسان يجب أن يعرف أن الله عزَّ وجل تواب ، ومعنى تواب يعني يحبنا ، ودائماً نحن في العناية المشددة ، في غرفة العناية المشددة تخطيط دائم ، يرى فيه عدد النبض ، والموجات بشكل مستمر ، أنت في العناية المشددة ، وأحوال القلب والأعراض على الشاشة ، فمثلاً : إنسان يسير في الطريق تفكيره مضطرب ، فيصطدم بعمود ، الى أين تسير يا عبدي ؟ يكون ماشياً بشكل خاطىء ، أو نظر إلى امرأة لا تَحِلُ له فجأة تأتيه الصدمة ، ويُشجُّ رأسه ، فالله عزَّ وجل

تواب ، أكلَ مبلغاً بالحرام فيُضيّع الله له عشرة أمثاله ويُربيه .

عامل أَصلَحَ عُطلاً في سيارة وأخذ من الزبون عشرة أمثال والزبون لا يعرف ، فعاتبه جاره فأجابه : هكذا العمل ، وفي اليوم الثالث دخلت في عين ابنه نثرة بُرادة فتكلّفَ له ستة عشر ألف ليرة في الجامعة الأمريكية . فذهب الحادث بربحه الحرام بالإضافة إلى التأديب .

أحد تجار الجملة جاءه شخص يريد شراء حاجات من عنده فطلب ست قطع فقط من ألبسة معينة ، ولما كان هذا من شأنه أنه يبيع بالجملة فرآها إهانة له ، وقال : أنا لا أبيع بالمُفرَّق ، فأقسم بالله من بعدها أنه مضى عليه ثلاثة وعشرون يوماً ولم يدخل إلى محله أو معمله إنسان ، فالله عزَّ وجل تواب .

انظر الى النحاس كم هو جميل ، من كثرة الطَّرقِ أصبح جميلاً ، وهكذا المؤمن كلما ازداد عليه الطرق يُصبح أديباً ، وكلامه يصير مضبوطاً ، وليسَ عِندَهُ كِبْر ولا تطاول ، هذا معنى التأديب الإلهي وهو معنى التواب أي : يُعالجك حتى تُصبح نقياً كالمَلَكِ تماماً .

« وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله ، أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر ؛ فإذا بقي عليه شيء ، شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه » .

وأقول وأكرر : إن معاملة الله للإنسان مُلخّصة بكلمتين : إما أن تأتيه راكضاً أو أن يأتي بك ركضاً ، والله يعلم كيف يأتي بك ، ويعلم كيف يخوفك ، ويعرف كيف يجعل ركبتيك ترتجفان ، ويعلم كيف

تسمع الخبر وتقع مغشياً عليك ، فأقبل على الله طائعاً منيباً فهو الأجدى والأسلم .

أعرف رجلاً أسرَفَ على نفسه كثيراً وله جارٌ صالح نصحه فلم يرعوِ ، ومات على معاصيه ، ثم رؤي في المنام يرتدي ثياباً خشنة قميئة مهترئة ويدور حول بحرة ويقول : نصحني فُلان ما انتصحت ، يا ليتني انتصحت ، لو أنه نصحكم فاسمعوا نصيحته ، فالإنسان ما دام قلبه ينبض فيقول لك : التخطيط سليم فالتوبة مفتوحة ، وما دام القلب ينبض فالباب مفتوح فأدرك بنفسك رحمة الله فهي قريبة .

قال لي صاحب معمل : قبل عشر سنوات كنت أفقد مالاً ، أضع ألفين مثلاً في جيبي ثم لا أجد شيئاً ، فهناك عامل يسرقني وبقيت شهراً أراقب ، والسرقة مستمرة بالمال والبضاعة ، ثم توقفت السرقة ، وبعد عشر سنوات طرق بابي شاب ملتحٍ قال : أنا فلان هل عرفتني ؟ فقلت : نعم كنت عندنا في المعمل قال : كنت أسرق منك وتبت إلى الله عزَّ وجل ، وها أنا بين يديك جئت لأردّ لك كل الذي أخذته منك ، فقال له : والله نظير هذه التوبة وهذه الأوبة سامحتك ، ولك مكان في معملي إذا شئت أن ترجع .

ما دامَ القلب يَنبض ، فالحل سهل ، وكله يستدرك ويصحح فممكن أن تؤدي الذِّمم المُترتبة عليك سابقاً ، ومُمكن أن تُعيد الحاجات إلى أصحابِها ، ومُمكن أن تستسمح ممن اغتبته . كله مُمكن فإما أن تأتيه راغماً وإما أن يحملك على أن تأتيه راغماً ، فالأولى ارقى وأشرف وأجمل وأكمل .

فالتوبة الأولى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ يحمل على التوبة ،

والثانية : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، يعني قَبِلَ توبتهم ، وإذا قَبِلَ توبتهم يعني ثبَّتهم عليها .

دعا ﷺ لأمته عشية عرفة ، واستغفر اللهَ لهم فأوحى الله إليه أني قد غفرت لهم ما بيني وبينهم ولم أغفر لهم ظلم بعضهم لبعض ، ما بيننا مغفور لكن ما بينكم وبين العباد لا بد من أن يُصحح ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف : ٣١] .

يعني بعض ذنوبكم .

أتمنى أن يكون لديّ متسع لنوسع هذا الموضوع بحثاً ، لكن يبدو لي أن الموقف العملي من قبل القارىء الكريم أبلغ من التفصيلات . . وليحاسب كل إنسان نفسه حِساباً دقيقاً ، وأسعد إنسان من التزم منهج الله في كُل أحواله ، وأسعد إنسان من أطاع الله حقاً ، وإن لنا في قوله تعالى ما يريح النفس ويشفيها .

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧١] .

كذلك ففي قوله تعالى التكريم والإكرام .

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ألا يكفي المظلوم أن يكون ظالمه في معصية الله ؟!

معنى تواب أي : لا يعاملك بالعدل فحسب ، بل إن الله يتابع عبده إلى أن يكنفه برحمته ، فالأب الرحيم كل يوم ينادي ابنه ويسأله عن أعماله المدرسية ، وماذا كتب وحفظ ؟ أمّا أن يتركه حتى يرسب ويقول : عملت الذي علي فيجيبُهُ الابن : صحيح لكنك لم تكن

رحيماً بل كنت عادلاً ، أمّا الرحيم فهو الذي يُتابع .

ربنا عزَّ وجل هو التواب حَمَّلَك الأمانة إذ حملتها ، وكلّفك بالأمانة ، ومنحك عقلاً ، وسخر لك كوناً ، وأعطاك اختياراً ، وأعطاك شهواتٍ وفِطرةً وشرعاً ، ومع ذلك يُتابع أحوالك بالنصح مثلاً :

حدثني أخ كريم أنه كان بحاجة إلى مبلغ من المال ، إذ وجد بيتاً ثمنه مغرٍ جداً بقيمة « ٣٥٠٠٠٠ ل.س » والموضوع قديم ، وهو معروض عليه بـ « ٢٥٠٠٠٠ ل.س » ومعه عشرة آلاف ويلزمه خمسة عشر ألفاً ، ومعه سندات مصرفية ، فذهب إلى المصرف ليحسم هذه السندات ، والحسم رباً معكوس ، ومدير البنك ليس مسلماً بل ذمّياً ، فقال له : يا أبا فلان ، أنت مسلم وهذه حرام في دينكم ، ابقَ نظيفاً ، فقال : صرت أبكي ، أنا أتلقى نصيحة من إنسان غير مسلم في أمر ديني! فقال : يا رب أعاهدك ألا أشتري هذا البيت ولا أعصيك ، فقال لي : ثم توجهت من المصرف إلى محلي التجاري فوجدت صديقاً قديماً ينتظرني فقلت : خيراً فقال : أريد السفر إلى أحد بلدان الخليج ، ومعي ستون ألفاً لست بحاجة إليها ، وأريد أن أودعها عندك لمدة سنتين ، وأُناشدُكَ الله أن تستعملها إن احتجت ، أقسم بالله أنه بعد نصف ساعة من عودته من المصرف وقراره ألاّ يعصي الله كان صديقه عنده ، وكان المبلغ بين يديه ليستخدمه حلالاً .

فالله سبحانه وتعالى حكيم ، فإن كان المرء يأتي بإشارة فلا ضرورةَ لكلمة ، وإن كان يأتي بكلمة فلا حاجة إلى الضرب ، كلما كان للإنسان حساسية فهو يفهم بالإشارة ، وأحيانا يُحِس الإنسان

بانقباض فيقول : هناك في الأمر شيء ، وهناك من الناس من يحتاج إلى تأديب علني أو عذاب مهين أوعذاب عظيم أوعذاب أليم ، فكلما ارتقت مكانة الإنسان عِندَ الله تكفيه الإشارة ، فالحُر تكفيه الإشارة .

تواب : أي : إنه لن يتركنا بل يُريدنا ، نحن مطلوبون إليه ، خلقنا ليرحمنا ، خلقنا ليُسعدنا في الدنيا والآخرة . فافهم أنَّ الحُر تكفيه الإشارة ، فإذا قصّرت يأتي بِكَ ، وأُحِسُّ أحياناً أن كثيرين قد تركوا مجالس العلم ، ثم لم يمض إلا أشهر حتى عادوا ، فلعله حدثت لهم مشكلة فيهرول أحدهم مسرعاً ، فابقَ ثابتاً لأنَّ الله يدعوك إليه ، ولا تكن كالقارب الصغير شأنه اضطراب باضطراب ، ولكن كُنْ كالسفينة الراسخة :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

انتهى الأمر وغدا جلياً واضحاً فأنت عاهدت خالق الكون ، فإذا عاهدت الله على الطاعة وعلى تلقي العلم وخدمة الناس فابقَ ثابتاً ، فأنا أقول لكل شخص : إذا امتحنك الله بالنزول فظهرت سرعتك جيدة ، فإننا نريد أن نراك بالصعود ارتقاءً إلى الله ، فبادر .

هذا معنى اسم التواب ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يتوب علينا ، « **إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله** » .

* * *

الهادي

الاسم هو « الهادي » ، والله سبحانه وتعالى خَلَقَ ثمَّ هدى .

شققنا الطريق ، ثم وضعنا الشاخصات ، صنعنا الآلة ، وأصدرنا كُتيّب التعليمات ، الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم نوّره .

كلمة الهادي مأخوذة من فعل هَدَىٰ ، والهادي اسم فاعل ، ما معنى هدى ؟ إن الله عز وجل يقول :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : ٢٥] .

يعني : خُلقتَ لِيُسعِدَكَ ، لا سعادة تنقطع عند الموت ، بل لِيُسعِدَكَ إلى الأبد ، وما الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الحياة الأبدية ، إذاً : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الصراط هو الطريق ، الله عز وجل أعطى الإنسان حرية الاختيار ؛ فمن شاء الهُدى هداه إلى صراط يؤدي إلى دار السلام ، خُلقت لدار السلام ، دار السلام هي الجنة ، خُلقت لدار السلام وأنت مُخيّر ، فإذا اخترت دار السلام هداك الله إلى الصراط المستقيم الذي يوصلك إلى دار السلام ، آيةٌ دقيقة المعنى جداً ، لا تظنوا كما يظن بعض الناس أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس ليعذبهم ، لا تظنوا أن هذه المصائب عشوائية ؛ وأن هذه المصائب مقررة من قِبَل الله عز وجل لإلجاء العباد إلى بابه

قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ .

ما معنى الهِداية ؟ الهِداية : الإمالة ، هداه أي أماله ، أي وجهه نحو الحق ، فالهِداية في اللغة معناها الإمالة ، وتُسمى الهديةُ هديةً لأن من شأنها أن تُميل قلب المُهْدى إليه .

يقول الإمام الجنيد قال : « **اهدنا الصراط المستقيم ؛ يعني يا رب مِلْ بقلوبنا إليك ، وأقم هِمَمنا بين يديك ، واجعل دليلنا منك عليك** » ، النقطة الدقيقة : هي أن الإنسان مُخيّر ، ومعنى مُخيّر أن أمامه عِدة خيارات ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] .

مَن هو الداعية ؟ هو الذي يقنعك بأن تتجه إلى طريق الحق عن طريق ماذا ؟ عن طريق الإقناع ، وعن طريق الدليل ، وعن طريق التبيين ، وعن طريق التوضيح ؛ فربنا عز وجل هو الهادي .

وبناء عليه فكم طريقةٍ من الطرائق التي يهتدي بها الإنسان ؟ . .

بادىء ذي بدء فالله سبحانَه هدى الإنسانَ إليه عن طريق الخَلْق ، وأول مخلوقاته الكون ، والله قوي ، وفي الكون مظاهر قوته ، وهو الغني وفي الكون مظاهر الغِنى ، وهو عليم وفي الكون مظاهر العِلم ، وهو رحيم وفي الكون مظاهر الرحمة ، يعني بإمكانك أن تقول : إنَّ الكون مظهر لأسماء الله الحُسنى ولِصفاته الفُضلى ، فإذا أردت أن تفكر في الكون وصلتَ إلى الله ، إنه صنعته ، منه تصل إلى الصانع ، إنه خلقه ، منه تصل إلى الخالق ، إنه كونه ، منه تصل إلى المكوّن ، إنه تنظيمه ، منه تصل إلى المُنظِّم ، به ترى العِلم ، به ترى الحِكمة ، به ترى القُدرة ، به ترى اللُطف ، به ترى العطف ، به ترى الرحمة ،

به ترى الخِبرة ، كل ما في الكون يدلُّ على الله عزَّ وجل .

وقد تنظر إلى وردة فكأنَّ الله سبحانه وتعالى تجلّى عليها باسم الجميل ، فإذا رأيت البحر هائجاً ، تجلّى الله عز وجل على البحر باسم الجبّار ، تارةً ترى اسم الجبّار ، تارةً ترى اسم القهّار ، تارةً ترى اسم المُنتقم ، تارةً ترى اسم العليم ، تارةً ترى اسم الحكيم ، تارةً ترى اسم العليّ الكبير ، فكُلُّ مظهر في الكون ؛ يدلُّ على اسمٍ من أسمائِه ؛ أو على كل أسمائه فكيف هدانا الله ؟ الله قال :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١] .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس : ٢٤] .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق : ٥ـ٨] .

فإذا أردت أن تهتدي إلى الله فحسبُكَ الكون ، وقد قيل : « حسبكم الكون معجزة » .

هذا أول باب ، ولكني أقول للقارىء الكريم : إن باب الكون أوسع أبواب الهُدى ، وأقرب طُرق الهُدى ؛ لأنَّ الكون يضعُك أمام قُدرة الله ، وأمام عظمته ، وأمام حِكمته ، وأمام رحمته ، وأمام عِلمِه وأمام خِبرته ، فالله سبحانه وتعالى هداك بخلقه ؛ إذاً الهادي اسم من أسماء أفعاله .

أيها القارىء الكريم يمكنك أن تتأمل آلة وتقول : المهندس خِبرته رفيعة المستوى ، وتقول : هذه الألوان التي أعطاها للآلة لطيفة فيها ذوق رفيع ، تكتشف علمه ، وتكتشف ذوقه ، وتكتشف خبرته ، لكن

أحياناً مع الآلة نشرة ، الآن ربنا عز وجل يهدي الإنسان لا بخلقه فحسب بل بكلامه ، قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٥] .

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة : ٧٨] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : ٧٧] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٨٢] .

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج : ١٤] .

﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] .

وفي الآيات التالية تبين الهدي بكلامه سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد : ٢] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٩] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت : ٣٧] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ [الشورى : ٣٢] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : ٤٦] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] .

أول بند من بنود الهُدى خلقُه ، فالهادي اسم من أسماء أفعاله .

البند الثاني : أن الهادي اسم من أسماء ذاته ، لأنه المُتكلّم ، فالله مُتكلّم ، والقرآن كلامه .

أحياناً تنظر إلى شيء رائع ، ويقول لك صانع هذا الشيء : هذه صنعتها لكذا ، وهذه لكذا ، وهذه المادة الأولية من أعلى مستوى ، وهذه الآلة لأجل كذا ، فقد أعطاك تعليمات من عنده مباشرةً ، فالله سبحانه وتعالى يهدي بكلامه ، إذاً الهادي اسم من أسماء ذاته ، كما أننا عرفنا أنه اسم من أسماء أفعاله .

إذاً : هداك بخلقه ؛ فالهادي اسم من أسماء أفعاله ، وإذا هداك بكلامه ؛ فالهادي اسم من أسماء ذاته ، اقرأ القرآن ، القرآن يُبيّن لكَ أصل الخليقة ، حقيقة الحياة الدنيا ، ما بعد الدنيا ، كما بيّن لك أسماء الله عز وجل ، بيّن لك صفاته ، بيّن لك أنبياءه السابقين واللاحقين ، بيّن لك حكمة الوجود ، أَمَرَكَ بالصلاة في القرآن ، أَمَرَكَ بالصوم وبالزكاة وبالحج ، بيّن لك لماذا تصلي .

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾

[العنكبوت : ٤٥]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

فالله سبحانه هو هادٍ ، الله هداك بكلامه ، فإذا أردت أن تقرأ القرآن ؛ فالقرآن باب إلى الله عزَّ وجل . والكون باب ؛ لكن (الكون) لغة عالمية ، يعني يراه ويقرؤه ويفهمه المُسلم وغير المُسلم ، العربي وغير العربي ، إفريقي ، صيني ، أمريكي ، أوروبي ، من أي مكان ، الشمس ساطعة ، النجوم زاهرة ، الكواكب متألّقة ، الماء عذب زلال ، من جعله عذباً زلالاً بعد أن كان مِلحاً أجاجاً ؟ الكون يقرؤه كل إنسان ، لكن القرآن يقرؤه العربي .

على كُلٍّ ؛ إذا تعمّق الإنسان في معرفة الله عزَّ وجل ، تعلّم العربية حُباً بالله عز وجل ، وقد تجد شعوباً من غير العرب أتقنوا العربية لا لشيء إلا حُباً بالله عز وجل ، كيفَ أنك اليوم إذا أردت أن تأخذ شهادة عُليا من بلدٍ أجنبي ، بادىء ذي بدء تتعلم لغة ذاك البلد ، يقول لك : سنتان لغة ، أي : تتعلم لغة البلد الأجنبي الذي قصدته لمدة سنتين .

طالب من طلابي نالَ بعثةً إلى تشيكوسلوفاكيا ، قال : تعلمتُ لغتهم خلال سنتين ، من أجل شهادة دنيوية ، من أجل حياة محدودة ، تعلمتَ لغة هؤلاء القوم كي تتعلم عِلمهم ، لذلك إذا

عرفت الله عزَّ وجل ، ورأيت أن كلامه شيء ثمين جداً ، فلابد إنْ كنت غير عربي ، أن تجدَ نفسك مسوقاً إلى تعلم اللغة العربية ، والإخوة الأكارم الأفارقة مثلاً ، والأتراك الذين وفدوا إلى هذه البلدة الطيبة لتعلُّم أمور الدين ؛ تراهم يتقنون اللغة العربية ، بل إنهم ينزعجون انزعاجاً شديداً لو تكلمنا بكلمة واحدة باللهجة العامية خلال الدرس كله ، لا يفهمون إلا اللغة الفصحى .

إذاً ، إذا بلغ حُبُّكَ لله عز وجل حداً مُعيناً ؛ ترى نفسك مسوقاً إلى تعلُّم اللغة العربية ، إذاً فالقرآن ؛ باب آخر من أبواب الهُدى ، الكون ؛ هداك بخلقه ، والقرآن ؛ هداك بكلامه ، وأرجو ألا تنسوا أنَّ الله عزَّ وجل جعل الكون كله في كفة ، وجعل القرآن كله في كفة ، قال :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .

فهذه الآية صريحة في ذكر خلق الكون .

لأنهما : الكون والقرآن يدلان عليه ، لأنهما يُشيران إليه ، لأنهما يُظهران أسماءَه الحُسنى ، وقال سبحانه في حديثه عن القرآن :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف : ١] .

فالكتاب ؛ هدىً بياني ؛ والكون ؛ هدىً استدلالي .

لاحظ نفسك ، أحياناً تشتري آلة دون نشرة تعليمات تنظر إليها ، تُدقق ، تستنبط ، تُحرك بعض مفاتيحها ، تُشغلها ، تُحرّك هذا المفتاح ، انقطع التيار ، تُحرّك هذا المفتاح علا الصوت أو انخفض ؛ إذاً هذا المفتاح للصوت ، تُحرّك هذا المفتاح فيصبح الصوت صافياً ،

إذاً هذا للتصفية ، تكتشف خصائصها بالتأمل والملاحظة ، لكن إذا رأيت معها نشرة باللغة العربية تقرؤها . . مفتاح رقم واحد للصوت ، الثاني للتصفية . . تَطَابُق ، يُمكن أن تتأمل في هذه الآلة فتصل إلى بعض خصائصها ؛ لكنك إذا قرأت التعليمات التي أصدرها الصانع تصل إلى خصائصها الكاملة ، إلا أن هناك ملاحظة ؛ فأنت من طريق التأمل تصل إلى أشياء كثيرةٍ جداً ، لكن ما كل شيء تصل إليه من خلال الكون .

الكون ، يَدُل على وجود الله ، يَدُل على عظمته ، يَدُل على أسمائه لكن الكون لا يَدُلُّك على الصلاة ، مهما تأملت في الكون أين الصلاة ؟ أين ذكرُ خمس صلوات ؟ أين الفرائض ؟ أين السنن ؟ أين الزكاة ؟ أين الحج ؟ أين الصيام ؟ أين غضُّ البصر ؟ هذه لابُدَّ لها من منهج أنزله الله على نبيه عليه الصلاة والسلام ، من اكتفى بالكون فقد أخذ شطر الدين ، لكن لابُدَّ من أن تهتدي بالكون جزئياً ، ومن أن تهتدي بالقرآن كلياً .

القرآن يشتمل على أحكام ، كما يشتمل على أوامر ، وعلى نواهٍ ، وفيه منهج كامل ، وفيه أخبار السابقين ، وأخبار اللاحقين ، فيه بيان للمستقبل البعيد ، وفيه بيان عن ذات الله عزَّ وجل . لا يكفي الكون وحده ، بل لا بد من أن يتكامل الكون مع القرآن .

دخلتَ إلى جامعة ، تأملت في قاعاتها الفسيحة ، تأملت في قاعات المحاضرات الكبيرة ، تأملت في حدائقها الرائعة ، تأملت في بيوت طلابها ، تأملت في مخبرها ، تأملت في مسرحها ، تأملت في مكتبتها أخذك العجب العُجاب ، لكن مهما تأملت في هذه الجامعة

وفي أقواسها وقاعات محاضراتها ، مهما تأملت في بيوت الطلاب وفي حدائقها وفي مكتبتها ، لا يُمكن أن تصل إلى نظامها الداخلي ، لا يُمكن أن تصل إلى طريقة النجاح والرسوب ، لا يُمكن أن تصل إلى أسماء الأساتذة ، تأمل في الجدران من هم مدرسو هذه الجامعة ؟ لابُدَّ من كتاب تقرؤه في بيان الكليات ، أقسام الكليات ، رؤساء الأقسام ، عُمداء الكليات ، أسماء الأساتذة اختصاصاتهم ميزاتهم ، موقع كل كلية ، نِظامُها الداخلي ، طريقة النجاح طريقة الرسوب ، طريقة الانتقال ، طريقة الدرجات : مقبول ، امتياز ، شرف ، جيد ، جيد جداً ، هذا شيء لابُدَّ من أن تقرأه في النظام الداخلي .

أنا أقول هذا الكلام وأريد منه أنك إذا فكرت في الكون عرفت عظمة الله عزَّ وجل ، أما إذا أردت أن تعرف منهجه ، فلابُدَّ من قراءة القرآن ، والقرآن في أساسه موجز ، فيه كُليّات الدين ، جاء النبي عليه الصلاة والسلام فشرحه وبيّنه ، فإذا فكرت في الكون عرفت أن لِهذا الكون خالِقاً عظيماً كبيراً عليماً قديراً حكيماً لطيفاً . . إلخ .

لكنك إذا أردت أن تعبده ، وإذا أردت أن تتقرب إليه ، وإذا أردت أن يُحبك ، فماذا تفعل ؟ أنت الآن بحاجة إلى تعليمات من قِبَل الخالِق يقول لك : صُمْ شهرَ رمضان ، أدِّ زكاة مالك ، غُضَّ بَصَرَك أحسِن إلى أخيك ، أُعفُ عنه ، أنت الآن بحاجة إلى تعليمات هذا الخالِق ، أنت بعقلك عن طريق الكون آمنت بالخالِق ، لكنك إذا أردت أن تعرف منهج الخالِق ، أمره ونهيه ، أخبار الأمم السابقة ، ماذا يُريد منك ، لماذا خُلقت ؟ فلا بُدَّ من أن تقرأ كتابه .

إذاً الكون ؛ يَدُلُّكَ على وجود الله وعلى أسمائِه الحُسنى والقرآن

يَدُلُّكَ على منهجه ، يعني إذا أردتَ أن تؤمن به ففكّر في الكون ، وإذا أردت أن تعبده فاقرأ القرآن ، بالكون تعرفه ، وبالقرآن تعبده ، لا يُغني أحدُهما عن الآخر ، إذا قرأت القرآن ولم تفكر في الواحد الديّان كأنك ما قرأت القرآن لماذا ؟ لأن القرآن يأمُرُكَ أن تُفكر ، فإذا لم تُفكر فقد عطَّلت آيات التفكر في القرآن ، إذا فكرت في الأكوان ولم تقرأ القرآن عرفت الصانع ، لكن كيف تُصلي وكيف تصوم ؟ أين أمرُه ؟ ما عباداته ؟ ماذا يريد منك ، فلا تعرف ذلك إلا بمطالعة منهجه المكتوب .

إذاً فالله هداك بالكون ؛ فالهادي اسم من أسماء أفعاله ، وهداك بالقرآن ؛ فالهادي اسم من أسماء ذاته لأنَّ الله مُتكلم ، هداك بكلامه .

ومن ثمَّ فبعدَ أن خَلَقَ الكون ، والكون دلَّكَ عليه ، وأنزل القرآن والقرآن بيّنَ لك منهجه ، وأمره ، ونهيه ، وهناك حوادث ، كما أن هناك تصرفات ، شيء ما يحدث ، أمطار تنهمر ، سماء تُمطر ، سماء لا تُمطر ، تأتي موجة صقيع : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [القلم: ١٩] .

ترى محصولاً ثمنه مئات الملايين بثلاث دقائق يتلف بالصقيع ، ونعوذ بالله من الصقيع ، إذاً له أفعال ، منها صقيع ، ومنها رياح عاتية وأعاصير ، وفيضانات ، وبراكين ، وزلازل ، وكذلك أمراض وبلاء وقهر ، وفقر ، هذه أفعاله . خلقُهُ يدلُّ عليه ، وكلامه يدل عليه ، كما أن أفعاله تدل عليه :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾

[الشورى : ٣٠]

فلو افترضنا أن طالباً في المرحلة الابتدائية ضرب زميلاً له ، فشكاه إلى المعلم فعاقبه المعلم وضربه ، ثم التقى بزميله فلم يضربه ، فالمُعلم لا يضربه ، ثم في لقاء ثالث ضرب زميله ، فالمُعلم عاد وضربه ، مع بقاء المُعلم ساكتاً ألا يَستنبط هذا الطالب من ضرب المعلم له كلما ضرب زميله ؟ أن المعلم لا يُرضيه أن يضرب طالبٌ زميله ؟ إذاً علّمك لا بكلامه ، ولا بخلُقه ، علّمك بفعله ، مَنَعَ زكاةَ مالِهِ فتَلفَ مالُهُ بقدر زكاة ماله ، هذا تعليم .

استطلت في أعراض الناس ، فالناس استطالوا في عرضك ، هذه بتلك ، تكبرت ؛ فأهانك الله ، تواضعت ؛ فَرَفَعَكَ الله ، أنفقت ؛ فعوّضَ الله عليك ، بَخِلت ، فأتلف الله مالَك ، غضضت بصرك عن محارم الله ، أَسعَدَكَ الله في بيتك ، أطلقت بصرك ، أشقاك في بيتك ، كُنتَ مع الناس صادقاً ، وثق الناس بك ، كذبت عليهم ، فَضَحَ أمركَ .

دعك الآن من كتاب الله ، ودعك من خلق الله ، تعال إلى أفعال الله ، أفعال الله وحدها تُعلِّمُكَ ، مرةً ثانية ؛ المعلم ساكت لم يتكلّم كلمة واحدة حينما رآك وكزت زميلك وأنت خارج إلى الباحة ضربك على رأسك ، في الساعة الثانية وكزته فضربك ، في الساعة الثالثة وكزته فضربك المعلم وهو ساكت ، سكوته كافٍ ، وفِعلُه يُعلّم ، أليس كذلك ، طبعاً على هذه الفكرة ينطبق آلاف الوقائع ، أفعال الله وحدها تُعلِّمُك ، خلْقُه يُعلِّمُك ، وكلامه يُعلِّمُك ، ربنا عز وجل قال :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل : ٦٩] .

شخص غشَّ الناس فصودرت بضاعته ، فلماذا صودرت ؟ دليل على أذيّته ، هذا الذي نصحهم لماذا نمَّى الله ماله ؟ هذا الذي أكرمهم لماذا أكرمه الناس ؟ هذا الذي أعطاهم لماذا أعطاه الله ؟

إذاً : هو الهادي بخلقه ، والهادي بكلامه ، والهادي بأفعاله ، هداك بخلقه ، وهداك بكلامه ، وهداك بأفعاله ، لا أعتقد أنَّ واحداً من الإخوة القرّاء إلا وعلَّمَهُ الله بالأفعال . . صليتَ الصُّبح في جماعة ، فشَعَرتَ طَوَالَ النهار أن كلامك سديد ، وأن عقلك رشيد ، وأن أحوالك عالية ، وأن قلبَكَ عامر ، وأن الناس قد هابوك ، وأن الأمور مُيسَّرَةٌ .

في اليوم التالي لم تُصلِّ الصبح ، فاتتك صلاة الفجر ، فواجهتك مشكلات كثيرة : أول مشكلة في الطريق ، الثانية في المحل ، الثالثة جاءك موظف تطاول عليك ، الرابعة ذهبت إلى فلان فلم تجده .

لقد عَلّمَكَ بأفعالِهِ ، يوم صليت الفجر في جماعة ؛ فأنت في حفظ الله وفي ذمته ، فلما فاتتك صلاة الفجر ، تلاحقت المشاكل في الطريق وفي العمل وفي البيت ، هذا تعليم ، الله يهديك إليه بأفعاله ، تصدقت جاءتك دفعة لم تكن بالحسبان ، سألك إنسان سؤالاً فأعطيته ، رغم أنك مُضطّر إلى المال فتح الله عليك رِزقاً .

ذكر لي أخ كريم فقال : اتصلت بي أختي صباحاً ، قالت لي : أريد خمسة آلاف ليرة ، قال : معي المبلغ ولكني في ضيق شديد وعلي دفعات كبيرة ، نشأ صراع في نفسه ، ثم غلب نفسه وذهب إلى بيت أخته وأعطاها المبلغ ، وعاد إلى دكانه في سوق البزورية ، فجاءه شخص ، وقال : أريد هذه السلعة وسَمّاها ، قلت : ليست موجودة

لديّ ، قال : أين توجد ؟ قلت : في المعمل الفلاني ، فطلب مني أن أدله عليه ، فذهبت معه ودللته عليه وعدت إلى محلي ، مساءً أتاه صاحب المعمل ، وأعطاه مبلغاً من المال « **طبعاً هذا إذا أضافها على المشتري فيه شبهة أما إذا أعطاه من ربحه فلا شيء فيه** » قال : أخذت ضعف ما قدمت لأختي صباحاً ، ولا أعتقد أن أحداً ممن يقرأ هذا الكلام إلا ويلمس أن الله يوماً عامله بما يشبه معاملة ذلك الشخص ، قال عليه السلام : « **أنفق بلالُ! ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً** » .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **قَالَ اللهُ : أَنْفِقْ يَا بْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ** » .

أجل ، علّمَكَ الله عز وجل بأفعاله ، هو يُعلِّمُكُ باستمرار ، لذلك قال :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

يُعلِّمُكَ بأفعالِه ، لكنَّ الإنسان حينما يفهم عن ربه ما يأمر وما ينهى ، وحينما تنعقد صِلةٌ مباشرة ، إدراكٌ مباشر ، تجد أن هذه بتلك وهذا الصنيع لذاك الفعل .

شخص له استقامته ، وله انضباطه ، وله ورعه ، سافر في أول رحلة بالطائرة ، زلت قدمه فأطلق بصره ، وصل إلى البلد الآخر فركب سيارة أجرة ، وأعطى السائق أجرته ، فأخذه السائق إلى المخفر ، العملة مزوّرة ، فقال : أنا عضو وفدٍ ومدعوٌ إلى مؤتمر في أعلى درجة ، وإذا به في قفص اتهام . قال : والله دمعت عيني وكأن ربي عاتبني ، قال : وقع في قلبي « **لماذا أطلقت بصرك يا عبدي** » ، بالأفعال عاملك ، هداك بالخلق ، وهداك بالقرآن ، والآن هداك

بالأفعال ، هو الهادي ، إذاً الهادي اسم من أسماء أفعاله ، الهادي بالخلق اسم من أسماء أفعاله ، والهادي بالقرآن اسم من أسماء ذاته .

لقد أبدعك الله إبداعاً عظيماً ، مثال ذلك في بعض المحالِّ التجارية تجد على البضاعة قسيمة بالسعر ، ويوجد مادة على لصاقة السعر ، إذا أخرجت هذه البضاعة دون أن تؤدي ثمنها وأنت خارج تحت قوس معين يصدر صوت عالٍ ، أما إذا أديت ثمنها يعطل الموظف مفعول هذه المادة بمادة أخرى ، فلو رأى واحد شيئاً ، قليل الحجم غالي الثمن وضعه في جيبه ولم ينتبه ، وخرج من هذا المحل ، هذا القوس الذي يَخرج من تحته يُصدر صوتاً مزعجاً ، كأنه يقول : هذا سارق خذوه ؛ هذه البضاعة مُصممة تصميماً حيث إنك إذا أخذتها دون أداء ثمنها تصيحُ بك هذا من صنعة الإنسان ، فالله سبحانه وتعالى صَمَّمَ لكَ نفساً إذا أسأت تشعُر بالضيق ، تُسميه وخز ضمير ، تُسميه كآبة ، تسميه ضيقاً ، ضاقت علي الأرض بما رَحُبَتْ صحيح متضايق طبعاً ، لأنَّ فِطرتك عالية ، فأنتَ حينما أسأت خرجت عن قانون فِطرتِكَ ، هكذا علّمَكَ بالفِطرة ، علّمَكَ بخلقه ، وعلّمَكَ بكلامه ، وعلّمَكَ بأفعاله ، والآن علّمَكَ بالفطرة والدليل :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنهَا ﴾ [الشمس : ٧ ـ ٨] .

يعني ؛ إذا فَجَرَتْ ، تعرف أنها فَجَرَتْ ، وإذا اتقت ، ارتاحت .

وبعد فإن القارىء الكريم وأنا لا أُبالغ يُحس براحة نفسية لا تُقدر بثمن ، لأنه مطيعٌ لله فكيف يعرف ذلك ؟ لو أنه زلّت قدمه لا سمح الله ، لو أنه أطلَقَ بَصَرَهُ ، لو أنه فاته فرض صلاة ، لو أنه كذب في كلمة ، لو أنه اغتاب ، لَشَعَرَ كأنه سقط من السماء إلى

الأرض ، يشعُر بالضيق ، يُحس بالحِجاب يُحس أنَّ الله أبعده ، أنَّ الله قلاهُ ، أنَّ الله لم يقبلْهُ ، هذا التعليم الرابع! هداية الفطرة ، الآية الكريمة :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

إقامة وجهك للدين حنيفاً ؛ هو نفسه فِطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها ، فلا ترتاح إلا إذا عَرَفتَ الله ، لأنكَ إذا عرفته أويت إلى رُكنٍ وثيق ، إذا وجد موظف في دائرة من الدرجة الخامسة ، على أساس الشهادة الثانوية ، لكن المديرَ العام صهرُه زوج أخته ، ترى أن هذا الموظف له وضع خاص ، مُطمئن ، يُحس بأمن عجيب بهذه الدائرة ، لا يخشى لا من رئيسه المباشر ولا ممن هو أعلى من رئيسه ولا من المدير المعاون ، كلهم مرتبطون بالأعلى ، والأعلى يضفي عليه ظله ، فهذا إنسان مع إنسان يُحس بالأمن ؛ فكيف إذا كُنتَ مع الله ، إذا كُنت مع الله فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ علَّمَكَ بالفِطرَة ، الإنسان متى يرتاح ؟ إذا أوى إلى الله ، إذا شَعَرَ أن الله يحبه ، إذا شعر أنه بعين الله إذا شعر أنه بِحِفظ الله ، إذا شَعَرَ أنه يُحب الخلق إكراماً لله ، إذا نام مساءً ولم يؤذِ مخلوقاً ولم يكن لأحد حق في عنقه ، لم يبنِ مجده على أنقاض الناس ، لم يبنِ ثروته على فقر أحد ، لم يبنِ أمنه على خوف الناس ، لم يبنِ حياته على موت غيره ، كان مِعطاءً ، كان خيّراً . إذاً أنت لك فِطرة قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، إذا فجرت تعرف .

كنتُ في حفل عقد قِران تبعني شاب كريم ، سألني سؤالاً حول موضوع حاك في صدره ، فهو حينما فعل هذا الشيء المنكر جاء بِمسوغات غير صحيحة ، لكنه حينما عاد إلى بلده ، قال : والله ما أعجبتني هذه المسوغات ، كأنني رسبت في امتحان الله عز وجل ، لم يُعلِّمُه أحد ، ولا سأل أحداً ، ولكنه أدرَكَ من تلقاء نفسِهِ ، أعني أدرك بفطرته .

إذاً : الله عز وجل هداك بخلقه ، وهداك بكلامه ، وهداك بأفعاله وهداك بالفِطرة . الله عز وجل له أساليب كثيرة في الهُدى ، بل أحياناً يَهديك بالإلهام قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧] .

هذا وحي إلهام ، يقول لك : اللهُ ألهمني أن أسافر ، الله ألهمني ألا أشتري هذه الصفقة ، الله ألهمني ألا أشارك فلاناً ، الله ألهمني ألاّ أشتري هذا البيت ، ما عندي دليل ، بل هو إلهام ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

مرةً في أحد أيام الأعياد ، عندي فراغ ونويت أن أذهب لأزور صديقي غربي دمشق ، لكني فجأة وجدت نفسي أنساق إلى بيتي بصورة لا شعورية ، وبلا سبب ، ولا مُسوغ ، فما إن وصلت إلى البيت حتى فوجئت برجلٍ يأتيني من مكان بعيد من بلد في الشمال جاء لزيارتي في فترة العيد ، وليس له في الشام بيت آخر يبيت فيه ، كيف ؟ هذا إلهام ، عندما يستسلم الإنسان لله عز وجل يُلهمه الله ، وإلهامات المؤمن كلها لصالحه ، لكن إلهامات الكافر ، أقول إلهامات

الكافر مجازاً ومثله الفاسق ، المُنحرف وهي وساوس شيطانية ، كلها لغير صالِحِهِ ، يوسوس له أن يَعقد هذه الصفقة يُفلس من خلالها ، يوسوس له أن يُشارك فلاناً يَنهَبُهُ ، يوسوس له أن يفتتح مصلحة أو ينشيء مشروعاً فيكون سبب دماره وخسرانه ، هذا وسواس شيطاني ، أنت بين إلهام الرحمن أو وسوسة الشيطان ، فإذا كنت مع الرحمن ألهمك ، وإذا كانَ المرء مع الشيطان وسوَس إليه ، هذه طريقة أخرى في الهدى ، الله يُلهمك ، لذلك قال تعالى :

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٠] .

أحياناً يُلهمك أن تزور مثلاً هذا المسجد ، أنا أتكلّم عن سابق تجربة ، إذ ليس من أخٍ اهتدى إلى الله عزّ وجل عن طريق هذه الدروس إلا وكنت أسأله سؤالاً صغيراً ، أقول له : كيف اهتديت إلى هذا الجامع ؟ فأسمع قصصاً عجيبةً ، مثلاً دخل شخص ليصلي المغرب مصادفة فرأى جمعاً فجلس ، فكان هذا أول درس يحضره وما ترك بعده درساً ، هناك إنسان اهتدى عن طريق صديق ، عن طريق قريب ، عن طريق صاحب عن طريق موعد أحياناً ، هذا إلهام .

إذاً بخلقه ، بكلامه ، بأفعاله ، بالفطرة ، بالإلهام ، كل هذا من فعل (الهادي) .

الآن بالرؤيا الصالحة ، هناك أشخاص إذا رأوا رؤيا صالحة واضحة ، صارخة ، بارزة ، هذه الرؤيا تحمِلُهم على طاعة الله عز وجل ، وهذا شيء مؤيَّد ، لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول « **الرؤيا الصالحة جزءٌ من سِت وأربعين جزءاً من النبوة** » ، أي إنّ الله عز وجل إذا أراد أن يُعلِّمَكَ شيئاً ما بطريق مباشر ، بلا إستنباط

ولا تأمّل ولا إدراك ، ولا من طريق الأفعال ولا من طريق الخلق ولا من طريق القرآن

لا تفكر في الكون ولا نظر في الأفعال ولا تدبر في القرآن ، لكن يُريد الله عز وجل أحياناً أن يُعلمَكَ إعلاماً ، مباشراً ، سريعاً ، حازماً ، واضحاً ، فقد ترى نفسك تسير في طريق الهاوية ، كأن الله يُحذِّرُكَ ، أحياناً تتساءل عن سؤال كبير ، الله عزَّ وجل يُجيبك عن هذا السؤال في الرؤيا .

كثير من الإخوة الكرام تكلّموا معي : قبل أن ينام أحدهم نشأ عنده سؤال فقال : يا رب أنت ألهمني الصواب ، فرأى رؤيا صالحة كأنها إجابة عن هذا السؤال ، إذاً هذا هُدى عن طريق الرؤيا ، لكن هُنا نقطة دقيقة جداً ، أيّةُ رؤيا خالفت أوامر الشرع ؛ اسمعوا ما أقول ؛ اركِلهَا بقدمك لأنَّ الشرع هو الثابت وكل ما جاء في الرؤيا خِلاف القرآن الكريم من الشيطان ، لو أن أحداً رأى رجلاً صالحاً ، ويعتمُّ بعمّةٍ خضراء ووجهه يَشِعُّ نوراً وقال له : لا تصلِّ ، نقول له : هذه الرؤيا اركِلهَا بقدمك ، لا تُصدق ، كل ذلك كلام فارغ ، نحن عندنا مقياس الشرع ، أيّة رؤيا تُخالف أوامر الله تُخالف شرعَ الله عزَّ وجل ، لا تعبأ بها ، ولا تُقِم لها قيمة ، ولا تأخذ بها ، ولا تحفل بها فإنها ، قطعاً ، من الشيطان .

لكنَّ الرؤيا التي من الرحمن لها خصائص ، إذا كنت لا سَمَحَ الله مُنحرفاً ، ورأيت رؤيا مُخيفة ، فهذه من الرحمن قطعاً ، وإذا كنت مُحسناً ، ورأيت رؤيا مُبشِّرة ، هذه من الرحمن قطعاً .

فإذا كُنتَ مُحسناً ، ورأيت رؤيا مُخيفة ؛ هذه من الشيطان لكي

تخاف ، وإذا كُنتَ لا سَمَحَ الله مُسيئاً ، ورأيت رؤيا مُبشِّرة ؛ هذه أيضاً من الشيطان ، الأصل الشرع واستقامتك ، فهذه ثوابت .

بالمناسبة ؛ الرؤيا لا يُمكن أن تكون قاعدة ، ولا يُمكن أن تكون دليلاً . إنها اتصال مباشر بين العبد وربه فقط ، يعني : هي شيء لا يجبر على فعلٍ ولا يُنقل أثره إلى غيره إنما هي شيء شخصي مَحض ، هذه الرؤيا .

أحياناً يَهديك عن طريق خلقه ، لا عن طريق مُخلوقاته عن طريق الأشخاص ، فمثلاً ، يجمعك مع شخص يحكي لك موضوعاً ، فحينما ألتقي مثلاً بإنسانٍ ويتكلّم هذا الإنسان ، أشعر بطريقة أو بأخرى وأتساءل : من الذي جمعني بهذا الإنسان ؟ هو الله ، من الذي ألهمه ؟ هو الله ، من الذي أنطَقَهُ ؟ هو الله ، حينما تكون في طريق غير صحيح ، ويأتي إنسان يُبيّن لكَ الصواب ، فإني أعتقد اعتقاداً صحيحاً أنَّ هذا الإنسان قد ساقَهُ الله إليك لِيُبلِّغَكَ ولِيُعرِّفَكَ ، هذا أيضاً هُدى عن طريق الخلق .

وهناك هُدى من نوعٍ آخر ، هذا الهُدى الانقباض والانبساط يقول لك : انقبضت ، أزمعتَ أن تسافر إلى جهة ما فشعرت بانقباض ، أو شعرت بانشراح ، أو الأمور تيسَّرت أو تعسّرت ، فالانقباض والتعسير والانشراح والتيسير هذا تعليم أيضاً ، فإذا كان الله راضياً يكون هناك انشراح وتيسير ، الله غير راضٍ وأنت مؤمن ، عِندَكَ حساسية ، وعِندَكَ إدراكٌ دقيق أنت مؤمن ، فأصبحَ هُناكَ انقباض وتعسير ، إذاً هذا شيء لا يُرضي الله عزَّ وجل .

وكخلاصة أوجز بها الموضوع أقول : أحياناً يسلُب الله سبحانه

وتعالى لُبَّ عبده أي عقله ويُسيّرهُ تسييراً سليماً في جهة ما ، هذا أيضاً هُدى . فإذا قُلنا الهادي يعني هدانا بخلق الكون ، وهدانا بالقرآن وهدانا بأفعاله وهدانا بالفِطرة ، وهدانا بالإلهام ، وهدانا بالرؤيا ، وهدانا عن طريق الأشخاص ، وهدانا عن طريق الانشراح والانقباض والتيسير والتعسير ، ثمَّ هدانا عن طريق التسيير المباشر . هذه كلها تعني أنَّ الله هو الهادي قال تعالى :

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى : ١-٥] .

العلماء لهم تفسيرات دقيقة للهُدى الإلهي ، الهُدى أربعة أنواع :

- أول هُدى الهُدى العام : الله عزَّ وجل زوّدَكَ بحاسّة الشم ، تقول : رائحة غاز ، كيف هداك إلى وجود غاز وفيه خطر على البيت ؟ عن طريق الشم ، أحياناً تسمع صوتاً في الغرفة الثانية ، كيف هداك أن هناك حركة في البيت ؟ عن طريق السمع ، أعطاك ملكة الاستدلال والتفكير ، أعطاك عِلماً ، أعطاك خِبرة أعطاك حواسَ خمساً ، هذه كُلُّها القدرات التي أودعها الله في المخلوقات هداهم إلى مصالحهم .

ائت بنملة ضع أصبعك أمامها تقف وتُغيّر طريقها ، يعني أن الله أعطاها بصراً ، أعطاها إدراكاً بأنّ هنا خطراً وهو حاجز ، الله عزَّ وجل هدى كل الحيوانات ؛ عن طريق الغريزة إلى مصالحها .

أحد الأشخاص كان في بستان ، فرأى قنفذاً يأكل أفعى ، أكل قطعة منها ثم تركها وذهب إلى نبات وأكل منه ورقة ، ثم عاد ، وأكل قطعة ثانية ثم ذهب إلى هذا النبات وأكل ورقة ثانية ، فهذا البستاني

أمسك النبات وقلعه ، وأكل القنفذ قطعة ثالثة ثم ذهب إلى النبات فلم يجده ، فمات القنفذ ، من هداه إلى أن هذا النبات يتناسب مع هذا الطعام ؟ الله عزَّ وجل .

مثلاً : لو أحضرنا أمهر رُبان في العالم ، أعلى رُبان على وجه الأرض في علمه ومهارته يحمل شهادات عُليا وعنده ألفا ساعة قيادة سُفن ، وعنده دراسات وعنده اختصاص ، وعنده خِبرات ، لو وضعناه على سفينة بلا بوصلة على ساحل فرنسا ، وقلنا له : اتجه بها إلى مصب نهر الأمازون ، لا أُبالغ إذا قلت ربما جاء البرازيلَ في جزئها الجنوبي ، فلا مجال بدون البوصلة ولا إمكانية ، ولو انحرف درجة في بدء مساره لانحرف في النهاية مسافة خمسمئة كيلو متر ، أما سمك السلمون فإنه يتجه من سواحل الأطلسي إلى مصبات الأنهار في أمريكا ، وكل سمكة وُلِدَتْ بمنبع نهر تتجه إلى مصب النهر ، وهذه السمكة المتجهة ليست هي التي قدمت عند بدء الرحلة بل أمها هي التي جاءت إلى هنا ، ثم وضعت بيضها وربما ماتت في مكانها الجديد ، أما السمك الجديد فبعد أن يخرج من البيوض يتجه نحو الشرق إلى سواحل فرنسا إلى حيث بدأت رحلة الأمهات ، فإذا كبرت عادت إلى مصبات الأنهار ، قال تعالى :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

[طه : ٤٩ـ٥٠]

هذه هِداية ، فأول هِداية : هِداية عامة ، هُديَ الإنسان إلى طعامه ولباسه إذ صَنَعَ نسيجاً ولَبس ، صَنَعَ بيتاً ، طها الطعام ، طهي الطعام شيء معقد جداً ، تأكل الأكلة فإذا كان فيها خلل تتضايق منها ، من

هداك لوضع ملح وطحينة وكمون وفلفل وعصفر ؟ مَن ؟ إذاً لدينا هُدى ، هُدى إلى كسب الرزق ، هُدى إلى تأمين المعاش ، هُدى إلى تأمين الحاجات ، فهذا الهُدى الأول هِداية عامة .

ـ الهُدى الثاني هِداية الوحي ، يهديك إليه ، يهديك إلى كتابهِ يهديك إلى الحق .

ـ الهُدى الثالث : هِداية التوفيق ، قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] .

ـ الهُدى الرابع : هِداية الجنة ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٤ـ٦] .

إذاً هناك هداية عامة ، وهِداية الوحي وهِداية التوفيق والهُدى إلى الجنة ، هذا بعض ما يمكن أن يقال في موضوع اسم الهادي .

في ختام هذا البحث لابد من بيان قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ هذه الواو تفيد أن الجملة ليست شرطية ، ليس اتقوا الله يعلمْكم بل : . . واتقوا الله ، لماذا لا تتقونه ؟ لأنه يُعلمكم ، يُعلمكُم دائماً بالخلق ، وبكلامه وبأفعاله وبالفِطرة وبالإلهام ، وبالرؤيا وبالخلق ، وبالقلب وبالانقباض والتيسير وبالتعسير وما إلى ذلك . ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ولعله صار واضحاً أنه بتقوى الله تتحقق كل مفاهيم الهداية ومقوماتها للإنسان فيهتدي إلى ربه ويسعد إلى الأبد .

* * *



الاسم هو الرحمن الرحيم ، وقد عدَّ بعض العلماء هذا الاسم : اسم الله الأعظم لقوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

والحقيقة أن الرحمة التي نراها في الكون ما هي إلا تجسيد لاسم الرحمن ، ولابد أولاً من بعض التفاصيل وبعض التعريفات المتعلقة بهذين الاسمين ليتضح الفرق بين الاسمين منذ البدء ، ولعل أحداً يسأل هذا السؤال : ما الفرق الدقيق بين الرحمن وبين الرحيم ؟ على كُلٍّ سيأتي هذا تفصيله في ثنيات عرض الموضوع .

الرحمن الرحيم كما يقول أحد كبار العلماء : « **اسمان مشتقان من الرحمة** » ، والرحمة تستدعي مرحوماً كما أن العلم يقتضي المعلوم ، والرحمة تقتضي المرحوم ولا مرحوم إلا وهو محتاج ، الإله لا يكون مرحوماً هو راحم ، أما المخلوق فهو مرحوم لأنه ضعيف ، ولأنه عاجز ، ولأنه فقير لأن قيامه ليس بذاته بل قيامه بغيره ، إذاً هو مرحوم ، والعبد مرحوم لأنه عبد ، والرب راحم لأنه رب ، وأيُّ إنسان خرج عن دائرة العبودية ينسى أنه في حاجة ماسة إلى رحمة الله

عز وجل ، وهؤلاء الذين قالوا استغنينا عن رحمة السماء من قبل ، جاءتهم سبع سنوات عجاف ، مادمت عبداً فأنت مُفتقر إلى الله عز وجل ، ما دمت عبداً فلا بد أنك بحاجة إلى الرحمة ، اللهم ارحمنا فإنك بنا رحيم ، ولا تعذبنا فإنك علينا قدير .

الشخص الذي تنقضي بسببه حاجة المُحتاج ، من غير قصد أو إرادة وعناية بالمُحتاج ، لا يُسمى رحيماً ، قد تنقضي حاجتك عن طريق شخص فهذا الشخص ما أراد أن يرحمك ، ولا يريد أن يرحمك ، ولن يريد أن يرحمك ، لكنه بشكل أو بآخر جاءت الرحمة عن طريقه دون أن يدري ، وهذه الجهة ، ولو أنَّ الرحمة جاءتك عن طريقها ، لا تُسمى رحيمة لأن من لوازم الرحيم أنه يريد أن يرحم ، لذلك قالوا : « رب ضارّة نافعة » .

أحياناً شخص يسوق الله لك الخير على يديه وهو لا يريد ، بل هو يريد أن يوقع بك الأذى ، لكن الله سبحانه وتعالى يجعل هذه الإرادة الخبيثة في صالحك ، إذاً الشيء الذي تنقضي بسببه حاجة المُحتاج من غير قصد ولا إرادة ولا عناية بالمُحتاج هذا الشيء لا يُسمى رحيماً ، من عناصر الرحمة أن فاعلها يُريد الرحمة ، هذا ينقلنا إلى موضوع دقيق هو أنك أحياناً لِسبب ما لا تريد أن ترحم ، فلست رحيماً ، أجل ، لست رحيماً إلا إذا أردت وفعلت .

إذاً : والذي يدعي أنه يريد قضاء حاجة المُحتاج ولا يقضيها إن كان قادراً على قضائها لا يسمى رحيماً ، لأنه لم يقضِها ، ولو أراد إذاً وتمّت الإرادة لوفّى بها ، وإن كان عاجزاً فقد يُسمى رحيماً باعتبار هذا الشعور الإنساني ، لكن هذه الرحمة ناقصة لأنها لم تتوج بالعمل .

إذاً من خلال هذا التعريف الدقيق أنت لن تكون رحيماً ، أي : لن يرضى الله عنك ، ولن تكون عِندَ الله مقبولاً ، ولن تكون عند الله محظياً ، ولن يرفعك الله في درجات القُرب إلا إذا أردت وفعلت ، أردت أن ترحم الناس وفعلت ما أردت ، لذلك قالوا : « المعروف بالتمام » .

أحياناً تُعَزِّي مصاباً ، وتتباكى أمامه ، وتُعبّر عن مشاعرك الإنسانية ولا تفعل شيئاً وهو مصاب ، فما قيمة هذه المشاعر ؟ وما قيمة هذه الأحاسيس ؟ وما قيمة هذه الدموع ؟ ما قيمة هذه المصافحة الحارة إن لم تفعل من أجله شيئاً ؟ ما الذي يأسر قلبه ؟ إحسانُك . .

أعرف أشخاصاً آخرين توفي والدهم وأتى الأقرباء الأغنياء ليعزوهم وليقدموا لهم أحرَّ المشاعر وأشدَّ المواجد ، وفي النهاية انصرفوا إلى بيوتهم وما قدّموا شيئاً .

فلذلك هذه المشاعر التي يُحِسُّ بها الإنسان إن لم يتبَعْهَا عمل طيّب مع القدرة عليه لا قيمة لها ، فقيمتها بما يتبَعُهَا من عمل طيب ، هذه المشاعر لا قيمة لها ولا يُؤخذ بها يوم القيامة ، لذلك :

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « مَنِ اسْتَعَاذَ باللهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَكُمْ باللهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنِ اسْتَجَارَ باللهِ فَأَجِيرُوهُ وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » .

[سنن النسائي]

أي : إنَّ هذه العبارات الحارة هذه العبارات الرنانة ، العبارات الدافئة إن لم يتبَعْهَا بذل وعطاء وعناية فلا قيمة لها ، أحياناً يأتي الابن لزيارة أمه يُقبّل يدها ويُقبّل قدمها وينصرف إلى بيته وإلى أولاده وإلى

زوجته ، ولا يُقدّم لأُمّهِ شيئاً إلا هذه العبارات المعسولة ، هذا العمل لا يُعتدُّ به ، لأنه مبني على موقف ذكي ، وليس موقفاً فيه تضحيا مادية .

قال العلماء : إنما الرحمة التامة أن تُفيض عطاءك على المُحتاج ، أن تريد وأن تفعل حتى تُسمى رحيماً .

الله سبحانه وتعالى رحيم ، إذا قضيت حاجات الناس ، مثلاً لك أقرباء أسبغت عليهم ، مما أعطاك الله عز وجل ، أعطيتهم بعض الحاجات في أوقاتها المناسبة ، في أيام الشِّدة كنت معهم ، فهذ الذي يرقى بك عند الله عز وجل .

الآن : هُناك رحمةٌ عامة ، وهناك رحمةٌ تامة ، الرحمة التامة ما توافرت فيها الإرادة والعمل ، الرحمة العامة ما أصابت المُستحق وغير المُستحق ، أحياناً تهطل أمطار غزيرة ، هذه الأمطار تُفيد الناس جميعاً ، فهذه الرحمة العامة ، لكن الرحمة الخاصّة لا ينالُها إلا المُستحق .

أضرب لكم مثلاً يُقرِّب المعنى ، أب له خمسة أولاد ، كل هؤلاء الأولاد يأكلون الطعام على المائدة ، وكلهم يلبسون ثياباً ، وكلهم ينامون على أَسرّة وثيرة وفي غُرف دافئة ، الأب يُعطي كل أولاده بالتساوي فرحمته عامة ، لكن أحد هؤلاء الأولاد على قُرب شديد من الأب فهو يبر أباه براً شديداً وإخلاصه لأبيه كبير ، وذو وفاء متميز ، فالأب أحياناً يَخُصّ هذا الابن بأشياء خاصّة .

رُوِيَ في الحديث القدسي : **« عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك »** ، مؤمن ،

وغير مؤمن ، تأكل وتشرب ، وتستمتع بالطعام والشراب والماء البارد والدفء والبرودة والمناظر الطبيعية ، وتستمتع بالأهل والأولاد ، وفي كل بيت أولادٌ صغار ، والآباء يستمتعون بأبنائهم الصغار بحركاتهم وسكناتهم ولكن أن يتجلّى اللهُ على قلبك ، وأن يملأ قلبكَ نوراً ، وأن يُقرِّبَكَ إليه ، هذه رحمة خاصّة ، هذه لا ينالُها إلا المُستحق ، فلله في خلقه رحمة عامة ورحمة خاصة ، الرحمة العامة ينالها كل الناس ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

[البقرة : ١٢٦] .

يعني أن تستمتع بالحياة ، وأن تأكل ألذَّ الطعام ، وأن تسكن في بيتٍ مريح ، وأن تكون لك زوجة تروق لك ، وأن يكون لك دخلٌ وافر ، وأن تشعر أنكَ متفوق على الناس ، فإيّاك أن تظن هذه رحمة ، لأنَّ الله « يُؤتي الدنيا من يُحب ومن لا يُحب »[١] ، هذه رحمة عامة ينالُها كلُّ الناس : « **عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك** » .

تأكل وتشرب وتستمتع بالأهل والأولاد والطعام والشراب والبيت المريح والدفء والمكانة والسُّمعة ، والتألُّق ، والنجاح ، والتفوق ، فليسَ هذا إيثاراً في الحقيقة ، الإيثار أن يَخُصَّكَ الله برحمةٍ خاصّة :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] .

الرحمة الخاصّة أن يتجلّى الله على قلبك ، فتمر عليك ساعة

---

(١) قطعة من حديث رواه الطبراني والصحيح أنه موقوف .

لا تعدلها الدنيا وما فيها ، إني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني [البخاري من حديث ابن عمر] .

أيها الأخ الكريم : اسأل نفسك هذا السؤال ، عطاؤك من الله من أي نوع ، قد يكون العطاء من نوع عطاء قارون ، ﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] ، وقد يكون عطاؤك من نوع عطاء فرعون ، ولكن البطولة أن يكون عطاؤك من نوع عطاء سيدنا موسى ، وسيدنا يوسف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[يوسف : ٦]

هناك اجتباء ، وهناك تقريب وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهناك نور يقذفه الله في قلبك ، فترى به الخير خيراً والشر شراً ، هناك شعور أن الله يحبك ، هناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم .

إنّ رجلاً من إخواننا الكرام ذهب لأداء فريضة الحج ، ولما عاد ، قال لي كلمة وأظنه صادقاً فيما يقول : قال لي : والله ليس في الأرض من هو أسعد مني.. إلا أن يكون أتقى مني ، وهو فقير ولا يملك من الدنيا شروى نقير ، ومع ذلك أقسم بالله أنه ليس في الدنيا من هو أسعد منه إلا أن يكون أحدٌ أتقى منه ، هذه الرحمة الخاصة ، يعني قد يعطيك المال ويجعل قلبك ممتلئاً بالقلق ، قد يعطيك الصحة وتكون أشقى الناس قد يبوئك أعلى مكانة في المجتمع ولا تكون عند الله

مقبولاً ، حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا معاذ بن جبل قال :

« **يا معاذ! والله إني لأحبك** » [رواه أحمد] .

هذا عطاء ثمين ؛ أن يحبك سيد الخلق صلى الله عليه وسلم فهنيئاً لك ويقول ﷺ لسعد أيضاً « **يا سعد اِرْمِ فداك أبي وأمي يجمع له أبويه** » ، « **هذا خالي فليُرِني أحد خاله** » [الترمذي من حديث جابر] .

إذا كانت لك مع الله مودة ، سَهَرُ الليالي ، غَضُّ البصر ، إنفاق الأموال ، حضور مجالس العلم ، في هذه الأجواء الباردة والطرقات الصعبة ، حينما تسعى بشدة على رجليك إلى مجلس علم ، حينما تتفقد اليتامى والفقراء والمساكين في ظلمات الليل ، حينما تشمر وتنهض للعمل الصالح ، حينما تقدم شيئاً ثميناً لأخيك المؤمن ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « **ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب لي من أن أعتكف في المسجد شهراً** » . هذه الجهود المتتابِعة ، المتراكمة ، الكثيرة المديدة ، هذه الجهود تتوج بما يسميه العارفون بالله بتجليات ؛ إذ يتجلى الله بها على قلبك فتشعر بالسعادة ، لو جلست مع أناس مقطوعين عن الله عز وجل لرأيتهم مقهورين ، لرأيتهم ضائعين ، لرأيتهم شاردين ، لرأيتهم حائرين ، رأيت أمرهم فُرُطاً ، رأيتهم متشككين ، رأيتهم متشائمين ، رأيتهم متمزقين ، ترى الدنيا عندهم عريضة لكن الله حرمهم من سعادة القُرب .

وما أكثر ما ذكرت هذه الواقعة وكررتها : هذا الذي وقع في منزلق طفيف فوقع في الحجاب عن الله عز وجل ، فصار ينتظر مصيبة بحسب ما يعلم ، فلما تأخرت المصيبة ناجى ربه فقال يا رب لقد

عصيتك ولم تعاقبني ، فوقع في قلبه : أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟!

هذه الجهود لها مردودها الطيب ، فمثلاً شاب في مُقتبل الحياة من المسجد إلى البيت إلى العمل ، في حين أن بقية الشباب في سهراتهم المنحطة وفي أفلامهم الخسيسة وفي مزاحهم الرخيص ، وفي لعبهم للقِمار ، وفي إطلاق كلمات السوء في الطرقات للفتيات ، أنت من البيت إلى المسجد ومن العمل إلى المسجد ، من تلاوة القرآن إلى حديث رسول الله ، ومن خدمة زيد إلى خدمة عبيد ، هذا الإنسان مع هذه الجهود الكبيرة ، عندئذ يجعل الله قلبه مستقراً لأنواره .

لذلك : « **أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤوا ذكر الله تعالى** » ، بمجرد أن تقع عينك على مؤمن صادق الإيمان يُحس الناظر برعشة في قلبه ، كأنه تذكر الله عز وجل ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام ، « **أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى** » ، هذا الموضوع يُذكِّرُنا بمعيّة الله العامة والخاصّة ما دُمنا قد تحدثنا عن رحمة الله العامة ، العامة موجودة لجميع الناس ، العامة أن تتنفس الهواء وتشرب الماء وتأكل الطعام ، وتنام على فراش ، والقلب منتظم والرئتان والكليتان ، العضلات والأعصاب والأولاد في البيت والزوجة كذلك والعمل مريح ، هذه رحمة عامة ، هذه يستوي فيها المؤمن وغير المؤمن ، وقد تجد غير المؤمن متفوقاً كثيراً في هذه الأنواع على المؤمن ، ولكن الرحمة الخاصة ، حينما يُلقي الله في قلبك نوراً ، حينما يُعلِّمُكَ الله ، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلَّمه ، حينما يُلهِمُكَ الله سواء السبيل ، حينما يُلهِمُكَ الله رشدك ، حينما يُقيّض الله لك مَن حولك لتكون معهم في معيّة وفي صحبة طيبة ، حينما

يجعل الله بِرَّكَ في مواقعه وعند أهل الحِفاظ لا عند أهل الجحود ، هذه رحمة الله عز وجل ، هذا يذكرنا بمعيّة الله العامة ومعيّته الخاصة ، وذكرت من قبل أن الله مع كل مخلوق كائناً من كان بدليل قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

مع المؤمن والكافر ، والمُلحد ، والشقي والسعيد ، والعاصي والطائع ، والنظيف والطاهر ، مع كل هؤلاء ، لكن هناك آيات :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ١٢] .

البطولة أن تنال معيّته الخاصة ، والبطولة أن تنال رحمته الخاصة ، الرحمة العامة ، أنت كأب لو أن أحد الأولاد لا سمح الله ولا قدّر كان عاقّاً وقاسي الكلمات وحاد النظرات ، هو متجهّم دائماً يرد الكلمة بعشر كلمات يأتي وقت الطعام تقول له بلسان المبغض : اجلس كُلْ ، كُلْ لكني لا أحبك كُلْ ، خُذْ ما تريد ، خذ كل هذه الحاجات ، لكن الابن البار نظرةٌ حانيةٌ من أبيه لا تُقدّر بثمن ، نظرة حانية منه ، كلمة

رضي الله عنك ، هذه من قلب ممتن ، هذه لا يعدلها شيء ، فلذلك أيها الإخوة البطولة لا أن تنال رحمته العامة كأن تستنشق هواء ، وتأكل وتشرب ، وتنام وتتزوج ، وتعمل وتكسب المال ، هذا قدر مشترك بين جميع الناس ، لما روي عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : « **إن الله يؤتي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يؤتي الإيمان إلا من أحب** »[١] .

لكنَّ الشيء الذي يجب أن تسعى إليه هو رحمته الخاصة ، بأن يُعلِّمَكَ ، وأن يُلقي في قلبك نوراً ، وأن يُعلِّمَكَ من تأويل الأحاديث ، أن يُلهِمَكَ الحِكمة ، أن تضع الشيء المناسب بالقدر المناسب في الوقت المناسب في المكان المناسب مع الشخص المناسب ، قال تعالى :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

أن يُعلِّمَكَ وأن يُؤتيك الحكمة ، وأن يرزُقَكَ طيباً ، وأن يستعملك صالحاً ، وما أكثر ما أذكّر أخوتي وجلسائي بالفكرة التالية : إن رأيتُ إنساناً له عمل شريف يخدم به المسلمين أقول له : « **إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك** » .

لك مهنة شريفة مشروعة ، تخدم بها الناس ، تتقاضى أجراً معتدلاً تنصحهم ، هذا عمل شريف ، وظفك الله في بعض الوظائف الدينية ، جعلك تعلم الناس التجويد ، فهذا جميل ، جعلك تعلم الناس الفقه فهذا أجمل ، جعلك تعلم الناس القرآن ، وجعل الخير على يديك ،

---

(١) الصحيح أنه موقوف على ابن مسعود .

فهذه قاعدة ، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك ، انظر عملك ، هل أساسه الرحمة بالناس أم الإضرار بهم ، أساسه بث الأمن في الناس أم سلب الأمن من الناس ، أساسه العطاء أم الأخذ ، أساسه الطمأنينة أم القلق أساسه أن ترحم أم أن تقسو ؟ هناك أشخاص لو عُرِضَ عليهم مبالغ فلكية ، على أن يكونوا في أعمال تقوم على إيذاء الناس لا يرضون.. بل يقول : معاذَ الله ، الله الغني ، الله الكريم ، أنا أعيش على آلام الناس أنا أبني مجدي على أنقاضهم ، أأبني غناي على فقرهم ، وأبني طمأنينتي على قلقهم ، وأبني حياتي على موتهم ؟!.. معاذَ الله ، الله الغني .

إذاً : الرحمة الخاصّة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال ومعاونة الضعيف ورحمة اليتيم ، ومعاونة الأرملة ، وتفقّد الجيران وحضور مجالس العلم وغض البصر والذِّكر والتلاوة ، هذه قنوات تصلك من خلالها الرحمة الخاصّة وتشعر أنك إنسان متميّز ، لك عند الله مكانة ، هذه المكانة تتبدى في اللُّطف ، وفي الحِفظ وفي الرعاية ، لذلك قالوا معية الله الخاصة : النصر والتأييد والحفظ والتوفيق ، تشعر بها ، تلمسها بيديك فحينما يكون شخص أثيراً عند شخص ذي مكانة تراه يشعر بشعور عجيب كأنه فوق الناس جميعاً ، فهو قريب من شخص مهم ، وإذا التقطتْ له صورة بصحبة تلك الشخصية ازدهى نفْساً وتعاظمَ ويقول مثلاً : البارحة كنا معاً على العشاء ، فكيف إن كانت لك مع خالق الكون مودة ؟ قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

كيف إذا كان اللسان طلقاً في ذكر الله ، كيف إذا كان البيان ساطعاً في فهم كلام الله أو في تفسير كلام الله عز وجل ، فيا أيها الإخوة

القراء الكرام : رحمة الله الخاصّة ، تحتاج إلى مجاهدة ، لذلك قال إبراهيم بن عيلة : « **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** »[(١)] . جهاد النفس والهوى . .

الآن هناك شيء سنسميه تحفّظاً ؛ الإنسان إذا رَحِمَ إنساناً يقول لك تمزَّق قلبي لمنظره وبؤسه ، فقد ترى طفلاً صغيراً واقفاً على قارعة الطريق الساعة الحادية عشرة في البرد الشديد ليبيع الخُبز أو غيره ، ألا تشعر برحمة ؟ ألا تُحِسُّ بتمزّق ؟ أين أهله ؟ لعلهم محتاجون فالواجب التخفيف عن هؤلاء وهذه رحمة . إن المسلم إنسان يمتلىء قلبه بالرحمة ويدرك أنه من لا يَرحم لا يُرحم . . فإذا شعر رجل أنه سبب في شقاء الآخرين أو أنه يستطيع أن يخفف عن الآخرين آلامهم وبؤسهم ثم لم يفعل هذا الشعور يشقيه إلى الأبد .

التعليق : الإنسان عندما يقف أمام حالة بائسة يُحِسُّ أنه يكاد يتفطَّر قلبُهُ ، يُحِسُّ أنه يتمزق في أعماقِهِ ، يُحِسُّ بمشاعر رحمةٍ معينة ، يا ترى رب العالمين ، هل تعتريه هذه المشاعر ، لا!! هو منزّه عن هذا لأنه إله ، لكنه يرحم كل خلقه .

والشيء الثاني : عندما يرحم الإنسان مخلوقاً معذّباً فإنما يرحمه حتى يُريح نفسه مما اعتراه من مشاعر منغصة ، فهذا ضعف فيه ، لكنَّ الله عز وجل يرحم لمصلحة المخلوق لا لمصلحة الراحم ، نقطتان مهمتان إن الله سبحانه وتعالى مُنَزّهٌ عن مثل هذه المشاعر التي تعتري مشاعر الرحيم من بني البشر ، وحينما تندفع لرحمة مخلوق

(١) قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس : هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة ١ .هـ .

فاندفاعك هذا كي تستريح ، إذاً هذه الرحمة معلولة ، أنت بهذا العطاء تبتغي راحة نفسك ، لكنَّ خالق الكون يرحم مخلوقاته ليرحمهم ، لا يرحمهم ليتخلّص من شعور محصن اعتراه لا . . فالله عز وجل مُنزّه عنه .

ثم إننا نلج باب موضوع دقيق جداً ؛ الفرق بين الرحمن والرحيم .

فبعض العلماء قال : الرحمن في ذاته ، اسم من أسماء ذاته والرحيم في أفعاله وبعضهم قال : الرحمن في الدنيا والآخرة ، على كلٍّ القضية تحتاج إلى تفصيل وإيراد أمثلة ، أُم وأب ، وابن يده اسودّت ، هذا مرض الموات وعلاجه قطع يد الابن ، الأُم ترفُض أشدَّ الرفض أن تُقطَع يده ، الأب يُصر أشدَّ الإصرار على قطع يده فأيهما أشدُّ رحمة ؟ الأم تبكي وتصرخ ، والأب ساكت مُصِرّ على قطع يده ، لأن الأب عالم بالعقابيل والأم مُصِرَّة على عدم قطع يده ، والحقيقة أن الأب أشد رحمة لأنه بهذا الضرر المحدود ينفع كامل البدن ، فيخلصه من أن يسري الداء ويتفشى في سائر الجسم ، أما الأم فرحمتها المؤقتة بابنها تكون قد أودت به وأوردته المهالك ، فمعنى رحمن :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾

[مريم : ٤٥]

وهذا سؤال كبير جداً ، يا أخي الله رحيم ، وهذه الزلازل وهذه الفيضانات ، وهذه المجاعات ، وهذه الحروب الأهلية في العالم وهذا القهر وهذا الفقر وهذه الأمراض الخطيرة ، يحتار في أمرها

المرء فهذه كلها التي تؤذي عينك مصدرها من الرحمن ، لأنَّ الرحمن يشمَل الدنيا والآخرة ، الإنسان إذا مرض فهذا من مصائب الدنيا فقط ؛ فالفقر مُؤلم والمرض مُؤلم ، والحرمان مُؤلم ، والقهر مُؤلم ، والذُّلُّ مُؤلم ، أما إذا كان هذا الحرمان سبباً لعطاء مديد إذا كان هذا الإضرار سبباً لنفع طويل ، إذا كان هذا القبض سبباً لبسط كثير ، فهذا إذاً ضُرٌّ لمنفعة ؛ لذلك إذا رأيت شيئاً مؤذياً فاعلم أن الله سبحانه وتعالى يَضُرّ لِينفع ، ويأخُذ لِيُعطي ويبتلي لِيَجزي ، ويُذِل لِيُعِز ، ويقبض لِيَبسِط لذلك أجمل كلمة قالها بعض العارفين : « **الشر المطلق لا وجود له في الكون** » ، ما معنى الشر المطلق ؟ الشر الذي يُبتغى لذاته .

الأب الطبيب العالم الذي قلبه يمتلىء رحمة يصر على قطع يد ابنه ، يتلافى الضررالأكبر بالضرر الأصغر ، هذا المثل يجب أن يكون واضحاً جداً عند الإخوة القراء الأكارم ؛ كل أنواع المصائب في الدنيا ، كل أنواع الرزايا كل أنواع الابتلاء ، هذا كله ضرر أقل تلافياً لضرر أشد هل هناك آية قرآنية تؤكد هذا المعنى ، قال تعالى :

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ السجدة : ٢١] .

الله عزَّ وجل رحيم ورحمن ، رحيم يمتعك بالصحة ، رحيم يمنحك المال ، رحيم يوفر المأوى ، رحيم يبث فيك الراحة النفسية ، لكنه رحمن ينظر إلى آخرتك فيأخذ بيدك للعمل الصالح ، وينظر إلى هذه الحياة الأبدية لتسعد بها ، التي سوف تحياها ، ولمصلحة هذه الحياة الأبدية ربما يُذهب كل مالك .

ذات مرةٍ قال لي شخص وأَقْسَم : أن له بيتاً تزيد مساحته على خمسمئة متر ، وله حدائق يقوم على أمرها والعناية بها موظفون ، ومادخل إلى بيته فاكهة إلا بكميات كبيرة ، وعنده طباخ وعنده خدم وعنده حشم وله ثلاث مركبات ، وله تجارة واسعة وعنده معمل ألبسة ، وبعد حين رأيته في بعض أحياء دمشق الفقيرة ، قال : أنا أنام على طاولة التفصيل وآكل من هذه العلبة ، بلا صحن ، كيف سُلب ماله كله . . قصة طويلة فإزاء هذه الواقعة هل نحن أمام رحمن أم رحيم ؟ ، رحمن ، لأنَّ هذا الشيء لمصلحة آخرته ، كان لا يصلي ، وكان يشرب الخمر ، ويعتدي على أعراض الناس باعترافه الشخصي ، فأراد الله عز وجل أن يَرُدَّهُ إليه سلبه كل المال . واللهِ الذي لا إله إلا هو ، كل قصة تسمعها ، تُعد هي بنفسها بياناً إلهياً لأنه ماذا قال الله عز وجل : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

فكأن هذه الحادثة تُجسّد هذه الآية ، لذا أيها القارىء الكريم أن البطولة تأتي رَبَّك طوعاً ، وأن تأتيه راغباً ، وأن تأتيه مختاراً ، وأن تأتيه بمبادرة منك ، أن تأتيه وأنت صحيح ، أن تأتيه وأنت شاب ، أن تأتيه وأنت لك مكانة ، أن تأتيه وأنت في وظيفتك لا بعد التقاعد ، بعد أن ولّت الدنيا وأصبحتَ هرماً ، يتنقل من مسجد إلى مسجد لعله يبحث عن مكان مريح ، وأنت في كامل عافيتك البدنية والمالية اغدُ إلى بيت الله واسع إلى مرضاة الله .

رحمن الدنيا والآخرة ، من أجل سعادتك في الآخرة قد يصرف عنك الدنيا كلها ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، لكن أُدع الله عز وجل أن يرزقك الدنيا والآخرة ، والدعاء القرآني :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنّ الله عز وجل يقول :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

إنّ أحد العلماء له كلمة رائعة جداً يقول : « **لعلك تقول ما معنى كونه تعالى رحيماً وكونه أرحم الراحمين ؟!.. والرحيم لا يرى مبتلى ولا مضروراً ولا معذباً ولا مريضاً وهو يقدر على إماطة ما بهم إلا ويبادر إلى إماطته ، والرب سبحانه وتعالى قادر على كفاية كل بلية ، ودفع كل فقر وغمة ، وإماطة كل مرض ، وإزالة كل ضر والدنيا طافحة بالأمراض والمِحن والبلايا ، وهو قادر على إزالتها جميعها** » ، لماذا لا يفعل ؟.. هُنا السؤال.. كم مصيبة في الأرض ، كم ضائقة ، كم من حالات صعبة جداً والله قادر وبيده كل شيء ، كُنْ فيكون ، قال : الجواب : إنَّ الطفل الصغير قد تَرِقُّ له أمه فتمنعه من الحجامة ، والأب العاقل يحمله عليها قهراً ، والجاهل يظن أن الرحيم هي الأم دون الأب ، والعاقل يعلم أن إيلام الأب إياه بالحجامة من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته ، وأن الأم له عدو في صورة صديق .

الرحيم مع الجهل عدو في صورة صديق ، أحياناً يقول الأب لابنه : سأدعه ينبسط ، فبعَثَه إلى إنكلترا وأعطاه مئتي ألف ، أب ميسور : اذهب يا بني وانبسط ، هذا عدو.. إذا عاد الابن زانياً أو عاد شارباً للخمر أو عاد وهو يحتقر أمَّته ، ويرى أن أولئك الذين كان

عندهم هم الذين يحيون وحدهم في هذه الدنيا ، وانتهى دينه إلى ضياع نهائياً ، فهذا الأب عدو في صورة صديق ، وكل إنسان يدعوك إلى أن تستمتع بالدنيا ولكن على حساب طاعة الله عز وجل فهذا عدو بصورة صديق .

لذلك ربنا عز وجل يقسو أحياناً لمصلحة آخرتك ، قد يقول قائل : مصيبة ، نعم ؛ تصيب الهدف ، وأنا أقول دائماً : الله عز وجل إذا أراد أن يداوي مخلوقاً يعلم كيف يداويه ومن أي زاوية أراد أن يداويه ، من المكان الصعب ، من المكان الحرِج ، من حيث هو مطمئن ، يُؤتى الحذر من مأمنه ، لا ينفع حذر من قدر .

طبيبُ قلبٍ في أمريكا عدَّ الجريَ هو الوقاية التامة للقلب ، وألَّفَ كتباً ، وبمج مقالاتٍ وأجرى محاضرات وهو يجري في اليوم ساعتين أو أكثر ، وكأن الجري هو إله يحميه من كل مرض ، مات وهو يجري .

الجري مفيد جداً ، وليس هذا خطأً ، لكن حينما ألّهَ الجري ، وعدَّه هو السبب الكافي والشافي ، فالله عز وجل خيّبَ ظنه .

ترى أحياناً إنساناً باختصاصه يُصاب ، ما هو السبب ؟ لأنه متَّكل على اختصاصه ، متَّكل على علمه ، متَّكل على خبرته ، فجاءه من مكان طمأنينته ، من مكان أمنه .

هذا الموضوع دقيق الدلالات جداً ، الله سبحانه وتعالى خلقك للآخرة ، لذلك يمكن أن يضحي لك بدنياك كلها ، من أجل آخرتك ، لكن أنت إذا كنت مُفلحاً وموفقاً اطلب منه ، واضرع إليه أن يجمع لك بين الدنيا والآخرة ، ائته طوعاً ، ارغب فيما عنده حتى يُطمئِنكَ

في الدنيا والآخرة ، هذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

إن الآية التالية يجب ألا تبرح أذهانكم ، إطلاقاً : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

فالله غني لماذا يُفقرك ؟ لماذا يُضيّق عليك إلا حُباً بك ورحمة بك ودفعاً بك إلى باب عبوديته .

الكلمة اللطيفة كما قال بعضهم : الألم القليل إذا كان سبباً لِلذّةٍ دائمة ليس شراً بل هو خير .

قالوا : الرحيم هو الذي يريد الخير للمرحوم ، وليس في الوجود شرٌّ إلا وضمنه خير ، شرٌّ مطلق لا يوجد في الكون .

مثلاً فتح البطن واللهِ عمل مزعج ، إنسان أدخل المستشفى فأحضر الطبيب مشرطاً وفتحَ اللحم ، نفر الدم ، أخذتَ الملاقط ، لقطتَ الأوعية كلها ، أتيتَ بالمشدات شددْتها ، دخلتَ إلى الزايدة واستأصلتها ، هذا عمل ظاهره فيه قسوة ودماء ، ولكن باطنه رحمة ، لأنها إذا أهملت ثم انفجرت حدثت مشكلةٌ كبيرةٌ جداً ، كالتهاب الزايدة فيبادر ذووه مباشرةً إلى المستشفى ، أرحم الناس وأقرب الناس يقول : مباشرةً إلى المستشفى هناك فتح بطن ، وقطع ، ووصل ، وخياطة ، وتخدير ، طبعاً هذه الرحمة ما دُمتَ تفهم أن كل المصائب التي تأتي هي من نوع فعل الطبيب الرحيم فأنت على حق .

لذلك ؛ أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ،

الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرحم بعبدي من الأم بولدها .

وبعد ، فقبل أن أختم البحث ، هناك سؤال يلح علينا : إن خَطَرَ لك نوع من الشر لا ترى تحته خيراً ، أو خَطَرَ لك أنّ تحصيل ذلك الخير كان ممكناً دون اتباع أساليب الإيلام ؟ فماذا تفعل .

إنْ رأيت مصيبة هينة وأمرها بسيط ، وإذا بدا لك نوع من الشر لا ترى تحته خيراً أو خطر لك أنه كان من الممكن أن يكون هذا الخير دون ذلك الشر ؟ ما الجواب.. قال العلماء : فاتّهم عندئذٍ عقلك القاصر ، وقل : أنا فهمي محدود ، وعقلي قاصر عن رؤية الغد ، مستحيل أن تكون مصيبةٌ بالأرض بلا سبب ، أو بلا خير ضمني ، أو بلا هدف نبيل ، أو بلا غاية عُظمى ، لكن الشر المطلق لذات الشر فهذا شيء لا يُمكن أن يكون له وجود في الكون كله ، فكل شيءٍ وقع أراده الله ، وكل شيءٍ أراده الله وقع ، وإرادة الله عزَّ وجل مُتعلقة بالحِكمة المُطلقة ، وحِكمته مُتعلقة بالخير المُطلق ، والدليل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

« بِيَدِكَ الْخَيْرُ » ، لم يقل والشر ، الإعزاز خير ، الإذلال خير ، إيتاء المُلك خير ، سلب المُلك خير ، أما إذا قلت إن هذا الشر لا خير تحته أو لا خير وراءه ، قالوا : فإنّ هذا مما تقصر العقول عن معرفته .

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

إذا أتىٰ الله شخصاً عِلماً وبصيرةً ، وآتاه قُدرةً على تفسير المصائب تفسيراً يليق بذات الله عز وجل وأسمائه الحسنى ، فهو راضٍ بقضائه وقدره ، ويرى يد الله تعمل في الخفاء ، ويرى يد الله فوق أيدي الناس ، فإذا ابتعد الإنسان عن التوحيد وقع في آلام لا تُحتمل ، كما روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

« إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ ، بُخَلاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا » . [سنن الترمذي] .

إنّ الإنسان إذا لم يُوحِّد يقع في شقاء لا نهاية له ، والتوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، وأن ترى كل شيء ينتهي إلى خير ، « بِيَدِكَ الْخَيْرُ » ، وأن تدعو الله عزَّ وجل أن يرحمك في الدنيا والآخرة ، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة .

* * *



الاسم هو « الكبير » وبادىء ذي بدء ، أبيّنُ أن من قوانين النفس الإنسانية أنها لا تُقبل إلا على كبير ، وإلا على عظيم ، لا تختار إلا الكبير ، لا تُعجَب إلا بالعظيم ، هذا من خصائص النفس البشرية ، لذلك حينما يتعرّف الإنسان إلى الله عزَّ وجل ترتاح نفسه لأنَّ فِطرتها كذلك ، اختارت الكبير ، اختارت الملك ، اختارت العظيم ، اختارت الرحيم ، اختارت القوي ، اختارت العليم اختارت السميع ، هذا معنى قول الله عزَّ وجل :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

هناك توافق بين خصائص النفس البشرية وأسماء الله الحسنى بمعنى أنّ في جِبِلَّتِكَ تعظيماً للكبير ، والله هو الكبير ، وأنّ في جِبِلَّتِكَ ميلاً إلى الرحيم ، والله هو الرحيم ، وأنّ في جِبِلَّتِكَ إقبالاً على الكريم والله هو الكريم ، يعني كل أنواع الاضطراب وأنواع الضياع وأنواع التشتت تتبددُ إذا تعرفتَ إلى الله عز وجل وتطمئن بعدها نفسك ، هذا معنى قول الله عزَّ وجل : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

وإني لأقول دائماً وأُردد : ما من رجل على وجه الأرض إلا ويبحث عن شيئين : سلامته ، وسعادته ، ولو عَلِمَ الإنسان أن جِبِلّتَهُ ، وطبيعته ، وخصائص نفسه ، ومبادىء تركيبه ، قائمةٌ على حُب الكمال ، والله هو الكامل كمالاً مطلقاً ، لاتضحت له الحقيقة ، وانتهى كل إبهام ، فما الذي ينفّر النفس ؟ أن تتوقع الكمال في جهة ثم تفاجأ بأنها ليست كاملة ، هؤلاء الذين يتعلقون بأشخاص ادَّعوا الكمال وهم ليسوا كذلك يصابون بنكسة في حياتهم كبيرة جداً ، لكن إذا تعلّق الإنسان بالله عز وجل لن يُفاجأ بأن الله ليس كما اعتقد فالله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] .

أريد قبل أن نتحدث عن اسم الله الكبير ، أن أُبيّن للقراء الكرام هذه الحقيقة : وهي : أنّ طبيعة النفس ، وخصائص النفس ، وجبلّة النفس ، وفطرة النفس ، مفطورةٌ ومجبولة ومصنوعة ومبنية ومخلوقة على حُب العظيم ، على حُب الكريم ، على حُب القوي ، على حُب العليم ، على حُب الرحيم ، فإذا تيّقنتَ أنَّ الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلها حُسنى تعلّقتَ بها ، وارتاحتْ نفسك واطمأنَّ قلبك ، وسَعِدْتَ في دنياك وأخراك ، إذا توهمتَ أنه بالإمكان أن تسعد لثانية واحدة بغير الله فأنت واهم ، هذا الذي يدعو إليه الدين ، قال سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ [المدثر : ٥٤] .

الدين يُذكّر بأصول الفطرة ويجلّيها ، فمثلاً هذه السيارة ، مصنوعة على أن تسير على طرق معبدة ، كل شيء فيها ينتظم ، وأنت ترتاح في قيادتها ، ترتاح في تحريكها ، تتملك زمامها ، إذا هي سارت

على طريق معبدة ، فإنها صنعت لهذا الطريق ، وصنع هذا الطريق لها ، فحينماً تخرج عن الطرق المعبدة ، تشعر باضطراب ، بخلل ، باختلال توازن ، بأصوات ، بعثرات ، بمتاعب لا حصر لها ، أريد أن أقول : إذا عرف الإنسان اللهَ عز وجل اهتدى إلى فطرته ، ووجد نفسه ، وجدتُ نفسي حينما تعرفت إلى ربي ، خصائص النفس أساسها أنها تطمئن إذا عرفت العظيم لاحظ نفسك ، في مجلس ، مع أشخاص متعددين المُتكلم المُتألق الذكي القوي تجد نفسك طوال السهرة متجهاً إليه وأنت لا تدري قد تُغفل كل الحاضرين ، قد لا تعبأ بهم ، قد لاتنظر إليهم ، لأنك مُركَّب على حب العظيم ، حُب الكبير ، فإذا أيقنتَ أن الله هو الكبير وهو العظيم وهو الرحيم ، وأن أسماءه كُلّها حُسنى توجهت إليه ، ما هو الدين في حقيقته ؛ التفات إلى الله عز وجل ، من هو الكافر ، الذي أعرض عن الله وتوجّه إلى ما سِواه ، هذا متجه إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، أو مالٍ يجمعه ، أو منصبٍ يُحصِّله ، أو وجاهةٍ يُحققها ، وهذا المؤمن مُتجهٌ إلى الله عز وجل .

من الآيات الدالة على هذا الاسم العظيم قوله تعالى :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد : ٩] .

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ : ٢٣] .

مرةً ثانية : فإذا كُنت في مجلس ، وإذا كُنت في ندوة ، أو كُنت مع مجموعة من الناس ، وأنت لا تدري وأنت لا تشعر تتجه نحو العظيم نحو الأكثر عِلماً والأكثر فصاحة ، والأكثر ذكاءً ، والأكثر قُدرةً

على إقناع الآخرين ، والأكثر شأناً ، والأكثر جمالاً ، هكذا ، هذه جِبِلة النفس وهذه طبيعتها ، فإذا عرفت من هو الكبير أقبلت عليه ، فكل سعادتك تتحقق إذا عرفت الكبير وأقبلت عليه .

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] .

الممرض غير الطبيب ، والجندي غير اللواء ، والبائع المتجول غير التاجر الكبير ، فالتجار درجات ، أهل العلم درجات ، الممرض غير مدير المشفى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

عدد الدرجات أكبر ، والمسافات بين الدرجات أكبر ، نحن في الدنيا يستوي عظيم الشأن مع حقير الشأن في الطعام والشراب ، كلنا تُشبِعُهُ لقيمات ، كلنا يرتاح إذا دخل غرفة دافئة في الشتاء ، هناك قواسم مشتركة كثيرة جداً بين أنواع الناس وأقسامهم ، ولكنَّ الله عز وجل يُبيّن أنَّ مراتب الآخرة كثيرة جداً ومتفاوتة جداً ، والمشكلة أن مراتب الدنيا لا تعني شيئاً لقرب زوالها وتحولها ، وأن مراتب الآخرة تعني كُلَّ شيء لدوامها وبقائها ، مراتب الدنيا تحول وتزول بالموت ، في الموت يستوي الغني والفقير يستوي الصحيح والمريض يستوي الوسيم والدميم ، يستوي القوي والضعيف ، يستوي كبير القوم وصغيرهم ، يستوي سراةُ الناس وصعاليكهم عند الموت ، إذاً هذه الدرجة التي تبوّأها لا تعني شيئاً ، لأنها لا تدوم ، وقد يكون عظيم الشأن في الدنيا فقيراً عند الله ، وقد يكون عظيم الشأن عند الله حياته خشنة ، ودخله محدود ، بيته صغير ، وعياله كُثُر ، زوجته ليست كما

يريد ، قد يكون ذلك ولكن علو الدرجات في الآخرة تعني المقام السامي ، إنها تعني مرتبته الحقيقية عند الله عز وجل ، إنها تعني الخلود في هذه المرتبة إلى أبد الآبدين ، لذلك قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً ، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيراً ، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنِ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا ؟ » قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : « عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ » قَالَ ابْنُ عُمَرَ : فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ذَلِكَ . [صحيح مسلم] .

هذه الكلمات كلمات الإسلام كلمة « أشهد أن لا إله إلا الله » ، كلمة « سبحان الله » ، كلمة « الله أكبر » ، كلمة « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، كلمة « إن شاء الله » ، هذه الكلمات لها معانٍ عظيمة ، لكن الناس مع استخدام هذه الكلمات استخداماً كثيراً من دون علم بمضمونها أفقدوها معناها ، يعني إن شاء الله ، إذا أردت أن تخلف وعدك ، إذا أردت ألا تُسدد ما عليك ، تقول له إن شاء الله ، غداً إن شاء الله ، ليس هذا معناها إطلاقاً .

كلمة « الله أكبر » تقولها إذا رأيت مثلاً آلة عظيمة صنعها أجنبي تقول : الله أكبر ، فقد قلتَها في معرض التعجب ، هذه ليس من شأنها أنْ تُقال في هذا الموطن ، بل إذا رأيت آية من خلق الله عز وجل واستعظمت خالقها تقول الله أكبر ، هذه الكلمات التي نرددها الله أكبر ، سبحان الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه لو عرفنا معناها

حقيقة لكُنا في حال غير هذا الحال ؛ لذلك ربنا عز وجل يقول :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

سأل العلماء : ما هُنَّ الباقيات الصالحات ؟ قال بعضهم : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإذا قرأت الآية شعرت أنّ مَن عنده مالٌ كثير أو جاهٌ عريض أو حياةٌ ناعمة ، فكلُّ هذا شيء تافه أمام : الله أكبر ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؟ . . نعم لأنك إذا قلت : سبحان الله حقيقة فقد سبّحته ، وإن قلت : الحمد لله حقيقة فقد حمدته ، وإن قلت : الله أكبر فقد كبَّرته ، وإن قلت لا إله إلا الله فقد وحَّدْته ، فإذا سبحته وحمدته ووحَّدته وكبَّرته فقد عرفته ، وإذا عرفته عرفت كل شيء ، وسعدت بهذه المعرفة إلى الأبد ، وهذه لا يدانيها متاع الدنيا كله ولو كثر .

أيها القارىء الكريم ، الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية : ٣٧] .

إنّ الله عز وجل وصف نفسه أنه كبير ، وأنه عظيم ، وبأن له الكبرياء ، وإذا أمرنا أن نُكبّره ، وإذا أمرنا أن نُعظّمه ، فإنما ذلك لكي نَسعَدَ به ونُقبل عليه ، وكي نُحقق الهدف من خلقنا .

أحياناً قد ترى إنساناً يتحدث عن نفسه تيهاً وازدهاءً من أجل أن يفتخر عليهم ، من أجل أن يتيه عليهم ، لكن الله سبحانه وتعالى إذا قال : وهو الكبير المتعال ، وله الكبرياء في السموات والأرض ، وإذا أمرنا أن نُكبّرهُ تكبيراً :

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر : ٣] .

لكي نعرف قدره ومن ثم نسعد بهذه المعرفة .

وبعد ، فلا بد لنا ليكون البحث شافياً أن نتحدث عن : اشتقاقات هذا الاسم لتكون الإحاطة به إحاطة شاملة شافية ، هذا الاسم وَرَدَ على صيغ متعددة ، وَرَدَ الكبير ، وهو العليّ الكبير . . وَوَرَدَ المُتكبر ، وثالثها الأكبر وهي صيغة مبالغة ، قال تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

فالكبير والمتكبر والأكبر كلها تصب في قناة واحدةٍ ، حقاً ما قيل : إنه لا يكبر عليكم شيء ما دامت كلمتكم الله أكبر ، فأنت قد تكذب لأنك تخاف من إنسان كبير ، ففي حياة كل إنسان شخص بإمكانه فيما يبدو أن يفعل وألا يفعل ، وأن يعطيك أو أن يمنعك ، أنت شئت أم أبيت لك حجم محدود ، لك حجم مالي محدود ، لك حجم في القوة محدود ، لك حجم في المراتب الاجتماعية محدود ، هناك أقوى منك ، هناك أكثر منك مالاً ، هناك أعظم منك جاهاً ، فأنت كلما واجهت من هو أكبر منك ، من هو أعظم منك ، من هو أشد منك قوةً ، من هو أبرع منك حيلةً ، من هو أسمى منك درجةً في العلم ، وقلت : الله أكبر فأنت اتجهت إلى من هو أكبر منه .

وقف مرةً رجل بين يدي الحَجَّاج وكان مُقدِماً على قتله ، فقال هذا الرجل : أيها الأمير ؛ أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين

يديك ، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي إلا نظرت في أمري نظر من يرى برئي أحب إليه من سقمي ، فعفا عنه .

إنه لا يكبر في نفسك شيء مادامت كلمة « الله أكبر » هي الأكبر ، أحياناً المرض يَكبُر ، فإذا قلت : الله أكبر ، يعني أن الله قادر على شفائك التام من هذا المرض ، أحياناً عدوك يكبر ، تقول : لا نستطيع مواجهته ، فإذا قلت : الله أكبر صَغُرَ هذا العدو ، وإذا قلت : الله أكبر صَغُرَ هذا المرض ، وإذا قلت : الله أكبر فإن حيلَة خصمك المحكَمة تخفق ، لذلك أنت معك سلاح لو عرفت قيمته لكنت في أعلى عليين ، ولكن البلاء يكمن في أننا نردد بعض الكلمات ، ولسنا في مستوى مضمونها ؛ تقوىً ويقيناً بل تقال جوفاء مفرغة من مضمونها .

الكبير والمتكبر والأكبر والكبرياء ، كل هذه الأسماء وردت مشتقّة من اسم الكبير ، المعنى الأول المتبادر لاسم الكبير أنه في مقابلة الصغير ، هذا شيء صغير ، وهذا شيء كبير ، وهذا أكبر . . . إلى آخره ، جبل قاسيون جبل ، لكنك إذا وازنته بجبل الشيخ فجبل الشيخ أكبر ، وإذا وازنت جبل الشيخ بجبال الألب ، فجبال الألب أكبر ، وإذا وازنت جبال الألب بجبال الهملايا فجبال الهملايا أكبر .

الكبير يقابله الصغير . . إنسان ضارب آلة كاتبة في دائرة لابأس به فهو موظف ، لكنه أمام المدير العام هو صغير ، والمدير العام أمام الوزير هو صغير ، هناك مراتب في السُّلطة ، يوجد موظف عنده صلاحيات وموظف صلاحياته أكبر ، معلم الصف أمام المدير صغير ، مدير المدرسة أمام مدير التربية صغير ، لأنَّ مدير التربية يُسيطر على محافظة بأكملها ، ومدير التربية أمام وزير التربية صغير ، الكبير ما يُقابل الصغير .

إنسان يملك مئة ألف ، أمام صاحب المليون صغير ، ومبلغ المليون أمام المئة مليون صغير ، ومبلغ مئة المليون أمام الألف مليون صغير ، فالكبير ما قابله الصغير ، هذا هوالمعنى الأول ، لكن لا يستقيم هذا المعنى في ذات الله عز وجل ، لأنَّ الله عز وجل تعالى عن المقدار والحجمية ، ليس له مقدار وليس له حجم ، الله مُنزّه عن أن يكون له حيز أو جهة أو مقدار أو حجم ؛ ليس بمتجزِّىء ولا مُتبعِّض ولا بِمُتناهٍ ، وكل ما خطر ببالك فالله بِخلاف ذلك .

إذاً : ما معنى الكبير في حق الله عز وجل ، قالوا : هناك الكبير في الدرجات العقلية ، فمثلاً قد تلتقط صورة لمجموعة أشخاص ، وقد يكون أقوى إنسان بهذه الدائرة ، أو أقوى إنسان بهذه المجموعة ، وزنه خمسة وخمسون كيلواً ، وإلى جانبه معاونه ووزنه مئة وثلاثون كيلواً فأيهما الكبير ؟ الصغير بحجمه هو الكبير ، الأقوى يُعين ، إذاً عندنا كبير بحسب الحجم وبحسب الوزن ، وعندنا كبير بحسب القوة وبحسب العلم ، فربنا عز وجل إذا قلنا : كبير ، تعالى عن أن يكون له حيز أو حجم أو مقدار ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى .

المعنى الثاني لكلمة كبير : يعني كبير بمعنى أنه كَبُرَ عن مشابهة المخلوقات ، يعني الله عز وجل أكبر من أن يشبه خلقه ، وأكبر من أن يشبهه أحد من خَلْقه ، كل ما يخطُر ببالك فالله بِخلاف ذلك ، كلمة كبير في حق الله عز وجل أنه ليس كمثله شيء ، هو أكبر من ذلك .

حينما صوروا بعض قصص الأنبياء لم يتمكنوا من أن يأتوا برجل ويجعلونه نبياً ، فليس هناك فتوى أساساً تجيز ذلك ، لماذا ؟ لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام أكبر وأعظم من أن يأتي إنسان ويمثل

دوره ، لذلك لا يمكن أن يظهر النبي في عمل فني ، لأنَّ الذي سيُمثلُه إنسان عادي ، والنبي أكبر من ذلك ، وأعظم من ذلك ، هنا معنى الكبير يعني مُنزّه عن أن يُشبه خلقه .

أما الأكبر ؛ فيعني أن الله عز وجل هو أكبر من كل خلقه ، وهنا شيءٌ بديهي ، لكنَّ الإنسان قد يتجه إلى بعض المخلوقين تعظيماً لهم ، فإذا أخبرناهم أن الله أكبر من هذا الذي تعبدونه أو تعظمونه من دون الله فليس القصد أن نقيم موازنة بين الله وبين خلقه ، ولكن القصد أن نصرف هذا الإنسان عن الشرك إلى التوحيد ، وعن الاتجاه إلى ما سِوى الله ونصرفه فقط إلى الاتجاه إلى الله عزَّ وجل ، وأن كل مَنْ دونه لا يوازن به ، فإذا ذكرنا معنى الكبير من هذه الزاوية فلِكيْ نُوحّد الله ولا نُشرك به شيئاً .

لكنَّ المعنى الآخر ، كلمة الأكبر ، يعني أكبر مما عرفت ، مهما تعرّفت إلى الله عز وجل فهو أكبر مما تظن ، مهما تخيّلت قدرة الله عز وجل فهي أكبر مما تخيلت ، مهما تصورت رحمة الله عز وجل فهو أكبر رحمة مما عرفت ، هذه كلمة « الله أكبر » .

لذلك فالنبي ﷺ أمر المصلي أن يقول الله أكبر ، أيْ : إذا أردت أن تصلي وساورتك وساوس وانشغلت بها ، فإلى أين أنت ذاهب ؟ الله أكبر ، فمثلاً إذا الإنسان ـ فرضاً من باب التمثيل ـ دخل إلى غرفة وزير ، فإنّ رفعةَ منصبه ، وكِبَرَ شأنه يدعو مَن عنده إلى النظر إليه لا إلى سِواه ، أي أنه قلَّ ما تجد إنساناً في حضرة عظيم يتشاغل عنه بسبحة أو بجريدة أو بحاجة ، أو بنظر إلى أطراف الغرفة ، لكنَ الذي هو معروف أنك إذا كنت في حضرة إنسان له قيمة

فلا بُدَّ أن تتجه إليه ، فهذا معنى القول : « **الله أكبر** » أي : اتجه إلى الله عز وجل ، والمعنى الأدق من ذلك أكبر مما عرفت ، يعني كلما تعرَّفت إلى الله فهو أكبر ، وهو أعظم .

قال العلماء : « **حظ العبد من هذا الاسم أن يُجالس العلماء ، ويُصاحب الحكماء ، ويُخالط الكبراء** » .

هُنا الدِّقة ، أنت إنسانٌ لك شخصية ، هذه الشخصية لها خصائص ، لك علم ، لك مشاعر ، لك خبرات ، لك ذكريات ، لك تجارب ، فإذا صاحبت من هو دونك فهذا شيء ، وإذا صاحبت من هو في مستواك فذاك شيء آخر ، وإذا صاحبت من هو فوقك فذلك شيء ثالث .

التوجيه : « **جالس العلماء ، وصاحب الحكماء ، وخالط الكبراء** » ، لماذا لتقتبس منهم.. يعني أنت إذا صاحبت من هو في مستواك ليس في إمكانك أن تستفيد منه ، وليس في إمكانه أن يستفيد منك ، ندٌّ لِندٍّ ، لذلك ففي البلاغة عندنا دعاءٌ ، وعندنا التماس ، وعندنا أمرٌ ، فالدعاء يأتي بصيغة أمر ، والالتماس يأتي بصيغة أمر ، والأمر أمر أيضاً ، لكن إذا توجه الأمر من صغير إلى كبير فهو الدعاء ، وإذا توجه الأمر من شخص إلى نِدّه فهو الالتماس ، وإذا توجه الأمر من كبير إلى صغير فهو الأمر ، فأنت إذا صاحبت من هو في مستواك يمكن أن تُمضي معه وقتاً ممتعاً ، ولكن ربما لن تستفيد منه شيئاً ، تستمتع في الجلوس معه دون أن تستفيد منه ، لأنه في مستواك وأنت في مستواه ، خبراتكما مشتركة ، معلوماتكما مشتركة ، لكنك إذا صاحبت مَن هو فوقك في العلم أو في المعرفة أو في القدر

أو في الكمال ، أو في الخبرة في الحياة ، تستفيد منه ، ما دام الإنسان مجبولاً على حُب العظيم أو حُب الكبير ، إذاً عليك أن تُصاحب من تراه ثقةً وأهلاً لصحبتك فتستفيد من علمه تارةً ، ومن أدبه تارةً ، ومن خبرته تارةً ، ومن أسلوبه في الخطاب تارةً أخرى ، هذِهِ بعض التوجيهات بالنسبة لحظ العبد من هذا الاسم .

وقال المحققون : العلماءُ على ثلاثة أقسام ؛ العلماء بأحكام الله فقط فقيه متفوّق بالفِقه ، فأيُّ سؤالٍ طرحته عليه ، يجبْك : لقد ورد في حاشية كذا وفي المصنف الفلاني وفي الكتاب العلاني ، مَعَ الحكم الشرعي لهذا السؤال هذا اسمه عالم بأحكام شرع الله فقط ، إذاً هؤلاء العُلماء هم أصحاب الفتوى ، إذا أردت أن تستفتي في شيء فاذهب إليهم ، لأنهم متفوقون في معرفة أحكام الشريعة .

وهناك علماء بذات الله تعالى فقط ، يَعرف الله عز وجل ويعرف أسماءه الحُسنى ، يعرف صفاته الفُضلى ، يعرف عَظَمَةَ الله عزَّ وجل ، مُستقيمٌ على أمره ، مُقبلٌ عليه ، فهؤلاء الذين عَلِموا طرفاً عن ذات الله فقط هم الحُكماء ، إذاً هناك عُلماء وهناك حُكماء ، ولقد سبق أن قلت : من ازداد علماً ولم يزدَدْ هُدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً ، يعني نما علمه الشرعي ولم تنمُ معرفته بالله عز وجل ، ولم تَرقَ عبادته إلى المستوى المطلوب فقصّرَ في معرفة الله ، وفي طاعته وتفوق في الأحكام الشرعية ، من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً . لابُدَّ من أن تتحرك على خطين اثنين ، على خط معرفة الله ومعرفة أمره ، وما أكثر ما ذكرت وكررت وأنا أتحدّث أو أكتب في هذا الموضوع ، هناك عالِمٌ بالله ، وهناك عالِمٌ بأمره ، وهناك عالِمٌ بخلقه .

أما العلماء بخلق الله عز وجل فهم العلماء المشهورون في الفيزياء وفي الكيمياء والرياضيات والفلك والتاريخ وعِلم النفس وعِلم الاجتماع ، وفي هذه العلوم البحتة كالرياضيات التطبيقية كالكيمياء العضوية وما إلى ذلك .

العِلمُ بخلق الله شيء ، والعِلمُ بالله شيء ، والعِلمُ بأمره شيء ، وعلامة العِلمُ بأمره أنك تُجيب عن أيّ سؤال مُتعلّق بأمره ، وأما العِلمُ بذاته فعلامته طاعتك له ، حينما تعصي الله عز وجل فأنت لا تعرفه .

فالعلماء هُم الذين عرفوا الأحكام الشرعية ، وهم الذين يُقْصَدون في الفتوى ، والحُكماء هم الذين عرفوا الله عزَّ وجل ، وعلامة معرفتهم لله طاعتهم له وإقبالهم عليه ، ووصولهم إليه ، أما أجمل ما في الموضوع فهو قول العلماء : إنّ الكبراء هم الذين عرفوا أحكام الله ؛ الأحكام الشرعية وعرفوا ذاته العليّة ، هؤلاء الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة ، هؤلاء هم الكبراء .

أَخْبَرَنَا زَيْدٌ الْعَمِّيُّ عَنْ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ اعْمَلْ بِعِلْمِكَ ، وَأَعْطِ فَضْلَ مَالِكَ ، وَاحْبِسِ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَدِيثِ يَنْفَعُكَ عِنْدَ رَبِّكَ ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ إِنَّ الَّذِي عَلِمْتَ ثُمَّ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ قَاطِعٌ حُجَّتَكَ وَمَعْذِرَتَكَ عِنْدِ رَبِّكَ إِذَا لَقِيتَهُ ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ إِنَّ الَّذِي أُمِرْتَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ لَيَشْغَلُكَ عَمَّا نُهِيتَ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ لا تَكُونَنَّ قَوِيًّا فِي عَمَلِ غَيْرِكَ ضَعِيفًا فِي عَمَلِ نَفْسِكَ ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ لا يَشْغَلَنَّكَ الَّذِي لِغَيْرِكَ عَنِ الَّذِي لَكَ ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَزَاحِمْهُمْ وَاسْتَمِعْ مِنْهُمْ وَدَعْ

مُنَازَعَتَهُمْ ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ عَظِّمِ الْعُلَمَاءَ لِعِلْمِهِمْ ، وَصَغِّرِ الْجُهَّالَ لِجَهْلِهِمْ وَلا تُبَاعِدْهُمْ وَقَرِّبْهُمْ وَعَلِّمْهُمْ » . [سنن الدارمي] .

الكبير من الناس هو الذي عرف الله حقَّ المعرفة ، وأقبل عليه حقَّ الإقبال ، وعرف أحكامه التكليفية حقَّ المعرفة ، فقد حصَّل المجد من طرفيه ، إنك إذا رأيت عالِماً بالله ومعلوماتُه في الشريعة ضعيفةً قد لا تُعجب به ، وإن رأيت عالماً في الشريعة ومعرفته بالله لا تعجبك قد لا تُعجب به ، لكنك إن رأيت من يجمع بين العِلم بالله والعِلم بأحكام الشريعة فهذا الكبير في تعبير النبي عليه الصلاة والسلام ، وقديماً قالوا : من تفقّه ولم يتحقق ، فقد تفسّق ، ومن تحقق ولم يتفقه فقد تزنّدق .

يعني إذا تركت عِلمَ الشريعة جانباً ، ولم تستقم عقيدتك ، واعتمدت على التأمُّل فقط ربما نطقت بما هو زندقة أو بما يشبه الزندقة ، وإذا تعرّفت إلى أمر الله فقط ولم تعرف عظمته فربما خالفت أمره .

فنحنُ بين أُنموذجين ، أُنموذج أتقن أحكام الشريعة وغَفَلَ عن أحكام الحقيقة ، ونموذج عَرَفَ الحقيقة وما عَرَفَ الشريعة ، لكنّ الكبراء هم الذين عرفوا الحقيقة والشريعة ، تحققوا وتفقّهوا ، عرفوا أحكام الله التكليفية ، وعرفوا ذاته العليّة ، فهذا حظ العبد من هذا الاسم ، وللفائدة أرجو العودة إلى الأثر السالف الذكر .

وجدير بنا أنْ نقف في مطالعة هذا الاسم عند : « **العظيم الكبير** » ، إنّه ذو الكبرياء ، والكبرياء عبارة عن كمال الذات ، وكمال الذات أي كمال الوجود ، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين اثنين ،

دوامه أزلاً وأبداً ، فكل وجود يسبقه عدم ليس كاملاً ، وكل وجود ينتهي إلى عدم ليس كاملاً ، نحن كما نُسمَّى في علم التوحيد (حادث) لأنه سبقنا عدم ، وسيأتي بعدنا العدم ، كل شيء هالك إلا وجهه ، فالكبير ذو الكبرياء ، والكبرياء كمال الذات ، وكمال الذات هي كمال الوجود ، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين ؛ دوامه أزلاً وأبداً ، أمّا الثاني فوجوده ذاتي ، وسبب كل وجود ، أما وجود مخلوقاته فليس ذاتياً ، وجود مخلوقاته متوقف على مشيئته ، كُنْ فيكون ، زُلْ فيزول ، ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكُنْ .

وبعد ، فالوقوف عند هذا الاسم على مخلوقاته يجلِّي الأمر واضحاً ، وهو مما يعين على فهم البحث : فمن تطبيقات هذا الاسم على العباد القول مثلاً : فُلان كبير ، الحقيقة هنا معنى دقيق الدلالة جداً ، فكلمة « كبير » إذا وصف بها الإنسان ليس الكامل في ذاته بل الذي تسري كمالاته إلى غيره يعني مُشعّاً ، هنالك عُنْصر خامل ، وعُنصر مُشعٌ ، وعُنصر فاعل وعُنصر منفعل ، من هو الكبير من الناس ، فمثلاً عالِم لكن ما عَلَّمَ أحداً ، كامل ما كَمَّلَ أحداً ، فهذا ليس كبيراً ، أما إذا كنت عالماً ووصَلَ علمُك إلى الآخرين فأنت كبير عند الله عزَّ وجل ، إذا كنت كاملاً وسرى كمالُك إلى الآخرين ، يعني تخلَّقوا بأخلاقك ، وتعلَّموا من علمك ، أيْ : إذا فاض الإناء على غيره فهو الكبير ، هذا معنى آخر من معاني الكبير من العباد .

إذاً الكبير الكامل في نفسه المُكمِّلُ لغيرِهِ ، العالِم في نفسه المعلم لغيره ، أنت إذا بقيت وحدك ولو كنت في أعلى مستوى لست كبيراً عند الله ، يعني باللغة الواقعية أناني ، أنت حصَّلت معرفة واكتفيت بها ، أنتَ نلتَ كمالاً واكتفيت به ، لكن أين كمالُكَ ؟ إنْ لم يسرِ هذا

الكمال إلى الآخرين ؟ لذلك الشيء الذي يلفت النظر أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر : ١-٣] .

« **تواصوا بالحق** » ، يعني أن هناك جزءاً كبيراً من نشاط المؤمن هو الدعوة إلى الله ، فمثلاً : رجل مؤمن إيماناً عالياً وزوجته جاهلة ، وزوجته عاصية ، ويقول : أنا لا علاقة لي بها ، هي وشأنها ، ألست مؤمناً ؟ وآخر يدعي الإيمان ولا يُعنى بأولاده ، ولا يهتم بإيمانهم ، ولا يهتم باستقامتهم ، شيءٌ لا يُصدق هو مؤمن إيماناً عالياً وله شريك لا يُصلي ، وشارد وتائه ، وترضى به ، وتسكت عنه ، ولا يُقلقك أمره ، إذاً : فلست عند الله كبيراً ، لن تكون عند الله كبيراً إلا إذا سرى عِلمُكَ ، وسرَتْ أخلاقُكَ ، وسرت دعوتُكَ إلى الآخرين ، هذا المعنى الذي ذكره بعضهم فيما تنطوي عليه كلمة كبير من العباد .

شيءٌ آخر مهم : هو أنَّ الله عز وجل حينما يراك تُعظِّمُهُ ولا تحفل بخلقه فأنت عنده مُقرّب ، لكنه إذا رآك ترتعد فرائصك أمام كل إنسان وتنسى الواحد الديّان ، تسعى إلى إرضاء الناس وتنسى رب الناس ، تخشى الناس ولا تخشى الله ، فأنت عند الله صغير .

وهذا شيء آخر : وهذه النقطة دقيقة الدلالة جداً ، أحياناً يكون الإنسان مسلماً وموحِّداً ، لكنه يخاف مما يخاف الناس دائماً ، ويقول : ما هذه الحياة كلها خوف ؟ إذاً هذا الذي يخاف وماله حرام ودخله حرام وأفعاله منحرفة لابد أن يخاف ، وله أن يخاف ، لكن المؤمن إذا ظنَّ أنَّ الله سيُعامِلُهُ كما يُعامِل أهل المعصية والفجور فقد

وقع في سوء الظن بالله عزَّ وجل ، أنت تقع في سوء الظن بالله إذا ظننت أن الله سيُعامل المؤمن كما يُعامل الفاسق ، وإني أقول : إذا خِفتَ أن تُعامَل كما يُعَامَل الفاسق الفاجر ، فهذا الخوف عقوبة لك على سوءِ ظنكَ بالله ، الله عزَّ وجل يُحبُّكَ أن تعتمد عليه ، يُحبُّكَ أن تثق به ، يُحبُّكَ أن تتوكل عليه ، كما يُحبُّكَ أن تعتز به .

اجعل بربك كل عز ... يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يمو ... ت فإن عزك ميت

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

يجب أن يُرافق الإيمانَ معنويات عالية ، يُرافق الإيمان ثِقة بالله عزَّ وجل ، يُرافق الإيمان شعور بالتفوق ، رأوا أحد أصحاب رسول الله ﷺ ، يمشي مشية كأنها مشية كِبر ، فقالوا : أَكِبْرٌ في الإسلام ؟ قال : لا هذا عِزُّ الطاعة ، أنت أحياناً حينما تُطيع الله عز وجل يجب أن تعتزَّ بطاعتك ،.. يقول : أنا لا أشرب الخمر لأن لديّ مغص من قرحة في المعدة ، لا ، بل يجب أن يقول : لا أشرب لأن هذا شراب مُحرّم في ديني.. هذا أكمل ، أتستحي بأمر الله عز وجل ؟ فهذا المسلم الذي يخاف الله عز وجل يذكر للناس ألف مسوغ ومسوغ لعدم شُربه الخمر ، على أنه مصاب بقرحة ونحو ذلك ، ولا يجرؤ أن يقول : هذا حَرّمَه الله عز وجل ، وأنا ملتزم ، فهو مهزوم ، ولكن إذا قلت : أنا لا أشرب لأن الله حرّمَ شُربَ الخمر ، وافعلوا ما تريدون انتهى الأمر ، ارتقيت في مدارج عزة الإيمان .

المقصود أن تعتزَّ بالله ، أن تَثِقَ به ، أن تعتمد عليه ، أن تتوكل

عليه ، هذا إذا كُنت تراه كبيراً ، هذا إذا كانت كلمتك (الله أكبر) حقيقة فأنت تقول : (الله أكبر) في الصلاة ، وتسمع الله أكبر كل يوم خمس مرات في الأذان ، وتقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، في كل حركة من حركات الصلاة الله أكبر ، لذلك ذكرت مراراً وأكدت على ما ذكرت إن الذي يقول : (الله أكبر) ويطيع مخلوقاً ويعصي خالِقَهُ فكأنه ما قالها ولا مرة ، ولو قالها بلسانه مئة ألف مرة ، إذا قُلت : (الله أكبر) وخشيت الناس ولم تَخشَ الله فما قُلت : الله أكبر ولا مرة ، إنّ الذي نسعى إليه ، أن نَدَعَ الشكليّات ، والكلمات الجوفاء والكلمات المستهلَكة ، وأن نعود إلى أصل الدين وإلى جوهر الدين ، مَن عصى خالِقَهُ ، وأرضى مخلوقاً فما قال : الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه مئة ألف مرة ، فإن أرضى زوجتَه مثلاً وعصى ربه ، فما قال : الله أكبر ، الحقيقة بلا مجاملة وبالكلمة الصريحة : إن رأيت رضاها أكبر عندك من رضاء الله عز وجل فلا حظ لك أبداً مما قلت ، وحينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك ، فقد رأيت رضاء هذا المخلوق أكبر عندك من رضاء الله ، وهذا واقع الكثيرين ، لكن حينما تقول : الله الكبير ، الله الغني ، ولا أفعل سوءاً ولو قُطِّعْتُ إرباً إرباً ، فالآن قلت : الله أكبر .

وها نحن الآن قد دخلنا في صميم البحث ، ودخلنا في التطبيق العملي ؛ فما جدوى أن تقول : الله هو الكبير والمتكبر والكبير المتعال والعليّ الكبير وذو الكبرياء ، والكبير الذي تعالى عن أن يشبه خلقه والكبير هو في الدرجات العقلية ، فما جدوى كل هذه المعلومات الدقيقة عن اسم الكبير ما دُمتَ تتجه إلى المخلوق وتنسى الخالق ، لذلك علامة المؤمن ألا تأخذه في الله لومةُ لائم ، ولا يرى

أحداً أكبر من الله ، وإذا قال الله أكبر فهو فعلاً أقوى الناس ، لأنك إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله ، لذلك هناك امتحانات دقيقة في الحياة ، خلاصتها أنّ الله عز وجل يضعُكَ أمام ظرفٍ صعب ، قد تُغلَقُ الأبواب كلها في وجهك ، يُفتح باب واحد ، باب معصية ، فإذا قلت : ماذا أفعل لا حول لي ولا قوة ، وأرجو الله ألا يؤاخذني ، معنى ذلك رأيتَ حاجتك إلى هذا الشيء أكبر من رضوان الله تعالى ، ويجب أن تتذكر الآية التي قرآناها قبل قليل :

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

هل تعلمون ما سياق هذه الآيات ؟ الحديث عن الجنة ، يعني بعد أن ذَكَرَ الله لنا في القرآن الكريم الحديث عن الأشجار وعن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وعن أنهار اللبن وعن أنهار العسل المُصفّى وعن الحور العين وعن الوِلدان المخلدين ، وعن كلِّ ما في الجنة من مباهج قال : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : إذا كان الله راضياً عنك ، وإحساسك بهذا الرِّضا أكبر عندك من كل شيء ، فهذه أكبر غاية يسعى إليها المؤمن ويرجوها عند الله سبحانه .

وبعد فإن آخر ما يجب عليّ الإشارة إليه ؛ أقول : يعني إذا شعرت أن الله راضٍ عنك ، فهذا الشعور أكبر غاية تتحقق لك في الأرض ، كنتُ مرةً أقول ؛ حينما قال الله عزَّ وجل ، وحينما قرر في كتابه الكريم أنه رضي عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي

قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨] .

قلت عندها : والله ما في الأرض كلها لا في قديم الزمان ولا في حديثه ولا في المستقبل ، ولا في كل القارات ، ولا في شتى المجالات ولا في كل المناحي ، من مرتبة أعظم من أن يرضى الله عنك ، وما جدوى أن يرضي عنك المخلوقون جميعاً ولم يرض الله عنك!!! ؟

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية : ٢٤_٢٦] .

ما ينفعك أن يرضى الناس جميعاً عنك ، وما ينفعك أن تكون مُعظَّماً عِندَ الناس كلهم ، ولست عند الله عظيماً ؟ فرضا الناس إلى زوال ولكنّ رِضا الله باق أبداً .

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾

[الأنعام : ١٢٤]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] .

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] .

﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس : ٥٩_٦٥] .

ما قيمة الدنيا كلها لو أنك كنت تملك الدنيا بحذافيرها وليس لك

عند الله شأن ؟ سمعت عن شركة من الشركات الكبرى في العالم عندها فائض هي في حيرة من أمر توظيفه ؛ أربعة آلاف مليون دولار شركة سيارات ، فائضُها النقدي الذي لا تعرف كيف توظفه أربعة آلاف مليون ، لو أن الدنيا كلها لك ، لو أن هذه الشركة لك ، لو أنَّ القارات الخمس بما فيها من مصانع هي ملك لك ولم يكن الله عنك راضٍ فما قيمة الدنيا كلها ، كلامٌ دقيق .

أنت أيها المؤمن قد تكون من عامة الناس في الحياة الاجتماعية أنت إنسان عادي ، فإذا كُنتَ تعرف الله عز وجل وكان الله راضياً عنك ، أنت عند الله عظيم الشأن ، **« أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضاً من الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر على ذلك ، ثم نقد بيده فقال : عجلت منيته قلت بواكيه قل تراثه »** [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه] .

قد تكون طالباً ، قد تكون موظفاً في الدرجة العاشرة ، قد تكون مساعد كاتب ، قد تكون صاحب محل صغير مساحته متر بمتر ، لكنك تعرف الله ومُستقيم على أمره فأنت عند الله عظيم ، لذلك حينما قال أحد العارفين بالله : **« والله لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليها بالسيوف »** ، والله كلامه صحيح ، لو كشف الغطاء وعَلِم ملوك الأرض ما أنت فيه من مرتبة عليّة عِندَ الله لنافسوك وقاتلوك .

أمّا أهلُ الدنيا فهانَ أمرُ الله عليهم فهانوا على الله ، ترى حياته تافهة عند الله ، لم يُبالِ في أي أوديتها هلك ، تراه يموت ميتة سيئة بشعة حقيرة ، صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، يموت كالجيفة ،

يموت وهو يعصي الله ، يموت ولا يدري به أحد ، لكن المؤمن له عند الله شأنٌ كبير .

إذا تحدثتُ عن اسم الله الكبير فمن أجل أن نعرف الكبير ، ومن أجل أن نُطيعَه ، ومن أجل أن نكون عنده من المقرّبين ، ورأسُ القربى عند الله عزَّ وجل طاعته ، آخر كلمة أقولها في بحثي هذا ، قال عمر : يا سعد لا يغرَّنَّك أنه قد قيل : خال رسول الله ﷺ فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له .

طاعتك عند الله هي كل شيء ، وهي التي تُحدد مكانتك عند الله عزَّ وجل ، وأنت كمؤمن ، وتعلم أن الله كبير ، يجب أن تعتزَّ بالله عز وجل وأن تثق بالله وأن توقن بأن لك معاملةً خاصّة ، لقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

* * *

البَدِيعُ

الاسم هو « البديع » وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

[البقرة : ١١٧]

والبديع : على وزن فعيل بمعنى مُفعِل ؛ أي مُبدع السموات والأرض ، والإبداع : أن تصنع شيئاً على غير مثالٍ سابق ، ودون أن تتلقى من أحد معلومة ما ، وإذا أردنا أن نبحث فيما يصنعه الإنسان ، فإنه من حيث يريد أو لا يريد ، من حيث يشعر أو لا يشعر ؛ إنه يقلِّد ، فإذا قال صنعت غواصة ؛ فلا شك أنها تقليد غير ناجح للسمكة . وإذا صنع طائرة ؛ فلا شك أنه تقليد غير ناجح للطائر .

وقد وقع تحت يَديّ كتابٌ موسوعيّ عن الطيور ، وفي مقدمة الكتاب يقول المؤلف : إنّ أرقى طائرة صُنِعت حتى اليوم ؛ لا ترقى إلى مستوى الطائر ، فالطائرة تقليد للطائر ، والغواصة تقليد للسمكة ، وأيُّ شيء صنعه الإنسان لو دققت فيه لرأيته قد قلّد به شيئاً مما في الطبيعة من إبداع الله تعالى ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الكون على غير مثال سابق ؛ فمَن قال : إنَّ الأرض ينبغي أن تكون كُرة ؟ ومن

قال إنَّ الأرض ينبغي أن تدور حول نفسها ، وأن تدور حول الشمس ؟ ومن خلق الضوء ؟ من جعل الشمس منبعاً حرارياً وضوئياً ؟ من أعطى الماء صفاته وخصائصه ؟ ومن أعطى الهواء صفاته وخصائصه ؟ من أعطى كل عنصر خصائصه ؟ لو أنّ العناصر كلها تذوب في درجة واحدة ؛ أي تنصهر في درجة واحدة ، لرأيت الكون كله غازاً ، أو صلباً ، أو مائعاً ؛ فلَوْ أنَّ هذا الكون ، وما فيه من مجرات ، ومن كازارات ، ومن مذنبات ، ومن كواكب ، ومن نجوم ، بعدده ومسافاته البينيّة وحركته المتوازنة ، مثلاً : على مرأى من الخلق كلهم ، أوراقُ الأشجار ؛ هل تعتقد أنه في الإمكان أن ترسم لنا ورقةً ليس لها أصل في الكون ؟ أوراق كبيرة وصغيرة ، مسننة وملساء وخشنة ، انسيابية ومخططة ، ذات لون داكن ولون فاقع وألوان متداخلة ، لو أردت أن ترسم أنواع الأوراق التي خلقها الله عز وجل ، بل إنّ أوراق أيّةِ شجرة واحدة هل تتشابه ؟ واللهِ يارب لو تشابهت ورقتا زيتون لما سُمّيتَ الواسع ، هذا ما قاله أحد العارفين .

ومثلاً آخر : وجوه البشر ؟! أنا أضرب أمثلة كثيرة ، هل في الأرض كلها والتي يعيش ستة آلاف مليون إنسان على وجهها ، هل في الأرض كلها وجه إنسان مشابه لوجه إنسان آخر ؟ مستحيل ، والشيء الثابت الآن أنَّ لِكُل إنسان رائحة خاصة ؛ وهذه الرائحة هي أساس معرفة الكلاب البوليسيّة للمُجرم ، الإنسان له رائحة واحدة تميزه من غيره ، ولا يتفق اثنان في رائحة جسميهما . الجلد له رائحة عطرية ؛ لكل إنسان رائحة خاصة به . ولِكُل إنسان إيقاع صوتي خاص به كم موجة ؟ ولِكُل إنسان قزحية خاصة به . ولِكُل إنسان بصمة خاصة به . ولِكُل إنسان تركيب دم خاص به « البلازما » ؛ بل

إنّ أحدث البحوث أنّ هناك ما يسمى بالزُّمر النسيجية ؛ يعني نسيج الإنسان خاص به فكما أن الدم زُمرٌ زُمر ، ولكن زمر الدم محدودة ؛ في حين أن الزُّمر النسيجية غير محدودة ، حتى الآن وصلوا إلى اثنين ونصف مليار زُمرة يعني لا يُشبِهُكَ في الكون كله إلا إنسانٌ واحدٌ وقد يكتشفون بعد حين أنّ كل إنسان له زُمرة نسيجية واحدة ، هذا الذي يدعو علماء الطب إلى تفسير ظاهرة أنّ هذا الجسم رفض هذه الكُلْية ، أن هذا الجسم رفض هذا العضو لاختلاف الزُّمر النسيجية ، أليس هذا إبداعاً ؟ .

إنّه إبداعٌ لا حدود له ، أما الإنسان لو أراد مثلاً أن يرسم وجهاً ، فلو كلّفنا رسَّاماً أن يرسم وجهاً يرسم وجه اثنين. . ثلاثة مختلفة بعضها عن بعض ، وبعد ذلك ينضب الإبداع من ذهنه ، وتأتي رسوماته متشابهة ، ومهندسو السيارات يصممون أشكال السيارات ، مرة خطوط منحنية ، مرةً خطوط متعامدة ، مرةً خطوط انسيابية ، وبعد حين يعودون إلى الشكل السابق فإبداعهم ينضب ، أما الله سبحانه وتعالى بديع السموات والأرض فهو واسع حكيم .

أضرب بعض الأمثلة : وجهُ الإنسان ، ولون قزحية عينه ، ورائحة جلده ، وتركيب دمه ، ونبرة صوته ، وبصمة إبهامه هذه كُلُّها هويات شخصيّة . فيما قبل كنا نعتقد أن البصمة وحدها هوية الإنسان ، الآن أشياء كثيرة في الإنسان يتميّز بها من غيره فالله سبحانه وتعالى بديع السموات والأرض .

شيءٌ آخر هام جداً ، لو أنك اطّلعت على أنواع الأسماك التي في البحار ؛ لو تصفحت كتاباً مصوراً فيه أنواع الأسماك ، لأخذَك العَجَب العُجاب . فحتى الآن الإحصائيات بالنسبة للأسماك تفيد وجود مليون

نوع من السمك ، وأيُّ شكل يخطر في بالك موجود ، سمكة على شكل كرة موجودة ، على شكل سيف موجودة ، شفافة موجودة ، فسفورية موجودة لها أهداب موجودة ، لها أرجل موجودة ، سمكة على شكل مزهرية موجودة ، سمكة تدافع عن نفسها بأن تفرز مادة كالحبر تخفي وجودها موجودة ، سمكة تحارب أعداءها بالكهرباء بآلاف الفولطات موجودة ، حيتان كبيرة موجودة ، وأسماك صغيرة للزينة موجودة ، لو أردت أن تقف عند تنوّع الأسماك فشيء لا ينتهي ، لا يُعدُّ ولا يُحصى . لو أردت أن تقف عند أنواع الطيور ؛ فأشكالها ، وأصنافها ، وأنواعها ، وسلالاتها شيء يأخذ بالألباب . أنواع الألوان ، أنواع الورود ، وقد أطلعني أحد الأصدقاء على كتاب مؤلف من ثمانية عشر مجلداً كل مجلّد سماكتهُ لا تقلّ عن ثمانية سنتمتر ، وكل ورقة مخصصة لنوع من أنواع الأبصال كل هذا المجلد لأنواع الأبصال فقط بعضهم يقول : هناك ثلاثة آلاف نوع من أنواع القمح ، وقرب مدينة دوما بمحافظة دمشق هناك مركز للبحوث الزراعية أطلعني مهندس أنّ في هذا المركز ثلاثمئة نوع من العنب . وما من فاكهة ، وما من خضرة ، وما من محصول ، وما من شجر مثمر إلا وهو مئات الأنواع بل آلاف الأنواع ، هذا كله يُجسِّد اسم البديع ، والأنواع لا تُحصى .

مرةً كنت في معرض للحشرات بالقاهرة وهو بناء ضخم مؤلف من مجموعة قاعات ، في كل غرفة وعلى الأربعة الجدران تُبتت حشرات مصبّرة ، وليس هناك حشرة مثل أختها ، ولا فراشة مثل أختها تنوع في الخلق لا يصدقه عقل ، هذا معنى قول الله عزّ وجل : ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

أوراق الأشجار ، أنواع الأشجار ، أنواع الأخشاب ، أنواع النباتات ، أنواع الروائح ، أنواع الأسماك ، أنواع الأطيار ، أنواع الفواكه ، ذرات الثلج ؛ لو أخذنا ذرّة الثلج وكبرناها تحت مجهر ، لرأينا شكلاً لا يُصدّق ، في منتهى الروعة ، وما من ذرة تُشبه أختها ؛ لو أخذت عيّنات من آلاف الأماكن التي هطل عليها الثلج ، كل ذرّة ثلج لها شكل خاص ، أليس هذا من فعل بديع السموات والأرض ؟

الحقيقة من معاني البديع ؛ من المعاني الأولى أنَّه بديع في ذاته ومعنى بديع في ذاته ؛ أيْ لا يُشبهه شيء ، أو ليس كمثله شيء ، بديع في ذاته ليس كمثله شيء ، وبديع في خلقه ، فهو خلَق الخلق على غير شكل ، وعلى غير مثال سابق ، ودون أن يُعلِّمُهُ أحد . وبديع في أفعاله فالإنسان أحياناً يأخذ احتياطات جمّة لكن يُفاجأ بتصرف لم يكُن في الحُسبان ، فالبديع إذاً اسمٌ من أسماء الله ، اسم لِذاتِهِ واسمٌ لِصفاته واسمٌ لأفعاله .

التعاريف الدقيقة لهذا الاسم : مَن فعل فعْلاً لم يُسبق إليه قيل له : أبدع ، وسُمِّيت البِدعة بدعة لأنها لا أصل لها في الدين ، وقد نقف وقفةً متأنية عِندَ البِدعة .

البِدعة لها معنيان : معنىً لغوي ، ومعنىً شرعي ؛ فالمعنى اللغوي كل شيء جديد اسمه بِدعة ، والمعنى الشرعي ؛ من أحدث في الدين ما ليس فيه فهو مُبتدع : من ابتدع شيئاً يُيَسِّر على المصلين صلاتهم فهو شيءٌ جيّد ، فنقلُ الصوت بدعة ، لكنها تعطي خدمات جُلى لرواد المساجد .

مثلاً تدفئة المكان تدفئةً مركزيةً لم تكن من قبل هذه بِدعة ،

تكييف المكان لم يكن من قبل هذه بِدعة ، فهناك بِدعة حسنة ؛ حينما تُقدّم شيئاً مريحاً جيداً ، يَحُل بعض مشكلات المجتمع ، دون أن يُخالف نصاً شرعياً فهذه بِدعة حسنة . وأما البِدعة السيئة فهي التي خالفت أمراً محرّماً فالبِدعة اللغوية قد تكون صالحةً ، وقد تكون طالحةً ، وقد تكون حياديةً وقد تكون موقوفةً . ما معنى صالحة ؟ ما معنى طالحة ؟ مامعنى حيادية ؟ وما معنى موقوفة ؟ البِدعة الموقوفة جهازٌ قد يُستخدم استخداماً جيداً ، وقد يُستخدم استخداماً سيّئاً ؛ فمثلا لو أنَّك اقتنيت آلة تصوير وصوَّرت بها بعض المناظر الطبيعية ، كبعض أنواع الأشجار ، وكنت جغرافياً ، وصورت بعض أنواع الخُلْجان ، وأنواع الجُزر ، وألَّفت كتاباً ووضعته بين أيدي الطلاب ؛ فهذه الآلة استخدمتها في نقل مظاهر الطبيعة إلى كتب مدرسية ، فهذه الآلة استخدمتها استخداماً مشروعاً ؛ فهي بدعة لكنَّ استخدامها الجيّد جعلها مقبولة ، ولو أنك صوّرت بها مناظر لا تُرضي بها الله عزّ وجلّ وطبعتها وروّجتها ؛ فهذا شيءٌ مُحرّم .

فإذاً هذه الآلة صالحة أو طالحة ، وهذا موقوف على نوع استعمالها . وهناك بِدعة حيادية ؛ لو اخترعت صنفاً من الطعام ؛ لو أضفت بعض التوابل إلى بعض المطعومات ، وجعلت منه طبقاً لم يُصنع من قبل هذا لا حرام ، ولا حلال ؛ مُباح ، بِدعة مُباحة . والبِدعة المُحرّمة إذا اصطدمت مع نصٍ شرعيّ ، وهذا كُلُّهُ متعلّق في البِدعة اللغوية ؛ يعني شيءٌ جديد لم يكن من قبل ، أقرب مثل أضربه دائماً ؛ أن يجلس العريس يوم عرسه على كرسي إلى جانب زوجته أمام المدعوات ، الكاسيات العاريات ، المائلات ، المُميلات وهو مُسلم ؛ مُسلم يجلس أمام جمعٍ غفير من النساء الكاسيات العاريات

المائلات المُميلات بحكم التقليد والعادة والضرورة ، هذه بِدعة مُحرّمة ، لأنها اصطدمت مع تحريم إطلاق البصر ، ومع تحريم إبداء الزينة ، أما إذا وفَّر إنسانٌ لِرواد المسجد مايريحهم ؛ ولم يكن على عهد النبي ﷺ كماءٍ ساخن في الشتاء ، وماءٍ بارد في الصيف ، فلم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم جامع مكيّف ، ولا جامع مدفّأ تدفئةً مركزيةً ، ولم يكن هذا الأثاث المريح ، فهذه بِدعة ؛ لكنها صالحة تقدم خدمات لرواد المساجد .

افترض لو أنه اخترع جهازاً يحلُّ بعض المشكلات في بيتك لا علاقة له بالحرام والحلال هذه بِدعة ، لكنها بِدعة حسنة ، أمّا أن يقف الزوج أمام المدعوات فهذه بِدعة سيئة ، إذاً هناك بِدعة موقوفة على نوع استعمالها ، وهناك بدعة مباحة ، وهناك بِدعة حياديّة لا علاقة لها بالحلال والحرام .

والخلاصة أنّ عندنا بِدعة موقوفة ، وعندنا بِدعة محرمة ، وبِدعة حسنة هذه البِدعة اللغوية ؛ ولكن دققوا في (لكن)! (لكن) إنّ البِدعة في الدين حرام مئةً في المئة لماذا ؟ لأنّ الله عزّ وجلّ حينما قال :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

الدين تام وكامل ؛ والتمام من حيث العدد ، والكمال من حيث النوع . يعني عدد القضايا التي عالجها الدين تام ، ولا يقبل الدين موضوعاً جديداً ، وطريقة المعالجة التي عالجها الدين طريقة كاملة ، ولا يقبل الدين تعديلاً طفيفاً لطريقة المعالجة من قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فإذا ابتدعنا في الدين شيئاً ؛ إنْ في العقيدة ، أو في العبادة ، أو في المُعاملة ، أو في الأخلاق ، أو في السلوك ؛ فهذا بِدعة محرّمة :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ : « مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلهُ فَلا هَادِيَ لَهُ ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ ، ثُمَّ يَقُولُ : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ ، وَعَلا صَوْتُهُ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ نَذِيرُ جَيْشٍ يَقُولُ : صَبَّحَكُمْ مَسَّاكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ أَوْ عَلَيَّ ، وَأَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ » . [رواه الترمذي وأحمد] .

كُلُّ مُحدثةٍ بِدعة ، وكُلُّ بِدعةٍ ضلالة ، وكُلُّ ضلالةٍ في النار ، إذاً لدينا شيءٌ مهم جداً وهو أن الأديان قد تزوّر ، المبادىء قد تزوّر ، المذاهب قد تزوّر ، ما الذي يضمن لي أنني أمام دين جاءني كما نزل ؟ فما الذي يضمن لي أن أتعامل مع دين هو الآن كما جاء في أوّل عهده ؟ أشياء ثلاثة : ألا يُضاف إليه شيءٌ ؛ وألا يُحذف منه شيءٌ ؛ وألا يُؤوّل تأويلاً ما أراده المشرّع ، إذا ألغيت التأويل الفاسد ، وألغيت إضافة البِدع ، وألغيت حذف الأصول ، فقد ضمنت أن يستمرّ الدين كما بدأ .

نحن كما تعلمون أيها القراء الكرام : إذا تحدثنا عن حظّ

العبد اسم الرحمن الرحيم ، فالعبد له حظ أن يكون رحيماً .

فحينما ندعو المؤمن أن يكون حليماً ، ورحيماً ، وعادلاً وعالماً ؛ هذه دعوة إلى التخلُّق بالكمال الإلهي ، ولكن في هذا الاسم بالذات الدعوة المعاكِسَة ، الدعوة ألا تكون مبتدعاً إن في عقيدتك ، وإن في عبادتك ، وإن في دعوتك ، وإن في سلوكك ، وحينما تبتدع شيئاً لابُد أن يكون هذا على حساب السنة تترك شيئاً ، وتأخذ شيئاً مكانه ؛ لأنّ المُسلم تَسَعَهُ السُّنّة ولا تستهويه البِدعة ، البِدعة كما قال العلماء : « **ما ليس لها أصل في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ﷺ ولا في إجماع الأمّة** » وهي « **طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه** » [الاعتصام ١/ ٢٤] ، فمثلاً دعوة إلى الله أساسها أن تأتي بسيخ وأن تطعن به جسمك ليخرج من الطرف الآخر ؛ فإذا فعلت هذا صدّق الناس دعوتك ؟ فهل فعل هذا النّبي ﷺ ؟ هل ورد هذا في القرآن الكريم ؟ هل ورد هذا في سنة النّبي ﷺ ؟ هل ورد هذا في سيَر الصحابة ؟ هل ورد هذا في إجماع الأئِمة ؟ لا ، إذاً هي بِدعة ، وهذه الطريقة في الدعوة إلى الله بِدعة يجب أن تُجتنب ، فالبِدعة ما ليس لها أصل في كتاب الله ، ولا في سُنّةِ رسوله ﷺ ، ولا في إجماع المؤمنين يقول الله عزّ وجل : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٣] .

إذا خالفت أمره ، وقعت في فتنة الابتداع ، وسيدنا الصديق رضي الله عنه يقول : « **إنما أنا متبع ولست بمبتدع** » ، ومما يعزى لأبي إلياس الألباني أنه قال : « **ثلاث لو كتبن في ظفر لوسعهن : اتبع**

لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، ومن ورع لا يتسع »[١] . البذخ والترف وإنفاق المال من دون جدوى ؛ هذا من صفة الكُفار ، لكنّ المؤمنين يقتصدون في كسب مالهم ، وفي إنفاق مالهم ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، ويقول الله عز وجل :

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور : ٥٤] .

والله عز وجل يقول في آية ثالثة :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

الأسوة الحسنة : أيْ : اتباع السُّنّة ؛ اقتدِ به في كل أطوار حياتك أي : طبّق سنته « مَنْ أَمَّرَ السُنةَ على نفسه قولاً وفعلاً ، ونَطَقَ بالحِكمة ، فقد اتَّبَعَ السُّنّة ، وجعل النّبي عليه الصلاة والسلام أسوةً له ، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبِدعة »[٢] . لذلك أصحاب البِدع يُقال لهم : أصحاب الأهواء ، إما أن تُحكِّم سُنّة النبي ﷺ في حياتك ، وإما أن تُحكِّم الهوى ؛ إذا حكَّمت الهوى ، أصبحت مُبتدعاً ، وخرجت عن طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذا حكَّمت السنة في أفعالِك وأقوالِك وسيرتك . فقد كنت مقتدياً بِهدي النّبي ﷺ .

روي أن أَنَس بن مَالِكٍ قال : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَدٍ فَافْعَلْ ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ » [رواه الترمذي] .

---

(١) الاعتصام ١/ ٦٩ .

(٢) من كلام أبي عثمان الحبري ، انظر [الاعتصام ١/ ٧٥] .

« فمن أحبَّ سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنّة » .

قال سهل التستري : أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق ، [الاعتصام ١/ ٧٤] . وحينما قال الله عزّ وجلّ :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران : ٤٨] .

الحِكمةُ : هي السُنّة ، يُعلِّمُه الكِتاب والحِكمة ، فالكتاب الأمر الإلهي ، أمّا السُنّة فهي كيف طبّق النّبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر الإلهي .

وقال بعضهم في قوله تعالى :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] .

ما هو العمل الصالح ؟ قال بعضهم : الاقتداء برسول الله ﷺ ؛ العمل الصالح هو أن تقتديَ برسول الله ﷺ . وروي عن رسول الله ﷺ قال : « عمل قليل في سُنّةٍ خير من اجتهاد كثير في بِدعةٍ » [مسند الفردوس للديلمي] عن ابن مسعود .

الله سبحانه وتعالى بديع السموات والأرض ، هو الذي خلق السموات والأرض على غير صورة سابقة ودون أن يعلّمه أحد ، ابتدع ذوات الأشياء ، وابتدع صفات الأشياء وابتدع خصائص الأشياء ، وابتدع أحجامها ، وأشكالها ، وألوانها وحركتها ، وسكونها ، وابتدع الإنسان ، وما حوله من حيوان ، وما حوله من نبات ، وأشكال لا تُعدّ ولا تُحصى ؛ من خلال تأمُّلِكَ لآيات الله في الكون ، تستنبط أن الله بديع السموات والأرض ، ويجب أن تعلم أيضاً أن الله سبحانه وتعالى واحدٌ في ذاته ، معنى البديع : يعني الذي لا مثيل له ، والذي

لا مُشابه له ، والذي ليس كمثله شيء ، ليس له مثل لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، ولا في خلقه .

ومن ثم فما حظّ العبد من هذا الاسم ؛ ألاّ يكون مُبتدعاً ، لكن هناك نقطة دقيقة جداً أتمنى أن نقف عندها قليلاً ، الإنسان مُكرّم عند الله عزَّ وجلّ ، ومن علامات تكريمه عند الله عزَّ وجلّ ؛ أنّه خلقه فرداً لا مُشابِه له ، وأنّه سَمَحَ له أن يكون مُشرّعاً عن طريق ماذا ؟ عن طريق الآيات ذات الطابع الاحتمالي أو الآيات الظنيّة الدلالة ؛ فالعلماء يجتهدون في فهم هذه الآية ذات الدلالة الظنيّة ، إذاً كأنّ الإنسان سُمح له أن يُشرّع ، أن يجتهد . أن يكون الإنسان مُجتهداً هذا من تكريم الله عزَّ وجلّ . وهو فردٌ لا مثيل له هذا من تكريم الله عزَّ وجلّ ، وأن يُعطى الإنسان حُريّة الإرادة وهذا تكريمٌ من الله عزَّ وجلّ ، ومن أنواع تكريم الله عزَّ وجلّ أنَّ طبيعة خلق الله عزَّ وجلّ ـ الآن دخلنا فيما له علاقة وشيجة بالبحث ـ طبيعة خلق الله عزّ وجلّ تُمكّن الإنسان من أن يُبدع في الخلق ، فالآن يُقال لك هذا النبات هجين ؛ مامعنى هجين ؟ يعني هناك مخابر مستواها رفيع جداً يأخذون نباتاً ذا خصائص معينة ويُزاوِجُونَه بنبات آخر له خصائص معينّة يُنتج نباتاً ثالثاً بخصائص تجمع خصائص النباتين ، ثمّ يزاوجونه بنبات آخر إلى أن يصلوا إلى أصناف نادرة جداً .

طريقة الخلق ، تسمح للإنسان أن يبتدع ، لقد سمعت أن هناك بقراً شامياً أصيلاً ، البقرة الشامية معروفة ، وهناك بقر هولندي ، من تهجين هذين النوعين وُلدَ صنف يعطي في اليوم ما يزيد على ستين كيلواً من الحليب! أليس هذا إبداعاً ؟ فالله عزَّ وجلّ فيما يخص موضوع الحيوانات ، موضوع النباتات أطلق يد الإنسان لتبدع ، فهناك

أشجار مقزّمة ، شجر أرزّ كبير مقزّم في أصيص صغير ، الآن هُناك أشجار مثمرة مقزّمة ، الآن دخلت والقارىء الكريم في موضوع ؛ يتصل بموضوعنا من باب واحد ، أنَّ من تكريم الله لهذا الإنسان أنْ مكّنهُ مِن أنْ يُبدع ، وهذا في الخلق ، أمّا أن يبتدع في الدين ؛ فهذا محرّم . والدين توقيفي ، فالدين هو ما جاء به النّبي ﷺ ومن بعد وفاة النبي ﷺ انقطع الوحي .

فنحن مسموح لنا أن نُبدع في الخلق ، وليس مسموحاً لنا أن نُبدع في الدين ؛ لأنَّ البِدعة في الدين هي ضلالة قولاً واحداً ؛ كل مُحدثةٍ بِدعة ، وكل بِدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . يقول عليه الصّلاة والسّلام :

« مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا خَلَعَ رِبقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ » .

[رواه أحمد]

هل يوجد ابتداع هنا ؟ من خالف الجماعة شبراً ، هناك آية أخرى هي أصلٌ في إجماع المسلمين ، أتعرفونها ؟ هي قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

فمن خالف الجماعة شبراً ، فقد خَلعَ رِبقة الإسلام من عنقه . وقال ابن عبّاس : « **ما أتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعةً ، وأماتوا فيه سنّةً** » .

كلما جاءنا عام أُحدثت بِدعة وأُميتت سنّة ، إلى أن تصل إلى وقت ـ والعياذ بالله ـ كُلُّهُ بِدع وحقيقة الدين خافية على معظم النّاس . أحياناً تجد من يرقص بثياب فضفاضة والطرابيش على الرؤوس ، فهل

هذا من الدّين ؟! يموت شخص فيؤتى بفرقة الميلاوية! وعملها ، هذا رقص ، أحياناً نجد في مجالس الذّكر أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ابتداع في ابتداع ، أهكذا فعل النّبي عليه الصّلاة والسّلام ؟ أحياناً يصبح الدّين عند بعضهم أنغاماً ، وعند بعضهم رقصاً ، وعند بعضهم سلوكاً غريباً ، وعند بعضهم تمتمات ، وعند بعضهم خزعبلات ، أهذا هو الدّين ؟!

البطولة أن تتعرّف إلى الدّين من ينابيعه الأصيلة وهي القرآن والسنّة ؛ فأي شيء جاءنا عن غير هذا الطريق فهو بِدعة ، ولاشك أَنّ هذا العِلم دين ، فانظروا عمّن تأخذون دينكم ، ولينظر أحدكم أنه راجع إلى الله شاء أم أبى ، فليحذر .

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات : ٢٤] .

والسؤال عسير ، والموقف رهيب .

روي في بعض الأحاديث : « من مشى إلى صاحب بِدعة ليُوقِّره فقد أعان على هدم الإسلام » [الطبراني عن عبد الله بن بسر وسنده ضعيف] .

عَنْ أَيُّوبَ قَالَ : قَالَ أَبُو قِلابَةَ : « لا تُجَالِسُوا أَهْلَ الأَهْوَاءِ وَلا تُجَادِلُوهُمْ ، فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلالَتِهِمْ أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ »[1] .

لا تجالس أهل الأهواء المبتدعين الذّين أحدثوا في الدّين ماليس فيه ؛ لأنّ سيّدنا الصدّيق رضي الله عنه كما قال عمر رضي الله عنه :

« لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِمْ » .

[رواه البيهقي في الشُّعب موقوفاً]

(١) الاعتصام ١/ ٦٥ .

وقال ﷺ : **إن أمن الناس عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ، لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر** [رواه مسلم] .

ومع ذلك ماذا قال سيّدنا الصدّيق ؟ قال : في خطبته الأولى : **« لقد وُلّيت عليكم ولست بخيركم إنّما أنا متّبع ولست بمبتدع فإنْ أحسنت فأعينوني وإن أَسَأت فقوِّموني »** .

وكان أبو بكر يقول : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ .

إذاً ينبغي أن نتّبع النّبي عليه الصّلاة والسّلام ، ولْنُراقب سلوكنا ، فأيُّ بَدعة تأتينا يجب أن نسأل عن أصلها ؛ فإن لم يكن لها أصل فهي بِدعة مردودة لا نقبلها ، وقد قال بعض العلماء : **« من داهن مبتدعاً سلبه الله تعالى حلاوة السُّنَن »** ؛ أي شخص مُبتدع بعقيدته ، مُبتدع بسلوكه ، مُبتدع بعبادته ، حذف أشياء ، وأضاف أشياء ، وبالغ بأشياء ، وأخفى أشياء ، وصار مبتدعاً ، قال : **« من داهن مبتدعاً سَلبه الله تعالى حلاوة الإيمان »** ، بل إنّه من ضَحِكَ إلى مُبتدع ، نَزَعَ الله تعالى منه نور الإيمان مِن قلبه ، من ضَحِكَ له ، من جالسه ، من داهنه ، من صاحبه ، وقال : **« من استهان بأدب من آداب الإسلام ، عوقب بحرمان السنّة »** عن يحيى بن أبي كثير **« إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في طريق آخر »** .

إذاً نحن في كل أسماء الله الحسنى ؛ حظُّنا منها أن نتخلّق بالكمال الإلهي ، إلا في هذا الاسم حظُّنا منه ألا نبتدع في دينه شيئاً ، سمح لنا أن نبتدع في الزّراعة ، في النبات ، في الحيوان ، في خلط الألوان

أحياناً في صهر المعادن ، فمثلاً نحن بحاجة إلى معدن خفيف جداً متين جداً ممكن أن نصنع هذا المعدن من خلط بعض المعادن ، معدن خليط ، فهذه كلها ابتداع .

الإبـداع : اختـراع ، يعنـي أنَّ الله عـزَّ وجـلّ أعطـى الأشيـاء خصائص ، وسَمَحَ بالتّزاوج ، وسَمَحَ بالتفاعل والاندماج ، إذاً الإبداع في الصناعة والزراعة من فضل الله علينا ؛ مثلاً تقولون : هذا البطيخ الأناناس ، هذا بطيخ مُطعّم على نوع لم يكن من قبل ، لقد صار هناك تهجين ، عملية التهجين في النبات ، والحيوان ماهي في الحقيقة إلا نوع من الابتداع ، لكن الله عزَّ وجلّ لِوجود خصائص لكل نبات ولتصميم النبات بحيث يتزاوج سَمَحَ بالابتداع ، أمّا في التّشريع ، وفي الدين الابتداع كلّه حرام ، قال العلماء : « **من استهان بالفرائض قيّض الله له مبتدعاً يذكر عنده باطلاً فيُوقِع في قلبه شبهةً** » .

وختام المطاف :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فأنت قد تكون محقاً في تعاملك مع الأشخاص ، قد تقول عن شخص بأبسط عبارة : لعله غلطان ، لعله مُخطىء ، وأنا لا أتورّط معه ؛ فهذا شيء جميل ، لكنّك إذا ثَبَتَ لك نص عن الله عزَّ وجلّ ، فالله عزّ وجل كتابه حقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إذا ثَبتت لك عن النّبي ﷺ سُنّة صحيحة ؛ النّبي معصوم ، وأنت لك جهتان يُمكن أن تطمئنّ إليهما ؛ كتاب الله ، وسُنّة رسوله ﷺ . وما سِوى ذلك موقوف على موافقته لكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ .

كنت ولا زلت أضرب أمثلة دقيقة من أنّك أمام ثلاثة نصوص في حياتك ؛ لو امتدت بك الحياة قروناً طويلة فلن تتبدل ولن تتغير : أمام ثلاثة نصوص فقط ، نص لله عزَّ وجلّ كتابه ، ونص لرسوله ﷺ ، ونص لغير رسول الله ﷺ ؛ أي إنسان كان ، إذاً هناك نص لله خالق الكون وهو القرآن ، ونص لرسوله النّبي عليه الصّلاة والسّلام ، ونصّ لأي مخلوق بعد النّبي ﷺ ، عالم كبير ، مثقّف ، غير مثقّف ، شيخ ، عَلَم من أعلام الأُمّة ، أيُّ إنسان ليس النّبي ؛ فهو صنف ثالث . أنت مع القرآن ليس لك إلا أن تفهمه لأنّه قطعيُّ الثبوت ، ومع السُّنّة ليس لك إلا أن تتحقق من صحّتها ، لأنّ الحديث منه ما هو ظنّي الثبوت ، وليس لك إلاّ أن تفهمه ، ولكنّك فيما سِوى هذين النّصين ، ولِيكُن مَن يكن القائل ، فعليك أن تتحقق من صِحّته وأن تحاول فهمه كما أراد صاحبه ، وأن تُقيّمه بالكتاب والسُّنّة ، هذا هو الدّين هذا هو المقياس .

إذاً فهذا البحث قادنا إلى موضوع البِدع فنحن يجب أن نتوقّع أيّة بِدعة دخلت على الدّين في غفلة الزمان ونحذر كل الحذر ، أنت بحاجة إلى مقياس ، وبحاجة إلى مراجعة لكل معلوماتك ، ولكل خِبراتك ، وقياسه بالكتاب والسُّنّة .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون وفِّيْت بعض الشيء من مناقشة موضوع هذا الاسم وبيانه حقيقته .

وكخلاصة مُوجِزَةٍ للبحث أعود فأقول : لقد تحدثت في الصفحات السابقة عن اسم « البديع » فالله سبحانه وتعالى أبدع السموات والأرض جُملةً وتفصيلاً ، خصائص ماديّة خصائص معنويّة ، على غير

مثال سابق ، ودون تعليم من أحد ابتدع الكون كله ، وهو بديع ، أيْ : فرد في ذاته ، وفرد في صفاته ، وفرد في أفعاله ، وفرد في تشريعه ، والإنسان له أن يبتدع في الخلق ، في التصنيع ، وفي مجال الزراعة كذلك فيما سمح الله به أن يفعله ، ولكنه بالتأكيد ليس له أن يبتدع في التشريع ؛ لأنَّ كل مُحدثةٍ بِدعة ، وكُلَّ بِدعة ضلالة ، وكُلَّ ضلالة في النار ، وفرّقنا بينَ البِدعة بمعناها اللغوي ، والبدعة بمعناها الديني والتي يؤكدها قول النبي عليه الصلاة والسلام :

عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » . [رواه مسلم] .

وأمّا البِدعة في الدين فسواء أن تُحدث في العقيدة ، أو في العبادة ، أو في المعاملات ، أو في سُنن النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ما ليس فيها ؛ فهي محرمة قولاً واحداً .

* * *

الصَّبُورُ

الاسم هو الصبور .

بادىء ذي بدء هذا الاسم لم يرد في القرآن الكريم ، ولكنه ورد في السنة المطهرة ، في الحديث الشريف الذي يتحدث عن الأسماء الحسنى ، ولكنَّ دلالات هذا الاسم وردت كثيراً في القرآن الكريم ، فالصبور هو الذي لا يُعجّل بالعقوبة لِمَنْ عصاه فهو يُمهل ولا يُهمل ، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تتحدث عن مدلول هذا الاسم الذي ورد في السنة ، ولم يَرِدْ صراحةً في القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر : ٤٥] .

الإنسان أحياناً ، إذا تولى أمر عشرة أو أكثر ، فحينما يغضب منهم يتمنى أن يُنزل فيهم أشدَّ العقوبة ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فتأخير العقوبة هو مدلول اسم الصبور ، مرّت معنا آية من قبل وهي قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : ١٢٩] .

يعني كان لِزاماً أن ينزل الله بالعُصاة أشد العقاب ، وأن يُنهِيَهم ويبيدهم ، ولكنَّ كلمة سبقت من الله عز وجل هي التي تجعل العقوبة متأخرة . فما هي هذه الكلمة ؟ هي : إن رحمتي سبقت غضبي ، ماهذه الكلمة ؟ إن الله خلق الخلق ليرحمهم ، ما الذي يؤخر إنزال العقوبات الحاسمة ؟ هو رحمة الله عزّ وجل ؛ يعني كأن الله عزّ وجل يُعطي الناس فرصةً ليتوبوا ، يُعطيهم فرصةً ليرجعوا لِيُنيبوا ليصححوا ليستغفروا ؛ لذلك الله عز وجل قال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

فما دام الإنسان في استغفار فرحمة الله قريبة منه ومغفرته واسعة ، حيث إن القصد هو إصلاحه ، والقصد هو إسعاده ، والقصد هو إكرامه ، ولو أن القصد تطبيق القوانين لما ترك على ظهرها من دابة ، لو أن كل إنسان عصى الله عزّ وجل أنهاه الله عزّ وجل بعقوبة قاصمة ما ترك على ظهرها من دابة ، فتأخير العقاب مدلول اسم الصبور قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

وهذه آية أخرى تدل على مدلول الصبور قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] .

إذاً : هذه الآية الثانية تُفيد أن الصبور هو الذي يؤخر العقاب ،

ولكن يطالعنا هنا سؤال : هل يلتقي هذا الاسم مع اسم لله آخر ؟ يتشابهان ويلتقيان في الدلالة هذا جميل ؛ نعم : « **الحليم** » إذاً اسم الصبور يلتقي مع اسم الحليم وهذا حسن . فكيف يفترقان ؟ وهل يتطابق اسم الصبور مع اسم الحليم تطابقاً تاماً ؟ طبعاً لا ، إذاً يفترقان ، فكيف يفترقان ؟ دقق في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الله صبور ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

قالوا : المُذنِب أشدُّ أمناً مع الحليم منه مع الصبور ، أي أن الصبور من شأنه تأخير العقاب ، أما اسم الحليم فقد يلتقي مع اسم العفوّ ، لكنَّ إنزال العقاب قد يستدعي التريث ، أليس هناك حالات في الطب لابد من بتر عضو فاسد ؟ ولو كان الطبيب هو الأب ، ويجب أن تعلم أن الشيء الذي وقع لابُدَّ مِن أن يقع ، ولو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في الحِكمة ؛ الشيء الذي وقع لابُدَّ من أن يقع ، ووقوعه رحمةٌ وفضل وعدل ولطف وعفو وصبر ، لذلك أحياناً يتحدث ربنا عن ذاته فيستخدم ضمير الجمع :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

حينما يتحدث ربنا عز وجل عن ذاته يستخدم ضمير المفرد وأحياناً يستخدم ضمير الجمع :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه : ١٤] .

الله عزّ وجل له ذات وله أسماء ، فإذا تحدث بضمير المُفرد فهو

يتحدث عن ذاته ، وإذا تحدث بضمير الجمع فإنما هو يتحدث عن أسمائه ، ويجب أن تعلم علم يقين أن أسماء الله كلها حُسنى ، وكلها تشترك في أفعاله ، فأفعاله فيها رحمة وفيها عدالة وفيها قوة وفيها غِنىً وفيها عِزة وفيها جبروت وفيها من أسماء الله الحسُنى ما فيها .

آية ثالثة تؤكد مفهوم الصبر قوله تعالى :

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج : ٤٨] .

فالإنسان أحياناً يختل توازنه حينما يرى كافراً قوياً شديداً عتيداً مستعلياً يزداد قوة ومنعة وغنىً وسيطرةً ، وقد يسأل الإنسان نفسه : أين الله ؟ ربنا عزّ وجل بماذا يجيب عن هذا السؤال ؛ إذا رأيت الكافر يـزداد قـوةً وغِنـىً وسيطـرةً واستعـلاءً وجبـروتـاً ويتحـدى ويَسخَـر ويستهزىء فاذكر فرعون ، ألم يقل فرعون : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤] فأينَ الله ؟ بماذا أجاب الله عزّ وجل في القرآن الكريم عن هذا السؤال ؟ قال الله تعالى :

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران : ١٩٦ـ١٩٧] .

إجابة أخرى قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

جواب ثالث قوله تعالى :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

الله عزّ وجل ليسَ غافلاً ، فاللهُ عزّ وجل من أجل أن يكشف الإنسان على حقيقته يُملي له ، ويُعطي له من القوة ، ومن الشأن ، ومن الوجاهة ما يكشفه على حقيقته ، فهل الإنسان العاقل يطمئن إلى قوّته ؟ هل يطمئن إلى ماله الوفير ؟ هل يطمئن إلى مركزه القوي ؟ لا . أبداً ، العاقل يطمئن إلى طاعة الله ، يجب أن تطمئن حينما تُطيع الله عزّ وجل . أما إذا كُنت قوياً أو إذا كُنت غنياً أو إذا كُنت وجيهاً هذه أشياء تُسلَبُ في لحظة واحدة . عطاؤه عجيب ، وأخذه عجيب .

زارني طبيب وذكر لي قصة وقعت قبل يومَين من زيارته ، أن فتاة متخلفة عقلياً تأخر كلامها سنتين ، وفيها عِلّة في دماغها ، وهذه العِلّة ظهرت في مشيتها العرجاء ، تشكو من ضعف في أعصابها الحركية ومصدرها الدماغ ، وتشكو من تأخر في نُطقِها ، وهذه آفة مصدرها الدماغ ، ويكاد يكون الشفاء مستحيلاً ، قبل يومين أو ثلاثة كُسِرت رجلها ، فأُخذت إلى مستشفى العظام ، وأعطيت مخدراً لشدة الألم الذي انتابها حين تَجبير عظمها ، بعدما انتهت العملية انطلقت في الكلام ومشت مشياً طبيعياً فجاء أبوها وقال : ما هذا ؟ ما علاقة ما جرى لها بما صلح من نُطقِها ومن حركتها ؟ فالله على كل شيء قدير ، كسرُ هذه الرجل كان سبباً ، ولعلَّ هذا المخدر أيقظَ مكاناً في الدماغ كان في سبات ، فربُّنا عز وجل يُعطي ويدهش ، ويأخذ ويُدهش .

وإليك آيةً أخرى تدل على اسم الصبور قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٢ـ١٨٣] .

ذات يوم سألتُ أحد الإخوة المتخصصين عن كلمة متين ؛ فقال إن كلمة متين تستعمل في الفيزياء للتعبير عن مقاومة قُوى الشد ، والقساوة ، وتستعمل للتعبيرعن مقاومة قوى الضغط ، فالشيء الذي يتحمل قُوى الضغط يقال له : قاسٍ ، والشيء الذي يتحمل قُوى الشدّ يقال له : متين ، فما وجه العلاقة بين كيد الله عزّ وجل ومتانته ؟ قوله تعالى :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٣] .

فالإنسان لا يُمكن أن ينجو من قبضة الله ؛ كأن كيد الله حبل متين لا يُمكن أن ينقطع أبداً .

وهذه آية خامسة هي قوله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف : ٥٨] .

وبعد ، فهل مرَّ معنا في السيرة موقف بدا فيه صبر الله عزّ وجل واضحاً ؟ لعله في الحديبية عندما أبرم صُلح الحديبيّة ؟ حيثُ إنَّ الله عزّ وجل يعلم أن في كفار قريش رجالاً مؤمنين ، ونساءً مؤمنات ، يكتمون إيمانهم ، ولا يعلمهم المؤمنون ؛ فربنا عزّ وجل رحمةً بهم وتأخيراً للعقوبة عن الكفار ، أخَّرَ فتح مكة من أجلهم ، هذا من اسم الصبور . هو صبور ، وقد أمرنا بالصبر ، قال تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[الأحقاف : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

ما معنى :

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٧] .

هناك صبر لغير الله ؛ قد تكون إنساناً مستضعَفاً ولك عدو يُنكّل بك ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فأنت صابر لا لأنك صبور ، بل لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فليس هذا من الصبر الذي أمرنا الله تعالى به . إنّما الصبر أن تكون قادراً على أن تفعل شيئاً ولكن إيمانك بالله عزّ وجل يلجمك وتصبر ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ وأحياناً يتوهم الإنسان أن بإمكانه أن يصبر ، فإذا هو في بعض الحالات لا يصبر ، كان يبدو أن بإمكانه أن يصبر ، فإذا هو ينفجرّ كيف نحل هذه المشكلة ؟ قوله :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

أنت لا تصبر إلاّ إذا أعانك الله على الصبر ، فهل هناك آية يرتفع بها الصبر إلى أعلى مستوى ؟ نحن عندنا قاعدة ، وهي أن العطف يقتضي التجانس ؛ إذ لا تستطيع أن تقول : اشتريت بيتاً وملعقةً ، لعدم التناسب ، هذا ولقد جُمع الصبر مع الصلاة ، وجُمع الصبر مع الحظ العظيم ، وجُمع الصبر مع الجزاء بغير حساب ، وجُمع الصبر مع الحق .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾

[العصر : ٣]

وإذا قرأنا الآية التي وردت في آخر آل عمران فلعلنا نتبين شيئاً من ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فالصبر معروف ، أما المُصابرة فهي : أن تُعِينَ أخاك على الصبر ، لذلك قالوا : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك ، وكُن عوناً لأخيك على الشيطان ؛ أي أنت إذا أعنته وبيّنت له وخففت عنه مصابه ، وواسيتَه بمالك ؛ فلعلّ في ذلك معاونةً لأخيك على الصبر ، وقال موسى لقومه :

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ .

أما أوضح آية متعلقة بالصبر والتي معناها يُثلج الصدر فهي قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] .

هذه المصائب لمن ؟ للمؤمنين ، هذه المصائب للمؤمنين خاصة . . . لنبلونكم أيها المؤمنون بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، إذاً الصابر هو الذي يصبر على تربية الله له ، فما معنى أنك صابر ؟ يعني أن الله يُربيك وأنت تفهم عن الله عزّ وجل وتصبر ، إذاً من هو الصابر ؟ هو إنسان راشد مثلاً يجلس على كرسي طبيب الأسنان فيعلم علم يقين أنه مُتقِن

لصنعته ، وأنه عليم باختصاصه ، وأن بحوثاً عديدة اطلع عليها وأن أُناساً كثيرين أَثْنَوا عليه ، وأنه تعلَّم عِلماً صحيحاً ، وأن يده فيها مرونة كبيرة ، وعنده وسائل جيدة ، وأن كل ما يفعله بك طبيب الأسنان هو في صالح أسنانك ؛ لذلك ولو آلمك في بعض الأحيان فلابُدَّ أن تصبر ، فمن الذي يصبر إذاً ؟ هو الذي فهم على الطبيب ، وَثِقَ من علمه ومن خبرته ومن نصيحته ، وهو يتحمل معالجة هذا الطبيب لأسنانه ، هذا بشكل مُبسّط .

إذاً هناك إنسان صابر ، فنحن في واقع الحياة لدينا عِلل كثيرة ، وربنا عز وجل يتولى تربية هذه النفس ، لذلك فاقرأ الأثر التالي وتأمل : « **وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه** » .

النهاية السعيدة أن تصل إلى دار السلام بسلام ، النهاية الموفقة أن تقول من أعماق أعماقك : الحمد لله رب العالمين ، النهاية التي ليس بعدها ولا قبلها ؛ أن ترث جنة عرضها السموات والأرض ، إذاً فالصابر إنسان فَهِمَ عن الله عزّ وجل مراده .

تروي كتب السيرة أنّهُ بعد وفاة النبي ﷺ ، حدثت هناك اضطرابات وفتن وبدت بوادر رِدَّة ، رِدَّة كبيرة جداً ؛ بل أصبحت المدينة مهددة بالخطر والنبي ﷺ كان قد جهز جيشاً لفتح بلاد الشام أمَّر عليه أسامة ، ورأى أصحاب النبي ﷺ أنه من الحكمة ألا ينفذ أبو بكر الخليفة بعث أسامة ؛ لأن البلاد مقبلة على فتنة واضطرابات داخلية ،

أيُعقل أن تذرّ الاضطرابات قرنها ، ونرسل جيشاً لفتح الشام ؟ فهذا منطق غير مقبول ؛ فأصحاب النبي ﷺ اضطربوا وتمنوا على سيدنا الصديق ألا يرسل هذا الجيش ، وتهامسوا فيما بينهم ، وانتقل الخبر لسيدنا عمر ، فسيدنا عمر جاء لِيُبلّغ سيدنا الصديق هذه الرغبة وتَبَنَّاها ، ولكن سيدنا الصديق أراد أن يُربي الأصحاب تربيةً حاسمة ، فما كان منه إلا أن أمسك بلحية عمر وهزَّها هزاً شديداً وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ؛ أجبار في الجاهلية خوّار في الإسلام ؟! فلما رأى أصحاب النبي ما فعل الصديق بعمر ارتعدت فرائصهم ، وندموا على خواطرهم ، وانصاعوا لأمر سيدنا الصديق ، لماذا صبر سيدنا عمر على أخذ الصديق بلحيته وهَزَّها هزاً شديداً ، وقال له : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أجبار في الجاهلية خوّار في الاسلام ؟ لأنه فهِم عن سيدنا الصديق مراده البعيد .

ماذا قال ابن عطاء الله السكندري : « **إذا كَشَفَ الله لك حِكمته في المنْع عاد المنع عين العطاء** » ، فربما كان الإحسان من الله حِرماناً ، وربما كان المنع من الله إحساناً ، فمتى يصبر الإنسان ؟ من الذي يصبر ؟ الذي يعرف الله عزّ وجل ، أمّا الذي لا يعرف الله عزّ وجل فلا يصبر ، بل بالعكس يُزمجر ويتكلّم كلاماً سيئاً يُسجّل عليه ، علامةُ معرفتك بالله صبرُكَ على قضائه وقدره ، لكن كلَّ حسنةٍ بعشرِ أمثالها ، وكل شيء له حساب ، إلا أن الصابرين كما قال الله :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

فأما الصابرون فإنهم يوفُّون أجورهم بغير حساب ؛ فهذا المُحسن

حينما صبر كأن لسان حاله يقول يا رب : عالجني كما تُريد ، وأنا أصبر ، يا رب أنت ربي لا إله إلا أنت ، أنت وليّي في الدنيا والآخرة ، عالجني كما تريد أنا أصبر على معالجتك ، كأن لِسان حال الصابر يقول : يا رب أصبر في الدنيا ولا أصبر في الآخرة ، القضية في الدنيا مقبولة ، أما في الآخرة فالخزي لا يُحتمل ؛ والنبي عليه الصلاة والسلام قبَيل وفاته وقف بين أصحابه وخَطَبَ خُطبةً مؤثرةً :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِي الله عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : « **إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ** » ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا . [رواه البخاري] .

مثلاً لو طالبٌ سرق قلم حبر ، وكُشِفَ أمره أمام رفيقه فهذا شيء قد يهون ، أما إذا كُشِفَ أمره أمام طلاب الصف كلهم فهذا شيءٌ آخر فضيحة صارخة ، أما إذا كُشِفَ أمره في الباحة أمام ثلاثين شعبة فهذا شيءٌ أكبر وفضيحة تنتشر كالنار في الهشيم .

فضوح الدنيا أهون ، أنت ساكنٌ في مدينة ، في حي من الأحياء هناكَ من يعرفك وهم قِلّة ، أما على رؤوس الأشهاد إذ يقف هؤلاء الفُساق والفجارمواقف الخزي والعار :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا** » . [رواه مسلم وأحمد] .

قال له : يا أبا ذر إنها أمانة ، سيدنا أبو ذر قال : يا رسول الله

استعملني ـ أي اجعل لي وظيفة ـ ، قال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خِزيٌ وندامة .

فالصابر كأنه يقول : عالجْني يا رب قبل أن أموت ، يا رب لا تمتني حتى تطهرني من ذنوبي ومن عيوبي ومن أَدْراني ، فالإنسان العاقل يجتهد لتنقية نفسه من كل مرض ، لأن الله عز وجل يقول :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ـ٨٩] .

إذاً : إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب ، والآية التي تتحدث عن الصبر قوله تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

هذه معيّة خاصّة أم عامة ؟ إنها معيّة خاصّة ؛ لأنَّ المعيّة الخاصّة تعني التأييد والنصر والتوفيق والحِفظ ، حيثما وردت في القرآن الكريم معيّة خاصّة ، تعني التأييد والنصر والتوفيق والحفظ ، ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقال جلَّ شأنه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

مع الصابرين بالرعاية والحفظ والتأييد والتوفيق ، والله عزّ وجل يوفيهم أجورهم بغير حساب ، والله يُحبهم ويوفيهم أجرهم بغير حساب ، لماذا يُحبهم ؟ لأنهم قَبِلوا معالجته ، أحياناً أنسب شيء هو معالجة المرض من دون مخدّر ، أما إذا رفض هذا الإنسان وصاح وتكلم كلاماً قاسياً ، فإنه عندئذٍ يضطر الطبيب أن يسلك معه الطريق

الأطول الأخطرَ في العلاج ، ربنا عزّ وجل حينما يرى عبداً صابراً معنى ذلك أن هذا العبد قد رضي بمعالجة الله له ، وأن يستسلم لقضائه وقدره ، هذا هو معنى الصبر .

الصبر شيء عظيم ، والإنسان الغربي من شدة بُعدهِ عن الله يقف في حياته موقفين : إما أن ينال ما يصبو إليه ، وإما أن ينتحر ؛ فإذا فقد الشيء الذي يصبو إليه إضافةً إلى بُعده عن الله ، فإمّا أن ينال طِلبته ، وإمّا أن يصاب بأمراض نفسية إذا لم ينتحر ؛ أمراض الإحباطِ ، الكآبةِ السوداوية ، انفصام الشخصية ، هذه كلها أمراض نفسية ، أساسها إنسان تعرض لمصائب وهو لا يعرف الله عزّ وجل ، والأمراض النفسية أساسها عدم معرفة الله عزّ وجل .

إذاً الخلاصة بتمامها : إيّاك أن تصبر لغير الله ، فعندئذٍ ليس لك من أجر ، فمثلاً قد يُضايقك شخص قوي متسلط وأنت صابر ، فالله عزّ وجل يقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٢ـ٢٤] .

دخلتم الجنة ، ووصلتم إلى أعلى درجة يتمناها كل إنسان على وجه الأرض ، وصلتم إلى دار السلام ، إلى جنةٍ عرضُها السموات والأرض ، وصلتم إلى سعادة الأبد ، وصلتم إلى نعيم مُقيم ، وصلتم إلى دارٍ لا خروج منها ولا قلق فيها ، ولا مرض ، ولا منافسة ، ولا تحاسد ، ولا . . ، ومن بعد فهذه الجنة مهيأة لك ما ثمنُها ؟

قال ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ، صبركم كان ثمن الجنة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ، انظر إلى صبر المؤمن ، فالمؤمن دائماً في صبر ، على المَرَض صابر ، مشكلة في بيته صابر ، يُعامَل بقسوة صابر ، دَخْله قليل صابر ، مُنغِّصات في عمله صابر ، إنه يرى قدرة الله عزّ وجل والإنسان إذا كان بإمكانه أن يمنع عنه الأذى ولا يمنع عنه الأذى فهو عاصٍ ، وليس بصابر ، الصابر إذا كُنت لا تستطيع أن تُزيل عنك هذا الأذى ، الصبر عند استنفاذ الجُهد .

هناك قضية مزعجة وبإمكاني أن أعالجها ، فقد يقول قائل : هذا الأمر أو البلاء من قضاء الله وقدره ، فمن قال لك ذلك ؟ إن كان من قضاء الله وقدره فالحلّ يتم بقضاء الله وقدره كذلك .

فهذا سيدنا عمر عندما قدم إلى الشام أيام وجود الطاعون بها فامتنع عن دخولها فقيل له يا أمير المؤمنين : أَتفِرُّ من قضاء الله ؟ قال : نعم أفر من قضاء الله إلى قضاء الله ، وقال : لو كنتَ تملك قطيعاً من الغنم ، وهناك أرض مُجدِبة وأرض مُخصِبة ، أين سترعى غنمك ؟ إن رعَيْتها بالأرض المجدبة فبقضاء الله ، وإن رعيتها بالأرض المخصبة فبقضاء الله أنا أفِرُّ من أرضٍ مُجدبة بقضاء الله إلى أرضٍ مُخصِبة بقضاء الله ، هذا هوالتفكير العلمي ، فإذا أمكن علاج الابن عند طبيب فلا يجوز الاستسلام بِحُجّةِ أنه صابر ، لا ، بل نقول له : أنت مُقصّر ؛ إذ ليس هذا هو قضاء الله عزّ وجل ، فحينما لا تملك حيلةً فعندئذٍ أنت معذور .

ماذا روي عن النبي الكريم ﷺ في الطائف : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس** » ، لقد اجتهد حينما

خرج من مكة إلى الطائف لعلهم يؤمنون ، لكنه شكا قلة حيلته ، وأنت كونك إنساناً تقف أمام بعض الأمور عاجزاً ؛ لكن إذا أمكنك الحركة فيجب أن تتحرك ، إلا أنك حينما تفقد الحيلة يأتي دور الصبر ، إذاً الصبر يأتي حينما تنعدم الحيلة .

سيدنا عمر أشار إلى أن الصبر نِعمةٌ من نِعَم الله الكُبرى ، كان إذا أصابته مصيبة قال : « الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني ، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها ، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها » ، لأن الله عز وجل يقول :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٢٧] .

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ وإليك الآية الثانية أيها القارىء الكريم :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

سيدنا أيوب ثبتت فيه آيةٌ ـ سبحان الله ـ أَتذَوَّق منها الشيء الكثير ، لِمَ حدثنا ربنا على صبره قال في هذه الآية :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

[ص : ٤٤]

﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا﴾ ، أحيانا يبعث الله لك بلاءً ليَرَى موقفك .

على كُلِّ الإنسان ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا﴾ ، فالله يمتحن الإنسان يُتلف له شيئاً من حاجياته ، يُحبط له بعضاً من مساعيه ، لا تتحقق له بعض

غاياته ، هو تحت المراقبة! سيدنا أيوب ماذا كان وضعه ؟ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ أجمل موقف يقفه المؤمن حينما يتلقى خبراً سيئاً أن يقول : الحمد لله رب العالمين ، يا رب لك الحمد هذه حِكمتُك ، وهذا قضاؤك ، وهذا قدرك ، وأنا راضٍ بحِكمتك ، اللهم ألهمني الصبر ، هذا أعظم موقف يقفه المؤمن لاتظنَّنَّ أن الإنسان أيّاً كان لن يتعرض لمواقف فيها امتحان ، لكنه حينما يقول : الحمد لله فقد نجح .

الإيمان كله صبر يقال : « **الإيمان نصفان ؛ فنصف في الصبر ونصف في الشكر** » ، ثم إني وجدت حديثاً شافياً جداً : سئل : ما الإيمان ؟ قال : « **السماحة والصبر** » .

في الأساس الجنةُ لها ثمنٌ ، وثمنها أن الله عزّ وجل ركّبَ في الإنسان طبعاً ، وكل التكاليف عكس طبعه ، ركّبَ فيك حُبَّ المال وأمرك بإنفاق المال ، وركّبَ فيك حُبَّ الراحة ، وأمرك بصلاة قبل طلوع الشمس ، وركّبَ فيك فضولية في أخبار الناس ، وأمرك أن تسكت عن الغيبة والنميمة ، لو تتبعت أوامر الشرع لوجدت أنك لن تستطيع تطبيقها إلا إذا خالفت طبيعة نفسك ، إذاً الدين كله صبرٌ ، فمن هو الكافر ؟ هو إنسان ينساق مع شهواته ومع أهوائه ومع ميوله وحظوظه ومصالحه ، ومن هو المؤمن ؟ هو الذي عاكس هواه وشهوته وميوله وحظوظه وطبّقَ منهج ربه .

فإذا أردت أن تقول لي : الدين كله صبر ؟ ، أقول لك : نعم الإيمان هو الصبر والسماحة ، الصبر سَلْبي ، السماحة إيجابية ، أن تصبر عن المعصية ، وأن تصبر على الطاعة ، وأن تصبر على الأمر التكويني ثلاثة مناهل : صبر عن المعصية ، وصبر على الطاعة ،

وصبر على الأمرِ التكويني ، فلذلك من السذاجة أن تَظُنَّ أنَّ الفقير فقط عليه أن يصبر ، فمن قال لك هذا ؟ إذا كان صبر الفقير عن موضوع واحد فالغني أشد حاجةً إلى الصبر من الفقير ، لماذا ؟ لأنَّ الغني يمتلك خيارات كثيرة جداً لغناه وسعة دنياه ، مثلاً إذا قُلنا للضعيف : اصبر ، فالحقيقة أنّ القوي أشد حاجةً ألف مرة إلى الصبر من الضعيف ، لأنَّ الضعيف قدرته ضعيفة ، أما القوي فبإمكانه أن يفعل كل شيء ، لكنه إن خاف من الله عز وجل لم يفعل شيئاً ، فهذا الدليل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

[الأنبياء : ٣٥]

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ ﴾ ، بالخير أنت مُمتحَن ، بالمال مُمتحن ، بالقوة مُمتحَن بالشباب ، ولقد أمضيت أكثر من شهرين فيما أذكر في خُطب جامع النابلسي أعالج موضوع الصبر ؛ قد نمضي شهرين أو ثلاثة حول الصبر ، والنتيجة أن الدين كُلهُ صبر ، فمثلاً الشجاعة صبر ، لكن الهروب انسجام مع حب الحياة ، إن الجسم يحتاج إلى استلقاء وراحة ، جاء للبيت مساءً مُتعباً أكل ونام ، هكذا كثير من الناس ، أما المؤمن فعليه صلاة العشاء ؛ أكل وتوضأ وصلى الفرض والسُّنّة والوِتر فهذا صَبَر ثم نام ، في الساعة الواحدة ليلاً والفراش وثير ، والجو شتوي ، والفراش دافىء ، وغداً يومُ عطلة ؛ فسمع أذان الفجر ، الآن سيَصْبر على ترك الفراش ، وينهض للصلاة ، لو تتبعت الأمور فأنت مُمتحن في كل لحظة ، مرت امرأة جميلة وفي ثياب فاضحة أنتَ إذا نظرتَ إليها فقد انسجمت مع شهوتك إلى النساء ، أمّا إذا غضضت بصرك عنها غضاً حازماً فقد

عاكست شهوتك ، إذاً أنت صابر ، فما هو الصبر ؟ مخالفة شهوات النفس وأنت مُكلّف أن تصبر في كُل دقيقة .

قال بعض العارفين : إذا أقامك الله في مقام الشكر فكُنْ من الشاكرين ، وإذا أقامك في مقام الصبر فكُنْ من الصابرين ، المؤمن في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور ، بالذي له ، لا يأخذ ما ليس له في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور .

فأنتَ بينَ الشُّكر والصبر ، لابُدَّ من التنويه إلى أن المؤمن يجب أن يطلب من الله العافية ، وهذا مأخوذ من رسول الله ﷺ :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « **سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** » ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « **سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** » ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « **سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ فَإِذَا أُعْطِيتَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ** » . [رواه الترمذي] .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

وفي الطائف قال عليه الصلاة والسلام : « **إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي غير أن عافيتك أوسع لي** » .

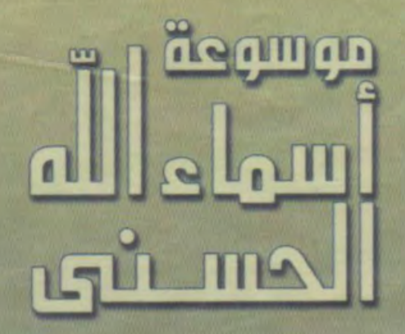
عزيزي القارىء : سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فإذا أُعطيت العافية في الدنيا وأُعطيتها في الآخرة فقد أفلحت وأنجحت إن شاء الله .

في ختام هذا البحث إن الله جل جلاله صبور على عباده ، وإن عَصَوْهُ ، وهو يوافق اسم الرحمن جلَّ جلاله ، قد وسِعت رحمته كل شيء في الدنيا والآخرة ، والله يقول الحق ، وهو يهدي إلى صراط مستقيم .

* * *

محتوى الجزء الأول

* * *



تعددت وتنوعت الكتب التي تشرح أسماء الله الحسنى قديماً وحديثاً ، وقد يجمع بينها التعاريف النظرية ، والأقيسة المنطقية ، والشروح المختصرة ، وبعض التطبيقات العملية .

والدكتور محمد راتب النابلسي في موسوعته هذه ، فضلاً عن نقله لما في كتب العلماء الأجلاء ، قديماً وحديثاً ، من شروح لأسماء الله الحسنى ، يسلك أسلوباً جديداً في شرحه لهذه الأسماء الحسنى ، يعتمد على آيات الله في الآفاق ، وعلى آيات الله في النفس البشرية ، ويعتمد على أفعال الله الدالة على ألوهيته ، ووحدانيته ، وكماله ، ويعتمد على ما في الكتاب والسنة من تعريفات وشروح لأسمائه جل جلاله ، بحيث تغدو آيات الله الكونية ، والتكوينية ، والقرآنية ، مضيئة وموضحة لهذه الأسماء .





سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب 31426 هاتف 33 84 224 فاكس 32 84 224
E-mail: almaktabi@mail.sy
WWW.almaktabi.com